
محمد عزة دروزة
تاريخ الجنس العربي
الجزء الثامن
المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

تاريخ الجنس العربي

في

مختلف الأطوار والأدوار والأقطار

تأليف

محمد عزة دروزة

الجزء الثامن

العروبة الصريحة في الاسلام
تحت راية الخلفاء الامويين

الطبعة الاولى

١٩٨٣ - ١٩٦٤

الناشر - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت

المطبعة العصرية للطباعة والنشر
صيدا - لبنان - تلفون ٧٢٠٦٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة اولى بين يدي الكتاب

●

لقد كنا ترسمنا ان يحتوي هذا الجزء تاريخ العرب الاسلامي تحت راية الامويين في الشام والاندلس .

ولقد كانت الدولة الاموية الشامية اعظم الدول العربية الجنس قبل الاسلام وبعده ومن اعظم دول الارض عامة في القديم والحديث من حيث الرقعة والسلطان . وقد جرى فيها احداث متنوعة وهامة جداً داخلية وخارجية وسياسية وغير سياسية . وكان لبعضها آثار بعيدة المدى في تاريخ العرب والاسلام . وكان بعضها وسيلة الى تشويه سيرة هذه الدولة وخلفائها ورجالاتها في الوقت نفسه . وكان بعضها مما كثر الكلام في خطأه وصوابه واثره وسيره وصحته وكذبه . فرأينا من واجبنا من الناحية القومية ومن الناحية العلمية التاريخية معاً ان نتوسع في عرض احداث واعمال هذه الدولة من مختلف النواحي من جهة ، وان نستقصي ماورد في صدد سيرة خلفائها وعظماء ولاتها وقوادها وما جرى في عهدهم من الاحداث الداخلية التي كانت وسيلة الى تشويه سيرتهم وسيرة الدولة بالتالي وان نمحصه وان نضع الامور فيه في نصابها الحق بقدر المستطاع من جهة اخرى ، فطال بنا النفس حتى استغرق الحيز الذي قدرناه لاخبار الامويين الشاميين والاندلسيين معاً بل وزاد عن معدل الجزئين السابقين مما جعلنا نقصر هذا الجزء على الامويين الشاميين ونفرد للامويين الاندلسيين ومن شغل محلهم بعدهم جزءاً مستقلا .

على اننا لا ندعي مع ذلك اننا اطلعنا على كل ما ورد في الكتب العربية واحطنا به او اننا اصبنا في كل قول .

فالاحاطة بكل الكتب والاطلاع عليها ليس بمقدور احد والعصمة لله وحده . ولقد بذلنا الجهد في سبيل القيام بذلك الواجب المزدوج مدفوعين بالشعور به وحسب دون هوى ولا جموح ولا تهيب . فان نكن حققنا ما قصدنا اليه فذلك من توفيق الله والا فالضعف البشري عذره . وفوق كل ذي علم عليم .

ولقد كتبنا في مطلع الجزء السادس نبذة في مصادر تاريخ الجنس العربي في الدور الاسلامي . وهي شاملة لتاريخ الامويين فلم نر ضرورة الى كتابة نبذة جديدة في مصادر هذا التاريخ . ومن الله نستمد العون والسداد .

شعبان ١٣٨٣

كانون اول ١٩٦٣

المؤلف

موجز فهرست فصول الكتاب [1]

---

(١) انظر الفهرست المفصل في آخر الجزء .

الفَصل الأول

سيرة الخلفاء الامويين

تمهيد في اسماء خلفاء بني امية وفي صدد خلافتهم

وما روي في ذلك وتعليق عليه

●

شرحنا في الجزء السابق كيفية استتباب السلطان العربي الاسلامي لمعاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه بتنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما له فلا نرى حاجة للاعـــادة . فكان ذلك بداية عهد الدولة العربية الكبرى التي كانت اعظم امبراطوريات الجنس العربي اتساع رقعة وانبساط سلطان .

وقد امتد عمرها نحو تسعين عاماً . ولي خلالها اربعة عشر خليفة وهم :

	سنة الحكم	نهاية الحكم
١ ــ معاوية بن ابي سفيان بن حرب بن امية	٤٠	٦٠
٢ ــ يزيد بن معاوية	٦٠	٦٣
٣ ــ معاوية الثاني بن يزيد	٦٣	٦٣
٤ ــ مروان بن الحكم بن العاص بن امية	٦٣	٦٤
٥ ــ عبد الملك بن مروان	٦٤	٨٦
٦ ــ الوليد بن عبد الملك	٨٦	٩٦
٧ ــ سليمان بن عبد الملك	٩٦	٩٩
٨ ــ عمر بن عبد العزيز بن مروان	٩٩	١٠١
٩ ــ يزيد الثاني بن عبد الملك	١٠١	١٠٥
١٠ ــ هشام بن عبد الملك	١٠٥	١٢٥
١١ ــ الوليد الثاني بن يزيد الثاني	١٢٥	١٢٦
١٢ ــ يزيد الثالث بن الوليد الاول	١٢٦	١٢٦
١٣ ــ ابراهيم بن الوليد الاول	١٢٦	١٢٧
١٤ ــ مروان الثاني بن محمد بن مروان بن الحكم	١٢٧	١٣٢

وخلفاء بني امية من فرعين كما هو ظاهر . فرع ابي سفيان بن حرب بن امية . وكان منه الثلاثة الاولون . وفرع الحكم بن ابي العاص بن امية وكان منه الباقون . وملوك الامويين في الاندلس من هذا الفرع . ومنه عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وقد استمروا يطلقون على انفسهم ويطلق الناس عليهم على اختلاف فئاتهم وفيهم اصحاب رسول الله ﷺ وتابعوهم ممن عرفوا بالعلم والورع والتقوى لقبي خليفة وامير المؤمنين كما كان الامر بالنسبة للخلفاء الراشدين .

ولقد ظلوا على سنة هؤلاء الخلفاء في امامة الناس وبخاصة ايام الجمع وفي خطبتهم . وقد اثر عن معظمهم مأثورات كثيرة في صدد التزامهم احكام كتاب الله وسنة رسوله والحث على ذلك مما سوف يأتي نماذج منه بعد .

وكانوا الى هذا يحرصون على اخذ البيعة لانفسهم من اهل الحل والعقد من المسلمين وموافقتهم ايضاً كما كان الامر في عهد الخلفاء الراشدين ويحصلون عليها من مختلف الفئات والامصار فكان كل هذا على ما هو المتبادر مما سوغ لهم وسوغ للمسلمين على اختلاف فئاتهم استمرار اطلاق اللقبين المذكورين . وقد يكون بعضهم قد استعمل الترغيب والترهيب في الحصول على البيعة .

غير ان سياق الروايات والاحداث يفيد ان هذه البيعة كانت تعطى من جميع اولي الحل والعقد في مختلف الامصار . وان الجمهور الاعظم من المسلمين وفي مقدمتهم معظم الاحياء من اصحاب رسول الله ومعظم الهاشميين ومعظم اهل الحل والعقد كانوا يعترفون بسلطانهم ويتعاونون معهم ويندمجون في مختلف الشؤون العامة تحت لوائهم . ولا يعقل ان يكون الترغيب والترهيب عاماً شاملاً وان لا تكون البيعة قد اخذت من الناس جميعهم الا به . وعلى كل حال فهي بيعة شرعية لزمت المسلمين واعتبرها الجمهور الاعظم منهم كذلك بدون ريب .

ولقد روي [1] ان اهل المدينة لما اعتزموا ان يخلعوا يزيد بن معاوية جاء عبد الله بن عمر رضي الله عنه الى عبد الله بن مطيع قائد الحركة فقال له جئتك لاحدثك حديثاً سمعته

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير مطبعة السعادة بمصر ج ٨ ص ٢٣٢ و ٢٣٣ .

من رسول الله ﷺ يقول : « من نزع يداً من طاعة فانه يأتي يوم القيامة لا حجة له ومن مات مفارق الجماعة فانه يموت موتة جاهلية » كما روي انه جمع بنيه واهله وقال لهم « إنا بايعنا هذا الرجـــل على بيـــع الله ورسوله واني سمعت رسول الله ﷺ يقول ان الغادر ينصب له لواء يوم القيامة يقال هذه غدرة فلان وان من اعظم الغدر بعد الشرك بالله ان يبايـــع رجل رجلا على بيـــع الله ورسوله ثم ينكث بيعته . فلا يخلعن احد منكم يزيد ولا يسرفن احد منـــكم في الامر فيكون الفيصل بيني وبينه » .

ويروى بضعة احاديث نبوية في صدد الخلافة منها حديث عن ابن عمر رواه الشيخان جاء فيه (لا يزال هذا الامر في قريش ما بقي منهم اثنان) [١] وحديث عن معاوية رواه البخاري جاء فيه (ان هذا الامر في قريش لا يعاديهم احد الا كبه الله في النار على وجهه ما اقاموا الدين) [٢] وحديث عن جابر بن سمرة رواه الشيخان والترمذي جاء فيه (لا يزال الاسلام عزيزاً الى اثني عشر خليفة كلهم من قريش) [٣] وحديث عن معاذ بن جبل وابي عبيدة رواه ابن كثير ولم يرد في الصحاح جاء فيه (قال رسول الله ﷺ ان هذا الامر بدأ رحمة ونبوة ثم يكون رحمة وخلافة ثم كائن ملكاً عضوضاً ثم كائن عتواً وجبرية وفساداً في الارض . يستحلون الحرير والفروج ويرزقون على ذلك وينصرون الى ان يلقوا الله عز وجل [٤] وحديث عن سفينة رواه اصحاب السنن عن النبي ﷺ (الخلافة في امتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك . ثم قال سفينة — والكلام للراوي عنه سعيد بن جهمان — امسك خلافـــة ابي بكر وعمر وعثمان وعلي فوجدناها ثلاثين سنة . قال سعيد قلت ان بني امية يزعمون ان الخلافة فيهم قال كذبوا بنو الزرقاء . بل هم ملوك شر الملوك) [٥] .

وإلى جانب هذه الاحاديث هناك احاديث مروية ضد بني امية بالذات ايضاً منها ما هو عام ومنها ما هو خاص . فمن ذلك حديث عـــن ثوبان مولى رسول الله قال (كان رسول الله ﷺ نائماً واضعاً رأسه على فخذ ام المؤمنين ام حبيبة بنت ابي سفيان فنحب ثم تبسم فقالوا

---

(١) التاج الجامع لاصول احاديث الرسول ج ٣ ص ٣٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) و (٤) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٠ .

(٥) التاج ج ٣ ص ٣٦ وسفينة مولى رسول الله .

يا رسول الله رأيناك تحبت ثم تبسمت فقال رأيت بني امية يتعاورون على منبري فساءني ذلك ثم رأيت بني العباس يتعاورون على منبري فسرني ذلك [٢] .

وحديث عن ابي هريرة قال (قال رسول الله ﷺ إذا بلغ بنو العاص اربعين رجلا اتخذوا دين الله دغلا وعباد الله خولا ومال الله دولا [٢] .

وحديث عن ابي وهب (انه كان عند معاوية فدخل عليه مروان بن الحكم فتكلم في حاجة فقال اقض لي حاجتي فاني لأبو عشرة واخو عشرة وعم عشرة فلما أدبر قال معاوية لابن عباس وهو معه على السرير اما تعلم ان رسول الله قال إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلا اتخذوا مال الله بينهم دولا وعباد الله خولا وكتاب الله دغلا . فاذا بلغوا سبعة وتسعين واربعمئة كان هلاكهم اسرع من لوك ثمرة فقال اللهم نعم . فقال يا ابن عباس انشدك الله ألا تعلم ان رسول الله قال عن مروان هذا ابو الجبابر . فقال اللهم نعم) [٣] .

وحديث عن سعيد بن المسيب قال (رأى النبي ﷺ ناساً من بني امية على المنابر فساءه ذلك فقيل له انما هي دنيا يعطونها وتضمحل عن قليل فسري عنه) [٤] .

وحديث عن عمرو بن مرة قال جاء الحكم بن العاص يستأذن على رسول الله ﷺ فعرف كلامه فقال ائذنوا له صبت عليه لعنة الله وعلى من يخرج من صلبه إلا المؤمنين وقليل ما هم يشرفون في الدنيا ويوضعون في الآخرة ذوو دهاء وخديعة . يعطون في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق [٥] .

وحديث عن ابي هريرة جاء فيه ان رسول الله صلعم رأى في المنام ان بني الحكم يرقون على منبره فأصبح كالمتغيظ وقال رأيت بني الحكم ينزون على منبري نزو القردة فما رؤي رسول الله مستجمعاً ضاحكا حتى مات) .

وباستثناء حديث سفينة في صدد مدة الخلافة بعد النبي فان بقية الاحاديث لم ترد في كتب الاحاديث الصحيحة . وقد وصفها ابن كثير الذي نقلناها عنه بالضعف والانقطاع وقال انه ورد في معناها احاديث كثيرة موضوعة فضربنا صفحاً عن إيرادها . وقد قال ابن الاثير فيها

(١ - ٥) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٤٧ - ٥٠

ان في اسانيدها كلاماً[1] .

والمرجح انه كان للخلافات الحزبية والمنافسات التي نشبت بعد عثمان رضي الله عنه أثر في هذه الاحاديث وقد سيقت لتسويء بني امية وبني مروان بخاصة الذين كان لهم الحكم في معظم مدة الخلافة الاموية وكانت الدعايات والحركات نشيطة ضدهم من قبل منافسيهم من الهاشميين علويين وعباسيين . فالحديث الذي فيه خبر استياء النبي صلعم من تعاور بني امية على منبره يقال في حضرة ام حبيبة بنت ابي سفيان رضي الله عنه وهذا عجيب .

وشطره الثاني بسرور النبي صلعم من تعاور بني العباس بعدهم على منبره يجعل احتمال وضعه هو الاقوى . ومروان بن الحكم الذي روي ان النبي صلعم قال عنه انه (ابو الجبابرة) مات سنة ٦٥ ﻫ وعمره ٦١ أو ٦٣ سنة[2] . اي انه كان طفلا وربما لم يكن قد ولد حينما هاجر النبي صلعم إلى المدينة . وكان ما يزال صبياً حينما مات . ولم يكن قد ظهر منه ما يجعل النبي صلعم يقول عنه هذا القول كما هو المتبادر . ولم يتول الملك من اولاده إلا واحد وهو عبد الملك . وتولى الملك من اولاد عبد الملك اربعة وواحد كان حفيداً آخر لمروان . وجميعهم كانوا من اقوى واحصف خلفاء بني امية واكثرهم نشاطاً في سبيل نشر رايات العرب والاسلام في مشارق الارض ومغاربها ثم في سبيل مشاريع عظيمة عمرانية دينية ومدنية ومبرات كثيرة اخرى مما جعلهم يعدون من اعظم رجالات العرب والاسلام وملوكهم على ما . رف يأتي شرحه لا ان يكونوا محل تنديد وتثريب

وجواب سفينة باستثناء ما رواه عن النبي صلعم عجيب يبعث الشك . فهو يعلم ان معاوية من ملوك بني امية . ويعلم انه من اصحاب رسول الله وان رسول الله نهى عن سب اصحابه ولعنهم . ويعلم انه صهر رسول الله وكاتبه ايضاً فلا يمكن ان يعقل ان يلعنه . ولقد مات سنة ٧١ ﻫ ولم يكن ولي من بني امية بعد معاوية إلا أربعة حيث يتبادر من هذا انه لم يكن لكلامه ولعنته لملوك بني امية محل وبالتالي يقوي الشك فيما روي عنه .

ولقد شرحنا في مطلع الجزء السابق ظروف تسمية ابي بكر بالخليفة وتسمية عمر بأمير

---

(١) ج ٤ ص ٧٨

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٢٣

المؤمنين . ولم يكن ذلك بناء على هذه الاحاديث او احاديث اخرى . وانما كان من وحي الموقف ومعنى العمل والصفة . ولم يكن لأحد اللقبين المعنى القدسي الديني الذي صار لها فيما بعد . فلما انتقل الامر إلى معاوية بعد تنازل الحسن عنه واجماع المسلمين عليه تلقب باللقبين استمراراً لما كان وخاطبه المسلمون بهما ثم استمر الامر على هذا بعده .

ومن الجدير بالذكر ان هناك احاديث نبوية مروية في مصلحة بني امية ودولتهم أيضاً منها حديث اورده ابن كثير مروياً عن ابي سلمة بن عبد الرحمن عن ابيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء فيه (ترفع زينة الدنيا سنة خمس وعشرين ومئة) [١] وهي السنة التي مات فيها هشام بن عبد الملك ، والتي اضطرب امر بني امية بعدها وصارت الخلافة للعباسيين بعد سبع سنين .

ومنها حديث اورده ابن كثير ايضاً مروياً عن ثوبان مولى رسول الله جاء فيه (لا تزال الخلافة في بني امية يتلقفونها تلقف الغلمان الكرة فاذا خرجت من ايديهم فلا خير في عيش) [٢] .

وهذه الاحاديث ليست كذلك من الاحاديث الصحيحة . ونرجح انها من وضع انصار الامويين كمقابلة للاحاديث الموضوعة ضدهم .

هذا ، وقد يكون من المناسب ان ننبه على نقطة متصلة بالالقاب وهي ان خلفاء بني امية كانوا يعتبرون انفسهم ملوكاً بالمعنى العام المتعارف لهذه الكلمة وكان النـاس يعتبرونهم كذلك ايضاً ويخاطبونهم بلقب الملك ولم يكونوا يستنكفون عن هذا الاعتبار والخطاب على ما تفيده المأثورات . وهذا المعنى والاعتبار ملموحان في ابيـات الشاعر عبد الله بن قيس الرقيات هذه مثلا :

ما نقموا من بني امية إلا	انهم يحلمون ان غضبوا
وانهم سادة الملوك فما	تصلح إلا عليهم العرب

---

(٢) البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٥٥

(٢) نفس المصدر ج ١٠ ص ٤٧

نبذة عن ولاية العهد

باستثناء معاوية ومروان بن الحكم ويزيد الثالث ومروان بن محمد فان بقية الخلفاء الامويين تولوا الحكم نتيجة لتسميتهم اولياء عهد من قبل الجالس على العرش قبلهم . وكان الجالسون على العرش يحرصون على اخذ البيعة لاولياء عهودهم من اهل الحل والعقد بل ومن جمهور المسلمين في مختلف الامصار ويحصلون عليها .

وباستثناء امتناع اربعة او خمسة من اصحاب رسول الله وهم الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن ابي بكر عن الموافقة على البيعة بولاية عهد يزيد بن معاوية لم يرو انه كان تمرد وامتناع عن اعطاء البيعة لاولياء العهد كما كان شأن البيعة للخلفاء .

وما قلناه قبل من ان الترغيب والترهيب قد يكون وقع في بيعة الخلفاء نقول انه قد يكون وقع في بيعة اولياء العهد ولكنه لا يعقل ان يكون شاملا وعاماً وان لا تكون البيعة حصلت إلا به . وكانت تعتبر على كل حال شرعية لازمة في اعناق المسلمين لا يصح التحلل منها إلا بتخلي صاحبها .

هذا مع التنبيه على ان اولياء العهد كانوا يحرصون على اخذ البيعة لانفسهم مجدداً حينما يصير الحكم اليهم بعد موت الجالس على العرش .

وولاية العهد في حد ذاتها ليست بدعة اموية كما يتبادر . فقد فعل ذلك ابو بكر رضي الله عنه حيث عهد بالامر من بعده الى عمر رضي الله عنه وفعل ذلك عمر حيث عهد بالامر لواحد من ستة من اصحاب رسول الله صلعم على ما مر شرحه في الجزء السابق . وقد يكون الابتداع فيها بالنسبة لما كان الامر في عهد الخلفاء الراشدين في انها كانت للابناء والاخوة او بني الاعمام . اي ان الملك بها صار اسروياً ووراثياً . على ان هذا قد وقع قبل الامويين حيث

بايع اهل العراق الحسن بن علي بعد مقتل ابيه رضي الله عنهما .

وقد روت الروايات القديمة ان الناس سألوا علياً عن البيعة للحسن فقال لا آمركم ولا أنهاكم . وقد ذكر البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق ان فرقة الجارودية من الشيعة تتمسك برواية تذكر ان علياً نص على امامة الحسن بعده[1] .

ولقدُ سار على هذه السنة معظم الدول الاسلامية من بعدهم وفي طليعتهم العلويون والعباسيون حيث صار اجماع المسلمين منعقداً على ذلك بما فيه معنى كونهم رأوه مانعاً للفوضى والفتن مساعداً على الاستقرار فلم يبق اي مجال للتجريح والتثريب . وان كنا ومنا زلنا نرى نظام الخلفاء الراشدين هو الافضل كلما امكن ذلك . وقد كان يأخذ به الخوارج على ما سوف يأتي شرحه بعد . لانه اضمن لتوسيد الحكم للصالح في علمه وعمله واخلاقه بدون ريب .

ولقد رافق سنة ولاية العهد سنة اخرى حيث كان الجالسون على العرش يسمون احياناً كثيرة اكثر من ولي عهد واحد ليتولوا الحكم واحد بعد آخر ويأخذون لهم البيعة من الناس . ومع ان هذه السنة كانت تثير ازمات تعكر سماء الدولة فقد كان الخلفاءلا يعتبرون بذلك ولو كانت العبرة في أنفسهم ويظلون على هذه السنة حيث يسيغ هذا القول ان الظروف كانت تملي عليهم اتباع هذه السنة رغم ما يكون من تعكيرها . ولقد كان الاخوة ابناء علات . ولا ندري إذا كان لامهاتهم التأثير في هذه السنة ام كان هناك ظروف قاهرة اخرى .

فمروان بن الحكم عين ولديه عبد الملك وعبد العزيز وليين لعهده . وكان اول من سن هذه السنة . واراد عبد الملك صرف الخلافة عن اخيه الى ابنائه حتى كاد يقوم جفاء بين الاخوين لولا ان موت عبد العزيز حل الازمة . ولم يعتبر عبد الملك فعين ولديه الوليد وسليمان وليين لعهده . واراد الوليد صرف الخلافة بدوره عن اخيه الى ابنه وقام بين الاخوين جفاء وقطيعة . ولم يتم للوليد ما اراد فجلس سليمان على العرش فانتقم من كبار رجال اخيه الذين

---

(١) انظر مختصر الفرق بين الفرق ص ٣١ وفي المجلد الحادي عشر من الاغاني رواية عن خطبة خطبها ابو الاسود الدؤلي عقب مقتل الامام ذكر فيها ان الامام وصى بالامامة بعده لابنه وابن رسول الله الحسن فأقبل الشيعة على مبايعته . انظر في هذا المجلد اخبار ابي الاسود الدؤلي .

حبذوا له خلعه دون ان يراعي ما كان لهم من بلاء وجهد كبيرين . ومع ذلك فقد عين هو الآخر وليين لعهده هما عمر بن عبد العزيز واخوه يزيد بعده . وسار على السنة يزيد حيث عين اخاه هشاماً ثم ابنه الوليد من بعده وليين لعهده . واراد هشام ان يصرف الخلافة عن ابن اخيه الى ابنائه هو الآخر فكان جفاء وقطيعة بينه وبين ابن اخيه . ولم يتم لهشام ماالراد فجلس الوليد على العرش فانتقم من ابناء عمه بسبب ما كان من اضطهاد ابيهم له مما جعل هؤلاء يشتركون في الفتنة التي نشبت ضد الوليد وأدت الى مقتله . ومع ذلك فان الوليد عين ابنيه الحكم وعثمان وليين لعهده ايضاً. وقد سجنهما يزيد الذي تولى الخلافة نتيجة للفتنة وقتلهما. وعين مع ذلك وليين لعهده هما اخوه ابراهيم وابن عم له اسمه عبد العزيز .

ونكتفي هنا بما تقدم على ان نشرح الاحداث المتصلة بهذه المسألة في سيرة الخلفاء .

نبذة في صفات واخلاق وسيرة خلفاء بني امية

كلمة عامة وتعليقات على بعض الاقوال والمرويات

●

في الكتب التي وصلت الينا من مدونات القرن الثالث والرابع مثل كتب اليعقوبي وابن قتيبة والبلاذري والطبري والمسعودي وابي عبيد بن القاسم وابن عبد ربه ثم في الكتب التي دونت بعد ذلك مثل كتب ابن الاثير وابن عساكر وابن كثير وابي الفداء وابن خلدون والاصفهاني وغيرهم نبذ وروايات كثيرة في صفات واخلاق وسيرة خلفاء بني امية معزوة الى رواة او مؤلفين أسبق منهم . منها ما فيه مدح وثناء وتنويه واخبار تدل على سيرة صالحة واخلاق واعمال كريمة . ومنها ما فيه قدح وتسويء واخبار تدل على سيرة سيئة واخلاق واعمال غير كريمة . ومنها ما فيه تناقض وغرابة . ومنها ما يعقل ويدخل في نطاق الاحتمال ومنها ما لا يعقل . ومن المحتمل كثيراً ان يكون من هذا وذاك ما هو مصنوع ومتأثر بالخلافات والمنافسات السياسية التي قامت بين الامويين والهاشميين بفرعيهم العلوي والعباسي بقصد التنويه والدفاع او التجريح والتثريب والتشويه بل من ذلك ما يمكن الجزم بصنعه اذا ما امعن النظر فيه وقيس بالاحوال والظروف القائمة آنذاك وكل هذا يوجب على المؤرخ تحفظاً كبيراً .

غير اننا اذا لاحظنا أن هذه الكتب قد كتبت بعد الامويين ومنها ما كتب في ظروف كان السلطان فيها لخصومهم الهاشميين وكان التجريح والتسويء هو الاروج والاكثر شيوعاً والتزاماً ساغ لنا ان نرجح ان ما احتوى مدحاً وثناء او ما كان فيه تقدير وتنويه ودلالة على الصلاح والمكرمة من اعمالهم واخلاقهم مما يدخل في نطاق العقل هو الاكثر صحة او الاولى بالأخذ والاعتماد والتصديق إن لم يكن كله فكثير منه .

وقد يدعم هذا ما كان من قرب عهـــد الخلفاء الامويين الى عهد النبي صلعم والخلفاء الراشدين واصحاب رسول الله رضي الله عنهـم وتابعيهم حيث يكون اثر الهـــدى النبوي قوياً وازعاً لهم عن الارتكاس في الموبقات والكبائر والانحرافات الاخلاقية والدينية التي

نسبت اليهم او الى بعضهم.

وفيما روي من اقوالهم واخلاقهم واعمالهم وتصرفاتهم يلحظ هذا الاثر بكل قوة . كما قد يدعمه ما هو متفق عليه بما وصلت اليه الدولة الاموية في عهدهم من عظمة وقوة وعزة عربية وإسلامية على ماسوف نشرحه بعد وما كان في عهدهم من حركة عمرانية نشيطة ثم من فتوحات عظيمة في مشارق الارض ومغاربها مما لا يمكن ان يتيسر حصوله الا في ظل رجال متحلين باخلاق ومواهب عالية . وهو ما روي عن معظمهم حتى ان المروي عكسه عنهم او عن بعضهم يضيع في غمرة النوع الاول بل وتبدو عليه الصنعة المتأخرة بقصد التسويء والتشويه.

ويظل هو المفسر لكل ما روي عن عهدهم من اعمال كبرى في مختلف الميادين كانت دولتهم بها كما قلنا في مطلع الكلام اقوى واعظم واعز واوسع دولة عربية .

واننا لنسوغ لانفسنا ان نقول ان اكثر ما روي عن سوء سيرتهم او بعضهم هو من صنع الشعوبيين الذين كانوا يتميزون غيظاً بما وصل اليه العرب في عهدهم . وقد دخل كثير منهم في الاسلام ثم في الفرق الشيعية بنوع خاص فأفسدوا في تاريخه وحياة اهله ودينهم اي افساد.

ولقد روي عن معظمهم كثير من الاقوال والافعال والمواقف تدل على انهم كانوا يخافون الله ويتقونه ويقومون بواجباتهم الدينية المتنوعة ويحثون على ذلك ويلتزمون الحق والعدل واحكام كتاب الله وسنة رسوله . فضلا عما كانوا عليه من حزم وحسن سياسة واريحية واهتمام لصالح المسلمين العامة والخاصة وعما باشروه او جرى في عهدهم من جهاد في سبيل الله ونشر دينه وتوطيد السلطان العربي الاسلامي في مشارق الارض ومغاربها مما لم يكد يضاهيهم فيه احد بعدهم ومن جملتهم الذين حقدوا عليهم وتآمروا مع الاعاجم على اسقاط دولتهم فضلا عن التفوق عليهم ومما يجعلهم في طليعة عظماء رجال العرب والاسلام وملوكهم ويوجب على كل مسلم وعربي مخلص للاسلام والعروبة ان يعرف لهم حقهم من التوقير والتكريم والاجلال والحرب والدفاع وان يعتز بهم .

ولقد رويت قصائد ومقطعات شعرية كثيرة جداً لشعراء عديدين من شعراء العصر الاموي عامة وفحولهم خاصة في مدح خلفاء بني امية فرداً فرداً وفي مدح بني امية إجمالا فيها ثناء على اخلاقهم ودينهم وتقواهم وجهادهم ومروءتهم وعدلهم وبرهم وما اسدوه للاسلام

والعرب من خدمات [1] . ومهما كان احتمال المبالغة وقصد التزلف والاستمناح والنفاق وارداً في صددها فان فيها فيها نعتقد ترديداً وتأييداً لهذه المزايا التي تؤيدها المأثورات الكثيرة .

وإذا كان هناك حقاً شعر كثير آخر في ذمهم والحملة عليهم فان هذا انما كان بتأثير خصومهم الهاشميين والزبيريين الذين كانوا يتوسلون بكل وسيلة الى اثارة الناس عليهم وتجريحهم على ما سوف نشرحه في المناسبات العديدة الآتية .

وننبه الى اننا لا نريد ان ننزه الخلفاء الامويين من النقائص أو الاعمال المستهجنة او الشذوذ والانحراف عن مقتضى الحق والعدل والمروءة والخلق الكريم وكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين ولا ان ننفي كل ما روته الروايات من ذلك . فالطبع البشري والظروف المختلفة التي اكتنفت الدولة الاموية وخلفاءها والحركات التي قامت في اثنائها مما يجعل بعض ما روته الروايات وارداً وقابلا للتصديق .

ولكن الذي اردناه هو ايجاب التحفظ والتروي فيما روي من الروايات التي تنقضها روايات اخرى او التي لا تكون معقولة او التي يبرز عليها طابع الصنعة وقصد التشويه والتجريح والاثارة والدعاية قوياً ، والتي من المحتمل ان يكون منها بل كثير منها قد اخترع ونشر في زمن الدولة الاموية لذلك القصد وهو امر مألوف في كل زمن بين الاحزاب المتنافسة والمتناوئة .

نقول هذا لان هناك مؤلفين حديثين وقعوا في المحذور عن قصد او غير قصد . منهم جرجي زيدان في كتابه تاريخ التمدن الاسلامي . فالذي يتصفح اجزاء كتابه يجده يأخذ على الاعم الاغلب – بل لا يكاد يكون هناك استثناء الا نادراً جداً – كل رواية مأخذ الصحة ويبني عليها حكماً دون تمحيص ولا ترو . في حين انه يبرز على كثير من الروايات التي يأخذها هذا المأخذ الصنعة واحتمال الكذب وقصد التسويء والتشويه بكل قوة .

ولا يقف امر هذا المؤلف عند هذا. فانه يقرر احكاماً عامة شاملة لعهد بني امية وخلفائهم استناداً الى حادث فردي في رواية تحتمل الكذب والصدق والكذب فيها اكثر احتمالا . فيقول مثلا ان الامويين كانوا لا يقفون عند حد جزية او خراج معين بل يأخذون من اهل

---

(١) الحقنا بالنبذة ملحقاً فيه مقتطفات من هذا الشعر .

البلاد ما يريدون بدون تحديد .

ويسوق على ذلك رواية عـــن عمرو بن العاص معزوة الى المقريزي تذكر ان صاحب اخنا سأل عمراً عن مقدار ما عليهم من الجزية فقال له (لا احددها. انما انتم خزانة لنا . ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم) [1] ولا يمكن ان يعقل صدور هذا من عمرو الذي عين بنفسه مقدار الجزية على اهل البلاد بعهد موثق على ما شرحناه في الجزء السابق .

وهذا فضلا عن ان هذا حادث فردي لا يصح ان يبنى عليه حكم شامل فيه ظلم وتجن .

ويقول ان عمال بني امية كانوا يجورون على اصحاب الارضين من اهل الذمة ولا يهمهم ابقي لهم من المحصول شيء ام لا مع انه مـــن شرط الخراج ان يبقى لاصحاب الارضين ما يجبرون به النوائب والجوائح . ويسوق على ذلك رواية معزوة الى الماوردي تذكر ان الحجاج كتب الى عبد الملك يستأذنه في اخذ تلك البقية فأجابه قائلا (لا تكن على درهمك المأخوذ احرص منك على درهمك المتروك . وابق لهم لحوماً يعقدون عليها شحوماً) [2] . والرواية بعيدة عن احتمال الصحة بالنسبة الى عقل الحجاج وحصافته . فضلا عن انها لم تتحقق حيث رفض الخليفة الاذن بما استؤذن بهِ وفضلا عن انها حادثة فردية لا يصح ان يبنى عليها حكم شامل .

ويقول ان خلفاء بني امية ازدادوا انغماساً في الترف واولهم يزيد بن عبد الملك فانه انقطع إلى اللهو والخمر واشتغل عن مصالح الدولة بجاريتيه حبابة وسلامة .

وجاء بعده ابنه الوليد وكان مثل ابيه في اللهو والخمر [3] هذا في حين انه لم ينسب اللهو والخمر إلا لهذين وليزيد بن معاوية من اصل اربعة عشر خليفة . والتمعن في سياق الروايات الواردة في اخبار هؤلاء الخلفاء الثلاثة على ما سوف يرد في سيرتهم يظهر احتمال كذب ماروي عنهم او المبالغة فيه .

ويقول ان خلفاء بني امية قد انغمسوا في الترف واللهو والخمر واصبحوا لا ينظرون الى ما يؤيد سلطانهم ولا يبالون في انتقاء عمالهم وربما ولوا العامل عملا باشارة جارية او مكافأة

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٩ (٢) ص ٢٠

(٣) الجزء السابق الذكر ص ٢٦

على هدية .

وساق مثلا على ذلك رواية تذكر ان الجنيد بن عبد الرحمن اهدى زوجة هشام قـــلادة فأعجبته فأهداه قلادة اخرى فولاه خراسان [1] . والمعروف ان هشاماً من اعقـل واحزم وأتقى خلفاء بني امية على ما سوف يأتي شرحـــه في سيرته بحيث يسوغ القول ان الرواية لا يمكن ان تكون صحيحة وعلى الاقل ان يكون هشام قـد ولى الجنيد خُراسان بسبب هديته وحسب . ومع ذلك فهذا حادث فردي من الظلم ان يبنى عليه حكم شامل .

ويقول ان خلفاء بني امية قد استخفوا بالدين والنبوة والقرآن والحرمين وقتلوا اهلهم وفيهم كثير من اصحاب رسول الله . وساق على ذلك رواية تروي ان الحجاج كان يقول ان الخليفة افضل من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين وان خالداً القسري كان يقول ان خليفة الرجل في اهله افضل من رسوله اليهم يريدان بذلك تفضيل خلفاء بني امية على النبي .

وساق ايضاً رواية تذكر ان الوليد بن يزيد استفتح القرآن فوجد في الصفحة التي فتحها آية (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . فعلق المصحف واخذ يرميه بالنبال حتى مزقـــه ثم قال :

أتوعد كل جبار عنيد	فها أنا ذاك جبار عنيد
اذا لاقيت ربك يوم حشر	فقل يارب مزقني الولـيد

وساق رواية تذكر ان عبد الملك حين صار خليفة كان يقرأ في المصحف فأغلقه وقال هذا فراق بيني وبينك [2] .

وكل هذا لا يمكن ان يصدق فضلا عن ان الروايات الفردية لا يصح ان يبنى عليها حكم عام كما حاول المؤلف .

وهناك مأثورات كثيرة تقرر تقوى وايمان معظم خلفاء بني امية بحيث يكون هذا الحكم الشامل تجنياً ظالماً . ولقد ساق المؤلف حوادث مقتل الحسين وثورة المدينة وقتال اهلها

---

(١) الجزء السابق الذكر ص ٢٦ (٢) ج ٤ ص ٧٤ وبعدها

وقتال بن الزبير مكة للتدليل على دعواه مع ان هـذه الاحداث لم تقع نتيجة لهذه الدعوى . وليس من شأنها ان تؤيدها على ما سوف يأتي شرحه بعد فضلاً عن ان ذلك جرى في عهـد خليفتين ولا يصح ان يستخرج منه حكم شامل .

ويقول [1] ان بني امية لم يكن يهمهم نشر الاسلام وانما كان همهم الفتح والتغلب وحشد الاموال فتوقف نشر الاسلام على عهدهم . ولا يسوق روايات على ذلك . مع ان الروايات المروية في هذا وذاك على ما سوف نورده بعد تكذب الدعويين تكذيباً شديداً .

ويقول ان بني امية ظلموا واجحفوا كثيراً في اهل الذمة وزادوا في مقدار المرتب عليهم من الجزية واخذوا معها الخراج واخذوا الجزية من الرهبان وقتلوهم وعذبوهم وساق في صدد ذلك بعض الروايات الفردية التي كانت في مصر في زمن عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك وذكر معها ان عمر وهشاماً لم يقرا عمالهما بالتراجع عنه ووبخ عمر عامله توبيخاً شديداً بحيث يكون الحكم الشامل على بني امية في هذا ظلماً وتجنياً كذلك .

ومن التطويل الاسترسال في الاستشهاد. وقد لا يكون جرجي زيدان فريداً في اسلوبه. وفي ما اوردناه كفاية للتدليل على ما قصدنا اليه من ايجاب التروي والتحفظ ازاء الروايات المروية عن عهد بني امية وخلفائهم .

هذا ولقد حرصنا على ايراد معظم ما روي من صفات كل خليفة واخلاقـــه واقواله وسيرته وصور عن الحكم في عهده مقتضباً او مسهباً . وسواء أكانت له أم عليه . وعلقـــنا ونبهنا على ما رأيناه في حاجة الى تعليق وتنبيه . وقد يكون فيما اوردناه وما لم نعلق عليه من روايات مصنوعاً او غريباً او غير وثيق .

غير ان الكثير من ذلك ان لم يكن اكثره محتمل الصحة وجله بل كله منقول من مؤلفات قديمة . وقد نقله مؤلفوها على الارجح من مؤلفات لم تصل الينا او عزوه الى رواة سمعوهم ومن هؤلاء من عزاه الى رواة حتى يصل الخبر الى الشاهد العيان او السامع المباشر . وقد رأينا في ما فعلنا فائدة لتكون الصورة واضحة او كاملة بقدر الامكان

«١» ج ٤ ص ٧٦



ملحق ببعض مختارات مقتطعة من قصائد مأثورة

لبعض فحول الشعراء في مدح خلفاء بني امية

من شعر جرير في مدح عبد الملك :

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

وقوم قد سموت لهم فدانوا ... يدهم في ململة رداح

وايضاً :

لولا الخليفة والقرآن يقرأه ... ما قام للناس أحكام ولا جمع

انت الامين امين الله لا سرف ... فيما وليت ولا هيابة ورع

مثل المهند لم تبهر ضريبته ... لم يغش غربيه تفصيل ولا طبع

واري الزناد من الاعياص في مهل ... فالعالمون لما يقضي به تبع

ومن شعره في مدح الوليد :

فأنت لرب العالمين خليفة ... ولي لعهد الله بالحق عارف

هداك الذي يهدي الخلائق للتقى ... واعطيت نصراً لم تنله الخلائف

وادت اليك الهند ما في حصونها ... ومن ارض صين استان تجبى الطرائف

وارض هرقل قد قهرت وداهراً ... وتسعى لكم من آل كسرى القواصف

وايضاً :

ان الوليد خليفة لخليفة ... رفع البناء على البناء الاعظم

فعلا بناؤكم الذي شرفتم ... ولكم اباطح كل واد مفعم

ان الوليد هو الامام المصطفى ... بالنصر هز لواؤه والمغنم

ورث الاعنة والاسنة وانتمى ... في بيت مكرمة رفيع السلم

ومن شعره في مدح سليمان :

سليمان المبارك قــد علمتم ... هو المهدي وقد وضح السبيل
اجرت من المظالم كل نفس ... واديت الذي عهد الرسول
صفت لك بيعة بثبات عهد ... فوزن العدل اصبح لا يميل
وتدعوك الارامل واليتامى ... ومن امسى وليس به عويل
ويدعوك المكلف بعد جهد ... وعان قد اضر به الكبول
فرجت الهم والحلقات عنهم ... فأحيا الناس والبلد المحول
اذا ابتدر المكارم كان فيكم ... ربيع الناس والحسب الاثيل
تهينون المخاض لكل ضيف ... إذا ما حب في السنة الجميل

وله في مدح عمر بن عبد العزيز :

كم بالمواسم من شعثاء ارملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به ... خبلا من الجن او خبلا من النشر
ممن يعدك تكفي فقد والده ... كالفرخ في العش لم يدرج ولم يطر
يرجوك مثل رجاء الغيث تجبرهم ... بوركت جابر عظم هيض منكسر
انت المبارك والمهدي سيرته ... تعصي الهوى وتقوم الليل بالسور

وله ايضاً فيه :

ان الذي بعث النبي محمداً ... جعل الخلافة في الامام العادل
ولقد نفعت بما منعت تحرجاً ... مكس العشور على جسور الساحل
قد نال عدلك من اقام بأرضنا ... فاليك حاجة كل وفد راحل

وله في مدح يزيد بن عبد الملك :

لما ملكت عصا الخلافة بينت ... للطالبين شمائل ونجار
ساس الخلافة حين قام بحقها ... وحمى الذمار فما يضاع ذمار
ويزيد قد علمت قريش انه ... غمر البحور الى العلا سوار
وعروق نبعتكم لها طيب الثرى ... والفرع لا جعد ولا خوار

ان الخليفة لليتامى عصمة ... وابو العيال يشفه الاقتار
صلى القبائل من قريش كلهم ... بالموسمين عليك والانصار

وله فيه ايضاً :

اما يزيد فان الله فهمه ... حكما واعطاه ملكاً واضح النور
يكفي الخليفة ان الله فضله ... عزم وثيق وعقد غير تغرير
ما ينبت الفرع نبعاً مثل نبعتكم ... عيد انها غير عشات ولا خور
قد اخرج الله قسراً من معاقلهم ... اهل الحصون واصحاب المطامير

وله في مدح هشام :

فقلت لها الخليفة غير شك ... هو المهدي والحكم الرشيد
هشام الملك والحكم المصفى ... يطيب اذا نزلت به الصعيد
يعم على البرية منك فضل ... وتطرق من مخافتك الاسود
وان اهل الضلالة خالفوكم ... اصابهم كما لقيت ثمود
واما من اطاعكم فيرضى ... وذو الاضغان يخضع مستفيد
بني مروان بيتك في المعالي ... وعائشة المباركة الولود

وله فيه ايضاً :

امير المؤمنين قضى بعدل ... احل الحل واجتنب الحراما
بحق المستجير يخاف روعاً ... اذا امسى بحبلك ان يناما
عطاء الله ملككم النصارى ... ومن صلى لقبلته وصاما
الى المهدي نفزع ان فزعنا ... ونستسقي بعزته الغماما
تباشرت البلاد لكم بحكم ... اقام لنا الفرائض واستقاما
رضينا بالخليفة حين كنا ... له تبعاً وكان لنا اماما

وله فيه ايضاً :

امير المؤمنين جمعت ديناً ... وحلماً فاضلا لذوي الحلوم
امير المؤمنين على صراط ... اذا اعوج الموارد مستقيم

ومن شعر الفرزدق في مدح عبد الملك بن مروان :

اذا لاقى بنو مروان سلوا لدين الله اسيافاً غضابا
صوارم تمنع الاسلام منهم يوكل وقعهن بمن ارابا

وله فيه ايضاً وفي الحجاج معه :

اذا اتيت امير المؤمنين فقل بالنصح والعلم قولا غير مكذوب
اما العراق فقد اعطتك طاعتها وعاد يعمر منها كل تخريب
ارض رميت اليها وهي فاسدة بصارم من سيوف الله مشبوب
لا يغمد السيف إلا ما يجرده على قفا محرم بالسوق مصلوب
مجاهد لعداة الله محتسب جهادهم بضراب غير تذبيب

وله في مدح الوليد :

ومن عبد شمس انت سادس ستة خلائف كانوا منهم العم والاب
هداة ومهديين عثمان منهم ومروان وابن الابطحين المطيب

وله فيه ايضاً :

بهم ثبتت رحى الاسلام قسراً وضرب بالمهندة الذكور
توارثها بنو مروان عنه وعن عثمان بعد ثأي كبير
رجاك المشرقان لكل عان وارملة واصحاب الثغور
وكنت جعلت للعمال عهداً وفيه العاصمات من الفجور
امير المؤمنين وانت تشفي بعدل يديك ادواء الصدور

وله فيه ايضاً :

اليك امير المؤمنين انختها الى خير من حلت له عقد الرحل
الى خيرهم فيهم قديماً وحادثاً مع الحلم والايمان والنائل الجزل
يسوس من الحلم الذي كان راجحاً يا جبال سلمى من وفاء ومن عدل

وله في مدح سليمان :

ولقد هدى بـــك كل ملتبس ... وشفى بعدلـــك كل ذي غمر
حتى استقام لوجه سننته ... ودرى لم يك قبـــلها يدري
واخذت عدلا مـــن ابيك لنـــا ... وقلعت عنـــا كل ذي كبر

وله فيه ايضاً :

لقد امنت وحش البلاد بجامع ... عصا الدين حتى ما تخاف نوارها
به أمن الله البلاد فساكن ... بكل طريد ليلها ونهارها
رأيت بني مروان خـير عمارة ... وانت اذا عدت قريش خيارها

وله فيه ايضاً :

ألست ابن الائمة مـــن قريش ... وحسبك فارس الغبراء خـالا
إمام منهم للناس فيهم ... اقمت الميل فاعتـــدل اعتدالا
عملت بسنة الفاروق فيهم ... ومـــن عثمان كنت لهم مثالا

وله فيه ايضاً :

سليمان غيث المحلين ومن به ... عن البائس المسكين حلت سلاسله
جعلت مكان الجور في الارض مثله ... من العدل اذ صارت اليك محامله
وقد علموا ان لن يميل بك الهوى ... وما قلت من شيء فانك فاعله

وله فيه أيضاً :

جعلت لاهل الارض امناً ورحمة ... وبرءاً لاثار القـــروح الكوالم
كما بعث الله النبي محمداً ... على فترة والناس مثل البهـــائم
ورثتم قنـــاة الملك غير كلالة ... عن ابن مناف عبد شمس وهاشم

وله في مدح عمر بن عبد العزيز :

أعبد الله انت احق ماش ... وساع بالجماهير الكبار
نمى الفاروق امك وابن اروى ... أباك فأنت منصدع النهار
كلا ابويك عبد الله عال ... رفيع في المنازل بالخيار
هما قمرا السماء وانت بـــدر ... به بالليل يدلج كل سار
وهل في الناس من احد يساوي ... يديك اذا تنوزع للفخار

وله فيه ايضاً :

وما اصابت من الايام جائحـة ... للأصل إلا وان جـلت ستجتبر
وقد حمدت باخـلاق خبرت بها ... وانما بابن ليلى يحمد الخـــبر

وله في مدح يزيد بن عبد الملك :

ارى اللهقداعطى بن عاتكةالذي ... له الدين امسى مستقيم السوالف
تقى الله والحكم الذي ليس مثله ... ورأفة مهدي على الناس عاطف

وله فيه ايضاً :

حرب ومروان جداك اللذا لها ... مـن الروابي عظيمات الجماهـير
ترى وجوه بني مروان تحسبها ... عند اللقاء مشوفات الدنانير
الضاربين على حق اذا ضربوا ... يوم اللقـــاء وليسوا بالمعاوير
غلبتم الناس بالحق الذي لكم ... عليهم وبضرب غـــير تعذير

وله فيه ايضاً :

جزى الله خير المسلمين وخيرهم ... يدين واغنـــاهم لمن كان افقرا
امام كأين من امـــام نمى به ... وشمس وبدر قد اضاءا فنورا

وله في مدح هشام :

رأيت بني مروان يرفع ملكهم ... ملوك شباب كالاسود وشيبها
بهم جمع الله الصلاة فأصبحت ... قداجتمعت بعد اختلاف شعوبها
ومن ورث العودين والخاتم الذي ... له الملك والارض الفضاء رحيبها

وله فيه ايضاً :

أبت لهشام عادة يستعيدها ... وكف جواد لا يسد انثلامها
هشام فتى الناس الذي تنتهي المنى ... اليه وان كانت رغابا جسامها
هشام خيار الله للناس والذي ... به ينجلي عن كل ارض ظلامها
وانت لهذا الناس بعد نبيهم ... سماء يرجى للمحول غمامها
وانت الذي تلوي الجنود رؤوسها ... اليك وللأيتام انت طعامها
اليك انتهى الحاجات وانقطع المنى ... ومعروفها في راحتيك تمامها

وله في مدح الوليد بن يزيد :

اني الى خير البرية كلها ... رحلت وما ضاقت علي المطامع
الى القائد الميمون والمهتدى به ... اذ الناس متبوع وآخر تابع
طبعت على الاسلام والحزم والندى ... ألا انما تبدي الامور الطبائع

وله فيه ايضاً :

وانت سماء الله فيها التي لهم ... من الارض يحيي ميت الارض ماؤها
كلا ابويك استل سيف جماعة ... على فتنة تلقى البنين نساؤها
فما اغمدا حتى انابت قلوبهم ... وسمّح للضرب الشآمي دماؤها
لنعم مناخ القوم حلوا رحالهم ... الى قبة فوق الوليد سماؤها
بناها ابو العاصي ومروان فوقه ... ويوسف قد مس النجوم بناؤها

وللشاعر الاخطل في مدح بني امية من قصيدة انشدها لعبد الملك :

في نبعة من قريش يعصبون بها ... ما ان يوازى بأعلى نبتها الشجر
تعلو الهضاب وحلوا في ارومتها ... اهل الرباء واهل الفخر ان فخروا
حشد على الحق عيافو الخنا أنفٌ ... اذا الملت بهم مكروهة صبروا
وان ندجت على الآفاق مظلمة ... كان لهم مخرج منـها ومعتصر
اعطاهم الله جداً ينصرون به ... لا جد الا صغير بعدُ محتقر
لم يأشروا فيه اذ كانوا مواليه ... ولو يكون لقوم غيرهم اشروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم ... واعظم الناس احلاماً اذا قدرو

وللشاعر ابي العباس الاعمى في بني امية :

ابـني امـية لا ارى لكم ... شبها اذا مـا التفت الشيـع
سعة واحلاماً إذا فزعت ... اهل الحلوم فضرها الفزع
وحفيظة مـن كل نائبة ... شهباء لا ينهى لهـا الربع
الله اعطـاكم وان رغمت ... من ذاك انوف معشر رفعوا

ولنابغة بني شيبان من قصيدة له في عبد الملك :

ان تلق بلوى فأنت مصطبر ... وان تلاق النعمى فلا فرح
ترمي بعيني اروى على شرف ... لم يوده عـاثر ولا لحوا
آل ابي العـاص آل مأثرة ... غر عتاق بالخير قد نفحوا
خير قريش وهم افاضلها ... في الجدجد وان همُ مزحوا
ارحبها أذرعاً واصبرها ... انتم اذا القوم في الوغى كلحوا

وله فيه ايضا وفي بني مروان عامة :

عرفت قريش كلها ... لبني ابي العاص الامارة
لابرهـا واحقها ... عند المشورة بالاشارة

المانعين لنا ولوا والنافعين ذوي الضرارة
وهم احقهم بها عند الحلاوة والمرارة

وللشاعر اسماعيل بن يسار في مدح عبد الملك من قصيدة :

ملكت فزدت الناس ما لم يزدهم امام من المعروف غير مصرد
وقمت فلم تنقض قضاء خليفة ولكن بماساروا من الفعل تقتدي

للشاعر العبلي في مدح هشام من قصيدة :

تلقه محكم القوى اريحياً ذا قوى عاجل وسيب عتيد
ملكاً يشمل الرعية منه بأياد ليست بذات خمود
اخضر الربع والجناب خصيب افيح المستراد للمسترید

ولهذا الشاعر في بني امية عامة من قصيدة :

اهل الرياسة والسياسة والندى واسود حرب لا يخيم لقاؤها
غيث البلاد وهم امراؤها سرج يضيء دجا الظلام خباؤها
فبنو امية خير من وطىء الثرى شرفاً وافضل ساسة امراؤها

وللشاعر الكميت من قصيدة يمدح فيها هشاماً وفيها تنويه ببني امية جميعهم :

ابني امية انكم اهل الوسائل والاوامر
ثقتي بكل ملمة وعشيرتي دون العشائر
انتم معادن للخلافة كابراً من بعد كابر
بالتسعة المتتابعين خلائفاً وبخير عاشر
والى القيامة لا تزال لشافع منكم وواتر

ونكتفي بهذا القدر اليسير للدلالة على ما اردناه .

١ ــ معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه[1]

●

لقد وصف ابو بكر بن ابي الدنيا معاوية فقال انه كان طويلا ابيض جميـــلا إذا ضحك انقلبت شفته العليا . وكان يخضب لحيته حتى تكون بلون الذهب . والمؤرخون والنقـــاد مجمعون على انه كان من اعاظم دهاة العرب واوفرهم عقلا وكياسة وحصافة وحكمة واناة وحلماً .

وقد ولد في اوائل البعثة النبوية . ومما يرويه الشافعي عن ابي هريرة والمدائني عن صالح بن كيسان ان احد اصحاب الفراسة من العرب نظر اليه وهو صبي مع امه فقال هذا الغلام سيسود قومه فقالت امه ثكلته إن كان لا يسود الا قومه .

والمشهور انه اسلم يوم الفتح . غير ان هناك رواية تروى عنه انه اسلم يوم عمرة القضاء اي يوم ذهب النبي ﷺ والمسلمون الى مكة لزيارة الكعبة بعد سنة من صلح الحديبية وبناء عليه كتم اسلامه على ما روي عنه[2] ثم اظهره يوم الفتح . وشهد يوم حنين مع النبي ﷺ معابيه ثم هاجر الى المدينة حيث جعله النبي ﷺ من كتابه .

وقد روي في صدد ذلك حديث عن جابر بن عبد الله جـــاء فيه[3] : (ان رسول الله استشار جبريل في استكتابه معاوية فقال له استكتبه فانه امين)[4] وحديث عن ابن عباس

«١» هذه النبذة مقتبسة من الامامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ١٥٢ وبعدها وتاريخ الطبري ج٤ ص ١٢٨ وبعدها والعقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٢٩ وبعدها وج ٢ص ٣٧٤ وبعدها والبداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٩ــ٢١ و١١٧ وبعدها وتاريخ ابن خـلدون ج ٣ ص ٤ وبعدهـا وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص١٩٢ــ٢١٤ مطبعةالغرى ١٣٥٨ ومحاضرات الخضري ج ٢ ص ١٨٧وبعدها ولقد رأينا بعض المؤرخين القدماء يلحقون باسم معاويةجلة «رضي الله عنه» لانه من اصحاب رسول الله فجاريناهم في ذلك في عنوان النبذة .

«٢ــ٤» البداية و" ،ية انظر الصحف المذكورة قبل .

جاء فيه : (ان جبريل اتى رسول الله ﷺ فقال له اقريء معاوية السلام واستوص به خيراً فانه امين الله على كتابه ووصيه ونعم الامين) [1] .

وحديث عن عروة بن الزبير عن عائشة :(ان معاوية دق باب اخته ام حبيبة ام المؤمنين والنبي عندها فقال انظروا فقالوا معاوية فقال ائذنوا له فدخل وعلى اذنه قلم فقال ما هذا يا معاوية قال قلم اعددته لله ولرسوله فقال له جزاك الله عن نبيك خيراً. والله ما استكتبتك الا بوحي الله وما افعل من صغيرة ولا كبيرة الا بوحي الله . كيف بك لو قمصك الله قميصاً فقامت ام حبيبة فجلست بين يديه وقالت يا رسول الله وان الله مقمصه قميصاً قال نعم ولكن فيه هنات وهنات فقال ادع له يا رسول الله فقال اللهم اهده بالهدى وجنبه الردى واغفر له في الآخرة والاولى) [2] .

ودعاء النبي ﷺ له مروي في احاديث اخرى منها ما ورد في مسند الترمذي بسند حسن عن عبد الرحمن بن ابي عميرة من اصحاب رسول الله قال : (ان النبي ﷺ دعا لمعاوية فقال اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به)[3] ومنها حديث عن ابن عباس قال :(قال رسول الله ﷺ اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب)[4].

وحديث عن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول اللهم علمه الكتاب ومكن له في البلاد وقه العذاب)[5] .

وقد رويت صيغة مشابهة لهذه الصيغة ايضاً عن ابي عميرة المزني راوي الحديث الذي رواه الترمذي [6] .

وحديث عن ابي ادريس الخولاني جاء فيه : (إن عمر لما عزل عمير بن سعد عن الشام وولى معاوية قال الناس عزل عميراً وولى معاوية فقال عمر لا تذكروا معاوية الا بخير فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول اللهم اهد به) [7].

«١-٢» البداية والنهاية انظر الصحف المذكورة قبل .

«٣» التاج الجامع لاصول احاديث الرسول ج٣ ص٣٣١ .

«٤-٧» البداية والنهاية ج ٨ .

وروى الطبراني عن عبد الله بن بسر ان رسول الله ﷺ استشار ابابكر وعمر في امر فقال اشيروا علي فقالا الله ورسوله اعلم فقال ادعوا معاوية فقالا أما في رسول الله ورجلين من قريش ما يتقنون امرهم حتى يبعث رسول الله الى غلام من غلمان قريش فقال ادعوا لي معاوية فدعي له فلما وقف بين يديه قال احضروه أمركم واشهدوه أمركم فانه قوي امين)[1].

وروى الامام احمد عن يحيى بن سعيد عن جده انه سمعه يحدث (ان معاوية اخذ الأداوة بعد ابي هريرة وكان هذا مريضاً فتبع رسول الله بها فبينما هو يوضيء رسول الله اذ رفع رأسه اليه مرة او مرتين وهو يتوضأ فقال يا معاوية ان وليت امراً فاتق الله واعدل. قال معاوية فما زلت اظن اني سابتلى بعمل لقول النبي ﷺ حتى ابتليت)[2].

وروى غالب القطاني عن الحسن قال (سمعت معاوية يخطب ويقول صببت يوماً على رسول الله وضوءه فرفع رأسه إلي فقال اما انك ستلي امر امتي بعدي. فاذا كان ذلك فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم. فقال فما زلت ارجو حتى قمت مقامي هذا)[3].

ويقول ابن كثير الذي ننقل عنه ان الامام الحافظ ابن عساكر عني بحديث دعاء النبي ﷺ لمعاوية واطنب فيه واطرب وانه ساق احاديث كثيرة في فضل معاوية.

وقد يكون في هذه الاحاديث ما هو مصنوع. ولكن كثرتها وتوافقها من جهة وصلة معاوية بالنبي ﷺ من حيث انه اخو ام المؤمنين ام حبيبة وكاتبه من جهة يسوغ القول ان منها ما هو صحيح. وبعضها وارد في مسانيد الاحاديث الصحيحة على ما مرت الاشارة اليه.

ولقد روى معاوية احاديث عديدة عن رسول الله ﷺ منها حديث جاء فيه (من احب ان يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار.) وقد قاله لجماعة خرج عليهم فقاموا له على ما رواه الامام احمد عن ابي مجلز[4]. وهذا موقف من الهدي النبوي والراشدي.

ومنها حديث رواه ابو داود والترمذي عن حبيب بن الشهيد قال قال معاوية (قال رسول الله ﷺ انك ان تتبعت عورات الناس افسدتهم او كدت ان تفسدهم)[5].

ومنها حديث رواه الشيخان جاء فيه عن معاوية (سمعت رسول الله ﷺ يقول من يرد

«١ – ٥» البداية والنهاية لابن كثير ج ٨.

الله به خيراً يفقهه في الدين . إنما انا قاسم . والله يعطي . ولا يزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي امر الله وهم ظاهرون)[1] .

ولقد روي عن محمد بن سيرين احد كبار علماء التابعين قوله ان معاوية كان اذا حدث عن رسول الله لم يتهم [2] .

ولقد سئل المعافى بن عمران ايهما افضل معاوية ام عمر بن عبد العزيز فغضب وقال للسائل (اتجعل رجلا من الصحابة مثل رجل من التابعين . معاوية صاحب النبي وكاتبه وامينه على وحي الله : وقد لعن من سب اصحابه)[3] .

وسئل ابن المبارك نفس السؤال فقال (اتسألني عمن صلى خلف رسول الله وقال حينما كان يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد . ولتراب في منخري معاوية مع رسول الله خير وافضل من عمر بن عبد العزيز)[4] .

وروي عن الفضل قوله (سمعت ابا عبد الله يسأل عن رجل ينتقص معاوية وعمرو بن العاص أيقال له رافضي . فقال انه لم يجترىء عليهما أحد إلا وله خبيئة سوء وما انتقص احد أحداً من الصحابة الا وله دخيلة سوء) [5] .

وقد قال ابن خلدون ان دولة معاوية واخباره اولى ان تلحق بدول الخلفاء الراشدين واخبارهم . فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحبة [6] .

ولقد وصف سعد بن ابي وقاص معاوية فقال ما رأيت احداً بعد عثمان أقضى بحق من معاوية [7] .

ووصفه ابن عباس بقوله ما رأيت أحداً اخلق بالملك من معاوية . انه كان ليرد الناس منه على ارجاء واد رحب [8].

وقد وصفه بالفقه على ما جاء في حديث رواه البخاري عن ابن ابي مليكة قال (قيل لابن عباس هل لك في امير المؤمنين معاوية فانه ما اوتر الا بواحدة فقال اصاب انه فقيه [9] .

«١ — ٧» البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ .

«٨» تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٤٥٨ .

«٩» التاج ج٣ص٣٣١ .

ومن أقواله فيه هل تعلم بم غلب معاوية الناس كان اذا طاروا وقع . واذا وقع طاروا[1]

ووصفه قبيصة بن جابر الاسدي بقوله ما رأيت احداً اعظم منه حلماً ولا اكثر سؤدداً ولا أبعد اناة ولا الين مخرجاً ولا ارحب باعاً بالمعروف ولا احب رفيقاً ولا اشبه سريرة بعلانية منه[2] .

وروي عن مجاهد انه قال لو رأيتم معاوية لقلتم هذا المهدي[3] .

وروي عن ابن عمرو انه قال ما رأيت اسود من معاوية قيل له ولا ابو بكر وعمر قال كانا خيراً منه ولكنه كان اسود منهم[4] .

وروي عن عبد الله بن الزبير قوله حين بلغه موته (لله در ابن هند . ان كنا لنفرقه وما الليث على براثنه بأجرأ منه فيتفارق لنا وإن كنا لنخدعه وما ابن ليلة من اهل الارض بأدهى منه فيتخادع لنا . والله لوددت انا متعنا به ما دام في هذا الجبل حجر واشار الى ابي قبيس)[5] .

وروي عن علي بن ابي طالب قوله عنه بعد المصالحة التي جرت في سنة ٤٠ هـ والتي اسفرت عن اعتراف علي بحكمه في الشام واعتراف معاوية بحكم علي في العراق ايها الناس لا تكرهوا امارة معاوية . فانكم لو فقدتموه رأيتم الرؤوس تندر عن كواهلها كأنها الحنظل)[6] .

وروي ان عبد الملك بن مروان ذكر عنده معاوية فقال هو آخذ بثلاث وتارك لثلاث . آخذ بقلب الناس إذا حدث . وبحسن الاستماع اذا حدث . وبأيسر الامرين إذا خولف . تارك للمماراة . تارك للغيبة . تارك لما يعتذر منه[7] .

وقد روي انه ذكر عمر بن عبد العزيز امام الاعمش فقال (كيف لو ادركتم معاوية . قالوا في حلمه . قال لا والله بل في عدله)[8] .

وروي عن ابي الدرداء قوله فيه (ما رأيت احداً اشبه صلاة برسول الله من امامكم هذا يعني معاوية[9] .

«١-٦» البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ وبعدها .

«٧» مروج الذهب للمسعودي ج٣ص ٦٠ .

«٨-٩» المنتقى من منهاج السنة ص ٣٨٨-٣٨٩ .

ولقد كان من قواد الفتوح الشامية في زمـن عمر بن الخطاب . وتولى مـع اخيــه زياد توجيه قيادة بعض الكتائب وفتح بعض البلاد في فلسطين وسواحل سورية وقـد عينـه عمر حاكماً في فلسطين وفي الاردن .

وكان ما يزال شاباً لم يكد يتجاوز العشرين من عمره إلا قليلا حيث يدل هذا على ماظهر منه من نبوغ وقوة شخصية وبعد همة ومطمح ونشاط واهلية .

ولما توفي زياد اخوه سنة ١٨ هـ وكان والياً للشام عينه مكانه ثم جمع له بعد سنتين جميع بلاد الشام فكان حاكماً مثالياًبحصافته واناته وحلمه وحسن سياسته والتزامه حدود الله وتقواه مما جعل اهل هذه البلاد تتعلق به اشد تعلق .

واستمرت ولايته لبلاد الشام بقية زمن معاوية ثم طيلة خلافة عثمان فزاده ذلك فيهاتمكناً ومحبة . وهو اول من غزا في البحر وفتح جزيرة قبرص كما انه اول من انشأ سنة الغزوات الصيفية والشتوية الى بلاد الروم في زمن ولايته لبلاد الشام .

ولما ثارت حركة النقمة على عثمان بن عفان وقف فيها مواقف تدل على ما كان عليه مـن قوة شخصية وبصيرة نافذة ودهـاء وحسن ادراك لعواقب الامور على مـا شرحناه في الجزء السابق .

ومثل كل ذلك ظهر منه كذلك اثناء النزاع بينه وبين علي بعد مقتل عثمان وكان من اسباب نجاحه وتمكينه على ما شرحناه كذلك في الجزء السابق شرحاً يغني عن التكرار .

ولقد ظهر كل هذا منه كذلك في خلافته فكان به من اعاظم خلفاء العرب وملوكهم إن لم يكن اعظمهم وافضلهم بعد الخلفاء الراشدين عقلا وحلماً وعدلا وحكمة ودهاء وجهاداً وبعد همة ومطمح واهتماماً لمصلحة المسلمين وبراً بضعفائهم ومظلوميهم واصحاب الحاجات منهم مما سوف يأتي تفصيله في هذه النبذة وفي سياق الاحداث .

وفي مروج الذهب للمسعودي [1] وصف شائق ورائع ليوم كامل من ايام معاويـة ليس فيه ما لا يحتمل بل كل ما فيه طبيعي ومحتمل جداً . وفيه مصداق لما ذكرناه آنفاً مـن

«١» ج ٢ ص ٣٣٠-٣٣٢ مطبعة دار الرجاء بمصر .

سيرته وصور كثيرة عن اخلاقه وبره وقراه ومعالجته لمختلف الشؤون واهتمامه لقضايا عامة الشعب وحبه للاطلاع على اخبار الامم .

وقد جاء في الوصف : (كان من اخلاق معاوية انه يأذن في اليوم والليلة خمس مرات . كان اذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه (وهذا يفسر باحد تفسيرين اما ان يكون القاص الواعظ الديني واما ان يكون الذي يقرأ لمعاوية استدعاءات الناس ورقاعهم) ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ جزأه ثم يدخل الى منزله فيأمر وينهى . ثم يصلي اربع ركعات . ثم يخرج الى مجلسه فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه . ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم . ثم يؤتى بالغداء الاصغر . ثم يتحدث طويلا . ثم يدخل منزله لما اراد . ثم يخرج فيأمر الغلام باخراج الكرسي الى المسجد ويخرج اليه فيسند ظهره الى المقصورة ويجلس على الكرسي . ويقوم الاحداث فيتقدم اليه الضعيف والاعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له فيقول واحد ظلمت فيقول اعزوه . ويقول واحد عدي علي فيقول ابعثوا معه . ويقول واحد صنع بي فيقول انظروا في امره حتى اذا لم يبق احد دخل فجلس على السرير ثم يقول ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلني احد عن رد السلام . فيقول واحد كيف اصبح امير المؤمنين اطال الله بقاءه فيقول بنعمة الله. فاذا استووا جلوساً قال يا هؤلاء انما سميتم اشرافاً لانكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس . ارفعوا الينا حوائج من لا يصل الينا فيقوم رجل فيقول استشهد فلان فيقول معاوية افرضوا لولده . ويقول آخر غاب فلان عن اهله فيقول معاوية تعاهدوهم . اعطوهم . اقضوا حوائجهم . اخدموهم . ثم يؤتى بالغداء ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه . ويقدم الرجل بكتاب فيقول له اجلس على المائدة فيجلس فيمد يده فيأكل لقمتين او ثلاثاً . والكاتب يقرأ كتابه فيأمر فيه بأمر . فيقال للرجل الذي جلس يا عبد الله اعقب . فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتي على اصحاب الحوائج كلهم وربما قدم عليه من اصحاب الحوائج اربعون او نحوهم على قدر الغداء. ثم يرفع الغداء ويقال للناس اجيزوا . فينصرفون فيدخل منزله فلا يطمع فيه طامع . حتى ينادى بالظهر فيخرج فيصلي ثم يدخل فيصلي اربع ركعات . ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة . فان كان الوقت وقت شتاء اتاهم بزاد الحاج من الاخبصة اليابسة والاقراص المعجونة باللبن والسكر من دقيق السميذ والكعك المنضد والفواكه اليابسة . وان كان وقت صيف اتاهم بالفواكه الرطبة ويدخل اليه وزراؤه فيؤامرونه في ما احتاجوا اليه بقية يومهم . ويجلس الى العصر ثم يخرج فيصلي العصر ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع . حتى إذا كان في آخر اوقات العصر خرج

فجلس على سريره ، ويؤذن للناس على منازلهم فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار مـــا ينادى بالمغرب ولا ينادى له بأصحاب الحوائج ثم يرفـع العشاء وينادى بالمغرب فيخرج فيصليها ، ثم يصلي بعدها اربـع ركعات يقرأ في كل ركعة خمسين آية ، يجهر تارة ويخافت اخرى ، ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة فيخرج فيصلي ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية فيؤامره الوزراء فيما اراد واصدروا من ليلتهم ، ويستمر الى ثلث الليل في اخبار العرب واياما والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسائر ملوك الامم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها وغير ذلك من اخبار الامم السالفة ، ثم تأتيـه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ثم يدخل فينام نصف الليل . ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك واخبارها والحروب والمكايد فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وانواع السياسات ، ثم يخرج فيصلي الصبح ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم) .

وهناك مأثورات كثيرة اخرى من اقواله وخطبه ومعالجاته ونظراته لمختلف الشؤون فيها مصداق لذلك كله .

من ذلك ما رواه عطية بن قيس قال (خطبنا معاوية فقال ان في بيت مالكم فضلا بعد اعطياتكم . واني قاسمه عليكم . فان كان يأتيكم فضل عاماً قابلا قسمناه عليكم والا فلاعتبة علي . فانه ليس بمالي وانما هو مال الله الذي افاء عليكم[1] ومن ذلك قوله (مـــا من شيء الذ عندي من غيظ اتجرعه)[2] .

وقوله لاحد شباب بني امية وكان مولعاً بالشعر (يا ابن اخي انك لهجت بالشعر . فاياك والتشبيب بالنساء فتعر الشريفة . والهجاء فتعر كريماً وتستثير لئيماً . والمدح فانــه طعمة الوقاع . ولكن افخر بمفاخر قومك . وقل من الامثال ما تزيد به نفسك وتؤدب به غيرك)[3] .

وقوله جواباً على سؤال اي الناس احب اليك (اشدهم لي تحبيباً الى الناس)[4] وقوله (العقل والحلم افضل ما اعطي العبد فاذا ذكر ذكر واذا اعطي شكر . واذا ابتـــلي صبر . واذا

---

(١) المنتقى ص ٣٨٨ (٢) البداية والنهاية لابن كثير ص ١١٧ وبعدها .
(٣-٤) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٤٨ -٢٤٩ والبداية والنهاية ج ٨ .

غضب كظم ، واذا قدر غفر ، واذا اساء استغفر ، واذا وعد انجز)[1] .

وقوله وقد اغلظ رجل له فحلم عنه فقيل له اتحلم عن هذا (اني لا احول بين الناس والسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا)[2] .

وقوله لبعض رجال بني امية (فارقوا قريشاً بالحلم ، فما وضع الحلم عن شريف شرفه ، وما زاده الا كرماً ، ولا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب علمه جهله ، وصبره شهوته[3] .

وقوله (المروءة في اربع ، العفاف في الاسلام ، واستصلاح المال ، وحفظ الاخوان ، وحفظ الجار)[4] .

ولقد كان كثيراً ما يتمثل بهذه الابيات[5] .

فما قتل السفاهة مثل حلم | يعود به على الجهل الحليم
فلا تسفه وان ملئت غيظاً | على احد فان الفحش لؤم
ولا تقطع آمالك عند ذنب | فان الذنب يغفره الكريم

وقوله جواباً على سؤال من اسود الناس (اسخاهم نفساً حين يسأل واحسنهم في المجالس خلقاً ، واحلمهم حين يستجهل) .

وقوله (كل الناس استطيع ان ارضيهم الا حاسد نعمة فانه لا يرضيه الا زوالها[6] .

وقوله في كتاب ارسله الى زياد (لا ينبغي ان نسوس الناس سياسة واحدة ، باللين فيمرحوا ، وبالشدة فنحملهم على المهالك ، ولكن كن انت للشدة والغلظة وانا للين والالفة والرحمة حتى اذا خاف خائف وجد باباً يدخل منه)[7] .

وقال رجل له ما احلمك يا امير المؤمنين فقال اني لاستحيي ان يكون جرم احد اعظم من حلمي[8] .

(١-٥) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٤٨-٢٤٩ والبداية والنهاية ج ٨

(٦-٨) ابن كثير البداية والنهاية ج ٨ ص ١١٧-١٣٥

وأسمع رجل معاوية كلاماً سيئاً شديداً فقيل له لو سطوت عليه فقال اني لاستحيي من الله ان يضيق حلمي عن ذنب احد من رعيتي . وروى الاصمعي عـــن الثوري قوله (اني لاستحيي ان يكون ذنب اعظم من عفوي . او جهل اكبر من حلمي او عورة لاأواريهـــا بستري) [1] .

وكلمه شخص اسمه ابو الجهم بكلام فيه غمز فأطرق ثم رفع رأسه فقال (يا ابا الجهم اياك والسلطان فانه يغضب غضب الصبيان ، ويأخذ اخذ الاسد ، وان قليله يغلب كثير الناس ثم امر له بمال فقال ابو الجهم :

نميل عـــلى جوانبه كأنا		نميل اذا نميل على ابيـــنا
نقلبه لنخبر حالتيه		فنخبر منهما كرماً ولينا [2]

وشكا اليه ابن اخته من شتيمة رجل له فقال له (طأطىء لها فتمر فتتجاوزك) [3] .

وقال له رجل ما رأيت انذل منك فقال (بلى من واجه الرجال بمثل هذا) [4] .

ولقد اذن للاحنف بن قيس ثم دخل محمد بن الاشعث فجلس بين معاوية والاحنف فقال معاوية (انا لم نأذن له قبلك إلا لتكون دونه وقد فعلت فعل من احس من نفسه ذلا ، إنا كما نملك اموركم نملك ادبكم ، فأريدوا منا ما نريد منكم فانه ابقى لكم) [5] .

وقوله المشهور (لو كان بيني وبين النـــاس شعرة ما قطعت ، اشد اذا ارخوا وارخي اذا شدوا) [6] .

ومما يروى ان المسور بن مخرمة من اصحاب رسول الله جاء اليه فقال له كلمني بما في نفسك فلم يدع شيئا تراءى له أنه من عيوب معاوية وذنوبه الا ذكره له وخوفه مـــن عاقبته . فسأله هل لك ذنوب وعيوب تخشى ان يهلكك الله بها ان لم يغفرها لك . قال نعم . قال فما الذي يجعلك أحق بان ترجو المغفرة مني . فوالله لما الي من اصلاح الرعايا واقامة الحدود والاصلاح

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ج ٨ ص ١١٧-١٣٥

(٢-٦) المصادر السالفة الذكر

بين الناس والجهاد في سبيل الله والامور العظام التي لا يحصيها الا الله اكثر مما تذكر من العيوب والذنوب)[1] .

ومن المأثور من خطبة له في المدينة (لقد حاولت ان اتشبه بأبي بكر وعمر وعثمان فما استطعت . هيهات يدرك فضلهم من بعدهم . فان لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم . والله لا احمل السيف على من لا سيف له . ومهما تقدم مما علمتموه فقد جعلته دبر اذني . وان لم تجدوني اقوم بحقكم كله فارضوا مني ببعضه . وان اتاكم مني خير فاقبلوه . فان السيل اذا جاء يثرى . وان اقل اغنى . واياكم والفتنة فلا تهموا بها فانهاتفسد المعيشة. وتكدرالنعمة. وتورث الاستئصال[2] .

ومن خطبة اخرى له في المدينة (ايها الناس ، انا قدمنا عليكم ، وانما قدمنا على صديق مستبشر وعدو مستتر ، وناس بين ذلك ينظرون وينتظرون ، فان اعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ، ولست واسعاً كل الناس فان تك محمدة فلا بد من مذمة ، فلوماً هوناً واياكم والتي ان اخفيت اوبقت او ذكرت اوثقت ، ولست احب ان تكونوا كخلق العراق ، يعيبون الشيء وهم فيه ، وكل امر منهم شيعة نفسه فاقبلونا بافينا ، فان ماوراءناشر لكم ،وان معروف زماننا منكر زمان قد مضى ، ومنكر زماننامعروف زمان لم يأت ، ولو قد أتى فالرتق خير من الفتق وفي كل بلاغ ، ولا مقام على الرزية[3] .

ومن خطبة عامة له يوم جمعة (ايها الناس ، اعقلوا اقوالي ، فلن تجدوا اعلم بأمورالدنيا والآخرة مني . خذوا على ايدي سفهائكم او ليسلطن الله عليكم عدوكم فليسومنكم سوء العذاب . تصدقوا ولا يقولن رجل اني مقل . فان صدقة المقل افضل من صدقة الغني ، اياكم وقذف المحصنات ، وان يقول الرجل سمعت وبلغني ، فلو قذف احدكم امرأة على عهد نوح لسئل عنها يوم القيامة ثم نزل ليؤم الناس فقال اقيموا وجوهكم وصفوفكم في الصلاة او ليخالفن الله بين قلوبكم)[4] .

ومن خطبة له في اثناء مرضه وقد دخل عليه الناس يعودونه (يا ايها الناس ، انا قد

(١–٢) البداية والنهاية والعقد الفريد ج ٢ ص ٣٧٤

(٣–٤) البداية والنهاية والعقد الفريد

اصبحنا في دهر عنود ، وزمن شديد ، يعد فيه المحسن مسيئاً ، ويزداد الظالم فيه عتواً ، لا ننتفع بما علمنا ، ولا نسأل عما جهلنا ، ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا، فالناس على اربعة اصناف . منهم من لا يمنعه من الفساد في الارض ، الا مهانة نفسه وكلال حده ونقيض وفره ، ومنهم المصلت لسيفه المجلب برجله المعلن بشره ، قد اشرط نفسه واوبق دينه لحطام ينتهزه او مقنب يقوده او منبر يفرعه ، وليس المتجران تراهما لنفسك ثمناً وبما لك عند الله عوضاً ، ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا . قد طامن من شخصه وقارب من خطوه ، وشمر عن ثوبه ، وزخرف نفسه للامانة ، واتخذ ستر الله ذريعة الى المعصية ، ومنهم من اقعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه وانقطاع سببه ، فقصرت به الحال عن حاله فتحلى باسم القناعة ، وتزيا بلباس الزهادة ، وليس ذلك في مراح ولا مغدى وبقي رجال اغض ابصارهم ذكر المرجع ، واراق دموعهم خوف المضجع ، فهم بين شريد ناد ، وبين خائف منقمع ، وساكت مكعوم ، وداع مخلص ، وموجع ثكلان . وقد اخملتهم التقية ، وشملتهم الذلة ، فهم في بحر اجاج ، افواههم ضامزة وقلوبهم قرحة . قد وعظوا حتى ملوا وقهروا حتى ذلوا ، وقتلوا حتى قلوا ، فلتكن الدنيا في اعينكم اصغر من حثالة القرظ وقراضة الجلم ، واتعظوا بمن كان قبلكم قبل ان يتعظ بكم من بعدكم وارفضوها ذميمة فقد رفضت من كان اشفق بها منكم)[1] .

ولقد اثر عنه موقف يدل على قوة نفسه وبعد مطمحه حيث روي عنه قوله (لقد وضعت رجلي في الركاب وهممت بالهزيمة يوم صفين فما منعني الا قول ابن الاطنابة :

ابت لي عفتي وحياء نفسي	واقدامي على البطل المشيح
واعطائي على المكروه مالي	واخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولي كلما جشأت وجاشت	مكانك تحمدي او تستريحي[2]

ومن النوادر المأثورة عنه ما جرى بينه وبين عمر بن الخطاب حينما زاره في الشام في ابان ولايته حيث تلقاه في موكب عظيم فلما دنا منه قال له انت صاحب الموكب . قال نعم ياامير المؤمنين . قال هذا حالك مع ما بلغني من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك . لقد هممت

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٧٧-٣٧٨

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٦-١٧ وابن كثير يروي هذا بخلاف يسير انظر البداية والنهاية ج٨

ان آمرك بالمشي حافياً الى بلاد الحجاز . قال له يا امير المؤمنين . انا بارض جواسيس العدو فيها كثيرة فيجب ان نظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز للاسلام واهله ونرهبهم به . فان امرتني فعلت وان نهيتني انتهيت . فقال له يا معاوية ما سألتك عن شيء الا تركتني في مثل رواجب الضرس . لئن كان ما قلت حقاً انه لرأي رجل لبيب ولئن كان باطلا انه لخدعة رجل اريب فقال له مرني بما ترى فقال لا آمرك ولا انهاك . فقال رجل يا امير المؤمنين ما احسن ما صدر الفتى عما اوردته فيه فقال لحسن موارده ومصادره جشمناه ما جشمناه [١] .

ومما اثر من اعماله انه كان يبعث رجلا في كل يوم يقال له ابو الجبش ليسأل هل ولدلاحد مولود او قدم احد من الوفود . فاذا اخبر بذلك اثبت في الديوان واجرى عليه الرزق [٢] .

وكان يغدق العطاء لآ ل البيت . وروي من ذلك انـــه قضى عن عائشة ام المؤمنين (١٨٠٠٠) ديناراً دينا كانت تعدها الناس . وبعث اليها بمئة الف . وقـــدم عليه الحسن والحسين فأجازهما بمئتي الف.وارسل الحسن وعبدالله بن جعفر اليه يسألانه مالا فبعث الى كل منهما بمئة الف . وكان لعبد الله بن جعفر في كل سنة الف الف . مع قضاء مئة حاجـــة له . وصار عليه خمسمئة الف ديناً فألح عليه غرماؤه فركب اليه يستعجل عطاءه لذلك فقضى دينه وقال له ان الالف الف تأتيك في وقتها بتمامها [٣] .

ومما روي عنه انه لما مات الحسن وكان عبد الله بن عباس في دمشق امر ابنه يزيد ان يذهب فيعزيه به فذهب وجلس بين يديه . واراد ابن عباس ان يرفع مجلسه فأبى وقال انما اجلس مجلس المعزي لا المهني . ثم ذكر الحسن فقال رحم الله ابا محمد اوسع الرحمة وافسحها واعظم الله اجرك واحسن عزاك وعوضك من مصابك ما هو خير لك ثواباً وخير عقبى . فلم يسع ابن عباس بعد ان غادره يزيد الا ان قال لجلسائه اذا ذهب بنو حرب ذهب علماء الناس ثم انشد متمثلا :

مغاض عـن العوراء لا ينطقونها ... واصل وراثات الحلوم الاوائل [٤]

وقيل لمعاوية اسرع اليك الشيب فقال كيف لا ولا ازال ارى رجلا من العرب قائماً

(١–٢) البداية والنهاية ايضاً ج ٨ ص ١١٥–١٣٥

(٣–٤) البداية والنهاية ج ٨ص١٣٨و٢٢٨

على رأس يلقح لي كلاماً يلزمني جوابه . فان اصبت لم احمد . وان اخطأت سارت بهــا البرود .

ومما روي عزواً الى ابي بكر الهذلي ان معاوية كان يقول الشعر فلما ولي الخلافة قال له اهله قد بلغت الغاية فماذا تصنع بالشعر فارتاح يوماً فقال :

صرمت سفاهتي وارحت حلمي ... وفيّ عــلى تحملي اعتراض

عــلى اني اجيب اذا دعتني ... الى حاجاتها الحدق المراض

ومن طرائف ما روي عنه انه اتى بلصوص فقطعهم حتى بقي واحد من بينهم فقال :

يميني يا امير المؤمنين اعيذها ... بعفوك ان تلقى مكاناً يشينها

يدي كانت الحسناء لو تم سترها ... ولا تعدم الحسناء عيباً يشينها

فلا خير في الدنيا وكانت حبيبة ... اذا ما شمالي فارقتها يمينها

فقال معاوية كيف اصنع بك . قد قطعنا اصحابك . فقالت ام الرجل يا امير المؤمنين اجعلها في ذنوبك التي تتوب بها . فخلى سبيله[1] .

ومما فعله معاوية وعده خصومه عليه نقيصة وعيباً بل موبقة نكراء[2] استلحاقــه زياداً بنسبه حيث كان يدعى زياد بن ابيه او زياد بن سمية فصار يدعى زياد بن ابي سفيان . لان ابا سفيان اصاب امه في الجاهلية فولدت زياداً . وقد نبغ حتى صار خطيباً مصقعاً وشخصاً قوي النفس والهمة . وقد وقف خطيباً مرة فأعجب به علي بن ابي طالب فقال لو كان ابو هــذا الغلام من قريش لساق العرب بعصاه . فقال ابو سفيان وكان الى جانبه والله اني لاعرف اباه . فقال له اسكت لا يسمعك عمر فيسرع اليك . ومضى الوقت حتى صارت الخلافة الى علي فاستعمله على البصرة فقام بأمرها خير قيام واخلصه . وحينما تنازل الحسن لمعاوية رضي الله عنهما كان في جبال اصطخر حيث امره علي رضي الله عنه بقمع ثورة كردية فيها .

---

(١) هذه الثلاث من البداية والنهاية ج ٨ ص ١٣٨-١٤٠

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٣٥ وبعدها و ٢٠٨ واليعقوبي ج ٢ ص ٢١٨-٢١٩ وابن الاثير ج ٤ ص ١٧٥-١٧٧ ومروج الذهب ج ٢ ص ٣١٠

ومما ترويه الروايات التي يحتمل ان يكون فيها بعض التزيد والتحريف ان معاوية جنح الى التشدد معه في بدء الامر يأساً من ان يكون مخلصاً له فعزله عن البصرة وامر واليه الذي عينه ان يعتقل اولاده رهناً وان يحاسب اباهم على ما في يده من اموال الدولة ففعل ولكن زياداً قابل الاجراء بغضب وتهديد حتى نعت معاوية بابن آكلة الاكباد ولم يستسلم. وذهب ابو بكرة اخو زياد من امه الى معاوية فتشفع ببني امية فشفعه . ثم جنح الى الملاينة والرغبة في كسب زياد الى جانبه لما كان من صفاته وحزمه . واستشار المغيرة بن شعبة في ذلك فحبذه له .

ومما يروى في صدد ذلك ان معاوية قال للمغيرة بين يدي استشارته له :

انما موضع سر المرء ان	باح بالسر اخوه المنتصح
فاذا بحت بسر فالى	ناصح يستره او لا يبح

فقال يا امير المؤمنين ان تستودعني تستودع ناصحاً شفيعاً ورعاً وثيقاً . فاستشاره في استلحاق زياد واظهر خوفه من ان ينحاز الى احد ابناء علي فيفلت من يده وينااله كيده . فحبذ له الامر فأرسله اليه ليجس نبضه فذهب وشجع زياداً على القبول وجعله يقدم على معاوية. ولما قدم عليه لاطفه وحاسنه ولم يتشدد معه في المحاسبة على ما كان تحت يده من اموال وصدقه فيما قاله عنها ثم اتى بشهود شهدوا بما علموا من نسبة زياد الى ابي سفيان وحينئذ اعلن نسبه الجديد . وقد عينه والياً على البصرة . ثم جمع له الكوفة وخراسان وسجستان والسند والبحرين وعمان ،

ولقد اثر عن بعض الشعراء مع اختلاف الروايات في اسمائهم شعر فيه هجو لمعاوية وطعن في نسب زياد . من ذلك :

ألا أبلغ معاوية بن حرب	مغلغلة من الرجل اليماني
اتغضب ان يقال ابوك عف	وترضى ان يقال ابوك زاني
فأشهد ان رحمك من زياد	كرحم الفيل من ولد الاتان

ومن ذلك مخاطباً عباداً بن زياد :

اذا اودى معاوية بن حرب	فبشر شعب قعبك بانصداع

فاشهـــد ان امك لم تباشر ابا سفيان واضعة القناع
ولكن كان امر فيه لبس على وجل شديد وارتياع [١]

غير ان السياق الذي اورده الطبري لهذا الشعر صريح بأن الشاعر قال ما قال غيظاً من زياد وبنيه لسبب شخصي فلا معول عليه .

وفي رأينا ان استلحاق معاوية لزياد لا يتحمل طعناً ووضعاً بأنه موبقة نكراء . فالنطفة التي جاء منها نطفة جاهلية ليس من شأنها منع استلحاقه بأبيه الحقيقي في زمن الجاهلية .

ونعتقد ان علم وفقه ودين وتقوى معاوية لا يمكن ان تسمح له بأن يفعل ذلك لو علم ان فيه مطعناً في الدين او المروءة . وقد رأى فيه مصلحة عامة وخاصة للمسلمين وله وكفى . والتسويء الذي دار حول العمل هو هوى حزبي اكثر منه شيء آخر .

ولقد علم علي بن ابي طالب انه من نطفة سفاح فلم يمنعه ذلك من استعماله والياً على شؤون المسلمين لانها نطفة جاهلية . والاسلام يجب ما قبله .

ولقد روي ان عبد الله بن عامر والي البصرة في اول خلافة معاوية انتقد الاستلحاق وقال اني هممت ان آتي بقسامة من قريش يحلفون ان ابا سفيان لم ير سمية . والسياق يفيد ان قوله كان بسبب انتقاد زياد لاعماله واعمال عماله . وقد ورد في السياق ان معاوية بلغه ما قاله فقال له اما والله لقد علمت العرب اني كنت اعزها في الجاهلية وان الاسلام لم يزدني الا عزاً واني لم اتكثر بزياد من قلة ولم اتعزز به من ذلة . ولكن عرفت حقاً له فوضعته فيه [٢] .

ولقد ابلى زياد بلاء عظيما فيما عهد به اليه من عمل كبير في خلافة علي ثم في خلافة معاوية . وظهر منه من الحزم والعزم والدهاء وقوة الشخصية والعارضة ما يسلكه في عداد عظماء رجال العرب والمسلمين . وكان خطيباً مصقعاً . وقد اوردنا بعض خطبه في سياق حادث حجر بن عدي . وقد اثرت عنه خطبة طويلة عرفت بالبتراء فيها دلالة على ما كان يتحلى به هذا

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٣٤-٢٣٥

(٢) الطبري ج ٤ ص ١٦٣

البطل العربي الاسلامي من قوة عقل ودهاء وبصر في اصول الحكم وحزم في قمع الشغب والانحرافات الاخلاقية وتعلق بأصول الدين وحدوده وتقوى الله والحث على التزام ذلك كله رأينا ان نوردها كمأثرة من مآثر احد عظماء هذا العهد . وهذا نصها منقولا من تاريخ الطبري [١] .

وقد يحيك في الصدر لطولها وتنميقها انها مصنوعة .

وهناك خطب وكتب مأثورة عديدة عن خلفاء بني امية وولاتهم وقوادهم طويلة جداً ومنمقة . ويحيك في الصدر ما يحيك بالنسبة لهذه ايضاً . ولكن احتمال ان تكون منقولةعن مدونات قديمة كتبت في زمن الامويين او احتمال ان تكون مشهورة ولها اصل صحيح وارد ايضاً .

الحمد لله على افضاله واحسانه، ونسأله المزيد من نعمه ، اللهم كما رزقتنا نعما فألهمناشكراً على نعمتك علينا ، اما بعد فان الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والفجر الموقد لاهله النار الباقي عليهم سعيرها ما يأتي سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الامور العظام . ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى منها الكبير ، كأن لم تسمعوا بآي الله ولم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما اعد الله من الثواب لاهل طاعته والعذاب لاهل معصيته ، في الزمن السرمد الذي لا يزول ، اتكونون كمن طرفت عينه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون انكم احدثتم في الاسلام الحدث الذي لم تسبقوا به من تركك هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر والعدد غير قليل . ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار،قربتم القرابة وباعدتم الدين . تعتذرون بغير العذر وتغطون على المختلس . كل امرىء منكم يذب عن سفيه صنيع من لا يخاف عقاباً ولا يرجو معاداً ، ما انتم بالحكماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، ولم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام ثم اطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الريب ، حرم علي الطعام والشراب حتى اسويها بالارض هدماً واحراقاً ، اني رأيت آخر هذا الامر لا يصلح الا بما صلح به وله ، لين في غير ضعف ، وشدة في غير جبرية وعنف ، واني اقسم بالله لآخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح منكم بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم

---

(١) ج ٤ ص ١٦٥-١٦٩

اخاه فيقال انج سعد فقد هلك سعيد ، اوتستقيم لي قناتكم ، ان كذبة المنبر تبقى مشهورة. فاذا تعلقتم علي بكذبة فقد حلت لكم معصيتي ، من يبيت منكم فأنا ضامن لما ذهب له ، إياي ودلج الليل ، فاني لا اوتى بمدلج الا سفكت دمه ، وقد اجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع الي ، واياي ودعوى الجاهلية ، فاني لا اجد احداً دعا بها الا قطعت لسانه . وقد احدثتم احداثا لم تكن ، وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن حرق على قوم حرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه حياً ، فكفوا عني ايديكم والسنتكم اكفف يدي واذاي ، لا يظهر من احد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين اقوام إحن فجعلت ذلك دبر اذني ، وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسناً فليزدد احساناً . ومن كان مسيئاً فلينزع عن اساءته ، اني لو علمت ان احدكم قد قتله السل من بغضي لم اكشف له قناعاً ، ولم اهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته . فاذا فعل لم اناظره . فاستأنفوا اموركم واعينوا على انفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور يبتئس ، ايها الناس انا اصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا لكم وعلينا العدل فيما ولينا ، واستوجبوا عدلنا وفيأنا بمناصحتكم ، واعلموا اني مهما قصرت عنكم فاني لا اقصر عن ثلاث ، لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو اتاني طارقاً بليل ، ولا حابساً رزقاً ولا عطاء عن إبّانه ، ولا مجمراً لكم بعثاً ، فادعوا الله بالصلاح لائمتكم فانهم ساستكم المؤدبون لكم . وكهفكم الذي اليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا حاجتكم ، مع انه لو استجيب لكم كان شراً لكم ، اسأل الله ان يعين كلا على كل ، واذا رأيتموني انفذ فيكم الامر فانفذوه على اذلاله ، وايم الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرىء منكم ان يكون من صرعاي) .

ومما روي ان عبد الله بن الاهتم قام عقب هذه الخطبة فقال اشهد ايها الامير انك قد اوتيت الحكمة وفصل الخطاب فقال زياد كذبت ذاك نبي الله داود عليه السلام [1] .

وقام الاحنف بن قيس فقال قد قلت فأحسنت ايها الامير ، والثناء بعد البلاء والحمد بعد

---

(١) لان آية سورة ص (٢٠) تقول عن داود (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) فتأدب زياد ازاء الآية ولم يرد ان يوصف بما وصف الله به نبياً من انبيائه .

العطاء ، وانا لن نثني حتى نبتلي فقال زياد صدقت . وقد امر صاحب شرطته بعد ذلك ليخرج ويتعسس الناس ويأخذ من يراه مدلجاً في ريبة . فخافه الناس وامنوا بعضهم بعضاً حتى كان الشيء يسقط من الرجل او المرأة فلا يعرض له احد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه . وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها . وساس الناس سياسة لم ير مثلها وهابه الناس هيبة لم يهابوها احداً قبله وادر العطاء وبنى مدينة الرزق ، حتى لقد قال لو ضاع حبل بيني وبين خراسان لعلمت من اخذه . وولى شخصاً امر الفساق يتتبعهم ويكفهم . فقال فيه حارثة بن بدر الغداني :

الا من مبلغ عني زياداً	فنعم اخو الخليفة والامير
فأنت امام معدلة وقصد	وحزم حين يحضرك الامور
اخوك خليفة الله ابن حرب	وانت وزيره نعم الوزير
تصيب على الهوى منه ويأتي	محبك ما يجن لنا الضمير
بأمر الله منصور معان	اذا جار الرعية لا تجور
يدر على يديك لما ارادوا	من الدنيا لهم حلب غزير
وتقسم بالسواء فلا غني	لضيم يشتكيك ولا فقير
وكنت حيا وجئت على زمان	خبيث ظاهر فيه شرور
تقاسمت الرجال به هواها	فما تخفي ضغائنها الصدور
وخاف الحاضرون وكل باد	يقيم على المخافة او يسير
فلما قام سيف الله فيهم	زياد قام ابلج مستنير
قوي لا من الحدثان غر	ولا جزع ولا فان كبير

ولقد كان يلي الكوفة حينما ولى معاوية زياداً البصرة المغيرة بن شعبة فمات بعد قليل فجمع معاوية له الكوفة ايضاً فكان يقيم ستة اشهر في البصرة وستة اشهر في الكوفة .

ومما يروى انه لما جاء الكوفة لاول مرة خطب اهلها فقال (ان هذا الامر اتاني وانا في البصرة فأردت ان اشخص اليكم في الفين من شرطة البصرة ثم ذكرت انكم اهل حق وان حقكم طالما دفع الباطل فاتيتكم في اهل بيتي فالحمد لله الذي رفع مني ما وضع الناس وحفظ مني ما ضيعوا . فبادر بعض السامعين الى حصبه فامر خاصته باخذ الابواب ثم امر بكرسي وضع له على باب المسجد فدعا الناس اربعة اربعة يحلفهم بالله مامنا من حصبك فمن حلف

خلاه ومن لم يحلف حبسه وعزله حتى بلغ عدد غير الحالفين ثلاثين في رواية وثمانين في رواية اخرى فقطع ايديهم . واعقب الطبري هذا السياق بكلمة تعقيبية منسوبة الى الشعبي جاء فيها (فوالله ما تعلقنا عليه بكذبة وما وعدنا خيراً ولا شراً الا انفذه) .

ومع كل هذه الصولة والدولة فقد كان متواضع المظهر زاهداً حتى لقد روى الطبري بطرقه عن جرير بن يزيد انه قال لقد رأيت زياداً عليه قميص مرقوع وهو على بغلة عليها لجامها قد ارسنها [1] .

ولم يكن المرتب السنوي الذي خصصه لنفسه ليزيد عن خمسة وعشرين الف درهم . وهو مقدار زهيد جداً اذا ما قورن بما روي من ان مرتب ابن هبيرة والي العراق في زمن مروان بن محمد كان (٦٠٠ ٠٠٠) ثم اذا ما قورن بما تأثله ولاة العراق من ثروات طائلة كانت تبلغ عشرات الملايين منهم خالد بن عبد الله ويوسف بن عمر على ما سوف يرد في سيرة هشام وما بعده .

ومما اثر عنه انه كان يفضل استخدام الموالي وبخاصة الدهاقين منهم في جباية الخراج فعاتبه بعض العرب على ذلك فقال له (كنت اذا استعملت العربي كسر الخراج فاذا اغرمت عشيرته او طالبته اوغرت صدورهم وان تركته تركت مال الله وانا اعرف مكانه . فوجدت الدهاقين ابصر بالجباية واوفى بالامانة واوهن بالمطالبة منكم ثم جعلتكم امناء عليهم — اي رقباء — لئلا يظلموا احداً) [2] .

وفي هذه الصورة ما فيها من دلالة على الحصافة وبعد النظر والاهتمام لحفظ حق الدولة مع عدم اهمال العرب في الوقت نفسه من ذلك .

وفي تاريخ اليعقوبي نبذة عنه تدل كذلك على ما كان عليه من عقل راجح وبصر ثاقب ودراية في الامور وجد وصدق وعلى كونه رجل دولة من طراز رفيع . ولقد وصفه بانه كان له دهاء ورجولة وصولة وانه أول من دون الدواوين ووضع النسخ للكتب وافرد

---

(١) الطبري ج ٤ ص ١٧٤ - ١٧٥ و ٢١٦

(٢) روى هذا جرجي زيدان في كتابه تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٢٣ عزواً الى ابن الاثير.

كتاب الرسائل من العرب والموالي المتفصحين. ورتب لعياله الف درهم ولنفسه خمسةوعشرين الفاً . ومن أقواله (ملاك السلطان اربع خلال : العفاف عن المال والقرب من المحسن والشدة على المسيء وصدق اللسان) .

ومن ذلك ينبغي للوالي ان يكون اعلم بأهل عمله منهم انفسهم) [1] و (ان اعظم الناس كذباً امير يقف على المنبر وتحته مئة الف نفس فيكذبهم واني والله لا اعدكم اجراً الا انجزته ولا اعاقبكم حتى اتقدم عليكم)و (ليس كل يصل الي ولا كل من وصل الي امكنه الكلام فاستشفعوا لمن وراءكم فاني من ورائكم امنع ان اردت أن امنع) و(ينبغي ان يكون كتاب الخراج من رؤساء الاعاجم العالمين بامور الخراج) و(اربعة اعمال لا يليها الا المسن الذي قد عض على ناجذه : الثغر والصائفة والشرط والقضاء . وينبغي ان يكون صاحب الشرط شديد الصولة قليل الغفلة وان يكون صاحب الحرس مسناً عفيفاً مأموناً لا يطعن عليه وان يكون في الكاتب خمس خلال : بعد غور وحسن مواراة . واحكام للعمل والا يؤخر عمل اليوم الى الغد والنصيحة لصاحبه . وان يكون الحاجب عاقلا فطناً قد خدم الملوك قبل ان يتولى حجابتهم) .

ولقد كانت بلاد العجم وخراسان وما وراء النهر تابعة لولايته العامة . وكان هو الذي يولي عمال هذه البلاد ويراقبهم ويوجههم . واليه واليهم يعود فضل كبير بما قام به العرب في هذه الانحاء من نشاط في توسيع رقعة السلطان العربي ونشر الاسلام والطابع العربي على ما سوف يأتي تفصيله في نبذة حركة الفتوح في هذه البلاد .

ولقد مات زياد سنة ٥٤ ورثاه الشعراء مراثي تتضمن ما كان عليه من همة وعزيمة وما كان له من بلاء .

من ذلك هذه الابيات المروية للجعد بن قيس [2] .

يوم الثلاثاء الذي كان مضى   يوم قضى فيه المليك ما قضى

---

(١) ذكر اليعقوبي ان رجلا قام اليه فقال اصلح الله الامير اتعرفني . فقال نعم المعرفة الجامعة . اعرفك باسمك واسم ابيك وكنيتك وعريفك وعشيرتك وفصيلتك . ولقد بلغ من معرفتي بكم اني ارى البرد على احدكم ثم آخر عارية فأعرفه (ج ٢ س ٢٠٩ - ٢١٠)

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٢١

وفاة بر ماجد جلد القوى | مر به نوال جعد والتظى
كان زياد جبلا صعب الذرى | شهها اذا شئتم نقيصات ابى
لا يبعد الله زياداً اذ ثوى

ولقد روى ابن خلكان في ترجمة القاضي شريح ان زياداً كتب الى معاوية يقول (ياامير المؤمنين) ضبطت لك العراق بشمالي وفرغت يميني لطاعتك فولني الحجاز) فبلغ ذلك عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وكان مقيما في مكة فقال اللهم اشغل عنا يمين زياد . فاصابه الطاعون في يمينه فجمع الاطباء واستشارهم فأشاروا عليه بقطعها فاستدعى القاضي شريحاً وشاوره فقال له (لك رزق معلوم واجل محتوم ، واني اكره ان كانت لك مدة ان تعيش في الدنيا بلا يمين ، وان كان قد دنا اجلك ان تلقى ربك مقطوع اليد فاذا سألك لم قطعتها قلت بغضاً في لقائك وفراراً من قضائك فمات زياد من يومه ، فلام الناس شريحاً على منعه زياداً من قطع يده لبغضهم له فقال انه استشارني والمستشار مؤتمن ، ولولا الامانة في المشورة لوددت انه قطع يده يوماً ورجله يوماً وسائر جسده يوماً) .

والصنعة وقصد التسويء المتأخر قويان على الرواية ، حيث كان خصوم بني امية من الهاشميين وشيعتهم في عهدهم وبعدهم يثيرون ثائرة البغضاء والحقد والتسويء حول زياد وبنيه وبني امية . ولقد كان زياد يلي جميع العراق وبلاد الفرس وخراسان ولا يعقل ان يطلب الى ذلك ولاية الحجاز . وهذا الطلب على فرض وقوعه كان بينه وبين معاوية فكيف يصل الى عبد الله بن عمر بصيغته المروية التي جعلت تتلاءم مع دعوته عليه !

ولقد كان زياد من احسن واعقل ولاة العراق ، وليس من موجب لدعاء عبد الله بن عمر عليه ، والقاضي شريح كان من عمال زياد ، فلو كان باغياً ظالماً مبغوضاً من الناس وكان القاضي فاضلا براً قوي الايمان كما تريد ان تقوله الرواية لما كان يرضى ان يتولى القضاء تحت يده .

ولقد توفي زياد في حياة معاوية ، فاستمر اولاده من بعده يخدمون الدولة الاموية بنفس الاخلاص والحزم والبلاء الذي كان لابيهم مما جعلهم يستحقون ان يسلكوا في سلك عظماء رجال العرب في هذا الدور ، وكان اكبرهم عبيد الله هو الذي تولى ولاية العراق وما وراءها في زمن معاوية ثم في زمن ابنه يزيد . وكان عباد والياً على سجستان وعبد الرحمن

والياً على خراسان . وصارت ولاية خراسان بعد هذا لاخيه سلم الذي احبه اهل خراسان حباً لم يحبوه اميراً مثله حتى ان عشرين الفاً منهم سموا ابناءهم باسمه من حبهم على ما رواه الطبري (١) .

ولقد كان حادث مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه في زمن ولاية عبيد اللهبن زياد مما سوف يأتي شرحه في نبذة خاصة فأجج النار التي اوقدتها شرارة مقتل حجر بن عدي تأجيجاً عظيما فكان من آثار ذلك ما يلمح في كتب التاريخ من حملات تسوئية وروايات تجريحية ضد بني زياد بالاضافة الى بني امية على ما هو المتبادر .

ومما رواه ابن الاثير وفيه صورة من اساليب معاوية التي تنطوي على الدهاء وكسب القلوب ان عبيد الله بن زياد وفد على معاوية مع وجوه اهل البصرة عام ٥٩هـ وفيهم الاحنف ابن قيس . وكان سيء المنزلة من عبيد الله مع انه كان من كبار الزعماء اليمانيين واصحاب العصبية في العراق فلما دخلوا رحب معاوية به واجلسه معه على سريره . وتكلم اعضاء الوفد فأحسنوا الثناء على ابن زياد والاحنف ساكت . فقال معاوية له ما لك يا ابا بحر لا تتكلم فقال ان تكلمت خالفت القوم . فقال معاوية انهضوا فقد عزلته عنكم واطلبوا والياً ترضونه . فجعل الوفد يطوفون على رجال بني امية واهل الشام يستأمرونهم في الامر والاحنف لم يبرح منزله فلم يتمكنوا من الاتفاق على احد . ثم جمعهم معاوية وقال لهم من اخترتم فاختلفت كلمتهم . والاحنف ساكت . فقال له مالك لا تتكلم فقال ان كنت تريد ان تولي علينا واحداً من اهل بيتك فلا نعدل بعبيد الله احداً . وان وليت من غيرهم فانظر في ذلك . فحينئذ اقر عبيد الله على ولايته واوصى زياداً بالاحنف خيراً .

وكان من نتائج هذا الموقف ان الفتنة لما هاجت في العراق بقي الاحنف اوفى الناس لبني معاوية ولعبيد الله (٢) .

ومما فعله معاوية تعيينه ابنه يزيد ولياً لعهده واخذه له البيعة من الناس . وكان ذلك

---

(١) ج ٤ ص ٤٢١

(٢) ج ٣ ص ٢٠٤ - ٢٠٥

قبل وفاته بأربع سنين [1] .

وروي في صدده رواية ربما كانت مصنوعة مفادها انه كان ليزيد اخ احمق من ام اخرى فنسبت هذه الام يزيد وامه فقال لها معاوية انه خير من ابنك فأنكرت فقال سترين ثم استدعى ابنها فقال له بدا لي ان اعطيك ما تسألني في مجلسي هـذا فقال له حاجتي ان تشتري لي كلباً وحماراً فارهين . ثم استدعى يزيد فقال له ما قاله لاخيه فخر ساجداً ثم رفع رأسه وقال الحمد لله الذي بلغ امير المؤمنين هذه المدة واراه في هذا الرأي . حاجتي ان تعقد لي العهد من بعدك وتوليني صائفة المسلمين هذا العام – قيادة الجهاد في بلاد الروم في الصيف – وتأذن لي بالحج إذا رجعت وتوليني الموسم – امارة الحج – وتزيد اهل الشام عشرة دنانير لكل رجل في عطائه وتجعل ذلك بشفاعتي . فقال له قد فعلت ذلك كله .

وهناك رواية تذكر ان المغيرة بن شعبة والي الكوفة هو الذي اقترح على يزيد ان يطلب ذلك من ابيه ففعل فأجابه الى تحقيق امله . والبيعة ليزيد بولاية العهد تمت سنة ٥٧هـ في حين ان المغيرة توفي سنة ٥٠ فاذا كان للرواية أصل فيكون المغيرة هو المثير للمسألة في نفس يزيد وحسب .

ويروي اليعقوبي رواية تذكر ان معاوية كتب الى زياد بن ابي سفيان مستشيراً في امر اخذ البيعة ليزيد فأجابه بناء على اشارة من بعض اخصائه ناصحاً بالتريث وقال له فيما قال : (ماذا نقول للناس إذا دعوناهم الى ذلك وهم يعرفون ان يزيـــد يلعب بالكلاب والقرود ويلبس المصبغ ويدمن الشراب ويمشي على الدفوف وبحضرتهم الحسين بن علي وعبد الله بن عباس وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر) واقترح عليه ان يأمره بالتخلق بأخلاق هؤلاء حولا او حولين حتى يمكن التمويه على الناس . وان معاوية قد غضب من جواب زياد وقال ويلي على ابن عبيد . لقد بلغني ان الحادي حدا له انه الامير بعدي . والله لأردنه الى امه سمية والى ابيه عبيد [2] .

---

(١) روايات اخذ البيعة ليزيد مقتبسة من تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٢٤ وبعدها والامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٦٠ وبعدها والبداية والنهاية ج ٨ ص ١١٥ والعقد الفريد ج ٣ ص ١٣٣ وبعدها.

(٢) ج ٢ ص ١٩٦ مطبعة الغري .

ولقد روى الطبري ايضاً خبر نصيحة زياد بالتريث دون الزيادات الاخرى . ورواية اليعقوبي لا تذكر الحسن وهذا يقتضي ان تكون الاستشارة بعد موت الحسن. وزياد مات قبل الحسن بثلاثة اعوام حيث يبدو من هذا تهافت الرواية زمنياً فضلا عن تهافتها محتوى كما هو المتبادر منها .

وما ذكرته رواية اليعقوبي عن شرب يزيد الخمر ولهوه فقد ذكر في روايات اخرى وروي ان اهل المدينة اتخذوه سبباً للثورة على يزيد بعد ان صارت اليه الخلافة .

غير ان هناك رواية تذكر ان محمد ابن علي بن ابي طالب المعروف بابن الحنفية نفى لاهل المدينة ما قالوه من ذلك عن يزيد حيث يمكن ان يقال ان ذلك قد صنع واثير من قبل خصوم يزيد للاثارة والدعاية وسيق على لسان زياد ليكون اوثق من حيث انه اسبق من وقت بيعته وخلافته .

وهناك روايات تذكر ان معاوية استشار بعض كبار رجاله حين اعتزم اخذ البيعة لابنه منهم الضحاك بن قيس الذي قال له (يا امير المؤمنين انه لا بد للناس من وال بعدك والانفس يغدى عليها ويراح . وان الله قال (كل يوم هو في شأن) ولا ندري ما يختلف به العصران . ويزيد بن امير المؤمنين في حسن معدنه وقصد سيرته من افضلنا حلماً واحكمنا علماً فوله عهدك . واجعله لنا علماً بعدك . وانا قد بلونا الجماعة والإلفة فوجدنا ذلك احقن للدماء وآمن للسبل وخيراً في العاقبة والآجلة).

ومنهم عمرو بن سعيد الذي قال مخاطباً مجلس الاستشارة (ان يزيد امل تأملونه واجل تأمنونه ، طويل الباع ، رحب الذراع ، إذا صرتم الى عدله وسعكم ، وان طلبتم رفده اغناكم ، جذع قارح ، سويق فسبق ، وموجد فمجد ، وقورع فقرع . خير خلف لامير المؤمنين ولا خلف بعده).

ومنهم الاحنف بن قيس الذي سأله معاوية عن رأيه فقال (نخاف منكم ان صدقناكم ونخاف الله ان كذبناكم . فانت اعلم به في ليله ونهاره وسره وعلنه ومدخله ومخرجه . وانما علينا ان نسمع ونطيع وعليك ان تنصح الامة) .

ومهما يكن من امر فالمعقول ان معاوية استشار بعض اخصائه وعقلاء اصحابه فشجعوه

فمضى في عزيمته واخذ البيعة ليزيد من اهـــل الشام ثم امر ولاة الاقطار فأخذوا البيعة له وارسلوا وفوداً للمبايعة الوجاهية ومن الجملة مكة والمدينة وكان ذلك سنة ٥٧ هـ .

وقد روت الروايات ان خمسة من اصحاب رسول الله في المدينة توقفوا عن البيعة . وهم الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن ابي بكر . وان معاوية خرج معتمراً فمر بالمدينة وتحدث مع هؤلاء على انفراد بسبيل اقناعهم بأهلية يزيد فلم يباعدوا ثم جمع الناس وخطب فيهم مثنياً على يزيد معدداً مزاياه وطلب منهم توكيد البيعة له ففعلوا . وكان الخمسة حاضرين فلم يبايعوا ولم يعترضوا فانصرف دون ان يلح عليهم .

والمشهور الذي لا خلاف فيه ان معاوية لم يأخذ لابنه البيعة الا بعـد وفاة الحسن بن علي رضي الله عنهما الذي يروى انه جعله ولياً لعهده من بعده.

فاذا صحت الرواية التي انفرد بها ابن قتيبة [1] ولم يذكرها زميلاه ومعاصراه الطبري واليعقوبي فيكون معاوية قد رأى نفسه في حل من ذلك العهد فسعى سعيه لتولية يزيـــد معتقداً كما نرجح انه اذا ترك الامر فوضى فقد تنبعث الفتن ثانية بين المسلمين بعد ان حصنت باجماع الامر عليه بتنازل الحسن فأقدم على مـــا اقدم عليه وهو يرى في عمله خيراً ومصلحة للمسلمين بالاضافة الى توثيق امر الدولة التي انشأها بجده وطموحه .

ولقد كان يزيد رجلا ناضجاً حينما بويـع بالعهد ثم بالخلافة. وقد قاد حملة غزوة القسطنطينية الاولى سنة ٤٩ او ٥٠ وكان في الحملة بعض مشاهير اصحاب رسول الله مثل ابي ايوب الانصاري وعبدالله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير.

وهناك مأثورات عنه من الاقوال والافعال في حياة ابيه وفي خلافته تسوغ القول إنه كان آهلا للخلافة وان اباه كان يعتقد ذلك فيه . وفي الاقوال المأثورة عن قيس بن الضحاك وعمرو بن سعيد فيه ما يؤيد ذلك .

ولقد روى اليعقوبي ان الحسن بن علي رضي الله عنه قال حين حضرته الوفاة لأخيـــه (هذه آخر ثلاث مرات سقيت فيها السم ولم اسقه مثل هذه المرة) .
وروى الحبر المسعودي ايضاً وزاد على رواية اليعقوبي ان الحسين سأله عمن سقاه اياه فقال

---

(١) ج ١ ص ١٥٠ الامامة والسياسة .

له وما تريد من ذلك فان كان الذي أظنه فالله حسيبه وان كان غيره فما أحب ان يؤخذ بريء بي .
ثم قال المسعودي دون عزو الى احد ان امرأة الحسن جعدة بنت الاشعث بن قيس الكندي سقته السم وكان معاوية دس اليها ووعدها بمئة الف وبتزويجها ليزيد اذا دست السم عليه .

ويستند خصوم الامويين إلى هذه الروايات ليطعنوا بمعاوية ويحملوه اثم قتل الحسن رضي الله عنهما ليخلو الجو لابنه من بعده والغدر بعهده الذي عاهده عليه برغم ما هي عليه من تهافت وعدم استنادها الى سند وثيق . ولا يمكن ان تكون صحيحة موضوعاً . فمعاوية الصحابي الجليل كاتب وحي رسول الله المأثور عنه كثير من الافعال والاقوال الدالة على ورعه وتقواه اجل من ان يستحل قتل اي نفس بغير حق مهما تقه شأن صاحبها فضلا عن نفس الحسن ابن بنت رسول الله ﷺ وحبيبه والذي تنازل له عن الامر وجمع له بذلك الحكم والسلطان وحقن دماء المسلمين .

وهذه الصفات والمأثورات تجعلنا نعتقد ان معاوية ما كان يمكن ان يولي ابنه لو لم يتيقن من اهليته وصلاحه او لو كان في ذلك شذوذ عن دين وغش للمسلمين .

ولقد توثق الامر بمبايعة الكثرة العظمى من المسلمين في جميع الامصار لولاية عهده ثم لخلافته بعد موت ابيه فكان في ذلك اقرار لشرعية ما فعله معاوية وتقرير لأهلية يزيد بالخلافة .

ولقد بايعه ابن عمر واعتبر بيعته قائمة وحذر من نقضها على ما رواه ابن كثير حيث اورد حديثاً رواه الامام احمد جاء فيه انه جمع بنيه واهله وقال لهم (انا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله واني سمعت رسول الله ﷺ يقول ان الغادر ينصب له لواء يوم القيامة يقال هذه غدرة فلان وان من اعظم الغدر ان يبايع رجل رجلا على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته فلا يخلعن احد منكم يزيد ولا يسرفن احد منكم في هذا الامر فيكون الفصل بيني وبينه)[1].

وحديثاً رواه ابو القاسم البغوي ان ابن عمر دخل على ابن مطيع الذي قاد حركة خلع معاوية في المدينة فقال له انما جئتك لاحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول (من نزع يداً من طاعة فانه يأتي يوم القيامة لا حجة له . ومن مات مفارق الجماعة فانه يموت موتة جاهلية)[2] .

وقد يقال ان معاوية قد شذ عن الخلفاء الراشدين في تولية ابنه وتثبيت السطان لاسرته

(١ــ٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٢ــ٢٣٣ .

من حيث ان الخلفاء الراشدين كانوا من أسر مختلفة ولم يكونوا يطلبون سلطاناً لأنفسهم فضلا عن اسرهم . غير ان من الحق ان نذكر ان عمله قد سبق بمثله في تولي الحسن بن علي بعد ابيه رضي الله عنهما سواء أكان ذلك بعهد ونص كما تقول فرقة الجارودية من الشيعة وكما روي عن ابي الاسود الدؤلي على ما ذكرناه في نبذة ولاية العهد ام كان باختيار المسلمين بعد ان سألوا اباه فأجابهم إنه لا يأمرهم ولا ينهاهم على ما اوردناه في الجزء السابق . وان الهاشميين من عباسيين وعلويين ثم معظم ملوك المسلمين قد ساروا على هذه الطريقة حيث يبدو من هذا شبه اجماع من المسلمين في مختلف الظروف والامكنة بعد الخلفاء الراشدين على فائدة هذه الطريقة وصلاحها بالنسبة للاستقرار والطمأنينة فلم يبق فيما فعله معاوية محل لغمز وطعن في مجال الامور الواقعية او سياسة الدولة كما انه ليس في ذلك شذوذ عن دين وهدى رباني ونبوي لان هذه المسألة تركت للمسلمين ليحلوها حسب مايجمع عليه جمهرة اهل الحل والعقد منهم وتمليه المصلحة والظروف بدليل ان النبي صلعم مات ولم يعهد بالامر بصراحة لاحد ولم يصدر عنه في هذا الصدد تعليم على ما هو المشهور الصحيح وقد انتهينا الى هذا في ما محصناه من الروايات الواردة في هذا الصدد في الجزء السابق .

ولقد قال سيد أمير علي الهندي في كتابه مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ان معاوية لم يتردد في نكث العهود مع الحسين بن علي ليضمن لابنه يزيد الخلافة من بعده[١] . ولا ندري هل هناك غلط مطبعي في الاسم ام لا . فان لم يكن فان احداً لم يرو انه كان للحسين عهد في ما يتصل بالخلافة فنقضها معاوية . وكل ما اثر ان بعض الشيعة انكروا تنازل الحسن وجاؤوا اليه فقال لهم ليكن كل رجل منكم حلس بيته ما دام معاوية حياً فانها بيعة كنت والله كارهاً لها . فان هلك معاوية نظرنا ونظرتم[٢] . وان كان المقصود هو الحسن فالمتواتر ان البيعة بولاية العهد قد جرت كما قلنا بعد موت الحسن المروي انه شرط في صلحه على معاوية ان يكون الامر له من بعده . فلم يبق محل لهذا القول

---

(١) الترجمة العربية لرياض رأفة ص ٢٦

(٢) الامامة والسياسة ص ١٥٢

ومما يرويه زيدان[1] ان معاوية كان مغيظاً من الانصار لميلهم الى علي وابنائه دونه فاقترح عليه ابنه ان يحمل كعباً بن جعيل شاغر تغلب على هجوهم فارسل اليه فاعتذر وقال له ادلك على غلام منا نصراني لايبالي أن يهجوهم كأن لسانه لسان ثور وهو الاخطل فدعاه فأمره بهجوهم فقال قصيدة جاء فيها :

واذا نسبت ابن القريعة خلته	كالجحش بين حمارة وحمار
لعن الاله من اليهود عصابة	بالجزع بين صليصل وصرار
قوم اذا هدر العصير رأيتهم	حمراً عيونهم من المسطار
خلوا المكارم لستم من أهلها	وخذوا مساحيكم بني النجار
إن الفوارس يعلمون ظهورهم	اولاد كل مقبح أكار
ذهبت قريش بالمكارم والعلا	واللؤم تحت عمائم الانصار

ونحن نشك شكاً كثيراً في صحة الرواية . فلا شك في ان معاوية يعرف منزلة الانصار في الاسلام من نصوص القرآن ومن أحاديث النبي العديدة[2] . ولا يمكن في اعتقادنا ان يغري بهم الشاعر وأن يرضى بلعنه لهم ونعته اياهم باليهود واللؤم .

وتذكر بعض الروايات[3] أن معاوية كان يلعن علياً على المنبر بعد خطبة الجمعة ويأمر بلعنه وسبه وذمه . ويذكر بعضها إنه إنما كان يأمر بتنقصه . ويذكر بعضها انه انما كان يأمر بمدح

---

(١) اورد زيدان هذه الروايه في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ ولم يذكر مصدراً . ونعتقد أنه نقلها عن مصدرما . وفي يدنا ديوان للاخطل بخط يد مكتوب سنة ٥٧٧هـ نشر صورته الفوتوغرافية الخوري اليسوعي الصالحاني في بيروت سنة ١٩٠٥ فلم نجد هذه الأبيات .

(٢) من ذلك حديث رواه البخاري ومسلم جاء فيه (الأنصار لا يحبهم الا مؤمن ولا يبغضهم الا منافق فمن أحبهم أحبه الله ومن ابغضهم أبغضه الله) وحديث رواه البخاري ومسلم كذلك جاء فيه (آية الايمان حب الانصار وآية النفاق بغض الانصار) انظر التاج الجامع لاصول احاديث الرسول ج٣ ص ٣٤١-٣٤٢

(٣) هذه الروايات في مواضع عديدة من الجزء الرابع من تاريخ الطبري . وهذا مثال من ذلك ذكر الطبري ج ٤ ص ١٤٤ أن صعصعة بن صومان طلب من المغيرة ان يبعثه لقتال الخوارج فلم يقبل لانه كان يبلغه أنه يعيب عثمان رضي الله عنه ويكثر ذكر علي رضي الله عنه ويفضله. وقد دعاه وحذره وقال له ان كنت ذاكراً ذلك فاذكره بين اصحابك اما علانية في المسجد فهذا لا يحتمله معاوية ولا يعذرنا فيه . انظر ايضاً ص ١٨٧ وبعدها وانظر العقد الفريد ج ٣ ص ١٣١—١٣٢ وانظر ايضاً تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٣٠ و ٢٣٣

عثمان والترحم عليه وذم قاتليه والمعينين على قتله . والى جانب هذا تذكر الروايات أنه صار لعلي وأبنائه في زمن خلافة معاوية شيعة يجهرون بذم بني أمية . ويعتبرون خلافة معاوية غير شرعية ويسحبون ذلك على من بعده بالتبعية ويدعون الى الانتفاض عليهم وان هـــذا كان بنوع خاص في العراق . والذي نرجحه ان روايات لعن معاوية لعلي وامره بلعنه غــير صحيحة . وأنها من الدعايات التسويئية التي نشرت ضده . وترجيحنا يقوم على قرائن أو ادلة عديدة . فالصلح كان قدتم بين علي ومعاوية قبيل وفاة علي على ما شرحناه في الجزء السابق . ثم كان موقف الحسن العظيم حيث تنازل عن حكم العراق الذي صار اليه كخليفة لابـــيه وجمع السلطان لمعاوية واجتمع بذلك شمل المسلمين تحت راية واحدة . وكانت الصلات بين معاوية وابناء علي وأقاربه الادنين من الهاشميين حسنة ودية . وكان يحسن استقبالهم ويغدق لهم العطاء ويواسيهم في مصائبهم على ما مرت رواياته . ولقد اثر عن الحسين أنه لما تنازل الحسن لمعاوية جاء انصار علي الى الحسين فكلموه منكرين . فقال لهم ليكن كل منكم حلس بيته ما دام معاوية حياً . فانها بيعة وان كنت لها والله كارهاً [1] ولقد أثر عن معاوية انه أوصى ابنه يزيد بالحسين خيراً حين حضرته الوفاة فلم يكن هناك سبب ولا محل لان يأمر معاوية بشتم علي أو لعنه . وهذا فضلا عن ان معاوية كان يعلم أن علياً من اجلة اصحاب رسول الله وصهره وحبيبه ومن اعظم المجاهدين في سبيل دينه . ويعلم نهي النبي المتكرر عن سب أصحابه ولعنهم . والمأثور عنه انه كان مـــن الاتقياء الذين يخافون الله ويقفون عند حدوده حيث يجعله هذا انزه من ان يفعل ذلك .

ولقد روى ابن الاثير [2] أن الحسن رضي الله عنه حينما تفاوض مع معاوية رضي الله عنه على التنازل شرط فيما شرطه ان لا يشتم معاوية اباه وان معاوية لم يوافق على ذلك فشرط ان لا يشتمه وهو يسمع فأجابه الى ذلك . والرواية غير محتملة الصحة مطلقاً فــيما نعتقد فلا يعقل في حال ان يصر معاوية على شتم علي في ظرف يتفاوض فيه مع الحسن ليتنازل له عن الخلافة وتكون خلافته عامة شامله !

ولقد روي ان عمر بن عبد العزيز ابطل سب علي او لعنه على المنابر على ما تضمنته ابيات من الشعر معزوة الى كثير عزة جاء فيها فيما جاء :

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف ... بريئاً ولم تقبل إثارة مجرم

---

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٥٢

(٢) تاريخ ابن الاثير ج ٣ ص ١٦٢ ومن الشروط التي رواها المؤرخ من شروط الحسن ان يأخذ ما في بيت مال الكوفة وهو خمسة آلاف الف وان يكون له خراج دارابجرد.

فان صح هذا فيكون الشتم بعد معاوية ونتيجة للاصطدامات الدامية والثورات العديدة التي وقعت بين الامويين والهاشميين وانصارهم بعد معاوية على ما سوف نذكره بعد.

وكل ما يمكن ان يكون محتملا في زمن معاوية هو انه وبعض ولاته في العراق بخاصة كانوا يعرضون بعلي وشيعته مقابلة لما كان من هؤلاء من التعريض ببني امية والدعاية ضدهم بل والدعوة الى الانتفاض عليهم .

ولقد ادى ذلك الى اصطدام عنيف بين شيعة علي وابنائه من ناحية وبين السلطات الاموية في العراق من ناحية . وقتل نتيجة له زعيم من زعماء الشيعة اسمه حجر بن عدي مع بعض رفاقه بأمر معاوية .

وقد شغل هذا الحادث حيزاً واسعاً في كتب التاريخ القديمة واستغله رواة الشيعة وكتبهم استغلالا واسعاً ضد معاوية ووالي العراق زياد وضد بني امية عامة . وهو اول اصطدام دموي بين بني امية وشيعة علي وابنائه . ولعله الشرارة الاولى التي صارت ناراً حامية .

لقد وصف حجر بأنه ممن لقي رسول الله ﷺ وكان له صحبة . وانه اشترك في حركة الفتوح وشهد القادسية وشهد صفين مع علي . وكان من قواد كتائبه فيها. وكان شديد الورع والتقوى . فاسبغ كل هذا على حادث قتله ما اسبغ من روعة وجعله مأساة فاجعة .

ولقد رويت في ذلك روايات عديدة من طرق مختلفة فيها تغاير وتناقض . ولقد استوعبها او استوعب معظمها الطبري في الجزء الرابع من تاريخه حتى شغلت منه ستاً وعشرين صفحة[1].

وحينما يدقق المنصف في الروايات يقع على اسباب وجيهة للحادث تجعله يراه حادث تمرد على الدولة قوبل بالشدة والحزم وليس حادث تجن من الدولة على من وقعت العقوبة عليهم .

وخلاصة ما تطمئن به النفس من الروايات ان المغيرة بن شعبة والي الكوفة كان في خطبه ايام الجمع يمدح عثمان ويحمل على قاتليه حسب توجيه معاوية وفي رواية انه كان يعرض بعلي وشيعته في سياق ذلك . فكان حجر يغضب وينكر ذلك بل روى[2] انه كان يصعد إلى

---

(١) ص ١٨٧ — ٢١٣ انظر ايضاً البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ٤٩ — ٥٥ .
(٢) الدولة العربية الاسلامية لحسني الخربوطلي عزواً الى الاخبار الطوال للدينوري .

المنبر فيمدح علياً ويذم معاوية والمغيرة. وقد وقف مرة يفعل ذلك ثم ذم المغيرة لتأخيره عن العطاء الناس وتألب معه بعض الناس. وبلغ الامر الى ان اعترض هو ورفاقه عيراً بعث بها المغيرة الى معاوية وامسكها وقال والله لا نخليها حتى يوفى كل ذي حق حقه .

ولكن المغيرة ومن ورائه معاوية وسع حلمها هـــذه الافعال فلما مات المغيرة جمع معاوية الكوفة لزياد الذي كان والياً للبصرة ايضاً .

وكان حجر قد قوي امره مع انصاره فصاروا يجاهرون بسب معاوية والتبرؤ منه . وزار زياد الكوفة فخطب منذراً محذراً . وقال فيما قال إنا قـــد جربنا وجربنا وسسنا وساسنا السائسون فوجدنا هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح اوله بالطاعة اللينة المشبه سرها بعلانيتها وغيب اهلها بشاهدهم وقلوبهم بالسنتهم ووجدنا الناس لا يصلحهم الا اللين في غير ضعف وشدة في غير عنف وإني والله لا أقوم فيكم بأمر إلا امضيته على إذلاله وليس من كذبة الشاهد عليها من الله والناس اكبر من كذبة إمام على المنبر . ثم ذكر عثمان واصحابه فقرظهم وذكر قتلته ولعنهم فقام حجر ففعل مثل الذي كان يفعل بالمغيرة . فاحتمل زياد منـه ذلك وحاول ان يأخذه معه الى البصرة لئلا يحدث حدثاً فاعتذر .

وفي الجمعة التالية حصب حجر وانصاره نائب زياد وهو على المنبر يخطب فعلم بذلك زياد فجاء مرة ثانية الى الكوفة وجمـع الناس وخطب فيهم يوم جمعة قائـلا ان غب البغي والغي وخيم وإن هؤلاء جموا فأشروا وأمنوني فاجترأوا عـــلي ، وايم الله لئن تستقيموا لأداوينكم بدوائكم . وما انا بشيء إن لم امنع باحة الكوفة من حجر وادعه نكالا لمن بعده . ويــل امك يا حجر سقط العشاء بك على سرحان .

ومما روي انه لما اطال الخطبة نادى حجر الصلاة وضرب بيده الى كف من الحصى وقام الى الصلاة فقام الناس معه فاضطر زياد الى انهاء خطبته والنزول والصلاة بالناس ثم كتب الى معاوية فجاءه امر منه بشده في الحديد وحمله اليه .

ويروي الطبري روايتين فيما جرى حينما اراد زياد ان ينفذ امر معاوية . فذكرت احداهما ان اصحاب حجر أرادوا منعه فأبى وقال سمعاً وطاعة وسلم نفسه فشد في الحديد وارسل الى معاوية . وذكرت ثانيتهما ان زياداً ارسل شرطة لاحضاره فمنعهم اصحابه فعادت الشرطة

تقول انهم شتمونا وسبونا وامتنعوا عن المجيء فأرسل زياد شرطة اقوى فقاتلوها وحموا حجراً ومنعوه بالقوة ثم نقلوه الى مكان اشد حرزاً . وعادت الشرطة مخفقـــة مجروحة مقتولة . وحينئذ جد في الامر واخذينذر ويتوعد العشائر التي التف بعض افرادها على حجر وطلب من رؤسائها سحب جماعتهم من حوله ففعلوا وحينئذ قل انصاره وتمكن من القبض عليه عنوة وسعه احد عشر رجلا من اصحابه فشدهم بالحديد وارسلهم الى معاوية مع كتاب قال فيه (إن الله قد احسن عند امير المؤمنين البلاء فكاد له عدوه وكفاه مؤونة من بغى عليه من طواغيت من هذه الترابية السبائية رأسهم حجر بن عدي خالفوا امير المؤمنين وفارقوا جماعـــة المسلمين ونصبوا لنا الحرب فاظهرنا الله عليهم وامكننا منهم وقد دعوت خيار اهل المصر واشرافهم وذوي السن والدين منهم فشهدوا عليهم بما رأوا وعملوا وقد بعثت بهم الى امـــير المؤمنين وكتبت شهادة صلحاء اهل المصر وخيارهم .

وذكر الطبري الى هذا ان زياداً استدعى رؤساء الارباع الاربعة في الكوفة واخذ منهم شهادات بأن حجراً جمع إليه الجموع واظهر شتم الخليفة ودعا الى حرب امير المؤمنين وزعم ان هذا الامر لا يصلح الا في آل ابي طالب ووثب بالمصر واخرج عامـل امير المؤمنين واظهر عذر ابي تراب والترحم عليه والبراءة من عدوه واهل حربه وان هؤلاء النفر الذين معـه هم رؤوس اصحابه وعلى مثل رأيه وامره .

واورد نص شهادة احدهم ابي بردة بن ابي موسى وهو (هذا ما شهد عليه ابو بردة بن ابي موسى لله رب العالمين شهد ان حجر بن عدي خلع الطاعة وفارق الجماعة ولعن الخليفة ودعا الى الحرب والفتنة وجمع اليه الجموع يدعوهم الى نكث البيعة وخلع امير المؤمنين معاوية وكفر بالله عز وجل كفرة صلعاء) ولما وردوا على معاوية انزلهم في مرج عذراء لمدة قصيرة ثم امر بضرب رقاب حجر وثمانية من اصحابه فنفذ ذلك .

ومما روي في السياق ان حجراً انكر انه نقض بيعة معاوية وقال انما شهد علينا الاعداء والاظناء . وان واحداً ممن ارسلت شهاداتهم انكرها فكتب معاويـة الى زياد وشاوره في العفو عنهم فاجابه مصراً على وجوب قتلهم وصحة الشهادات المرسلة اليه . وان معاوية طلب من حجر وجماعته ان يعلنو براءتهم من علي بن ابي طالب ويظهروا لعنه حتى يعفو عنهم فأبوا وقالوا نتولاه ولا نتبرأ منه ونتبرأ ممن تبرأ منه عدا ثلاثة منهم تبرأوا فعفا عنهم وامر بقتل بقيتهم.

ونخشى ان يكون بعض ما جاء في السياق قد زيد فيما بعد لتعظيم إثم معاوية وزياد .

فلا يعقل ان يكون حجر قد استجاب وقال سمعاً وطاعة او انكر نقضه لبيعة معـــاوية واستسلم بدون مقاومة ثم يصر زياد ومعاوية على قتله وقتل رفاقه . كما ان قتلهم بسبب عدم تبرؤهم من علي وعدم لعنهم إياه يبدو بعيداً عـــن الاحتمال . والاكثر احتمالا هو رواية امتناعهم ومقاومتهم وشهادة الشهود عليهم التي تجعل قتلهم سائغاً شرعاً وسلطاناً .

وهناك احاديث نبوية كثيرة تحظر الخروج على الائمـة ونكث بيعتهم وتأمر بقتـل من اراد ان يفرق امر الامة وهي جميع كائناً من كان وتأمر بوجوب السمع والطاعة للامير فيما احب المسلم او كره ما لم يؤمر بمعصيته . وتقرر ان من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات ، مات ميتة جاهلية وان من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له [1] .

ولقد رويت روايات عديدة تحكي محاورة جرت بين معاوية وام المؤمنين عائشة في صدد قتل حجر فيها بعض التقارير . من ذلك انها سألته اين عزب عنك حلمك حين قتلت حجراً فقال حين غاب عني مثلك من قومي . ومن ذلك انه اجابها على سؤالها قائلا يا ام المؤمنين إني رأيت في قتلهم صلاحاً للامة وفي مقامهم فساداً . ومن ذلك انها روت حديثاً عن النبي ﷺ جاء فيه (سيقتل بعذراء اناس يغضب الله لهم واهل السماء) وعذراء هو المرج الذي ضربت فيه اعناق حجر واصحابه [2] . وقد روي كذلك [3] ان معاوية لما حضرته الوفاة جعل يقول (يومي منك يا حجر طويل) .

وقد روي ان عبد الرحمن بن الحارث سأل معاوية اين غاب عنك حلم ابي سفيان فقال حين غاب عني مثلك من حلماء قومي [4] . وان الحسن البصري احد علماء التابعين المشهورين عد قتل حجر موبقة لمعاوية وقال يا ويلا له من حجر يا ويلاه من اصحاب حجر [5] .

ونرجح ان تكون هذه الروايات من المصنوعات المتأخرة للتسويء والتهويل . ولقد روى الطبري [6] شعراً في رثاء حجر نخشى ان يكون من هذا الباب ايضاً وهو منسوب الى

---

(١) انظر التاج ج ٣ ص ٤٠ ـ ٤١ وسنورد نصوص هذه الاحاديث وما في بابها في نبذة المعكرات الداخلية .

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٥٤ ـ ٥٥ .

(٣ ـ ٥) كتاب معاوية في الميزان للعقاد ص ١٠٨ ـ ١١١ .

(٦) الطبري ج ٤ ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

هند بنت زيد بن مخزمة الانصارية وهو :

ترفع ايها القمر المنير | تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير الى معاوية بن حرب | ليقتله كما زعم الامير
تجبرت الجبابر بعد حجر | وطاب لها الخورنق والسدير
واصبحت البلاد لها محولا | كأن لم يحيها مزن مطير
ألا يا حجر حجر بني عدي | تلقتك السلامة والسرور
اخاف عليك ما اردى عديا | وشيخاً في دمشق له زئير
يرى قتل الخيار عليه حقاً | له من شر امته وزير
الا يا ليت حجراً مات موتاً | ولم ينحو كما نحر البعير
فان يهلك فكل زعيم قوم | من الدنيا الى هلك يصير

ومما رواه جرجي زيدان [1] عزواً الى الاغاني ان معاوية بلغه ان رجلا يمانياً قال يوماً هممت ان لا ادع بالشام احداً من مضر. بل هممت ان اخرج كل نزاري منها . فخاف معاوية بأس اليمنية ففرض من وقته لأربعة آلاف من قيس وغيرها .

وفي الخبر اذا صح دلالة على ما كان يعتمل في صدر العرب من النصرة القبلية التي كانت من معكرات عهد الدولة الاموية على ما سوف نذكره في نبذة خاصة . ثم على بعد نظر معاوية في اقامة التوازن بين فرعي العرب الكبيرين اليمانيين والنزاريين او القحطانيين والعدنانيين .

ومما رواه الطبري ان معاوية رأى ما كان من تعاظم مركز عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بالشام وميل اهلها اليه لما كان عندهم من آثار ابيه ولغنائه عن المسلمين في ارض الروم وبأسه فخافه وخشي على نفسه منه فأمر نصرانياً من حمص اسمه ابن آثال ان يحتال في قتله ووعده بأن يوليه جباية خراج حمص ويضع عنه خراجه ما عاش. فلما انصرف عبد الرحمن من غزوة كان يغزوها في بلاد الروم دس ابن اثال له شربة مسمومة فشربها فمات ووفى معاوية لابن اثال بما وعده. وعرف الناس ذلك فابلغوه الى خالد بن عبد الرحمن فاعترض لابن أثال

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٦٨ .

يوماً فقتله . ورفع امره الى معاوية فحبسه اياماً واغرمه ديته ولم يقتله به [1] .

والرواية تتحمل شكا كبيراً . ولا نعتقد ان معاوية يستبيح قتل هذا المجاهد العظيم . لمجرد كون امره قد تعاظم واحبه الناس . ولا يعقل ان يكون هو الوحيد بذلك .

ولقد روى جرجي زيدان بدون عزو الى مصدر ان الموالي كثروا في زمن معاوية وانه ادرك خطرهم على دولة العرب فهم بقتلهم كلهم او بعضهم . واستشار في ذلك الاحنف بن قيس وسمرة بن جندب . وقال لهما (إني رأيت هذه الحمراء وقد قطعت على السلف وكأني انظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان فرأيت ان اقتل شطراً وادع شطراً لاقامة السوق وعمارة الطريق) فأشار سمرة بقتلهم وطلب ان يتولى الامر بنفسه . اما الاحنف فقال له (إن نفسي لا تطيب . اخي لامي وخالي ومولاي وقد شاركناهم وشاركونا في النسب) فاستصوب معاوية رأي الاحنف وكف عما هم به [2].

ونحن نعتقد ان زيدان نقل الخبر عن مصدر قديم . غير ان صحته محل شك كبير . فالموالي المتحدث عنهم مسلمون. وصاروا يعدون في عهد معاوية بعشرات الالوف فلا يمكن ان يعقل ما روي عنه حتى بالفكر والخاطر فضلا عن التنفيذ . ونرجح بل نكاد نجزم ان يكون الخبر مصنوعاً في زمن الامويين او بعدهم للاثارة والتسويء .

ولقد روى زيدان في جزء آخر من كتابه ان معاوية اول من فرض العطاء للموالي فجعل لكل واحد ١٥ درهماً [3]. وقد يكون في هذا الخبر قرينة ما ضد الخبر السابق .

وتروي الروايات محاورة بين معاوية وعبدالله بن عباس تتحمل كثيراً من الشك. ونرجح انها من المصنوعات المتأخرة حيث روى ان معاوية قال يوماً لابن عباس ان في نفسي منكم لحزازات يا بني هاشم . وإني لخليق ان ادرك فيكم الثأر وانفي العار . فان دماءنا قبلكم وظلامتنا فيكم . فقال له والله ان رمت ذلك يا معاوية لتثيرن عليك اسداً مخدرة وافاعي مطرقة . لا يثنأها كثرة السلاح ولا تعضها نكاية الجراح . يضعون اسيافهم على عواتقهم

---

(١) ج ٤ ص ١٧١ وروى الخبر اليعقوبي ايضاً ويمكن ان يكون المؤلفان قد روياه من مصدر واحد.
(٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٥٧ .
(٣) ج٢ ص ٢٤٩ عزواً الى العقد الفريد . ولم نر هذا الخبر في النسخة التي في يدنا من العقد .

ويضربون قدماً قدماً عن ناوأهم . ولتكونن منهم بحيث اعددت ليلة الهرير للهرب فرسك وكان اكبر همك سلامة حشاشة نفسك . ولو لا طغام من اهل الشام وقوك بأنفسهم وبذلوا دونك مهجهم ورفعوا المصاحف مستجيرين بها وعائذين بعصمتها لكنت شلواً مطروحاً بالعراء. وما اقول هذا لاصرفك عن عزيمتك ولا لازيلك عن معقود نيتك . ولكنها الرحم تعطف عليك والاواصر توجب صرف النصيحة إليك . فقال معاوية لله درك يا ابن عباس . مـــا تكشفت الايام منك الا عن سيف صقيل ورأي اصيل . والله لو لم يلد بنو هاشم غيرك لما نقص عددهم ولو لم يكن لاهلك سواك لكان الله قد كثرهم [1] .

ووجه الشك في الرواية ان ملك معاوية قد استتب بتنازل الحسن الهاشمي له . وكانت صلاته مع بني هاشم طيلة خلافته حسنة . وكان رؤساؤهم وفي مقدمتهـــم الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر يفدون عليه فيحسن استقبالهم ويغدق عليهم الاموال ولم يقع بينه وبينهم ما يورث الحزازات في نفسه عليهم ويكون له به قبلهم دماء وظلامات .

ومن هذا القبيل رواية اخرى جاء فيها (ان جارية بن قدامة السعدي قدم عليه فقال له انت الساعي مع علي بن ابي طالب والموقد النار تجوس قرى عربية لتسفك دماءهم . فقال له يا معاوية دع عنك علياً فما ابغضنا علياً منذ احببناه ولا غششناه منذ صحبناه . فقال له معاوية ويحك ما كان اهونك على اهلك إذ سموك جارية لا ام لك . فقال ام مـا ولدتني . وإنك لم تملكنا قسرة ولم تفتحنا عنوة . ولكن اعطيتنا عهوداً ومواثيق . فان وفيت لنا وفينا . وإن ترغب الى غير ذلك فقد تركنا وراءنا رجالا مداداً واذرعاً شداداً وأسنة حداداً . فان بسطت الينا فتراً من غدر دلفنا إليك بباع من ختر . فتركه ينصرف بعد ان قال له لا كثر الله من امثالك [2]. والرواية تتحمل مثل سابقاتها شكاً كبيراً وتبدو الصنعة عليها بقوة .

وهناك روايات عديدة اخرى من هذا الباب مثل محاورة جرت بين معاوية وقيس بن سعد وبينه وبين الزرقاء بنت عدي وبينه وبين بكارة الهلالية [3] من هذا القبيل تتحمل كثيراً من الشك وتبدو الصنعة عليها بقوة كذلك .

---

(١) معاوية في الميزان العقاد ص ٩٥ .

(٢) معاوية في الميزان للعقاد .

(٣) المصدر نفسه .

ولقد روى ابن قتيبة ان معاوية كتب الى عمرو بن العاص يستدعيه إليه حينما قام النزاع بينه وبين علي . وكان عمرو في فلسطين فاستشار بنيه فقال له اكبرهم عبد الله ان نبي الله قد قبض وهو عنك راض والخليفتان من بعده كذلك وقتل عثمان وانت غائب عنه فأقم في منزلك وقال محمد الاصغر انك شيخ قريش وصاحب امرها فان ينصرم هذا الأمر وانت فيه خامل يصغر امرك فالحق بجماعة اهل الشام واطلب بدم عثمان فانك به تستميل الى بني امية . فقال عمرو اما انت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في ديني وأما انت يا محمد فقد امرتني بما هو خير لي في دنياي ثم امر مولاه ان يهيء الرواحل وسار الى معاوية . فلما اجتمع الرجلان قال عمرو اعطني مصر فتلكأ معاوية وقال ألم تعلم ان مصر كالشام قال بلى ولكنها انما تكون لي اذا كانت لك وإنما تكون لك إذا طلبت علياً على العراق . ودخل في هذه الاثناء عتبة اخو معاوية فقال لاخيه اما ترضى ان تشتري عمراً بمصر ان هي صفت لك فأعطى معاوية لعمرو مصر وكتب له بذلك عهداً وكتب في اسفل الكتاب (ولا ينقض شرط طاعة) فكتب عمرو في حذاء هذه الجملة (ولا تنقض طاعة شرطاً) .

وعقب المؤلف بقوله وهكذا كايد كل واحد منهما صاحبه . وكان مـــع عمرو ابن اخ له فقال له بأي رأي تعيش في قريش وقد اعطيت دينك غيرك فقال له يا ابن اخي انه لامر الله دون معاوية وعلي ولو كنت مع علي وسعني بيتي ولكني مع معاوية فقال الفتى لم تردمعاوية ولكنك اردت دنياه واراد دينك .

وروى ابن قتيبة بعد هذا ان معاوية وعمراً تحدثا في امر النزاع فقال له عمرو إن لعلي والله لحظاً في الحرب وإنه لصاحب الامر فقال له معاوية صدقت ولكني اقاتله على ما بأيدينا ونلزمه دم عثمان فقال عمرو وا سوأتاه إن احق الناس أن لا يذكر عثمان أنا وانت فقال معاوية ولم فقال عمرو أما انت فخذلته ومعك اهل الشام واستغاثك فأبطأت عليه واما انا فتركته عياناً وهربت الى فلسطين . فقال معاوية دعني من هذا وهلم فبايعني فقال عمرو لا والله لا اعطيك من ديني حتى آخذ من دنياك قال معاوية صدقت . سل تعط قال عمرو مصر طعمة فكتب معاوية له بها عهداً [1] .

ورائحة الصنعة تفوح بقوة من هذه الروايات من قبل خصوم بني اميـــة لتصوير معاوية

---

(١) الامامة والسياسة ج١ص ٨٨ــ ٩١ .

وعمرو بصورة طالبي الدنيا ومفضليها على الدين والحق عن علم وبينــة . والخادعين لبعضها وللمسلمين . والرجلان من اصحاب رسول اللهواهل السابقة والجهاد في الاسلام . ونعتقد ان موقفها كان ناتجاً عن اجتهاد بقطع النظر عن احتمال الخطأ والصواب فيه .

وليسا هما المنفردين في هذا الموقف . فقد تواترت الروايات بأنه كان في زمن فتنةعثمان ثم بعده من اصحاب رسول الله من كان مع علي وضده ومع معاوية وضده ومن كانحيادياً معتزلا عن هذا وذاك حيث يصح القول إن الظروف التي قــد لا تكون واضحة لنا كل الوضوح كانت تؤدي الى هذه المواقف الاجتهادية المختلفة . وهذا هو الصحيح المعقولبالنسبة لأصحاب رسول الله الذي قال رسول الله فيهم اصحابي أمنة امتي .

ونقول من باب المساجلة إن السياق يقتضي ان تكون المحاورات المروية بين عمرو وبنيه وابن اخيه وبين عمرو ومعاوية سرية. ولا يعقلإان يفشيها احد للناسلأن فيها فضيحة للدين والاخلاق . وهذا وحده كاف لتكذيبها ورجحان صنعها من قبل الخصوم الحزبيين .

ومثل هذا يقال في المحاورات والمداورات والمخادعات التي تروى بين معاوية وبين المغيرة بن شعبةاحد اصحاب رسول الله والذي كان والياً للكوفة في زمن معاوية[1].

ولقد كان عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد بن ابي سفيان الذي روينا في صدده روايات مماثلة في مناسبة سابقة من كبار رجال العهــد الاموي وكان لمجهودهم اثر كبير في توطد الدولة الاموية . وقد يكون في هذا سر حملات التجريح والتثريب التي تسلط عليهم بنوع خاص .

وفي مروج الذهب والامامــة والسياسة وتاريخ اليعقوبي والعقد الفريد والاغاني والفخري حكايات ومحاورات ومكاتبات عديدة اخرى ضربنا الصفح عن ايرادهــا ويبرز فيها قصد تجريح معاوية وكبار رجال دولتــه ووصمهمبالبطل والبغي والكيد والاحتيال وقلة الدين والشرف ويأبى العقل والمنطق والدين ان تكون صحيحة . ومن الحق والواجب ان يتحفظ الناشىء العربي ويتروى ازاء ما يقرأه من ذلك .

---

(١) انظر كتاب معاوية في الميزان للعقاد ص ٥٥–٥٨ .

ولقد روي[1] ان معاويه لمامرض مرضه الذي مات فيه دعا ابنه يزيد وقال له اني قد كفيتك الرحلة والرجال ووطأت لك الاشياء وذللت لك الاعزاء . واخضعت الك اعناق الرجال : واني لا اتخوف ان ينازعك هذا الامر الا اربعة نفر ، الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن ابي بكر : فاما ابن عمر فهو رجل قد وقدته العبادة واذا لم يبق احد غيره بايعك واما الحسين فان اهل العراق خلفه : لا يدعونه حتى يخرجوه عليك فان خرج فظفرت به فاصفح عنه فان له رحماً ماسة وحقاً عظيماً : واما ابن ابي بكر فهو رجل ان رأى اصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله : ليست له همة الا في النساء واللهو : واما الذي يجثم لك جثوم الاسد ويراوغك روغان الثعلب واذا امكنته الفرصة وثب فذاك ابن الزبير: فان فعلها بك فقدرت عليه فقطعه ارباً ارباً : وتوص باهل الحجاز : وان سألك اهل العراق كل يوم ان تعزل عنهم عاملا فافعل ، فعزل واحد أحب اليك من ان يسل عليك مائة الف سيف: وتوص بأهل الشام واجعلهم انصارك واعرف لهم حقهم : وليكونوا بطانتك وعيبتك فان رابك من عدوك شيء فانتصر بهم فان اصبتهم فاردد اهل الشام[2] الى بلادهم فانهم ان اقاموا بغير بلادهم تغيرت اخلاقهم .

ونخشى ان يكون بعض ما جاء في هذه الروايات من وحي الاحداث التي وقعت بعد مـــوت معاوية . وفي الاسماء المذكورة عبد الرحمن بن ابي بكر والمشهور انه توفي في حياة معاوية .

وقد ذكر جرجي زيدان [3] في صدد ما كان من بني امية من ظلم لاهل الذمة واستكثار الجباية ، ان معاوية امر عمرو بن العاص واليه في مصر بزيادة قيراط على ما يجبي منهم فابى عمرو التنفيذ.

كذلك ذكر قولا لمعاوية في صدد التدليل على احتقاره للموالي وللذميين جاء فيه (وجدت اهل مصر ثلاثة اصناف فثلث ناس وهم العرب وثلث يشبهون الناس وهم الموالي – اي المسلمين – وثلث ليسوا ناساً وهم الاقباط [4]) : وقد عزا زيدان هذا وذاك الى المقريزي مـــن رجال

«١» البداية والنهاية ج٨ ص١١٥ . «٢» الراجح ان المقصود من اهل الشام اصحاب العطاء من العرب الذين جاؤوا مـــع حملة الفتح اوابناءهم وهذا ينسحب على الاعم الاغلب على تعبير اهل مصر واهل العراق واهل الكوفة الخ.. في مثل هذا المقام «٣» تاريخ التمدن الاسلامي ج٢ ص٢١ «٤» ج٤ ص٩٧

القرن التاسع . ولم نقع عليها في ما اطلعنا عليه من الكتب القديمة .

ولقد توفي معاوية بمرض النفاثات . ومما يروى [١] انه لما ثقل وتحدث الناس بموته قال لاهله احشوا عيني اثمداً واوسعو راسي دهناً واسندوني ثم ائذنوا للناس فليدخلوا علي وليسلموا قياماً ففعلوا فخرج الناس يقولون ان امير المؤمنين لما به وهو اصح الناس . وجعل معاوية يقول :

وتجلدي للشامتين اريهم ... أني لريب الدهر لا أتضعضع

فقالت له احدى بناته كلا يا أمير المؤمنين يدفع الله عنك فقال :

واذا المنية انشبت اظفارها ... الفيت كل تميمة لا تنفع

ومما روي [٢] عن محمد بن الحكم أن معاوية لما حضرته الوفاة أوصى بنصف ماله بأن يرد الى بيت المال وأمر أهله بأن يتولى لبيب غسله ثم يعمدوا الى منديل في خزانة فيها ثوب من ثياب رسول الله صلعم وقراضة من شعره واظفاره فيجعلوا الثوب مما يلي جلده ويضعوا القراضة في أنفه وفمه واذنه وعينيه . ثم اخذ يقول

إن تناقش يكن نقاشك يا رب ... عذاباً لا طـــوق لي بالعذاب

أو تجاوز تجاوز العفو واصفح ... عن مسيء ذنوبه كالتراب

واخذ يدعو قائلا اللهم أقل العثرة ، واعف عن الزلة وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرج غيرك فانك واسع المغفره ، ليس لذي خطيئة من خطيئته مهرب إلا اليك .

وقد روي عن مروان بن سعيد بن المعلى [٣] ان معاوية حينما حضرته الوفاة وصى يزيد فقال اتق الله ، فقد وطأت لك هذا الامر ، ووليت من ذلك ما وليت ، فان يك خيراً فأنا أسعد به وان كان غير ذلك شقيت به ، فارفق بالناس واغمض عما بلغك مـــن قول تؤذي وتنقص به ، وطأ عليه يهنك عيشك وتصلح لك رعيتك . واياك والمناقشة وحمل الغضب . فانك تهلك نفسك ورعيتك . وإياك وخيرة أهل الشرف واستهانتهم والتكبر عليهم . ولن لهم ليناً بحيث لا يرون منـــك ضعفاً ولا خوراً . واوطئهم فراشك . وقربهم اليـــك وادنهم منـــك . فانهم يعرفون لك حقك . ولا تهنهم ولا تستخف بحقهم فيهينوك ويستخفوا بحقك ويقعوا فيك .

«١» الطبري ج ٤ ص ٢٤١ «٢» ابن كثير ج٨ ص ١٤١ وانظر الطبري ايضاً الصفحة والجزء المذكورين. «٣» ابن كثير ج٨ ص ٢٣٩ – ٢٤٠

وإن اردت امراً فادع اهل السن والتجربة من اهل الخير من المشايخ واهل التقوى فشاورهم ولا تخالفهم . وإياك والاستبداد برأيك . فان الرأي ليس في صدر واحد . وصدق من اشار عليك إذا حملك على ما تعرف . وشمر ازارك . وتعاهد جندك . واصلح نفسك يصلح لك الناس . ولا تدع لهم فيك مقالا . فان الناس سراع الى الشر . واحضر الصلاة . فانك إذا فعلت ما اوصيك به عرف الناس لك حقك وعظمت مملكتك في اعين الناس . واعرف شرف اهل المدينة ومكة فانهم اصلك وعشيرتك . واحفظ لاهل الشام شرفهم فانهم اهل طاعتك . واكتب الى اهل الامصار بكتاب تعهدهم فيه منك بالمعروف فان ذلك يبسط آمالهم . وإن وفد عليك وافد من الكور فأحسن إليهم واكرمهم . فانهم لمن وراءهم . ولا تسمع قول قاذف ولا ماحل فاني رأيتهم وزراء سوء .

والوصية كثيرة الشبه بما يروى عن عقل ودهاء وحلم وحصافة معاوية . وفيها من اسس سياسة الملك والحكم ما يبلغ الذروة في البراعة والحكمة.

ومع ما بلغه معاوية من الملك العظيم فانه كان متواضعاً في مظهره ولباسه إذا صح ما روي عن ميسرة بن جليس حيث يقول انه رآه في سوق دمشق وهو مردف وراءه وصيفاً وعليه قميص مرقوع الجيب .

ولقد كان يهتم لأمر الحج اهتماماً خاصاً . فكان يقيم للناس حجهم بنفسه حينما يستطيع ويعين لذلك ابنه واخوته وابناء اخوته وبني عمومته حينما لا يستطيع ذلك بنفسه على ما يستفاد من تنبيهات الطبري الذي ذكر في اعقاب احداث كل سنة من سني حكمه اسم الذي كان يحج بالناس في تلك السنة .

وقد ذكر اسماء معاوية ويزيد ابنه وعتبة وعنبسة اخويه والوليد ومحمد ابني اخويه ومروان بن الحكم وسعيد بن عمرو بن العاص من بني عمومته [1].

وقد سار خلفاء بني امية على هذه السنة فكانوا يقيمون للناس الحج بأنفسهم حينما يستطيعون ويعهدون الى احد اولادهم او ابناء عمومتهم او رجالاتهم المعتمدين حينما لا يستطيعون

---

(١) انظر الجزء الرابع من تاريخ الطبري ص ١٣٠-٢٣٧ .

باستثناء السنين التي كانت فيها حركة ابن الزبير في الحجاز في زمن يزيد ومروان وشطر من زمن عبد الملك وحركة تمرد المدينة في زمن يزيد .

وقد حرص الطبري على ذكر اسم الذي يحج كل سنة بالناس في مختلف عهود هؤلاء الخلفاء .

ويروى ان معاوية اشترى من اهل كعب بن زهير البردة التي كان وهبها النبي ﷺ لكعب حين انشده قصيدته المشهورة التي كان مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم مبتول   متيم عندها لم يفد مكبول

باربعين الف درهم وكان يلبسها في المناسبات تبركاً بها ثم تداولها الخلفاء الامويون من بعده .

كذلك يروى انه اول من كسا الكعبة بالديباج واشترى لها العبيد . واول من اتخذ ديواناً للخاتم وحرساً على بابه . وختم الكتب بالشمع وخاتم الخلافة . واتخذ مقصورة يصلي فيها ايام الجمع . وقد سمن في اواخر حياته فصار يخطب وهو جالس .

لقد كان له بلاء عظيم في مصاولة الروم سيرد بيانه في نبذة خاصة مع ما يماثله من ذلك في عهد الدولة الاموية . وهناك احداث اخرى جرت في عهده سيرد ذكرها ومواقفه فيها كذلك في نبذ خاصة مع ما يماثلها منها .

ولقد توفي عن ٧٨ سنة في رواية ومتجاوزاً الثمانين في رواية . وقد قال ابن كثير ان القول الاخير هو الاشهر . وفي ذلك نظر لان هذا يقتضي ان يكون عمره يوم الفتح ٢٦ سنة . والمشهور انه كان فتى يافعاً . وكانت وفاته ليلة الخميس لثمان بقين من رجب عام ٦٠هـ .

وقد رويت في مكان قبره روايتان واحدة تذكر انه دفن في دار الامارة المسماة بالخضراء واخرى انه دفن بمقابر باب الصغير وهو ما عليه الجمهور على قول ابن كثير .

ولقد روي [1] عن عبد الملك بن نوفل انه لما مات صعد الضحاك بن قيس المنبر فقال ان

---

(١) ابن كثير ج ٨ ص ١٤٤ .

معاوية الذي كان سور العرب وعونهم وحبرهم الذي قطع الله به الفتنة وملكه على العباد وفتح به البلاد قد مات فمن كان منكم يريد ان يشهد قبره فليحضر . فلما اخرج للدفن قال الضحاك لا يحملن نعش امير المؤمنين إلا قرشي فحملته قريش ساعة. ثم قال اهل الشام اصلح الله الامير اجعل لنا من امير المؤمنين نصيباً في موته كما كان لنا في حياته قال فاحملوه فحملوه وازدحموا عليه حتى شقوا البرد الذي كان عليه صدعين [1] .

ولقد كان يزيد غائباً عن الشام فارسل اليه الخبر مع البريد فلم يصل الى دمشق الا بعد عشرة ايام . وقد اثر عنه قصيدة رثائية فيه وهي :

جاء البريد بقرطاس يخب به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا لك الويل ماذا في صحيفتكم ... قال الخليفة امسى مثقلا وجعا
فمادت الارض او كادت تميد بنا ... كأن اغبر من اركانها انقلعا
ثم انبعثنا الى خوص مضمرة ... نرمي الفجاج بها ما نأتلي سرعا
فما نبالي اذا بلغن أرجلنا ... ما مات منهن بالمرمات او طلعا
لما انتهينا وباب الدار منصفق ... بصوت رملة ريع القلب فانصدعا
من لا تزل نفسه توفي على شرف ... توشك مقاليد تلك النفس ان تقعا
أودى ابن هند واودى المجد يتبعه ... كانا جميعاً خليطاً سالمين معا
اغر ابلج يستسقى الغمام به ... لو قارع الناس عن احلامهم قرعا
لا يرقع الناس ما اوهى وان جهدوا ... ان يرقعوه ولا يوهون ما رقعا [2]

وقد رثاه ابو الورد العنبري فقال [3]

ألا أنعى معاوية بن حرب ... نعاة الحل للشهر الحرام
نعاه الناعيات بكل فج ... خواضع في الازمة كالسهام
فهاتيك النجوم وهن خرس ... ينحن على معاوية الهمام

---

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٨٧ .

(٢) ابن كثير ج ٨ ص ١٤٢ — ١٤٤ .

(٣) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٤ .

ورثاه ايمن بن حريم فقال[1] :

رمى الحدثان نسوة آل حرب	بمقـــدار سمدن لـه سمودا
فـــرد شعورهن السود بيضاً	ورد وجوههـــن البيض سودا
فانك لو شهدت بـكاء هنـــد	ورمـــلة إذ يصفقن الخدودا
بكيت بـــكاء معولة قريـح	اصاب الدهر واحدها الفريـدا

وقد روى ابن قتيبة [2] عن عتبة بن مسعود قال انه لما مر بنا نعي معاوية قمنا فأتينـا ابن عباس فوجدناه جالساً قد وضع له الخوان وعنده نفر فأخبرناه الخبر فقال يا غلام ارفـع الخوان . وسكت ساعة ثم قال (جبل تزعزع ثم مال بكلكله . امـا والله ما كان كمن كان قبله ولكن لن يكون بعده مثله . وان ابنه لخير اهله) .

هذا . وقبل ان نختتم هذه النبذة نريد ان نذكر رأياً لابن خلدون في الترتيب التأليفي بالنسبة الى دولة معاوية . ونعلق عليه . فقد قال ان دولة معاوية واخباره كان ينبغي ان تلحق بدول الخلفاء الراشدين واخبارهم فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحبة [3] .

ولا يخلو هذا القول من وجاهة من وجهة النظر التي ذكرها . ولا سيما ان في اقواله وصفاته واعماله وما روي عنه على لسان كثير من معاصريه ومن اصحاب رسول الله ﷺ ما يمكن ان يجعله من الراشدين .

غير ان ما درج عليه المؤرخون من اعتباره مبدأ عهد جديد هو في محله . هذا بالاضافة الى ان الحق يوجب القول إن هناك فروقاً كثيرة وعظيمة بينه وبين الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم جميعاً . فهؤلاء قد اختيروا اختياراً دون ان يكون لهم سعي وجهد وكيد ودون ان يتساهلوا في حق من الحقوق او يتوسلوا بترغيب وترهيب في سبيل ولايتهم . في حين ان معاوية قد حارب وتساهل وتوسل بالترغيب والترهيب من اجلها .

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٤ .

(٢) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٥ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٥٨ ، المكتبة التجارية الكبرى .

ولقد التزم كل منهم كتاب الله وسنة رسوله التزاماً صارماً ولم يهتموا لابهة الملكومراسمه ولم يتوخوا انشاء ملك اسروي في حين ان ذلك لا يمكن ان يقال بالنسبة الى معاوية على ما يبدو خلال ما مر من سيرته .

كذلك نريد ان نشير بكلمة الى كتاب (معاوية بن ابي سفيان في الميزان) لعباس محمود العقاد . فقد كتب هذا الكاتب كتابه وهو مترسم مسبقاً ان يهون من شأنه على ما يبدو من كل فصل من فصوله . فجرده من العظمة وجرده مما نسب اليه من حلم واريحية ومروءة ودهاء وجهاد وعقل وحزم واقوال وافعال او بكلمة اخرى جرد هذا كله من المعاني النبيلة والمقاصد الشريفة وصرفه الى الاغراض والمطالب النفعية الذاتية والاسروية. واوردروايات كثيرة دون تمحيص ورغم ما يبدو عليها من صنعة . وساقها باسلوب يتفق مع ما توسمه . واغفل روايات كثيرة مغايرة او مناقضة لذلك تحتمل الصحة في اسلوبها ومطابقتها للواقع .

والتجوز بارز في كثير مما ادار عليه قلمه القوي ليتفق مع خطته . والشواهد في الكتاب ثم في كتب التاريخ المعتبرة المؤيدة لما نقوله كثيرة لا يمكن ان تغيب عن المتروي فيها . وفي الفصول السابقة طائفة كبيرة منها . وقد علقنا عليها بما رأيناه واجباً وحقاً وواضعاًللامر في نصابه الصحيح ان شاء الله .

ورواة الشيعة يوردون احاديث نبوية في حق معاوية . منها حديث جاء فيه(لعن معاوية الطليق بن الطليق .فاذا رأيتموه على منبري فاقتلوه)[١].

وحديث جاء فيه (يطلع عليكم رجل يموت على غير سنتي فطلع معاوية)[٢] وقام النبي ﷺ خطيباً فأخذ معاوية بيد ابنه يزيد وخرج فقال النبي ﷺ (لعن الله القائد والمقود[٣] .

وعلماء الحديث وحفاظه متفقون على ان هذه الاحاديث موضوعة[٤] شأن كثير من التي يرويها الشيعة لتأييد اهوائهم . وهي متناقضة مع ما ورد من احاديث صحيحة في فضل معاوية رضي الله عنه ودعاء النبي ﷺ على ما سبق بيانه .

(١ - ٤) المنتقى من منهاج السنة ص ٢٤٨و٢٥٢ .

ويقال هذا في ما يسوقه رواة الشيعة من مطاعن ومثالب في معاوية وخلافته وسيرته واخلاقه حيث تكذبها الروايات الكثيرة الواردة عكسها مما اوردنا منه امثلة كثيرة .

ولا نريد ان نزعم ان معاوية كان في كل اعماله فوق مستوى الشبهات . فقد مر منها ما يحتمل التجريح والتثريب . وكان كثيراً ما يتوسل الى ما يريد بالترغيب والترهيب . وكان كثير من الناس يطيعونه ويؤيدونه رغباً ورهباً ولكن الذي نعتقده ان اعماله واخلاقه الصالحة هي الاكثر الاغلب .

٢ ـــ يزيد بن معاوية [١]

اختلف في سنه التي تولى فيها الخلافة بحيث تراوحت الروايات بين ان يكون في الخامسة والخمسين او في الخامسة والثلاثين حيث وردت روايات تذكر انه ولد في السنة الخامسة للهجرة كما وردت رواية تذكر انه ولد في خلافة عثمان بن عفان [٢]. وامه ميسون بنت بحدل الكلبي التي اشتهرت بجمالها وعقلها وفصاحتها والتي ينسب اليها الشعر المشهور الذي تقول فيه:

للبس عباءة وتقر عيني ... أحب الي من لبس الشفوف
وبيت تخفق الارياح فيه ... أحب الي من قصر منيف
وبكر تتبع الاظعان صعب ... أحب الي من بغل زفوف
وكلب ينبح الاضياف دوني ... أحب الي من هر ألوف
وخرق من بني عمي فقير ... أحب الي من علج عنيف [٣]

وقد وصف يزيد بانه كان جميلا طويلا ضخم الهامة كثير الشعر واللحم . كما وصف بالفصاحة والشجاعة وحسن الرأي والمعاشرة . وقد أثرت عنه خطب وكتب تدل على ذلك وتدل في الوقت نفسه على حسن بصيرة في أصول الحكم ومراعاة جانب الله وتقواه مما سوف نورد شيئاً منه بعد . ولقد كان شاعراً . وقد اوردنا نموذجاً من شعره في رثاء ابيه . وهناك مأثورات اخرى من شعره . منها ما روى الاصمعي ان هارون الرشيد كان ينشدها له:

إنها بين عامر بن لؤي ... حين تنمى وبين عبد مناف
ولها في الطيبين جدود ... ثم نالت مكارم الاخلاف
بنت عم الرسول اكرم من ... يمشي بنعل على التراب وحافي
لن تراها على التبدل والـ ... غلظة الا كدرة الاصداف.

---

(١) هذه النبذة مقتبسة من تاريخ الطبري ج٤ص٢٥٠ وبعدها وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢١٥ وبعدها والامامة والسياسة لابن قتيبة ج١ص١٨٦وبعدها وج٢ص ٣ وبعدها وابن الاثير ج٤ ص٦ وبعدها والعقد الفريد ج٢ص١٣٧ وبعدها وج ٣ ص ٣٧٨ والبداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٤٦ وبعدها

(٢) رجح ابن كثير هذا حيث قال انه ولد بعد العشرين من الهجرة ولم يولد في حياة النبي صلعم

(٣) مما روي ان معاوية قال لها حينما سمع الشعر ما رضيت يا ابنة بحدل حتى جعلتني علجاً عنيفاً الحقي باهلك فمضت الى بادية بني كلب ويزيد معها (انظر ابا الفداء ج١ ص١٩٣

ومنه هذه الابيات التي يرويها عنه الزبير بن بكار :

آب هذا لهم فاكتنفا	ثم مر النـــوم فامتنعا
راعيـاً للنجـم ارقبـــه	فاذا ما كوكـب طلعا
حام حـــتى انني لأرى	أنه بالغور قد وقعـا
ولهـــا بالمصارون اذا	اكل النمل الذي قد جمعا
نزهـــة حتى اذا بلغت	نزلت من جلق تبعـــا
في قباب وسط دسكرة	حولها الزيتون قد ينعـا

ومنه هذه الابيات :

وقائـــلة لي حين شبهت وجهها	ببدر الدجى يوماً وقد ضاق منهجي
تشبهني بالبـــدر هـــذا تناقص	بقدري ولكن لست اول من هجي
ألم تر أن البـدر عنـــد كماله	اذا بلـــغ التشبيه عـاد كمدلجي
فلا فخر ان شبهت بالبدر مبسمي	وبالسحر اجفاني وبالليل مدعجي

ولقد كان يزيد غائباً عن الشام حينما مات ابوه . فلما وصل الى دمشق جددت له البيعة ثم جمع الناس في الجامع وخطب فيهم قائلا بعد حمد الله والثناء عليه (أيها الناس إن معاوية كان عبداً من عبيد الله أنعم عليه ثم قبضه اليه وهو خير مـــن بعده ودون من قبله. ولا ازكيه على الله عز وجل فانه اعلم به. ان عفا عنه فبرحمته وإن عاقبه فبذنبه. وقد وليت الامر من بعده . ولست آسي على طلب . ولا اعتذر من تفريط . وإذا اراد الله شيئاً كان . إن معاوية كان يغزيكم البحر وإني لست حاملا احداً من المسلمين في البحر . وإن معاوية كان يشتيكم بأرض الروم ولست مشتياً احداً بأرض الروم . وإن معاوية كان يخرج لكم العطاء اثلاثاً وأنا اجمعه لكم كله . قال الراوي فافترق الناس عنه وهم لا يفضلون عليه احداً [١] .

ولقد جاءته البيعة مجدداً من الامصار ولم يرو المؤرخون خلافاً وشقاقاً في ذلك إلا امتناع

---

(١) البداية والنهاية ج٨ ص ١٤٣ ان صح جميع ما جاء في الخطبة فيفسر ما جاء فيها في شأن البحر والتشتية ان الناس كانوا يشعرون بشيء من العنت من جراء ذلك وان يزيد كان في نفس الوقت مطمئناً بأمن الحدود من الروم .

الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير عن المبايعة .

ولقد رويت صيغتان لرسالة ارسلها يزيد الى المدينة بسبيل ذلك واحدة اوردها الطبري هذا نصها : (اما بعد فان معاوية كان عبداً من عباد الله اكرمه واستخلفه وخوله ومكن له فعاش بقدر ومات بأجل فرحمه الله فقد عاش محموداً ومات براً تقياً والسلام ثم كتب في صحيفة كأنها أذن فأرة اما بعد فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام)[1] .

وواحدة اوردها ابن قتيبة هذا نصها (اما بعد فان معاوية بن ابي سفيان كان عبداً استخلفه الله على العباد ومكن له في البلاد وكان من حادث قضاء الله جل ثناؤه وتقدست اسماؤه فيه ما سبق في الاولين والآخرين لم يدفع عنه ملك مقرب ولا نبي مرسل . فعاش حميداً ومات سعيداً . وقد قلدنا الله عز وجل ما كان إليه . فيا لها من مصيبة وما اجلها ونعمة ما اعظمها نقل الخلافة وفقد الخليفة فنستودعه الشكر ونستلهمه الحمد ونسأله الخيرة في الدارين معاً ومحمود العقبى في الآخرة والاولى إنه ولي ذلك وكل شيء بيده لا شريك له . وإن اهل المدينة قومنا ورجالنا ومن لم نزل على حسن الرأي فيهم والاستعداد بهم واتباع اثر الخليفة فيهم والاحتذاء على مثاله لديهم من الاقبال عليهم والتقبل من محسنهم والتجاوز عن مسيئهم . فبايع لنا قومنا ومن قبلك من رجالنا بيعة منشرحة بها صدوركم طيبة عليها أنفسكم . وليكن اول من يبايعك من قومك واهلنا الحسين وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر ويحلفون على ذلك بجميع الايمان اللازمة بصدقة اموالهم غير عشرها وجزية رقيقهم وطلاق نسائهم بالثبات على الوفاء بما يعطون من بيعتهم ولا قوة الا بالله والسلام)[2] .

ومهما يكن من أمر بالنسبة للصيغتين فالمتفق عليه ان الحسين وعبد الله بن الزبير حينما طلب منهما عامل المدينة ان يبايعا حاولا التملص ثم تمكنا من الخروج الى مكة دون ان يبايعا .

ولقد كان من الخمسة الذين امتنعوا عن البيعة بولاية العهد ليزيد في حياة معاوية عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن ابي بكر على ما ذكرناه في سياق سيرة معاوية .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٥٠ .

(٢) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٦ .

وقد توفي الاخير في حياة معاوية .

وكان عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس في مكة على ما رواه الطبري الذي روى انهما التقيا بالحسن وعبد الله بن الزبير في مكة فلما علما منهما بوفاة معاوية ترحما عليه ولما علما بتنصلها من المبايعة ليزيد قالا لها اتقيا الله ولا تفرقا جماعة الامة ثم قدما الى المدينة وبايعا. وظلا متمسكين ببيعتها حينما نقض اهل المدينة بعد مقتل الحسين وخلعوا يزيد حيث روى ابن كثير ان ابن عمر جمع اهله وبنيه وقال لهم (إنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله . واني سمعت رسول الله ﷺ يقول إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة يقال هذه غدرة فلان وإن من اعظم الغدر — إلا ان يكون الاشراك بالله — ان يبايع رجل رجلا على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته . فلا يخلفن أحد منكم يزيد ولا يسرفن أحد منكم في هذا الامر فيكون الفيصل بيني وبينه)[1] وان ابن عمر جاء الى عبد الله بن مطيع احد قادة حركة التمرد والخلع ليزيد فقال له (انما جئتك لاحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول من نزع يداً من طاعة فانه يأتي يوم القيامة لا حجة له ومن مات مفارق الجماعة فانه يموت موتة جاهلية)[2] .

وواضح من هذا ان البيعة كانت منعقدة ليزيد وان عدداً غير يسير من اصحاب رسول الله كانوا داخلين فيها ومتمسكين بها ويعتبرونها لازمة واجبة الاحترام ويعتبرون الشذوذ عنها تفريقاً لجماعة المسلمين ونقضها مستوجباً لسخط الله تعالى . وتخلف افراد منهم ليس من شأنه أن يخل بذلك.

ومن الخطب المأثورة ليزيد الدالة على الحصافة وحسن البصيرة وتقوى الله هذه الخطبة التي اوردها مؤلف العقد الفريد[3] .

---

(١) علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله رواه مسلم والترمذي من حديث صخر بن جويريه وقال الترمذي حديث حسن . انظر البداية والنهاية ج٨ ص ٢٣٢-٢٣٣ .

(٢) علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله رواه مسلم من حديث هشام بن سعد . انظر البداية والنهاية ج ٨ — ٢٣٣ .

(٣) ج ٢ ص ٣٧٨ .

الحمد لله احمده واستعينه واؤمن به واتوكل عليه ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات اعمالنا . من يهد الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادي له . واشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله اصطفاه لوحيه . واختاره لرسالته بكتاب فصله وفضله . واعزه واكرمه . ونصره وحفظه . ضرب فيه الامثال وحلل فيه الحلال وحرم الحرام ، وشرع فيه الدين إعذاراً وانذاراً ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ويكون بلاغاً لقوم عابدين . اوصيكم عباد الله بتقوى الله العظيم الذي ابتدأ الامور بعلمه . وإليه يصير معادها . وانقطاع مدتها وتصرم دارها ، واحذركم الدنيا فانها حلوة خضرة حفت بالشهوات وراقت بالقليل وأينعت بالفاني ، وتحببت بالعاجل لا يدوم نعيمها ولا يؤمن فجيعها أكالة غوالة غرارة ، لا تبقى على حال ولا يبقى لها حال ، لن تعدو الدنيا إذا تناهت الى امنية اهل الرغبة فيها والرضا بها ان تكون كما قال الله عز وجل (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء الى قوله معتذراً ، نسأل الله ربنا والهنا وخالقنا ومولانا ان يجعلنا واياكم من فزع يومئذ آمنين ، إن احسن الحديث وابلغ الموعظة كتاب الله . يقول الله واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم لقد جاءكم رسول الله من انفسكم .. الى آخر السورة) .

ومن مواقفه التي تدل على البداهة والحصافة ما اوردناه في سياق سيرة معاوية حينما ارسله ابوه الى ابن عباس ليعزيه بالحسن بن علي .

ومما روي من سيرته الشخصية وفيه دلالة على بديهته وقوة عارضته ان زياداً قدم باموال كثيرة وبسفط مملوء جواهر فسر بذلك فقام زياد فخطب وافتخر بما يفعله بأرض العراق من تمهيد الممالك لمعاوية فقام يزيد فقال إن تفعل ذلك فنحن نقلناك من ولاء ثقيف الى قريش ومن القلم الى المنابر ومن زياد بن عبيد الى حرب بن امية . فسر ابوه منه ولم يمنع نفسه ان قال له فداك ابي وامي .

ومما روي من ذلك ان معاوية غضب على يزيد فهجره فقال له الاحنف يا امير المؤمنين انما هم اولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ، ونحن لهم سماء ظليلة وارض ذليلة ، إن غضبوا فأرضهم وإن طلبوا فأعطهم . ولا تكن عليهم ثقيلا فيملوا حياتك ويتمنوا موتك . فقال له معاوية لله درك يا ابا بحر . يا غلام ائت يزيداً فأقرئه مني السلام وقل له إن امير المؤمنين قد امر

لك بمئة الف ومئة ثوب . فسأل يزيد من عند امير المؤمنين فقال الاحنف فقـــال لا جرم لأقاسمنه .

ولقد روي ان معاوية وصى يزيد باكرام عبد الله بن جعفر ووصفه بانه خليله ، فلما وفد عليه بعد موت ابيه رفع جائزته من ستمئة الف إلى الف الف فقال له بأبي انت وامي فاعطاه ألف ألف اخرى ، فقال جعفر والله لااجمع ابوي لأحد بعدك ، ولما خرج رأى على الباب بخاتي قادمة من خراسان تحمل هدايا ليزيد فرجع فسأله ثلاثاً منها ليركبها ، ولم يكن له علم بها فسأل الحاجب فأخبره بخبرها وكانت اربعمئة فقال اصرفوها الى ابي جعفر بما عليها ، فكان عبد الله بن جعفر يقول اتلومونني على حسن الرأي في يزيد [١] .

ولقد كان يزيد على رأس اول جيش غزا القسطنطينية في سنة ٤٩ او ٥٠هـ وقد اورد ابن كثير في سياق هذا الخبر حديثاً نبوياً جاء فيه (أول جيش يغزو مدينة قيصر مغفور له) . وقد حج بالناس سنة ٦١ هـ وقد كان يغدق العطاء على الوفود التي تفد اليه من الامصار حيث روي هذا عنه في سياق ذكر وفدوفد عليه من المدينة .

ومما روي عن يزيد وفيه صورة من صور الحكم وتصرفات الولاة في ذلك العهد ان والي خراسان عبد الرحمن بن زياد قدم عليه فقال له كم قدمت به من المال قال عشرون الف الف ، فقال له ان شئت حاسبناك وان شئت سوغناكها وعزلناك على ان تعطي لعبد الله بن جعفر خمسمائة ألف قال بل سوغها . واما عبد الله بن جعفر فأعطيه ما قلت ومثله معه ، فعزله عن الولاية ووفى عبد الرحمن فاعطى عبد الله الف الف نصفها باسم امـــير المؤمنين ونصفها باسمه [٢] ، ونحن نورد الرواية مع التحفظ لانها غريبة .

ولقد عزيت الى يزيد نقائص اخلاقية من شرب خمر وولع بالقيان والمعازف ولهو بالصيد والقرود وترك للصلاة ، وروي ان هذه النقائص مما برر اهل المدينة خلعهم له في سنة ٦٣ هـ .

غير انه روي الى جانب ذلك نفي لهذه النقائص عنه على لسان محمد بن الحنفية بن علي بن ابي طالب حيث روي ان عبد الله بن مطيع الذي كان من قواد حركة الخلع مشى مـــع

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٠ والبخاتي هي الابل .

(٢) ابن الاثير ج ٣ ص ٢٠٤ وابن كثير ج ٨ ص ٩٤ .

محمد بن الحنفية وارادوه على خلع يزيد فأبى عليهم ، فقال ابن مطيع ان يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة ويتعدى حكم الكتاب ، فقال لهم ما رأيت منه ما تذكرون ، وقد حضرته واقمت عنده فرأيته مواظباً على الصلاة متحرياً للخير يسأل عن الفقه ملازماً للسنة ، قالوا ذلك كان منه تصنعاً لك ، فقال وما الذي خاف مني او رجا حتى يظهر لي الخشوع ،افاطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر فلئن كان اطلعكم على ذلك انكم لشركاؤه ، وان لم يكن اطلعكم فما يحل لكم ان تشهدوا بما لم تعلموا ، قالوا انه عندنا الحق وان لم يكن رأيناه ، فقال لهم ابى الله ذلك على اهل الشهادة فقال (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) ولست من أمركم في شيء، قالوا لعلك تكره ان يتولى الامر غيرك فنحن نوليك امرنا ، قال ما استحل القتال على ما تريدونني عليه تابعاً ولا متبوعاً ، قالوا قد قاتلت مع ابيك ، قال جيئوني بمثل ابي اقاتل على مثل ما قاتل عليه ، فقالوا له فمر ابنيك ابا القاسم والقاسم بالقتال معنا ، فقال لو امرتهما قاتلت،قالوا فقم معنامقاماً تحض الناس فيه على القتال، فقال سبحان الله أ آمر الناس بما لا افعله ولا ارضاه ،إذا ما نصحت لله في عباده ، قالوا اذاً نكرهك قال اذاً آمر الناس بتقوى الله وان لا يرضوا المخلوق بسخط الخالق ثم خرج الى مكة) [1] .

وإذا شك احد في صحة هذه الرواية فالشك وارد في صحة التي قبلها ، ولا سيما ان خلع اهل المدينة ليزيد كان بعد حادث الحسين واثراً من آثار الانفعال الذي سببه وبتأثير حركة عبد الله بن الزبير الذي اخذ البيعة لنفسه في الحجاز بعد ذلك على ما سوف نشرحه في نبذ خاصة ، وقد يكون ما عزي الى يزيد قد عزي عليه افتراء في حياته من قبل خصومه لاثارة الناس عليه مما هو مألوف في كل وقت .

ولقد روي ان معاوية احب ان يعظ ابنه في رفق فيما ولع به من الشراب فقال له يا بني ما اقدرك على ان تصل الى حاجتك من غير تهتك يذهب بمروءتك وقدرك ويشمت بك عدوك ويسيء بك صديقك ، ثم قال يا بني إني منشدك ابياتاً فتأدب بها واحفظها وانشده :

انصب نهاراً في طلاب العلا	واصبر على هجر الحبيب القريب
حتى اذا الليل اتى بالدجا	واكتحلت بالغمض عين الرقيب
فباشر الليل بما تشتهي	فانما الليل نهار الاريب

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٣ .

كم فاسق تحسبه ناسكاً قد باشر الليـــل بأمر عجيب
غطى عليـه الليـــل استاره فبـــات في امن وعيش خصيب
ولذة الاحمـــق مكشوفـــة يسعى بهـــا كل عدو مريب [1]

ولا نرتاب في ان هذه الروايات كروايات كثيرةفيحقملوك بني امية مصنوعة للتسويء والتجريح . ونحن ننزه معاوية صاحب رسول الله وكاتب وحيه والذي اثرت عنه مخافة الله وتقواه وحرصه على التزامحدوده عن ان يرضى من ابنه الشذوذ عن هذه الحدود بلهالتشجيع بل نحن نستبعد هذا عن يزيد وقد انكره محمد بن الحنفية .

ويقال هذا بالنسبة لبيتين من الشعر عزيا اليه وهما :

اقول لصحب ختمت الكأس شملهم وداعي صبابات الهـــوى يـــترنم
خـذوا بنصيب مـــن نعيـم ولذة فكل وإن طال المدى يتصرم [2]

فليس من المعقول ان يترنم خليفة وابن خليفة في مثل ذلك العهد جهاراً بشرب الخمر والدعوة الى اللهو .

ولقد اوردنا في سيرة معاوية رواية ذكرت ان زياداً كتب لمعاوية حين ما استشاره في امر البيعة ليزيد ينبهه الى ما اشتهر به يزيد من مثل هذه النقائص. ونبهنا على ما في الروايةمن تهافت زمنياً وموضوعياً .

ولقد رويت احاديث نبوية في سياق سيرة يزيد منها حديث جاء فيه (قال رسول الله ﷺ لا يزال امر امتي قائماً بالقسط حتى يثلمه رجل من بني امية يقال له يزيد). وحديث جاء فيه (قال النبي ﷺ اول من يغير سنتي رجل من بني امية) .

وهذان الحديثان لم يردا في كتب الاحاديث الصحيحة . وقد انكرهما الامام ابن كثير وهو من علماء الحديث وقرر انقطاعها ثم قال ان ابن عساكر اورد احاديث اخرى في ذم يزيد كلها موضوعة لا يصح شيء منها [3] .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢٨ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٦٣ .
(٣) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣١ .

ولا نرتاب في انه كان للاحداث التي جرت في عهد يزيد الاثر الاكبر في هذه الاحاديث التي ينكرها هذا الامام ويقرر انها موضوعة .

والأحداث المذكورة هي مقتل الحسين بن علي وتمرد اهل المدينة وضربهم واعلان عبد الله بن الزبير خلافته في مكة. وقد رأينا ان نورد موجز ما ورد في صددها ونعلق عليها في سلسلة الاحداث الاخرى المشابهة لانها متصلة بكيان الدولة مباشرة .

وليس ما اوردناه عن يزيد هو كل اعماله ومواقفه واقواله اثناء خلافته . فهناك من ذلك اشياء اخرى صدرت عنه في سياق الاحداث التي جرت في عهده رأينا ايرادها مع التعليق عليها في مناسباتها ايضاً .

وبعضهم يستحل لعن يزيد وبعضهم يجيزه ، ويغلو الشيعة في ذلك غلواً كبيراً بسبب ما روي عنه في سياق الاحداث ثم بسبب ما روي في حقه من احاديث نبوية وما عزي اليه من نقائص أخلاقية . وقد مر تبيان ما في هذه الاحاديث وما في ما عزي اليه من نقائص من وهن . اما الروايات التي تروى في سياق الاحداث فهي متناقضة حيث يروى عنه مايستوجب الثناء الى جانب ما يستوجب التثريب ، على ما سوف نسوقه بعد ، ومما يوجب التحفظ الشديد ولا يجيز لعنه وهو خليفة المسلمين ببيعة عامة وقد ثبت جهاده واسلامه . ولقد انكر الامام ابن تيمية لعنه ودلل على عدم جوازه بروايات عديدة وبأدلة نقلية وعقلية قوية [1] .

هذا . وقد روي ان يزيد مات في حوارين من قرى دمشق في الرابع عشر من ربيع الاول سنة ٦٤ ﻫ ثم حمل الى دمشق وصلى عليه ابنه معاوية ودفن بمقابر باب الصغير . وفي ايامه وسع النهر المسمى بيزيد في ذيل جبل قاسيون وكان جدولا صغيراً . وقد اخذ البيعة لابنه معاوية قبل وفاته . فلما توفي خلفه في الخلافة .

ومما يرويه ابن كثيرانه كان ليزيد خمسة عشر ولداً ذكراً وخمس بنات وقد انقرضوا كافة فلم يبق له عقب . ومما يرويه اليعقوبي انه مات عن اربعة اولاد ذكور هم معاوية وخالد وابو سفيان وعبد الله .

---

(١) انظر المنتقى من منهاج السنة ص ٢٨٩ـــ٢٩٢ .

٣ ــ معاوية الثاني بن يزيد الاول [١]

•

تراوحت الروايات في سنه حين صار له الحكم بين ١٨ و٢٥ سنة،وامه اموية .وقدوصف بأنه جميل الوجه حسن الجسم شديد البياض كبير العينين أقنى الأفف . وكان ورعاً تقياً . وقد سماه ابوه ولياً لعهده فلما مات كان مريضاً فتولى الولاة والوكلاء اخذ البيعة له . ونرجح ان اباه حينما سماه ولياً لعهده اخذ البيعة له .

وليس هناك شيء حول ذلك حيث يسوغ القول ان سنة تسمية ولي العهد وبيعته في حياة الذي يسميه ثم تجديد البيعة له بعد وفاته قد استقرت ، وكان قيس بن الضحاك من رجال ابيه وجده من قبل يصلي بالناس ويسد الامور نيابة عنه .

ولقد دعا الناس الى الجامع بعد ايام من وفاة ابيه فخاطبهم قائلاإني قد وليت امركم وانا ضعيف عنه ، فان احببتم تركتها لرجل قوي كما تركها الصديق لعمر وان شئتم تركتها شورى بينكم كما تركها عمر بن الخطاب فخاف بنو امية ان يخرج الامر منهم فقالوا له امهلنا اياماً يا امير المؤمنين فقال لهم لكم ذلك ثم عاد الى منزله فلم يخرج منه حتى مات .

وروي انه سقي سماً وروي انه طعن ، وهناك رواية تذكر انه قال لهم لقد ابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه ابو بكر فلم أجده ، وابتغيت لكم ستة مثل الستة الذين جعل عمر الامر شورى بينهم يختارون واحداً منهم فلم أجدهم فأنتم اولى بأمركم فاختاروا له من احببتم ، ولما ثقل عليه المرض دخل عليه بنو امية وطلبوا منه ان يستخلف واحداً منهم فقال لا والله لا اتزودها ، ما سعدت بحلاوتها فكيف اشقى بمرارتها ثم هلك ولم يستخلف .

---

(١) هذه النبذة مقتبسة من الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ١٢ وبعدها وتاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٨٥ وبعدها والبداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ٢٣٧ وبعدها واليعقوبي ج٢ص ٢٢٦ــ٢٢٧ .

ولقد روى اليعقوبي نص خطبة اخرى في سياق تنازل معاوية وهو(ايهاالناس انا بلينابكم وبليتم بنا ، فما نجهل كراهتكم لنا وطعنكم علينا ، الا ان جدي معاوية نازع الامر من كان اولى به منه في القرابة برسول الله والسبق في الاسلام فركب منكم ما تعلمون وركبتم منه ما تنكرون حتى اتته منيته ، وصار رهناً بعمله ، ثم قلده ابي وكان غير خليق للخير فركب هواه واستحسن خطاه ، وعظم رجاؤه فأخلفه الامل وقصر عنه الاجل فقلت متعته وانقطعت مدته وصار في حفرته رهناً بذنبه واسيراً بجرمه ، ثم بكى وقال ان اعظم الامور علينا علمنا بسوء مصرعه وقبح منقلبه ، وقد قتل عترة الرسول واباح الحرمة وحرق الكعبة وما انا المتقلد اموركم والمتحمل تبعاتكم فشأنكم امركم ، فوالله لئن كانت الدنيا مغنماً لقد نلنا منها حظاً وان تكن شراً فحسب آل ابي سفيان ما اصابوا منها ، فقال له مروان سنها فينا عمرية (يعني وص بالخلافة على الطريقة التي وصى بها عمر) فقال ما كنت اتقلدكم حياً وميتاً ، ومتى صار ابن يزيد مثل عمر ومن لي برجال مثل رجال عمر) [1] .

والصنعة بل الكذب يفوحان من هذا النص بكل قوتها ، حيث ينسب الى ابيه وجده اشد ما ينسبه اليها الشيعة وما لم تؤيده اي رواية من الروايات القديمة على ما سوف يأتي شرحه في سياق مقتل الحسين وثورة المدينة وابن الزبير ، ولا يعقل ان يصدر منـــه في اي حال .

ولقد كان عبد الله ابن الزبير اعلن استقلاله وخلافته في مكة وسيطر على الحجاز وكانت جيوش يزيد محاصرة لمكة حين توفي وانتقل الحكم الى ابنه معاوية ، وسبق ذلك حادثا مقتل الحسين بن علي وثورة المدينة وضربها .

فمن المحتمل ان يكون معاوية قد استهول الموقف بوحي من مرضه وتورعه وزهـــده فأراد ان يتخلى عن المسؤولية بالنسبة لنفسه وبالنسبة لما بعده ، فاستقال ولم يعين خلفاً .

وقد ادى موقفه هذا الى انتقال الملك الى الفرع الثاني من بني امية الذي بدأ بمروان بن الحكم بن ابي العاص .

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ص٢٢٦–٢٢٧ .

٤ — مروان بن الحكم [1]

●

ولد في حياة النبي ﷺ وكان عمره حين توفي النبي ثماني سنوات، ووصف بأنه كان قصيراً احمر الوجه دقيق العنق كبير الرأس واللحية، وقد عده بعضهم صحابياً وبعضهم تابعياً، واثر عن علي بن ابي طالب وصفه له بسيد من شباب قريش، ووصفه معاوية بالقارىء لكتاب الله الفقيه في دين الله الشديد في حدود الله.

وكان كاتب عثمان بن عفان ومن مستشاريه الاخصاء. وقد دافع عنه اشد دفاع يوم حصره في داره على ما شرحناه في الجزء السابق. وقد اتهمته الروايات بأنه الذي زور كتاباً بلسان عثمان بقتل محمد بن ابي بكر او بعض وفود مصر التي اتت الى المدينة وشاركت في حركة النقمة ضد عثمان.

غير ان هناك روايات تنفي ذلك وتذكر ان الكتاب مزور [2]. وإزاء الروايات المتناقضة يجب على المنصف ان يقف موقف المتحفظ.

ولقد كان والياً للمدينة في خلافة معاوية، ومحل ثقته واعتماده، ووصفه بذلك الوصف العظيم الذي اوردناه في سيرة معاوية.

وقد ولاه امارة الحج مراراً، وروى ابن الاثير [3] ان الحسن والحسين رضي الله عنهما

---

(١) هذه النبذة مقتبسة من تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٠٨ وبعدها و الامامة والسياسة لابن قتيبة ج٢ ص ١٥ وبعدها والبداية والنهاية لابن كثير ج٨ ص ٢٣٩ وبعدها ومروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص٣١ وبعدها وابن الاثير ج ٤ ص ٥٧ وبعدها وتاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٣ — ١٤.

(٢) انظر المنتقى من منهاج السنة ص ٣٧٧ وذيلها والعواصم من القواصم لابي بكر العربي ص١٠٩ و١٢٦ — ١٢٧ وذيولها وقد محصنا هذه المسألة في الجزء السابق ايضاً.

(٣) ج ٤ ص ٧٥.

كانا يصليان خلفه حينما كان والياً وان محمداً بن علي سئل عنه فقال هو خير لنا . وانه اعتق في يوم واحد مئة رقبة ، وقد اتخذ المدينة سكناً له ولاولاده الى ان اعلن ابن الزبير خلافته في مكة وثارت المدينة على يزيد بن معاوية فخرج منها ومن كان فيها من اقاربه الى الشام .

ولما مات معاوية بن يزيد ارتبكت الامور في الشام وقويت دعوة ابن الزبير فيها حتى لقد اعلن كثير من اهلها البيعة له بل روي ان مروان نفسه قد هم بالبيعة له،وفي هذه الاثناء قدم عبد الله بن زياد فاجتمع عليه بنو امية ومن جملتهم مروان فقال له استحييت لك مما تريد وانت كبير قريش وسيدها ، فقال له ما فات شيء بعد ، فقام معه بنو امية وانصارهم وخاصة اليمانيين في الاردن وفلسطين بزعامة حسان بن مالك وروح بن زنباع .

وكان الضحاك بن قيس قد اظهر البيعة لابن الزبير وخلع بني امية فالتف عليه جل اهل الشام وكتب الى النعمان بن بشيروالي حمص وزفر بن الحارث والي قنسرين وناتل بن قيس والي فلسطين فتابعوه على البيعة لابن الزبير وارسلوا اليه مدداً ، مما جرأ الضحاك وجعله يقدم على النزول في قصر الامارة في الشام ويعلن نفسه كعامل لابن الزبير ويصلي بالناس .

ولقد اشتد الهرج في دمشق حتى تضارب بعض انصار الطرفين وتشاتموا فبعث ذلك الخوف في نفس الضحاك وجعله يتراجع ويبعث الى بني امية فيعتذر اليهم ويطلب منهم زعيم دعوتهم حساناً ليأتي للاجتماع به في الجابية حتى يتفقوا على رجل منهم فيبايعه معهم غير ان زعيما من انصار ابن الزبير اسمه ثور بن معن جاء اليه فقال دعوتنا الى طاعة ابن الزبير فبايعناك ثم تنكص فرده عن تراجعه ، وحينئذ نزل الى مرج راهط قرب دمشق مع من تجمع معه ايذاناً بتمسكه بابن الزبير،وحينئذ خرج مروان ومن تحشد معه اليه من جماعات الشام والاردن وفلسطين .

وكان على ميمنته عمرو بن سعد بن ابي العاص وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد واخذ الطرفان يشتبكان بالقتال الذي امتد عشرين ليلة ثم دارت الهزيمة على الضحاك وحشوده وقتل منهم مقتلة عظيمة وكان هو من جملة القتلى .

وبلغ خبر الهزيمة النعمان بن بشير فخرج من حمص فاراً باهله وولده وثقله فطلبه انصار بني امية حتى ادركوه وقتلوه ،وفي اثناء معركة المرج ثار يزيد بن ابي نمس في دمشق وكان عليها عامل من قبل الضحاك بن قيس فغلب عليها واستولى على خزائنها واعلن البيعة لمروان وامده بالاموال والرجال والسلاح فكان ذلك مما ساعد على انتصار مروان وحشوده .

ولقد نشب خلاف بعد النصر في رواية وقبل المعركة في رواية اخرى بين انصار بني امية على من يولونه الامر حيث اراد فريق ان تكون البيعة لخالد بن يزيد بن معاوية وفريق آخر ان تكون لمروان لانه اكثر اهلية بسنه وتجاربه حتى لقد قال بعض الانصار في مقام الاستنكار أيأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بغلام يعنون عبد الله بن الزبير ، فكان ذلك من مرجحات مروان ، ومع ذلك فقد تم الاتفاق بين الفريقين على ان يكون الامر من بعده لخالد .

ولقد كان بشر بن مروان يحمل راية ابيه ويرتجز قائلا :

ان على الرئيس حقاً حقــاً ان يخضب الصعدة او تندقا

وروي ان مروان انشد بعد بيعته او في اثناء الكلام عنها :

لما رأيت الامر امراً نهبــاً يسرت غسان لهــم وكلبـاً
والسكسكيين رجالا غلبـاً وطيئاً تـأباه إلا ضربــاً
والقين تمشي في الحديد نكباً ومن تنوخ مشمخراً صعبـاً
لا يأخذون الملك الا غصباً وإن دنت قيس فقل لا قربا

ولقد تتابع اهل الشام في البيعة له حتى استتب له الامر ،ولقد قدم في هذه الاثناء مصعب بن الزبير الى فلسطين ليقيم الدعوة لاخيه ، ولقد قام في مصر عبد الرحمن بن حجوم القرشي يدعو لابن الزبير ، فسير مروان جيشاً للقاء مصعب بقيادة عمرو بن سعيد فهزمه ووطد البيعة لمروان ، وسار مروان بنفسه الى مصر واستطاع ان يوطد الامر فيها لنفسه .

وهكذا اجتمع له بلاد الشام ومصر بينما كان الحكم في الحجاز واليمن والعراق لابن الزبير ، واستمر الامر على ذلك إلى ان مات .

ولقد وجه جيشاً الى الحجاز لمحاربة ابن الزبير ووصل الجيش الى المدينة ، فكتب ابن الزبير الى عامله على البصرة ان يوجه اليهم بجيش ففعل ، وقتل هذا الجيش قائد جيش مروان وعامة رجاله .

وهناك رواية تذكر ان مروان سير عبيد الله بن زياد على رأس جيش الى العراق فخرج اليه الشيعة الذين كانوا تحركوا لاخذ ثأر الحسين بقيادة سليمان بن صرد والتقى الجيشان في

مكان اسمه عين الوردة وتقاتلوا فدارت الدائرة على جيش الشيعة .

على ان هناك رواية اخرى تذكر ان عبد الملك بن مروان هو الذي سير جيش عبيد الله بن زياد بعد ان مات ابوه وخلفه على العرش .

وقد روي ان مروان مات مخنوقاً او مسموماً بتدبير زوجته ام خالد زوجة يزيد بن معاوية التي تزوج بها بعد يزيد . والروايات تذكر انه نشب كلام شديد بين خالد ومروان فقال له مروان كلمة فيها سب لامه فنقلها اليها فهاج غضبها واستسنحت فرصة فدست له السم او خنقته بوسادة وضعتها على وجهه وقعدت هي او جواريها عليها .

ولقد ذكرت الروايات ان مروان اخذ البيعة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز ليكونا وليي عهده واحداً بعد الآخر .

فاذا صحت الرواية التي ذكرناها قبل ونحن نرجح صحتها بأن اليمانيين اخوال يزبد الذين ايدوا مروان وبايعوه اشترطوا ان يكون ولي عهده خالداً بن يزيد فمن المحتمل ان يكون هذا وامه قد غضبا لصرف الخلافة عنه فتآمروا على قتله ونفذا مؤامرتها .

ومروان هو اول من سن سنة تعيين وليين للعهد من بعده وكانت لهـــا نتائج سيئة في الدولتين الاموية والعباسية .

وقد ذكرنا في نبذة ولاية العهد ما عن لنا عن اسباب ذلك فلا نرى ضرورة للاعادة .

وينبز مروان بما روي في حق ابيه وحقه من احاديث نبوية فيها لعنهما وقد اوردنا هذه الاحاديث في التمهيد الاول الذي قدمناه بين يدي نبذة سيرة الخلفاء واوردنا نقد ابن الاثير وابن كثير لها وتقرير الثاني بكونها موضوعة . ونبهنا على اثر الحزبية السياسية القوي فيها .

ينبز كذلك بما روي من ان النبي ﷺ نفى اباه الى الطائف بعد اسلامه يوم الفتح وقدومه الى المدينة لانه كان شديد المناوأة للنبي .

على ان هناك رواية تذكر ان النبي عفا عنه وسمح له بالعودة من منفاه [1] وحتى لو لم تصح هذه الرواية فليس لهذا النبز محل ولا مسوغ من دين وعقل .

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص ٣٨٤ .

٥ ـــ عبد الملك بن مروان[1]

●

يجمع المؤرخون على ان هذا الملك كان عالماً فقيها حازماً شجاعاً داهية فصيحاً ، وقد ولد في سنة ٢٦ هـ وكان ربعة بين الرجال اقرب الى القصر ، وكان افوه الفم ابيض اللون ليس بالبادن ولا النحيف اشهل كبير العينين دقيق الوجه ، وقد ارسله معاوية الى غزو بلاد الروم وعمره ست عشرة سنة ، ثم عينه والياً على المدينة وما يزال شاباً يافعاً فكان يجالس فقهاءها [illegible] صلحاءها ويتعلم منهم ويستشيرهم .

وقد روى عنه علماء الحديث ورواته احاديث نبوية عديدة ، منهم خالد بن سعدان وعروة بن الزبير والزهري ورجاء بن حياة وجرير بن عثمان .

ولقد روي عن نافع بن عبد الله بن عمر قوله إني لم ار في المدينة شابا اشد تشميراً ولا افقه ولا اقرا لكتاب الله من عبد الملك بن مروان وعن ابي الزناد انه كان رابع اربعة يعدون فقهاء المدينة والثلاثة الآخرون هم سعيد بن المسيب وعروة وقبيصة بن ذؤيب ، وعن الشعبي قوله ما جالست احداً الا وجدت لي الفضل عليه الا عبد الملك فاني ما ذاكرته حديثاً ولا شعراً إلا زادني منه .

وقال ابن قتيبة انه كان معروفاً بالصدق مشهوراً بالفضل والعلم لا يختلف في دينه ولا يتنازل في ورعه ، وما اثر عنه من اقوال وافعال مصداق لكل ما وصف به .

وقد خطب بعد بيعته فوعد الناس خيراً ، ودعاهم الى احياء الكتاب والسنة واقامة العدل والحق .

---

(١) هذه النبذة مقتبسة من الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ١٦ – ٥٤ والطبري ج ٤ ص ٤٧٤ وبعدها ج ٥ ص ٢ وبعدها والعقد الفريد ج ٢ ص ٣٧٨ و ج ٣ ص ١٥٣ وبعدها ومروج الذهب ج ٣ ص ٣٦ وبعدها والبداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ٢٦٠ وبعدها و ج ٩ ص ٢ – ٧٠ وتاريخ ابن الاثير ج ٤ ص ٧٤ – ٢٠٠ وتاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١٤ – ٢٧ مطبعة الغرى ١٣٥٨ .

ومن خطبه المأثورة«ان اللسان بضعة من الانسان وانا لا نسكت حصرا ولا ننطق هذراً ونحن امراء الكلام فينا رسخت عروقه ، وعلينا تدلت اغصانه » وكان يختتم خطبه بقـــوله « اللهم ان ذنوبي قد عظمت وجلت ان تحصى وهي صغيرة في جنب عفوك فاعف عني » .

وخطب مرة خطبة بليغة ثم قطعها وبكى بكاء شديداً وقال يا رب إن ذنوبي عظيمة وإن قليل عفوك اعظم منها ، اللهم فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبي .

فبلغ ذلك الحسن البصري فبكى وقال لو كان كلام يكتب بالذهب لكتب هذا الكلام وكتب الى الحجاج رسالة قال فيها (إنك اعز ما تكون بالله احوج ما تكون اليه واذل ما تكون للمخلوق احوج ما تكون اليه ، فاذا عزت بالله فاعف فانك به تعز واليه ترجع) .

وطلب رجل منه خلوة ليحدثه في بعض الامور ففعل ثم قال له قبل ان يتكلم « احذر في كلامك ثلاثاً ، اياك ان تمدحني فاني اعلم بنفسي منك، او تكذبني فانه لا رأي لكذوب، او تسعى الي بأحد الرعية ، فانهم الى عدلي وعفوي اقرب منهم الى جوري وظلمي ، وان شئت اقلتك من الكلام » فقال له الرجل اقلني فأقاله .

وكان يقول للرسل التي تقدم عليـه من الآفاق مثل هذا مع زيادة هامة وهي ان لا يجيبوا الا على ما يسألهم عنه .

وسئل أي الرجال افضل فقال « من تواضع عن رفعة ، وزهد عن قدرة وترك النصرة عن قوة » .

ومن اقواله المأثورة « لا طمأنينة قبل الخبرة ، فان ذلك ضد الحزم ، وخير المال مـــا افاد جمعه او دفع ذماً » .

وكان يقول لمؤدب اولاده « علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن ، وجنبهم السفلة فانهـم اسوأ الناس رغبة عن الخير واقلهم ادباً ، وجنبهم الحشم فانهم لهم مفسدة ، واحف شعورهم تغلظ رقابهم ، واطعمهم اللحم يقووا، وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا ، ومرهم ان يستاكوا عرضاً ويمصوا الماء مصاً ، واذا احتجت ان تتناولهم بضرب فتناولهم بأدب وليكن ذلك سر لا يعلم به احد من الغاشية فيهونوا عليهم » .

وبلغه عن عامل من عماله انه قبل هدية فاستدعاه فلما دخل عليه سأله (اقبلت هدية منذ

وليت ، قال يا امير المؤمنين بلادك عامرة ، وخراجك موفور ، ورعيتك على افضل حال ، فقال له اجب عما سألتك ، قال له نعم ، فقال ان كنت قبلت ولم تعوض انك للئيم ، ولئن عوضت من غير مالك انك لخائن جائر ، وفيما اتيت امر لا تخلو فيه من دناءة او خيانة فلا تعمل لي بعد الآن) .

ولما بلغه خلع ابن الاشعث له - والحديث عن هذا الحادث يأتي في سلسلة الاحداث العامة - صعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال « ان اهل العراق استعجلوا قدري قبل انقضاء اجلي، اللهم لا تسلطنا على من هو خير منا ، ولا تسلط علينا من نحن خير منه ، اللهم سلط اهل الشام على اهل العراق حتى يبلغ رضاك ، فاذا بلغه فلا يجاوز سخطك » .

وقيل له اسرع اليك الشيب فقال كيف لا وانا اعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة او مرتين .

وقد اثر عنه انه كتب للحجاج يقول جنبني دماء بني عبد المطلب ، وشكا انس بن مالك الحجاج حينما كان والياً على الحجاز وذكر خدمته لرسول الله واضرار الحجاج له وقال له فيما قال لو ان يهودياً او نصرانياً خدم موسى او عيسى لعرف بنو نحلته حقه ما استطاعوا، فلما جاءته الرسالة بكى وغضب وكتب الى الحجاج كتاباً شديداً امره فيه بالسعي الى صاحب رسول الله وخادمه واسترضائه فصدع الحجاج بما أمر [1] .

ولقد روى المسعودي في سياق سيرة مروان بن محمد ان صاحب افريقية حمل الى عبد الملك جارية ذات بهاء وكمال تامة المحاسن شهية للمتأمل فلما وقفت بين يديه تأمل حسنها وبيده كتاب من الحجاج يخبره بوقوفه مع ابن الاشعث في دير الجماجم فرمى بالكتاب عن يده وقال لها انت والله منية النفس فقالت الجارية ما يمنعك يا امير المؤمنين ن يمنعني بيت

---

(١) روي عن ابن الاثير ما فيه تعليل لما كان من الحجاج نحو انس رضي الله عنه وهو انحيازه هو وابنه الى حركة تمردية ضد الحجاج في البصرة بزعامة عبد اللهبن الجار . وسيأتي تفصيل ذلك فيالنبذة التي عقدناها على الاحداث المعكرة في عهد الدولة الاموية .

قال الاخطل :

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم	دون النساء ولو باتت بأطهـار

أألتذ بالعيش وابن الاشعث مصاف لابي محمد وقد هلكت زعماء العرب ، لاها الله اذاً .

وقد روى ابن كثير عن عمر بن شبه عـن اشياخه رواية مساجلة جرت بين عبد الملك والحجاج بها صورة ادبية طريفة وصورة لما كان يجري بين الخليفة وواليه المشهور نوردهـا بالمناسبة وان كان من المحتمل ان تكون مصنوعة لان فيها تعريضاً بالحجاج لاسرافه في صرف المال وسفك الدماء ، فقد كتب عبد الملك للحجاج يعتب عليه في اسرافه في صرف الاموال وسفك الدماء ، ويقول انما المال مال الله ونحن خزانه وسيان منع حق او اعطاء باطل .

وكتب في اسفل الكتاب هذه الابيات :

اذا انت لم تترك اموراً كرهتهـا	وتطلب رضائي في الذي انا طالبه
وتخشى الذي يخشاه مثلك هارباً	الى الله منه ضيـع الدر حالبـــه
فان تر مـني غفـــلة قرشيـة	فيا ربما قـد غص بالماء شاربـــه
وان تر مني وثبـــة اموية	فهـذا وهـذا كله انا صاحبـــه
فلا تعد ما يأتيك مـني فان تعد	تقم فاعلمن يومـــاً عليك نوادبه

وقد كتب الحجاج جواباً يقول فيه جاءني كتاب امير المؤمنين يذكر فيــه سرفي في الاموال والدماء ، فوالله ما بالغت في عقوبة ، ولا قضيت حـق اهل الطاعـة فان كان ذلك سرفاً فليحد لي امير المؤمنين حداً انتهي اليه ولا اتجاوزه ، وكتب في اسفل الكتاب :

اذا انا لم اطلب رضاك واتقـي	اذاك فيومي لا توارت كواكبه
اذا قارف الحجاج فيك خطيئـة	فقامت عليه في الصباح نوادبــه
اسالم من سالمت من ذي هـوادة	ومن لا تسالمـه فاني محاربــه
اذا انا لم ادن الشفيق لنصحه	واقص الذي تسري اليه عقاربـه
فمـن يتقي يومي ويرجو اذا غدي	على ما ارى والدهر جم عجائبـه

ومما يروى انه كان اذا جلس للقضاء بين الناس قام السيافون على رأسه ثم ينشد قبـــل

البدء في الفصل بين الناس :

انا اذا ما نالت دواعي الهوى ... وانصت السامع للقائـل
واصطرع الناس بألبابهـم ... نقضي بحكم عادل فاصل
لا نجعل الباطل حقـاً ولا ... نلفظ دون الحق بالباطل
نخاف ان تسفه احلامنـا ... فنجهل الحق مـع الجاهـل

ومن هذا الباب ما رواه الطبري عن المدائني انه دخل على عبدالملك يوماً سلمه بن زيد بن وهب بن نباته الفهمي فقال له اي الزمان ادركت افضل واي الملوك اكمل فقال اما الملوك فلم ار الا ذاماً وحامداً واما الزمان فيرفع اقواماً ويضع اقواماً وكلهم يذم زمانه لانه يبلي جديدهم ويهرم صغيرهم وكل ما فيه منقطع غير الامل ، قال له فأخبرني عن فهم قال هم كما قال الشاعر :

درج الليل والنهار على فهـم ... بن عمرو فأصبحوا كالرمـيم
وخلت دارهم فأصبحت يباباً ... بعـد عز وثروة ونعيم
وكذاك الزمان يذهب بالناس ... وتبقى ديارهم كالرسوم

قال فمن يقول منكم :

رأيت الناس مذ خلقوا وكانوا ... يحبون الغـني من الرجـال
وان كان الغني قليل خير ... بخيـلا بالقليل من النوال
فما ادري علام وفيم هـذا ... وماذا يرتجون من البخـال
اللدينا فليس هنـاك دنيـا ... ولا يرجى لحادثة الليـالي

قال انا [١] .

ومن اقواله المأثورة عن نفسه وعن ابن الزبير خصمه ما اعلم مكان احد اقوى على هـذا الامر مني ، وان ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام ولكن لبخله لا يصلح ان يكون سائساً [٢] .

(١-٢) الطبري ج ٥ ص٢١٢-٢١٣ .

ومن القصص الادبية الطريفة المروية عن عبد الملك انه دخل عليه كثير الشاعر فقال لان تسمع بالمعيدي خير من ان تراه فقال حيهلا يا امير المؤمنين . إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فان نطق نطق ببيان وان قاتل قاتل بجنان وأنا الذي أقول :

وجربت الامور وجربتني	وقد أبدت عريكتي الامور
ومـا تخفى الرجال علي إني	بهم لأخو مثاقفة خبير
ترى الرجل النحيف تزدريه	وفي أثوابه أسد زئير
ويعجبك الطرير فتبتليه	فيخلف ظنك الرجل الطرير

قالوا ودخل عليه يوماً وهو يتجهز للخروج الى مصعب بن الزبير فقال له ويحك يا كثير ذكرتك الان بشعرك فان أصبته أعطيتك حكمك فقال يا أمير المؤمنين كانك لما ودعت زوجتك عاتكة بنت يزيد بكت لفراقك فبكى لبكائها حشمها فذكرت قولي:

اذا ما اراد الغزو لم تثن عزمه	حصان عليها نظم در يزينها
نهته فلما لم تر النهي عاقه	بكت فبكى مما عراها قطينها

قال اصبت فاحتكم ، قال مئة ناقة من نوقك المختارة فقال : هي لك[1] .

ومما رواه الطبري عن عهد عبدالملك وفيه صورة من صور الحكم والعهد والحياة العربية في البلاد المفتوحة أن سلماً بن زياد والي خراسان استخلف المهلب بن أبي صفرة بعد موت يزيد وتنازل معاوية ابنه فلقيه عبد الله بن خازم ، فقال له ؛ اما وجدت في مضر رجلا تستخلفه حتى استخلفت يمانياً وطلب منه أن يكتب له عهداً على خراسان ففعل فقدم اليها وتغلب عليها . فلمااستتب حكم العراق في سنة ٦٧ لابن الزبير على ما سوف نشرحه بعد دخل في بيعته .

---

(١) ويروي العقد الفريد في هذ السياق ان عاتكة قد كانت اقبلت عليه متزينة فقالت يا امير المؤمنين لو قعدت في ظلال ملكك ووجهت اليه كلباً من كلابك لكفاك امره فقال هيهات أما سمعت قول الشاعر:

قوم إذا ما غزوا شدوا مآزرهم	دون النساء ولو باتت باظهار

وظل مصراً على عزيمته فبكت وبكى معها جواريها . وفي هذه الاثناء وفد عليه كثير فجرى بينه وبينه ما رويناه في المتن .

فلما قضى عبد الملك على حـركة ابن الزبير في سنة ٧٢ او ٧٣ ارسـل رأس عبد الله بن الزبير الى عبد الله بن خازم وطلب منه أن يدخل في طاعته على ان تكون لـه خراسان طعمة لمدة عشر سنين أو سبع عـلى اختلاف الروايات . فغسل ابن خازم الرأس وحنطه وصلى عليه ثم اجبر الرسول الذي جاء بكتاب عبد الملك على اكل الكتاب وقال له أرسلك أبو الذبان — وكان خصوم عبـد الملك يلمزونه بهذا اللقب — ولولا حرمة الرسل لقتلتك .

فلما رجع الرسول واخبر عبد الملك كتب الى صاحب شرطة بن خـازم بكير بن وشاح السعدي الثقفي كتاباً عينه فيه على خراسان وطلب منه إزاحة ابن خازم فأعلن خلع ابـن خازم وصاوله حتى تمكن مـن قتله وإرسـال رأسه الى عبـد الملك .

ولقد نشب بعد قليل نزاع بين بكير هذا وبين زعيم بـني تميم بحير الصريمي وتعصبت قبيلة كل منهما لصاحبه حتى اقتتل الفريقان ثم سعى الوسطاء فأصلحوا بـين الزعيمين فخاف اهل خراسان — ويقصد مـن هذا التعبير وأمثاله أهـل الشام وأهل مصر وأهل الكوفة وأهل البصرة الخ . . جيوش الفتح الذين خرجوا مـن جزيرة العرب الى هـذه البلاد واستقروا فيهـا وابناؤهم الذين صاروا اهل الديوان بعدهم — ان يعود النزاع ثانية فتفسد البلاد ويقوى المشركون اعداء العرب فكتبوا الى عبد الملك سنة ٧٤ إن خراسان لا تصلح بعد الفتنة الا على رجل مـن قريش يسمعون له ويطيعـونه ولا يحسدونه ولا يتعصبون عليه فاستشار بعض رجاله فقال له أمية بـن عبد الله بن خالد بـن أسيد تداركهم برجل منك فقال له لولا انحيازك عن أبي فديك . وهذا من زعماء الخوارج وستأتي قصته في نبذة ثانية مع قصة الخوارج — كنت ذلك الرجل فقال له والله ما انحزت حتى لم أجد مقاتـلا وخذلني الناس فـرأيت ان انحيـازي الى فئـة افضل مـن تعريضي عصبة مـن المسلمين للهلكة فقال رجل حاضر صدق أمية يا امير المؤمنين لقد صبر حتى لم يجد مقاتلا وخذله الناس فولاه خراسان وكان يحبه ويسميه لدته [1] وقد قام بالامر قياماً محموداً وكان له بـلاء عظيم في ضبط البلاد وتوسيع رقعة الدولة وإرهاب الاعداء حتى ليعد من أعاظم رجال الدولة .

ومما روي عنه انه اول من افرد للظلامات يوماً يتصفح فيه قصص المتظلمين (استدعاءاتهم بلغة اليوم) وكان اذا وقف منها عـلى مشكل او احتاج فيها الى حكم منفذ رده إلـى

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٤٨٤ وبعدها و ج ٥ ص ٣٨ وبعدها

قاضيه ابي ادريس الأودي فنفذ فيه احكامه لرهبة التجارب من عبد الملك في علمه بالحال ووقوفه على السبب فكان ابو ادريس هو المباشر وعبد الملك هو الآمر [1] .

ويروي ابن خلدون [2] وصية رائعة تدل على بصيرة ثاقبة وعقل المعي وصى بها عبد الملك اخاه عبد العزيز حينما عينه والياً على مصر حيث قال له « ابسط بشرك ، وألن كنفك ، وآثر الرفق في الامور فهو ابلغ لك ، وانظر حاجبك وليكن من خير اهلك فانه وجهك ولسانك ، ولا يقفن احد ببابك الا اعلمك مكانه لتكون انت الذي تأذن له او ترده ، فاذا خرجت الى مجلسك فابدأ جلساءك بالكلام يأنسوا بك وتثبت في قلوبهم محبتك ، واذا انتهى اليك مشكل فاستظهر عليه بالمشورة، فانها تفتح مغاليق الامور المبهمة ، واعلم ان لك نصف الرأي ولاخيك نصفه ، ولن يهلك امرؤ عن مشورة ، واذا سخطت على احد فأخر العقوبة فانك على العقوبة بعد التوقف اقدر منك على ردها بعد اصابتها .

ومما يروى انه اختار الشعبي ليكون له نديماً وجليساً، ووصاه بوصايا فيها حدود ما ينبغي له ازاءه تدل على ما كان من حصافة عقله ولطف ادراكه حيث قال له (لا تساعدني على ما قبح ، ولا ترد علي الخطأ في مجلسي ، ولا تكلفني جواب التشميت والتهنئة ولا جواب السؤال والتعزية ،ودع عنك كيف اصبح الامير وكيف امسى ، وكلمني بقدر مااستطعمك واجعل بدل المدح لي صواب الاستماع الي ، واعلم ان صواب الاستماع اكثر من صواب القول ، واذا سمعتني اتحدث فلا يفوتنك منه شيء وارني فهمك من طرفك وسمعك ، ولا تجهد نفسك في تطرية صوابي ، ولا تستدع بذلك الزيادة في كلامي ، فان اسوأ الناس حالا من استكد الملوك بالباطل ، وان اسوأ الناس حالا منهم من استخف بحقهم ، واعلم ان اقل من هذا يذهب بسالف الاحسان ، ويسقط حق الحرمة ، فان الصمت في موضعه ربما كان ابلغ من النطق في موضعه وعند اصابته وفرصته) [3].

ومما يروى عنه وفيه دلالة على ما كان من بعد نظره وتقديره للرجال والظروف ان

---

(١) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٦٥ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٥٨ .

(٣) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٧ .

الحجاج كان يخوفه من آل المهلب لما كان لهم من عصبية ونفوذ واسم داو في البصرة وما والاها ويستأذنه في عزل يزيد بن المهلب كبيرهم عن خراسان . ويذكره بما كان من اندماجهم في حركة ابن الزبير ووفائهم له — وهذه من الحركات الكبرى التي كادت تقضي على الدولة الاموية على ما سوف نشرحه في نبذة خاصة — فكان يقول له إني لا ارى طاعة آل المهلب لآل الزبير نقصاً بل وفاء وان وفاءهم لهم يدعوهم الى الوفاء لي ، وان كان في النهاية وافق على عزله لكثرة الحاح الحجاج الذي كان له المنزله العظمى والرأي النافذ عند عبد الملك [1] .

ومما يرويه المسعودي [2] كمظهر من مظاهر رباطة جأش عبد الملك انه خرج في جيش الشام فنزل بطنان ينتظر ما يكون من ابن زياد فأتاه خبر مقتله ومقتل من كان معه وهزيمة الجيش بالليل .

واتاه في تلك الليلة مقتل جيش ابن دلجة وكان على جيش بالمدينة لحرب ابن الزبير ثم جاءه خبر دخول ناتل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ومسير مصعب ابن الزبير من المدينة الى فلسطين ، ثم جاءه مسير ملك الروم ونزوله المصيصة يريد الشام، ثم جاءه خبر فساد دمشق وان عبيدها واوباشها ودعارها قد خرجوا على اهلها ونزلوا الجبل وان من في سجنها فتحوا السجن وخرجوا مكابرة ، وان خيل الاعراب اغارت على حمص وبعلبك والبقاع وغير ذلك مما نمي اليه من المقطعات في تلك الليلة فلم ير في ليلة قبلها اشد ضحكا ولا احسن وجها ولا ابسط لساناً ولا اثبت جناناً منه تلك الليلة تجلداً وسياسة للملك فترك اظهار الفشل ، وبعث باموال وهدايا الى ملك الروم فشغله وهادنه ، وسار الى فلسطين وبها ناتل بن قيس فالتقى به باجنادين فقتله وعامة اصحابه وانهزم الباقون ، ونمي خبر قتله وهزيمة جيشه الى مصعب وهو في الطريق فولى راجعاً .

ومن الاحداث الشخصية المعكرة التي كان عبد الملك فيها حازماً بطاشاً حادث عمرو بن

---

(١) الطبري ج ٤ ص ١٩٢ .

(٢) ج ٣ ص ٤٢ .

سعيد المعروف بالاشدق من بني ابي العاص بن امية ، وقد كان من نبهاء بني اميةورجالاتها البارزين وقد وقف موقفاً قوياً الى جانب مروان حتى استتب له الامر مما جعله يسميه ولياً لعهده بعد خالد بنيزيد ، ويظهر انه حنق على اخلال ذلك وصرف ولاية العهد الى عبدالملك فأخذ يتربص به ، ولقد خرج عبد الملك من دمشق عام ٦٩ ﻫ الى حرب بن الزبير في العراق وبعض انصاره في الطريق فاستخلفه في دمشق فاستحوذ على ما فيها من خزائن وأعلن حكمه وخطب في الناس فوعدهم العدل والنصف والعطاء الجزيل والثناء الجميل – وهناك رواية تذكر انه خرج معه ثم انخذل عنه وعاد الى دمشق ففعل ما روى – وحينئذ رجععبد الملك وحاصره وتحصن في حصن رومي حصين حتى اعياه فاضطر الى مسايرته بسبب ثورة ابن الزبير فصالحه على ان يكون ولياً لعهده وان يكون مع كل عامل لعبد الملك عامل لهوان يكون له حرس مثل حرسه ولهم ارزاقهم في بيت المال،ولقد اثار غدر سعيد نقمة عبد الملك فاعتزم على البطش به ودعاه يوماً اليه ، ونصحه بعض اخصائه بعدم الاستجابة او الاستعداد والحذر فقال معتداً بنفسه والله لو كنت نائماً ما تخوفت ان ينبهني ابن الزرقاء وما كان ليجترىءعلي، ثم ذهب اليه متسلحاً متدرعاً ومعه طائفة من حرسه وانصاره غير ان حرس عبد الملكاحتالوا عليهم حتى حجزوهم عنه ثم احتال عليه حتى اخذ منه سلاحه وقيد يديه بذريعة انه يريد ان يبر بيمين حلفها ثم اجتذبه من كرسيه الى الارض فناشده الرحم فقال له ما اجتمع رجلان او فحلان مثلي ومثلك في بلد الا اخرج احدهما الآخر ثم امر اخاه عبد العزيز بالاجهاز عليه وبنيهفتردد هذا فتولى هو بنفسه ذبحه وهو يقول :

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي   اضربك حتى تقول الهامة اسقوني

ثم أمربالقاء رأسه على انصاره وبالقاءبدور من المال معه فتسارعالناس الى اختطافالمال ، وحاول يحيى بن سعيد اخوه ان يقومبحركة ثأرية لأخيه فأخفق ، ثم استرضى عبد الملك اخاه واحسن جوائزهم .

ثم خطب في الناس فقال انه كان الخلفاء من قبلي يأكلون ويؤكلون والله اني لا اداوي هذه الامة الا بالسيف ، ولست بالخليفة المستضعف ولا بالخليفة المداهن، واننا نتحمل منكم كل الغرمة ما لم يكن عقد راية او وثوب على منبر ، هذا عمرو بن سعيد، حقه حقه وقرابته قرابته ، قال برأسه هكذا فقلنا بسيفنا هكذا،وان الجامعة التي خلعها من

هذه عندي . وقد اعطيت لله عهداً ان لا اضعها في رأس احد الا اخرجها الصعداء فليبلغ الشاهد الغائب .

ولقد كان في عهد عبد الملك عملان تنظيميان بعيدا المدى في صدد تثبيت الطابع العربي على الدولة . وهما ضرب سكة عربـــية خالصة من الذهب والفضة . ونقل الدواوين من الفارسية في العراق والرومية في الشام والقبطية في مصر الى اللغة العربية وجعـــل الطراز عربياً اسلامياً [1] .

ولقد ذكر جرجي زيدان فى صدد بيان ما كان في زمن الامويين من ظلم واجحاف على اهل الذمة ان عبد الملك بدل مقدار الجزية التي كانت تؤخذ منهم . حيث كانت في العراق ديناراً على كل رأس فاستقل ذلك وامر بعمل حساب جديد بحيث يعتبر كل الـــناس عمالا ويحسب ما يكسبه العامل في السنة وتطرح نفقاته من ذلك فظهر انه يبقى بعد ذلك اربعة دنانير لكل واحد فالزم جميع الناس بهذا المقدار وجعلهم طبقة واحدة .

والى هذا فانه ذكر في الجزء الثاني [2] ان الجزية في العراق كانت ديناراً ومدين قمحاً وقسطين زيتاً وقسطين خلا فجعلها بعد الحساب المذكور اربعة دنانير[3] . وبين الخبرين فرق واضح . حيث يحتمل ان يكون التعديل في مقام اسقاط القمح والزبيب والخـــل واخذها بدلا نقدياً .

ولقد روى زيدان عزواً الى الماوردي [4] ان الحجاج كتب لعبد الملك يستأذنه في اخذ ما يبقى في يد اهل الخراج بعد نفقاتهم فـــلم يأذن وكتب له قائلا (لا تكن على درهمك المأخوذ احرص منك على درهمك المتروك وابق لهم لحومـــاً يعقدون عليها شحوماً) فالذي يروى عنه هذا لا يصح ان يجنح الى مناقضته !

---

(١) سنورد بعض البيانات عن هذه المسائل الثلاثة في الفذلكة العامة في آخر الجزء

(٢) ص ٢١٠

(٣) ص ٢٢ ويعزو هذا الجزء الى البلاذري ص ٧٣ وليس في نسخة البلاذري التي في يدنا شيء من ذلك اما الخبر الاول فلا يعزوه الى مصدر ما

(٤) ج ٢ ص ٢٠

ولقد روي [١] كذلك عزواً الى ابن خلكان ان الحجاج ألزم الذين اسلموا بدفع الجزية بالاضافة الى الخراج مما جعل الموالي ينضمون الى ابن الاشعث . وان عبد الملك امر اخاه عبد العزيز بأخذ الجزية ممن اسلم في مصر . ولكن عبد العزيز لم ينفذ ذلك حيث استعظمه بعض مستشاريه ونصحه بعدم التنفيذ . وان عبد العزيز اول من فرض على الرهبان جزية مقدارها دينار . حيث علم ان بعض النصارى كانوا يتلبسون بثوب الرهبنة فراراً من الجزية . وانه احصى الرهبان بسبيل الحيلولة دون هذه الحيلة [٢] .

واذا صح الخبر الاخير فالمتبادر ان تكون الجزية هي على الذين يشتبه في امرهم من الرهبان . اما خبر اخذ الجزية ممن اسلموا فقد ذكر الطبري شيئاً من ذلك في غير عهد عبد الملك على ما سوف نذكره بعد . ولكنا لم نطلع على ما يؤيد ما رواه زيدان من ذلك في زمن عبد الملك وعماله .

ولقد فكر عبد الملك قبل وفاته بسنة في عزل اخيه عبد العزيز من ولاية العهد بعده وجعل الامر في عقبه . وحسن له ذلك على ما يروي الحجاج وروح بن زنباع حتى قال له هذا انه لا ينتطح في ذلك عنزان . واثر في ذلك قصيدة عن عمران بن عصام جاء فيها :

أمير المؤمنين اليك نهدي	على النأي التحية والسلاما
أجبني في بنيك يكن جوابي	لهم عادية ولنا قواما
فلو ان الوليد أطاع فيه	جعلت له الخلافة والذماما
شبيهك حول قبته قريش	به يستمطر الناس الغماما
ومثلك في التقى لم يصبُ يوماً	لدى خلع القلائد والتماما
فان تؤثر أخاك بها فانا	وجدك لا نطيق لها اتهاما
ولكنا نحاذر من بنيه	بني العلات مأثرة سماما
ونخشى ان جعلت الملك فيهم	سحاباً أن تعود لهم جهاما
فلا يك ما حلبت غداً لقوم	وبعد غدك بنوك هم العياما

(١) ج ١ ص ٢١٠ ولا يعزو الخبر الى مصدر
(٢) ج ٢ص ٢٠ عزواً الى المقريزي

فأقسم لو تخطاني عصام بذلك ما عذرت به عصاما
ولو اني حبوت أخا بفضل أريد به المقالة والمقاما
لعقب في بني علي بنيه كذلك أو لرمت له مراما
فمن يك في اقاربه صدوع فصدع الملك أبطأه التـآما

ومما يروى ان عبد الملك طلب من أخيه ان ينزل لابنه الوليد عن ولاية العهد باختياره على أن يكون له الامر من بعده فأبى فأمره ان يحمل اليه خراج مصر حيث كان والياً عليها وكان لا يحمل اليه منه شيئاً فكتب له اني واياك يا امير المؤمنين قد بلغنا سناً لا يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلا واني لا ادري اينا يأتيه الموت اولا فان رأيت ألا تغنت على بقية عمري فافعل فرق له وكتب اليه يقول لعمري لا أفتت عليك بقية عمرك .

ولم ينشب عبد العزيز ان مات بعد قليل فانحل الاشكال فعين ابنيه الوليد وسليمان وليين لعهده بالتتابع على سنة ابيه واخذ لهما البيعة من الناس .

ومما ترويه الروايات ان سعيد بن المسيب احد علماء المدينة ابى ان يبايع الاثنين بذريعة عدم جواز ذلك لأن هناك حديثاً نبوياً يذكر بطلان البيعة الثانية ويحظرها ولكن الوالي لم يقبل فضرب سعيداً او حبسه فلما بلغ ذلـــك عبد الملك كتب للوالي مؤنباً وأمره باطلاق سراح سعيد .

وعلى كل حال فذكر هذا الحادث يدل على ان اخذ البيعة لوليي العهد مر بدون خلاف وشقاق .

ومن العجيب ان لا يعتبر عبد الملك بنفسه وبأخيه فيكرر عمل أبيه بتعيين وليين لعهده حيث يدل هذا على ان الظروف كانت تملي ذلك رغم ما ظهر من سوء اثره .

ولقد روى ابن كثير ان عبد الملك جعل اولا ابنه الوليد ولياً لعهده . وانـــه امتحن أولاده بالقرآن وبالشعر . ثم اقترح عليهم معنى يجعلونه في بيت من الشعر ووعد من نجح في ذلك بأن يعطيه ما يطلب فسمع سليمان بيتاً من اعرابي يطابق المعنى فاعتقل الاعرابي وجاء الى ابيه فأنشده البيت فقال أصبت ثم سأله أنى لك هـــذا فأخبره خبر الاعرابي فقال سل حاجتك ولا تنس صاحبك . فقال يا امير المؤمنين انك عهدت بالامر بعدك للوليد واني احب

ان اكون ولي العهدمن بعدهفأجابه إلىذلك وبعثه على الحج واطلق له مئة الف درهم فأعطاها للاعرابي . وعزا ابن كثير هذه القصة إلى أبي بكر الصولي . ونخشى ان تكون مصنوعة .

ولقد ذكر الطبري ان عبد الملك جعل ابنيه الوليد وسليمان ولي عهده واخذ البيعة لهما معاً في سنة ٨٥ هـ . وهذا قد يدعم ما قلناه من احتمال الصنعة في القصة لأنها ذكرت ان عبد الملك قد جعل سليمان ولياً ثانياً بعد ان اخذ البيعة للوليد بأمد ما ...

ومما يروى ان عبد الملك خطب بعد قتل ابن الزبير فقال فيما قال (ألا واني لست بالخليفة المستضعف (يعني عثمان) ولا بالخليفة المداهن (يعني معاوية) ولا بالخليفة المأفون (يعني يزيد) ألا واني لا أداوي هـذه الامـة إلا بالسيف حتى تستقيم بي قناتكم . وانكم تحفظون اعمال المهاجرين الاولين ولا تعملون مثل اعمالهم وانكم تأمروننابتقوى اللهوتنسون ذلك من أنفسكم . والله لا يأمرني احد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه) . وقد عقب ابن الاثير الذي يروي الخبر على هذا بقوله : انه بذلك اول من نهى عن المعروف .

كذلك مما يروى عنه انه لما جاءته الخلافة كان يقرأ في المصحف فأغلقه وقال هذا آخر العهد بك او هذا فراق بيني وبينك .

وقد ساق جرجي زيدان هذين الخبرين عن عبد الملك في صدد التدليل على استخفاف بني امية بالدين والقرآن [١]. والمأثورات التي أوردنا طائفة منها عن عبد الملك والتي تذكر ما كان من تقواه ومواظبته على قراءة القرآن وفقهه وايمانه تسوغ التوقف في هذه الروايات او على الاقل تسوغ حملها على محمل آخر حيث يمكن ان يكون هدد المنافقين الذين يأمرون الناس بالتقوى شغباً ولا يتقون . وحيث يمكن أن يكون قوله عن القرآن ان شغل الخلافة العظيم سوف يشغله عما اعتاده من كثرة التلاوة إذا صحت الروايات ولا مانع من صحتها وهذا هو الاكثر اتساقاً مع المأثورات المذكورة كما هو المتبادر .

وقد وصف باقدامه على سفك الدماء والراجح ان الوصف هو بقصد التسويء لانه لم يرو عنه ما فيه اسراف في ذلك إلا ما كان بسبيل قمع الخوارج وحركة ابن الزبير وقتله عمراً بن

(١ - ٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص٧٤ - ٧٥ وعزا زيدان الخبر الاول الى ابن الاثير ج ٤ ص ١٩٠ و ٢٥١ والثاني لابي الفداء ج ١ ص ٢٠٥

سعيد الاشدق . وقد اوردنا قصة هذا . وسنلم بالامرين الآخرين في سلسلة الاحداث العامة وهذا وذاك مما تبرره سياسة الملك والحكم .

وفي زمنه وبأمره بني مسجد صخرة بيت المقدس . وقد وكل بذلك رجاء بن حياة ويزيد ابن سلام وجمع له الصناع من اطراف البلاد وارسل الاموال الجزيلة حتى جـاء المسجد على أبهى ما يكن رونقاً وزخرفة . وجعل له قناديل من ذهب وفضة بسلاسل مثلها . وفرشه بالرخام الملون ثم بأنواع البسط وعين له السدنة والطيب والبخور والماورد والزعفران . وبلغ ما انفق على ذلك (٣٠٠ ٠٠٠) مثقال من الذهب في رواية وضعف ذلك في رواية أخرى . فلم يكن على وجه الارض نظير له بهجة ورونقاً .

وقد قال ابن كثير ان الناس افتتنوا به وصاروا يفدون اليه من كل مكان والتهوا به عن الكعبة والحج وكانوا يطوفون حوله . وان عبد الملك قد قصد الى ذلك فيما بذله من مـال وعناية حتى جاء ما جاء عليه لان الحجاز كان في حكم ابن الزبير . وكان هـذا يتخذ موسم الحج وسيلة للدعوة الى نفسه .

ولقد روى اليعقوبي هذا الخبر ببيان اوفى [1] فقال ان عبد الملك منع اهـل الشام من الحج لان ابن الزبير كان يأخذهم بالبيعة اذا حجوا فضج الناس وقالوا تمنعنا من فرض فرضه الله علينا فقال لهم هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم عن رسول الله قال لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي ومسجد البيت المقدس . وهذا يقوم لـكم مقـام المسجد الحرام وهذه الصخرة التي يروى ان رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد الى السماء تقوم لـكم مقام الكعبة . فبنى على الصخرة قبة وعلق عليهاستور الديباج واقام لها سدنةواخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة واقام بذلك ايام بني امية .

وقد يبدو التعليل بأن المنع كان بسبب اتخـاذ ابن الزبير الحج وسيلة الى الدعوة لنفسه واخذ الناس بالدعوة له سائغاً . الا انه متهافت . ونعتقد ان عبد الملك اورع واتقى من ان يكون اراد اقامة زيارة مسجد الصخرة مقام زيارة الحج والطواف حولها مقام الطواف حول الكعبة لان الحج والطواف ركنان اسلاميان بنص القرآن .

---

(١) ج ٢ ص ٢٦١ طبعة مصر

ولقد روى الطبري واليعقوبي معاً [1] انه كان في حج سنة ٦٨ اربعة الوية . لواء لمحمد بن الحنفية وانصاره . وثان لعبد الملك بن مروان وثالث لابن الزبير ورابع لنجدة الخارجي حيث يفيد هذا ان عبد الملك كان يسير ركباً للحج في موسم الحج إبان سلطان ابن الزبير على الحجاز ويجعل التعليل المذكور غير وارد . ويجعل الرواية موضع شك كبير حيث صنعت لتسويء سمعة ودين خلفاء بني امية .

والشطر الاول من عهد عبد الملك مضى في المصاولة مع ابن الزبير ثم مع الخوارج . حتى لقد اضطر بسبيل ذلك الى مهادنة الروم وترتيب جعل اسبوعي لهم مقابل ذلك على ما سوف يأتي بيانه في مناسبة اخرى فلما انتهى مما شغله من الفتن الداخلية التفت إلى الروم الذين عادوا ايضاً الى تحريض البربر وتحالفوا معهم في شمال افريقية فتصاول معهم مصاولة شديدة رجحت فيها كفة العرب والاسلام سواء أفي شمال افريقية ام في بلاد الاناضول وسواحلها . وهذا فضلا عن ما كان في عهده من حركات وفتوح ناجحة في بلاد الترك بعد ان تخلص من الفتن والحركات الداخلية ، وكان له في سياق هذه الاحداث وفي سياق الفتن الداخلية اقوال ومواقف تؤيد ما وصف به من صفات ومواهب مما سوف نلم به في سياق سلسلة الاحداث .

ولقد كان عبد الملك مواظباً على حث اولاده على اصطناع المعروف ومكارم الاخلاق . وكان يقول لهم (يا بني عبد الملك صونوا احسابكم ببذل اموالكم) . فما يبالي رجل ما قيل فيه من الهجو بعد قول الاعشى :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم ... وجاراتكم غرثى يبتن خماصا

وما يبالي قوم ما قيل فيهم من المدح بعد قول زهير :

على مكثريهم حق من يعتريهم ... وعند المقلين السماحة والبذل

ويروى عنه انه كتب لهم هذه الابيات كوصية كانوا ينشدونها بعده :

انفوا الضغائن عنكم وعليكم ... عند المغيب وفي حضور المشهد
بصلاح ذات البين طول بقائكم ... ان مد في عمري وان لم يمدد
فلمثل ريب الدهر الف بينكم ... بتواصل وترحم وتودد

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٥٩٥ واليعقوبي ج ٣ ص ١٤ مطبعة الغري

حتى تلين جلودكم وقلوبكم بمسود منكم وغير مسود
ان القداح اذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حنق وبطش باليد
عزت فلم تكسر وان هي بددت فالوهن والتكسير للمتبدد

وحين حضرته الوفاة جمع اولاده فوصاهم قائلا : (اتقوا الله ربكم واصلحوا ذات بينكم وليجل صغيركم كبيركم وليرحم كبيركم صغيركم . انظروا اخاكم مسلمة [1] فاستوصوا به خيراً . فانه شيخكم ومجنكم الذي تستجنون وسيفكم الذي به تضربون . وانظروا الى ابن عمكم عمر بن عبد العزيز فاصدروا عن رأيه ولا تخلوا عن مشورته . اتخذوه صاحباً لا تجفوه ووزيراً لا تقصوه . فانه ما علمتم فضله ودينه وذكاء عقله . فاستعينوا بـــه على كل سهم وشاوروه في كل حادث » .

ووصى عمر بن عبد العزيز قائلا « يا ابا حفص استوص خيراً بأخويك الوليد وسليمان ان زلا فشلهما . وان مالا فأقمهما . وان غفلا فذكرهما . وان ناما فأيقظهما . وقد اوصيتهما بك وعهدت اليهما ان لا يقطعا شيئاً دونك » .

فقال له عمر يا امير المؤمنين اوصهما بكتاب الله فليقيماه في عباده وبلاده وسنة رسول الله ﷺ فليحيياها ويحملا الناس عليها فقال قد فعلت وولي فيكم الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين .

ورأى الوليد يبكي حين كان يوصيه فقال له ما هذا . أتحن حنين الجارية والامة . ولا تعصر عينيك كما تعصران . اذا انامت فشمر وأتزر . وضع الامور عند اقرانها . واتق الله فيما استخلفك فيه . وانهاك واخوتك عن الفرقة . وكونوا اولاد ام واحدة . وفي الحرب احراراً وللمعروف مناراً . فان الحرب لم تدن منية قبل وقتها والمعروف يشيد ذكر صاحبه ويملأ القلوب بالمحبة ويذلل الالسنة بالذكر الجميل .

وهذه الاقوال متسقة مع ما وصف به من عقل ومواهب ولقد اجمل ابنه الوليد وصفه ووصف عهده في الخطبة التي خطبها بعد وفاته فقال انه قد صار إلى منازل الابرار بما لاقاه في

---

(١) كان مسلمة بن امة فلم يكن له نصيب في الملك . وعرف هو حده فوقف عنده . وكان له بـــلاء عظيم في مجاهدة الروم والأرمن في زمن ابيه ثم في زمن اخوته .

هذه الامة من الشدة على المريب واللين لاهل الحق والفضل واقامة ما اقـــام الله من منار الاسلام واعلائه من حج البيت وغزو الثغور وشن الغارات على اعداء الله عز وجل فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً .

ولقد اختلفت الروايات في عمره بين ٥٨ و ٦٣ سنة وقد دفن في باب الجابية الصغير . وبلغ عدد اولاده من بنين وبنات تسعة عشر . منهم من كان امهاتهم ملك يمين ومنهم من امهاتهم عربيات وقرشيات وغير قرشيات .

ويسميه المؤرخون ابا الاملاك حيث ولي الخلافة والملك اربعة من ابنائه . وهم : الوليد وسليمان وهشام ويزيد . بالاضافة الى ثلاثة آخرين من حفدته وهم الوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد الاول واخوه ابراهيم .

٦ ـ الوليد الاول بن عبد الملك [1]

كان عمره حين تولى الامر بعد أبيه ٣٦ سنة حيث ولد سنة ٥٠ هـ . ومما روي عن صفاته الجثمانية انه كان طويلا اسمر بـه أثر جدري افطس الانف . واذا مشى توكف في المشية . وكان مواظباً على قراءة القرآن حتى روي أنه كان يختمه في كل ثلاث . وإنه كان يقرأ في رمضان سبع عشرة ختمة . وكان نقش خاتمه (أؤمن بالله مخلصاً) في رواية و (يا وليد انك ميت في رواية) حيث يدل هذا على عمق ايمانه وتقواه . وكان رضياً حازماً حتى قيل انه لم تعرف له صبوة . وظهر منه هذا في اول خطبة خطبها بعد موت ابيه . فقد عدد مزاياه على النحو الذي اوردناه في سياق سيرة ابيه ثم قال « أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة . فان الشيطان مع الواحد . ايها الناس من ابدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي بين عينيه . ومن سكت مات بدائه » .

وكان يذهب الى الغزو بنفسه ويقيم الحج للناس بنفسه كذلك من حين لآخر . وقد عطف على اصحاب العاهات من الفقراء فرتب للمقعدين خدماً وللعميان قواداً وللمجذوبين مرتبات وكفهم عن الخروج وسؤال الناس . وهو اول من عمل البيمارستان للمرضى ودوراً للضيافة . وولع بالبناء والعمران ولعاً شديداً حتى انعدى منه الشعب وصار الرجل يلقى الرجل فيقول له ماذا بنيت وماذا عمرت . وامر ولاته بتسهيل الطرق والثنايا وإقامة العلامات والمنازل وحفر الآبار فيها . واهتم لهذا الامر بخاصة بالنسبة لمكة والمدينة وطريق الحج . وهو الذي امر بانشاء الجامع الكبير في دمشق .

وقد شرع في ذلك في اوائل خلافته واستمر العمل فيه عشر سنين . وجاء آية في الفخامة

---

(١) هذه النبذة مقتبسة من تاريخ الطبري ج ٥ ص ٢١٣ وبعدها والامامة والسياسة ج ٢ ص ٧٠ وبعدها ، مروج الذهب ج٣ ص٩٦ وبعدها والعقد الفريد ج ٢ ص١٦٧ وبعدها و ج ٣ ص ٣٧٩ والبداية والنهاية لابن كثير ج٩ ص٧٠ وبعدها وتاريخ ابن الاثير ج ٤ ص ٢٠٠ -- ٢٣٤ و ج ٥ ص ـ ٤ وتاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٢٧ ـ ٣٦ مطبعة الغري سنة ١٣٥٨ .

والرونق والبهاء . ويروى انه بقي من العمل شيء لم يتم فأتمه سليمان بن عبد الملك الذي ولي الخلافة بعد أخيه .

وفي البداية والنهاية لابن كثير وصف شائق طويل للمسجد وكيفية انشائه وما أنفق عليه وزينته وزخارفه وروايات عديدة منها العجيب الغريب عن أولية مكانه وما وجد فيه من آثار قديمة وطلسمات يونانية . . .

ولقد جعل سقف الجامع جملونات وباطنها سطحاً مقرنصاً بالذهب . وجعل غطاء السطح صفائح من الرصاص . وكانت أرضه مفروشة بالرخام المفضض كما كان الرخام يرتفع الى قامات في الجدران . وكان فوق رخام الجدران كرمة عظيمة من ذهب وفوق الكرمة فصوص مذهبه خضراء وحمراء وزرقاء وبيضاء . وقد صورت على جدرانه البلدان المشهورة . الكعبة فوق المحراب والاقاليم يمنة ويسرة.وصور ما اشتهرت به الاقاليم من شجر وثمر وزهر . وكانت قناديله وسلاسلها من ذهب وفضة . ومما يرويه ابن كثير ان الوليد طالب من ملك الروم أن يرسل له صناعاً ورخاماً لاجل هذا المسجد وهدده إن لم يفعل بتشديد الغزو على بلاده وبتخريب كنائس النصارى ومن جملتها كنيسة القيامة . فأرسل اليه رخاماً وصناعاً كثيرين وفي رواية مئتي صانع . وكتب له يقول إن كان أبوك فهم هذا الذي تصنعه وتركه فأنه لوصمة عليك وإن لم يكن فهمه وفهمته أنت لوصمة عليه .

وقد سأل الناس فيما يجب ان يجاب فقال الفرزدق الجواب من كتاب الله حيث يقول (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً) فاعجب الوليد ذلك فارسل به جواباً .

والرواية غريبة في أصلها وفرعها لان حالة الحرب كانت قائمة فعلا بين الروم والعرب . وجيوش العرب دائبة على غزو ارض الروم صيفاً وشتاء . .

ومما يرويه ابن كثير أنه كان في جانب المسجد كنيسة للنصارى فاراد ان يدخلها في المسجد فساوم النصارى عليهاوأرضاهم وعوضهم عنها في رواية واخذها بحق الفتح لانهم رفضوا التنازل عنها في رواية . وقد امر بكتابة قصة بناء المسجد في ثلاث صفائح مذهبة باللازورد كما امر بكتابة بعض السور القرآنية في صفائح مذهبة اخرى. وكانت الكتابة موجودة الى سنة ٣٣٢ هـ على ما رواه المسعودي بهذا النص (ربنا الله . امر ببناء هذا المسجد وهدم

الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الولـــيد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة ٨٧ هـ . وكانت السور القرآنية على ما رواه ابن كثير هي - الفاتحة - والنازعات - وعبس - والتكوير[١] وبلغ ما انفقه الوليد على المسجد اربعمائة صندوق في كل صندوق اربعة عشر الـف دينار في رواية وضعفها في رواية أخرى اي خمسة ملايين ونصف او احد عشر مليونا من الدنانير .

ومما روي ان حاجباً قال للوليد ان الناس يقولون ان امير المؤمنين انفق بيوت الاموال في غير حقها . فنادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس أمر خازن بيت المال أن يحضر اموال بيت المال وبسط لها الانطاع تحت قبة النسر وافرغت ذهباً صبيباً وفضة خالصة حتى صارت كوماً لا يرى الرجل رجل صاحبه اذا كان في الجانب الآخر من الكوم . ثم وزنت فاذا هي تكفي النـــاس ثلاث سنين في رواية وست عشرة سنة في رواية لو لم يدخل علـــيها شيء جديد . ثم قال والله ما انفقت في عمارة هذا المسجد درهماً من بيوت المال وانما هذا كله من مالي . ولم ارزأ كم من أموالكم شيئاً . يا اهل الشام انكم تفخرون على الناس بأربع : هوائكم ومائكم وفاكهتكم وحماماتكم فأحببت ان ازيدكم خامسة . وهي هذا الجامع .

وقد يكون فيما روي من مقدار النفقة وكوم الذهب والفضة العظيم مبالغة ما . ولكن ذلك يدل على اي حال على ما كانت عليه الدولة الاموية من عظيم الثراء والرخاء .

ومما ذكره ابن كثير ان المنارة الشمالية التي يقال لها مأذنة العروس هي من بناء الوليد . اما الشرقية والغربية فانهما كانتا موجودتين قبل ذلك بدهور متطاولة .

ومما ذكره ابن كثير عزواً الى ابن عساكر عن زيد بن واقد قال وكلني الوليد على العمال في بناء جامع دمشق . فوجدنا فيه مغارة فعرفنا الوليد ذلك فلما كان الليل وافانا وبين يديه الشمع فنزل فاذا هي كنيسة لطيفة ثلاثة اذرع في ثلاثة اذرع . واذا فيها صندوق ففتح فاذا فيه سفط وفي السفط رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام مكتوب عليه هذا رأس يحيى بن زكريا فأمر به الوليد فرد الى مكانه وقال اجعلوا العمود الذي فوقه مغيراً من بين الاعمدة

---

(١) انظر مروج الذهب ج ٣ ص٩٧ والبداية والنهاية ج ٩ ص ١٤٩ وقد ذكر ابن كثير ان المأمون محا الكتابة حين زار دمشق . والمسعودي مات سنة ٣٤٦ وصيغته تدل على انه ما كتبه عن وجود الكتابة سنة ٣٣٢ هو معاينة . وعلى هذا اما ان يكون ما رواه ابن كثير عن محو المأمون للكتابة غير صحيح واما ان يكون المسعودي قال ما قال بدون معاينة وتحقيق .

فجعل عليه عمود مسفط الرأس .

وروي عن الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد انه قال حضرت رأس يحيى بن زكريا وقد اخرج من البلطة القبلية الشرقية التي عند مجلس بجيلة فوضع تحت عمود السكاسة . وقال الاوزاعي والوليد بن مسلم هو العمود الرابع المسفط .

وقد اوردنا هذا لان في الجامع الاموي مقاماًيقال له مقام سيدنا يحيى . والخبر غريب على كل حال لان يحيى قتل في القدس وكانت الوثنية هي السائدة في الشام .

وقد اورد ابن كثير عن الوليد بن مسلم خبراً لا يقل غرابة عن ذلك ان الوليد لما أمر ببناء المسجد وجدوا في حائطه القبلي لوحاً من حجر فيه نقش فبعثه الى الروم فلم يستخرجوه ثم عرض على وهب بن منبه فقرأه فاذا هو :

(بسم الله الرحمن الرحيم. ابن آدم . لو رايت يسير ما بقي من اجلك لزهدت في طول ما ترجو من املك . وانما تلقى ندمك لو قد زلّ بك قدمك . واسلمك اهلك وحشمك . وانصرف عنك الحبيب واسلمك الصاحب والقريب ثم صرت تدعى فلا تجيب . فلا انت الى اهلك عائد ولا الى عملك زائد . فاعمل لنفسك قبل يوم القيامة . وقبل الحسرة والندامة. قبل ان يحل بك اجلك وتنزع منك روحك . فلا ينفعك مال جمعته ولا ولد ولدته ولا اخ تركته ثم تصير الى برزخ الثرى ومجاورة الموتى .فاغتنم الحياة قبل الممات والقوة قبل الضعف والصحة قبل السقم قبل ان تؤخذ بالكظم ويحال بينك وبين العمل . وكتب في زمن سليمان بن داود عليهما السلام) .

والوليد جدد بناء المسجد النبوي ايضاً حيث امر واليه عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد وتوسيعه حتى يكون مئتي ذراع عرضاً ومثلها طولا وشراء ما يحتاج اليه من اصحاب الاملاك المجاورة واستملاكه بالقيمة اذا لم يرضوا ان يبيعوا وقال له ان لك في ذلك سلف صدق في عمر وعثمان . وقد رضي اصحاب الاملاك واخذوا قيمة املاكهم . وقد امر الوليد بحفر الفوارة قرب المسجد وسوق الماء اليها من ظاهر المدينة فتمم ذلك ايضاً .

ويروي الطبري [١] ان الوليد طلب من ملك الروم مساعدة على بناء هذا المسجد فأرسل

---

(١) ج ٥ ص ٢٢٣

اليه مئة صانع ومئة الف مثقال من الذهب واربعين حملا من الفسيفساء . وقد روى اليعقوبي هذه الرواية ايضاً عزواً الى الواقدي [1] .

وكما رأينا رواية طلب الوليد رخاماً وصناعاً من ملك الروم لمسجد دمشق نرى هـــذه الرواية غريبة ايضاً وان كنا لا ننفيها . ولقد جاء الى المدينة بعد ذلك في طريقه الى الحج وخطب بالناس في المدينة ووزع عليهم الهدايا والاموال الجليلة .

ومما روي في سياق ذلك وفيه تواضع من الوليد وتوقير للعلماء المسنين انه دخل المسجد وفي ناحية منه سعيد بن المسيب كبير فقهاء المدينة . فقيل له قم سلم على امـير المؤمنين فأبى وظل في مصلاه . ورآه الوليد وعرف انه سعيد بن المسيب واراد عمر بن عبد العزيز ان يعتذر عنه بكبر سنه وضعف بصره فقال نحن نأتيه ثم اقبل عليه وسأله كيف انت ايهــا الشيخ فقال وهو جالس بخير والحمــد لله فكيف امير المؤمنين فقال له بخير والحمد لله . ثم انصرف وهو يقول هذا بقية الناس .

ومما يرويه اليعقوبي ان الوليد بعث بثلاثين الف دينار الى عامله في مكة فضربت صفائح وجعلت على باب الكعبة وعلى الاساطين التي داخلها وعلى الاركان والميزاب فكان اول من ذهّب البيت في الاسلام [2] . ولما حج حمل الى الكعبة طيباً وكسوة .

ومن النوادر المأثورة عنه ان رجلا من بني مخزوم شكا له ديناً لزمه فقال نقضيه عنك ان كنت مستحقاً لذلك فقال يا امير المؤمنين وكيف لا اكون مستحقاً في منزلتي وقرابتي . فقال له هل قرأت القرآن قال لا . قال ادن مني فدنا منه فنزع العمامة عن رأسه بقضيب في يده ثم قرعه قرعة وقال لرجل من جلسائه ضم اليك هذا العلج فلا تفارقه حتى يقرأ القرآن . فقام آخر فقال يا امير المؤمنين اقض ديني فقال اتقرأ القرآن قال نعم فاستقرأه عشراً مــن الانفال وعشراً من براءة فقرأ فقال نعم نقضي دينك وانت اهل لذلك .

ولقد كان شاعراً ايضاً حيث روي له شعر في سياق مساجلة جرت بينه وبين اخيه سليمان فيها صورة ادبية طريفة . فقد اشتكى فبلغه ان اخاه سليمان تمنى موته لما له من ولاية العهد بعده . فكتب اليه يعتب عليه الذي بلغه . وكتب في كتابه هذه الابيات :

(١-٢) ج ٢ ص ٢٨٤

تمنى رجال ان اموت وان امت — فتلك سبيل لست فيها بأوحد
لعل الذي يرجو فنائي ويدعي — به قبل موتي ان يكون هو الردي
فما موت من قدمات قبل بضائري — ولا عيش من قد عاش بعدي بخلدي
فقل للذي يرجو خلاف الذي مضى — تزود لاخرى غيرها فكأن قد
منية تجري لوقت وحتفه — سيلحقه يوماً على غير موعد

فأجابه سليمان : فهمت ما قال امير المؤمنين . والله لئن كنت تمنيت ذلك لما يخطر بالبال اني لاول لاحق به ومنعي الى اهله فعلام أتمنى زوال مدة لا يلبث متمنيها الا بقدر ما يحل السفر بمنزل ثم يظعنون عنه. وقد بلغ امير المؤمنين ما لم يظهر من لفظي ولا يرى من لحظي.

ومتى سمع امير المؤمنين من اهل النميمة ومن ليست له روية او شك ان يسرع في فساد النيات ويقطع بين ذوي الارحام والقرابات . وكتب في اسفل الكتاب :

ومن لا يغمض عينه عن صديقه — وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
ومن يتتبع جـــاهداً كل عثرة — يجدها ولم يسلم له الدهر صاحب

فكتب اليه الوليد ما احسن ما اعتذرت به وحذوت عليه وانت الصادق في المقـــال والكامل في الفعال . وما شيء اشبه بك من اعتذارك . ولا ابعد مما قيل فيك .

ومما روي وفيه صورة من صور الحكم والعهد ان جماعة من العراق هجروا العراق ولجأوا الى المدينة في ولاية عمر بن عبد العزيز للمدينة فكتب هذا للوليد يقول له ان الحجاج يتعسف بأهل العراق ويظلمهم ويضطهدهم وعلم الحجاج بذلك فكتب للوليد بدوره قائلا ان الجماعات الذين لجأوا الى المدينة هم من اهل الشقاق والمروق وحذره من التساهل معهم وما في ذلك من وهن على الدولة فأخذ بتحذيره وعزل عمر عن المدينة وعين مكانه عثمان بن حيان . فلما جاء هذا خطب في اهل المدينة خطاباً شديداً ندد بتسترهم على اللاجئين العراقيين ووصف اهـل العراق بالشقاق والنفاق وقال لا اوتى بأحد آوى احـداً منهم او اكراه منزلا الا هدمت عليه منزله . وذكر بما كان من مواقفهم وفتنهم وبما قاله عمر وعثمان وعلي ومعاوية فيهم . ثم تعقبهم واعادهم تحت الحراسة الى العراق .

---

(١) الطبري ج ٥ ص٢٥٦ - ٢٦٠

كذلك بما روي [1] وفيه صورة من صور الحكم ان الحجاج عزل في زمنه يزيد بن المهلب عن ولاية خراسان واخاه المفضل عن ولاية كرمان واخاه عبد الملك عن شرطته وحبسهم وعذبهم متهما اياهم بمال ادخلوه في ذمتهم وطالبهم بستة آلاف الف . فأقره الوليد على مافعل. ثم استطاع الثلاثة ان يهربوا من سجن الحجاج ويذهبوا الى فلسطين مستعيذين بسليمان بن عبد الملك الذي كان يكثر اقامته فيها. فأعاذهم وامنهم وكتب الى اخيه الوليد بهم وضمن له مابقي في ذمتهم وهو ثلاثة آلاف الف . فطلب الوليد منه ارسالهم اليه مقيدين فناشده ان لا يفضح جواره وارسل معهم ابنه ايوب موثقاً معهم ومعه كتاب من ابيه يعد طرفة ادبية في اللغة العربية رأينا لذلك ايراد نصه . وقد جاء فيه يا امير المؤمنين . فوالله ان كنت لاظن لو استجار بي عدو قد نابذك وجاهدك فأنزلته واجرته انك لا تذل جواري ولا تخفره بل لم اجر الا سامعاً مطيعاً حسن البلاء والاثر في الاسلام هو وأبوه واهل بيته . وقد بعثت به اليك فان كنت انما تعد قطيعتي واخفار ذمتي والابلاغ في مساءتي فقد قدرت ان انت فعلت . وانا اعيذك بالله من احتراد قطيعتي وانتهاك حرمتي وترك بري واجابتي الى ما سألتك ووصلتي. فوالله يا امير المؤمنين ما تدري ما بقائي وما بقاؤك ولا متى يفرق الموت بيني وبينك فان استطاع امير المؤمنين ادام الله سروره ان لا يأتي اجل الوفاة علينا الا وهو لي واصل .ولحقي مؤد. وعن مساءتي نازع فليفعل . ووالله يا امير المؤمنين ما اصبحت بشيء من امر الدنيا بعد تقوى الله بأسر مني برضاك وسرورك. وان رضاك وسرورك احب الي من رضائي وسروري وبما التمس به رضوان الله عز وجل لصلتي ما بيني وبينك . فان كنت يوماً من الدهر تريد صلتي وكرامتي واعظام حقي فتجاوزلي عنهم وكل ما طلبته منهم فهو علي) .

فلما قرأ الوليد الكتاب قال لقد شققنا على سليمان واستدعى ابن اخيه ومعه يزيد بن المهلب فأمنه ورده الى سليمان وكتب الى الحجاج ان يكف طلبه عن آل المهلب .

ولقد فكر الوليد في اواخر ايامه في صرف ولاية العهد عن اخيه سليمان الى ابنه عبد العزيز واستشار بعض رجاله فحبذ بعضهم له ذلك ومنهم قتيبة بن مسلم والي خراسان والحجاج ابن يوسف والي العراق .

ولقد طلب من اخيه ان يتنازل وعرض عليه اموالا كثيرة فأبى فاستدعاه الى الشام فلم

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٢١٦ و ٢٣٠ - ٢٣٤

يستجب وظل معتصما برملة فلسطين . واغرى الوليد جريرا فقال :

اذا قيل اي الناس خير خليفة	اشارت الى عبد العزيز الأصابع
رأوه احق الناس كلهم بهـــا	ومـــا ظلموا فبايعوه وسارعوا

وقال ايضاً يحضه على البيعة لعبد العزيز :

الى عبد العزيز سمت عيون الرعية	اذا تحيرت الرعاء
الـــيه دعت دواعيه اذا مـــا	عماد الملك خرت وسماء
وقال اولو الحكومة من قريش	علينا البيع ان بلـــغ الغلاء
رأوا عبـــد العزيز ولي عهـــد	وما ظلموا بذاك ومـا اساؤوا
فماذا تنظرون بها وفيكم	جسور بالعظائم واعتلاء
فرحلتها بأزملها اليه	امير المؤمنين اذا تشاء
فان الناس قـــد مدوا اليـــه	اكفهم وقد برح الخفاء
ولو قـــد بايعوك ولي عهـــد	لقـــام الوزن واعتدل البنـــاء

وامر ولاته بأن يأخذوا البيعة لعبد العزيز فسارع قتيبة والحجاج ومحمد بن القاسم الى التنفيذ . ولكن الوليد لم يلبث ان توفي دون ان تتم البيعة فذهب جهده سدى . حيث سارع سليمان الى دمشق فأقبل الناس على بيعته واستتب له الامر .

ولقد كان عهد الوليد خالياً تقريباً من الفتن الداخلية فانصرف اهتمامه واهتمام رجـــال عهده الى الفتوح وتم في عهده فتوحات عظيمة في بلاد الترك وعلى حدود الهنـــد في المشرق والأندلس في المغرب . وكان عهده من اعظم العهود الاموية والعربية والإسلامية ثروة وعزة وهيبة وسلطاناً .

وقد روي انه جاءته في يوم واحد بشائر بثلاثة فتوحات في انحاء مختلفة فكان يسجد لله شاكرا عند كل بشارة .

ولقد اثرت له اقوال ومواقف اخرى غير ما ذكرنا في سياق الاحداث العامة مما سوف نلم به في مناسباتها .

ولقد خلف من الاولاد ستة عشر ، وفيهم يقول جرير :

وبنو الوليد من الوليد بمنزل   كالبدر حف بواضحات الانجم

وقال رجل من اهل الشام فيهم ليس من ولد الوليد احد الا ومن رآه حسب انه من افضل اهل بيته حيث بدل هذا وذاك على ما كانوا عليه من صفات ومواهب .

ولقد رثى جرير الوليد بهذه الابيات :

يا عين جودي بدمع هاجه الذكر   فما لدمعك بعــد اليوم مدخر
ان الخليفة قــد وارت شمائله   غبراء ملحدة في جولهــا زور
اضحى بنوه وقد جلت مصيبتهم   مثل النجوم هوى من بينها القمر
كانوا جميعا فلم يدفــع منيته   عبـد العزيز ولا روح ولا عمر

٧ ـــ سليمان بن عبد الملك [1]

●

تولى الامر وهو في نحو الاربعين من عمره ، ومما روي عن صفته الجثمانية انه كان طويلا جميلا ابيض نحيفاً حسن الوجه ، ووصفت اخلاقه ومزاياه بأنه كان فصيحاً بليغاً يحسن العربية ويرجع الى دين وخير ومحبة للحق واهله واتباع القرآن والسنة ، واظهار الشرائع الاسلامية ، ولم يكن صاحب لهو حتى روي انـه نفى المغنين . وكان عضد اخيه الوليد القوي ووزيره ومشيره . وهو الذي شجعه على انشاء مسجد الشام واشرف عليه. وقد اطلق حين تولى الامر سراح كثير من المسجونين واعتق كثيراً من الاسرى والمماليك وكساهم حتى روي ان عدد ما اعتقه منهم كان سبعين الفاً . واتخذ عمر بن عبد العزيز وزيراً له ومشيراً وجعله وليـاً لعهده . وكان هذا مشهوراً بالتقوى والورع والدين والعقل والعدل ، فعد الناس كل هذا من حسنات سليمان وقالوا عنه انه افتتح بخلافته بخير واختتمها بخير وكانت يمناً وبركة .

ولقد اتته بشائر الخلافة وهو في البلقاء او في الرملة فانتقل الى القدس وجلس في صحن المسجد وقد بسطت البسط ووضع عليها النمارق والكراسي والى جانبه الاموال والكساوي وآنية الذهب والفضة .

ثم اذن لوفود الاجناد التي جاءت لمبايعته فأخذت تدخل عليه فيوزع عليهـــم الاموال والكساوي ويستمع لمطالبهم ويقضيها فمـــا طلب احدهم شيئاً الا نوله مرامه ثم انتقل الى دمشق حيث اقبل الناس على بيعته واستتب له الامر .

وكانت اول خطبه بهذا النص الدال على فصاحته وحسن دينه وتقواه :

---

(١) هذه النبذة مقتبسة من الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ص٧٨ وبعدها وتاريخ الطبري ج ٥ ص٢٧٢ وبعدها ومروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ١١١ والعقد الفريـــد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٣٧٨ وج ٣ ص ١٦٩ وبعدها والبداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ١٦٦ وبعدها وتاريخ ابن الاثير ج ٤ ص٤ـــ١٥ وتاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٣٦ـــ٤٣ مطبعة الغرى.

الحمد لله الذي ما شاء وضع . وما شاء رفع . ومـــا شاء صنـع . ومـــا شاء اعطى . وما شاء منع . إن الدنيا دار غرور . ومـــنزل باطـــل . وزينة قلب . تضحك باكياً وتبكي ضاحكاً . وتخيف آمناً وتؤمن خائفاً وتفقر مثرياً وتثري فقيراً . فهي لاعبة بأهلها فعليكم ايها الناس ان تجعلوا كتاب الله لكم اماماً وإن ترضوا به حكماً . انـــه يجلو كيد الشيطان كما يجلو ضوء الصبح اذا تنفس ادبار الليل اذا عسعس .

ومن اقواله المأثورة : (الصمت منام العقل والنطق يقظته ولا يتم هذا الا بهذا) .

ودخل عليه رجل فكلمه فأعجبه منطقه ثم فتشه فلم يحمد عقـــله فقال : (فضل منطق الرجل على عقله خدعة ، وفضل عقله على منطقه هجنة ، وخير ذلك ما اشبه بعضه بعضاً) .

ومن اقواله كذلك (العاقل احرص على اقامة لسانه منه على طلب معاشه . ان من تكلم فأحسن قادران يسكت فيحسن، وليس كل من سكت فأحسن قادراً على ان يتكلم فيحسن) .

ومنها (أكلنا الطيب ولبسنا اللين . وركبنا الفاره ، ولم يبق لذة الا صديق اطرح معه فيما بيني وبينه مؤونة التكليف) .

وتوفي ابنه الاكبر ايوب فوقف على قـــبره وقال (اللهم اني ارجوك له واخافك عليك فحقق رجائي وامن خوفي) .

وله كلمة قوية في الاعتزاز بالدولة الاموية وعز العرب في ظلالها قالها لرجل حذره من رجال تكنفوه وتزلفوا اليه وكان يعرف ان ميله الى الهاشميين وهي (لا تزال العرب بسلطاننا لاكناف العز متبوئة ، ولا تزال دولتنا بكل خير مقبلة ، ولئن سا سم لاة غيرنا ليحمدن ما ما اصبحتم تذمون) .

وكان ينظم الشعر ، ومن مأثور شعره :

ومن شيمي ان لا افارق صاحبي	وان ملني إلا سألت لـــه رشدا
وان دام لي بالود دمت ولم اكن	كآخر لا يرعى ذماماً ولا عهدا

وكان يستمع للموعظة ويبكي لها . فقد روي انه ادخل عليه ابو حازم احد علماء وصلحاء التابعين من اهل المدينة فدارت بينه وبينه مساجلة طويلة قد لا تخلو من الصنعة لان فيهـــا تعريضاً لظلم بني امية وحيدتهم على الحق والعدل غير ان هذا لا يمنع ان يكون فيها شيء من

الصحة . فمن ذلك انه سأله اي العمل افضل فقال اداء الفرائض مــــع اجتناب المحارم فسأله اي القول اعدل فقال كلمة حــــق عند من تخاف وترجو . فسأله فاي الناس اعقل فقال من عمل بطاعة الله . فسأله اي الناس اجهل فقال من بــــاع آخرته بدنياه . فقــــال له عظني واوجز فقال يا امير المؤمنين نزه ربك وعظمه بحيث ان يراك تجتنب مــــا نهاك عنه ولا يفقدك من حيث امرك به . فبكى سليمان بكاء شديداً [1].

ومما يروى ان والي العراق خالد بــــن عبد الله القسري طلب رجلا قرشياً فهرب منه ثم كتب الى سليمان يستجير من الوالي فكتب سليمان للوالي بــــأن لا يعرض لــــه وحمل القرشي الكتاب بنفسه فلما دخل عليه امر بضربه مائة سوط قبل ان يفض كتاب سليمان ثم فضه فلما قرأه قال له هذه نقمة الله اراد ان ينتقم منك فلم اقرأ الكتاب قبل ضربك . فرجع الرجل الى سليمان فاخبره بما جرى له فلم يكن من سليمان الا ان وجه شخصاً من قبله امره ان يضرب الوالي مائة سوط . وفي هذا يقــــول الفرزدق :

لعمري لقد صبت على ظهر خالد   شآبيب ليست من سحاب ولا قطر

أتضرب في العصيان مــــن لـيس عاصياً

وتعصى أمــــير المؤمنين أخــــا قــــسر

فخــــذ بيديك الخزي حــــقاً فانما

جزيــــت قصاصــــاً بالمرجرجة السمر [2]

ومما يروى عنه أنه سمع مغنياً في عسكره فطلبه فجاؤوه به فقال اعد مــــا غنيت فغنــــى واحتفل فقال والله لكانها جرجرة الفحل في الشول وماحسب أنثى تسمع هذا الا صبت اليه ثم امــــر بــــه فمضى

---

(١) الامامة والسياسة لابــــن قتيبة ج ٢ ص ٩٧ وبعدها ومروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ١١٤ والموقف تتمة رائعة فيها صورة لما كان عليه العلماء والوعاظ من جرأة وتعفف . فقد قال بعض الجلساء لابي حازم اسرفت على امير المؤمنين . فقال اسكت فان الله قد اخذ الميثاق عــــلى العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه . وارسل سليمان اليه مالا بعد انصرافه فرده وقال للرسول قــــل لأمير المؤمنين اني لا رضاه لك فكيف ارضى به لنفسي ولست اريد ان آخذ ثمن ما قلت له . ومثل هذه المواقف بين العلماء والوعاظ وبين الخلفاء كثير .

(٢) مروج الذهب ج٣ص١١٦

وروي عنه كذلك انه كان في بادية له يسمر على ظهر سطح فدعا بوضوء فجاءت به جارية فبينما هي تصب لحظ ان ذهنها مشتغل عنه بغناء تسمعه فتجاهل . وفي الصباح أخذ يبحث حتى عرف المغني الذي شغلت الجارية بغنائه . ثم أقبل على جلسائه فقال : (هدر الجمل فقبعت الناقة ونب التيس فشفرت الشاة . وهدل الحمام فزاخت الحمامة وغنى الرجل فطربت المرأة .) ثم امر به فخصي وسأل عن الغناء اين اصله فقيل له في المدينة جماعة المخنثين وهم أئمته والحذاق فيه فكتب الى عامله هناك أخص من قبلك من المخنثين المغنين فخصاهم[1].

ومما يرويه اليعقوبي ان سليمان امر عامله على مكة خالد بن عبد الله ان يحفر عن بئر ماء عذب في مكة ويجره الى الحرم فحفر في اصل جبل ثبير واستنبط ماء عذباً اجراه الى المسجد الحرام واظهره في فوارة تسكب في فسقية رخام بين الركن والمقام . وانه خطب بعد ذلك في الناس فقال احمدوا الله وادعوا لأمير المؤمنين الذي سقاكم الماء العذب بعد الملح الأجاج الذي لا يطاق شربه وهو يعني بماء زمزم وان اهل مكة ظلوا مصرين على ورود زمزم وشرب مائها وان الفسقية ظلت قائمة والماء ينبط منها الى زمن الدولة العباسية فهدمها داود بن علي العباسي اول وال عباسي على مكة .[2]

وحج مرة بالناس فاخبر أن طاووس في المسجد وكان من علماء وصلحاء التابعين فارسل اليه فدخل عليه فسكت طويلا ثم قال (أتعلمون من أبغض الخلق الى الله قالوا لا قال عبد أشركه الله في سلطانه فعمل فيه بمعاصيه) ثم نهض وخرج فجزع سليمان جزعاً شديداً.

وسأل عمر بن عبد العزيز يوماً وقد اعجبه سلطانه كيف ترى ما نحن فيه فقال سرور لو لا أنه غرور . وحياة لولا انها موت . وملك لولا انه هلك . وحسن لولا انه حزن. ونعمة لولا انه عذاب أليم فبكى .

ومع ذلك فقد روي عنه انه كان متأنقاً في لباسه حيث كان جميع ما يلبسه من الوشي جبابه وعمائمه وإزره وسراويله وكان يأمر خدامه وطباخيه بلبس الموشى .ولا يدخل الناس عليه الا وعليهم اللباس الموشى حتى انعدى الشعب بذلك وصار له عادة في زمنه

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج٥ ص ٣٥ عزواً الى المسعودي والاغاني وقد اوردنا الروايات لما فيها من صورة ادبية وفنية مع شكنا في صحتها وبخاصة في امر سليمان بخصي المغنين

(٢) ج٢ ص٢٩٤

ومما يروى في هذا الباب انه لبس مرة لباساً موشى اخضر وتعطر وخرج الى الجامع يوم الجمعة فخطب وصلى بالناس ثم عاد مزهواً ونظر الى نفسه بالمرآة فاعجبه فقال معتداً بنفسه انا الملك الشاب السيد المهاب الكريم الوهاب ، ورأى جارية له يتخطاها تنظر اليه فقال لها كيف ترين امير المؤمنين قالت اراه منى النفس وقرة العين ، لولا ما قال الشاعر ، قال وما قال قالت قال :

انت نعم المتاع لو كنت تبقى	غير ان لا بقاء للانسان
انت من لا يريبنا منك شيء	علم الله غير انك فان

فتشاءم ولم يمض عليه قليل حتى توفي .

ويروى انه كان كذلك نهماً كثير الاكل وكان ذلك سبب موته لانه اكل فاتخم . وقد رويت روايات عجيبة عن اكله لا يمكن ان تصدق ، من ذلك انه اصطبح يوماً باربعين دجاجة مشوية واربع وثمانين كلوة بشحمها وثمانين جردقة ثم اكل في السماط العام مع الناس كالعادة ، ومن ذلك انه استعجل الطعام في الطائف ولم يكن قد جهز فأتوه برمان فأكل سبعين ثم بجدي وست دجاجات فأكلها ثم بزبيب فأكل قدراً كبيراً ، ثم نعس فنام فلما افاق اتوه بالغداء فأكل كالعادة ومن ذلك انه اكل مرة جدياً مشوياً ثم دجاجتين هنديتين ثم جريرة ثم نام فلما انتبه صاح بالخادم يا غلام أفرغت من غدائي قال نعم قال وما هو قال ثمانون قدراً قال ائتني بها قدراً قدراً فأكل من كل قدر ثلاث لقم واستلقى الى ان حان وقت الغداء فأكل مع الناس كالعادة . ومن ذلك انه اكل مرة اربعمئة بيضة وسلتين من التين فاتخم ولم يلبث ان مات بالتخمة .

ولقد روى المسعودي عن الاصمعي انه ذكر للرشيد نهم سليمان وتناوله الفراريج بكمه من السفافيد فقال له قاتلك الله ما اعلمك بأخبارهم . فقد عرضت علي جباب بني امية فنظرت الى جباب سليمان واذا في كل كم منها اثر من دهن فلم ادر ما ذلك حتى حدثتني بالحديث ، ثم قال علي بجباب سليمان فأتي بها فنظرنا في ذلك فاذا تلك الآثار ظاهرة ،فكساني واحدةمنها.

ومع كل ذلك فقد روي انه كان نحيف البنية على ما اوردناه قبل حيث يبدو من ذلك ان الروايات مصنوعة للتزلف الى العباسيين .

وقصة الاصمعي التي يرويها المسعودي المتوفى في اواسط القرن الرابع دليل قوي على ذلك فما كان من المعقول ان تصل جباب بني امية الى الخلفاء العباسيين وتحفظ موسومة باسماء اصحابها وعليها آثار الدهن والشحم .

ولقد سجل على نفسه عملا شائناً بما كان من معاملته الفظة لموسى بن نصير وابنه عبد العزيز فاتحي الاندلس بسبب موقف ولائي من موسى نحو اخيه الوليد مس كبرياءه وخالف به رغبته متجاهلا ما كان منهما من خدمة جلى للاسلام والعروبة والدولة الاموية .

فقد اراد موسى بن نصير ان يقدم على الوليد بن عبد الملك بعدما تيسر له ماتيسر من الفتح العظيم في الاندلس فتوجه نحو الشام ومعه العجيب من الطرف والهدايا .

وكان الوليد مريضاً ، فأرسل اليه سليمان رسولا يحمل كتاباً منه بأن لا يعجل فان الوليد في آخر رمقه . فلما قرأ موسى الكتاب قال والله ما اغدر ولا ابطىء ولا اعجل بل اسير بسيري فان اوافه حياً لم اتخلف عنه وان عجلت منيته فأمره الى الله ، فلما بلغ الى الرسول سليمان قول موسى غضب وآلى على نفسه ليصلبن موسى اذا ظفر به . ووصل موسى والوليد حي وقدم اليه الطرف والهدايا . وما لبث ان مات ، وصارت الخلافة الى سليمان . فلما جاء الى دمشق استدعى موسى وعاتبه واشتد في التنديد به واغلظ له ، فقال موسى والله ما تأخذ علي ذنباً إلا انني وفيت للخلفاء قبلك وحافظت على حق الولاء والنعمة عندهم . فلم يبال باعتذاره وامر بايقافه في يوم صائف شديد الحر فظل واقفاً حتى سقط من الحر والعياء ، وتشفع عمر بن عبد العزيز به فعفا عن دمه ولكنه فرض عليه فدية عظيمة ذكرت بعض الروايات انها اربعة آلاف الف دينار ولم يكن له اليها سبيل آنئذ فطاف على الناس يسألهم فيها حتى أداها .

وكان لهذا الحادث ذيل مرير . فان موسى خلف ابنه عبد العزيز نائباً عنه في الاندلس وكان من اعظم المساعدين لأبيه فيما تم على يديه من فتوح فلما بلغه ما صنعه سليمان بأبيه اظهر حنقه وغيظه فبلغ ذلك سليمان فخاف من تمرده فأغرى حبيباً بن ابي عبيدة به فتمرد عليه وقتله ثم احتز رأسه وأرسله اليه ، ولما جاء الرأس الى سليمان عرضه على ابيه فتجلد للمصيبة وقال هنيئاً له بالشهادة وقد قتلتموه والله صواماً قواماً .

وعقب ابن الاثير على هذه العبارة التي رواها ان قتله كان يعد من زلات سليمان ، لأنه كان خيراً فاضلا .

ولقد روى ابن الاثير مع ذلك رواية اخرى لسبب قتله وهي انه كان تزوج بأرملة العاهل الاسباني المقتول لذريق فغلبت عليه وجعلته يفتح باباً قصيراً الى مجلسه حتى يطأطىء الناس الداخلون عليه كأنما يركعون له على طريقة الافرنج وانها عملت له تاجاً من ذهب ولؤلؤ فشاع بين المسلمين انه تنصر فثاروا عليه وقتلوه [1] .

وصحة الرواية تتحمل شكا كبيراً ونرجح انها اشيعت لتبرير قتله اذا كانت صحيحة .

ومن هذا الباب ما كان منه نحو قتيبة فاتح بلاد الترك ومحمد بن القاسم فاتح بلاد السند .

ولقد كان قتيبة ومحمد والحجاج حبذوا للوليد رأيه حينما استشارهم في صرف ولاية العهد عن اخيه سليمان الى ابنه عبد العزيز وايدوه فحقد عليهم حقداً كبيراً ، فلما صارت الخلافة اليه عزل محمداً عن ولاية السند وعين والياً جديداً مكانه وامره باعتقاله وارساله مكبلا الى واسط حيث عذب هناك مع بعض انصاره ثم قتلوا .

وكان لهذا العمل رنة اسى في بلاد الهند والسند حيث روي انهم بكوا عليه واحتفظوا بصورة وتمثال له عندهم ، وقد رثاه حمزة الحنفي مذكراً ما كان من جهاده العظيم طيلة سبع عشرة سنة :

ان المروءة والسماحة والندى	لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة	يا قرب ذلك سؤدداً من مولد [2]

اما ما كان من امر قتيبة فهناك روايات متعددة ، منها واحدة تبدو عجيبة مع انها اكثر الروايات شهرة حيث تذكر ان قتيبة كتب لسليمان حينما صارت اليه الخلافة ثلاثة كتب ارسلها مع رسول يثق بـه ووصاه ان يسلم الاول اولا فان القاه الى يزيد بن المهلب

---

(١) انظر خبر موسى وابنه في الامامة والسياسة ج٢ ص ٨٣–٩٢ والطبري ج ٥ ص ٢٨٦ وتاريخ ابن الاثير ج ٥ ص ٨ .

(٢) البلاذري فتوح البلدان ص ٤٤٥–٤٤٦ .

فيسلمه الثاني فان القاه الى يزيد فيسلمه الثالث ، وانه كتب له في الاول يهنئه ويبايعه .

وفي الثاني يذكر بلاءه بالفتوح وولاءه للخلفاء ويحذره من عزله وتعيين يزيد بن المهلب مكانه. وفي الثالث يعلنه خلعه ويقول له سوف املأ الارض خيلا عليه، وان سليمان القى الاول والثاني الى يزيد كما قدر قتيبة واحتفظ بالثالث وقد تمعر منه وجهه ، واعطى الرسول جائزة وكتب لقتيبة يثبته في الولاية . وان قتيبة لم يطمئن فأعلن خلع سليمان ودعا الناس الى تأييده. وان القسم الاعظم من الجيوش العربية التي كانت تحت يده في خراسان لم تستجب لدعوته ورأت في الخلع فساداً للدين ومصلحة المسلمين والتفت حول زعيم بني تميم وكيع وكانت فتنة دامية قتل فيها قتيبة وابناؤه واقاربه ، وكتب وكيع بالامر الى سليمان وارسل اليه رأس قتيبة فعينه والياً مكانه .

وهناك رواية اخرى يذكرها الطبري وهي ان قتيبة لم يخلع وان وكيعاً تجنى عليه حين علم بحقد سليمان عليه طمعاً في منصبه وانتقاماً منه لانه كان عزله عن عمل كان يعمله في ولايته وألب قومه ومن يمت اليهم بالاوشاج القبلية فالتفوا عليه وقام بحركة تمردية ضده فكان ما كان من اشتباك بين وكيع وجماعاته من ناحية وقتيبة وذويه من ناحية قتل فيه قتيبة وكثير من ذويه .

وهذه الرواية اكثر احتمالا للصحة لانها تبدو معقولة اكثر من الاولى ، وقد تكررت حوادث طموح الطامحين الى المناصب وقيامهم بالحركات التمردية بسبيل ذلك مما مر منه بعض الامثلة ومما يرد منه امثلة اخرى في نبذ آتية .

ولقد روى الطبري ما يعزز هذه الرواية حيث روى ان سليمان عزل وكيعاً بعد اشهر قليلة لان بعضهم خوفه من غدره وعدم اخلاصه ، وعين مكانه يزيد بن المهلب ، وان بعض من نجا من ذوي قتيبة شكوا الى سليمان مما كان من تجني وكيع وقالوا له ان قتيبة لم يخلع ، وان سليمان امر الوالي الجديد بالتحقيق في المسألة فاذا قامت النية على عدم صحة خلع قتيبة فيوقع القصاص على وكيع لأنه يكون قد قتل قتيبة وجماعته بغير حق ، وان الوالي اعتقل وكيعاً وبعض جماعته وحبسهم وعذبهم[1] .

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص ٢٨١–٢٨٥ .

وقد رأينا مؤلف النجوم الزاهرة يذكر خبر قتل قتيبة بصيغة اخرى حيث قال دون عزو الى مصدر ان سليمان كان ناقماً على قتيبة لانه خلعه في ايام اخيه الوليد - يعني وافق على خلعه من ولاية العهد - فلما ولي الخلافة بعث اليه من قتله بعد امور وحروب [١] . وعلى كل حال فالمتبادر ان قتيبة ذهب ضحية حقد سليمان ونقمته .

ولقد كان قتيبة عظيم الجهاد وقد ادى جهاده الى توسيع رقعة السلطان العربي الاسلامي وتوطيده ونشر الاسلام في المشرق .

وكان من احسن الولاة ضبطاً للامور وعدلا في الرعية وتأميناً للامن حتى كانت الظعينة تخرج من مرو الى بلخ بغير جواز فلا يعترضها احد ، وكانت اعطيات الجند توزع كاملة فضلا عما كان يملأ ايديهم من الغنائم مما اثر في خطبته التي خطبها الناس حينما ثار عليه بنو تميم بزعامة وكيع [٢] ؛ بحيث يصح ان يعد من اعاظم رجال الدولة الاموية والعرب .

ولقد اثار قتله الناس حتى ان احد رجال العجم قال منددا بالعرب لو كان قتيبة منا فمات لجعلناه في تابوت واستنصرنا به اذا غزونا واستمطرنا به اذا اجدبنا [٣] .

ولقد رثاه الشعراء ومنهم عبد الرحمن الباهلي الذي روي له فيه هذه الابيات :

كأن ابا حفص قتيبة لم يسر	بجيش الى جيش ولم يعل منبرا
ولم تخفق الرايات والقوم حوله	وقوف ولم يشهد له الناس عسكرا
دعته المنايا فاستجاب لربه	وراح الى الجنات عفاً مطهرا
فما رزيء الاسلام بعد محمد	بمثل ابي حفص فبكيه عبهرا

ومنهم الاصم بن الحجاج الذي روي له هذه الابيات :

ألم يأن للاحياء ان يعرفوا لنا	بلى نحن اولى الناس بالمجد والفخر
تقود تميماً والموالي ومذحجاً	وازد وعبد القيس والحي من بكر

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٣٣ .

(٢-٣) نفس المصدر السابق .

نقتل من شئنا بعزة ملكنا — ونجبر من شئنا على الخسف والقسر
سليمان كم من عسكر قد حوت لكم — أسنتنا والمقربات بنا تجري
وكم من حصون قد ابحنا منيعة — ومن بلد سهل ومن جبل وعر
ومن بلدة لم يغزها الناس قبلنا — غزونا نقود الخيل شهراً الى شهر
مرن على الغزو والجرور ووفرت — على النفر حتى ما تهال من النفر
وحتى لو ان النار شبت واكرهت — على النار خاضت في الوغى لهب الجمر
تلاعب اطراف الأسنة والقنا — بلباتها والموت في لجج خضر
بهن ابحنا اهل كل مدينة — من الشرك حتى جاوزت مطلع الفجر
ولو لم تعجلنا المنايا لجاوزت — بناردم ذي القرنين ذا الصخر والقطر
ولكن آجالا قضين ومدة — تناهى اليها الطيبون بنو عمرو [١]

ومما رواه الطبري ان سبعة آلاف من الموالي بزعامة حيان النبطي — وهو حسب تعريف الطبري خراساني ديلمي سمي نبطي للكنة في لسانه — انحازوا الى وكيع وجماعاته ضد قتيبة . وان حياناً ارسل الى وكيع يقول له هل تجعل لي خراج جانب نهر بلخ ما دمت حياً اذا انا كففت عنك واعنتك ، فأجابه بالايجاب فقال حيان لقومه ان هؤلاء العرب يقتتلون على غير دين — اي لم تكن غايتهم في القتال نصرة الدين — فدعوهم يقتل بعضهم بعضاً ففعلوا وبايعوا وكيعاً سراً . ولما قتل قتيبة وصارت الولاية لوكيع وفى لحيان بما وعده[٢]. حيث يبدو في الخبر صورة من صور كيد العجم للعرب .

ولقد استمر حيان في مكائده ضد العرب واغتنام فرص اختلافهم للدس بينهم على ما سوف نذكره في مناسبات اخرى مما جعل سورة بن الحر احد زعماء الجند في خراسان يقول عنه لسعيد خدينه احد من تولوا خراسان ان هذا العبد اعدى الناس للعرب والولاة وانه هو الذي افسد خراسان على قتيبة [٣].

---

(١) ان الطبري قال ان القصيدة رثاء لقتيبة .ويبدو انها رثاء فخري لتعداد ما كان من جهاد قتيبة وبلائه وفتوحاته . انظر تاريخ الطبري ج ٥ ص ٢٨٥ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

(٣) ابن الاثير ج ٥ ص ٣٧ .

ولقد كان الحجاج مات قبل موت الوليد بقليل فنجا من حقد سليمان فصب نقمته على عماله فعزلهم وسلمهم الى يزيد بن المهلب وامره ان يعذبهم ويستخرج الاموال منهم ، وعزل كاتبه يزيد بن مسلم واستحضره مكبلا بالحديد .

وقد روي في سياق ذلك مساجلة طريفة بين سليمان وهذا الكاتب حيث قال له سليمان حينما ادخل عليه مكبلا بالحديد ما رأيت كاليوم قط . لعن الله رجلا أجرك رسنه وحكمك في امره فقال له يزيد لا تفعل يا امير المؤمنين . فانك رأيتني والامر عني مدبر وعليك مقبل ولو رأيتني والامر مقبل علي لاستعظمت مني ما استصغرت ولاستجللت مني ما استحقرت . قال صدقت لا ام لك اجلس ، ثم قال له عزمت عليك لتخبرني عن الحجاج ماظنك اتراه يهوي بعد في جهنم ام قد استقر فيها . قال يا امير المؤمنين لا تقل هذا في الحجاج فقد بذل لكم نصحه . واحقن دونكم دمه . وآمن وليكم واخاف عدوكم . وانه يوم القيامة يكون على يمين ابيك عبد الملك ويسار اخيك الوليد ، فاجعله حيث شئت [1] . فصاح سليمان ، اخرج عني الى لعنة الله ، ثم التفت الى جلسائه فقال قبحه الله ، ما كان احسن ترتيبه لنفسه ولصاحبه ، ولقد احسن المكافأة ، اطلقوا سبيله .

ومما رواه الطبري [2] وفيه صورة من صور الحكم وصلاحيات الولاة والعمال ان سليمان ولى يزيد بن المهلب حين صارت اليه الخلافة حرب العراق وخراجها وصلاتها (اي جميع السلطات الادارية والعسكرية والمالية)فقال يزيد في نفسه ان العراق قد احربها الحجاج وانا اليوم رجاء اهلها ومتى قدمتها واخذت الناس بالخراج وعذبتهم صرت مثله فادخل عليهم الحرب واعيد عليهم السجون وقد عافاهم الله منها ، ومتى لم آت سليمان بما كان يأتي به الحجاج لم يقبل مني . فقال لسليمان ادلك على رجل بصير بالخراج توليه اياه قال نعم فسمى له صالح بن عبد الرحمن فوافق عليه ، فلما قدم يزيد الى العراق خرج صالح للقاء يزيد وبين يديه

---

(١) روى شارح ديوان الفرزدق الصادي كلاماً آخر ليزيد في نفس المعنى (انه اذل لكم الأعز وقمع لكم الأعداء ، ووطأ لكم المنابر وزرع لكم المحبة في قلوب الناس) .

(٢) منح جميع السلطات للتكريم والتوسيع . وعلى كل فالقضاء لم يكن داخلا فيصلاحيات الولاة وكان مستقلا ، وهناك روايات تفيد ان بعض الولاة كانوا ولاة اداريين فقط ، وكان للحرب متول خاص وللخراج متول خاص ليسوا تابعين للولاة تبعية مطلقة والرواية وروايات اخرى تفيد ان متولي الخراج كان يتولى الجباية والانفاق معاً (الطبري ج ٥ ص ٢٨٧ــ٢٨٨).

اربعمائة من اهل الشام فقال له قد فرغت لك هذه الدار فانزل فيها ففعل ثم صار يضيق على يزيد فلم يملكه شيئاً . واتخذ يزيد الف خوان يطعم الناس عليها فاخذها صالح ، فقال له يزيد اكتب ثمنها علي . واشترى يزيد متاعاً وصك صكاً الى صالح ليدفع ثمنها للباعة فلم ينفذها فرجعوا الى يزيد فغضب وقال هذا عملي بنفسي . فلم يلبث ان جاء صالح فلما جلس قال له ما هذه الصكاك التي ارسلتها الي . ان الخراج لا يقوم لها ، قد انفذت لك منذ ايام صكا بمئة الف وعجلت لك ارزاقك ، وسألت مالا للجند فأعطيتك ، فهذا لا يقوم له شيء ، ولا يرضى امير المؤمنين به وتؤخذ به ، فقال له يزيد يا ابا الوليد اجز هذه الصكاك هذه المرةوضاحكه فقال اني اجيزها على ان لا تكثرن علي فوعده بذلك .

ولقد اخذ سليمان بولاية العهد لابنه ايوب فمات في حياته، فلما شعر بدنو اجله اراد ان يأخذ البيعة لابن آخر له ما يزال فتى حدثاً فاستشار رجاء بن حياة احد كبار رجاله فقال له ان مما يحفظ الخليفة في قبره ان يولى على المسلمين الرجل الصالح . فاستشاره في ابن آخر لهاسمه داود كان مع جيش القسطنطينية فقال له انه غائب عنك لا تدري اهو ميت ام حي فسأله رأيه في عمر بن عبد العزيز فاثنى عليه . ولكن خوّفه من خلاف اخوتهعليه واشار عليه ان يجعل الولاية من بعده لاخيه يزيد حتى يرضوا بذلك .

فعمل برأيه وكتب كتاب العهدوختمه وامر صاحب شرطته ان يستدعي رجال بنيامية ويأخذ بيعتهم على ما في الكتاب وان يضرب عنق من يأبى فبايعوا واحداً بعد آخر بدون خلاف .

فلما مات جمع الناس في مسجد دابق وطلب منهم البيعة ثانية على ما في الكتاب ففعلوا ثم فتح الكتاب فقرأه فاغضب هشاماً أخا سليمان واراد ان يمتنع فانذره صاحب الشرطة بضرب عنقه فرضخ وبايع .

وهناك رواية يرويها ابن قتيبة ان عمر بن عبد العزيز دخل على سليمان في مرضه الذي مات فيه فدعا بنين له صغاراً فقلدهم السيوف فوقعوا فقال سليمان قد افلح من كان له بنون كبار ، فقال ليس هذا ولكن الله يقول (قد افلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) فقال سليمان اني اريد ان اعهد اليك واوليك امور الناس بعدي . فقال عمر لا حاجة لي بذلك فقال له ولم فقال لاني لا اريد اخذ اموالهم،فاذا لم ارد اخذ اموالهم فماالذي يدعوني الى ضرب ظهورهم

فقال سليمان لا بد من هذا ، فقال له ولم ذلك ولك في ولد عبد الملك سعة فأعفني من هـذا يعف الله عنك ، فقال سليمان والله لا اوليها غيرك بعدي فاني رأيت في منامي قائلا يقول لي ان عمر بن عبد العزيز لك جنة ووقاية وجسر تتخطاه فاولت ذلك ان اوليك الامر بعدي لتكون توليتك جنة لي من النار . وجسراً اركبه ، ثم ليزيد بعدك فانه ارشد ولد عبدالملك . فسكت ثم دعا سليمان بصحيفه فكتب فيها عهده ثم دعا برجاء بن حياة فقال له خذ هذا الكتاب فانه عهدي فأجمع قريشاً وامراء الأجناد وخذ منهم البيعة لمن اسمه فيه فمن نزع عـن ذلك واباه فالسيف السيف والقتل . ثم رفع يديه الى السماء فقـال اللهم ان ذنوبي قـد عظمت وجلت وهي صغيرة يسيرة في جانب عفوك اللهم ان كنت تعلم اني انما اردت بعهدي هـذا وجهك ورضاك فاغفر لي ثم تخلخل واغشي عليه ولم يلبث ان مات .

ولقد روى الامام ابن قتيبة نص كتاب عهد سليمان . وقد يلمح فيه صنعة لمشابهته لعلم الكلام وما كان يدور في عهد متأخر من الصدر الاسلامي وفي عهد العباسيين بخاصة مـن مسائل القدر والجبر والخلق والجنة والنار وليس هناك ما يمكن ان يثبت او ينفي ان هذه المسائل مما اخذ يدور في زمن سليمان اي على رأس القرن الثاني للهجرة . وفيه على كل حال صورة من صور التفكير الاسلامي وقوة الإيمان بالله واليوم الآخر والخوف منه في ذلك الزمن . وهذا هو النص :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد بـه عبد الله سليمان بن عبد الملك امـير المؤمنين وخليفة المسلمين عهد انه يشهد لله بالربوبية والوحدانية . وان محمداً عبده ورسوله بعثه الى محسني عباده بشيراً والى مذنبهم نذيراً ، وان الجنة والنار مخلوقتان حق ، خلق الجنة رحمة لمن اطاعه ، والنار عذاباً لمن عصاه . واوجب العفو لمن عفا عنه ، وان سليمان مقر على نفسه بمـا يعلم الله من ذنوبه موجباً على نفسه استحقاق ما خلق من النقمة واجبـاً لنفسه مـا خلق مـن الرحمـة ووعد من المغفرة ، راج لمـا وعـد من الرحمـة ، وآن المقادير كلهـا خيرها وشرها مـن الله ، وانه هو الهادي لم يستطع احد لمن خلق الله لرحمته غواية ولا لمن خلق لعذابه هداية . وان الفتنة في القبور بالسؤال عن دينه ونبيه الذي أرسل الى امته لا منجى لمن خرج من الدنيا الى الآخرة من هذه المسألة ، وسليمان يسأل بواسع فضله وعظيم منه الثبات على الحق عند تلك المسألة ، والنجاة من هول تلك الفتنة ، وان الميزان حق يقين يضع الموازين القسط ليوم القيامة فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فاولئك هم الخاسرون . وان حوض محمد ﷺ يوم الحشر حق عدد آنيته كنجوم السماء ، من شرب منه لم يظمأ ابـداً .

وسليمان يسأل الله برحمته ان لا يرده عطشان ، وان ابا بكر وعمر خير هذه الامة بعد نبينا ﷺ ، والله يعلم بعدهما حيث الخير وفيمن الخير من هذه الامة ، وان هذة الشهادة المذكورة في عهده هذا يعلمها من سره واعلانه وعقد ضميره . وان بها عبد ربه في سالف ايامه وماضي عمره وعليها ايتاء يقين ربه وتوفاة اجله وعليها يبعث بعد الموت ان شاء الله ، وان سليمان كانت له بين هذه الشهادة بلايا وسيئات لم يكن عنها محيص ولا دونها مقصر بالقدر السابق والعلم النافذ في محكم الوحي ، فان يعف ويصفح فذلك ما عرف منه قديماً ونسب اليه حديثاً وذلك الصفة التي وصف بها نفسه في كتابه الصادق وكلامه الناطق ، وان يعاقب وينتقم فيما قدمت يداه وما الله بظلام للعبيد ، واني اخرج من قرأ عهدي وسمع ما فيه من حكمه ان ينتهي اليه في امره ونهيه بالله العظيم وبمحمد ﷺ وان يدع الأحن ويأخذ بالمكارم ويرفع يديه الى السماء بالابتهال الصحيح والدعاء الصريح يسأله العفو عني والمغفرة لي والنجاة من فزعي والمسألة في قبري ، لعل الودود ان يجعل منكم مجاب الدعوة بما علي من صفحه يعود ان شاء الله ، وان ولى عهدي فيكم وصاحب امري بعد موتي في كل من استخلفني الله عليه الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز ابن عمي لما باوت من باطن امره وظاهره ورجوت الله بذلك واردت رضاه ورحمته ان شاء الله ، ثم ليزيد بن عبد الملك من بعده فاني ما رأيت منه الا خيراً ولا اطلعت له على مكروه وصغار ولدي وكبارهم الى عمر اذ رجوت ان لا يألوهم رشداً وصلاحاً والله خليفتي عليهم وهو ارحم الراحمين ، واقرأ عليكم السلام ورحمة الله ، ومن ابى عهدي وخالف امري فالسيف ، ورجوت ان لا يخالفه احد ، ومن خالفه فهو ضال مضل يستعتب فان اعتب والا فالسيف ، والله المستعان ولا حول ولا قوة الا بالله القديم الاحسان (١) .

ولقد كانت وفاته لعشر خلون من صفر سنة ٩٩ هـ في معسكر دابق من اعمال قنسرين في ولاية حلب . ويروى في صدد ذلك انه لما جهز الجيوش وارسلها الى القسطنطينية ودعها في هذا المعسكر ثم آلى على نفسه ان لا يرجع حتى يتم الفتح او يموت قبله ، وظل في مكانه فوافته منيته فيه . وهكذا ختم حياته بالرباط في سبيل الله .

---

(١) الامامة والسياسة ج٢ ص ١٠٤ — ١٠٥ .

عمر بن عبد العزيز بن مروان[1]

يجمع المؤرخون على انه اصلح خلفاء بني امية واتقاهم واورعهم واعفهم واتبعهم لكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين ويجعلونه خامس هؤلاء الخلفاء[2]. والمأثورات القولية والفعلية الكثيرة عنه تبرر ذلك تبريراً قوياً وتجعله مفخرة من مفاخر ملوك العرب والمسلمين على مر الدهور. ولا يمنع هذا من القول انه يلمح شيء من المبالغة والصنعة في بعض الروايات وقصد ابراز نقائص ومظالم غيره من الخلفاء الامويين بالمقارنة به. في حين ان المأثورات القولية والفعلية لهؤلاء الخلفاء تثبت انهم لم يكونوا دونه كثيراً في الدين والورع والتقوى والتزام الحق والانصاف والاتسام بالحجا والحكمة والسداد. وقد راينا أن ننبه على ذلك في هذه المناسبة.

ولقد تولى الحكم وعمره ست وثلاثون سنة ونيف. وامه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب

وقد روي عن نافع بن عبد الله بن عمر ان جده عمر قال ان من ذريتي رجلا بوجهه شجة يلي الامر فيملأ الارض عدلا. وكان عمر بن عبد العزيز أشج نتيجة لرمحة بغل اصابته في صغره. فلما تولى وظهر من سيرته ما ظهر قيل انه المقصود.

وقد وصف بأنه كان اسمر دقيق الوجه حسنه نحيف الجسم حسن اللحية غائر العينين.

ومما يروى ان اباه عبد العزيز لما عين والياً على مصر في زمن اخيه عبد الملك اراد ان يأخذه معه فقال له لعل غير ذلك انفع لي ولك قال وما هو قال ترحلني الى المدينة فأقعد الى فقهائها واتأدب بأدبهم ففعل فكان لذلك اثر قوي فيما صار اليه من نضج وعلم ورشد وورع وتقوى

(١ - ٢) هذه النبذة مقتبسة من تاريخ الطبري ج٥ ص٢١٦ - ٢١٧ والامة والسياسة ج ٢ ص ١٠٥ - ١١٢ والبداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ١٨٤ - ٢١٩ وتاريخ ابن الاثير ج ٥ ص ١٥ - ٢٥ واليعقوبي ج٣ ص ٤٤ - ٥٢

ولقد كان والياً على المدينة في زمن الوليد وهو الذي باشر بهدم المسجد النبوي وشراء الاملاك التي حوله وتجديده وتوسيعه على ما ذكرناه في سيرة الوليد .

ومما روي انه جمع اعلم واورع عشرة من فقهاء المدينة فقال لهم اني دعوتكم لامر تؤجرون عليه وتكونون فيه اعواناً للحق . ما اريد ان اقطع امراً الا برأيكم او رأي من حضر منكم . فان رأيتم احداً يتعدى او بلغكم عن عامل له ظلامة واحرج الله على من بلغه ذلك الا بلغني . ثم صار لا يقطع امراً دونهم او دون من حضر منهم[1] .

وروي عن انس بن مالك قوله عنه (اما صليت وراء امام اشبه صلاة بصلاة رسول الله من هذا الفتى حين كان والياً في المدينة) وروي عن مجاهد وهو من كبار علماء التابعين قوله (أتينا عمر نعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه) وعن ميمون بن مهران وهو صنوه قوله (كان العلماء عند عمر تلامذة وفي رواية كان عمر معلم العلماء) وقال رجل له صحبة مع ابن عمر وابن عباس (ما التمسنا علم شيء الا وجدنا عمر بن عبد العزيز اعلم الناس باصله وفرعه)

ولقد قريء كتاب سليمان العهدي أعلى الناس فلما سمع بعض بني امية اسمه ابوا . فقال له رجاء بن حياة انها الفتنة قد فتح بابها فما نحن صانعوه . قال لا ادري ما اقول لاني والله ما وقفت موقفاً لا راي لي فيه ولا بصيرة الا موقفي هذا فاني اجدني قد ذهب روعي وفقدت رأيي . ولو استطعت الفرار لفررت حيث لا ادرك ولا ارى فقال له رجاء فأين نحن يا ابا حفص من المفزع الى الله والرغبة في الصلاح علينا وعلى المسلمين ويعزم الله لنا على ما فيه الخير فقال بلى والله هذا الملجأ . وهكذا قوي عزمه على مواجهة الموقف . وتوعد رجاء كل من تسول له نفسه بالعصيان فرضخوا وبايعوا وانحسم الشر .

ولقد خطب بعد ذلك اولى خطبه في مسجد دابق فقال ايها الناس إن لي نفساً تواقة . لا تعطى شيئا الا تاقت الى ما هو أعلى منه . ولما اعطيت الخلافة تاقت نفسي الى ما هو أعلى منها وهي الجنة فأعينوني عليها يرحمكم الله . وهناك نص آخر لاولى خطبه قد يكون فيها تأييد لما رويناه في سياق سيرة سليمان عن اعتذاره حينما قال له هذا اريد ان استخلفك من بعدي حيث قال ايها الناس إني ابتليت بهذا الامر من غير رأي كان مني ولا طلبة له ولا مشورة من المسلمين . واني قد خلعت ما في اعناقكم من بيعتي فاختاروا لانفسكم ولامركم من تريدون . فصاح الناس صيحة واحدة قد اخترناك لانفسنا وأمرنا .

وحينئذ أخذ يوصيهم بتقوى الله ويعدهم بان لا يعطي احداً باطلا ولا يمنع أحـــداً حقاً .
وليس ما يمنع ان تكون هـــذه الخطبة وتلك في موقف واحــد .

ويروي ابـــن قتيبة ان الناس لما علموا باستخلاف سليان لعمر لم يكن يعرف اكثر دعوة لـــه بالرحمة والبكاء عليه من ذلك اليوم . فلم يبق محب ولا مبغض ولا خارجي ولا حروري الا اخذ الله لـــه بقلوبهم ورضي الناس اجمعون وبايعوه بيعة جـــامعة تامـــة لا يشوبها غش ولا يخالطها دنس .

وحينا خرج من مسجد دابق بعد البيعة والخطبة قدمت لـــه مراكب الخلافة فقال مركبي اوفق لي . وقيل لـــه تعـــال الى منزل الخلافة فقال فيه عيـــال ابي ايوب وفي فسطاطي كفاية حتى يتحولوا . فأقام في منزلـــه حتى فرغوه بعد .

ويروى انه باع تلك المراكب وما وجده في منزل الخلافة من فرش وصير ثمنه الى بيت المال . ورآه مولاه مغتماً حينا عاد فقال له مالك مغتماً وليس هذا بوقت هذا فقال له ويحك ومالي لا اغتم وليس من احد من اهل المشارق والمغارب من هذه الامة إلا وهـــو يطالبني بحقه ان اؤديه الـــيه كتب الي بذلك او لم يكتب وطلب شيئاً او لم يطلب ثم امـــر منادياً ينادي الا من كانت لـــه مظلمة فليرفعها . وكانـت اولى مظلمة رفعت اليه مـــن ذمي مـــن اهـــل حمص على العباس بن الوليد باغتصاب ارض له . فسئل العباس فقـــال أقطعنيها أمير المؤمنين فقال كتاب الله أولى فقم ورد عليه ضيعته ففعل وتتابع النـــاس في دفع مظالمهم فما رفعت مظلمة الا ازالها أكانت على بـــني أميـــة أم غيرهم .

وكان يتعقب ما في حوزة بني اميـــة بنوع خاص مـــن امـوال الدولة واملاكها فيستردها منهم ويسميها المظالم . وفزع هؤلاء إلى عمة له كانت كبيرة السن والمقام فيهـــم فراجعته وقالـــت له بنو اخي يهانون في زمانـــك وتأخذ اموالهـم وتعطيهـــا لغـيرهم ويسبون عندك فلا تنكر فحاول ان يقنعها بما هو عليه من حق وبما يجب عليه مـــن اتباع سنة رسول الله وخلفائه الراشدين . فخرجـت لتقول لهم هـــذا ما فعلتموه في انفســكم تزوجتم بنات عمر فجاء اولادها شبيهين به .

ومما روي وهو تناسب مع هذا الباب أنه جمع وجوه قريش وفيهم اقاربه فقال لهم ان

فدك كانت بعد رسول الله صلعم فكان يضعها حيث شاء ثم وليها ابو بكر وعمر وعثمان وعلي فكانوا يجعلونها في مصلحة المسلمين . ثم اقطعت لمروان . واني اشهدكم اني قد رددت نصيبي منها الى ما كان عليه الامر في زمن الخلفاء الراشدين ثم امر بني مروان برد ما في ايديهم منها الى بيت المال . فكان هذا وذاك مما اثار الخوف والنقمة في نفوس بني امية حتى روي انهم رشوا مولى له بدس السم له حتى يخلصوا من عواقب تصرفه [1]

ولقد كان قبل توليه الخلافة ميسوراً حتى ان دخله كان اربعين الف دينار . وكان متنعماً حتى انه كان يشتري الحلة بألف دينار وكان يستخشن أقمشة الحرير اللينة . فرد معظم دخله الى بيت المال واكتفى بثلاثمائة درهم منه وصار يشتري حلله بالدراهم المعدودة ويلبس الخشن من الاقمشة . وقيل له ان عمر بن الخطاب كان يأخذ رزقه من بيت المال فقال انه لم يكن له مال وأنا لي مال يغنيني .

ومما روي انه رفض ان يأكل لحماً مشوياً في المطبخ العام وان يغتسل بماء سخن في المطبخ العام . وانه كان له سراج يكتب عليه مسائله الخاصة وسراج يكتب عليه مسائل المسلمين العامة . وانه كان مع ذلك يوسع على عماله في النفقة ويقول انهم اذا كانوا في كفاية تفرغوا لاشغال المسلمين .

ومما يروى أن رجاء بن حياة احد كبار رجال الدولة سمر عنده ليلة فعشي سراجه فقال يا امير المؤمنين الا أوقظ الغلام ليصلحه . فقال دعه ينام فاني لا احب أن اجمع عليه عملين . فقال افلا أقوم فاصلحه . فقال لا ليس من المروءة استخدام الضيف ثم قام فاصلحه وصب فيه زيتاً ثم قال قمت وأنا عمر بن عبد العزيز وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز ! !

وتشاجر ابن له مع ولد فشج الولد ابنه فأتوا به وامه معه فسألها عنه فقالت إنه يتيم فقال اكتبوه في الذرية في الديوان فقالت زوجته أيشج ابنك وتكتبه في الديوان فقال إنه يتيم وقد اخفتموه .

---

(١) نخشى ان تكون هذه الروايات من نوع ما قصد به اظهار مظالم بني امية وعدوانهم على فدك واموال واملاك الدولة على ما نبهنا علية في مطلع النبذة .

وجاء جرير الشاعر المشهور وكان من عادته ان يفد على خلفاء بني امية فيمدحهم ويأخذ جوائزهم فمدحه بقصيدة متناسبة مع ما عرف من دينه وورعه وعدله وهي :

قد طال قومي اذا ما قمت مبتهلا ... يا رب أصلح قوام الدين والبشر
إنا لنرجو اذا مـــا الغيث اخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطـــر
أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت ... أم قد كفاني ما بلغت من الخبر
ما زلت بعدك في هم يؤرقـــني ... قد طال في الحل إصعادي ومنحدر
لا ينفع الحاضر المجهـــود باديه ... ولا يعود لنا باد على حضـــر
كم باليمامة من شعثاء ارمـــلة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به ... خبلا من الجن او مساً من البشر
فان تدعهم فمن يرجون بعدكم ... أو تنج منها فقد انجيت من ضرر
هذي الارامل قد قضيت حاجتها ... فمن لحاجة هذا الارمـــل الذكر
خليفة الله ماذا تأمرون بنـــا ... لسنا اليكم ولا في دار منتظـــر
أنت المبارك والمهدي سيرتـــه ... تعصى الهوى وتقوم الليل بالسور

فبكى عمر وقال له ارفع حاجتك الينا . فقال ما عودني الخلفاء . اربعة آلاف دينـــار وكسوة . فقـــال لـــه أأنت مـــن ابنـــاء المهاجرين أأنت من ابنـــاء الانصار فقال لا . فقال له أأنت من فقراء المسلمين قال نعم قال انا اكتب لعامل بـــلدك يجري عليك ما يجري على فقرائها فأبى وانصرف . فاستعاده وقال له عنـــدي نفقه وكسوة أعطيك بعضها ثم وصله بأربعة دنانـــير وكساه بعض كسوته . وقال لـــه والله انها لمن خالص مالي ولقد اجهدت لك نفسي . فقال جرير والله يا امير المؤمنين انها لاحب مـــال كسبتـــه .

ثم خرج فلقيه الناس فقال جئتكم مـــن عند خليفة يعطي الفقراء ويمنـــع الشعـــراء وإني عنه راض ثم أنشدهم :

تركت لكم بالشام حبل جماعـــة ... أمين الثوى مستحصد العقد باقيا
وجدت رقى الشيطان لا تستفزه ... وقد كان شيطاني من الجن راقيا[1]

ووفد عليه كذلك من الشعراء كثير والاحوص ونصيب فلم يتعد ما وهبه لكل منهم مئة وخمسين درهماً .

وقد اورد ابن كثير قصيدة كثير دون الآخرين وفيها ثناء عظيم على سيرة عمر واخلاقه ودينه وبخاصة اشارة تنويهية الى منعه شتم علي رضي الله عنه وقد جاء فيها :

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف	بريئاً ولم تقبل اشارة مجرم
وصدقت بالفعل المقال مع الذي	اتيت فأمسى راضياً كل مسلم
ألا انما يكفي الفتى بعد ريعه	من الأود النادي ثقاف المقوم
وقد لبست تسعى اليك ثيابها	تراءى لك الدنيا بكف ومعصم
وتومض احياناً بعين مريضة	وتبسم عن مثل الجمان المنظم
فأعرضت عنها مشمئزاً كأنما	سقتك مذوقاً من سمام وعلقم
وقد كنت من احبالها في ممنع	ومن بحرها في مزبد الموج مفعم
وما زلت تواقاً الى كل غاية	بلغت بها اعلى البناء المقدم
فلما اتاك الملك عفواً ولم تكن	لطالب دنيا بعده في تكلم
تركت الذي كان يفنى وان كان مو	نقاً وآثرت ما يبقى برأي مصمم
واضررت بالغالي وشمرت للذي	امامك في يوم من الشر مظلم
ومالك اذ كنت الخليفة مانع	سوى الله من مال رعيت ولا دم
سما لك هم في الفؤاد مؤرق	بلغت به اعلى المعالي بسلم
فما بين شرق الارض والغرب كلها	مناد ينادي من فصيح واعجم
يقول امير المؤمنين ظلمتني	بأخذك ديناري واخذك درهمي
ولا بسط كف لامريء غير مجرم	ولا السفك منه ظالماً ملء محجم
ولو يستطيع المسلمون لقسموا	لك الشطر من اعمارهم غير ندم
فعشن بها ما حج لله راكب	ملب مطيف بالمقام وزمزم
فاربح بها من صفقة لمبايع	واعظم بها اعظم بها ثم اعظم [1]

(١) من المروي ايضاً انه امر بتلاوة هذه الآية بعد خطبة الجمعبدلا من الشتم(إن الله يأمر بالعدل والاحسان الى آخر الآية من سورة النحل) وفي رواية الآية من سورة الحشرالتي فيها (ربنا اغفرلنا ولاخواننا الذين سبقونا في الايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا .)

ومما يروى انه خير امرأته بين ان تقيم معه على انه لا فراغ له وبـــين ان تلحق بأهلها فبكت وبكى جواريها ثم اختارت المقام معه على اي حال . وانـــه كان لها ثوب منسوج بالذهب مطرز بالدر اهداه اليها ابوها عبد الملك وكلفه مئة الف دينار ، فقال لها اختاري بيني وبين هذا الثوب فلم تر بدأً من ان تتخلى له عن الثوب فباعه وصير ثمنه الى بيت المال .

ودخلت عليه زوجته يوماً وهو جالس في مصلاه ودموعه تسيل على خده فقالت له مالك فقال لها ويحك . اني قد وليت من امر هذه الامة ما وليت ، فتفكرت في الفقير الجائع والمريض الضائع ، والعاري المجهود، واليتيم المكسور ، والارملة الوحيدة والمظلوم المقهور . والاسير ، والشيخ الكبير ، وذي العيال الكثير والمال القليل واشباههم في اقطار الارض واطراف البلاد فقلت ان ربي سيسألني عنهم يوم القيامة ، وان خصمي دونهم محمد فخشيت ان لا تثبت لي حجة عند خصومته فرحمت نفسي فبكيت .

ولقد اثر عن زوجته قولها فيه : (ما رأيت احداً اكثر صلاة وصياماً منه . ولا احـداً اشد فرقاً من ربه منه كان يصلي العشاء ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه . ثم ينتبه فيبكي حتى تغلبه عيناه . ولقد يكون معي في الفراش فيذكر الشيء من امر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور في الماء ويجلس فيبكي فاطرح عليه اللحاف رحمة له . وانا اقول يا ليت كان بيننــا وبين الخلافة بعد المشرقين ، فوالله ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها .

وروى ابن كثير عزواً الى ابن عساكر انه كان يعجبه جارية من جواري زوجته ، وكان سألها اياها اما بيعاً واما هبة فكانت تأبى عليه ، فلما ولي الخلافة وهبتها له والبستها وطيبتها وادخلتها عليه فاعرض عنها فقالت له يا سيدي اين ما كان يظهر لي من محبتك ، فقال والله ان محبتك لباقية كما هي . ولكن جاءني امر شغلني فلم يبق لي حاجة في النساء ، ثم سألها عن اصلها فقالت انها من سبي المغرب اتى بها موسى بن نصير . فسألها ان كانت تود الرجوع فقالت بلى فأعتقها وامر بردها مكرمة الى بلادها واهلها .

ومما رواه كذلك انه امر جارية تروحه حتى ينام فروحته ، ثم اخذتهـا سنة من النوم فاستيقظ فأخذ المروحة من يدها وجعل يروحها ويقول اصابك من الحر ما اصابني .

ومما يروى ان عمر سأل خادمه ماذا يقول الناس ، فقال له كلهم بخير ، وانا وانت بشر .

قال وكيف ذلك فقال عهدتك قبل الخلافة عطراً لباساً فاره المركب طيب الطعـــام فلما وليت رجوت ان استريح واتخلص فزاد عملي شدة وصرت انت في بلاء . فقال له اذهب عني فأنت حر . ودعني وما أنا فيه حتى يجعل الله لي منه مخرجاً .

ويروى ان ميمون بن مهران قال كنت عند عمر بن عبد العزيز فكثر بكاؤه ومسألته ربه الموت فقلت له لم تسأل الموت وقد وضع الله على يديك خيراً كثيراً. أحيا سنناً وأمات بدعاً . فقال أفلا أكون مثل العبد الصالح الذي قال (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) [١] .

ولقد جاء مولى عمر الى ابنه عبد الملك فقـال له ان اباه يعتزم ان يرد كل فيئه الى بيت المال . وانه قال له ان هذا يضير به وباخوته وانه نهاه عنه . فقال له عبد الملك بئس وزير الخليفة انت ثم قام فدخل على ابيه وقال له ان مولاه مزاحم اجره بكذا وكذا فقال له اني اردت ان افعله عشية فقال لابيه عجل به فما يؤمنك ألا يحدث ما حدث . فرفع عمر يديه فقال الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على دينه . ثم قام من ساعته فرد نصيبه . وهذا مما يصدق عليه (الولد سر ابيه) .

ومن هذا الباب ما روي ان عبد الملك قال لابيه يا ابت ما لك لا تنـفذ الامور . واني لا ابالي لو ان القدر غلب بي وبك في الحق . فقال له عمر لا تعجل يا بني . فان الله ذم الخمر في القرآن مرتين ثم حرمها في الثالثة . وانا اخاف ان احمل الحق على الناس جملة فيدفعونه جملة ويكون من ذلك فتنة .

ومن هذا الباب ما روي من ان بني امية جاؤوا الى عمر حين تولى فأخبره الحاجب فقال وما يريدون . قـــال ما عودهم الخلفاء قبلك فقال له ابنه وهو في الرابعة عشرة إئذن لي في ابلاغهم عنك . قال وما تبلغهم . قال اقول لهم ان ابي يقرئكم السلام ويقول لكم اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم .

ولقد اثرت عنه نصوص كتب عديـدة لعماله متسقة مع ما عرف عنـه من ورع وتقوى

---

(١) هذا القول جاء في آية سورة يوسف (١٠١) على لسان يوسف عليه السلام .

وعدل . ومن كتبه المأثورة كتابه لعبد الرحمن القشيري والي خراسان جاء فيه :

(كن عبداً لله ناصحاً له في عباده . ولا تأخذك فيه لومة لائم . فان الله أولى بـك من الناس . وحقه عليك اعظم . ولا تولين من امور المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم والتوفير عليهم . وأد الامانة فيما استرعيت فيه . وإياك ان يكون ميلك الى غير الحق . فان الله لا تخفى عليه خافية . ولا تذهبن عن الله مذهباً . فانه لا ملجأ من الله إلا اليه) .

ومنها كتابه لعامل آخر جاء فيه (إذا دعتك قدرتك على مظلمة فاذكر قدرة الله عليك ونفاذ ما يأتي اليك وبقاء ما يكون عليك . واذا جاءك كتاب مني على غير الحق فاضرب به الارض) .

ومنها كتابه لوالي العراق وقد جاء فيه (اما بعد فان اهل الكوفة قد اصابهم بلاءوشدة وجور في احكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم عملاء السوء . وان قوام الدين العدل والاحسان فلايكن شيءأهم اليك من نفسك فلا تحملها قليلا من الاثم ولا تحمل خراباً على عامر وخذ منه ما طاق . واصلحه حتى يعمر . ولا يؤخذن من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الارض . ولا تأخذن اجور الضرابين ولا هدية النوروز والمهرجان . ولاثمن الصحف ولا اجور الفتوح . ولا اجور البيوت . ولا درهم النكاح . ولا خراج على من اسلم من اهل الذمة . فاتبع في ذلك أمري فاني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله) .

ومن كتبه الطريفة إلى عامله في المدينة وكان يراجعه في كل أمر (انه يخيل إلي اني لو كتبت لك ان تعطي رجلا شاةلكتبت لي اذكر ام انثى . ولو كتبت لك بأحدهما لكتبت لي صغيرة ام كبيرة . ولو كتبت لك بأحدهما لكتبت لي ضأناً ام معزاً . فاذا كتبت اليك فنفذ ولا ترد علي) .

ومن هذا الباب كتاب لعامل من عماله جاء فيه (اما بعد فقـد قل شاكروك وكثر شاكوك فاما اعتدلت واما اعتزلت والسلام) .

ومن ذلك كتابه الى يزيد بن المهلب والي خراسان جاء فيه (اما بعد فان سليمان كان عبداً من عبيد الله انعم عليه ثم قبضه واستخلفني ويزيد بن عبد الملك من بعده ان كان .وان الذي ولاني الله من ذلك وقدر لي ليس علي بهين . ولو كانت رغبتي في اتخاذ ازواج واعتقاد

اموال كان في الذي اعطاني من ذلك ما قد بلغ بي افضل ما بلغ بأحد من خلقه . وانا اخاف فيما ابتليت به حساباً شديداً ومسألة غليظة إلا ما عافى الله ورحم . وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك) .

وقد روى الطبري راوي نص الكتاب ان ابن المهلب القى بكتاب عمر الى ابي عيينة فلما قرأه قال لست من عماله . قال ولم . قال ليس هذا كلام من مضى من اهل بيته وليس يريد ان يسلك مسلكهم . فدعا يزيد الناس إلى البيعة فبايعوا ...

ومن ذلك كتابه الى والي خراسان جاء فيه (لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه . ولا تحدثن كنيسة ولا بيت نار . ولا تجر الشاة إلى مذبحها ولا تحدوا الشفرة على رأس الذبيحة . ولا تجمعوا بين الصلاتين إلا من عذر)

ومن ذلك كتابه لمتولي الخراج في خراسان وقد جاء فيه (ان للسلطان اركانا لا يثبت إلا بها . فالوالي ركن . والقاضي ركن . وصاحب المال ركن وانا ركن . وليس من ثغور المسلمين ثغر اهم إلي ولا اعظم عندي من ثغر خراسان . فاستوعب الخراج واحرزه في غير ظلم . فان يك كفافاً لاعطيات الناس فسبيل ذلك. والا فاكتب لي حتى احمل اليك الاموال فتوفر لهم اعطياتهم) وقد وجد المتولي الخراج يفضل عن الاعطيات فكتب الى عمر فأمره ان يقسم الفضل في اولي الحاجة .

ولقد كان عمر بن عبد العزيز يكره تجبر الولاة وغطرستهم . وكان يرى ذلك في يزيد بن المهلب والي خراسان والعراق واخوته ويقول انهم جبابرة . فلما صارت الخلافة اليه عزله . ثم وقع في يده كتاب منه الى سليمان بن عبد الملك يذكر فيه ان في يده عشرين الف الف [1] من الفيء فطالبه بها فأنكرها فأمر الوالي الجديد الذي عينه مكانه باعتقاله وارساله اليه ففعل فلما حضر جدد مطالبته بالمال فقال له اني كتبت لسليمان لأسمع الناس وقد علمت ان سليمان لم يكن ليأخذني بشيء فقال له اتق الله واد ما عليك فانها حقوق المسلمين ولا يغني تركها وامر بحبسه .

---

(١) هذا الرقم ذكره اليعقوبي انظر ج ٣ ص ٤٤ مطبعة الغرى اما الطبري فانه ذكر الخبر بدون رقم انظر تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣١٢

ويلحظ ان يزيد يتهم بمثل هذه التهمة للمرة الثانية وقد اتهمه الحجاج للمرة الاولى وطالبه بستة آلاف الف وحبسه على ما ذكرناه في سيرة الوليد بن عبد الملك .

وفي هذا صورة متكررة من صور الحكم . ولقد مرض عمر مرضه الذي مات فيه فدبر يزيد امره وفر من السجن وكتب الى عمر اني والله لو علمت انك تبقى ما خرجت من محبسي ولكني لم آمن يزيد فقال عمر اللهم ان كان يزيد يريد بهذه الامة شراً فاكفهم شره واردد كيده في نحره . وهذه هي المرة الثانية التي يفر فيها يزيد من الحبس . وقد فر المرة الاولى من سجن الحجاج في خلافة الوليد على ما مر ذكره في سيرته .

ومما روي في سياق سيرة عمر بن عبد العزيز انه علم بفشو استعمال النبيذ في العراق فكتب لعامله في البصرة والى اهل البصرة (اما بعد فان من الناس من شاب في هذا الشراب ويفشون عنده اموراً انتهكوها عند ذهاب عقولهم وسفه احلامهم فسفكوا له الدم الحرام وارتكبوا فيه الفروج الحرام والمال الحرام . وقد جعل الله عن ذلك مندوحة من اشربة حلال . فمن انتبذ فلا ينتبذ الا من اسقيته الادم (الجلد) واستغنوا بما احل الله عما حرمه . فانا من وجدناه شرب شيئاً مما حرم الله بعد ما تقدمنا اليه جعلنا له عقوبة شديدة . ومن استخف بما حرم الله عليه فالله اشد عقوبة له واشد تنكيلا) .

وكان يكتب لعماله قائلا (خذوا الناس بالسنة . فمن لم تصلحه السنة فلا اصلحه الله) .

ولقد كان عدي بن أرطاة عاملا من عماله في العراق فبلغه عنه ما يكره فكتب اليه (اما بعد فقد غرني بك مجالستك العلماء وعمامتك السوداء وارسالك اياها من وراء ظهرك . وانك احسنت العلانية فأحسنا بك الظن . وقد اطلعنا الله على كثير مما تعملون) ثم عزله وقال استعملنا اقواماً كنا نرى انهم ابرار اخيار فلما استعملناهم اذا هم يعملون عمل الفجار قاتلهم الله .

ومما اثر من اقواله (من عمل على غير علم كان ما يفسد اكثر مما يصلح . ومن لم يعد كلامه من عمله كثرت ذنوبه . والرضا قليل ومعول المؤمن الصبر . وما انعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه فأعاضه عما انتزع منه بالصبر إلا كان ما اعاضه خيراً مما انتزع منه والله يقول (انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب) .

ومن ذلك (ان احب الامور الى الله القصد في الجد . والعفو في المقدرة . والرفق في الولاية . وما رفق عبد بعبد في الدنيا إلا رفق الله به يوم القيامة) .

ومن ذلك (من علم ان كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . ومن اكثر من ذكر الموت اجتزأ من الدنيا باليسير . ومن لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه . ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسده اكثر مما يصلحه) .

ومن ذلك (افضل العبادة اداء الفرائض واجتناب المحارم) . ومنه (لو ان المرء يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى يحكم امر نفسه لتوا كل الناس الخير ولذهب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة) . ومنه (الدنيا عدوة اولياء الله . وولية اعداء الله . اما الاولياء فأغمتهم واحزنتهم . واما الاعداء فغرتهم وشتتتهم وابعدتهم عن الله) . ومنه (قد افلح من عصم من المراء والغضب والطمع) .وقال يوماً لرجل من سيد قومك قال انا . قال لو كنت كذلك لم تقله .

ومما اثر من دعائه (اللهم ان رجالا اطاعوك فيما امرتهم وانتهوا عما نهيتهم . اللهم وان توفيقك اياهم كان قبل طاعتهم اياك فوفقني) . ومن ذلك (اللهم ان عمر ليس بأهل ان تناله برحمتك ولكن رحمتك اهل ان تنال عمر) . ومنه (اللهم اصلح من كان في صلاحه صلاح لامة محمد . واهلك من كان في هلاكه هلاك لامة محمد) .

وتوفي رجل من اصحابه فجاء الى اهله ليعزيهم فيه فصرخوا في وجهه بالبكاء عليه فقال (مه . ان صاحبكم لم يكن يرزقكم . وان الذي يرزقكم حي لا يموت . وان صاحبكم لم يسد شيئاً من حفركم وانما سد حفرة نفسه . ألا وان لكل امرىء منكم حفرة لا بد والله ان يسدها . ان الله عز وجل لما خلق الدنيا حكم عليها بالخراب وعلى اهلها بالفناء . وما امتلأت دار خبرة إلا امتلأت عبرة . ولا اجتمعوا إلا تفرقوا حتى يكون الله هو الذي يرث الارض ومن عليها فمن كان منكم باكياً فليبك على نفسه فان الذي صار اليه صاحبكم كل الناس يصيرون اليه غداً) .

ولقد كان يجتمع كل ليلة مع اصحابه من الفقهاء فلا يذكرون إلا الموت والآخرة ثم يبكون . وكان كثيراً ما يتمثل بقول الشاعر :

فما تزود مما كان يجمعه   سوى حنوط غداة البين في خرق

وغير نفـــحة اعواد تشب له — وقل ذلك من زاد لمنطلق
بأيما بلد كانت منيته — ان لا يسر طائعاً في قصدها يسق

وبقول الشاعر :

ولا خير في عيش امرىء لم يكن له — مـــن الله في دار القرار نصيب
فان تعجب الدنيا اناساً فانهـــا — متاع قليل والزوال قريب

وقد اثر شعر من نظمه في هذه المعاني . منه :

انا ميت وعز من لا يموت — قـد تيقنت انني سأموت
ليس ملك يزيله الموت ملكاً — انما الملك ملك من لا يموت

ومنه :

تسر بما يفنى وتفرح بالمنى — كما اغتر باللذات في النوم حالم
نهارك يا مغرور سهو وغفلة — وليلك نوم والردى لك لازم
وسعيك فيما سوف تكره غبه — كذلك في الدنيا تعيش البهائم

ومنه :

أيقظان انت اليوم ام انت نائم — وكيف يطيق النوم حيران هائم
فلو كنت يقظان الغداة لحرقت — محاجر عينيك الدموع السواجم
بل اصبحت في النوم الطويل وقد دنت — اليك امور مفظعات عظائم
وتكدح فيما سوف تكره غبه — كذلك في الدنيا تعيش البهائم
فلا انت في النوام يومــاً بسالم — ولا انت في الايقاظ يقظان حازم

وقد اثر له خطب عديدة ، غير خطبته الاولى بعد البيعة التي اوردناها قبل . منها هذه الخطبة (ايها الناس لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمد عليه السلام ، اني لست بقاض ولكني منفذ ، ولست بمبتدع ولكني متبع ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخـالق ، واني لست بخير من احد منكم ولكني اثقلكم حملا) .

ومنها هذه (ايها الناس ، اصلحوا آخرتكم يصلح الله دنياكم ، واصلحوا اسراركم يصلح

لكم علانيتكم ، والله ان عبداً ليس بينه وبين آدم أب إلا قد مات ، انه لمعرق في الموت) .

ومنها هذه (كم من عامر موثق عما قليل يخرب ، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن . فأحسنوا رحمكم الله من الدنيا الرحلة بأحسن ما يحضر بكم من النقلة ، فان الدنيا لا تسر بقدر ما تضر) .

ومنها هذه (ايها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فليفارقنا ، يرفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهده ، ويدلنا على الخير على ما لا نهتدي اليه ، ولا يغتابن أحداً عندنا ، ولا يعرضن فيما لا يعنيه) .

وعلق راوي هذا النص عليه فقال (فانقشع عنه الشعراء والخطباء وثبت معه الفقهاء والزهاد) .

ومنها هذه (ان لكل سفر زاداً لا محالة ، فتزودوا من دنياكم لآخرتكم بالتقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه ، فترهبوا وترغبوا ، ولا يطولن عليكم الامد فتقسو قلوبكم وتنقاد لعدوكم ، فانه ما بسط امل من لا يدري لعله لا يصبح بعد إمسائه او يمسي بعد إصباحه ، وربما كانت بعد ذلك خطرات المنايا ، وانما يطمئن الى الدنيا من امن عواقبها ، فان من يداوي من الدنيا كلما الا اصابت جراحة من ناحية اخرى فكيف يطمئن اليها ، اعوذ بالله ان آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي ، وتظهر عيلتي ، وتبدو مسكنتي في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق) ثم بكى وبكى الناس معه .

ومنها (ايها الناس من وصل اخاه بنصيحة له في دينه ونظر له في صلاح دنياه فقد احسن صلته وادى واجب حقه ، فاتقوا الله فانها نصيحة لكم في دينكم فاقبلوها وموعظة منجية في العواقب فالزموها ، الرزق مقسوم فلن يغدر المؤمن ما قسم له ، فاجملوا في الطلب فان في القنوع سعة وبلغة وكفافاً ، ان اجل الدنيا في اعناقكم ، وجهنم امامكم، وماترون ذاهب ، وما مضى فكأن لم يكن ، وكل اموات عن قريب ، وقد رأيتم حالات الميت ، والقوم حوله يقولون قد فرغ رحمه الله ويستعجلون اخراجه وقسمة تراثه ، ووجهه مفقود ، وذكره منسي ، وبابه مهجور وكأن لم يخالط اخوان الحفاظ ولم يعمر الديار ، فاتقوا هول يوم لا تحقر فيه مثقال ذرة في الموازين .

وكانت آخر خطبه في خناصره وقد جاء فيها (ايها الناس ، انكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى،وان لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم ، وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، وحرم الجنة التي عرضها السماوات والارض ، ألا واعلموا انما الامان غداً لمن حذر الله وخافه . وباع نافداً بباق ، وقليلا بكثير ،وخوفاً بأمان ، ألا ترون انكم في اسلاب الهالكين . وسيخلفها بعدكم الباقون وكذلك حتى ترد الى خير الوارثين ، وفي كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً الى الله قد قضى نحبه وانقضى اجله فتغيبونه في صدع من الأرض ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد ، قد فارق الاحبة وخلع الأسباب فسكن التراب وواجه الحساب ، فهو مرتهن بعمله ، فقير الى ما قدم ، غني عما ترك ، فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء مواقعه ، وايم الله اني لاقول لكم هذه المقالة وما اعلم عند احد منكم من الذنوب اكثر مما عندي فاستغفر الله واتوب اليه ، وما منكم من احد تبلغنا عنه حاجة إلا احببت ان اسد من حاجته ما قدرت عليه . وما منكم احد يسعه ما عندنا الا وددت انه ساواني ولحمتي حتى يكون عيشنا وعيشه سواء ، وايم الله ان لو اردت غير هذا من الغضارة والعيش لكان اللسان مني به ذلولا عالماً بأسبابه ، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق ، وسنة عادلة يدل فيها على طاعته ، وينهى عن معصيته) . ثم رفع طرف ردائه فلم يخطب بعدها حتى مات .

ويروى انه كان يأمر منادياً ينادي كل يوم اين الناكحون ، اين المساكين ، اين الايتام ، فكان يعطي كل من يأتي من هؤلاء ما هو في حاجة اليه كما روي انه رتب لمن ينقطع للفقه وتلاوة القرآن ونشر العلم مرتباً سنوياً .

ولقد طلب من واليه في خراسان ان يرسل اليه وفداً فيه عرب وموال للسؤال عن حالة البلاد والناس فأرسل اليه الوفد فتكلم العربي والمولى ساكت وعليه علائم الصلاح فطلب منه ان يتكلم فقال له يا امير المؤمنين ان عشرين الفاً من الموالي المسلمين يغزون بلا عطاء ولا رزق . وان مثلهم قد اسلموا من اهل الذمة لا يزال يؤخذ الخراج اي الجزية منهم .واميرنا عصبي شديد الجفاء لا نجرأ على الكلام معه وهو سيف من سيوف الحجاج وهو كثير الاعتداد بقومه . فكتب الى عامله يوبخه ويأمره باحسان سلوكه واعطاء المسلمين رزقهم سواء اكانوا عرباً او موالي ويقول له فيما يقول انظر الى من صلى الى القبلة فضع عنه الجزية . فصدع بالامر فسارع الناس الى الاسلام فقيل للوالي ان الناس انما اسلموا نفوراً من الجزية فامتحنهم

بالختان فكتب لعمر يستأذنه بذلك فكتب له ان الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً ولا خاتناً . ثم كتب لولاته باعلان سقوط الجزيه عن كل من اسلم فكان ذلك سبباً لفشو الاسلام في ما وراء النهر وغيرها[1] .

ولقد كتب اهل سمرقند الى عمر حينما علموا بعدله وانصافه يستأذنونه في ارسال وفد يرفع ظلامتهم إليه فأذن لهم فجاء وفدهم وشكا ان قتيبة بن مسلم أخرجهم من ارضهم وتحامل عليهم وطلب منه العدل والانصاف .

فكتب عمر الى واليه يأمره ان يجلس لهم القاضي وينظر في امرهم فان قضى لهم فأعدهم الى ارضهم كما كان امرهم قبل ان يظهر قتيبة عليهم . فأجلسهم العامل الى القاضي فبسطوا له قضيتهم فقضى القاضي ان يخرج العرب الذين سكنوا في ارضهم الى معسكرهم ويعود اهلها الى ارضهم ثم يتنابذون على سواء فيكون صلحاً جديداً او ظفراً وعنوة ، فحسب الشاكون حساب العواقب وقنعوا بما صار امرهم إليه .

وكتب الى ملوك السند يدعوهم الى الاسلام ويبسط لهم مبادئه فاستجابوا واسلموا وتسموا باسماء اسلامية .

ويروى حادث مماثل عن مصر حيث كتب عاملها حيان بن شريح الى عمر بن عبد العزيز (إن الاسلام قد اضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار اتممت بها عطاء اهل الديوان ، فان رأى امير المؤمنين ان يأمر بقضائها فعل) .

---

(١) ان بعض المغرضين من اعداء الاسلام عدوا مثل هذا الاعلان **اغراء** وقالوا ان الذين اسلموا انما اسلموا بتأثيره وليس عن صدق وايمان وتصديق.

والروايات تكذب ذلك حيث تروي كما اوردنا ذلك في المتن ان اسلام الذين اسلموا قد سبق رفع الجزية وان الشكوى انما كانت من ابقائها بعد اسلامهم ، وقد تصدى غير واحد من المستشرقين المنصفين مثل ارنولد توماس مؤلف كتاب تاريخ الدعوة في الاسلام وبتلر مؤلف كتاب فتح العرب لمصر لهذه المزاعم ففندوها تفنيداً قوياً ، ومما قالوه وهو حق ومفحم ان الذين يتركون دينهم للخلاص من جزية طفيفة لا يكون لهذا الدين في قلوبهم اي جذور وقوة .

وعلى كل حال فليس بضائر للاسلام شيئاً ان يكون اسقاط الجزية عن الذميين سبباً من اسباب اقبالهم على الاسلام بل وان يكون ذلك وسيلة اليه ايضاً .

فكتب اليه عمر (اما بعد فقد بلغني كتابك . وقد وليتك مصر وانا عارف ضعفك وقد امرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً فضع الجزية عمن اسلم قبح الله رأيك . فان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً ، ولعمري لعمر أشقى من ان يدخل الاسلام الناس كلهم على يديه[1] .

ويروي مؤلف النجوم الزاهرة نص كتاب ارسله ملك الهند والسند الى عمر نوه به على علاته جاء فيه : (من ملك الهند والسند ملك الاملاك الذي هو ابن الف ملك وتحته ابنة الف ملك والذي في مملكته نهران ينبتان العود والكافور والألكرة التي يوجد ريحها من اثني عشر فرسخاً والذي في مربطه الف فيل وتحت يده الف ملك الى ملك العرب عمر بن عبد العزيز . اما بعد فان الله قد هداني الى الاسلام فابعث الي رجـــلا يعلمني الاسلام والقرآن وشرائع الاسلام ، وقد اهديت لك هدية من المسك والعنبر والند والكافور فاقبلها فانما انا اخوك في الاسلام والسلام)[2] .

وفي زمن عمر دان كثير من البربر في شمال افريقية بالاسلام .

وقد روى ابن الاثير في صدد ذلك ان عمر عين اسماعيل بن عبد الله والياً على افريقية وكان حسن السيرة فأسلم البربر في ايامه جميعهم وكان ذلك سنة ١٠٠ هـ وكانت وفاة عمر في دير سمعان لخمس بقين من رجب سنة ١٠١ ودفن حيث توفي وقد اثرت مراث عديدة فيه منها لكثير عزة قال :

عمت صنائعه فعم هلاكه	فالناس فيه كلهم مأجور
والناس مأتمهم عليه واحد	في كل دار رنـة وزفير
يثني عليك لسان من لم توله	خيراً لأنك بالثناء جـدير
ردت صنائعه عليه حياته	فكأنه من نشرها منشور

ومنها لجرير قال :

ينعى النعاة امير المؤمنين لنا	ياخير من حج بيت الله واعتمرا
حملت امرا عظيما فاضطلعت به	وسرت فيه بأمر الله يا عمرا
الشمس كاسفة ليست بطالعة	تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

---

(١) المقريزي ج ١ ص ٧٨ رواية جرجي زيدان في تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٢٥ .
(٢) ج ١ ص ٢٤٠ .

ومنها لشاعر لم يذكر اسمه قال :

اقول لمـــا نعى الناعون لي عمرا — لا يبعدن قوام العـــدل والدين
قد غادر القوم باللحد الذي لحدوا — بدير سمعان قسطاس المـوازين

ومنها لمحارب بن دثار قال :

لو اعظم الموت خلقاً ان يواقعـه — لعـــدله لم يصبك الموت يا عمر
كم من شريعة عدل قد بعثت لهم — كادت تموت واخرى منك تنتظر
يا لهف نفسي ولهف الواحدين معي — على العدول التي تغتالهـــا الحفر
ثلاثة مــا رأت عيني لهـــم شبهاً — تضم اعظمهم في المسجد الحفـر
وانت تتبعهم لم تـأل مجتهـــدا — سقياً لهـــا سنن بالحـــق تفتقر
لو كنت املك والاقدار غالبـة — تأتي رواحاً وتبياناً وتبتكر
صرفت عن عمر الخيرات مصرعـــه — بدير سمعان لكن يغلب القدر

ومن احسن ما اثني عليه بسبب ما كان عليه من اخلاق ودين وتقوى وسيرة عادلة صالحة ما رواه ابن كثير حيث دخل عليه رجل فقال له يا امير المؤمنين ان من كان قبلك كانت الخلافة لهم زين وانت زين الخلافة ، وانما مثلك يا امير المؤمنين كما قال الشاعر :

واذا الدر زان حسن الوجـــوه — كان للدر حسن وجهك زينـــا

ومما رواه ابن كثير ان عمر بن الوليد جاء الى يزيد بن عبد الملك الذي خلف عمر فقال له ان هذا المرائي — يعني عمر بن العزيز — قد خان من المسلمين كل ما قدر عليه من جوهر نفيس ودر ثمين في بيتين في داره مملوئين وهما مقفلان . فأرسل يزيد الى اخته زوجـــة عمر يسألها عن ما تركه زوجها فقالت انه لم يترك سبداً ولا لبداً الا ما في هذا المنديل وارسلته اليه فحله فوجد فيه قميصاً غليظاً مرقوعاً ورداء قشباً وجبة محشوة غليظة واهنة البطانة فأرسل اليها انما اسأل عما في البيتين فقالت له لم ادخلها منذ ولي الخلافة وارسلت اليه مفاتيحها ففتح احدهما فاذا فيه كرسي من أدم واربع أجرات مبسوطات عند الكرسي وقمقم ، ثم فتح الثاني فوجد فيه مسجداً مفروشاً بالحصى وسلسلة معلقة بسقف البيت فيها كهيئة الطوق بقدر ما يدخل الانسان رأسه فيها الى ان تبلغ العنق حيث كان اذا فتر عن العبادة او ذكر بعض

ذنوبه وضعها في رقبته وربما كان يضعها إذا نعس لئلا ينام ووجدوا صندوقاً مقفلا ففتحوه فاذا فيه دراعة وتبان من مسوح غليظ ، فبكى يزيد ومن معه وقال يرحمك الله يا اخي ان كنت لنقي السريرة نقي العلانية ، وخرج عمر بن الوليد وهو مخذول يقول استغفر الله انما قلت ماقيل لي .

ومن عجيب ما رواه ابن الاثير ان عمر لما عين السمح بن مالك الخولاني والياً على الأندلس طلب منه تمييز ارضها واخراج ما اخذ منها عنوة . ثم طلب منه ان يصف له بلاد الاندلس ففعل واقترح عليه اقفال العرب عنها لانقطاعها عن المسلمين ، وكاد عمر ان يأخذ باقتراحه ثم عدل عنه [1] .

وقد روي انه مات مسموماً وان مولى له دس في شرابه السم مقابل الف دينار اعطيت له وانه شعر بذلك فاستدعى مولاه وسأله ما حملك ويحك على ما صنعت فقال الف دينار اعطيتها فقال هاتها فأخذها ووضعها في بيت المال ثم قال له اذهب حيث لا يراك احد فتهلك .

اما سبب ذلك المروي فهو موقف عمر من جماعة من الخوارج حيث خرجت في زمنه خارجة بزعامة شخص اسمه شوذب او بسطام فكتب الى عامله بالكوفة ان لا يحركهم إلا اذا سفكوا دماً او افسدوا في الارض وان يرسل بعثاً لمراقبتهم .

ثم كتب الى زعيمهم يقول له بلغني انك خرجت غضباً لله ولرسوله ولست اولى مني بذلك فهلم الي اناظرك فان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل الناس فيه والا نظرنا في الامر فقال الزعيم لقد انصفنا ثم ارسل اليه رجلين فوافياه في خناصره حيث كان يقيم فسألهم عن مخرجهم وما ينتقمونه فقالوا ما نقمنا سيرتك . إنك تتحرى العدل والاحسان . فهل قمت بهذا الامر عن رضا الناس ومشورة ام ابتزازاً . فقال لهم ما سألت الناس الولاية ولا غلبت عليها ، وانما عهد الى رجل فقمت فلم ينكر علي احد . وانتم ترون الرضا بكل عدل فاتركوني فان خالفت الحق فلا طاعة لي عليكم . فطلبوا منه لعن من سبقه من بني امية والبراءة منه لظلمهم فقال لهم انكم لم تخرجوا طلباً للدنيا ولكنكم اردتم الآخرة فأخطأتم طريقها . ان الله لم يبعث رسوله لعاناً . وقال ابراهيم (فمن يتبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم) وانا مأمور بالاقتداء بهم . فسألوه اتسلم الامر الى يزيد من بعدك وانت تعرف انه لا يقوم فيه بالحق .

---

(١) ج ٥ ص ١٨٠ وبعدها.

فقال انما ولاه غيري . والمسلمون اولى بما يكون منهم فيه بعدي ، فقالوا ارأيت لو وليت لغيرك ثم وكلته الى غير مأمون عليه هل تكون اديت الأمانة الى من ائتمنك فسكت ثم قال انظراني ثلاثاً ، فخرجا من عنده وخاف بنو مروان ان يخرج ما عندهم وفي ايديهم من الاموال وان يخلع يزيد فدسوا له من سقاه السم فلم يلبث ان مات بعد ثلاثة ايام .

وهذه القصة وردت كما رويناها موجزاً في تاريخي الطبري وابن الاثير [1] وخبر مناظرة عمر مع الخوارج مروى فى الامامة والسياسة ولكن هذا الكتاب يذكر خبر موت عمر موتاً طبيعياً ونتيجة لدعاءرجل صالح الح عليه عمر بأن يدعو الله بقبضه اليه [2] وخبر دس السم له ورد مقتضباً في العقد الفريد [3] وخبر المناظرة وارد في مروج الذهب [4] . دون السم . وسياق الكتاب يفيد ان عمر مات موتة طبيعية بعد خمسة عشر يوماً من المناظرة .

ومما رواه مؤلف مروج الذهب والامامة والسياسة معاً ان احد رجلي وفدالخوارج واسمه الحبسي قال ما سمعت كاليوم قط حجة أبين واقرب مأخذاً من حجتك واشهد انك على الحق ثم بقي الرجل في جوار عمر حتى مات .

ومهما يكن من امر فان خبر مكاتبة عمر للخوارج ومحاورته لهم محتمل الصحة . وهو متسق مع ما تواتر عنه من اخلاق وسيرة . اما مسألة دس بني مروان السم له فقد تتحمل التوقف ، ولا سيما ان من الكتب القديمة ما يروي ما ينقضها .

ومما روي ان بعض اخصاء عمر قالوا له حين عرف انه دس اليه السم تدارك امرك فقال والله لو ان شفائي ان امس شحمة اذني او اوتى بطيب فاشمه ما فعلت فقيل له هؤلاء بنوك — وكانوا اثني عشر — الا توصي لهم بشيء فانهم فقراء فقال : (ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) والله لا اعطيتهم حق احد . وهم بين رجلين . اما صالح فالله يتولى الصالحين . واما غير صالح فما كنت لاعينه على فسقه ، وحينما حضرته الوفاة قال اجلسوني فأجلسوه فقال الهي انا الذي امرتني فقصرت ونهيتني فعصيت ثلاثاً ولكن لا اله الا الله . ثم رفع رأسه فأحد النظر فقالوا انك لتنظر نظراً شديدا يا امير المؤمنين فقال اني لاري

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٣١٠ — ٣١١ وابن الاثير ج ٥ ص ١٧ — ١٨ .

(٢) ج ٢ ص ١٠٧ — ١٠٥ . (٣) ج ٣ ص ١٧٨ . (٤) ج٣ص ١٢٥ — ١٢٨ .

حضرة ما هم بانس الآجال . ثم قبض من ساعته . وروي عن رجاء بن حياة قال كان عمر يوصي الي ان اغسله واكفنه فاذا حللت عقدة الكفن ان انظر في وجهه . ففعلت فاذا وجهه مثل القراطيس بياضاً ، وكان اخبرني انه كل من دفنه قبله من الخلفاء وكان يحل عن وجوههم فاذا هي مسودة .

وقد روي عن عبد العزيز بن ابي سلمه ان عمر بن عبد العزيز لما وضع في قبره هبت ريح شديدة فسقطت صحيفة بأحسن كتاب فقرأوها فاذا فيها (بسم الله الرحمن الرحيم ، براءة من الله لعمر بن عبد العزيز من النار فادخلوها بين اكفانه ودفنوها معه .

وروي عن عمير بن حبيب السلمي انه كان اسيرا من بلاد الروم اطلق سراحه وكان رفاق له قد قتلوا في بلاد الروم فلما كان في طريق عودته رأى اصحابه على دواب شهب ومعهم آخرون فقال له او ليس قد قتلتم . قالوا بلى ولكن الله عز وجل نشر الشهداء واذن لهم ان يشهدوا جنازة عمر بن عبدالعزيز .

ومما روي عن موسى بن ايمن الراعي وكان يرعى الغنم لمحمد بن عيينة انه قال كانت الاسد والغنم والوحش ترعى في موضع واحد في خلافة عمر بن عبد العزيز فعرض ذات يوم ذئب لشاة فقلت انا لله ، ما ارى الرجل الصالح الا هلك ، فحسبنا الايام فوجدناه قد هلك في تلك الليلة .

ومن روايات ابن الاثير ان رباح بن عبيدة رأى عمر خرج يوماً وشيخ متوكىء على يده فلما رجع قال له اصلح الله الامير من الشيخ . قال أرأيته . قال نعم ، قال ذاك اخي الخضر اعلمني اني سألي امر هذه الامة واني سأعدل فيها .

وفي جل هذه الروايات ان لم نقل كلها ما لا يصح عقلا ولا نقلا . ومنها ما يظهر عليه قصد تسويء سيرة خلفاء بني امية الآخرين .

٩ـ يزيد الثاني بن عبد الملك (١)

•

تولى الحكم وعمره ٢٩ سنة . وروى ابن كثير عن صفته انه كان طويلا جسيماً ابيض مدور الوجه . وعن اخلاقه انه كان شاباً مقداماً جميل المأخذ متواضعاً معتدلا مهذباً يكثر من مجالسة العلماء . وقال ان بعضهم اتهمه في دينه وان هذا غير صحيح وان المقصود من ذلك يزيد الثالث . وقال ابن قتيبة انه تحول عن اخلاقه الحسنة بعد ولايته حتى كرهه الناس وهم بعضهم بخلعه . وقد انتصر له عمه محمد بن مروان واعتقل المتآمرين عليه ودس لهم السم وأغرم ثلاثين شخصاً من قريش كان لهم ضلع في المؤآمرة بمائة الف الف وعقر اموالهم . ولعل تهمة الانحراف قد الصقت به واشيعت عنه من قبل المتآمرين عليه .

ومما أثر عنه ان والي المدينة ضرب شخصاً حدين فشكا هذا امره الى يزيد بعد عزل الوالي فكتب الوليد الى الوالي الجديد يقول انظر في الامر فان كان ضربه في امر بين فلا تلتفت إليه وان كان ضربه في امر يختلف عليه فلا تلتفت اليه وان كان ضربه في غير ذلك فأقده منه . وهذا الحادث يدل على عقل وانصاف . وكان يود ان يجعل ولاية العهد لابنه الوليد الذي لم يكن قد بلغ الحلم فنصحه اخوه مسلمة بجعل اخيه هشاماً ولياً لعهده ويكون ابنه بعده فعمل بالنصيحة .

وهذا ايضاً يدل على رجحان العقل فيه وحسن نظره في مصلحة الدولة والمسلمين . ولقد نسب اليه كتاب كتبه لعماله جاء فيه (اما بعد فان عمر كان مغروراً . غررتموه انتم وأصحابكم . وقد رأيت كتبكم اليه في انكسار الخراج والضريبة . فاذا اتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفونه من عهده . واعيدوا الناس طبقتهم الاولى اخصبوا ام اجدبوا . احبوا ام كرهوا . حيوا ام ماتوا والسلام .) ونحن نشك في نسبة هذا الكتاب اليه لأنه لا

---

(١) النبذة مقتبسة من الامامة والسياسة ج ٢ ص ١١٢ وبعدها تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٢٤ وبعدها والعقد الفريد ج ٣ ص ١٧٩ ومروج الذهب ج ٣ ص ١٣١ وبعدها والبداية والنهاية ج ٩ ص ٣٢٤ وبعدها وابن الاثير ج ٥ ص ٢٥-٤٦

يتسق مع عقل وحق ودين ومناقض لما وصف به يزيد من ذلك .

ومما روى ان والي المدينه في زمنه عبد الرحمن الضحاك خطب فاطمة بنت الحسين فقالت له مااريد النكاح وقد قعدت على بني فألح عليها وهددها بجلد اكبر ابنائها في الخمر فبعثت كتاباً الى يزيد تشكو الوالي وتذكر قرابتها ورحمها وطلبت من كاتب ديوان المدينة التي مر عليها ليودعها لانه ذاهب الى الشام ان يخبر يزيد بما تلقاه من الضحاك فلما دخل الكاتب استخبره يزيد عن المدينة واحوالها فنسي ان يذكر لهشكوى فاطمة . ودخل الحاجب في هذه اللحظة فاخبر يزيد ان فيالباب رسولا من فاطمة فتذكر الكاتب وقال أصلح الله الامير إن فاطمة حملتني يوم خرجت رسالة اليك وأخبره الخبر . فنزل يزيد من على فراشه وقال للكاتب لا أم لك هذا الخبر معك ولا تخبرنيه . فاعتذر بالنسيان ثم اذن للرسول فدخل وسلمه الكتاب فلما قرأه جعل يضرب بخيزران في يديه ويقول لقد اجترأ ابن الضحاك فهل من رجل يسمعني صوته في العذاب وأنا على فراشي فقيل له عبد الواحد النضري عامل الطائف . فكتب اليه (أما بعد فقد وليتك المدينة فاهبط واعزل عنها ابن الضحاك واغرمه اربعين الف دينار وعذبه حتى اسمع صوته وانا على فراشي .

وحمل البريد الرسالة . فلما وصل المدينة لم يدخل على ابن الضحاك فأوجس هذا خيفة فأرسل اليه ووعده بالف دينار إن هو أخبره بوجهته .

فأخبره فادرك الخطر فاستنظره ثلاثة ايام ثم خرج الى الشام ونزل على مسلمة بن عبد الملك وقال له أنا في جوارك . فطمأنه ثم غدا على اخيه فقال له لي عندك حاجة فقال له كل حاجاتك مقضية إلا ابن الضحاك فلا اعفيه ابداً وقد فعل ما فعل ثم رده الى المدينة وأمر النضري بتنفيذ ما امر به ففعل .

ولقد وصف يزيد بفصاحة اللسان وذكر انه كان ينظم الشعر وقد اثر من شعره هذا البيت :

إذا انت لم تعص الهوى قادك الهوى الى كل ما فيه عليك مقال

وفي هذا ما فيه من حكمة وسداد .

ولقد أثرت مساجلة جرت بينه وبين هشام اخيه هي من الطرف الادبية فضلا عما فيها من صور الحياة . فقد بلغ يزيد ان هشاماً يتنقصه فكتب اليه ان مثلي ومثلك كما قال الشاعر :

تمنى رجال ان اموت وإن امت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
لعل الذي يبغي رداي ويرتجي به قبل موتي ان يكون هو الردي

فكتب اليه هشام ان مثلي ومثلك كما قال الشاعر :

ومن لم يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
ومن يتبع جاهداً كل عثرة يجدها ولا يبقى له الدهر صاحب

فكتب له يزيد : نحن مغتفرون ما كان . ومكذبون ما بلغنا عنك . مع حفظ وصية ابينا وما حض عليه من صلاح ذات البين . وإني لاعلم انك كما قال معن بن اوس :

لعمري ما ادري ولا انا واجد على اينا تعدو المنية اول
وإني على اشياء منك تريبني قديماً ولا صلح على ذاك يجمل
ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتني يمينك فانظر اي كف تبدل
إذا سؤتني يوماً رجعت الى غد ليعقب يوماً منك آخر مقبل
إذا انت لم تنصف اخاك وجدته على طرف الهجران ان كان يعقل
ويركب حد السيف من ان تضيمه إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل
وفي الناس ان رثت حبالك واصل وفي الارض عن دار القلى متحول

فلما جاء هشام كتاب يزيد رحل اليه فلم يزل في جواره الى ان مات مخافة اهل البغي والفساد .

وفي عهده كانت حركة شوذب الخارجي وتمرد يزيد بن المهلب فوقف ازاء ذلك موقفاً قوياً حازماً . على ما سوف نذكره في مناسبات اخرى . وقد استمرت في عهده كذلك حركات الجهاد والفتوح فيما وراء النهر من الانحاء التركية .

ومما يروى أن البربر في بلاد المغرب تمردوا على واليهم يزيد بن ابي مسلم لأنه حاول ان يسير فيهم بسيرة الحجاج الذي كان كاتباً عنده واراد فيما اراد ان يجبي الجزية ممن اسلم

منهم وان يرد من جاء من القرى والرساتيق الى قراهم ورساتيقهم فقتلوه وولوا مكانه الوالي الذي كان عليهم قبل وهو محمد بن يزيد . وكتبوا ليزيد انا لم نخلع ايدينا من الطاعة ، ولكن يزيد بن ابي مسلم سامنا ما لا يرضى الله والمسلمون فقتلناه واعدنا عاملك . فقابل هذا الحدث بالحكمة والتفهم وكتب اليهم اني لم ارض ما صنع يزيد بن ابي مسلم ثم اقر الوالي الذي اعادوه .

ومما روي عنه وفيه صورة من صور الحكم ان اخاه مسلمة بن عبد الملك كان والياً على العراق وخراسان في عهد يزيد فلم يكن يرفع من الخراج شيئاً فاستعظم يزيد ذلك واستحيا في نفس الوقت من ان يكتب اليه بالعزل فكتب اليه ان استخلف على عملك واقبل علي . ثم عين عمر بن هبيرة وارسله ليتسلم مكانه .

ومما روي عنه انه كتب الى عامله بمصر ثم الى عماله في الامصار بكسر الاصنام والتماثيل فكسرت ومحيت من ديار مصر وغيرها [1] .

والروايات متفقة على انه كان كلفاً بجاريتين له اسم احداهما سلامة وثانيتها حبابة . وقد كانتا متأدبتين ظريفتين تجيدان الغناء فضلا عن جمالها فكان يقضي جانباً كبيرا من وقته معهما وقد روي ان اخاه مسلمه عذله فارتدع ثم عاد .

وقد روي من امره مع حبابة انه اشتراها في خلافة سليمان باربعة آلاف دينار فلما بلغ سليمان الخبر قال هممت ان احجر على يزيد ، فرد يزيد حبابة فاشتراها رجل من اهل مصر . فلما صار الحكم اليه قالت لهزوجته سعدى يا امير المؤمنين هل بقي من الدنيا شيء تتمناه بعد قال نعم (حبابة) فأرسلت رجلا الى مصر فاشتراها لها ثم هيئتها ووضعتها خلف ستار واعادت عليه السؤال فأعاد عليها الجواب فرفعت الستار وقالت هـــذه حبابة ، فسر سرورا عظيما واعظم فعل زوجته معه فاكرمها وحباها ، ومما يروى ان حبابة غنته يوماً هذا الصوت :

بين التراقي واللهـاة حرارة ما تطمئن وما تسوغ فتبرد

فطرب طرباً عظيما حتى قال دعوني اطير . فقالت له ان لنا فيك حاجة ، أو على مـــن

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٥٠ .

تترك المسلمين يا امير المؤمنين في رواية اخرى . ولقد مرضت حبابة ثم ماتت .

ويروى انها شرقت بحبة عنب رماها بها في جلسة فكان في ذلك حتفها وقد جزع عليها جزعاً شديدا وظل يلازم جثتها اياماً حتى جيفت ثم ظل يلازم قبرها بعد دفنها حتى برح به الحزن فألحقه بها .

ومما اثر له في رثاء حبابة :

فان تسل عنك النفس او تدع الصبا فباليأس تسلو عنك لا بالتجلد
وكل خليل زارني فهو قائل من اجلك هذا هامة اليوم اوغد

وكان يتمثل بهذا البيت ايضاً :

كفى حزناً بالهائم الصب ان يرى منازل من يهوى معطلة قفرا

وقد روي ان سلامة رثته بهذه الابيات :

لا تلمنا ان خشعنا او همنا بالخشوع
قد لعمري بت ليلي كأخي الداء الوجيع
ثم بات الهم مني دون من لي من ضجيع
للذي حل بنا اليوم من الامر الفظيع
كلما ابصرت ربعاً خالياً فاضت دموعي
قد خلا من سيد كان لنا غير مضيع

وقد يكون لهذه المرويات اصل وان كنا نرجح انها شيبت بمبالغة وصنعة . وهي في اصلها متسقة مع الطبيعة البشرية كما هو المتبادر .

وتروي الروايات انه كان مغرماً باستماع الغناء وكان يستدعي المغنين من المدينة ليسمع غناءهم وكان يغدق عليهم الجوائز ، وانه كان يشرب الشراب في مجالس غنائه .

ونقول في هذه الروايات ما قلناه في الروايات السابقة :

١٠ ــ هشام بن عبد الملك [(١)]

تولى الخلافة وعمره ٣٤ سنة . وروي عن صفته أنه كان ابيض جميلا في عينيه حول . وعن اخلاقه أنه كان حازماً مدبراً ذكياً بصيراً بالامور جليلها وحقيرها . وفيه حلم وأناة . وروي عن عقال بن شبه قوله فيه (دخلت على رجل محشو عقلا) وعن ابي الحسن المدائني قولـــه فيه (إنه لم يكن من ولد عبد الملك أكمل من هشام)

وروي عن المدائني ايضـــاً ان المنصور العباسي كان في اكثر اموره وتدبـــيره وسياسته متبعاً لهشام لما كان عليه من سداد وصواب) وعن غسان بن عبد الحميد قوله (لم يكن أحد من بني مروان أشد حصراً في امر اصحابه ودواوينه ولا اشد مبالغة في الفحص عنهم من هشام) . وعن عبد الله بن علي العباسي قولـــه (جمعت دواوين بني امية فلم ار ديواناً اصح ولا أصلح للعامة والسلطان مـــن ديوان هشام)

ولقد روى ابـــن قتيبة وصفاً رائعاً لملك هشام وأخلاقه وسيرته وحياته وعقله وحرصه واهتمامه للحق والعدل ويقظته لكل صغيرة وكبيرة حيث روى عن شبيب بـــن شيبة ان خالداً بـــن صفوان بـــن الأهتم قال اوفدني يوسف بـــن عمر والي العراق الى هشام في وفد العراق فقدمت عليه وقد خرج منتبذاً في قرابته وحشمه وحاشيته مـــن اهـــله في وادي الرصافة فنزل في ارض قاع صحصح افيح في يوم قد بكر وسميه وقد ألبست الارض انواع زهرتها واخرجت الوان زينتها . وقد ضرب له سرادقات من حبرات اليمن مزرورة بالذهب والفضة وضرب لـــه فسطاطه في وسطه فيه اربعة افرشة من خز احمر مثلها مرافقها

---

(١) هذه النبذة مقتبسة من الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ١١٣ وبعدها وتاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٧٤ وبعدها والعقد الفريد ج ٣ ص ١٨٢ وبعدها ومروج الذهب ج ٣ ص ١١٣ وبعدها والبداية والنهاية ج ٩ ص٢٣٣ وبعدهـــا وابن الاثير ج ٥ ص ٤٦ - ٩٧ وتاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٥٧-٧٠

وعليها دراعة خز احمر وعمامه مثلها وضربت حجر نسائه من وراء سرادقه وعنده اشراف قريش وقد ضربت حجر بنيه وكتابه وحشمه بقرب فسطاطه ثم امر حاجبه الربيع فأذن للناس إذناً عاماً فدخلوا عليه واخذ الناس مجالسهم فدخلت عليه وكنت حليت عنده ببلاغة وفهم وحكمة فنظر الي نظر المستنكر فقلت (أقر الله نعمته عليك يا امير المؤمنين وكرامته . وسوغك شكره ومد لك المزيد بفضله ثم وصله بطول العمر وتتابع الكرامة الباقية التي لا انقطاع لها ولا نفاد لشيء منها حتى يكون آجل ذلك خيراً من عاجله وآخره أفضل من اوله .

ثم استأذنه بذكر قصة ملك كان له شيء عظيم من أبهة السلطان ورفاه الحياة اعجبته نفسه فنصحه ناصح من حكماء قومه بالزهد والتقوى حتى جعله يتخلى عن الملك ويسوح في الارض متقشفاًناسكا . فلما فرغ من الحكاية بكى هشام حتى بل لحيته ثم نكس رأسه طويلا فأقبل الجالسون يعتبون على ابن الاهتم ويقولون له افسدت على امير المؤمنين لذته وحياته فيقول لهم لقد عاهدت ابي الا اخلو بملك إلا ذكرته الله ونبهته ورشدته .

ثم يروي ابن قتيبة هذا الوصف الرائع الثاني لسيرة هشام عن ابن الاهتم جاء فيه إنه لم يكن في بني امية ملك اعظم من هشام ولاأعظم منه قدراً ولا اعلى صوتاً . دانت له البلاد . وملك جميع العباد . وادبت له الجزية من جميع الجهات من الروم والفرس والترك والافرنج والزنج والسند والهند . وكان قريباً من الضعفاء . مهتماً باصلاح الاوداء . لم يجتريء احد معه على ظلامة . ولم يسلك معه احد إلا سبيل الاستقامة .

وكان له موضع في الرصافة افيح من الارض برز فيه فتضرب له السرادقات فيكون فيه بارزاً للناس مباحاً للخلق . لايعنى ايامه تلك إلا برد المظالم . والاخذ على يد الظالم من جميع الناس واطراف البلاد . ويصل الى مخاطبته بذلك الموضع داعي العوام . والامة السوداء فمن دونها . قد وكل رجالا ادباء عقلاء بادناء الضعفاء والنساء واليتامى منهم وامرهم بامضاء اهل القوة والكفاية عنه حتى يأتي على اخر ما يكون من امره فيما يرفع اليه . لا ينضم اليه رجل يريد الوصول اليه فينظروا اوضع منه إلا ادنوا الاوضع وابعدوا الارفع حتى ينظر في شأنه . ويعرف امره . وينفذ فيه ما امر . ولا يرفع اليه ضعيف ولا امراة امراً وظلامة على غطريف من الناس مرتفع القدر ولا مستخدم به إلا امر باقضاء بينه واغداء بطلبه . لا يقبل لهم حجة ولا يسمع لهم بينة حتى لربما تمر به المرأة والرجل او عابر

سبيل لا حاجة له به فيقال له ما حاجتك وما قصتك وما ظلامتك فيقول انما سلكت اريد موضع كذا وبلد كذا فيقول له لعلك ظلمك احد من آل الخليفةتهاب امره وتتوقع سطوته فذلك الذي منعك عن رفع ظلامتك الى اميرالمؤمنين فيقول لا والله لا ابغي الا ماقلت فيقال له اذهب بسلام . حتى لربما أتت علية تارات من الليل وساعات من النهار لا ينظر في شيء ولا يأتيه احد في خصومة .لاستغناء الناس عن المطالب وتعففأ من المظالم ووقاية من سوءاته وتخوفاً من عقوبته . وقد وسع العباد امنه . واشعرهم عدله . وصارت البلاد المتنائية الشاسعة كدار واحدة . ترجع الى حاكم قاض يرقبه الناس في المواضع النائية عنه كما يرقبه من معه . وقد وضع العيون والجواسيس من خيار الناس وفضلاء العباد في سائر الامصار والبلدان . يحصون اقوال الولاة والعمال ويحفظون اعمال الاخيار والاشرار وقد صار هؤلاء اعقاباً يتعاقبون ينهض قوم بأخبار مايلوا في المصر الذي كانوا فيه . ويقبل آخرون يدخلون مسترقين ويخرجون متفرقين لا يعلم منهم واحدَ ولا يرى لهم عابر . فلا خبر يكون ولا قصة تحدث من مشرق الارض ولا مغربها إلا وهو يتحدث به في الشام وينظر فيه هشام .

وقد اقصر نفسه على هذ الحال وحببت اليه هذه الافعال . فكانت ايامه عند الناس احمد ايام مرت بهم واصفاها وارجاها . قد لبس جلباب الهيئة على اهل العنود والكبود وارتدى برداء التواضع لاهل الخشوع والسكون . وكان قد حبب اليه الكاثر من الدنيا والاستمتاع بالكساء . ولم يلبس ثوباً قط يوماً فعاد اليه حتى لقد كان كساء ظهره وثياب مهنته لا يستقل بحملها إلا سبعمائة بعير من اجلد ما يكون من الابل .

وخبر الكساء والثياب هو تتمة لسياق ابن قتيبة ولا يظهر ما إذا كان تتمة لكلام ابن الاهتم ووصفه ام لا . وهناك رواية يرويها ابن كثير عن الاصمعي عن منذر بن ثور جاء فيها (اصبنا في خزائن هشام اثني عشر الف قميص كلها قد اثر بها) هذا يعني انه لبسها ! ! وفي هذا وذاك مبالغة ظاهرة .

ولقد وصف كذلك انه اعطر بني امية . ويعزى الى حماد الراوية رواية عنه فيها صورة من حياة الترف والابهة التي كان يحياها حيث روي انه استحضره من العراق ليسأله عن بيت شعر عن على باله فأدخل عليه في دار قوراء مفروشة بالرخام وهو في مجلس مفروش بالرخام وبين كل رخامتين قضيب ذهب وحيطانه كذلك . وكان جالساً على طنفسة حمراء

وعليه ثياب خز حمر . وقد تضمخ بالمسك والعنبر وبين يديه مسك مفتوت في اواني ذهب يقلبه بيده فتفوح روائحه . وبين يديه جاريتان لم ير مثلها. فياذني كل منها حلقتان من ذهب فيها لؤلؤتان تتوقدان . فاستدناه وسأله عما اراد فسر من جوابه ثم امر جاريتين واحدة بعد اخرى ان تسقياه فسقتاه حتى ذهب عقله ثم سأله عن حاجته فقال له إحدى الجاريتين فوهبه الاثنتين واقام عنده اياماً ينادمه ويروي له الاشعار ثم وصله بمائة الف درهم [1] .

ومع ذلك فانه يوصف بانه كان جماعاً للاموال بخيلا . وقد رويت قصص عديدة عن بخله . من ذلك انه اهدي اليه طائران فاعجب بهما فقال المهدي جائزتي يا امير المؤمنين . قال وما جائزة طائرين قال ما شئت قال خذ احدهما فأخذ الرجل احسنهما فقال له وتختار ايضاً قال نعم والله اختار فقال دعه ثم امر له بدريهمات .

ومنها انه دخل بستاناً له ومعه ندماؤه فطافوا به وجعلوا يأكلون من ثماره ويقولون بارك الله لامير المؤمنين فقال وكيف يبارك لي فيه وانتم تأكلونه ثم دعا قيم البستان فأمره بقطع شجره وغرس زيتون فيه حتى لا يأكله الناس .

ومنها ان ابنه طلب بغلة بحجة عجز بغلته فقال له تعهدها بالعلف بنفسك . ومنها انه كان له ضيعة فغلت عاماً غلة عظيمة فجاء بها ابن الناظر اليه فسر هشام بذلك سروراً عظيماً واغتنم الولد الفرصة فقال يا امير المؤمنين لي حاجة . قال وما هي قال زيادة عشرة دنانير في العطاء . فقال له ما يخيل لاحدكم ان زيادة عشرة دنانير في العطاء إلا بقدر الجوز لا لعمري لا افعل . ودخل عليه عقال بن شبة وكان عليه قباء اخضر من الفتك . فجعل عقال يتأمله فسأله هشام مالك فقال له كنت رأيت عليك قباء اخضر مثل قبائك هذا قبل ان تلي الخلافة فأردت ان اعرف هل هذا ام غيره . فقال له والله الذي لا إله إلا هو إنه هو وما لي قباء غيره . وإن ما ترون من جمعي لهذا المال وصونه إنما هو لكم .

وهذه الرواية خاصة تتناقض مع ما رويناه سابقاً من كثرة اكسيته وقمصانه تناقضاً عجيباً .

ومما يروى كذلك من مواقف بخله انه وفد عليه الشاعر علياء بن منظور فأنشده :

---

(١) انظر اخبار حماد الراوية في كتاب الاغاني . وقد استدرك المؤلف مسألة شرب الخمر واسقائه وقال ان الخبر رواه احمد بن عبيد ولم يرو ان هشاماً اسقى حماداً شيئاً . ثم قال وهذا هو الصحيح لان هشاماً لم يكن يشرب ولا يسقي احداً بحضرته مسكراً وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه

قالت علية واعتزمت لرحلة زوراء بالادنين ذات تسدر
اين الرحيل واهل بيتك كلهم كل عليك كبيرهم كالاصغر
فأصاغر امثال سلكان القطا لا في ثرى مال ولا في معشر
اني الى ملك الشآم لراحل واليه يرحل كل عبد موقر
فلأتركنك إن حييت غنية بندى الخليفة ذي النعال الازهر
إنا اناس ميت ديواننا ومتى يصبه ندى الخليفة ينشر

فلما اتم انشاده قال له هذا الذي كنت تحاول . وقد احسنت المسألة ولم يمنحه الا خمسمائة درهم . وهذه الرواية تتناقض بدورها مع رواية منح هشام لحماد مئة الف دينار تناقضاً عجيباً .

ومهما يكن من امر فالذي نرجحه ان هشاماً كان يلتزم جانب الاقتصاد والاعتدال ويتحاشى التبذير فأدى ذلك الى نعته بالبخل واشاعته عنه . وكلامه لشبة بن عقال ينطوي على تأييد لما نقول وعلى كون الحافز له على ذلك تفكيره في مصلحة المسلمين واعتباره ما يدخل عليه هو مالهم

ولقد اثرت قصة اخرى قال في سياقها قولاً حكيماً ومعقولاً في تبرير اقتصاده واعتداله وتحاشيه التبذير بسبب وغير سبب وفيها صورة من صور الحكم والعهد والحياة في الوقت نفسه حيث روي ان وفداً من قريش وفد عليه فاستقبله واصغى الى اقوال خطبائه وكان فيهم محمد بن ابي الجهم فوقف بدوره وقال (اصلح الله امير المؤمنين . ان خطباء قريش قد قالت واكثرت واطنبت . والله ما بلغ قائلهم قدرك ولا احصى خطيبهم فضلك . وان اذنت في القول قلت فقال له قل واوجز فقال تولاك الله يا امير المؤمنين بالحسنى وزينك بالتقوى . وجمع لك خير الآخرة والاولى . ان لي حوائج أفأذكرها . قال هاتها . قال كبر سني ونال الدهر مني فان رأى امير المؤمنين ان يجبر كسري وينفي فقري فعل . فقال وما الذي ينفي فقرك ويجبر كسرك فقال ألف دينار وألف دينار وألف دينار . فاطرق هشام طويلا ثم قال يا ابن ابي الجهم بيت المال لا يحتمل ما ذكرت . ثم قال له هيه قال ما هيه اما والله ان الامر لله وحده ولكن الله آثرك لمجلسنا . فان تعطنا فحقنا اديت وان تمنعنا فنسأل الله الذي بيده ما حويت يا امير المؤمنين ان الله جعل العطاء محبة . والمنع مبغضة . والله لأن احبك احب الي من ان ابغضك . قال فألف دينار لماذا قال اقضي بها ديناً قد حنى قضاؤه وقد عناني حمله واضر بي أهله قال لا بأس تنفس كربة وتؤدي امانة . والف دينار لماذا . فقال ازوج بها من بلغ من

ولدي . قـال نعـم المسلك سلكت . اغضضت بصراً واعففت ذكراً ورفعت نسلا وألف دينـار لمـاذا ؟ قال اشتري بهـا ارضاً يعيش بهـا ولدي واستعين بفضلها على نوائب دهري . وتكون ذخراً لمن بقي . قال فانا قـد امرنا لك بمـا سألت . فقال فالمحمود الله على ذلك . وخرج فأتبعه هشام بصره وقال إذا كان القرشي فليكن مثل هذا . ما رأيت رجلا اوجز في مقال ولا ابلغ في بيان منه ثم قال اما والله إنا لنعرف الحق اذا نزل ونكره الاسراف والبخل . ولا نعطي تبذيراً . ولا نمنع تقتيراً. وما نحن الا خزان الله في بلاده وامناؤه على عباده . فاذا اذن اعطينا واذا منـع ابينا . ولو كان كل قائل يصدق . وكل سائل يستحق ما جبهنا قائلا ولا رددنا سائلا . ونسأل الله الذي بيده ما استحفظنا ان يجريه على ايدينا . فانه يبسط الرزق لمن يشاه ويقدر انه بعباده خبير بصير) .

وفي الكلام من السداد والحق والدلالة على عمق الشعور بالمسئولية العظمى وحسن الاخلاق ما فيه .

ولقد رويت بعض الروايات التي تدل على شدة حرصه وتدقيق في كل الامور مهما تفهت فقد بعث اليه بعض عماله بدراقن فأعجبه فطلب منه الزيادة ثم وصاه ان يستوثق من الوعاء في المرة الثانية . وبعث اليه بعض عماله كمأة فكتب اليه انها وصلت وهي اربعون حبة . وقـد تغير بعضها فاذا بعثت شيئاً بعد فأجد حشوها في الظرف بالرمل حتى لا تضطرب فيصيب بعضها بعضاً .

ومن اقواله المأثورة التي تتناسب مع ما روي عنه مما تقدم قوله (ثلاثة لا يضعن الشريف تعاهد الصنيعة . وإصلاح المعيشة . وطلب الحق وإن قل) .

ولقد روي انه حج احدى عشرة مرة . وان سعيداً بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان قال له في احدى المرات يا امير المؤمنين . ان اهل بيتك في مثل هذه المواطن الصالحة لم يزالوا يلعنون أبا تراب فالعنه انت ايضاً فقال له انا قدمنا حجاجاً وما قدمنا لشتم احد ولعن احد واعرض وقطع كلامه .

ولقد روي — وفي الرواية صورة من صور العهد انه شتم رجلا من الاشراف في حالة غيظ فقال له هذا أتشتمني وانت خليفة الله في الارض . فاستحيا وقال اقتص مني بمثلها . فقال إذا اكون سفيهاً مثلك . قال فخذ عوضاً فقال لا افعل فقال اتركها لله فقال هي لله ثم لك

فقال هشام والله لا اعود الى مثلها .

ومما روي كذلك وفيه صورة من صور القضاء الاسلامي وقضاته في ذلك العهد ودليل على احترام هشام للحق والقضاء عن العتبي قال (إني لقاعد عند قاضي هشام اذ اقبل ابراهيم ابن محمد بن طلحة وصاحب حرس هشام حتى قعدا بين يديه فقال الحرسي إن امير المؤمنين جرأني (الظاهر انها بمعنى وكلني) في خصومة بينه وبين ابراهيم . قال القاضي شاهديك على الجرأة فقال اتراني قلت على امير المؤمنين ما لم يقل وليس بيني وبينه الا هذه السترة . قال لا ولكنه لا يثبت الحق لك ولا عليك إلا ببينة فقام فلم يلبث حتى قعقعت الأبواب وخرج الحرسي فقال هذا امير المؤمنين . فقام القاضي فأشار اليه فقعد وبسط لي مصلى فقعد عليه هو وابراهيم . فتكلما واحضرت البينة فقضى القاضي على هشام . فتكلم ابراهيم بكلمة فيها بعض الخرق حيث قال الحمد لله الذي ابان للناس ظلمك فقال هشام لقد هممت ان اضربك ضربة ينتثر منها لحمك عن عظمك فقال والله لئن فعلت لتفعلنه بشيخ كبير السن قريب القرابة واجب الحق . فقال له استرها علي يا ابراهيم فقال لا ستر الله علي ذنبي اذاً يوم القيامة فقال هشام إني معطيك عليها مئة الف قال ابراهيم فسترتها عليه طول حياته واذعتها عنه بعد موته تزييناً له).

ولقد روي ان غلاماً لاحد اولاده تشاجر مع نصراني فشج النصراني رأس الغلام فقال له مولى من مواليه ارفعه للقاضي الكبير فكبر عليه ذلك فقال خصي له أنا اكفيكه ثم ذهب فضرب النصراني فبلغ ذلك هشاماً فأتى بالخصي وبابنه فضربهما .

ولقد كان شديداً على اهل اللهو . وكان يأمر بتعقبهم وتأديبهم . ومن النكات المروية في سياق ذلك انه اتي برجل عنده قيان وخمر وبرابط فقال اكسروا الطنبور على راسه ففعلوا فبكى فقال له مولى لهشام عليك بالصبر فقال اتراني ابكي للضرب . لا والله وانما ابكي لاحتقاره للبربط إذ سماه طنبورا ، واخذ عسسه مخنثين ومعهم برابط فقال احبسوهم وبيعوا امتاعهم وصيروا ثمنه في بيت المال فاذا صلحوا ردوه عليهم .

ولقد كان شديدا على اصحاب المقالات في القدر حيث روي انه استدعى غيلان الذي كان من اوائل من تكلم بالقدر فقال له ان الناس قد اكثروا فيك فهل نناظرك فان كان مذهبك

حقاً تبعناك وان كان باطلا نزعت عنه فوافق فدعا ميمون بن مهران احد مشاهير علماء ذلك العصر لمناظرته فقال ميمون لغيلان سل فسأل اشاء الله ان يعصى . فقال ميمون اعصي الله كارهاً فسكت فقال هشام اجبه فلم يجبه فقال لا أقالني الله إن اقلتك ثم امر بقطع يديه ورجليه .

وفي القصة دليل على ان مسائل القدر والكلام قد اخذت تنتشر ويصبح لهـــا مذاهب وانصار في اواخر عهد الدولة الاموية .

وهناك حادث آخر من هذا الباب حيث روى الطبري الذي روى الحادث السابق عن عمرو بن شراحيل الذي كان هو الآخر قدري المذهب ان هشاماً سيره هو ورفاق له الى دهلك منفيين وبقوا فيها الى ان مات .

ومما روي وفيه صورة من صور العهد الجهادية والمالية انه لم يكن احد من بني مروان يأخذ العطاء الا كان عليه ان يخرج للغزو . فمنهم من كان يغزو بنفسه ومنهم من كان يرسل بديلا . وان هشام كان يعطي عطاءه البالغ مئتي دينار ودينار ــ والدينار كان يفضل به هشام ــ لمولى له اسمه يعقوب فكان يغزو عنه .

وكان شديد الاهـــتمام للصلاة وصلاة الجمعة بخاصة . ومـــا روي انـــه تفقد بعض ولده في صلاة جمعة فسأله بعد الصلاة مـــا منعك من الصلاة فقـــال نفقت دابتي فقال له افعجزت عن المشي فتركت الجمعة . ثم منعه من الدابة سنة وألزمه المشي الى المسجد كل جمعة .

ومما رواه جرجي زيدان [1] عزوا الى المقريزي ان عامل الخراج في مصر على عهد هشام عبيد الله بن الحبحاب زاد على القبط قيراطاً في كل دينار فثاروا فحاربهم المسلمون وقتلوا منهم كثيرا وان اسامة التنوخي فعل مثله . وان كثيرا من النصارى التجأوا الى الرهبنة للخلاص من الجزية فأحصى الديور والرهبان ورسم على ايدي الرهبان حلقة باسمه واسم ديره . وصار يقطع يد كل راهب لا يحمل الوسم . والزم كل نصراني ان يحمل منشورا بما دفع من الجزية

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٢١ .

وكان يأخذ عشرة دنانير ممن لم يوجد معه هذا المنشور . وكبس الديارات وقبض على عدد من الرهبان بغير رسم فضرب اعناق بعضهم وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب . وان هشاماً لما بلغه هذه الاخبار لم يرض بها وكتب الى عامله في مصر باجراء النصارى على عوائدهم وما في ايديهم من عهود .

ولم نطلع على هذا الخبر في المصادر القديمة . فاذا صح فيكون فيه صورة من صور انصاف هشام وإبائه انحراف عماله عن الحق والحدود المقررة كما هو واضح .

ولقد كان هشام يكثر الإقامة في برية الرصافة [1] من ارض قنسرين وكان اعتاد ذلك قبل خلافته حيث كان الخلفاء وابناؤهم يتهربون من دمشق خوفاً من الطاعون وينتبذون البرية.

ولقد جاءه البريد بخلافته وهو في الزيتونة في منزله في الرصافة . ثم انشأ قصرين له فيها واستمر على عادته حتى وافته منيته ودفن فيها .

ومما ذكره ابن الاثير ان البريد الذي جاءه بخبر خلافته كان يحمل اليه خاتم الخلافة وقضيبها حيث يبدو أن هذا وذاك من اعلام الخلافة .

ولقد ذكرنا قبل قليل خبر بستان لهشام . ولم يكن هذا البستان هو الوحيد الذي كان له حيث روي انه كان له مزارع وضياع وبساتين كثيرة في جزيرة الفرات وانحاء الشام الشمالية الاخرى . ومنها منطقة دورين وقراها .

والرواية تذكر ان هذه المنطقة مقطعة له قبل خلافته . وربما كان بعض الضياع والمزارع في جهات الرصافة له قبل خلافته لانه كان يقيم فيها . وقد اشتق لها الانهار واستخرج خاصة النهر الذي فوق الرقة بسبيل ذلك . وكانت تدر عليه ايراداً ضخماً حتى بالغت الروايات في ذلك فقالت ان غلته من مزارعه وضياعه اكثر من خراج مملكته [2] وقد اشار جرير الى ذلك في احدى القصائد التي مدح فيها هشاماً حيث جاء فيها فيما جاء :

---

(١) يذكر ابن الاثير انه كان في هذه الناحية مدينة رومية (ج٥ص٩٦) .

(٢) خطط الشام ج ٥ ص ١٦٣ عزواً الى المنجني .

شققت من الفرات مباركات جواري قد بلغن كما تريد
وسخرت الجبال وكن خرساً يقطع في مناكبها الحديد
بها الزيتون في غلل ومالت عنا قيد الكروم فهن سود
ومن ازواج فاكهة ونخل يكون بحمله طلع نضيد [1]

ولقد اراد ان يحول ولاية العهد عن ابن اخيه الوليد بن يزيد الذي عينه ابوه ولياً للعهد بعد هشام الى ابنه مسلمة وراود الوليد على ذلك على ان يكون الامر له بعد ابنه . فأبى فتنكر له وصار يضيق عليه ويعمل سراً في البيعة لابنه غير انه لم يتم له ما اراده .

ولما اشتد اذاه وملاحقته للوليد خرج مع خاصته ومواليه الى الازرق ونزل على ماء فيه يقال له الاغدف حيث ظل معتصماً الى ان مات هشام . ولقد روي ان شاعراً قال في مجلس للوليد :

ألم تر للنجم اذ شيعا يبادر في برجه المرجعا
تخبر عن قصد مجراته اتى الغور والتمس المطلعا
فقلت واعجبي شأنه وقد لاح اذ لاح لي مطعما
لعل الوليد دنا ملكه فأمسى اليه قد استجمعا
وكنا نؤمل في ملكه كتأميل ذي الجدب ان يرعا
عقدنا له محكمات الامور طوعاً فكان لها موضعا

فبلغ ذلك هشاماً فقطع عن الوليد ما كان يجريه عليه وابى ان يعيده الا اذا طرد الشاعر ففعل . وكتب إلى هشام يعتذر اليه ويعلمه باخراج الشاعر ويلتمس منه الاذن لصاحب له اسمه ابن سهيل . فاعتقل هشام هذا وضربه ونفاه .

وضرب شخصاً آخر من خاصة الوليد بلغه انه يكتب للوليد بالأخبار فبلغ ذلك الوليد فقال : من يثق بالناس ومن يصطنع المعروف . هذا الاحول المشؤوم قدمه ابي على اهل بيته ثم يصنع بي ما ترون . لا يعلم ان لي في احد هوى الا عبث به ثم جرت بين الرجلين مراسلة

---

(١) انظر ديوان جرير شرح الصاوي .

تبادلا فيها التنديد والوعيد ومن ذلك مقطوعة شعرية الوليد فيها تذكير لهشام بفضل ابيه عليه اذ جعله ولياً لعهده وتنديد ووعيد وهي هذه :

كفرت يداً من منعم لو شكرتها — جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمن
رأيتك تبني جاهداً في قطيعتي — ولو كنت ذا حزم لهدمت ماتبني
أراك على الباقين تجني ضغينة — فيا ويحهم ان مت من شر ما تجني
كأني بهم يوماً واكثر قولهم — أيا ليت انا حين يا ليت لا تغني

وظلا على جفاء إلى أن مات هشام وصارت الخلافة إلى الوليد فأظهر الشماتة بموته واضطهد أولاده حتى اثارهم عليه وهجاه هجواً بذيئاً حيث روي عنه قوله فيه :

ليت هشاماً عاش حتى يرى — مكياله الاوفر قد طبعا
كلنا بالكيل الذي كاله — وما ظلمناه به اصبعا
وما أتينا ذاك عن بدعة — امله لي الترقان اجمعا

وقوله :

هلك الاحول المشؤوم — وقد أرسل المطر
وملكنا بعد ذاك — وقد أورق الشجر
فأشكر الله انه — زائد كل من شكر

ولقد روي فيما روي في سياق ذلك ان الوليد كان مولعاً باللهو والخمر والقيان وان هشاماً عزله أكثر من مرة . وولاه الحج مرة لعله ينصرف عن لهوه . وان الوليد اخذ معه إلى الحج خمره وقيانه وصنع خيمة بقدر سطح الكعبة لينصبها عليها ويشرب ويلهو فوقها . ولكن اصحابه خوفوه من العواقب فلم يفعل . وان هشاماً قال له مرة ويحك يا وليد والله ما أدري أعلى الاسلام أنت أم لا . ما تدع شيئاً من المنكر إلا أتيته غير متحاش ولا مستتر فكتب اليه :

يا أيها السائل عن ديننا — نحن على دين ابي شاكر
نشربها صرفاً وممزوجة — بالسخن أحياناً وبالفاتر

وابو شاكر كنية مسلمة بن هشام الذي كان ابوه يرشحه للخلافة وان هشاماً غضب على

ابنه وقال له يعيرني بك الوليد وانا ارشحك للخلافة . فالزم الادب واحضر الجماعة . ثم ولاه موسم الحج سنة ١١٩هـ فأظهر النسك والوقار واللين ووزع أموالا في مكة والمدينة حتى مدحه بعضهم رداً على شعر الوليد المذكور آنفاً بقوله :

يا ايها السائل عن ديننا نحن على دين ابي شاكر
الواهب الجرد بأرسانها ليس بزنديق ولا كافر

ومن المحتمل ان يكون لهذه الروايات أصل ماغير اننا نرجح انها شيبت بصنعة ومبالغة .

ومما رواه الطبري ان هشاماً عزل الاشرس عن ولاية خراسان . وان الجنيد بن عبد الرحمن اهدى الى زوجة هشام قلادة فيها جوهر فأعجبت هشاماً فأهدى اليه قلادة مثلها فعينه والياً لخراسان مكان الاشرس . والرواية عجيبة . فلا يعقل ان يكون تعيين هشام للجنيد لعمل خطير مثل ولاية خراسان بسبب هذه الهدية .

ومما رواه ابن قتيبة ان محمداً بن علي بن عبد الله بن عباس دخل على هشام متوكئاً على ولديه ابي العباس وابي جعفر وكان شيخاً كبيراً قدغشي بصره فسلم فقال له هشام ما حاجتك ولم يأذن له بالجلوس فذكر قرابته وحاجته . ثم استجداه فقال له هشام ما هذا الذي بلغني عنكم يا بني العباس ثم يأتي احدكم وهو يرى انه احق بما في أيابنا والله لا اعطيتك شيئاً فخرج محمد فقال هشام كالمستهزيء ان هذا الشيخ ليرى هذا الامر سيكون لولديه هذين اولأحدهما . فسمع محمد قوله فرجع فقال أما والله اني ارى ذلك على رغم من زعم . فضحك هشام وقال اغضبنا الشيخ .

ومن المحتمل ان تكون هذه الرواية مصنوعة .

ومن الاحداث الشخصية الهامة التي قام بها هشام وفيها صورة من صور الحكم والحكام في ذلك العهد عزله خالداً بن عبد الله القسري والي العراق العام بسبب ما بلغه من فاحش ثرائه .

وقد اورد الطبري روايات عديدة في ذلك قد لاتخلو من صنعة ومبالغة مع عدم استبعاد ان يكون لها اصل ما . والمستفاد منها انه نمي لهشام ان خالداً او ابنه قد اتخذ مزارع واسعة واثرى ثراء عظيما حتى بلغ ايراده في السنة ثلاثة عشر الف الف في رواية وعشرين الف الف في

رواية اخرى . وان متولي خراج العراق ختن ولده فأهدى اليه الف وصيف والف وصيفة سوى الاموال والثياب . وانه كان يتنقصه في مجالسه الخاصة ويفخر بأمه وانه ازدرى شيخاً من شيوخ بني امية دخل عليه لحاجة وعضه بلسانه . فكتب هشام كتاباً بخطه الى خالد يوبخه فيه توبيخاً شديداً على ما كان منه نحو الشيخ الاموي ويأمره بالسعي اليه واسترضائه رأينا ان نورد نصه لانه طرفة ادبية ونموذج من نماذج مراسلات ذلك العهد ومتصل بالصورة التي أردنا ابرازها :

(اما بعد فان امير المؤمنين وان كان اطلق لك يدك ورأيك فيمن استرعاك امره واستحفظك عليه للذي رجا من كفايتك ووثق به من حسن تدبيرك لم يفترشك غرة اهل بيته لتطأه بقدمك ولا تحد اليه بصرك . فكيف بك وقد بسطت على غرتهم بالعراق لسانك بالتوبيخ تريد بذلك تصغير خطره واحتقار قدره حتى اخرجك ذلك الى الإغلاظ في اللفظ عليه في مجلس العامة غير متحلحل له حين رأيته مقبلا من صدر مهادك الذي مهد له الله وفي قومك من يعلوك بحسبه ويغمرك بأوليته فنلت مهادك بما رفع به آل عمرو من صنعتك خاصة مساوين بك فروع غرر القبائل وقرومها قبل امير المؤمنين حتى حللت هضبة اصبحت تنحو بها عليهم مفتخراً هذا ان لم يدهده بك قلة شكرك متحطها وقيذاً . فهلا يا ابن مجرشة قومك اعظمت رجلهم عليك داخلا ووسعت مجلسه اذ رأيته مقبلا وتجافيت له عن صدر فراشك مكرماً ثم فاوضته مقبلا عليه ببشرك اكراماً لامير المؤمنين فاذا اطمأن به مجلسه نازعته بجي السرار معظما لقرابته عارفاً لحقه . فهو سن البيتين ونابهم وابن شيخ آل أبي العاص وحرب وغرتهم . وبالله يقسم امير المؤمنين لك لولا ما تقدم من حرمتك وما يكره من شماتة عدوك بك لوضع منك ما رفعك حتى يردك الى حال تفقد بها اهل الحوائج بعراقك وتزاحم المواكب ببابك وما اقربني من ان اجعلك تابعاً لمن كان لك تبعاً فانهض على اي حال ألفاك رسول امير المؤمنين وكتابه من ليل او نهار ماشياً على قدمك بمن معك من خولك حتى تقف على باب ابن عمرو صاغراً مستأذناً عليه متنصلا اليه اذن لك او منعك فان حركته عواطف رحمة احتملك وان احتملته انفة وحمية من دخولك عليه فقف ببابه حولاً غير متحلحل ولا زائل ثم امرك بعد اليه عزل او ولى انتصر او عفا فلعنك الله من متكل عليه بالثقة ما اكثر هفواتك واقذع لاهل الشرف الفاظك التي لا تزال تبلغ امير المؤمنين من اقدامك بها على من هو أولى بما انت فيه من ولاية مصري العراق واقدم واقوم. وقد كتب امير المؤمنين الى ابن عمه بما كتب به اليك من انكاره عليك ليرى في العفو عنك والسخط

عليك رأيه مفوضاً ذلك اليه مبسوطة فيه يده محموداً عند امير المؤمنين عـلى ايها آتي اليك موفقاً ان شاء الله تعالى) .

ولقد اعتزم مع ذلك على عزله وعين مكانه يوسف بن عمر الثقفي وامره بمفاجأة خالـد واعتقاله مع اصحابه .

ومما روي ان خالداً ومتولي خراجه طارقـاً شعرا بتغير قلب الخليفة واحتمال عزله لهما فنصح طارق خالـداً بالمبادرة الى دمشق والاعتذار للخليفة فأبى فاقترح ان يذهب هو الى دمشق ويعتذر عنه ويضمن جميع ما انكسر على العراق من الخراج في سني حكمه وكان يبلغ مئة الف الف فاعتذر خالد بعدم قدرته على اداء المال المكسور فقـال له طارق نتوزع المال فيما بيننا فأدفع انا عشرين الف الف ويدفع فلان وفلان وفلان مثلها فأبى وقال اني اذن للئيم ان كنت قد اعطيتكم شيئاً ثم استرجعته منكم .

ومما روي ان الوالي الجديد بعد ان اعتقل خالداً فاوضه اخصاؤه على المصالحة على المال المكسور فقبل وصالح على تسعة آلاف الف . فقيل له لو صبرت لاخذت مئة الف فقال ما كنت لارجع وقد رهنت لساني وان خالداً لم يمض الصلح وقال لا آمن ان يأخذ المال ثم يعود عليكم فأخبروا الوالي بعدم موافقة خالد على الصلح ففرح وقال فمنكم اتى النقض فوالله لا أرضى بتسعة آلاف الف ولا مثلها ولا مثليها . فأخذ اكثر من ذلك وقيل انه اخـذ مئة الف الف .

ومع انه قد يكون في القصة والارقام مبالغة فاننا نرجح ان للقصة اصلا ما . ويبدو منها ان الولاة كانوا اصحاب سيادة وتصرف مطلقين في الاقليم الذي يحكمونه وان ذلك كان يتيح لهم ان يثروا ثراء فاحشاً بطرق مختلفة . ولقد روينا في سيرة يزيد بن معاوية خبراً مماثلا عن عبد الرحمن بن زياد وما صار في يده من مبلغ طائل بلغ عشرين الف الف .

ومما روي عن خالد بن صفوان انه دخل على هشام يوماً فقال له هذا يا خالد رب خالد قعد مقعدك هذا اشهى الي حديثاً منك — وهو يعني خالداً القسري — فقال له الا تعيده يا امير المؤمنين . فقال هيهات . انه ادل فأمل وارجف فأعجف ولم يدع لمرجع مرجعاً . على انه ما سألني حاجة قط . فقال له خالد يا امير المؤمنين فلو ادنيته فتفضلت عليه . فقال هيهات ثم انشد متمثلا :

اذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكن　　اليه بوجه آخر الدهر تقبل

ونستطرد الى القول ان ولاية خالد للعراق استمرت في خلافة هشام خمس عشرة سنة . وكان قبل ذلك والياً للحجاز في عهد سليمان والوليد قبله . وكان اخوه اسد والياً لخراسان . وكان للأخوين بلاء عظيم في خدمة الدولة وما تم في عهد الوليد وسليمان وهشام من فتوح واحداث عامة . وكان مشهوراً بالمروءة والاريحية وقوة العارضة .

ولقد توفي هشام بالذبحة في الرصافة لست خلون من ربيع الاول عام ١٢٥ﻫ ودفن فيها . ومما روي انه حين حضرته الوفاة رأى ابناءه يبكون حوله فقال (جاد هشام لكم بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء وترك لكم ما جمع وتركتم له ما كسب . ما اسوأ منقلب هشام ان لم يغفر الله له) .

ولقد كان هشام ثالث ثلاثة من خلفاء بني امية طالت خلافتهم اكثر من غيرهم . وكان في خلافته احداث هامة كان له في سياقها مواقف جديرة بالذكر والتنويه ايضاً وهذا ما سوف يأتي في سياق تلك الاحداث .

ولقد اورد ابن كثير حديثاً مروياً عن ابي سلمة بن عبد الرحمن عن ابيه عن رسول الله ﷺ انه قال (ترفع زينة الدنيا سنة خمس وعشرين ومئة) وهي السنة التي مات فيها هشام . ولقد اضطرب امر بني امية بعده فعلا واشتدت دعوة الهاشميين ضدهم حتى دالت دولتهم بعد سبع سنين وانتقل الحكم الى بني العباس . والحديث لم يرد في كتب الاحاديث الصحيحة . ولا نستبعد ان يكون موضوعاً من قبل بعض اعداء العباسيين وانصار الامويين للتنبيه على ان زينة الدنيا وبهجة الاسلام قد انقضتا بموت هشام .

١١ — الوليد الثاني بن يزيد الثاني بن عبد الملك [(١)]

تولى الخلافة وعمره (٣٤) سنة . وقد كان عمر بن عبد العزيز عهد الى هشام ثم الى الوليد بعده . وهناك رواية يرويها الطبري جاء فيها ان هشاماً سأل احد خاصته عما اذا كان الناس يرضون بالوليد فاجابه ان له يا امير المؤمنين في اعناق الناس بيعة حيث يفيد هذا ان عمر بن عبدالعزيز اخذ له ولهشام البيعة من الناس حينما اعتزم على ان يعهد اليهما الامر من بعده .

ومن صفاته المروية انه كان طويل اصابع الرجلين شديد البطش وكان يوتد له سكة حديد فيها خيط . ويشد الخيط فى رجله ثم يثب على الدابة فينزع السكة ويركب ما يمس الدابة بيده .

وكان فصيحاً شاعراً اثر له شعر كثير في الفخر والتشبيب . من ذلك ما رويناه في سيرة هشام في التنديد بهشام وتهديده . ومنه هذه الابيات في الفخر :

انا الوليد ابو العباس قد علمت ... عليا معد مدى كري واقدامي
اني لفي الذروة العليا اذا انتسبوا ... مقابل بين اخوالي واعمامي
بنى لي المجد بان لم يكن وكلا ... على منار مضيئات واعلام
حللت من جوهر الاعياص قدعلموا ... في باذخ مشمخر العز قمقام
صعب المرام يسامي النجم مطلعه ... يسمو الى فرع طود شامخ سامي

ومنه ما سوف يأتي بعد في سياق الكلام . وكان مبسوط اليد في عمل الخير والقرى قبل ولايته . حيث روي انه كان يطعم من يفد عليه من اهل الصائفة ومن يصدر من الحج ثلاثة ايام

---

(١) هذه النبذة مقتبسة من الامامة والسياسة ج ٢ ص ١١٩ وبعدها وتاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٢٠ وبعدها والعقد الفريد ج٣ ص ١٨٦ وبعدها ومروج الذهب ج ٣ ص ١٤٥ وبعدها والبداية والنهاية ج ١٠ ص ٢ وبعدها . وابن الاثير ج ٥ ص ٩٧-١٠٨ واليعقوبي ج ٣ ص ٧١-٧٤ مطبعة الغري .

ويعلف دوابهم في زيزاء في البلقاء . وانه لم يقل عـــن شيء يسأله لا . وكان يعد السائلين بتحقيق مطالبهم حينما تصير اليه الخلافة . وخوطب بسبب كثرة وعوده فقال إني لا اعوذ لساني شيئاً لم اعتده (اي لن يقول لا) ثم انشد :

ضمنت لكم ان لم تعقني عوائق ... بأن سماء الضر عنكم ستقلع
سيوشك الحاق معاً وزيادة ... واعطية مني عليكم تبرع
محرمكم ديوانكم وعطاؤكم ... به يكتب الكتاب شهرا وتطبع

فلما تولى استمر على كريم عاداتـــه وحقق وعـوده . واخرج لعيلات الناس الطيب والكسوة . وزاد في عطاء اهل العطاء عشرة عشرة . واهل الشام منهـــم خاصة عشرين عشرين . وضاعف جوائز الوفود وعطف على المقعدين والعميان والمجذومين فارتاح الناس واغتبطوا حسب تعبير الرواية .

ولقد مات عمه وهو في الازرق فحمل اليه البريد البشارة مـــع البردة والقضيب وخاتم الخلافة على ما سجله في بيتين اثرا عنه وهما :

طال ليـلي وبت أسقى السلافة ... واتاني نعي مـــن بالرصافـة
واتاني بـــبردة وقضيب ... واتاني بخاتم للخلافـــة [1]

ومما يروى انه امر بالتحفظ على خزائن عمه وحواصله في الرصافة ودمشق حتى لم يسمح باخراج قمقم يغلي فيه الماء لغسله . وانه قال شامتاً :

هلك الاحول المشؤوم ... وقـــد ارسل المطر
وملكنا بعـد ذاك ... وقـــد اورق الشجر
فاشكروا الله انه ... زائد كل من شكر

---

(١) ذكرنا في سيرة معاوية انه اشترى بردة رسول الله وصار خلفاء بني امية يتداولونها ويلبسونها للتبرك . والشعر ان صح مؤيد لذلك ، والشعر يفيد ان القضيب والخاتم كانا مما يتداوله الخلفاء ايضاً ، ولم نطلع على رواية عن اصلها ، ومن المحتمل ان القضيب مما كان ينسب الى النبي ايضاً ، لان هذا هو الذي يكون له معنى في تداوله ، اما الخاتم فليس خاتم النبي حتما لان خاتم النبي سقط من يد عثمان بن عفان ، وقد اتخذ عثمان خاتماً على نقشه بديلا منه فلعله هو الذي كان يتداوله خلفاء بني امية ايضاً .

وقال كذلك :

ليت هشاماً كان حياً فيرى	محلبه الاوفر قد أترعا
كلنا له بالصاع الذي كاله	وما ظلمناه به اصبعا

حيث يدل هذا على انه شديد النقمة على عمه لما كان من ملاحقته له واضراره به . ثم انتقل الى دمشق وجاءته البيعة من الآفاق . وقدمت عليه وفود الامصار للبيعة الوجاهية . ولم يكن على خلاف .

وقد اورد الطبري نص كتاب ورد عليه من مروان بن محمد فيه بيعته وبيعة من قبله مع التنويه بصفاته واستعداده لمناصرته رأينا ايراده لان فيه رداً على ما كان من مناوأة للوليد ونسبة صفات واخلاق مذمومة اليه وهذا هو : (بارك الله لامير المؤمنين فيما اصاره اليه من ولاية عباده ووراثة بلاده . وكان من تغشي غمرة سكرة الولاية ما حمل هشاماً على ما حاول من تصغير ما عظم الله من حق امير المؤمنين ورام من الامر المستصعب عليه الذي اجابه اليه المدخولون في آرائهم واديانهم فوجدوا ما طمع فيه مستقصياً وزاحمته الاقدار باشد مناكبها ، وكان امير المؤمنين بمكان من الله حاطه فيه حتى آزره بأكرم مناطق الخلافة فقام بما اراه الله له اهلا ونهض مستقلا بما حمل منها مثبتة ولايته في سابق الزبر بالاجل المسمى خصه الله بها على خلقه . وهو يرى حالاتهم فقلده طوقها ورمى اليه بأزمة الخلافة وعصم الامور فالحمد لله الذي اختار امير المؤمنين لخلافته . ووثائق عرى دينه . وذب له عما كاده فيه الظالمون . فرفعه ووضعهم فمن اقام على تلك الخشية من الامور اوبق نفسه واسخط ربه . ومن عدلته التوبة نازعاً عن الباطل الى حق وجد الله تواباً رحيما . واني اخبر امير المؤمنين اكرمه الله اني عندما انتهى الي من قيامه بولاية خلافة الله نهضت الى منبري علي سيفان مستعداً بهما لاهل الغش حتى اعلمت من قبلي ما امتن الله به عليهم من ولاية امير المؤمنين فاستبشروا لذلك ، وقالوا لم تأتنا ولاية خليفة كانت آمالنا فيها اعظم ولا هي لنا اسر من ولاية امير المؤمنين وقد بسطت يدي لبيعتك فجددتها ووكدتها بوثائق العهود وترداد المواثيق وتغليظ الايمان فكلهم حسنت اجابتهم وطاعتهم . فأثبهم يا اميرالمؤمنين من مال الله الذي آتاك فانك اجودهم جوداً . وابسطهم يداً . وقد انتظروك راجين فضلك قبلهم بالرحم الذي استرحموك . وزدهم زيادة يفضل بها من كان قبلك حتى يظهر بذلك فضلك عليهم) . حيث يفيد هذا النص اذا صح – وليس ما يمنع صحته . ومن المحتمل ان

يكون منقولا عن مدونات سابقة ـ حسن رأي مروان في الوليد وسخطه على هشام لمحاولته اسقاطه من ولاية العهد وإيذاءه واستبشار الناس بخلافته .

ولقد بادر فور توليه بتعيين ابنيه الحكم وعثمان وليين لعهده واخذ البيعة لهما في الشام ثم كتب للولاة بذلك فأخذوا لهما البيعة بدون خلاف أيضاً .

وقد اورد الطبري نص كتابه للولاة . وهو كتاب طويل جداً استغرق اربع صفحات يدل ان صح ـ ولا مانع من صحته هو الآخر ـ على ما كان يتحلى به الوليد من بلاغة وفصاحة وقوة بيان وايمان بالله ورسوله ووجوب السير فيما فيه مصلحة المسلمين . وفيه تعظيم لطاعة الخلفاء ونصيحتهم وما في ذلك من قوام الدولة . واورد نص جواب والي خراسان نصر بن سيار جاء فيه (نبايع لعبد الله الوليد أمير المؤمنين والحكم بن أمير المؤمنين إن كان من بعده وعثمان بن أمير المؤمنين ان كان بعد الحكم على السمع والطاعة . وان حدث بواحد منهما حدث فأمير المؤمنين أملك في ولده ورعيته يقدم من أحب ويؤخر من أحب وعلى ذلك عهد الله وميثاقه) .

ولقد روى الطبري [1] ان الوليد استشار في تولية ابنيه للعهد فنهاه وقال انهما غلامان لم يحتلما واقترح عليه ان يبايع لعتيق بن عبد العزيز بن الوليد فغضب عليه . والروايات تروي ان ابراهيم الذي ولي بعد يزيد قد حبس الحكم وعثمان ثم قتلهما وان الحكم نظم قصيدة في الحبس يندب نفسه ويوصي بالخلافة ان لم يعش لمروان بن محمد وان اهل حمص ثاروا لمقتل الوليد وتمسكوا بحق الحكم واخيه بالخلافة بعد أبيهما ولا يكون هذا لو كانا غلامين لم يحتلما فيما يتبادر لنا .

ومما روي عن الوليد انه لاحق بني عمه هشام ملاحقة شديدة فحجز أموالهم وحبس بعضهم وجلد بعضهم ونفى بعضهم واستثنى من ذلك مسلمة لأنه كان يكثر النصح لابيه بالرفق به فأمر بأن لايضاروا ولاتحجز أمواله . ولقد كان اططهاده لابناء عمه حافزاً لهم ولانصارهم ولبعض أمراء بني أمية على التآمر عليه وخلعه وقتله على ما سوف يأتي تفصيله بعد .

ومما روي عنه انه كان مغرماً بالخيل والسباق كعمه هشام وان لم يبلغ مبلغه المروي ان

---

(٢) ج ٥ ص ٥٣٩و٦٠٦ .

لم يكن فيه مبالغة . وانه كان يقيم الحلبة فيجري فيها ألف فرس .

ولقد روى الطبري عن عمرو بن شراحيل الذي كان من المتكلمين بالجبر والقدر والذي روينا خبر نفيه مع رفاق له من قبل هشام انه لما استخلف الوليد كلمه فيهم بعض أخصائه والتمس منه اطلاقهم فأبى وقال ماعمل هشام عملا ارجى له عندي ان تناله المغفرة به من قتله القدرية ونفيه اياهم حيث يدل الخبر على التزامه سنة النبي والسلف الصالح في هذا الامر وشدته على اهل الاهواء والبدع .

وكذلك روى الطبري انه اغزى اخاه الغمر في البر وامر على جيش البحر الاسود بن بلال المحاربي استمراراً لعادة الغزو للروم من البر والبحر . وانه امر الاسود ان يذهب الى قبرص فيخرج اهلها منها ويخيرهم بين المسير الى الشام او المسير الى ارض الروم فاختارت طائفة منهم الشام وطائفة ارض الروم حيث يبدو انه لوحظ على أهل قبرص مخامرة ما ضد المسلمين ودولتهم وسلطانهم .

ومن الاحداث الهامة التي كانت للوليد وفيها صورة من صور الحكم اعتقاله لخالد بن عبد الله والي العراق السابق وتسليمه لوالي العراق اللاحق وتعذيبه وقتله . ولقد روينا خبر عزل هشام لخالد ومصادرة مبلغ كبير منه لقاء المكسور من الخراج في سيرة هشام . ويظهر ان خصومه وشوا به الى الوليد وقالوا له انه لا يزال في ذمته خمسون ألف ألف . فكتب إليه انه قد علم حال الخمسين ألف ألف وطلب منه أن يقدم عليه ابنه يزيد للمحاسبة . فاستشار ذريه فمنهم من أشار عليه بخلع الوليد والثورة عليه ومنهم من اشار عليه بالتواري فأبى هذا وذاك لما في الرأي الاول من فتنة وفي الثاني من نذالة وجبن وقدم عليه بدون ابنه الذي كان حينئذ متبدياً في الصحراء فراراً من هشام . فلما دخل خالد على الوليد سأله عن ابنه فأخبره أمره فقال له بل انك خلفته وراءك طلباً للفتنة وأمر باعتقاله وأوعز إلى صاحب شرطته بتعذيبه . وقدم يوسف بن عمر والي العراق على الوليد فقال له انا اشتري خالداً بخمسين ألف ألف اذا سلمتني اياه . فأرسل الوليد الى خالد في سجنه يقول له اما ان تضمن مبلغ الخمسين ألف ألف واما ان ابيعك ليوسف واسلمك له وهو يدفع المبلغ فقال خالد ما عهدت العرب تباع . والله لو سألتني ان أضمن عوداً ما ضمنته فاصنع ما ترى فسلمه ليوسف بن عمر الذي ضمن المبلغ فأخذه هذا معه الى العراق حيث عذبه وجلده ثم قتله . ولقد اثار هذا اليمانية من جند الدولة لان خالداً يماني وجعلهم يندمجون في المؤامرة التي انتهت بقتل الوليد كذلك .

ومما رواه اليعقوبي انه وجد في بيت المـــال بعد وفاة يزيد سبعة وأربعون ألف ألف دينار [1] . ومهما يمكن ان يكون في الرقم مبالغة فان ذلك لا يمنع ان يكون للخبر اصل ما وان يكون الرقم ترديداً لذكرى حادث وجود مبلغ عظيم المقدار في بيت ماله بعد وفاته . وقد يكون في هذا المقدار ما ورث عن الخلفاء السابقين . وعلى كل حال ففي الخبر صورة من صور ثروة الدولة الضخمة كما هو المتبادر . واذا ذكرنا ان الوليد قد زاد اعطيات الناس عشرة دنانير واعطيات اهل الشام عشرين ديناراً وانه كان سخياً كما رويناه قبل ازدادت هذه الصورة قوة وضخامة .

ولقد جرى على يد الوليد حادث شخصي هام آخر فيه كذلك صورة من صور الحكم . فقد ضرب والي قنسرين الوليد بن القعقاع وكان يمانياً شخصاً معروفاً من رجالات العرب هو ابن هبيرة . فجاء ذوو المضروب الى الوليد يشكون الوالي فعزله وجد في طلبه حتى ظفر به وسلمه مع أخ له وبعض أقاربهم الى ابن هبيرة وذويه فعذبوهم فماتوا بالعذاب [2] . وقد اثار هذا الحادث كالسابق نقمة اليمانيين على الولـيد وجعلهم ينضمون لخصومه ويتألبون عليـه في أواخر خلافته على ما سوف نورده بعد .

ومما روي من اعماله وفيه كذلك صورة من صور الحكم انه اجمع عـلى عزل يوسف بن عمر عن ولاية العراق بعد ان شفى غليله من خالد بن عبد الله فكتب إليه يقول انك كتبت الى امير المؤمنين تذكر تخريب ابن النصرانية يعني الوالي السابق خالد لأن امه كانت نصرانية ثم اسلمت البلاد . وقد كنت على ما ذكرت من ذلك تحمل الى هشام ما تحمل . وقـد ينبغي أن تكون قد عمرت البلاد حتى رددتها الى ما كانت عليه . فاشخص الى أمير المؤمنين فصدق ظنه بك فيما تحمل إليه لعمارتك البلاد . وليعرف فضلك على غيرك . لمـــا جعل الله بينك وبين امير المؤمنين من القرابة فانك خاله واحق الناس بالتوفير عليه ولما قد علمت مما امر به لاهل الشام وغيرهم من الزيادة في اعطياتهم وما وصل به أهل بيته لطول جفوة هشام اباهم حتى أضر ذلك ببيوت الاموال فخرج يوسف إلى الشام واستخلص ابن عمه وحمل مـن الاموال والامتعة والآنية ما لم يحمل من العراق مثله . فلما قدم الشام لقيه حسان النبطي ليلا فأخبره ان الوليد عازم على عزله وتولية عبد الملك بن محمد بن الحجاج مكانه . وانه لا بد

---

(١) ج ٣ ص ٧٥ مطبعة الغري

(٢) ج ٥ الطبري ٥٤٣

له من اصلاح امر الوزراء فقال ليس عندي فضل درهم فقال عندي خمسمئة ألف درهم فان شئت فهي لك وان شئت فارددها اذا تيسرت . فقبل ثم قال له أنت أعرف بالقوم ومنازلهم من الخليفة مني ففرقها على قدر علمك فيهم ففعل . فقابله رجـــال حاشية الوليد بالبشاشة والتعظيم ودخل على الوليد فقدم له ما أتى به فسر وثبته في عمله (١) .

ولقد ذكرنا في سيرة هشام ما روي عن ولع الوليد بالشراب والقيان واللهو قبل ولايته. ولقد أعاد المؤرخون ذكر ذلك في سياق سيرته ورووا انه استمر عليه بعد ولايته وانه أول من حمل إليه المغنون من البلاد وجالس الملهين وأظهر الشراب . وانه طلب من والي خراسان ان يتخذ له برابط وطنابير وأباريق مـــن ذهب وفضة وان يجمع له كل صناجة وكل بازي وكل برذون فاره ثم يسير بكل ذلك بنفسه إليه مع وجوه أهل خراسان وان الوالي هيأ مطلوبه حتى قال أحد الشعراء في ذلك :

أبشر يا أمين الله	أبشر بتباشير
بابل يحمل المال	عليها كالانابير
بغال تحمل الخمر	حقابتها طنابير
ودل البربريات	بصوت البم والزير
وقرع الدف احيانا	ونفخ بالمزامير
فهذا لك في الدنيا	وفي الجنة تحبير

وانه نظم هذه الابيات الفاجرة البذيئة حينما أتاه البشير بموت هشام :

اني سمعت خليلي	نحو الرصافة رنه
أقبلت اسحب ذيلي	اقول مـــا مالهنه
إذا بنـــات هشام	يندبن والدهنه
يدعون ويلا وعولاً	والويل حـل بهـنه
أنا المخنث حقاً	إن لم أنيكهنه

وان بني هاشم رموه بالكفر واللواط والزندقة ومضاجعه امهات ولد ابيه . وانه فتح

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٥٤٠

المصحف فوقع على الآية (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد) فنصب المصحف غرضاً للنشاب واخذ يرميه وينشد :

أتوعد كل جبـار عنيد فهـا أنا ذاك جبار عنيد
اذاما جئت ربك يوم حشر فقل يارب خرقني الوليد

وانه انكر وحي الله على النبي وقال معرضاً به :

تلعب بالخلافة هاشمي بلاوحي أتاه ولا كتاب

وان صاحباً له اسمه البندار طلب منه ان يشرفه امام الناس بسارة كلامية لما وقف يريد أن يخطب الناس في موسم حج فأجابه الى سؤاله واستدعاه امام الناس فساره قائلا :

البندار ــ وهذا اسم الصاحب ــ ولد زنا والوليد ولد زنا وكل من ترى حولناولد زنا . افهمت قال نعم قال فانزل الان !

وانه دخل عليه بعض حجابه وكان في مجلس شراب وقيان مع اصحابه امتد اياماً فقال له يا امير المؤمنين ان بالباب جمعاً من وفود العرب من قريش وغيرهم . والخلافة تجل عــن هذه المنزلة وتبعد عن هذه الحال فقال اسقوه فأبى فوضع في فمه قمع وجعلوا يسقونه حتى خر ما يعقل سكراً .

وانه سهر ليلة مع جاريتين له لاهياً شارباً حتى مطلع الفجر ثم اخرج احداهمـا متلثمة فصلت بالناس وهي سكرى جنبة . وانه لما بلغه ان الناس يعيبونه بالشراب واللذات قال هذه الابيات :

ولقد قضيت ولم يجـــلل لمتي شيب على رغم العدو الذاتي
من كاعبات كالدمى ومناصف ومراكب للصيد والنشوات
في فتية تأبى الشموس وجوههم شم الانوف جحاجح سادات
ان يطلبوا بنوالهم يعطونها او يطلبوا لا يدركوا بترات

وانه اثر له في الخمر مقطوعات عديدة منها :

عللاني واسقـــياني من شراب اصفهاني
من شراب الشيخ كسرى او شراب الهرمزاني

ان بالكأس لمسكاً او بكفي مـــن سقاني
انما الكأس ربيع يتعاطى بالبنان

ومنها :

وصفراء في الكأس كالزعفران سباها الدهاقين من عسقلان
لها قاد رمح اذا صفقت تراها كلمة برق يمـــاني

ومنها :

لبت حظي اليوم من كل معاش لي وزاد
قهوة أبذل فيهــا طارفي بعد تلادي
فيزال القلب منها هائماً في كل وادي
ان في ذاك فلاحي وصلاحي ورشادي

ومنها :

امدح الكأس ومن أعملها واهج قوماً قتلونا بالعطش
انما الكأس ربيع باكر فاذا لم نذقها لم نعش

وانه ولغ بأختين من حفدة عثمان بن عفان هما سعدى وسلمى فتزوج باحداهما ثم طلقها ليتزوج بالاخرى وقد شبب بسعدى بعد طلاقها قائلا :

أسعدى ما إليك لنـا سبيل ولا حتى القيامـة من تلاق
بلى ولعـل دهراً ان يؤاتي بموت من خليلك أو فراق

وانه شبب بسلمى قبل ان يتزوجها قائلا هذه الابيات :

حدثوا ان سليمى خرجت يوم المصلى
فاذا طير مليح فوق غصن يتفلى
قلت يا طـير ادن مني فدنا ثم تدلى
قلت هل تعرف سلمى قال لا ثم تولى
فتظامى القلب كلا باطناً ثم تجـلى

ثم هذه الابيات :

شاع شعري في سليمى وظهر	ورواه كل بدو وحضر
وتهادته الغواني بينها	وتغنين به حتى انتشر
لو رأيـــنا من سليمى أثراً	لسجدنا الف الف للأثر
واتخذناها إماماً مرتضى	ولكانت حجنا والمعتمر
انما بنت سعيد قمر	هل حرجنا ان سجدنا للقمر

ثم قال المؤرخون ان هذه الافعال والاقوال المنكرة اثارت نقمة الناس عـــلى الوليد وكراهيتهم له فثاروا عليه . وتولى كبر ذلك يزيد بن الوليد الذي كان اكثر الناس كلاماً فيه حتى انتهى الامر إلى قتله وحلول يزيد محله [١] .

والمبالغة والتهويل والصنعة بارزة على كل هذه الروايات عن لهو يزيـــد وفسقه وفجوره وكفره وشرابه ومجونه أو جلها ولا يمكن ان يعقل . وكل ما يحتمل ان يكون انه كان يشرب قبل ولايته واستمر على ذلك فعظم وبولغ لتشويه اسمه وسيرته . ومن المحتمل شيء من ذلك في حياتـــه ومن قبل خصومه الذين حرصوا على خلعه من ولاية العهد او طمعوا بالخلافة والذين حقدوا عليه بسبب تصرفه معهم بعد ولايته . ومن المحتمل ان تكون المبالغة والتهويل في زمن الدولة العباسية أيضاً .

وكتابه الطويل الى الولاة الذي ألمعنا إليه مملوء بذكر الله تعالى وتعظيم كتبه وانبيائه وتعظيم الاسلام والنبي والخلفاء والخوف من الله والوقوف عنده ويمكن ان يساق كدليل على التهويل والاختلاق . وتشدده في امر اصحاب البدع القدرية والجبرية يمكن أن يساق كدليل آخر . ولا يمكن ان يصح ان يكون فاجراً فاسقاً كافراً لاهيـــاً ويستبشر الناس ويغتبطون بولايته كما روته الروايات .

ورواية المدني بأن الهاشميين رموه بالزندقة والكفر واللواط ومضاجعة امهـــات اولاد أبيه مهمة في هذا الباب . وقد روى معها ان الوليد اتخذ مئة جامعة (القيد الحديدي الذي

---

(١) في المجلد السادس من الاغاني فصل طويل في اخبار الوليد. فيه كثير مما سبق ايراده . وفيه كثير يماثله . صرفنا النظر عنه .

تغل به الايدي) على كل جامعة اسم رجل من بني هاشم لاعتقالهم وقتلهم . واهميتها آتية من كون الحركة الهاشمية دخلت في مرحلة خطيرة في عهد هشام بنوع خاص وكانت رسل محمد بن علي العباسي وابنه ابراهيم ودعاتهم تنشط بين بلاد الشام وخراسان ولم تلبث ان اخذت تتفجر حتى انتهت الى نجاحها في خراسان والعراق ثم في بلاد الشام ومصر وزالت بها الدولة الاموية

ولقد قال الطبري عبارة هامة وهي ان اعظم ما جني به على نفسه افساده عليه بني عميه هشام والوليد مع افساده على نفسه اليمانية وهم اعظم جند الشام . ونعتقد ان هذا هو مفتاح النقمة والحركة على يزيد اللتين انتهتا بقتله وان تلك الاقوال كانت على سبيل الدعاية والاثارة ان كانت انتشرت في زمنه حقاً .

ولقد روي انه لما حوصر في حصن النعمان بن بشير في برية حمص طلب رجلا شريفاً ليكلمه فكلمه يزيد بن عنبسه السكسكي فقال له الوليد (ألم ادفع الموت عنكم . ألم اخدم نساءكم . ألم اعط فقراءكم) فقال انما ننقم عليك انتهاكك المحارم وشرب الخمور ونكاح امهات اولاد ابيك واستخفافك بالصلاة والدين وامر الله . فقال له حسبك يا اخا السكاسك لقد اكثرت واغرقت وان فيما احله الله لسعة عما ذكرته . ثم قال اما والله لئن قتلتموني لا ترتقن فتنتكم ولا يلم شعثكم ولا تجتمع كلمتكم ثم رجع الى مجلسه ونشر المصحف واقبل يقرأ فيه وقال يوم كيوم عثمان حيث يدعم هذا ما قلناه آنفاً من ان ما عزي إليه من منكرات نشر عنه في حياته من قبل خصومه . واختلاق التهم الفاحشة وبثها بين الناس لاثارتهم ضد الموجهة اليهم امر مألوف في كل وقت كما لا يخفى .

ولقد ذكرنا قبل ما كان في بيت المال بعد وفاة الوليد من مبالغ ضخمة . ولا يمكن ان يصح هذا لو كان هذا الخليفة خليعاً ماجناً مغرقاً في الفسق والفجور .

وفي الاغاني ارجوزة له القاها على الناس خطبة منبرية . ان صحت وليس ما يمنع صحتها ففيها دليل على ما كان من قوة ايمانه بالله وتقواه والاستعانة به والتمسك بالقرآن وسنة الرسول ومن شأنها ان تنسف جل ما روي عنه من موبقات ومنكرات وهي :

الحمد لله ولي الحمد	احمده في يسرنا والجهد
وهو الذي في الكرب استعين	وهو الذي ليس له قرين
اشهد في الدنيا وما سواها	أن لا إله غيره إلها

مـــا ان في خلقـه شريك قـد خضعت لملكه الملوك
أشهد ان الدين دين احمـــد فليس من خالفـه بمهتـــد
وانـه رسول رب العرش القادر الفرد الشديد البطش
ارسله في خلقـــه نذيرا وبالكتاب واعظاً بشيراً
ليظهر الله بـذاك الدينـــا وقـد جعلنا قبل مشركينا
من يطع الله فقـــد اصابا او يعصه او الرسول خابا
ثم القرآن والهدى والسبيل قد بقيا لمـــا مضى الرسول
كأنه لمـــا بقي لديـــكم حي صحيح لا يزال فيكم
انكم من بعـــد لن تزلوا عن قصده او نهجـــه تضلوا
لا تتركن نصحي فاني ناصح ان الطريق فاعلمـــن واضح
من يتق الله يجـد غب التقى يوم الحساب طائراً الى الهدى
ان التقى افضل شيءفي العمل ارى جماع البر فيه قد دخل
خافوا الجحيم اخوتي لعلكم يوم اللقاء تعرفوا ما سركم
قد قيل في الامثال لو علمتم فانتفعوا بذاك ان عقلـتم
ما يزرع الزراع يوماً يحصده وما يقدم من صلاح يجـده
فاستغفروا ربـــكم وتوبوا فالموت منكم فاعلموا قريب

والروايات تذكر ان آل القعقاع وا ل خالد وبني الوليد وبني هشام صاروا إلبا واحدا عليه . وجاء اليمانيون الى يزيد بن الوليد الاول الذي كان اكثر الناس كلاماً في حق الوليد والذي كان يظهر النسك والورع والتقوى فعرضوا عليه ان يبايعوه .

وفي هذا توضيح اكثر لكلمة الطبري الهامة التي نوهنا بها قبل ودليل على ان الحركة ضد الوليد انما كانت منبعثة عن حزازات واحقادومطامع شخصية وقبلية .

وقد روي ان يزيد شاور عمراً بن يزيـد الحكمي احد رجالات الدولة فقال . شاور اخاك العباس فانه سيد بني مروان فان بايعك لا يخالفك احد فشاوره فقال له مهلا يا يزيد فان في نقض عهد آخر فساداً للدين والدنيا .

وينطوي في هذا تكذيب آخر لما كان يشاع عن الوليد من الكفر والزندقة والفجور كما هو المتبادر .

ولكن يزيد لم يرتدع واستمر في سعيه واخذ ينضم اليه الحاقدون من بني امية وغيرهم . وعلم العباس فقال لمن اخبره والله اني لاظنه — ويعني اخاه يزيد — أشأم نحلة في بني مروان ولولا ما اخاف من عجلة الوليد مع تحامله علينا لشددته وثاقاً وسلمته الى الوليد . وكلف من ينصحه بالارعواء والكف فقال يزيد والله لا اكف .

ولقد بلغ مروان بن محمد والي الجزيرة خبر الحركة فكتب الى سعيد بن عبد الملك كتاباً يقول فيه (إن الله جعل لكل اهل بيت اركاناً يعتمدون عليها ويتقون بها المخاوف وانت بحمد ربك ركن من اركان اهل بيتك . وقد بلغني ان قوماً من سفهاء اهل بيتك قد استنوا امراً ان تمت لهم رؤيتهم فيه على ما اجمعوا عليه من نقض بيعتهم استفتحوا بابا لن يغلقه الله عنهم حتى يسفك دماء كثيرة منهم . وانا مشتغل بأعظم ثغور المسلمين فرجاً ولو جمعتني واياهم لرممت فساد امرهم بيدي ولساني وخفت الله في ترك ذلك لعلمي ما في عواقب الفرقة من فساد الدين والدنيا . وانه لن ينتقل سلطان قوم قط الا في تشتيت كلمتهم . وان كلمتهم إذا تشوشت طمع فيهم عدوهم . وانت اقرب اليهم مني فاحتل لعلم ذلك باظهار المتابعة لهم فاذا صرت الى علم ذلك فتهددهم باظهار اسرارهم وخذهم بلسانك وخوفهم العواقب لعل الله ان يرد اليهم ما قد عزب عنهم من دينهم وعقولهم . فان فيما سعوا فيه تغيير النعم وذهاب الدولة فعاجل الامر وحبل الالفة مشدود والناس سكون . والثغور محفوظة . فان للجماعة دولة من الفرقة والسعة دافعاً من الفقر وللعدد منتقصاً . ودول الليالي مختلفة على اهل الدنيا والتقلب مع الزيادة والنقصان . وقد امتدت بنا اهل البيت متابعات من النعم قد يعنى بها جميع الامم واعداء النعم واهل الحسد لاهلها . وبحسد ابليس خرج آدم من الجنة . وقد امل القوم في الفتنة املا لعل انفسهم تهلك دون ما املوا . ولكل اهل بيت مشائيم يغير الله النعمة بهم . فأعاذك الله من ذلك واجعلني من امرهم على علم . حفظ الله لك دينك واخرجك مما ادخلك فيه . وغلب لك نفسك على رشدك) .

والكتاب عظيم في بابه وينطوي على تدعيم ما قلناه من كون انبعاث الحركة هو الاحقاد والحزازات والمطامع .

ولقد روى الطبري الذي اورد نص الكتاب ان سعيداً اعظم كتاب مروان وبعث به الى العباس اخي يزيد فدعا هذا اخاه فعذله وتهدده . فحذره يزيد وتظاهر بالغفلة والتنصل فقال له يا اخي اخاف ان يكون بعض من حسدنا هذه النعمة من عدونا اراد ان يغري بيننا وحلف له انه لم يفعل .

ولقد روى الطبري كذلك ان بشر بن الوليد دخل على العباس فكلمه في خلع الوليد وبيعة يزيد فنهاه العباس وقال يا بني مروان اني اظن ان الله قد اذن في هلاككم وتمثل قائلا :

اني اعيذكم بالله من فتن	مثل الجبال تسامى ثم تندفع
ان البرية قد ملت سياستكم	فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس انفسكم	ان الذئاب اذا ما الحمت رتعوا
لا تبقرون بأيديكم بطونكم	فثم لا حسرة تغني ولا جزع

ومما رواه ابن قتيبة ان يزيد بن خالد القسري جاء الى دمشق من البادية بعد مقتل ابيه واختفى واخذ يتصل بيزيد ويحرضه على المضي في حركته ويعده النصر والتأييد . وان الوليد علم بمجيئه واستطاع ان يعتقله . واراد ارساله الى يوسف بن عمر والي العراق فقال له انا ادفع لك يا امير المؤمنين الخمسين الف الف في ثلاث سنين على ان تكتب لي بأمان من كانت لي عنده وديعة وامان فيها ذمتي وموالي فقبل منه وكتب له ما طلب واحتبسه عنده حتى يؤدي ما تعهد به ، فلما اخذت حركة يزيد تقوى بانضمام وتأييد اليمانيين راود الوليد يزيد ابن خالد على كف قومه مقابل توليته العراق وتسليمه خصمه يوسف بن عمر اليه ليقتله بأبيه . ولقد استطاع يزيد بن خالد ان ينجو من سجنه ثم انضم الى قومه المحتشدين حول يزيد بن الوليد فذهبت المفاوضة سدى .

واستمرت حركة يزيد . وكان الوليد قد تبدى في الاغدف في الازرق فاغتنم الفرصة واقبل على دمشق فبايعه كثير من الناس . واستولى على خزائن الدولة وقصور الخلافة ثم اخذ يوزع الاموال على من تحشد حوله . ونصح اولياء الوليد الوليد بالانتقال الى حمص او تدمر لان له فيها انصاراً اقوياء فانتقل الى بادية حمص واتخذ قصر النعمان بن بشير مركزاً لحصانته .

وجاءت اليه حشود يزيد فأخذت تتصاول مع انصار الوليد وقد انضم اليهم بعض امراء

بني امية ومن جملتهم العباس بن الوليد .

غير ان ريح النصر هبت لناحية حشود يزيد فدارت الدائرة على انصار الوليد وقتل منهم خلق كثير . ثم طلب الوليد ان يكلمه احد اشراف جماعة يزيد فابتدر اليه يزيد بن عنبسة السكسكي وجرت بينهما المحاورة التي اوردناها قبل .

ومما رواه ابن قتيبة ان الوليد حينما يئس من النصر اعلن استعداده للانخلاع من الخلافة فأبى الحاقدون عليه إلا رأسه . و ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ يوم كيوم عثمان واخذ المصحف وجعل يقرأ فيه فدخلوا عليه وقتلوه واحتزوا رأسه واخذوه الى يزيد فأعطى حامليه الجوائز الستة . وكان ذلك لليلتين بقيتاً من جمادى الآخرة . سنة ١٢٦ هـ .

ومما رواه ابن كثير ان يزيد امر بنصب رأسه على رمح وبالطواف به في دمشق ثم علقه بحائط جامع دمشق فلم يزل معلقاً حتى انقضت دولة بني امية . ثم قال وقيل إن الذي بقي في الحائط هو اثر دمه .

والسياق يدعم ما قلناه من ان المطامع والعصبية القبلية واضطهاد الوليد لبني عمه بسبب ما كان من اضطهاد هشام له ومحاولة خلعه من ولاية العهد كان مبعث هذه الحركة الفريدة في تاريخ بني امية والتي كان لها آثار مشؤومة على دولتهم .

ولقد ثار اهل حمص لمقتل الوليد ثورة عظمى كما ثار مروان بن محمد والي الجزيرة وارمينية على ما سوف نذكره في سيرة يزيد ومروان حيث يدعم هذا ما قلناه آنفاً وينفي كون مجونه وفسقه سبباً .

وقد يكون الوليد مسؤولا عن ما حل فيه بسبب ما كان منه نحو خالد بن عبد الله وآل القعقاع وبني عمه . غير ان هذا لا يمكن ان يبرر الحركة التي شجبها وتخوف من عواقبها غير واحد من عقلاء بني امية انفسهم الذين كان من جملتهم العباس اخو يزيد ومروان بن محمد وسعيد بن عبد الملك .

ولقد روى ابن كثير ان يزيد ارسل برأس الوليد الى سليمان اخيه فقال يخاطب الرأس (اشهد انك كنت شروباً للخمر ماجناً فاسقاً . ولقد راودني على نفسي هذا الفاسق وانا اخوه

ولم يأنف ذلك) والرواية تتحمل كل الشك .

ولقد روى ابن كثير كذلك حديثاً نبويا جاء فيه (سيكون من امتي رجل يقال له الوليد هو اشد فساداً لهذه الامة من فرعون لقومه) وحديثاً نبويا آخر جاء فيه (لا يزال هذا الامر قائماً بالقسط حتى يثلمه رجل من بني امية) .

وهذان الحديثان مثل كثير غيرهما لم يردا في كتب الاحاديث الصحيحة . ونرجح انهما موضوعان للدعاية الحزبية ضد الوليد وبني امية .

ولقد كانت حركة الهاشميين العباسيين مشتدة في هذا الظرف في خراسان ولم تلبث ان انقلبت الى ثورة ناجحة سقطت دولة بني امية وقامت دولةبني العباس نتيجة لها.وهذاقد يدعم ما قلناه ويزيد الامر تفسيراً . ولقد كان يزيد الذي قاد الثورة على الوليد وحل محله فارسي الام .

ولعل هذا يكمن وراء هذه الروايات ضد الوليد التي دونت في عهد الدولة العباسية التي للفرس فيها يد نافذة .

ولقد كان ما وقع من خلاف وفتن وقتال بين الامويين مثيراً لشجن شاعر من شعراء الامويين هو الشاعر العبلي فنظم قصيدة يتفجع فيها من ذلك ويحذر من عواقبه كما فعل بشر بن الوليد وسعيد بن عبد الملك ومروان بن محمد حيث ينطوي في ذلك تأييد آخر بكون ما وقع لا يمت بصلة الى ما عزي الى الوليد من اخلاق شخصية . ومما جاء في القصيدة وهي طويلة :

شرك العدا في امرهم فتفاقمت	منها الفتون وفرقت اهواؤها
ماذا أومل ان امية ودعت	وبقاء سكان البلاد بقاؤها
اهل الرياسة والسياسة والندى	واسود حرب لا يخيم بقاؤها
غيث البلاد هم وهم امراؤها	سرج يضيء دجاالظلام ضياؤها
فلئن امية ودعت وتتابعت	لغواية حميت لها حلفاؤها
ليودعن من البرية عزها	ومن البلاد جمالها ورجاؤها
ومن البلية إن بقيت خلافهم	فرداً يهيجك دورهم وخلاؤها

لهفي على حرب العشيرة بينها هلا نهى جهالها حلماؤها

هلا نهى تنهى الغوي عن التي يخشى على سلطانها غوغاؤها

وتقي واحلام لها مضربة فيها اذا تدمى الكلوم دماؤها

لما رأيت الحرب توقد بينها وتشب نار وقودها وذكاؤها

نوهت بالملك المهيمن دعوة ورواح نفسي في البلاء دعاؤها

لبرد إلفتها ويجمع امرها بخيارها فخيارها رحماؤها

١٢ ــ يزيد الثالث بن الوليد الاول بن عبد الملك [١]

اختلفت الروايات في عمره حينما بويع بالخلافة بين ٣٧ و ٤٦ سنة . وهو ثاني خليفة اموي تولى بدون عهد سابق [٢] . وامه فارسية وهي شاه افريد بنت فيروز بن يزد جرد كسرى الفرس الذي قتل في خلافة عثمان . وقد روي ان ام امه هي بنت قيصر الروم وان ام ابي امه هي بنت خاقان ملك الترك . وان يزيد كان يفتخر بذلك ويقول :

انا ابن كسرى وابي مروان وقيصر جدي وجدي خاقان

وهو اول خليفة من ام غير عربية . وروي عن صفته انه كان اسمر طويلا جميل الشكل وعرف بالناقص لانه انقص الزيادة التي زادها الوليد في العطاء او ان هذا النعت قد نعت به من قبل مروان بن محمد على اختلاف في الروايات .

وقد عرف بالورع والنسك والعدل والصلاح . ومما روي انه كان قدرياً على مذهب غيلان وانه دعا الناس اليه . وحملهم عليه .

ومما روي انه خطب في الناس بعد استتباب الامر له في الشام فقال (ايها الناس ، اما والله ما خرجت اشراً ولا بطراً . ولا حرصاً على الدنيا . ولا رغبة في الملك . وما بي اطراء نفسي . وإني لمظلوم ان لم يرحمني ربي فاني هالك . ولكن خرجت غضباً لله ورسوله ودينه وداعياً الى الله وكتابه وسنة نبيه . لما هدمت معالم الدين واطفىء نور اهل التقوى وظهر

---

(١) هذه النبذة مقتبسة من الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٢١ وتاريخ الطبري ج٥ ص ٥٣٨ وبعدها ومروج الذهب ج ٣ ص ١٥٢ وبعدها والعقد الفريد ج ٣ ص ١٩٣ وبعدها والبداية والنهاية ج ١٠ ص ١١ وبعدها وابن الاثير ج ٥ ص ١٠٨ ــ ١١٤ .

(٢) الاول هو مروان بن الحكم .

الجبار العنيد المستحل لكل حرمة والراكب كل بدعة مع انه والله ما كان مصدقاً بالكتاب ولا مؤمناً بالحساب . وانه لابن عمي في النسب وكفؤي بالحسب. فلما رأيت ذلك استخرت الله في امره . وسألته ان لا يكلني الى نفسي . ودعوت الى ذلك من اجابني وسعيت فيه حتى اراح الله منه العباد والبلاد . ايها الناس ان لكم علي ان لا اضع حجراً على حجر. ولا لبنة على لبنة ولا اكرى نهراً . ولا اكثر مالا . ولا اعطيه زوجة وولداً . ولا انقل مالا من بلد الى بلد حتى اسد ثغر ذلك البلد وخصاصة اهله بما يغنيهم فان فضل فضل نقلته الى البلد الذي يليه ممن هو احوج اليه . ولا أجمركم في ثغوركم فأفتنكم وافتن اهليكم ولا اغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم . ولا احمل على اهل جزيتكم ما يجليهم عن بلادهم ويقطع سبيلهم . وان لكم عندي اعطياتكم في كل سنة. وارزاقكم في كل شهر حتى تستدر المعيشة بين اقصاهم كأدناهم. فان انا وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة . وإلا فلكم ان تخلعوني الا ان تستتيبوني فان تبت قبلتم مني وان علمتم احداً من اهل الصلاح والدين يعطيكم من نفسه مثل ما اعطيكم فأردتم ان تبايعوه فأنا اول من يبايعه ويدخل في طاعته . ايها الناس انه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . انما الطاعة طاعة الله فمن اطاع الله فأطيعوه ، فاذا عصى او دعا الى معصية فهو اهل ان يعصى ولا يطاع بل يقتل ويهان) .

ولئن صحت الخطبة — ولا مانع من صحتها — فان ما جاء فيها من اتهامات الوليد هي تبرير لثورته عليه وليس من شأنها اثبات هذه الاتهامات كما هو المتبادر. وفيها في الوقت نفسه صورة من اخلاقه وورعه وتقواه ورغبة شديدة في كسب قلوب المسلمين .

ولقد اثر له خطبة فيها ذم شديد للغناء خاطب فيها بني امية قائلا (اياكم والغناء فانه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة . وانه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعل المسكر فان كنتم لا بد فاعلون فجنبوه النساء فانه داعية الزنا .

ولقد غضب اهل حمص لمقتل الوليد واقام النوائح والنوادب عليه وامتنعوا من البيعة ليزيد وقتلوا واليهم عبيدالله بن عبد الملك وكاتبوا الاجناد فأجابهم طائفة كبيرة ،واتفقوا على البيعة للحكم بن الوليد . فلما انتهى الخبر الى يزيد كتب اليهم يدعوهم الى الشورى . فطردوا الرسل ثم خرجوا بقيادة ابي محمد السفياني وخالد بن يزيد بن معاوية الذي ايدهم في تمردهم زاحفين نحو الشام . فسير يزيد قوة بقيادة سليمان بن هشام واخرى بقيادة عبدالعزيز بن الوليد فكانت جولات حربية بين الطرفين ودارت الدائرة على اهل حمص في النهاية وقتل

منهم عدد كبير ثم جنح الطرفان الى المصالحة فبايع اهـــل حمص يزيد وصفح هـذا عنهم واحسن اليهم واطلق لهم الاعطيات. وولى عليهم الوالي الذي نصبوه بعد قتل واليهم الاموي.

ولم تكن ثورة حمص هي كل ما كان مـــن رد فعل لقتل الوليد . فقد نهض سليمان بن هشام وكان معتقلا في سجن الوليد بعمان فاستحوذ على اموالها وحواصلهـا . ونهض يزيد بن سليمان بن عبد الملك وكان في فلسطين فبايعه اهلها ، ونهض محمد بن عبد الملك بن مروان في الاردن فبايعه اهلها كذلك . غير ان يزيـــد سير عليهم الجيوش بعد انتصاره على ثورة حمص وتمكن من توطيد سلطانه في فلسطين والاردن واخذ البيعه من اهلها .

ولقد تمرد مروان بن محمد والي الجزيرة وارمينية واذربيجان ايضاً . وكان بذل جهده في دره الفتنة قبل تفاقمها فلم يصل الى نتيجة . وقد كتب الى الغمر بن يزيد اخي الوليد المقتول كتاباً يحثه فيه على النهوض والمطالبة بدم اخيه ويصف عمل يزيد والذين ايدوه بالمروق والفتنة والنكث ويغمز يزيد خاصة بما هو عليه من مذهب القدرية غير ان حركته في عهد يزيـــد وقفت عند هذا الحد ورضخ في النهاية لسلطان يزيد ودخل في بيعته حينما رآه قد تغلب على حركات حمص وفلسطين والاردن ووطد سلطانه فيها .

ومن الاحداث الشخصية الهامة التي اقدم عليها يزيـــد عزله والي العراق يوسف بن عمر الثقفي ارضاء لجماعة خالد بن يزيد وقومه اليمانيين انصاره في حركته . وقد عين شخصاً مكانه اسمه منصور بن جمهور من مذهب غيلان القدري الذي روي ان يزيد كان عليه . وامره بأخذ يوسف وعماله ليؤخذ للناس مظالمهم من مالهم ودمهم . وارسل معه كتاباً لاهـــل العراق ذكر لهم فيه مساوىء يزيد وما كان من حركته ضده بسببها التي قصد بهـــا مصلحة المسلمين وإقامة عمود الدين وما كان من تأييد الله لها حتى انتهت بقتل (عدو الله) على حسب نعته .

ولما بلغ يوسف خبر عزله اخذ يتعقب اليمانيين ويحبسهم ويستعد للتمرد على يزيد . ولكنه لم يلق التأييد القوي على ذلك فلم ير بدأً من التواري ففر الى البلقاء واستخفى فيها ، وجـد يزيد وعماله في طلبه حتى وجده في لباس امرأة فاعتقلوه ونتفوا لحيته وكان من اعظم الناس لحية واقصرهم قامة وارسلوه الى يزيد فأمر بحبسه ثم بارساله الى العراق لتؤخذ الحقوق منه .

ومما روي ان نصر بن سيار والي خراسان خشي العزل لما كان مـــن اخلاصه وهداياه للوليد فامتنع عن السمع والطاعة لوالي العراق الجديد لان ولاية خراسان كانت في معظم

هذا العهد تابعة داخلة في شمول ولاة العراق وأن يزيد تفادى الفتنة فكتب اليـــه يقره في ولاية خراسان مستقلا فوقف الامر عند هذا الحد .

ومما روي وفيه صورة من صور الحكم والعهد ان يزيد بن حجرة الغساني وكان دينـــاً فاضلا ذا قدر في اهل الشام دخل على يزيد فانتقده لتعيينه منصوراً بن جمهور والياً للعراق وما وراءه وقال له انه اعرابي جاف واقترح عليه تولية شخص من اهل الدين والصلاح والعلم بالاحكام والحدود . فعزل منصوراً وولى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز مكانه .

ولقد مرض يزيد بعد بضعة اشهر من ولايته فأخذ البيعة بولاية العهد بعده لاخيـــه ابراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بعد استشارة الامراء والا كابر وجاءت البيعة لهم من الامصار والآفاق . وقد روى الطبري ان القدرية الذين هو على مذهبهم حثوه على ذلك وقالوا له لا يحل لك ان تهمل امر الامة [1] هذا مع أن الوليد المقتول قد كان اخذ البيعة من الناس لابنيه الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده . حيث يبدو ان يزيد لم يعتبر هذه البيعة قائمة . ولم يلبث ان توفي . وكانت وفاته لعشر مضين من ذي الحجة سنة ١٢٦ هـ وقد دفن بين باب الجابية وباب الصغير في رواية وفي باب الفراديس في روايـــة اخرى وقد روي انه مات بالطاعون .

(١) الطبري ج٥ص ٥٩٣ .

١٣ – ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك (١)

●

تولى الحكم وعمره ٣٧ او ٤٦ سنة على اختلاف الروايات . وهو كأخيه من ام غير عربية غير اننا لم نقع على بيان لجنسها واسمها .

وكان اخوه اخذ له البيعة بولاية العهد فلما توفي بايعه اهل الشام عدا اهل حمص . ثم خرج عليه مروان بن محمد والي الجزيرة وارمينية واذربيجان . واقبل في جيش الجزيرة فحاصر قنسرين فدخلت في طاعته ثم اقبل على حمص فحاصرها فدخلت في طاعته ثم زحف على دمشق وقد بلغ جيشه معما انضم اليه من اجناد حمص وقنسرين(٨٠٠٠٠) وسير ابراهيم جيشاً للقائه عدته كما يروى (١٢٠٠٠٠) فالتقى الجيشان عند عين جر (عنجر)في البقاع فدارت الدائرة على جيش الشام حتى روي انه قتل منه ١٧٠٠٠ واسر مثلهم . وكانت دعوة مروان اولا لابني الوليد الحكم فعثمان لان لهما بيعة في رقاب الناس .

وكان يزيد قد اعتقلها وحبسها في الشام فعمد ابراهيم بمشورة بعض رجاله الى قتلها وقتل معها يوسف بن عمر والي العراق الذي لم يكن قد ارسل الى العراق . واستمر مروان في زحفه على الشام ودخلها ، وفر ابراهيم ، وثار موالي الوليد الى دار عبد العزيز بن الحجاج ولي العهد بعد ابراهيم فقتلوه ثم نبشوا قبر يزيد وصلبوه ، وحينئذ اقبل الناس على مبايعة مروان . فكان ثالث ثلاثة من خلفاء الامويين تولوا الحكم بدون عهد سابق .

وقد روي عن الحكم قصيدة نظمها وهو في السجن يندب فيها اباه ويشكو ظلامته ويستنجد بمروان ويرشحه للخلافة اذا مات هو واخوه ، وهذه هي منقولة عن الطبري :

ألا من مبلغ مروان عني ... وعمي الغمر طال بذا حنينا

---

(١) هذه النبذة مقتبسة من الطبري ج ٥ ص ٥٩٦ وبعدها وابن الاثير ج ٥ ص ١١٥ وبعدها والامامة والسياسة ج ٢ ص ١٢٣ والعقد الفريد ج ٣ ص ١٩٤–١٩٦ و مروج الذهب ج ٣ ص ١٥٢ والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ .

بأني قـــد ظلمت وصار قومي ... على قتـــل الوليد متابعينا
ايذهب كلبهم بدمي ومـــالي ... فـــلا غثا اصبت ولا سمينا
ومروان بأرض بني نزار ... كليث الغاب مفترس عرينـــا
ألم يحزنك قتـــل فتى قريش ... وشقهم عصي المسلمينـــا
ألا فاقر السلام عـــلى قريش ... وقيس بالجزيرة اجمعينـــا
وساد الناقص القدري فينـــا ... والقى الحرب بين بني ابينـــا
فلو شهد الفوارس مـــن سليم ... وكعب لم اكن لهم رهينـــا
ولو شهدت ليوث بني تمـــيم ... لما بعنا تراث بني ابينـــا
اتنكث بيعتي من اجل امي ... فقـــد بايعتم قبلي هجينـــا
فليت خؤولتي مـــن غير كلب ... وكانت في ولادة آخرينـــا
فان اهلك انا وولي عهـــدي ... فمروان امير المؤمنينـــا

وقد روي ان ابراهيم طلب الأمان من مروان فمنح له ودخل في بيعته . وهذه حادثة فريدة في تاريخ الدولة الاموية .

ومما قاله الطبري في صدد ولاية ابراهيم انه لم يتم امره وكان يسلم عليه جمعة بالخلافـــة وجمعة بالأمرة وجمعة لا يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالامرة . فكان ذلك امره حتى قدم مروان فخلعه . وقد مكث في الولاية اربعة اشهر في رواية وسبعين ليلة في رواية اخرى .

١٤ ـــ مروان الثاني بن محمد بن مراون [1]

هو ثالث ثلاثة من خلفاء بني امية امه غير عربية وجنسيتها كردية واختلفت الروايات في اسمها حيث ذكرت انه لبابة كما ذكرت انه ريا وصفاته الجسمانية المروية انه كان ابيض مشرباً حمرة ازرق العينين اشهل شديد الشهلة . كبير اللحية ضخم الهامة ربعة القامة .

واختلفت الروايات في سنه بين ٧٠ و٥٨ سنة وعلى كل فانه تولى وهو شيخ ناضج ومن صفاته الخلقية انه كان شجاعاً بطلا مقداماً حازم الرأي كثير المروءة كثير العجب .

وقد ولاه هشام ولاية ارمينية واذربيجان والجزيرة سنة ١١٤ هـ بعد ابيـــه فضبطها احسن ضبط ولم يكن يهدأ من الغزو في سبيل الله ففتح بلاداً كثيرة وحصوناً عديدة وقاتل طوائف مختلفة من الترك والخزر واللان وغيرهم وكسرهم وقهرهم .

وكان يعجبه اللهو والطرب ولكنه اشتغل عن ذلك بالجهاد والحرب . وكان بليغاً وقد اثرت عنه كتب عديدة قوية البيان والحجة كان يرسلها الى رجالات بني امية اثناء الفتنة ضد الوليد . واثر له هذه الابيات الغزلية الجزلة من الشعر :

وما زال يدعوني من الصبر ما ارى	فأبى ويدنيني الذي لك في صدري
وكان عزيزاً ان تبيني وبيننـــا	حجاب فقد امسيت مـني على عشر
وانكاهمـــا والله للقلب فاعلمي	اذا ردت مثليهـا فصرت على شهر
واعظم مـــن هذين والله انـــني	اخاف بأن لا نلتقي آخر الدهـــر
سأبكيك لا مستبقياً فيض عـــبرة	ولا طالباً بالصبر عاقبـــة الصبر

---

[1] هذه النبذة مقتبسة من الطبري ج ٥ ص٦٠٦ ـــ ٦٢٢ و ج ٦ وابن الاثير ج ٥ ص ١٢٠ـــ١٦٠ والعقد الفريد ١٩٦ـــ٢٠٥ ومروج الذهب ج ٣ ص ١٦٣ـــ١٨٥ والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ والامامة والسياسة ج ٢ ص ١٢٣ـــ١٣٧ وتاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٧٦-٨٦ .

وقد لقب بلقب الجعدي نسبة الى الجعد بن درهم الذي كان مؤدباً له . وكان صاحب مذهب كلامي عرف ايضاً بالمذهب الجهمي نسبة الى الجهم بن صفوان تلميذ الجعد . وكان جبرياً ولا يجعل تلازماً بين الايمان والعمل وكان مما يقوله ان الله في كل مكان بذاته وانه لم يكلم موسى تكليما[1] . والمتبادر ان اللقب اطلق عليه بعد موته اطلاقاً غمزياً .

كذلك لقب بلقب الحمار . واختلفت الروايات في تعليل ذلك فقيل انــه سمي كذلك لشدة صبره في ما كان في زمنه من فتوق وحروب . وقيل انــه سمي بذلك لان العرب تسمي كل مئة سنة حماراً وكان عهده قد اوشك على ان يتم به لبني امية مئة عام[2] . وهو كذلك لقب غمزي .

ولقد روى المسعودي عنه رواية تدل على قوة ارادته وجده وعزيمته . فقد كانت مدته مملوءة بالمتاعب فكان اكثر ايامه لا يدنو من النساء إلى ان قتل . ولقد برزت له جارية مـن جواريه فقال لها والله لا دنوت منك ولا حللت لك عقدة وخراسان ترتجف وتتضرم بنصر بن سيار وابو مجرم قد اخذ منه بالمخنق . وعذله بعض اوليائه في ترك النساء والطيب فقال لهم يمنعني ما منع امير المؤمنين عبد الملك . ثم ذكر لهم قصة الجارية التي ارسلت اليه من افريقية ابان فتنة ابن الاشعث في العراق ضد الحجاج التي اوردناها في سيرته وتمثل ببيت الاخطل الذي تمثل به :

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم ... دون النساء وان باتت بأطهار

ولقد شرحنا قبل كيف تمت له البيعة في الشام بعد سلسلة الانتصارات التي احرزها في زحفه من الجزيرة بعد موت يزيد فلا نرى ضرورة للاعادة . الا ان نرى ان ابن قتيبة قال ان الناس رضوا به لشجاعة وسخاء كانا فيه . وان امره قد غلظ وسلطانه قد استعلى وان الناس قد خافوه وهابره . وجاءته البيعة من الحجاز والعراق وغيرها .

---

(١) اعتقل خالد بن عبد الله القسري والي العراق الجعد بسبب مذهبه الذي خالف فيه مذهب السلف الذي كان يرى في الكلام في ذات الله وكنهه وفي القدر بدعة وضلالا . وخطب خالد يوم عيد الأضحى فقال ايها الناس ضحوا يقبل الله ضحاياكم واني مضحٍ بالجعد بن درهم عدو الله . ثم نزل فذبحه في اصل المنبر (البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ١٩) .

(٢) انظر النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٢٢ .

ومع ذلك فانه قد لقي مد ب ومشاكل عديدة استغرقت مدة خلافته . ولقد كان يقيم اثناء ولايته الجزيرة في حران فعاد الى منزله بعد ان استتبت له الخلافة فانتقضت في غيابه حمص ثم خرج ثابت بن نعيم في فلسطين وزحف على طبريا وحاصرها وكان عليها الوليد بن معاوية ابن مروان وكانت طبريا عاصمة القسم الشمالي من فلسطين . وانتقض اليمانية في الشام وامروا عليهم يزيد بن خالد القسري . وكان سليمان بن هشام قد طلب من مروان الامان مع ابراهيم ابن الوليد المخلوع فأمنه وكان معه في حصاره لحمص ثم تخلف عنه في الرصافة . وهناك حرضه جماعته وقالوا له انت ارضى عند اهل الشام من مروان واولى بالخلافة فاستنزله الشيطان – على حد تعبير ابن كثير – فأعلن خلع مروان وكاتب اهل الشام فانفضوا اليه من كل وجه .

وانضم اليه قائد جيش سيره مروان لقتال الضحاك بن قيس الخارجي في العراق مع جيشه حتى بلغ عدد ما اجتمع على سليمان نحو سبعين ألفاً . وقامت في اليمن حركة خارجية قوية بزعامة ابي حمزه الاباضي فسيطرت على اليمن ثم زحفت نحو الحجاز فسيطرت عليه ايضاً .

ولقد قابل مروان هذه الفتوق التي كانت تنفتق واحداً بعد آخر واحياناً اكثر من واحد في آن واحد برباطة جأش وحزم وسرعة وقوة فزحف نحو حمص وحاصرها مدة طويلة وضربها بالمنجنيقات حتى ثلم اسوارها واضطر اهلها الى النزول على حكمه فقتل وصلب عدداً كبيراً من المتمردين ووطد سلطانه عليها .

ثم زحف نحو الشام وتمكن من الايقاع بالمتمردين واعادة توطيد سلطانه عليها . وفعل مثل ذلك في تدمر التي اندمجت في حركات التمرد. ثم سير جيشاً عرمرماً لقتال سليمان بن هشام الذي حشد حشوده في أرض قنسرين فدارت بين الطرفين معارك ضارية ثم دارت الدائرة على سليمان وحشوده وانهزموا بعد أن قتل حسب الروايات ثلاثون ألفاً منهم . ومن جملتهم بعض اولاد سليمان . اما سليمان فقد نجا مع قسم من حشوده وتقهقر إلى العراق حيث اندمج مع حركة الخوارج ثم مع حركة أبي مسلم الخراساني بعد . وأرسل مروان جيشاً آخر إلى فلسطين تمكن من ايقاع الهزيمة بجيش ثابت بن نعيم وقتل عدد كبير منه واعتقال ثابت وبعض اخصائه حيث اخذوا إلى الشام فقتلوا وصلبوا. وتفرغ بعد ذلك للمصاولة مع الخوارج في العراق وفي الحجاز وتفصيل ذلك سيأتي في نبذة خاصة عقدناها على حركة الخوارج لما كان لهذه الحركة من خطورة وأحداث .

ولقد كانت هذه المتاعب شاغلة لمروان عن الاحداث التي كانت تجري في خراسان بتدبير

محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ثم ابراهيم ابنه من بعده وبقيادة ابي مسلم الخراساني والتي تفاقمت حتى كتب لها النصر في خراسان اولا ثم في العراق وقامت الدولة العباسية نتيجة لها في العراق . ولقد كتب له نصر بن سيار والي خراسان يعلمه بأمر هذه الحركة وتفاقمهافكتب فيما كتب ابياتاً من الشعر متفق على قافيتها وبحرها مختلف في بعض كلماتها وهذه هي كما رواها المسعودي :

أرى بين الرماد وميض جمر ... ويوشك ان يكون له ضرام

فان النار بالعودين تذكى ... وإن الحرب أولها الكلام

فان لم تطفئوها تجن حرباً ... مشمرة يشيب لها الغلام

اقول من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ امية أم نيام

فان يك قومنا أضحوا نياماً ... فقل قوموا فقد حان القيام

ففري عن رحالك ثم قولي ... على الاسلام والعرب السلام

فكتب اليه مروان : الشاهد يرى ما لا يراه الغائب . حيث كان مشغولا بالفتوق القريبة المباشرة .

ولقد روى المسعودي ان نصراً لما يئس من نجدة مروان كتب الى يزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق يستمده ويسأله النصرة وضمن كتابه هذه الأبيات ايضاً :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه ... وقد تبينت انلا خير في الكذب

بأن أرض خراسان رأيت بها ... بيضاً لو افرخ قد حدثت بالعجب

فراخ عامين إلا انها كبرت ... لما يطرن وقد سربلن بالزغب

فان يطرن ولم يحتل لهن بها ... يلهبن نيران حرب أيما لهب

فلم يجبه يزيد لأنه كان في شغل في فتن العراق . ولقد اضطر نصر إلى مغادرة خراسان حينما اشتدت حركة ابي مسلم ولم يعد له طاقة على البقاء والصمود وجاء الى الري فكتب كتاباً ثانياً الى مروان اخبره بخروجه وضمن كتابه هذه الابيات كذلك على ما رواه المسعودي ايضاً:

إنا وما نكتم من امرنا ... كالثور اذ قرب للناخع

او كالتي يحسبها اهلها — عذراء بكر وهي في التاسع

كنا نو فيها فقد مزقت — واتسع الخرق على الراقع

كالثوب اذ انهج فيه البلى — اعيا على ذي الحيلة الناصع

ثم ما لبث ان مات في الري كمداً .

ولقد روى المؤلف نفسه ان مروان وكل بالطرق عيونا فلم يكد كتاب نصر الاخير يصل الى يده حتى جاءه احد عيونه وقد اسر رسولا معه كتاب من ابي مسلم الى ابراهيم بن محمد بن علي العباسي يخبره فيه خبره وما آل اليه امره فقال مروان للرسول لا ترع . كم دفع لك صاحبك . قال كذا وكذا . قال فهذه عشرة آلاف درهم لك وانما دفع اليك شيئاً يسيراً . فامض بالكتاب الى ابراهيم ولا تعلمه بشيء مما جرى وخذ جوابه فأتني به ففعل الرسول ذلك فتأمل مروان جواب ابراهيم الى ابي مسلم بخطه يأمره فيه بالجد والاجتهاد والحيلة على عدوه وغير ذلك من امره ونهيه ، ثم ابيات من الرجز منها :

دونك امراً قد بدت اشراطه — ان السبيل واضح صراطه

لم يبق الا السيف واختراطه

وقد احتبس مروان الرسول وارسل امراً الى عامل البلقاء يأمره فيه بالمسير الى القرية المعروفة بالكداد والحميمة حيث كان يقيم ابراهيم مع اهل بيته فيشده وثاقاً ويبعث به اليه فنفذ العامل الامر فاعتقل ابراهيم وكان جالساً ملففاً في مسجد القرية وارسله الى مروان فسأله عن امر ابي مسلم فانكر فاخرج له كتابه وقال له يا منافق أليس هذا كتابك الى ابي مسلم ثم امر بحبسه وتعقب من علم مكانه من بني العباس فحبسهم وحبس معهم جماعة من بني امية عرف بمخامرتهم عليه منهم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والعباس بن الوليد بن عبدالملك وكان ذلك في حران حيث يقيم ، ولما اشتد امر ابي مسلم امر بقتلهم . وقد استطاع اخوة ابراهيم ابو العباس وابو جعفر واعمامه عبد الله وداود وعيسى وصالح واسماعيل وعبد الصمد النجاة والافلات والذهاب الى العراق حيث اختفوا في الكوفة الى ان استولت قوات ابي مسلم على خراسان ثم على الكوفة ، ويروى ان ابراهيم عين اخاه ابا العباس ولياً لعهده فكان اول الخلفاء العباسيين .

ولقد سير ابو العباس جيشاً نحو الشام لقتال مروان . وبادر مروان الى لقائه بجيش

روي انه كان اكثر عدداً من الجيش الزاحف . غير ان الدائرة دارت عليه فانهزم واستولى الزاحفون على ما لا يحصى من المال والمتاع . واستمر الزحف العباسي فاستطاع ان يستولي على بلاد الشام واحدة بعد اخرى ثم على دمشق بعد شيء من الجهد وايام عديدة من الحصار . وقد اوقعوا فيها خسائر كبيرة وروي انهم اباحوها ثلاثة ايام او ثلاث ساعات وجعلوا جامعها اسطبلا للدواب سبعين يوماً ونبشوا قبور بني امية وأحرقوا ما وجدوه من رفاتهم وقبضوا على عدد كبير من احيائهم فقتلوا وصلبوا . ومنهم من احرق حرقاً ومنهم من بسطت عليه الانطاع فخنقوا خنقاً .

ومما يرويه ابن قتيبة ان مروان بعد أن دارت عليه الدائرة وانهزم استشار احد خاصته بالارتحال بأمواله وعياله وانصاره الى ارض الروم والنزول في احدى مدائنها ومكاتبة صاحب الروم والاستيثاق منه حتى يقوي امره ثم يستأنف الجهاد في سبيل استرجاع ملك بني امية فقال له اعيذك بالله ياامير المؤمنين من هذا الرأي فتحكم فيك اهل الشرك وفي بناتك وحرمك وهم لا وفاء لهم ولا ندري ما تأتي بـه الايام . وان اتت حدث عليك حادث بالروم ضاع اهلك من بعدك . ولكن اقطع الفرات ثم استدع الشام جنداً جنداً فانك في كنف وجماعة وعزة لك في كل جند صارم يسيرون معك حتى تأتي مصر فانها اكثر ارض الله مالا ورجالا . ثم الشام امامك وافريقية خلفك . فان رأيت مـا تحب انصرفت الى الشام وان كانت الاخرى مضيت الى افريقية فقال صدقت ثم استخار الله وقطع الفرات فمر بكور من كور الشام فوثبوا عليه فأخذوا مؤخر عسكره فانتبهوه ثم مر بحمص فصنعوا له مثل ذلك ثم مر بأهل دمشق فوثبوا عليه حتى عامله الوليد بن معاوية . ثم مضى الى الاردن فوثبوا عليه ثم الى فلسطين فوثبوا عليه ثم مضى الى مصر ولم يتبعه الا الحجاج بن زمل السكسكي لاياد له عنده وتبعه عامله في الاردن ونفر قليل آخر . وقد بث شكواه لأحدهم فقال لقد انفرجت عني قيس انفراج الرأس ما تبعني منهم احد وذلك انا وضعنا الامر في غير موضعه واخرجناه من قوم ايدنا الله بهم – يعني اليمانية الذين اغضبهم هشام ثم الوليد من بعده – وخصصنا به قوماً والله ما رأينا لهم وفاء ولا شكراً .

ولقد استمر الزحف العباسي من ورائه مرحلة فمرحلة حتى دخل مصر والزحف من ورائه فحصر في ناحية من انحائها وحينئذ قال لمن معه من اخصائه وابنائه واخوته ان الجزع لا يزيد في الاجل وان الصبر لا ينقص الأمل ثم عبأهم واشتبك مع محاصريهم ولم يكن بين

الطرفين اي تكافؤ فقتل أكثر جماعته وفيهم بعض اخوته واولاده وتشرد باقيهم . فلما رأى ذلك نزل عن فرسه وكسر غمد سيفه وتمثل قائلا :

أذل الحيـــاة وهول الممات	وكلا أراه وخيما وبيـــلا
فان كان لا بـــد من ميتة	فسيري الى الموت سيراً جميلا

ثم قاتل قتالا شديداً حتى قتـــل . وكان ذلك لثلاث او ست مضين من ذي الحجة سنة ١٣٢ ﻫ

ومما يرويه المسعودي[1] إن قاتل مروان اراد الكنيسة التي كان فيها بنات مروان ونساؤه فوجد خادماً لمروان شاهر السيف يحال الدخول عليهن فأخذ فسئل عـــن امره فقال امرني مروان إذا هوقتل ان اضرب رقاب بناته ونسائه ثم قال لهم لا تقتلوني فانكم واالله ان قتلتموني ليفقدن ميراث رسول الله ﷺ فقالوا له انظر ما تقول فقال لهم إن كذبت فاقتلوني ثم قال لهم هلم فاتبعوني فأخرجهم الى موضع رمل فقال اكشفوا هنا فكشفوا فاذا البردة والقضيب ومخصر كان دفنها مروان لئلا تصير الى بني هاشم فوجه بها القائد الى عبد الله بن علي فوجه بها إلى ابي العباس فتداولت ذلك خلفاء بني العباس الى ايام المقتدر . ويقول المسعودي ويقال ان البردة كانت على المقتدر في يوم مقتله ولست ادري أكل ذلك باق مع المتقي لله الى هذا الوقت ـ أي الوقت الذي كتب فيه ما كتبه ـ وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمئة في نزوله الرقة أم قد ضيع ذلك[2].

ولقد روى المؤرخ نفسه أن نساء وبنات مروان حملن إلى صالح بن علي عم الخليفة فقالت بنت مروان الكبرى نحن بناتك وبنات أخيك فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا . قال إذا لا نستبقي منكم احداً رجلا ولا امرأة . ألم يقتل ابوك بالامس ابن اخي ابراهيم .

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ١٧٦ .

(٢) ذكر زيدان في الجزء الاول من كتابه تاريخ التمدن الاسلامي ان البردة من جملة المخلفات النبوية في السراي القديمة في الآستانة والغالب ان العباسيين تداولوها ثم حلوها معهم الى مصر فاخذها السلطان سليم مع الخلافة (ص ١١٥) .

وقد كان القضيب مما يتداوله خلفاء بني امية على ما ذكرناه في سياق سيرة الوليد بن يزيد .

ألم يقتل هشام زيدا بن علي . ألم يقتل امرأة زيد بالحيرة على يدي يوسف بن عمر . الم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان . الم يقتل عبد الله بن زياد مسلم بن عقيل . ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي . ثم اوقف حرم رسول الله موقف السبي يتصفحن جنود اهل الشام . فما الذي استبقيتم منا اهل البيت . قالت ليسعنا عفوكم اذاً قال اما العفو فنعم قد وسعكم فان احببت زوجتك من الفضل ابني وزوجت اختك من اخيه عبد الله قالت واي أوان عرس هذا بل تلحقنا بحران . ففعل فذهبن وأقمن مناحة لابيهن فيها .

ولقد قتل العباسيون بعد ذلك من ظفروا به من امراء بني امية قتــــلا ذريعاً مما سوف نفصله في سياق الكلام على الحركة العباسية .

الفَصل الثاني

الحركات والاحداث الخارجية
وسير الفتوح في عهد الدولة الاموية

الحركات والاحداث الخارجية

وسير الفتوح في عهد الدولة الاموية

●

قلنا في مطلع الجزء إن رقعة الدولة العربية الاسلامية قد اتسعت في ظل الامويين اضعافاً مضاعفة عما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين . ولقد جرى في سياق ذلك مصاولات بين العرب وغيرهم . منها ما كان بسبيل الفتح او ادى اليه ومنها ما كان بسبيل الدفاع والمقابلة وقمع التمرد وصد العدوان .

ولقد بدأ هذا وذاك منذ عهد مبكر من خلافة معاوية ثم استمر الى اواخر عهد الدولة تقريباً . مع التنبيه الى امر هام هو ان الفتوحات الكبرى قد تمت خلال خمس وعشرين سنة وبعبارة اخرى منذ ان امكن التغلب على الحركات والفتن الداخلية العنيفة التي كانت في زمن يزيد وعبد الملك . وما جرى قبل ذلك وبعده كان اما من قبل التمهيد والاختبار والغارات الخاطفة واما نتيجة لردود الفعل التي كانت تؤدي الى المصاولات بين جيوش الفتح العربي والبلاد المفتوحة وما وراءها .

وفي الكتب القديمة المدونة في القرن الثالث الهجري التي وصلت الينا مثل تاريخ الطبري وتاريخ اليعقوبي وفتوح البلدان للبلاذري والامامة والسياسة لابن قتيبة روايات كثيرة في صدد ذلك . وفيها بعض التغاير في الاسماء والتواريخ والاحداث . ويلمح في بعضها مبالغات ومفارقات وخيال ايضاً. غير انها متوافقة في الخطوط والنتائج العامة بحيث يصح ان يقال ان ذلك التغاير لا يحول دون الوثوق بالخطوط والنتائج العامة بل ويمكن ان يقال ان ما يلمح في بعضها من مفارقات ومبالغات وخيال لا يخلو من اصل ما ايضاً لانه متوافق مع تلك الخطوط والنتائج العامة .

وسنعرض في النبذ التالية خلاصات وافية تبرز فيها تلك الخطوط والنتائج دون توقف كثير ازاء تضارب بعض الروايات لأنه ليس من وراء ذلك طائل . ولانه كما قلنا ليس مؤثراً على ما تتطابق فيه هذه الروايات من خطوط ونتائج عامة .

اولا بين العرب والروم . وبين العرب والبربر خلال ذلك ايضاً وما ادى اليه ذلك من فتح انحاء كثيرة في الاناضول وبقية شمال افريقية ثم فتح الاندلس

●

لقد ظل الروم يشعرون بالحرقة والاسى على ما ضاع من ايديهم من اقطار واسعة غنية في سورية ومصر وبعض انحاء شمال افريقية . ويحاولون الكرة كلما سنحت الفرصة .

فكان من جراء ذلك نزاع طويل بين العرب وبينهم ثم بينهم وبين الدول الاسلامية غير العربية الجنس التي خلفت العرب . وامتد ثمانية قرون وتعددت مراحله . وقد كان عهد الدولة الاموية مجالا لمراحل مهمة منه تمكن العرب بنتيجتها من التوسع في الانحاء التي كانت في حيازة الروم او في ملكهم او تحت نفوذهم في آسية الصغرى والبحر الابيض المتوسط وشمال افريقية .

ولقد بدأ الروم بمحاولاتهم في البر والبحر منذ عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه وبخاصة ضد بلاد الشام فأمر معاوية حينما كان والياً للشام بالرد عليهم فسير حملات عديدة على حدود الاناضول الشرقية والجنوبية. ثم كان الاشتباك البحري العظيم المعروف بوقعة ذات الصواري والذي كان النصر فيه للاساطيل العربية . وقد حرك الروم اهل قبرص التي كان معاوية فتحها في سنة ٢٩ هـ فغزاها ثانية في سنة ٣٢ او ٣٥ ووطد السلطان العربي عليها ثم بعث اليها باثني عشر الفاً من اهل الديوان وجماعات من اهل بعلبك ليسكنوا فيها ويمنعوا اهلها من المخامرة مرة اخرى مع الروم على ما ذكرناه في الجزء السابق [1].

ومما كان في هذه المرحلة وفاتنا ذكره في الجزء المذكور الصراع على طرابلس الشام بين السلطان العربي واهلها وما والاه من النصارى بالتآمر مع الروم . وقد روى البلاذري

---

(١) ص ٢٢٠ — ٢٢٤ .

ثلاث روايات في صدد ذلك . واحدة تذكر ان اهلها ثاروا في خلافة عثمان وقتلوا الوالي العربي واحرقوا المراكب العربية التي كانت في الميناء وفروا الى القسطنطينية . وثانية تذكر ان معاوية وجه في خلافة عثمان بحبيب الازدي اليها فبنى في مرج على اميال منها حصناً سمي حصن سفيان وقطع المادة عن اهلها من البحر وغيره وحاصرهم فلما اشتد عليهم الحصار اجتمعوا في أحد حصونها الثلاثة وكتبوا إلى ملك الروم فبعث اليهم بمراكب هربوا عليها فدخل المسلمون المدينة وحصنوا الحصن الذي في الميناء وكان معاوية يوجه في كل عام جماعة كثيفة الى طرابلس لحمايتها ثم جلب جماعات من نبط العراق واسكنهم فيها ثم في عرقة وجبيل وبيروت وصيدا حيث يفيد هذا ان اهلها كانوا يتآمرون كما قلنا مع الروم او ان الروم كانوا يتصلون بهم ويحركونهم والراجح انهم كانوا من بقايا الروم او المتمذهبين بمذهبهم .

ولقد حدث حادث يمت الى هذا الباب في زمن عبد الملك ايضاً حيث روي انه جاء بطرق من بطارقة الروم – وهذا لقب عسكري وليس دينياً في ذلك الوقت – ومعه بشر كثير فسأل ان يعطى الامان على ان يقيم في طرابلس ويؤدي الخراج فأجيب فبقي فيها نحو سنتين ثم اغتنم فرصة كانت الحامية العربية متغيبة عنها فاغلق بابها وقتل عاملها واسر من كان عنده من الجند ولحق بأرض الروم . وقد لحق به المسلمون في مراكب كثيرة فظفروا به وارسلوه ومن معه الى الخليفة فقتله وصلبه .

وهناك رواية اخرى تذكر أن اهلها نقضوا العهد في ايام عبد الملك فسير إليها ابنه الوليد ففتحها فتحاً جديداً [١] .

وتعليقاً على خبر جلب معاوية جماعات من الانباط واسكانهم بعض سواحل الشام لتقويتها نقول ان الروايات لا تذكر كنه هؤلاء الجماعات . ونرجح انهم من الارومات العربية الجنس التي كانت تقطن العراق قبل الفتح او قبل الموجات العربيه الصريحة والتي اسلمت واندمجت في العروبة الصريحة والاسلام في سياق الفتح او بعد تمام حركاته في العراق إذ لا يعقل ان يأتي معاوية بجماعات لا تكون مندمجة قلباً وقالباً بالعروبة والاسلام ويقيمها في هذه الشواطىء التي كان معظم سكانها نصارى وفيهم جماعة كبيرة متمذهبة بالمذهب الملكي

---

(١) فتوح البلدان ١٣٣–١٣٥ .

الذي كان مذهب الروم .

ومن ذلك غزو معاوية سنة ٢٥ هـ عمورية . وقد ذكر البلاذري [١] الذي روى هذا الخبر ان معاوية وجد الحصون بينها وبين أنطاكية وطرطوس خالية فأنزل فيها جماعة من اهل الشام وقنسرين . ثم اغزى بعد سنة او سنتين يزيد بن الحر العبسي هذه الناحية وامره ان يفعل مثله . ثم غزا بنفسه سنة ٣١ هـ ارض الروم من ناحية المصيصة فبلغ دورليه فكان لا يمر بحصن بينها وبين انطاكية إلا هدمه .

ولقد اغتنم الروم فرصة النزاع بين علي ومعاوية فأخذوا يغيرون على حدود الشام الشمالية فصالحهم معاوية على مال واخذ منهم رهناً [٢] . غير أنه لم يكد الامر يستتب له حتى سارع إلى النشاط فشحن ملاطية بجماعات من أهل الشام والجزيرة لتقوية الجبهة الشرقية الموالية للشرق وخرج على رأس جيش من ناحية انطاكية فتوغل في كليكيا وهزم الروم فيها واستولى على بعض الحصون . ثم احضر جماعات من اهل بعلبك وحمص وغيرها فأسكنهم في انطاكية لتقوية الجبهة الشمالية العربية الموالية للجنوب الغربي من ارض الروم [٣] . ثم وطد ما كان قد بدأ به في زمن عثمان وما عرف في التاريخ الاسلامي بغزوات الصوائف والشواتي وهي جيوش كانت تتناوب غزو بلاد الروم المتاخمة للشام والعراق من نواحي الحدود الشامية الشمالية الشرقية والغربية والمرابطة فيها في الصيف والشتاء . ولم يكن الفتح والتوسع هدفاً أساسياً لها وانما كان القصد ارهاب الروم وإزعاجهم . غير أن الغزاة صاروا يتوغلون في ارض الروم ويستولون على ما يمكنهم الاستيلاء عليه منها . ولم تنحصر هذه الحركة في البر بل شملت البحر أيضاً حيث كانت السفن الاسلامية تغزو سواحل بلاد الروم الاسيوية وتزعجها.

ولقد نفذ معاوية هذا الترتيب باهتمام وحرص شديدين . فلم تكد سنة من سني خلافته تخلو من غزوة صيفية واخرى شتوية وغزوة بحرية على ما يستفاد من روايات الطبري الذي حرص على ذكر اخبارها في اوائل أحداث كل سنة من سني خلافة معاوية كأنها امر معتاد

---

(١) ص ١٧٠ وبعدها .

(٢) البلاذري فتوح البلدان ص ١٦٥-١٦٦و١٩٣ .

(٣) المصدر السابق ١٩٣ و ١٧٠ وبعدها.

ونظامي من امور الدولة وكان يكون في بعض سني خلافة معاوية غزوتان صيفيتان وغزوتان شتويتان من البر . وكانت احداهما من ناحية الجبهة الشرقية وطريقها ملاطية وثانيتها من ناحية الجهة الغربية الجنوبية وطريقها انطاكية ودروب جبل طوروس .

ولقد كان الروم يحاولون جهدهم في صد هذه الغزوات والمقابلة بالمثل ويشتبكون مع الغزاة المسلمين . غير ان هؤلاء كانوا على الأعم الاغلب ينتصرون عليهم ويهزمونهم ويملأون ايديهم بالغنائم والسبي منهم ويستولون على ما يستطيعون الاحتفاظ به من حصونهم ويخربون ما لا يستطيعون الاحتفاظ به منها .

ومن اسماء قواد هذه الغزوات في عهد معاوية بسر بن ارطأة ومالك بن عبيد الله وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وابو عبد الرحمن القيني ومالك بن هبيرة وعبد الله بن قيس وفضالة بن عبيدة وعبد الله بن كرز ويزيد بن شجرة وسفيان بن عوف وعبد الرحمن بن الحكم وجنادة بن امية ومحمد بن مالك ومعن بن يزيد وعياض بن الحارث وعمر بن مرة .

وقد حرصنا على ذكرهم تسجيلا لجهادهم وبطولتهم . وكان بسر ويزيد وفضالة وجنادة ممن يتولون قيادة الغزوات البحرية .

ولقد قدر معاوية ان هذه المصاولة ستستمر بين العرب والروم ما دامت القسطنطينية في يدهم ففكر في غزوها وفتحها . وقد ذكر الطبري ان بسر بن ارطأة – وكان يتولى احياناً قيادة الغزوات البرية ايضاً – سار على رأس غزوة صيفية حتى بلغ القسطنطينية وكان ذلك سنة ٤٣ ه[1] وان معاوية سير سنة ٤٩ او ٥٠ جيشاً جعل على رأسه ابنه يزيد وكان فيه بعض اصحاب رسول الله ﷺ مثل عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وابي ايوب الانصاري وسيره لغزو القسطنطينية ايضاً[2] . وقد اخترق هذا الجيش الاناضول من اقصى جنوبها الى اقصى شمالها حتى بلغ القسطنطينية وعسكر وراء اسوارها واشتبك مع بعض حامياتها وترك بعض الشهداء على ارضها منهم على ما هو مشهور ابو ايوب الانصاري الذي

---

(١) ج ٤ ص ١٣٧ .

(٢) ص ١٧٣ .

غدا قبره مزارا من مزارات مجاهدي المسلمين الاولين [1] . حيث يدل هذا على ان العرب قد بلغوا من التفوق على الروم والاعتداد بالنفس والجد في تقويض امبراطوريتهم مـــدى بعيداً فاستهانوا بهم ايما استهانة واستطاعوا ان يخترقوا الاناضول دون ان يخشوا كيداً او يلقوا مقاومة . ولو كان لديهم من معدات الحصار ما يكفي للتغلب عـــلى اسوار المدينـة وحصونها لافتتحوها .

واقد كان معاوية على حق فيما ذهب اليه من ضرورة الاستيلاء على عاصمة الروم ونسف دولتهم ومن كون الروم سيستمرون على حركات الازعاج ضد المسلمين ما دامت عاصمتهم قائمة لهم . ولقد فكر في ذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه حينما حث الجيش الزاحف على شمال افريقية بوجوب فتح الاندلس لان القسطنطينية انماتفتح بذلك على ما ذكرناه في الجزءالسابق .

ولقد كان الروم يكرون على بلاد المسلمين كلما سنحت لهم الفرصة وامكنتهم الظروف طيلة بقاء دولتهم وعاصمتهم قائمتين وسواء أفي عهد الدولة الاموية ام في عهد الدولة العباسية وكانت الفرصة والظروف تتكرر لصالحهم بما كان يقوم بين العرب من حروب ونزاع . وقد مر بعض صور من ذلك حتى اضطر معاوية الى مدافعتهم بالمال ، وتكرر ذلك في زمن عبد الملك بن مروان إبان انشغاله مع ابن الزبير على ما سوف نذكره بعد .

وفي سنة ٥٣ فتح قائد البحر جنادة بن امية الازدي جزيرة رودس وشحنهـا بالمرابطين المسلمين . وكانوا شديدي النكاية على الروم يعترضون في البحر ويقطعون سفنهم . وكان

---

(١) مما اورده الخضري بدون عزو الى مصدر انه كان من الشهداء عبد العزيز بن زرارة الكلابي الذي كان يتعرض للشهادة فلم يقتل فأنشأ يقول :

قد عشت في الدهر اطواراً على طرق ... شتى فصادفت منها اللين والبشعا
كلا بلوت فـــلا النعماء تبطرني ... ولا تخشعت من لأوائها جزعـــا
لا يملأ الامر صدري قبل موقعه ... ولا أضيق بـــه ذرعاً إذا وقعا

ثم ظل يقاتل حتى استشهد . وقد استدعى معاوية اباه حين جاء نعيه فقال له هلك والله فتى العرب فقال ابني او ابنك قال ابنك فآجرك الله فقال :

فان يك الموت اودي به ... واصبح مخ الكلابي زيرا
فكل فتى شارب كأسه ... فاما صغيرا واما كبيرا

وفي هذه صورة رائعة من الجهاد والتجلد (ج ٢ ص ٢١٣) .

معاوية يدر عليهم العطاء والارزاق [1] . وقد ذكر البلاذري [2] ان معـــاوية بن خديج الكندي غزا جزيرة صقلية في ايام معاوية بن ابي سفيان حيث يبدو مـــن ذلك سعة آفاق حركة الغزو في ايام هذا الخليفة .

ولقد توقفت هذه الحركة النشيطة بعد موت معاوية بسبب ما نشب من فتن داخلية في عهد ابنه يزيد ثم في عهد مروان وعبد الملك استغرقت اكثر من عشر سنين . وقـــد اغتنم الروم الفرصة وتحركوا ضد الحدود الشامية الاسلامية .

ولقداشار الطبري اشارة مقتضبة الى حادث من هذا القبيل سنة ٧٠ فقال إن الروم ثاروا واستجاشوا على من بالشام فصالح عبد الملك بن مروان ملك الروم على ان يؤدي اليـــه كل جمعة الف دينار خوفاً على المسلمين [3] .

وقد يدل ذكر الطبري لهذه الحادثة وحدها على أن الروم كانوا لحسن الحظ في شغل بأنفسهم في السنين العشر السابقة التي انشغل العرب فيها بأنفسهم .

ولقد ذكر ابن الاثير هذا الحادث في عبارتين الاولى [4] مثل عبارة الطبري والراجح انه نقلها عنه . والثانية جاء فيها [5] انه خرج عام ٧٠ هـ قائد من قواد الضواحي في جبل اللكام فتبعه فئات من الجراجمة والانباط والروم واباق العبيد ودخلوا لبنان وعاثوا فيـــه فساداً فحاسنهم عبد الملك لاشتغاله بابن الزبير ورتب لقائدهم الف دينار في الاسبوع ثم ارسل مولى له اسمه سحيم فتظاهر لقائدهم بالنقمة على عبد الملك حتى ركن اليه ثم وعد من انضم اليه من العبيد بالحرية والعطاء فانضووا اليه فتمكن نتيجة لذلك من قتل القائد وتشتيت شمل عصابته .

والراجح ان الروايتين تقصان خبراً واحداً وقع فيه لبس . ويفهم منه أن الروم حرضوا بعض سكان جبل اللكام للتشويش على السلطان العربي اثناء انشغال العرب بالفتن الداخليـــة . ولعلهم أرسلوا بسبيل ذلك بعض شراذمهم الى جبل لبنان ليثيروا بعض سكانه المتمذهبين بالمذهب الملكاني الذي كان مذهبهم ويتعاونوا معهم فعمد عبد الملك الى معالجة الحالة عـــلى

---

(١) الطبري ج : ص ٢١٤ . (٢) فتوح البلدان ص ٢٤٤ .

(٣) ج٥ ص٢ . (٤) ج ٤ ص ١١٩ . (٥) نفس الجزء ١١٨–١١٩ .

الوجه الذي ذكره ابن الاثير في روايته الثانية . وهو المعقول المتسق مع الظروف القائمة .

فالصراع كان قوياً مستمراً بين الدولة العربية ودولة الروم وقد مر في مرحلة شديدة في عهد معاوية حتى اخترقت حملات العرب الاناضول ودقت ابواب القسطنطينية . فليس من المعقول ان يستجيب ملك الروم الى رجاء عبد الملك فيسحب او يهدىء عصابات ارسلها خصيصاً للازعاج ونجحت في مهمتها . ومبلغ الاتاوة الاسبوعي المروي يدعم ذلك لانه من التفاهة في درجة لا يمكن ان يعرض على ملك دولة كفدية او جزية او يقبل به و كفى .

ولقد اورد خبر اتاوة معاوية وعبد الملك على صور اخرى نرى السياق مناسباً لايراد رواياتها والتعليق عليها . فقد روى الدبس [1] عزواً الى المؤرخين توافان وشدرانس انه في السنة التاسعة للملك قسطنطين اللحياني خرج المردة من لبنان فضبطوا ما كان بين الجبل الاسود المعروف اليوم بالجبل الاقرع فوق السويدية — في سواحل الاناضول مما يلي جبال طوروس —الى المدينة المقدسة اورشليم واستحوذوا على قمم لبنان وانضم اليهم كثيرون من العبيد والاسرى والوطنيين فبلغ عددهم الوفاً كثيرة وبلغ الخبر معاوية فخشي العاقبة وارسل وفدا الى الملك يطلب الصلح على ان يؤدي جزية سنوية فاجابهم الى سؤالهم واوفد معهم بطريقاً للمداولة و كتابة عهد الصلح و كتبت عهدة موثقة باليمين على ان يدفع العرب كل سنة للرومانيين ٣٠٠٠ ذهب و ٨٠٠٠ اسير وخمسين جواداً من الخيل الجياد [2] وان تكون مدة الصلح ثلاثين سنة . وعاد البطريق يحمل هدايا نفيسة جداً الى الملك .

وفي السنة الاولى للملك عبد الملك بن مروان تواترت غارات المردة في جوار لبنان وثقلت وطأة الطاعون والمجاعة في سورية فطلب عبد الملك تجديد عهدة معاوية وارسل وفداً وتعهد بدفع ٣٦٥ ديناراً كل سنة ومقداراً من العبيد والجياد .

وفي السنة الاولى للملك يوستنياس ارسل عبد الملك وفداً آخر وجدد الصلح على ان يمنع ملك الروم غارات عسكر المردة من لبنان ويصد غزواتهم ويدفع عبد الملك اليه في كل يوم الف دينار وعبداً وفرساً وان يقتسم الملكان خراج قبرص وارمينية الرابعة وايباريا قسمة

---

(١) تاريخ سورية الجزء الثالث المجلد الخامس ص ١٠٤ وبعدها .

(٢) في الرواية التي يعزوها الدبس إلى شدرانس (١٠٠٠ ذهب) و ١٠٠ عبد بدون خيل .

عادلة وقد اصدر ملك الروم امراً بابعاد ١٢٠٠٠ من المردة عن اوطانهم فاضر بذلك قوة المملكة الرومانية لأن جميع المدن المجاورة للبنان من المصيصة الى ارمينية الرابعة كانت ضعيفة وخالية من السكان بسبب غارات المردة .

وقد روى الدبس في المصدر نفسه عن السمعاني [١] رواية عجيبة اخرى مفادها ان الملك يوستنياس جهز جيشاً سيره الى سورية واشاع انه لمحاربة العرب ودفع الى قائده خلعاًسلطانية ورسالة مشرفة ليسلمها الى امير لبنان وامره بمقابلة الامير منفرداً وقتله حينما تسنح له الفرصة وان القائد قابل الامير واسمه يوحنا في قب الياس وبينما كان يتناول الطعام على مائدته اشار الى جنوده فوثبوا عليه وقتلوه ونشبت اثر ذلك معركة بين الروم والمردة كان النصر فيها للروم . ثم عمد القائد الى تهدئة غيظ المردة ومجاملتهم وقال لهم ان القسطنطينية محفوفة بمخاطر شديدة ومهددة بالعرب والفرس وهي في اشد الحاجة الى مساعدتهم واكثر لهم الوعود فهدأ المردة نتيجة لذلك ومشى مع القائد منهم اثنا عشر الفاً الى ارمينية للدفاع عن بلاد الروم وهناك احتال الملك عليهم فأبقاهم :

ومما رواه الدبس في هذا السياق ايضاً انه كان للمردة او الموارنة ملك ودولة ممتدة السلطان من جبال انطاكية الى جبال الجليل وانها ظلت محافظة على استقلالها بعد استيلاء العرب على بلاد الشام مدة طويلة تحت حكم امرائها او ملوكها وان الروم كان لهم مداخلة ونفوذ عليهم امتدا امداً طويلا حتى ان الملك يوستنيانس الاخرم ارسل جيشاً لاحضار بطرك الموارنة مكبلا بالحديد لامتناعه عن حضور مجمع ديني دعا اليه لاقرار عقيدة المشيئة الواحدة للمسيح وكان البطرك مخالفاً لذلك ومتمسكاً بعقيدة المشيئتين وان الجيش لما بلغ سورية وثب على دير مارون وقتل من رهبانه ٥٠٠ ودمره وتحول من هناك الى قنسرين والعواصم وضربها وقرض اصحاب المشيئة الواحدة عن آخرهم – والسياق يقضي ان يكون الذين قرضهم اصحاب المشيئتين – ثم جاء الى طرابلس وخيم مع جيشه في السهول المجاورة . وظل ملقياً الذعر في اصحاب العقيدة المخالفة الى ان مات الملك فثار عليه الاهالي وفتكوا فيه وشتتوا شمله .

ولقد ذكر لامانس اليسوعي في كتابيه حياة معاوية وتسريح الافكار ان المردة جماعة

---

(١) المصدر السابق ص ١١٢ وبعدها .

جبليون اشبه بالرحالين كانوا يسكنون جبال اللكام وكانوا يتحكمون في معابرها وان الروم حينما انسحبوا من سورية سيروا حملة منهم فأتت وتحصنت في لبنان واخذت تعيث في البلاد وتقلق أمن الدولة الاموية وان ذلك كان بعد نصف القرن السابع للميلاد وهـــذا يعني في اوائل عهد الدولة الاموية ، وان ملك القسطنطينية حينما اتفق مع معاوية ثم مـــع عبد الملك من بعده سحب هذه الطائفة الحربية من لبنان .

وقال هذا المؤلف فيما قال ان هـــذه الطائفة ظلت مدة طويلة مسيطرة على الدروب اي دروب بلاد الاناضول من جبال طوروس على ما كانت تعنيه هـــذه الكلمة [1] ــ وان الروم والعرب على السواء كانوا يدفعون لهم المخصصات .

وسياق لامانس قد يتفق بعض الشيء مع رواية ابن الاثير الاكثر وجاهة واتساقاً مع الظروف التي كان عبد الملك مشغولا فيهـــا بابن الزبير على أن التهويل والمفارقة يظلان يكتنفان دعوى الدبس ولامانس عن قوة وبأس هذه الطائفة . وبخاصة فانها يكتنفان بقوة اكثر روايات الدبس لانها تعني فيما تعنيه وجود دولة واسعة السلطان نافذة السيطرة والسطوة في منطقة شاسعة من بلاد الشام ــ تمتد من جبل اللكام شمالا الى جبل لبنان الى جبل الجليل الى اورشليم ــ إبان قيام الدولة الاموية فتصول وتجول وتعتدي وترهب وترعب دون ان تقدر هذه الدولة على منعها وايقافها عند حدها بل وترى نفسها مضطرة الى الالتجاء الى ملوك الروم للقيام بهذه المهمة . ويرسل هؤلاء جيوشهم الى قلب بلاد الشام ويقومون بالمهمة ويبعدون اثني عشر الفاً من مقاتلي المردة بالحيلة او بالقوة ويعودون كما دخلوا بسلام دون أن يتحرشوا بالعرب او يتحرش بهم العرب .

ولا يقف الامر عند هذا فان ملك الروم يرسل في مسألة دينية جيشاً الى بـــلاد الشام فيدمر اديرة النصارى المخالفين لمذهب الروم ويقتل رهبانها ويصل الى طرابلس لاعتقال بطرك الموارنة ويكبله بالحديد ويرغم المخالفين لمذهب الروم على تغيير مذهبهم خوفاً وتقية ويظل مرابطاً الى ان يموت الملك فيثب عليه الموارنة ويفتكون به .

---

(١) والى هذا المعنى يشير البيت المأثور عن امرؤ القيس الشاعر الجاهلي :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وايقـــن انا لاحقـــان بقيصرا

واستحالة الروايات على الوجه المروي تبدو واضحة إذا مـا تذكرنا أن الصراع كان على أشده بين العرب والروم منذ بدء الدولة الاموية وغزوات العرب الصيفية والشتوية البرية والبحرية متواترة من بدء خلافة معاوية الى نهايتها ثم طيلة خلفائه من بعده على ما سوف يأتي بيانه . وقـد اخترقت جيوش معاوية الأناضول مرتين ووصلت الى اسوار القسطنطينية ، وفعلت مثل ذلك جيوش سليمان بن عبد الملك على ما سوف يأتي بيانه كذلك .

فليس من المعقول اولا ان تكون الدولة الاموية في عهد معاوية في مثل هذه القوة وتسكت عن حركات المردة المزعجة في بقعة شاسعة من بلاد الشام الـــتي كانت مركز قوة الدولة الاموية وحيويتها وبخاصة ان عهد معاوية كان خالياً تقريباً من الفتن الداخلية التي يمكن ان تشغله عن هذه الطائفة او تجعله يغضي عن حركاتها .

وليس من المعقول ثانيـاً ان يلتجيء معاوية الى ملك الروم الذي يغزو بلاده كل سنة اكثر من مرة ومن اكثر من ناحية ويطلب منه ان يحمل هذه الطائفة على الكف عن حركاتها .

وليس من المعقول ثالثاً ان يوافق ملك الروم على ذلك مقابل بضعة آلاف دينار في السنة . واذا كان عبد الملك ابان انشغاله بمسألة ابن الزبير قـــد دفع اتاوة لتسكين حركات المردة فالمعقول ان يكون الامر كما ذكرته رواية ابن الاثير .

ولا يعقل ان يقبل ملك الروم ذلك لقاء مبلغ تافه من المال ثم يكون في امكانه ان يرسل جيشاً لارغامهم على السكون وان يكون في استطاعة هذا الجيش ان يدخل الى صميم بلاد الشام واخراج (١٢٠٠٠) مقاتل من المردة لان هذا يعني فيما يعنيه قدرة الروم على اجتياح بلاد الشام بجيوش ضخمة ثم لا يبقون فيها ولا يقوضون ملك الامويين عنهـــا وهم الذين كانوا يحركونها ويحرضونها ويترقبون كل فرصة ويبذلون كل جهد لازعاج الدولة العربية والتشويش عليها والكرة على البلاد التي اجبرهم العرب على تركها وقلوبهم تتقطع حسرات عليها .

ولا يعقل كذلك ان يدخل جيش رومي قوي الى بلاد الشام في مناسبة خلاف ديني فيعيث في شمالها ويقتل النصارى المخالفين لمذهب الروم حتى يكاد يمحوهم ويدمر اديارهم ثم يصل الى طرابلس للقضاء على ما كان في انحائها منهم ويقوى عليهم دون ان يكون قـــد اصطدم بقوات الدولة الاموية وتغلب عليها ويكون قد عف مع ذلك عن بسط سلطان دولته على بلاد الشام عوداً على بدء وهو مـــا كان ينبغي ان تزعمه تلك الروايات حتى تتم

فصول هذه المستحيلات .

ولقد ذكر الدويهي في كتابه تاريخ الموارنة [1] نقلا عن ابن القلاعي ان امير الموارنة وصل في حركاته المزعجة الى البقاع وقتل كثيراً مــن اهلها ونهبها فلمــا انتهى امره الى عبد الملك ارسل اليه هدية كأنه يريد مصادقته وكان يقصد اصطياده ولم يزل يمكر به حتى قتله وقتل كثيراً من عسكره وابعد الموارنة عن البقاع . وهذا يشبه رواية ابن الاثير وان جاء في السياق كلام كثير فيه كثير من التخليط .

ولقد كان جنوح عبد الملك الى مهادنة عصابات جبل اللكام ومدافعتهم بالاتاوةالاسبوعية مع كيده لقائدهم وقتله وتشتيت عصاباته بسبب انشغاله بمسألة ابن الزبير .

والمستفاد من روايات الطبري والبلاذري انه حالمــا شعر ان بامكانــه الرد على الروم الذين ادرك انهم وراء حركات عصابات جبل اللكام اقدم على ذلك حيث قاد بنفسه في سنة ٧١ وقبل ان ينتهي من نزاعه مع ابن الزبير الذي كان في مرحلة التصفية جيشاً غزا بــه الاناضول وفتح قيسارية ثم اعاد ترتيب الصوائف والشواتي على النحو الذي كان في خلافــة معاوية من ناحية شرق الاناضول وجنوبها ومن البحر ايضاً . حتى لم تكد سنة مــن سني خلافته بعد هذه السنة تخلو من صائفة وشاتية من الناحيتين ومن غزوة بحرية .

وكانت تشتبك مع من يتصدى لها من حاميات الروم او غزاتهم وتنتصر عليهم على الاعم الاغلب . وكان الروم احياناً يكونون في موقف الغازي المهاجم غــير ان المسلمين كانوا يسارعون الى لقائهم ويحبطون كيدهم . ومما سجل من ذلك خروجهم مــن ناحية مرعش وخروج محمد بن مروان والي الجزيرة اليهم وردهم . وغارتهم على انطاكية وكان الطاعون في هذه الاثناء يجتاح الشام ومسارعة المسلمين الى رد الغارة . وغارتهم على ملاطيةوتشعيثهم اياها ومسارعة عبد الله بن عبد الملك الى الكرة عليهم واعادة ملاطية الى حوزة السلطان العربي . ومن ذلك غزو محمد بن مروان الصائفة سنة ٧٣ من ناحية ارمينية وكان عدد جيشه اربعــة آلاف فتصدى له من الروم عشرة اضعاف هذا العدد فانتصر عليهم وقتــل منهم مقتلة

---

(١) ص ٩٩ -- ١٠٠ ولعل هذه الحادثة هي نفس حادثة عصابات جبل اللكام التبست في الروايات لان ما فعله عبد الملك بأمير الموارنة مشابه لما فعله بقائد العصابات .

كبيرة وغنم وسبى . وتكرر ذلك في السنة التالية حيث دخل الغزاة المسلمون بقيادة عثمان ابن الوليد من هذه الناحية فغنموا وسبوا وعادوا منصورين سالمين ومن المـــدن المهمة التي استولوا عليها في هذه المرحلة قاليقلا والمصيصة .

وقد روى ابن الاثير ان الذي فتح المصيصة هو عبد الله بن عبد الملك وانـه بنى حصنها وأسكن فيها جماعة من المسلمين من ذوي البأس وبنى فيها مسجداً [1] . ومن قواد هـــذه المرحلة غير من ذكرنا يحيى بن الحكم . ولقد استمر خلفاء عبد الملك دائبين على هذا الترتيب بجد كبير . وظل الطبري يحرص على ذكر ذلك سنة بعد سنة بحيث لم تكد سنة تخـــلو من صائفة وشاتية طيلة اربعين سنة بعد عبد الملك .

وقد استولى العرب في هذه المرحلة على حصون ومـدن كثيرة منها طوانـة وقسطنطين وغزالة والاخرم وبولس وعمورية وسورية وادرولية وهرقـــلة وقمودية والازون وسوسنة وماسة وبديق وسميسطة وجنجر وبرجمة والمرأة وطولس ومية وورومية وقميقم وطيبة وصمالة وخرشنة وسندرة . واستولوا على جزيرة صغيرة قرب القسطنطينية اسمها ارواد وغزوا جزيرة اقريطش (كريت) وجزيرة صقلية . وكان غازي الاولى جنادة بن امية وغـــازي الثانية معاوية بن خديج ثم حبيب بن ابي عبيدة الفهري الذي فتح مدينة سرقوسة منهـــا واثخن في سائرها .

ومما ذكره الطبري في حوادث سنة ٩٨ ان مدينة الصقالبة فتحت هذه السنة . وروى في سياق ذلك ان برجان اغارت على مسلمة بن عبد الملك وهو في قلة من الناس فأمده سليمان بجمع فكرت بهم الصقالبة ثم هزمهم الله . وفتح المسلمون مدينتهم . ومما رواه كذلك ان امير البحر عبد الله البطال اسر في هذه المرحلة قسطنطين بن ملك الروم فأرسله الى سليمان بن هشام فسار به الى ابيه . وظل في الاسر الى ان افتدي بفدية عظيمة .

ولقد كان الروم يبذلون جهدهم في المقاومة والمقابلة في هذه المرحلة ايضاً . ومما سجلوه من الاعمال التخريبية البرية والبحرية غارتهم على سواحل اللاذقية وهدمهم المدينة في خلافة عمر

---

(١) ج ٤ ص ١٩٣ وابن الاثير مثل الطبري يذكر في سياق احداث السنين واحدة بعد اخرى اخبار الصوائف والشواتي العربية في ارض بلاد الروم وبحرهم متطابقاً مع ما يذكره الطبري من ذلك اقرأ الاجزاء ٣ و ٤ و ٥

ابن عبد العزيز وغارتهم على ملاطية وتشعيثها في زمن هشام بن عبد الملك .

غير ان هذه الاعمال كانت تافهة وعابرة ازاء ما كان يسجله العرب من انتصارات واستمرار ومن الذين تولوا قيادة الصوائف والشواتي في هذه المرحلة مسلمة بن عبد الملك ومحمد بن مروان والعباس بن الوليد وعبد العزيز بن الوليد وعمر بن الوليد والوليد بن هشام وبشر بن الوليد وداود بن سليمان وسعيد بن عبد الملك وابراهيم بن هشام ومعاوية بن هشام والنعمان بن يزيد بن عبد الملك ومروان بن الحكم بن محمد وعمرو بن هبيرة وعمرو بن قيس الكندي وعبد الرحمن ابن معاوية بن خديج والوليد بن القعقاع وعبد الله البطال القائد البحري المشهور الذي تذكر الروايات ان نساء الروم كن يخوفن اولادهن به [١] . ويلحظ ان معظم قواد الصوائف والشواتي من أبناء الخلفاء الامويين حيث يدل هذا على شدة اهتمامهم لها . بل لقد روي ان هشاماً خرج بنفسه على رأس الجيش حينما بلغه خبر غارة الروم على ملاطية بعشرين الفاً وكان ذلك سنة ١٢٣ هـ وقد وجد الروم قد رحلوا عنها فعسكر فيها ورمها وشحنها [٢] .

ولقد اعاد سليمان الكرة على القسطنطينية حيث بعث جيشاً بقيادة اخيه مسلمة في سنة ٩٧ هـ وامره ان يقيم عليها حتى يفتحها او يأتيه امره فشتى وصاف فيها . وامر جنده بأن يوفروا ما معهم من الطعام وان يغيروا على ارض الروم فيأكلوا منها وان يزرعوا ما احتاوه من الحقول ويبنوا فيها بيوتاً خشبية يأوون اليها .وقد استحصد الزرع الذي زرعوه فحصدوه واكلوه . وظل محاصراً للعاصمة قاهراً لأهلها ومعه وجوه الشام ومن جملتهم خالد بن معدان وعبد الله بن ابي زكريا الخزاعي ومجاهد بن جبر حتى مات سليمان وجاءه امر خليفته عمر بن

---

(٢) إقرأ الجزءين الرابع والخامس من الطبري حيث تجد في اخبار كل سنة من سني خلفاء بني امية اخبار هذه الغزوات والفتوحات واقرأ ايضاً فتوح البلدان للبلاذري ص ١٣٣-١٣٥ و ١٦٦-٢١٨ وانظر غزوة صقلية من قبل حبيب الفهري في الاستقصاء لدول المغرب الاقصى ج ١ ص ٩٤ ٩٥ وقد نقل ابن كثير عن ابن عساكر ترجمة للبطال الذي ظل يغازي إلى ان قتل مع جماعة من اصحابه في ارض الروم عام ١٢٢ هـ وقد روي عن لسانه انه سئل عن اعجب ما وقع له في مغازيه فقال انه خرج في سرية ليلا فدخل قرية واندفع في اناس من اصحابه إلى بيت يزهر بسراجه وإذا بامرأة قرب الشباك تسكت ابنها الباكي وتقول له لتسكتن او لادفعنك للبطال ثم تنتشله من سريره وترمي به من الشباك وتقول خذه يابطال فيمد يده فيأخذه ... ج ٩ ص ٣٣١و٣٣٢ واسمه الكامل هو ابو عبد الله يحيى البطال وهو من اهل انطاكية او نزلائها ...

(٢) البلاذري ١٩٤

عبد العزيز بالقفول [1] .

ومما رواه الطبري ان اليون ملك ارمينية طمح الى ملك القسطنطينية فاتصل بسليمان وأقنعه بتوجيه جيش لفتحها . فلما جاء جيش مسلمة وحاصرها وضيق عليها راجع بطارقة الروم اليون المذكور وقالوا له ان صرفت عنا العرب ملكناك . فأرسل الى مسلمة من ينصحه ويقول له ان القوم قد علموا انك لا تصدقهم القتال ما دام عندك طعام فلو احرقت ما عندك منه لعرفوا انك جاد مستميت فأعطوك ايديهم فعمل بالنصيحة فقوي العدو وضاق الامر على المسلمين حتى كادوا يهلكون من الجوع وأكلوا الدواب والجلود وورق الشجر وجذوعها فكتب مسلمة بما جرى عليه الى الشام وكان سليمان قد مات وتولى عمر بن عبد العزيز فأرسل اليه امراً بالقفول . ووفى بطارقة الروم لليون بما وعدوه .

وقد اوردنا الرواية ونحن نشك في صحتها. ولا سيما ان غزو العرب للقسطنطينية لم يكن جديداً حتى يحتاج الى محرض ماكر مثل ليون .

ومهما يكن من امر فقد حققت الغزوات العربية المتلاحقة اغراضاً عظيمة المدى حيث تمكن العرب بها من ارهاب الروم وسائر سكان آسيا الصغرى وفتح كثير من مدنهم وحصونهم واستصفاء جميع منطقة كليكيا من الجنوب وارمينية وديار بكر وربيعة من الشرق واخضاعها لسلطانهم .

ومن عجيب ما روته الروايات ان هذه الغزوات كانت تجري احياناً بينما تكون صلات الود موطدة بين ملوك الامويين وملوك الروم في القسطنطينية دون ان تتأثر هذه الصلات بها كأنما هي عملية عادية . فقد روى ابن كثير [2] ان ملك الروم ارسل وفداً لمعاوية فيه رجل طويل ورجل قوي فقال له ان كان عندك من هو اطول واقوى بعثت اليك من الاسارى كذا ومن التحف كذا وان لم يكن عندك مثلهما فهادني ثلاث سنين . فانبرى للطويل قيس ابن سعد فكان اطول منه وتبارى محمد بن علي بن ابي طالب – ابن الحنفية – مع القوي فغلبه وعاد الوفد يشهد بما رأى فأرسل ملك الروم ما التزم به . ولما عزم الوليد بن عبد الملك على

---

(١) انظر الطبري ج ٤ ص ٢٩١ ٢٩٢

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٠١ – ١٠٢

تجديد وتوسيع المسجد النبوي كتب الى ملك الروم يطلب مساعدته على ذلك فأرسل اليه مئة الف مثقال من الذهب واربعين حملا من الفسيفساء ومئة عامل [1] في الوقت الذي لم تقطع فيه غزوات الصوائف والشواتي فصلا واحداً في زمن الوليد وفي السنة التي ارسل يطلب فيها من ملك الروم مساعدته . ومن هذا القبيل في الغرابة ان الروم أسروا عام ٩٠ هـ خالداً ابن كيسان صاحب البحر وذهبوا به الى ملكهم فرده مكرماً الى الوليد [2] .

ويمكن تعليل هذا اولا بأن الغزو كان يقع على اهل البلاد اشبه بعمل عصابات غير حكومية . وثانياً بأن الروم كانوا ضعفاء في ظروف الاحداث المروية الى حد ان كان يهمهم عدم توتر الصلات بينهم وبين الملوك الامويين وكانوا يجنحون الى التقرب اليهم فلا يعتبرون الغزوات حرباً رسمية ويتغاضون عنها ويفسرونها تفسيراً يخرجها من نطاق الحروب الرسمية . ومما يخطر بالبال من التعليل ان الاناضول كانت مناطق يحكمها امراء اقطاعيون مستقلون في حكم بلادهم الداخلي فكانت صلتهم غير وثيقة بالعاصمة ولم يكن ملوك الروم يعتبرون هذه الغزوات موجهة الى سلطانهم !

وكما حاول الروم ازعاج العرب في جبهة الشام واغتنام الفرص للكرة عليها وكان من جراء ذلك تلك المصاولة الطويلة على هذه الجبهة حاولوا ازعاجهم في مرحلة الدولة الاموية في شمال افريقية ايضاً بالاشتراك مع البربر استفادة من طبيعتهم الحربية ومقاومتهم العنصرية التي لم يفل غربها الاستعمار الاجنبي .

ولقد كان الدور الذي لعبوه هنا انكى واشد كيداً ونال العرب منه عناء وشدة . وكلفهم كثيراً من الدماء والجهود . ولكنه أدى في النهاية خيراً للاسلام والعروبة لانه جعل العرب يهتمون لتوطيد سلطانهم وطابعهم ونشر الاسلام . وقد حالفهم النجاح في ذلك بأوسع مقياس حيث وطدوا السلطان والطابع العربيين والدين الاسلامي وقفزوا إلى اوروبا فأنشأوا الدرة الاندلسية التي تلألأت على مفرقهم ثمانية قرون طويلة وشعت من خلالها حضارتهم التي كان لها اثر عظيم في تطور بل قفزات الحضارة الانسانية .

ولقد شرحنا في الجزء السابع حركة الفتح العربي في شمال افريقية في خلافة عمر ثم عثمان

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٢٣ (٢) نفس المصدر ص ٢٢٦

رضي الله عنها وما كان نتيجة لذلك من توطيد السلطان العربي الاسلامي في برقة وطرابلس الغرب رتونس وبعض انحاء الجزائر . فلما انشغل المسلمون في الفتنة التي ثارت في اواخر خلافة عثمان وامتدت طيلة خلافة علي رضي الله عنهما اغتنم الروم الفرصة وحركوا البربر وتضامنوا معهم ضد الحاميات العربية . وطردوا الملك الذي ولاه عبد الله بن سعد مكان جرجير . فلما اجتمع الناس على معاوية امرواليه على مصر معاوية بن خديج الكندي بالزحف على افريقية فسار على رأس حملة استطاعت ان تهزم الروم وتخضع البربر وتوطد سلطان العرب للمرة الثانية . وكان ذلك في سنة ٥٠ للهجرة في رواية وسنة ٤٧ في رواية اخرى .

وقد تولى عقبة بن نافع الفهري ولاية البلاد المفتوحة بعد ذلك فأخذ ينشط في سبيل توسيع رقعة السلطان العربي والدعوة الاسلامية . واستطاع ان يسجل نجاحاً عظيما في المجالين . من جملة ذلك اخضاع قبائل لواتة ومراتة وفتح غدامس وودان وما اليهما . وقد انشأ في هذه المرحلة مدينة القيروان على الساحل التونسي لتكون له مركزاً ومعصما .

وقد روي فيما روي ان عقبة غزا البحر في سنة ٤٩ وشتى بأهل مصر حيث يبدو انه كان بسبيل حراسة السواحل واحباط ما قد يبدو من الروم من محاولات ضدها .

ولقد عزل معاوية عقبة وعين مكانه ابا المهاجر فنشط بعض النشاط وتمكن من مد السلطان العربي الى اماكن لم يكن قد وصل اليها في اقليمي تلمسان والجزائر . ومما روي – وهو غريب ويحتمل ان يكون خطأ في الاسم – انه نزل على طنجة فخرج اليه اهلها فاقتتل الفريقان ثم طلب اهل المدينة الصلح فصالحهم . وفتح منطقة ميله في سفرته التي امضى فيها سنتين . وقد اسلم على يده جماعة كبيرة من البربر من جملتهم كسيلة زعيم قبائل اوربا والبرانس البربرية وحسن اسلامهم وتعاونوا مع ابي المهاجر .

وفي سنة ٥٧هسير معاوية حساناً بن النعمان الغساني الى افريقية فوطد السلطان العربي على بعض انحائها وقبائلها التي لم تكن خاضعة لهوبقي الى ان مات معاوية . فعين يزيد بن معاوية عقبة والياً على افريقية فأخذ ينشط نشاطاً عظيما ويسجل انتصارات كبيرة على الروم والبربر معاً حتى لقد بلغ بلاد الزاب والسوس الادنى والسوس الاقصى ووطد السلطان العربي عليها. وهال الروم هذا النشاط فبذلوا جهودهم مع كسيلة وكان وقع جفاء بينه وبين عقبة فاستطاعوا ان يغروه على الارتداد هو وجماعته والغدر بعقبة وجيشه . وقد اغتنم فرصة

غياب عقبة عن القيروان فوثب عليها ولما عاد عقبة خرج اليه واشتبك معه في معركة ضارية ولقد كسر عقبة والمسلمون اجفان سيوفهم وقاتلوا ببسالة واستماتة غير ان الدائرة دارت عليهم واستشهد عقبة ومعظم جيشه فكانت كارثة عظمى كادت تذهب بجهود العرب التي بذلوها في هذه الاصقاع . وقد استطاع احد قواد الجيش زهير بن قيس البلوي النجاة مع بعض الفلول فجاء واقام في برقة متربصاً [1] .

ولقد شغل العرب في هذه الظروف بحركتي الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما على ما سوف نشرحه في نبذ اخرى فيسر ذلك لكسيلة الاستمرار في حركته والتبسط في فرض سلطانه وتصفية فتوحات العرب في افريقية (اي تونس والجزائر وما بعدهما) بالتعاون مع الروم .

ورغم ما كان يشغل عبد الملك بن مروان من حركة ابن الزبير ونشاطها في العراق والحجاز فانه لم ينفض يده من افريقية ولم ير ان يتأخر أكثر مما مضى في معالجة انتكاستها فأمر اخاه عبد العزيز والي مصر فجهز زهيراً بن قيس الذي اقام متربصاً في برقة فتقدم نحو افريقية واخذ يشتبك مع كسيلة وجماعاته من البربر ومع الروم الذين تحالفوا معهم اشتباكات عنيفة . وقد كتب له النصر عليهم وظفر بكسيلة فقتله مع عدد كبير من جماعاته واسترد القيروان . غير ان الروم انزلوا على بعض سواحل برقة جنداً كثيفاً وحاولوا ان يقطعوا خط الرجعة على زهير وجيشه . وقد سار هذا الى لقائهم . غير انهم تكاثروا على المسلمين واستطاعوا ان يقتلوه مع عدد كبير من جيشه فيهم كثيرون من اشراف قريش . ولما بلغ الخبر عبد الملك جهز جيشاً عظيما وسيره بقيادة حسان بن النعمان الغساني وقد وصف الجيش بأنه لم يدخل المسلمون افريقية بمثله . وكان اول بلد زحف عليها قرطاجنة التي قيل انها دار ملك افريقية وكان بها من الروم خلق لا يحصى فخرجوا اليه فقاتلهم وانتصر عليهم واستولى على المدينة ودمرها ثم زحف على منطقة صفورة التي تجمع فيها الروم والبربر فقاتلهم وانتصر عليهم ايضاً . ثم علم بأمر ملكة قيل له انها اعظم ملوك البربر في جبال اوراس تعرف بالكاهنة يطيعها البربر ويخافها الروم فزحف عليها واخذ يشتبك معها في معارك عنيفة لم يقع مثلها .ولقد انتصرت في الجولات الاولى فأثخنت في العرب قتلا واسراً وهزمتهم وتقهقر

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ١٠و١١ و ج ٦ ص ١٤٥ و ١٤٧ ومحاضرات الخضري ج ٢ ص ٢٤٠–٢٤١ وتاريخ الطبري ج ٤ ص ١٧٨ والنجوم الزاهرة ج ١ ص ١٢٤ وبعدها

حسان بن بحا من جيشه الى حدود برقة و كتب بالحال لعبد الملك فأمده بمدد عظيم فاستأنف نشاطه وأخذ يشتبك مع البربر والروم المتحالفين معهم حتى انتصر عليهم في النهاية وقتـــل الكاهنة واجلى الروم واوغل في البلاد حتى لم يعد موطىء لم يطأه حتى ساحل البحر الاطلانتي.

ومما رواه ابن عذاري الذي ننقل عنه هذا السياق السابق أن الكاهنة لما رأت حساناً يقوى ويعود الى النضال امرت بقطع الاشجار وتدمير الحصون والمدن والقرى وتخريب الطرق لتعسير حركة الزحف العربي وتموينه .

غير ان ذلك لم يمنـــع حساناً من مواصلة الزحف والاشتباك مع قوات الكاهنة واحراز الانتصارات عليها . وانها استشعرت بالخطر حينئذ وقالت لولدين لها انها رأت في المنام رأسها مقطوعاً وموضوعاً بين يدي ملك العرب وانها مقتولة لا محـــالة . ووصتها ان هي قتلت بالاستئمان لحسان والدخول في طاعته ودينه . فلما قتلت نفذا وصية والدتهما فجاءا الى حسان وعرضا عليه الطاعة وشرط عليهما ان يعطوه من قبائلهم اثني عشر الفا يجاهدون مـــع العرب فأجابوه وجاؤوا برجالهم فأسلموا على يده فعقد لكل واحد من الولدين على ستة آلاف فارس واخرجهم مع العرب لتعقب الروم والبربر الذين ظلوا معهم حتى تم اجلاء الاولين واخضاع الآخرين واستقامت بلاد افريقية لحسان . فدون الدواوين وصالح على الخراج و كتبه على عجم افريقية ومن اقام معهم على دين النصرانية. ومما روي عنه انه انشأ في تونس داراً لصناعة السفن فصنع فيها مراكب غزا بها جزيرة صقلية فكان اول غاز لها [1] .

وفي سنة ٨٩ في رواية و٧٩ في رواية تولى موسى بن نصير ولاية افريقية [2] فعاد البربر الى الانتقاض والتمرد . غير ان موسى الذي كان بدوره قوياً حازماً قابل الاحداث بقوة وجد وانتصر على المتمردين انتصاراً ساحقاً اطنب في وصفه ابن قتيبة في كتابه الامامة والسياسة اكثر من غيره و كتابه من اقدم ما وصل الينا من كتب التاريخ العربي .

---

(١) البيان المغرب لابن عذاري ج ١ ص ١٨ وبعدها وفتوح البلدان للبلاذري ص ٢٢٦ وبعدها . وتاريخ التمدن الاسلامي ج ١ص ١٩٥.

(٢) الرواية الاولى ذكرها البلاذري ص ٢٣٩ وقال ان الوليد هو الذي ولاه والثانية ذكرها ابن قتيبة ج ٢ ص ٥٧ وقال ان عبد العزيز بن مروان والي مصر من قبل عبدالملك هو الذي ولاه .

ومما رواه هذا الامام ان موسى لما وصل مركز عمله خطب في جيشه خطبة قوية بليغة جاء فيها فيما جاء (ان الامير قد ولاني عليكم ولم يأل ان اجهد نفسه في الاختيار لكم وانما انا رجل كأحدكم فمن رأى مني حسنة فليحمدالله وليحض على مثلها ومن رأى مني سيئة فلينكرها فاني اخطىء كما تخطئون واصيب كما تصيبون وقد امر الامير اكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً فخذوها هنيئاً مريئاً ومن كانت له حاجة فليرفعها الينا وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان مع المواساة ان شاءالله)[1] مما فيه صورة رائعة من صور حكام العرب وسياستهم .

ثم اخذ ينشط في قمع المتمردين واخضاعهم فسير جيشاً الى زغوان التي كان اهلها يغيرون على سرح المسلمين فقاتلهم وهزمهم وقتل عظيمهم . وسير جيشين آخرين بقيادة ولديه عبد الرحمن ومروان الى انحاء اخرى فحالفهم النصر وسبى المسلمون سبياً عظيماً حتى لقد بلغ خمس بيت المال منه ستين ألف رأس . وحينما جاء الخبر الى عبد العزيز بن مروان امير مصر لم يصدق الخبر حتى جاءه تأييد ثان . وارسل جيشاً ثالثاً اغار على قبائل هوارة وزناتة وانتصر عليها واخضعها وطلبت الصلح فصالحها . وفعلت كتار مثلها . ثم اغار بنفسه على صنهاجة فانتصر عليها واخضعها وسبى منها سبياً عظيماً جديداً . ثم غزا سجوما وما حولها واشتبك مع اهلها الذين كانوا مستعدين للقتال في معارك حامية وخرج منهم احد ملوكهم فطلب المبارزة فأخرج موسى ابنه مروان له وكان شاباً يافعاً حتى لقد استخف به خصمه غير انه انتصر عليه وقتله.

وأدى ذلك الى اضطراب جموع البربر وهزيمتهم وانتصار المسلمين عليهم انتصاراً عظيماً وسبى اعداد عظيمة جديدة وفيهم بنات ملوكهم . وقتل في هذه المعارك كبير ملوكهم كسيله بن لمزم .

ووجه ابنه موسى بعد ذلك الى السوس الاقصى التي يظهر انها كانت ممن تمرد فتصدى له ملكها مزدانة فاقتتلوا قتالا شديداً انتهى بهزيمة الملك وجيشه وقتل مقتلة عظيمة منهم وسبي سبي عظيم جديد .

وهكذا خضدت شوكة البربر في هذه المرحلة فخضعوا واعطوا الرهائن على الولاء واخذوا يقبلون على الاسلام . وقد عين موسى مولاه طارقاً على طنجة وما والاها وانزل فيها رهائن

---

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ٥٦-٥٧ .

البربر وكان عددهم ١٢٠٠٠ وانزل معهم من العرب ١٧٠٠٠ وامر هؤلاء بان يعلموا البربر القرآن ويفقهوهم في الدين .

ونتيجة لذلك اخذ نطاق الاسلام بين البربر الذين بداوا يقبلون على اعتناقه منذ الفتح الاول يتسع حتى شملهم في النهاية جميعاً كما اخذت اللغة العربية والطابع العربي طريقها الى التوطد والانتشار ووسم هذه البلاد واهلها بسمتها .

وكان للدين الاسلامي وكتابه المجيد من جهة وما كان يقوم من سلطان عربي في شمال افريقية من جهة وما كان وظل يتدفق على هذه البلاد من قبائل عربية فتنتشر في مختلف انحائها وتتمازج من البربر وتمزجهم فيها من جهة اثر قوي في كل ذلك .

ولقد روينا في سيرة عمر بن عبد العزيز انه عين للمغرب والياً اسمه اسماعيل بن حسن وكان حسن السيرة فأدى ذلك الى اقبال البربر الذين لم يكونوا قد اسلموا على اعتناق الاسلام . وغدا الدين الاسلامي دين جميع اهل البلاد [1] . بل ان حركة انتشار الاسلام والسلطان العربي اخذت تمتد الى الجنوب اي الى بلاد السودان لتكون موازية مع امتدادها الى الشمال اي في الاندلس وما والاها .

وما سجله التاريخ بعد ذلك من نشاط البربر فانه كان يجري في نطاق سمتهم الجديدة من الاسلام والعروبة [2] .

ولقد ثار البربر على واليهم يزيدبن ابي مسلم سنة ١٠٢ فقتلوه ولكنهم ولوا عليهم احد رجال العرب محمداً بن يزيد ثم كتبوا الى يزيد بن عبد الملك الذي صارت اليه الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز يقولون له اننا لم نخلع ايدينا من الطاعة ولكن يزيد بن ابي مسلم سامنا ما لا يرضى به الله والمسلمون فقتلناه ونصبنا عاملا علينا من عمالك العرب. فكتب اليهم يزيد يقول إني لم أرض بما صنع يزيد واقر الوالي الذي اختاروه [3] .

---

(١) انظر البلاذري فتوح البلدان ص ٢٣٧ .

(٢) انظر اجزاء كتاب الاستقصاء لدول المغرب الاقصى وتاريخ ابن خلدون الجزء السادس والسابع .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٣٥٨ .

ولقد سجل التاريخ بعض حركات أخرى قادها رجال من البربر ضد السلطان العربي في عهد الدولة الاموية وبعدها . غير ان هذه الحركات كانت في نطاق اندماجهم في الاسلام والعروبة . وكثيراً ما كان يندمج فيها عرب اقحاح . وكثيراً ما كان يقوم حركات مماثلة يقودها عرب ويندمج فيها بربر . واكثر هذه الحركات كانت متسمة بسمة حركة الخوارج الاسلامية وفي نطاقها وكثيراً ما كان يندمج فيها عرب أقحاح . وسنشرح صفحاتها في نبذة الخوارج حيث نجمع فيها حركة الخوارج في المشرق والمغرب معاً ان شاء الله .

ولقد سجل التاريخ قيام دول بربرية الرؤساء في شمال افريقية وفي الاندلس . غير انها كانت كذلك في نطاق اندماجهم في الاسلام والعروبة . بل ولقد كانت العروبة الطابع العام لهذه الدول . وكان كثير منها يتمسك بدعوى انتسابه الى العروبة [1] .

ومما رواه ابن قتيبة في سياق نشاط موسى بن نصير ان صاحب ارساف اغار على بعض سواحل افريقية فنال من اهلها فلما علم موسى بالامر خرج بنفسه اليه فلم يدركه فقال قتلني الله ان لم أقتله وأنا مقيم هنا. ثم دعا رجلا من اصحابه فأعطاه صرة وقال له سر بها الى مكان كذا تجد كنيسة وتجد الروم قد جعلوها لعيدهم فاذا كان الليل فادن منها ودع الصرة ثم انصرف . وقد وضع موسى في الصرة شيئاً من الخز والوشي ومن طرائف ارض العرب وكتب كتاباً بالرومية جواباً لكتاب كأنه كتب الى موسى عن صاحب ارساف يسأله الامان على ان يدله على ثروات الروم وعوراتهم وفيه ما طلبه من الامان . فسار الرجل حتى انتهى الى الموضع الموصوف وترك الصرة وانصرف . وعثر الروم على الصرة فاستنكروها وارتفع أمرها الى بطريق تلك الناحية وبعث بهاهذا الى الملك الاعظم فاستشف منها مؤامرة بين صاحب ارساف وموسى فعزله وارسل رجلا حل مكانه وامره ان يضرب عنقه وهكذا بر موسى بيمينه وقتل بحيلته الذي أغار على بعض البلاد الاسلامية [2] .

ولقد أنشأ موسى على ساحل تونس دار صناعة للسفن وأنشأ خليجاً لتأوي اليه في ايام الشتاء وأمر بانشاء مئة مركب فلما كان سنة ٨٥ أمر الناس بالتأهب لركوب البحر وأعلمهم

---

(١) انظر اجزاء كتاب الاستقصاء والجزءين السادس والسابع من تاريخ ابن خلدون والفصل الثاني من الجزء الثالث من كتابنا العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي .

(٢) ج ٢ ص ٦٧–٦٨

انه راكب فيه بنفسه فرغب الناس وتسارعوا ثم تراءى له ان يرسل ابنه عبد الله اميراً بدلا منه . ولم يبق شريف مما كان معه إلا ركب حتى سميت غزوة الاشراف . وقد اتجه اولا الى صقلية فافتتح مدينة فيها واصاب غنائم كثيرة حتى بلغ سهم الرجل مئة دينار ذهباً ثم سير حملة بحرية ثانية استولت على جزيرة سرقوسة. وحملة ثالثة استولت على جزيرة سردانيه .وحملة رابعة استولت على جزاير مايورقه ومنورقه .

وفي سنة ٩٢ او ٩٣ كانت القفزة الكبرى بعبور العرب الى ارض الاندلس مما يدل على ان النشاط الاول الذي بذله موسى في البحر وبخاصة استيلاءه على جزر مايورقه ومنورقه انما كان لاقامة رأس جسر لهذه القفزة ومما يدل على قوة بصيرة وادراك القائد العربي العظيم .

ولقد اطنب ابن قتيبة في وصف هذه القفزة ونتائجها اكثر من غيره كذلك . ومما رواه في صدد ذلك ان موسى امر مولاه طارقاً بأن يسير بحملة بحرية نحو الساحل الاندلسي وكان ملكها لزريق مشغولا بمقاتلة جماعات البشكينس وخلف نائباً اسمه تدمير . فبلغ هذا نزول طارق فأرسل الخبر الى لزريق . فأسرع هذا يقود جيشاً في سبعين الفاً . ولما بلغ طارق دنوه منهم خطب في اصحابه قائلا (ايها الناس اين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس ثم والله الا الصدق والصبر فانها لا يغلبان وهما جندان منصوران ولا تضر معهما قلة . ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة . أيها الناس ما فعلت من شيء فافعلوا مثله .وان حملت فاحملوا وان وقفت فقفوا ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال . ألا واني عامد الى طاغيتكم بحيث لا انهيه حتى اخالطه او أقتل دونه . فان قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الدبر لعدوكم فتتبددوا بين قتيل واسير . واياكم اياكم ان ترضوا بالدنية ولا تعطوا بأيديكم . وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والراحة من المهانة والذلة . وما قد حل لكم من ثواب الشهادة فانكم ان تفعلوا والله معكم ومعيذكم تبوؤون بالخسران المبين وسوء الحديث غداً بين من عرفكم من المسلمين . وها أنا ذا حامل حتى اغشاه فاحملوا بحملتي) . ثم حمل وحملوا فاقتتلوا قتالا شديداً وقتل طارق الطاغية وانهزمت جموعه .

ولقد ذكرت احدى الروايات ان طارقاً قبل ان يلقي خطبته امر باحراق السفن التي عبر عليها الى الاندلس حتى يضع جيشه أمام أمر واقع خطير لا مندوحة لهم فيه عن الاستماتة في القتال . وابن قتيبة الذي هو اكثر المؤلفين اسهاباً في حوادث فتح الاندلس ورواياتها حتى

ما يمكن ان يكون قد شيب بالخيال والمبالغة منها على ما سوف يأتي بيانه بعد لم يذكر ذلك مع انه هو الذي روى نص الخطبة . وكذلك لم يذكرها البلاذري ولا الطبري المعاصران لابن قتيبة واللذان اوردا بعض الروايات عن فتح الانداس على ما سوف يأتي بعد .

وخطبة طارق على صحتها لا تعني تأييد ذلك . والعمل في حد ذاته مجازفة جنونية لا يمكن ان يصدقها عاقل . والسفن التي عبر عليها بعد لم تكن ملكاً للعرب وانما هي اعارة من اليان والي مجاز الاندلس على ما ذكرته المصادر الاجنبية ولم تنفه المصادر العربية فلم يكن من حقه أو من طوله أن يحرقها [1] . وقد تمثل خطبته واقعاً للحال وهو انه لم يكن يملك سفناً يستطيع ان يستخدمها بحرية فيما اذا اضطر للرجوع فخطب في جيشه بما خطب .

ومما جاء في سياق ابن قتيبة ان طارقاً احتز رأس لزريق وارسله الى موسى وان هذا أرسله الى الوليد الذي فرح اعظم الفرح بالفتح واجاز الوفد الذي جاء بالرأس احسن الجوائز . وان المسلمين قد أصابوا ما يجل عن الوصف من الغنائم المتنوعة . وان طارقاً كتب الى موسى يقول ان الامم تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث فجند ابنه مروان وأرسله فانضم الى جيش طارق واخذ طارق يقاتل من تصدى له حتى افتتح قرطبة وما يليها من حصون ومدن وقلاع . واجاز موسى بنفسه بعد ابنه واخذ يفتح ما كان يمر به من المدن يميناً وشمالا حتى انتهى الى طليطلة مدينة الملك فافتتحها ووضع يده على كنوز عجيبة فيها من جملتها اربعة وعشرون تاجاً لاربعة وعشرين ملكاً سابقين ومائدة عليها اسم سليمان بن داود عليهما السلام ومقادير وافرة من الذهب والفضة والمتاع . ثم استمر يفتح ويستولي حتى دانت له الاندلس . وجاء اليه وجوه جليقية فطلبوا الصلح فصالحهم . ثم غزا البشكنس ودخل بلادهم ومال الى افرنجة حتى انتهى الى سرقسطة ففتحها وفتح ما دونها من البلاد وجاوزها بعشرين ليلة . وكان بين سرقسطة وقرطبة اربعون ليلة . ومما جاء في سياق ابن قتيبة عزواً الى عبد الرحمن بن سلام انه قال :

كنت مع موسى في غزواته كلها فلم ترد له راية قط ولا هزم له جمع قط . وعزواً الى ابن صخر ان موسى لما قدم الاندلس قال له اسقف من اساقفتها انا لنجدك في كتب الحدثان

---

(١) كتاب تاريخ الاندلس عبد الله عنان ص ٢٥ وهناك نص آخر لخطبة طارق يرويها مؤلف نفح الطيب متفقة معها في المطلع مختلفة في بعض عباراتها الاخرى انظر كتاب عنان ص ٢٧

عن دانيال بصفتك صياداً بشبكتين رجل لك في البر ورجل في البحر تضرب بها ههنا وههنا فتصيد . وان موسى سر بذلك واعجبه . وعزواً الى عبد الحميد بن حميد عن ابيه ان موسى لما وغل وجاوز سرقسطة اشتد ذلك على الناس وقالوا اين تذهب بنا حسبنا ما في ايدينا ، وان موسى قال لو انقادوا لي لقدمت بهم الى رومية حتى يفتحها الله على يدي ان شاء الله .

كذلك مما رواه ابن قتيبة عزواً الى عبد الرحمن بن سلام احد شهود العيان ان موسى أقام في الاندلس عشرين شهراً ثم خرج بعد ان بلغ في غزواته اربونة قاصداً الوليد بن عبد الملك ومعه ابناء الملوك من الافرنج بالتيجان والمائدة واواني الذهب والفضة والوصفاء والوصائف وما لا يحصى من الجوهر والطرائف وخرج معه وجوه الناس ، وان المائدة كانت خواناً ليس لها رجل قاعدتها منها . وكانت من ذهب وفضة خليطين فهي تتلون صفرة وبياضاً مطوقة بثلاثة اطواق طوق من اللؤلؤ وطوق من الياقوت وطوق من الزمرد .

ومما رواه عن هرم بن عياض عن رجل من اهل العلم كان مع موسى ان المائدة كانت في بيت عليه اربعة وعشرون قفلا كان كلما تولى ملك جعل عليه قفلا اقتداء منه بمن قبله حتى اذا كانت ولاية لزريق قال والله لا أموت بغم هذا البيت ولأفتحنه حتى اعلم ما فيه فاجتمعت اليه النصرانية والاساقفة والشمامسة وكل منهم معظم له ناصح بعدم مخالفة من قبله فأبى ففتحه فوجد فيه تصاوير العرب ووجد كتاباً فيه (اذا فتح هذا البيت دخل هؤلاء الذين هيأتهم هكذا هذه البلاد فملكوها) .

ومما رواه عن الليث بن سعد ان موسى لما دخل الاندلس ضربوا الاوتاد لخيولهم في جدار كنيسة فتلفت الاوتاد فلم تلج فنظروا فاذا بصفائح الذهب والفضة خلف بلاط الرخام. واقبل رجل على موسى فقال ابعث معي ادلكم على كنز فبعث فوجدوا من الزبرجد والياقوت ما لم يروا مثله قط فأرسلوا اليه حتى جاء ونظر .

ولقد بلغ موسى دمشق والوليد مريض بالمرض الذي توفي فيه فدخل عليه وقدم له تلك الطرائف والوصفاء والوصائف وابناء الملوك وعليهم التيجان ومائدة سليمان ومائدة ثابتة من الجزع فقبض الوليد الجميع وأمر بكسر المائدة فكسرت وعمد الى حجز ما فيها والتيجان والجزع فجعله في بيت الله الحرام وفرق غير ذلك وخلع على موسى ثلاث مرات واجازه

بخمسين الف دينار وفرض لولده جميعاً في الشرق وفرض لخمسمئة من مواليه [1].

ولم يذكر الطبري الذي كان معاصراً لابن قتيبة ومات بعـــده بنحو ثلاثين سنة الا اشارات خاطفة الى غزو موسى للاندلس حيث قال في موضع [2] ان موسى غزا سنة ٩١ الاندلس ففتح على يديه مدائن وحصون وفي موضع آخر [3] ان موسى بن نصير غضب على طارق بن زياد سنة ٩٣ فشخص الـــيه في رجب ومعه حبيب بن عقبة فتلقاه طارق وترضاه ورضي عنه ووجهه الى طليطلة وهي من عظام مدائن الاندلس وهي من قرطبة على عشرين يوماً فأصاب فيها مائدة سليمان بن داود فيها من الذهب والجوهر ما الله به أعلم .

وكذلك فعل البلاذري المعاصر لابن قتيبة والذي مات بعده بثلاث سنين وفي النبذة القليلة التي اوردها اشياء هامة . وقد روي عزواً الى الواقدي ان طارقاً هو اول مـن غزا الاندلس وذلك في سنة ٩٢ فلقيه اليان الوالي على مجاز الاندلس فأمنه طارق فساعده عـلى حمله مع اصحابه في السفن فلما صار اليها حاربه اهلها فتغلب عليهم وفتحها . وكان ملكهم من الاسبان واصلهم من اصبحان ! وكتب موسى الى طارق كتاباً غليظاً لتغريره بالمسلمين وافتئاته عليه بالرأي وامره بأن لا يجاوز قرطبة وسار هو الى قرطبة فترضاه طارق فرضي عنه ثم فتح طارق مدينة طليطلة وهي مدينة مملكة الاندلس واصاب بها مائدة عظيمةأهداها موسى الى الوليد بن عبد الملك حينما قفل سنة ٩٦ ﻫ [4] .

ومهما يكن من احتمال ان تكون الروايات التي يرويها ابن قتيبة قد شيبت بشيء مـن المبالغة والخيال فاننا لا نشك في انها انطوت على حقائق كثيرة . وان ما فيها من ذلك هو ترديد للذكريات التي كانت تتناقلها الالسن جيلا بعد جيل .

وفي تاريخ ابن الاثير نبذة طويلة في فتح الاندلس . وقد أورد العـــبارة المقتضبة التي أوردها الطبري ثم قال وانا اذكر فتحها على وجه اتم من تصانيف اهلها إذهم اعلم ببلادهم [5]. حيث يفيد هذا انه وقع في يده كتب عن فتح الاندلس من تأليف اهلها لم تقع في يدالطبري

---

(١) السياق جميعه من الامامة والسياسة ج ٢ ص ٥٧و٨٤

(٢) ج ٥ ص ٢٣٥ (٣) ص ٢٥٥

(٤) ص ٢٣٩و٢٤٣ (٥) ج ٤ ص ٢١٢و٢١٦

وفي كتاب تاريخ العرب في اسبانيا او تاريخ الاندلس لعبد الله عنان نبذة طويلة أيضاً منها ما هو معزو الى مصادر اجنبية قديمة وحديثة ومنها ما هو معزو الى مصادر عربية [1] .

والمستفاد من النبذتين ان الاقطاعية والكهنوتية كانتا متحكمتين في اسبانيا . وكانت الطبقتان الوسطى والفقيرة من عمال وفلاحين تئنان من ظلمها . وتتحملان وحدهما فـادح الضرائب والتكاليف . وكان في اسبانية جاليات يهودية كبيرة شردت من حكم الرومان فكانت محل الظلم والارهاق بنوع خاص من قبل رجال النصرانية وعامتهم يقتلون منها ما يشاؤون ويسخرونها كيفما يشاؤون ويتصرفون فيها وفيما تملك تصرف الغالب بأسيره والسيد بعبده . وهكذا كان جمهورالشعب الاعظم في كرب عظيم يتمنى الخلاص ولا خلاص وكان هذا تمهيداً نفسانياً لما اصاب العرب من النجاح في زحفهم . ولقد كان فوق ذلك نزاع بين رجال الطبقة الحاكمة ايضاً. ولقد استضعف قائد الجيش رودريق الاسرة المالكة آل ويجينا فأقدم على خلع الملك وحل محله . فأثار هذا العمل حنق وغيظ الاسرة المالكة وانصارهـا وبث فيهم رغبة الانتقام . ولقد كان لوالي المجاز الكونت يوليان بنت جميلة استهوت قلب رودريك فاغتصبها وهتك عرضها عنوة فأقسم ابوها على الانتقام لشرفه . واتصل بموسى بن نصير في طنجة وحرضه على غزو الاندلس ووعده بكل مساعـدة فسارع موسى الى اغتنام الفرصة . وقد علم ان رودريك كان بعيداً عـن عاصمته مشغولا بقمع فتنة في الشمال فجعله هذا يقرر عزيمته . وكانت اولى خطواته ارسال حملة استكشافية بقيادة ضابط اسمه طريف ابن مالك فعبر البحر من ناحية سبتة ونزل في البقعة المقابلة لها في العدوة الاوروبية والتي سميت بجزيرة طريف تخليداً لاسم القائد الجسور . وكان ذلك في رمضان سنة ٩١ هـ المقابلة لسنة ٧١٠ م . ثم سار الى قصر يوليان فقوبل بالاكرام وحصل على ما أراد من الاخبار وقفل عائداً بسلام فشجع موسى ذلك على الخطوة الثانية حيث جهز حملة قوامها ٧٠٠٠ مقاتل من البربر والعرب بقيادة مولاه طارق بن زياد الليثي فعبر بها البحر في سفن هيأها يوليان ونزل أولا بالبقعة التي سميت بجبل طارق ثم سار الى المنطقة التي عرفت بالجزيرة الخضراء الواقعة بعد الجبل فتصدى له واليها ومن عنده من الحاميات القوطية فهزمهم واحتل قلاعهم . وبلغ الخبر رودريك فرجع قافلا بجيشه الذي بلغ مع ما انضم اليه من جيوش الاقاليم مئة الف . ونما الخبر الى طارق فاستمد مـن موسى فأمده بخمسة آلاف . وانضم الى قوات طارق

---

(١) ص ١٨ و٣٦

يوليان وانصاره وغيرهم من الناقمين على الطاغية . والتقى الطرفان عند النهر المعروف بالوادي الكبير . ولعب يوليان دوراً كبيراً ناجحاً في تخذيل كثير من امراء الاقاليم وقواتهم عن رودريك وقاتل طارق وجيشه ببطولة واستماتة فكتب لهم النصر وعلى رودريك وجيشه الهزيمة بعد ان قتل منهم وغرق في النهر خلق عظيم وكان رودريك من الجملة . ثم اندفع الجيش العربي نحو شدونيا فاستولى عليها ثم على قرمونة ثم على اشبيلية ثم على استجه حيث كانت فلول القوط قد تجمعت فيها فاشتبك معها ومزقها . ولما علم موسى بالفتح جاء على رأس جيش جديد ومعه ابنه عبد العزيز فتعززت حركة العرب وقوتهم فأخذوا يسيرون السرايا في اتجاهات عديدة نحو قرطبة وطليطلة وغرناطة ومالقة والبيرة وماردة واريولة وغيرها. وكان النجاح يحالفها في كل اتجاه على الاعم الاغلب فتستولي على المدائن والقرى في الاتجاهات التي سارت اليها عنوة او صلحاً .

وقد اورد عبد الله عنان نص معاهدة عقدها في هذه المرحلة عبد العزيز بن موسى مع تدمير والي اريولة منقولا على الارجح عن لغة اخرى . ويظهر منه أن تدمير تفاوض مع عبد العزيز وتعاقد باسمه وبالنيابة عن غيره من الامراء الرئيسيين والثانويين وهذا هو :

(بسم الله الرحمن الرحيم . يشترط عبد العزيز ما يأتي : ان تدمير يبقى آمناً في ولايته ولا يتعرض انسان بأذى لشخصه او ماله او نسائه او اولاده . وإن تدمير يسلم مدائنه السبع اريولة وفالنتولا واليكانت ومولا وفا كاسوريا وبجير' واوارا ولارقة . وانه لا يساعد أعداء الخليفة او يصادقهم بل يبلغ عن ما يعرفه من نواياهم. ويؤدي سنوياً وكذلك كل امير من القوط مئة مثقال من الذهب وأربعة مكاييل من القمح ومثلها من الشعير وقدراً من الزيت والعسل والخل . ويؤدي كل واحد من اتباعهم نصف ذلك كتب لأربع خلون من شهر رجب عام ٩٤ من الهجرة ووقع عليها اربعة شهود مسلمون) [١] .

---

(١) قال عبد الله عنان (ص٣٥) ان ساندورال وفليري ذكرا في تاريخها نصوص معاهدة اخرى معقودة في سنه ٧٣٤ م بين امير قلمبريه كوامبرا في البرتقال وبين المسلمين جعلت فيها ضريبة للكنائس العادية خمسة وعشرين مثقالا من الذهب والأديرة خمسين مثقالا والكنائس الجامعة (كتدرائية) مئة . ونصت على ان يكون للنصارى حق التحاكم امام قضاتهم . وعلى وجوب اغلاق ابواب الكنائس وعدم اقدام النصارى على امر من شأنه ان يزري بالديانة الاسلامية او يعيب كرامة المسلمين .

ثم كان زحف عام نحو اراجون . وتم الاستيلاء على سرقسطة وتراغونة وبرشلونة وغيرها من المدن الشمالية . وتقدم طارق باذن موسى نحو جليقية فاستولى عليها ثم عبر جبال البيرينة وغزا ولاية لانجدوك واستولى على قرقشونة وازبونة .

وفي هذه الآونة استدعى الخليفة الوليد موسى فسارع الى تلبيته فوقفت حركة الفتح في مرحلتها الاولى التي امتدت نحو سنتين عند هذا الحد العظيم في ذاته . وقد اتخذ موسى مدينة اشبيلية في هذه المرحلة مركزاً للحكومة لاتصالها بالبحر واقام ابنه عبد العزيز نائباً عنه وقفل نحو الشام ومعه من الكنوز والتحف ما يجل عن الوصف .

ومما ذكره عنان عزواً الى جيبون أن موسى حمل معه فيما حمل مئة وسبعين تاجاً من الذهب الاحمر مرصعة بالدر (ورواية ابن قتيبة اربعة وعشرون) وبالحجارة الكريمة الاخرى وألفا سيف ملوكي بالاضافة الى اكيال من الدر والياقوت واواني الذهب والفضة واخذ معه اربعمئة من اشراف القوط يتشحون بالثياب المذهبة وثمانية عشر الفاً او ثلاثين الفاً ذكوراً واناثاً انتخبوا لجمالهم او لشرف منبتهم . وان مؤرخي الافرنج قالوا إن المائدة التي عثر عليها العرب في طليطلة انما كانت من نفائس ملوك القوط وإن نسبتها الى سليمان ليست صحيحة .

ومما ذكره ابن الاثير[1] عن المائدة ان طارقاً وجدها في مدينة تسمى مدينة المائدة خلف الجبل وانها كانت من زبرجد اخضر حافتها وارجلها منها ومكللة باللؤلؤ والمرجان والياقوت وغير ذلك وكان لها ثلاثمئة وستون رجلا . وان طارقاً انتزع احدى أرجلها فصنع موسى بديلا لها من ذهب . وان موسى قال للوليد حينما حملها إليه انه هو الذي غنمها فقال طارق بل انا فكذبه موسى فقال طارق سله عن رجلها فسأله فلم يحر جواباً وحينئذ اظهرها ليثبت صدق دعواه .

وقد ذكر فيما ذكر ان موسى حمل معه في جملة ما حمل ثلاثين الف بكر من بنات ملوك القوط واعيانهم ومن نفيس الجواهر والامتعة ما لا يحصى .

ومهما يكن من امر فيمكن أن يقال من تواتر الاخبار على اختلاف المصادر ان لرواية اغتنام مائدة ثمينة عجيبة في جملة ما غنم من الاندلس اصلا ما .

---

(١) ج ٤ ص ٢١٢–٢١٦ .

ولم يلبث الوليد ان مات فتعرض الفاتح العظيم لنقمة خليفته سليمان ثم كان مصير ابنه عبد العزيز الذي كان له بلاء في الفتح الكبير القتل نتيجة لهذه النقمة على ما ذكرناه في سيرة سليمان .

ولقد استولى الذعر والدهشة على كثير من سكان البلاد التي اكتسحها العرب والتي عرفت فيما بعد بالاندلس – نسبة الى قبائل الواندال التي كانت نزحت اليها من بلاد الجرمان – ففروا من وجههم .

غير أن هذا لم يلبث طويلا حين رأى السكان من الفاتحين من حسن التصرف ما لم يكونوا يحلمون به . فقد أنصفوا الطبقات الوسطى والفقيرة واوقفوا الاقطاعين والكهنوتيين عند حدهم . وألغوا الضرائب الفادحة التي كانوا ينوئون بها واستبدلوها بجزية خفيفة . ومنحوهم حريتهم الدينية وابقوا لهم كنائسهم واديرتهم سليمة يمارسون فيها طقوسهم . ونصبوا لهم قضاة منهم يحلون مشاكلهم . فكانت هذه السيرة سبباً لرجوع معظم الفارين واطمئنان الوجلين ، واقبال الاهلين على الاختلاط بالفاتحين وتعلم لغتهم واعتناق ديانتهم والاندماج فيهم .

ولقد نقل عنان عن الاستاذ لاين في هذا الصدد نبذة جاء فيها (ان العرب انشأوا حكومة كانت اعجوبة القرون الوسطى . وبينما كانت اوروبا تتخبط في ظلمات الجهل لم يكن ثمة سوى المسلمين من اقام بها منار العلم والمدنية ولم يكن المسلمون كالبربر والقوط والواندال يتركون وراءهم الخراب والموت . ولم تشهد الاندلس قط اعدل من حكمهم واصلح منه . ومن الصعب ان يعرف كيف اكتسب العرب تلك الخبرة الفائقة بالشؤون الادارية . فقد خرجوا من الصحراء الى الغزو ولم يفسح لهم تيار الفتح مجالا يدرسون فيه ادارة الامم)[1] .

ونسي الاستاذ ما غرسه فيهم القرآن وسنة الرسول والخلفاء الراشدون من مبادىء سامية بلغت الذروة في العدل والبر والخير والاحسان والوفاء والاشفاق والامر بالمعروف

---

(١) ص ٤٢ تاريخ العرب في الأندلس لعنان .

والنهي عن المنكر . وما قضاه العرب بعد الاسلام من تجارب بعيدة المدى في الحكم وسياسة الملك بالنسبة للعرب المسلمين ولغيرهم من مسلمين وغير مسلمين في الانحاء الشاسعةالتي استولوا عليها وحكموها قبل فتح الاندلس .

اما اليهود فقد رأوا في العرب منقذين لهم من اسارهم ومحررين من عبوديتهم فاخلصوا لهم والتفوا حولهم . ورأى العرب فيهم هذا الاخلاص من جهة ثانية فاطمأنوا اليهم ولا سيما انهم عنصر غريب ضعيف من مصلحته هذا الاخلاص فاستخدموهم في الجيش والاعمال الادارية .

على ان بعض الشراذم من السكان المجفلين لم ترجع وتخضع واتخذت لها معاصم في جبال استورية . واخذت تتصاول مع الفاتحين على طريقة حرب العصابات . وقد اشتهر منهم في زمن الدولة الاموية عصابات بلايو . ثم صارت هذه العصابات نواة واسلوباً لمصاولة شديدة مع اصحاب السلطان العربي في الادوار التالية على ما سوف نذكره بعد [1] .

ولقد قسمت البلاد المفتوحة الى عدة مقاطعات يدير شؤون كل منها حاكم يختاره الامير العام الذي يعينه والى افريقية العام حيث ظلت الاندلس تابعة لهذا الوالي بتفويض من الخليفة . وكانت واحدة من هذه المقاطعات تشمل الاراضي الواقعة بين البحر الابيض ونهر الوادي الكبير والجزء الواقع بين ذلك النهر وبين وادي يانا ومدنها الكبرى قرطبة واشبيلية ومالقة وجيان . وواحدة تشمل اواسط اسبانيا والجزء الواقع بين البحر الابيض شرقاً ونهر دوروشمالا وولاية البرتغال غرباً وأشهر مدنها طليطلة وقونقة وسيقوبية ووادي الحجارة وبلنسية ودانية ومرسية ولارقة وواحدة تشمل جليقية والبرتغال واشهر مدنها مريدا وباجة ولشبونة واستورقة وسمورة وشلمنقة . وواحدة تمتد من شاطىء الدورو الى جبال البرينة على ضفتي نهر الايبر واشهر مدنها سرقسطة وطرطوشة وتراغونة وبرشلونة وجيرونة وتطيلة وولاد وليد [2] .

ولقد استمرت حركة الفتح والتوسع في الاندلس بعد المرحلة الاولى التي قادها طارق وموسى على ايدي بعض الولاة فأمكن بفضل نشاطهم تشميل السلطان العربي لناربون

---

(١) انظر كتاب عنان ص ٤٠ وبعدها .

(٢) كتاب عنان ص ٤٢ وبعدها .

واكتانيا وقرقاسون ونيم واوينيون وسن رايس ودوفينـــه وسن بول وترواشانو ودوترة وولانس وليون وبوردو وبيزانسون وسنس وغيرها من البلاد الاسبانية والافرنسية معاً[1].

وهكذا اضيف الى السلطان العربي في عهد الدولة الاموية بلاد واسعه عظيمة في اوروبا الغربية امتد خطها الشمالي الجنوبي من اللوار الى صخرة طارق الف ميل[2].

ولقد اتخذت جيوش الفتح هذه البلاد لها مقراً ثم نزح كثير من العرب من شمال افريقية او بطريقه اليها واتخذوها مقراً لهم وانتشروا في مختلف انحائها.

وفي رسالة الدولة النصرية للسان الدين الخطيب اسماء القبائل التي ينتسب اليها العرب الذين استقروا في هذه البلاد وانتشروا في أرجائها وهي قيس وعبس واشجع وباهلة وسليم وجديلة وكلاب وعقيل وهــــلال وثقيف وعك والأوس والخزرج وغسان والازد وبجيلة وخثعم وكندة والكاسك وجذام وخولان ومذحج وحمير وهمدان وكلب وحضرموت وجهينة. فاصطبغت هذه البلاد بالصبغة العربية الاسلامية وانشأ العرب فيها مدنية باذخة مـــا تزال آثارها وشواهدها الثقافية والعمرانية والاجتماعية ترى وتذكر بملء الدهشة والاعجاب والاجلال.

ولقد تقلب في زمن الدولة الاموية على الولاية العامة لهذه البلاد ولاة عديدون في زمن الدولةالاموية بعد عبد العزيز بن موسى بن نصير كان كثير منهم متحلين بصفات العدل والحزم وحسن الادارة والتنظيم والرغبة في العمران والجهاد ونشر الاسلام والعروبة منهم ايوب بن حبيب اللخمي وهو الذي تحول الى قرطبة واتخذها دار الامارة سنة ٩٩ والسمح بن مالك الخولاني وعنبسة بن سحيم الكلبي والهيثم بن عبيد وعبيد الرحمن الغافقي وعبد الملك بن قطن وعقبة بن الحجاج وابو الخطار الكلبي وهذا هو الذي فرق اهل الشام من قرطبة في البـــلاد الاندلسية الاخرى وسماها باسماء شامية لمشابهتها بها فأنزل اهل دمشق في البيرة وسماها دمشق لشبهها بها واهل حمص في اشبيلية وسماها حمص واهل قنسرين في جيان وسماها قنسرين واهل الاردن في ريه وسماها الاردن واهل فلسطين في شدونة وسماها فلسطين وانزل اهل مصر في تدمير وسماها مصر. وكان آخر هؤلاء الولاة واطولهم حكما هو يوسف بن عبد الرحمن الفهري.

(١–٢) كتاب عنان ص ٤٢ وبعدها.

فكانوا من عوامل رسوخ السلطان العربي وانتشار الاسلام والصبغة العربية والعمران والنظام في هذه البلاد في مرحلة الفتح الاولى وعهد الدولة الاموية [١] .

ولقد نشأ بين العرب وجماعات من اهل البلاد والبلاد المجاورة الذين لم يرق لهم قدوم العرب إلى هذه البلاد وخضوعها لسلطانهم نزاع مرير امتد طويلا وتقلب في أدوار عديدة ، وقد استطاع العرب في كثير من مراحله ان يعيدوا هجمات اولئك الجماعات العدوانية ويحبطوا دسائسها ويبسطوا سلطانهم على مناطق اخرى لم يكن فيها قبل نتيجة لذلك .

ومن صفحات هذا النزاع [٢] في عهد الدولة الاموية غزوة والي الاندلس الحر بن عبدالرحمن الثقفي لاقليم لانجدوك . ولقد ثارت فتن واضطرابات في عهد هذا الوالي فعزله عمر بن عبد العزيز وولى مكانه السمح بن مالك الخولاني وطلب منه وصف الاندلس له . فوصفها وصف المتشائم واقترح عليه الانسحاب منها لانقطاعها عن المسلمين . وكاد عمر يأخذ بهذا الاقتراح العجيب ثم نبذه [٣] وأمر السمح بالجد في مهمته . فامتثل وقبض على ازمة الحكم بنشاط وحزم وبادر الى اصلاح الخلل الذي سرى إلى الادارة والجيش ومسح أرض الأندلس وخمسها ومن آثاره العمرانية الشهيرة قنطرة القرطبة . ثم استعد للزحف على بلاد الافرنج وبدأه بالزحف على لانجدوك وبروفانس وشتت شمل عصابات الثوار فيها . واستولى في زحفه على اربونة وبلاد اخرى ثم سار نحو طولون عاصمة دوق أكوتين اشد الامراء الافرنسيين بأساً فسارع هذا الى لقاء الزحف العربي ودارت معركة هائلة استشهد فيها السمح وارتد المسلمون إلى بروفانس . وقد انتخب الجيش لقيادته عبد الرحمن الغافقي الذي كان على درجة

---

(١) انظر تاريخ ابن الاثير ج ٥ ص ١٨٣ وبعدها وتاريخ الاندلس لعنان ص ٦٣–٦٨ والاستقصاء ج ١ ص ٨٩–١٠٦ وننبه على ان المقصد من اهل الشام هم الجندون العرب الذين قدموا من هذه البلاد ليشتركوا في عملية الفتح في شمال افريقية والاندلس . ونذكر في هذه المناسبة فيما يلي اسماء الولاة الآخرين الذين تولوا ولاية الاندلس على ما ذكرته المصادر المذكورة : سليمان الثقفي ، يحيى بن سلمة الكلبي ، عثمان بن أبي نسعة ، حذيفة بن الاحوص ، بلج بن بشير القشيري ، ثعلبة بن سلامة ، ثوابة بن سلامة ، عبد الرحمن اللخمي .

(٢) هذه النبذة مقتبسة من تاريخ الاندلس لعبد الله عنان ص ٤٣ وبعدها .

(٣) هذا الخبر اورده ابن الاثير ج ٥ ص ١٨٠ .

كبيرة من الشجاعة والمهارة والأمانة والعدل والتقوى فاستطاع أن يضبط الامور وان يحفظ البلاد من العدوان والفتن . وكانت ولايته محلية وموقتة حين عين الخليفة عنبسة والياً مكان السمح . وكان هو بدوره ماهراً حسن المعاملة وسبباً في تقويـــة شوكة الاسلام في جنوب فرنسة على ما سجله أحد رواة الافرنج القدماء .

ولقد استأنف حركة الجهاد التي وقفت باستشهاد السمح في المنطقة الشمالية فزحف عـــلى لانجدوك مرة اخرى وغزا قرقشونة ونيم وغيرها . ولقد نصب له الثوار الغسقونيون كميناً في مفاوز البرينة فقتلوه وشتتوا جموعه . وأدى ذلك إلى اضطراب الامر في البلاد واختلت ادارة الحكومة بسبب عدم استقرار الولاة الذين خلفوه وعدم كفاءتهم . وقـــد استشرت حركات عصابات الثوار التي كان يقودها قائد ثائر اسمه بلايو وكانت تتخذ من جبال استورية معصما . ثم جاء الوالي الهيثم بن عبيد الذي كان أفضل ممن سبقوه فاستطاع أن يخضد شوكة العصابات . ثم عبر البرينة وغزا ليون وماسون وشالون واستولى على اوتون وبون . ومات بعد سنتين فعين هشام عبد الرحمن الغافقي والياً وكان أقدر ولاة الاندلس في عهد الامويين واعظمهم اقداماً وجرأة . وكان مصلحاً كبيراً كما كان قائداً عظيما فأحبه الجند والرعيـــة لعدله وحلمه وكرمه ولينه وساد الوئام . ولقد بدأ عمله بزيارة المقاطعات المختلفة فنظم شؤونها وعين لها الاكفاء وقمع الفتن ورد المظالم واعاد الى المسيحيين معابدهم واملاكهم وعدل نظام الضرائب وفرضها على الجميع بالمساواة والعدل وحصن الحدود وخضد شوكة العصابات .

ولقد كان حاكم سردينية المسلم عثمان بن ابي نسعة متزوجاً من بنت دوق اكوتين فأغراه صهره على الثورة على الوالي العام فسير جيشاً طاردالوالي الثائر حتى ظفر به وقتله وأسر زوجته .

وهب صهره ومن وراءه من امراء النصارى الى الانتقام له وتحشدوا للغارة على البلاد الاسلامية . وكان عبد الرحمن يتوق إلى الانتقام لمقتل الوالي السمح وارتداد المسلمين عـن اسوار طولوز مدينة الدوق المذكور ويتهيأ لذلك . فسارع إلى الزحف لتنفيذ فكرته مـن جهة ولقاء حشود النصارى من جهة ثانية فاخترق ولايتي أراجون ونافار(بلاد البشكنس) ودخل فرنسة في ربيع سنة ٧٣٢ م وزحف تواً على مدينة أرل التي امتنعت عن دفع ما عليها مـن الجزية واجبرها على الخضوع والاستسلام والاداء بعـد معركة عنيفة ثم اتجه الى بوردو فاستولى عليها وحاول دوق اكوتين أن يقف في وجهه فهزمه على ضفاف الدوردون هزيمـــة شديدة وقتل من رجاله مقتلة عظيمة ثم اخترق الزحف الاسلامي برجونيا واستولى على ليون

وبزانسوس وصانص . وبعد أن حصنها وترك فيها الحاميات اتجه نحو تور الواقعة على نهر اللوار فاستولى عليها وعسكر عندها ليتهيأ للزحف على عاصمة الافرنج.

واستولى الذعر على امراء النصرانيـــة الافرنج فتداعوا إلى صد الزحف العربي وتولى قيادتهم شارل بيبين الذي كان يتولىمنصب محافظ القصر في البلاط الملكي الفرنسي الذي كان على عرشه اسرة الميروفنجان وكان هو صاحب السلطان الحقيقي على البلاد والمملكة استمراراً لمركز أبيه حيث اغتنم هـــذا فرصة ضعف الاسرة المالكة فاستولى على سلطان البلاد .

ولقد زحف شارل بحشود عظيمة نحو تور فانسحب الغافقي منها وعسكر بالسهل بين تور وبواتيه . وهناك التقت الحشود واخذت الاشتباكات تقع بينهم . واحرز المسلمون في اول الأمر انتصارات عديدة حتى انهم ضعضعوا اعداءهم وملأوا ايديهم من اسلابهم وغنائمهم ثم انعكس الموقف حين أصاب الغافقي سهم قاتل حيث اضطربت صفوف المسلمين اضطراباً شديداً اضاعوا به مركزهم المتفوق . وارتدوا الى لانجدوك بعد ان قتل واسر منهم عدد كبير .

ويعلق الافرنج على هذه الوقعة التي عرفت في تاريخ العرب باسم وقعة بلاط الشهـداء وعند الافرنج باسم وقعة تور أو بواتيه أهمية كبرى . ويرونها المعركة الفاصلة التي أوقفت الزحف العربي الاسلامي عن التوغل في اوروبا .

وقد قال المؤرخ الانكليزي جيبون في صدد ذلك (إن خط الظفر العربي قد امتد الف ميل من صخرة طارق إلى نهر اللوار . وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة بحمـــل الجيش الاسلامي إلى حدود بولونيا وآكام ايكوسيا . وليس الرين بأمنع من النيل والفرات اللذين اقتحمها هذا الجيش . ولربما كان الاسطول العربي اخترق عباب التايمس بلا معركة بحرية . بل ربما كانت تعاليم القرآن تدرس الآن في مدارس اكسفورد وربما كانت منابرها تؤيـد صدق وحي محمد ورسالته . وقد انقذت هذه المعركة اسلافنا البريطانيين وجيراننا الغاليين من نير القرآن المدني والديني واستبقت ابهاء رومة وجلالها واخرت استعباد القسطنطينية وشدت من ازر النصرانية واوقعت باعدائها الفشل والتفرق) مما املاه التعصب وجهـــل حقائق الاسلام والعمى عن نوره الوهاج .

وقد حذا غير واحد من مؤرخي الافرنج حـــذو جيبون في الاطناب بنتيجة المعركة

وما كان من انقادها اوروبا والنصرانية من براثن العرب والاسلام . واعتـــبر قساوسة النصارى النصر الذي أحرزه شارل دليلا على عنايـــة الله بالنصرانية وسخطه على المسلمين . وبالغوا في تقدير خسائر المسلمين فقالوا انها ثلاثمئة الف .

وقد تكون المعركة حقاً اضاعت على العرب فرصة التوغل في اوروبا في الظرف الذي كانت فيه المملكة الميروفنجية ضعيفة مفككة . وهي الـتي كانت في الخط الاول . بحيث يقال ان العرب لو انتصروا فيها لتغير مجرى تاريخ الاسلام واوروبا معاً.غير انها لم تؤثر في السلطان العربي الذي توطد في الاندلس . ولم تمنع العرب من ان يستأنفوا نشاطهمويكسبوا جولات عظيمة ويتقدموا اشواطاً شاسعة في بلاد الافرنج بعدهـــا بقليل وفي زمن الدولة الاموية الشامية ثم في زمن شقيقتها الاندلسية .

ولقد اتيح لشارل والنصارى فرص احرزوا فيها انتصارات كانت اشد نكاية من آثار هذه الموقعة في المسلمين .

ولقد عين هشام بن عبد الملك الخليفة عبد الملك بن قطنوالياً للاندلس بعد الغافقي وامره باستعادة هيبة المسلمين فصدع بالامر . وبدأ بثوار المقاطعات الشمالية الذين انتهزوا فرصة مقتل الغافقي فضاعفوا نشاطهم ضد السلطان الاسلامي فضربهم ضربة شديدة . ثم زحف على لانجدرك ووطد السلطان الإسلامي عليها .

وفي هذه الاثناء تحالف والي أربونة المسلم مـــع دوق مرسيليا فعبرا بقوة مشتركة نهر الرون واستوليا على سان ريمي ثم زحفا على مدينة أفينيون وهزما جموع الافرنج التي تصدت لها واستوليا على المدينة . واستولى المسلمون بعد ذلك على مدينتي آرل وما والاهما .

واستبدل الخليفة عبد الملك بعقبة بن الحجاج الذي استمر في النشاط الذي بدأ بـه سلفه حيث غزا الاراضي الافرنسية مرات عديدة . وقد اتخذ اربونة قاعدة وزحف منها على ولاية دوفينية واستولى على سان بول وترواشاتو وهنزر وفالانس ونيوليون وانتشرت جيوش المسلمين في برجونيا للمرة الثانية تفتح وتغنم وتسبي وتهدد عاصمة فرنسة للمرة الثانية .

وهال شارل هـــذا النشاط الجديـــد فاستجاش امـــراء النصارى فاقبلوا عليـــه وحرض البشكنس والغسقونيين على العصيان والثـــورة فهاجمـــوا الممرات الجبليـــة

ليحولوا دون رجوع عقبة .

وزحف شارل بجموعه على افينيون فاستعادها بعد حصار شديد وذبح حاميتها المسلمة وحاصر اربونة ولكنه اضطر إلى رفع الحصار نتيجة لمقاومـــة الحاميات الإسلامية الشديدة وانزالها في جيوشه الخسائر الفادحة ، فاكتفى بما احرزة من نصر جزئي وخرب ما في جنوب اللوار من حصون وقلاع ودمر مدينة نيم ذات المباني الفخمة والآثار القديمة ليحول دون تقدم المسلمين وارتد الى بلاده . وقد نجا عقبة وجيشة وعاد الى قواعده سالماً . غير انه تعرض لحركة ثورية قام بها عبد الملك بن قطن الذي اغتاظ من تعيينه مكانه واستعان بقومه عليه فقتل بهذه الحركة وعاد عبد الملك إلى الولاية . غير أنه لم يهنأ بها حيث ثار قوم عقبـــة عليه بدورهم فقتلوه واقاموا مكانه واحداً منهم هو بلج بن بشر القشيري . وثار قوم عبد الملك واولاده عليه فقتلوه ولكنهم لم يحرزوا نصراً حاسماً على قومه الذين اقاموا محله ثعلبة بن سلامة . وقد ظل قوم عبد الملك ناقمين فقاموا بثورة اخرى ولكن ثعلبة تغلب عليهم وضربهم ضربة شديدة .

ورأى الخليفة هشام أن يستبدله بآخر لإصلاح الفتوق وتهدئة الفتنة بين العرب فعين أبا الخطار الكلبي الذي استطاع تحقيق ذلك لفترة ما ثم عادت الفتنة ثانية فذهب ضحية فيهـــا واقام المنتصرون مكانه والياً منهم اسمه ثوابة . ومات هذا فعين والي المغرب مكانه يوسف ابن عبد الرحمن الفهري الذي استقامت له الامور وامتدت ولايته نحو عشر سنين . وان لم تخل من فتن داخلية [1].

ولقد اتاحت هذه المنافسات والفتن الداخلية الفرصة لشارل ببين فغزا بجيش ضخم المواقع الإسلامية في لانجدوك وسافوا وقتل كثيراً من المسلمين وحاصر اربونة مرة اخرى حصاراً طويلا امتد اربع سنوات ، ثم تمكن من دخولها بخامرة من فيها من النصارى الذين فتحوا له الابواب في غفلة من المسلمين ، وقد ذبح كثيراً من سكانها وخرب مساجدها ودورها ومعاهدها .

على ان العرب ظلوا محتفظين بالسلطان على معظم ما دخل في ايديهم من البلاد شمالاً وشرقاً

---

(١) الاستقصاء في دول المغرب الاقصى للسلاوي ج ١ ص ٩٤ - ١٠٦ وتاريخ الاندلس عبد الله عنان ص ٦٣ — ٦٨ .

وغرباً إلى ان قامت الدولة الاموية الاندلسية فدخل النزاع بين العرب والافرنج مرحلة جديدة احرز العرب فيها انتصارات كبرى واسترجعوا كل ما خرج من ايديهم وأضافوا اليه ساحات شاسعة اخرى مما سوف يأتي تفصيله في سياق تاريخ هذه الدولة ان شاء الله .

هذا . ولم يخل عهد الولاة الذين تولوا افريقية بعد موسى بن نصير من نشاط في سبيل توسيع رقعة السلطان العربي وانتشار الدين الإسلامي في هذه المنطقة حيث سجل بشر بن صفوان نشاطاً بحرياً فغزا صقلية سنة ١٠٩ وأصاب فيها سبياً كثيراً . وحذا حذوه عبيد الله ابن الحبحاب الذي أرسل بعثة غزت صقلية مرة ثانية سنة ١٢٢ واثخنت فيها واستولت على احدى مدنها سرقوسة . وقد كان لهذا الوالي نشاط في الأنحاء الجنوبية حيث سير سراياه في بلاد السودان واستطاع ان يمد السلطان العربي الى بعض انحائها [1] .

استدراك

وقبل ان نبدأ بشرح مراحل حركات الفتح في بلاد العجم وما والاها نرى ان نقول كلمة في امر محير متصل بصاولات العرب مع الروم لم نر أحداً من المؤرخين نبه اليه . وهو اكتفاء قواد الامويين للصوائف والشواتي البرية والبحرية بالانسياح والكر والفر في ارض بلاد الروم الاسيوية المسماة اليوم بالأناضول أو آسيا الصغرى وعدم الاستيلاء عليها والاستقرار فيها باستثناء منطقة كليكيا التي كانت تضم ما يعرف اليوم بولاية اطنة وما حولها كما كان يفعل قواد جيوش الفتح العربية في بلاد فارس وما وراء خراسان وبلاد الارمن واذربيجان والخزر وشمال افريقية وبلاد الأندلس في حين ان حركة الصوائف والشواتي البرية والبحرية

---

(١) نورد بهذه المناسبة فيما يلي اسماء الولاة العامين الذين تولوا المغرب او افريقية بعد موسى بن نصير والذين كان لهم في معظم الاوقات الاشراف على شؤون الاندلس وتعيين ولاتها وهم : محمد بن زيد ، يزيد ابن أبي مسلم ، بشر بن صفوان ، عبيدة بن عبد الرحمن ، عبد الله بن الحبحاب ، والى هذا ينسب انشاء جامع الزيتونة في فاس ، كلثوم بن عياض ، حنظلة بن صفوان ، عبد الرحمن بن حبيب الفهري . وهو آخر الولاة في زمن الامويين وبقي والياً ردحاً من الزمن في زمن العباسيين . وكانت ولايته في زمن الامويين تغلباً . (انظر الاستقصاء ج ١ ص ٨٩-١٠٦ وتاريخ الاندلس لعنان ص ٤٤-٦٨) وننبه على ان البلاذري ذكر اسم عبيده بن عبدالرحمن بدلا من عبيد الله بن الحبحاب كغاز لجزيرة صقلية على ما ذكرناه قبل .

كانت على الاغلب في حالة الانتصار والتغلب وفي حين انها استطاعت مرتين مرة في خلافة معاوية ومرة في خلافة سليمان بن عبد الملك ان تخترق هذه البلاد من اقصى جنوبها الشرقي الى اقصى شمالهـــا الغربي وتدق ابواب القسطنطينية . ولم ترجع مهزومة ونتيجة مصاولة واشتباك حربي مع القوات الرومية على ما مر شرحه . وفي حين ان الاتراك السلجوقيين قد فعلوا ذلك حيث استطاعوا في القرن الهجري السادس حين انساحوا الى الاناضول ان يستولوا على القسم الاكبر منها ويستقروا فيه وينشئوا دولة كبيرة عاصمتها قونية .

ولقد اقطعوا امراء قبائل تركية عديدة كانت تنساح نحوهم في القرنين السادس والسابع مناطق عديدة في مختلف انحاء الاناضول فنشأ عن ذلك أمارات اقطاعية عديدة سميت باسماء زعماء القبائل كان منها امارة بني قرميان في كوتاهية وبني عيسى قرة في براعمه وبني صاروخان في آيدين وبني منتشا في منتشا وبني حميد في انطالية وبني اسفنديار في قسطموني وبني رمضان في ادنة وبني القدر في مرعش وبني آخي في انقرة وبني عثمان في اسكيشهر اوسكود وأدى كل هذا الى تتريك الاناضول وصبغها بالصبغة التركية .

وقـــد تطورت امارة بني عثمان وصارت دولة كبرى بسطت سلطانها على الاناضول كوريثة لدولة قونية والامارات الاقطاعية الاخرى وتجـــاوز سلطانها الاناضول الى اوروبا فاستولت على القسطنطينية ثم على البلقان وانحاء اخرى ما وراء ذلك ثم استطاعت ان تفرض سلطانها على معظم البلاد العربية في آسية وافريقية الشمالية . وان تحتفظ بهذا السلطان الى الثلث الاول من القرن الرابع عشر الهجري على ما سوف نزيده شرحاً في الجزء العاشر من كتابنا ان شاء الله .

ويتبادر لنا كتعليل لذلك ان معظم انحاء الاناضول الواقعة في شمال وغرب كليكيا كانت شبه خالية وفقيرة فـــلم يهتم قواد الصوائف والشواتي والخلفاء الامويون لاحتلالها والاستقرار فيها كما فعلت الجيوش العربية في زمن الدولتين الراشدية والامويـة في المناطق الاخرى التي كانت آهلة عامرة غنية لأن العرب في ظل الدولتين كانوا جنداً او في مثابة جند ولم يكونوا منساحين كقبائل وموجات ينشدون الاقامة والاستقرار .

ولقد ظل الامر كذلك في الشطر الاكبر من زمن الدولة العباسية ايضاً مع ان حركة

الصوائف والشواتي او بتعبير آخر حركة المصاولة بين المسلمين والروم لم تتوقف فيـــه .
وقد يكون استيلاء الاتراك السلاجقة ومن انضوى اليهم من القبائل التركية وانشاؤهم دولة قوية وامارات اقطاعية عديدة في مختلف اقاليم الاناضول الشمالية والغربية قرينة على هذا التعليل لانهم انما جاؤوا من الشرق مطاردين من التتر المغول ينشدون اماكن للاقامة والاستقرار فتيسر لهم ذلك في بلاد الاناضول لأنها كانت خالية او شبه خالية وقد يكونون وجدوا فيها سكاناً قليلين ضعفاء من الروم والعناصر الآرية القديمة فتغلبوا عليها بقليل من الجهد وصبغوها بطابعهم الذي اصطبغت به البلاد حتى لم يكد يعرف لها اسماء غير الاسماء التركية القديمة .

ثانياً حركات الفتح في بـــلاد العجم والترك وارمينية والسند
وما كان من مصاولات بين العرب وسكان هذه البلاد بسبيل ذلك
في زمن الدولة الاموية

•

لقد أخذ نظر العرب يمتد الى ما وراء بلاد فارس وخراسان بعد توطيد سلطانهم في هذه البلاد بصورة عامة . ولقد كان كسرى الفرس يزدجرد استمد مـــن خاقان ملك الترك وخوفه من العرب إذا جاءه الدور فأمده وشد ازره ولكنه رأى من بسالة العرب واستماتتهم وجيشان حيويتهم ما جعله يرجح السلامة فانسحب إلى بلاده وأخذ يستعد للوقوف في وجههم إذا تدفق سيلهم نحوه . كذلك فان يزدجرد قد استعان بنيزك ملك طرخان . واستعان الفرس في قوهستان بجماعات من الترك سماهم البلاذري (الهياطلة) فحاولوا مساعدتهم وإن لم تغن شيئاً . فكان هذا وذاك السبب المباشر كما هو المتبادر الذي جعل العرب يعتبرون أنفسهم في حالة حرب مع الترك ويتحفزون للتدفق على بلادهم .

ولقد نشب نتيجة لذلك صيال مديد ومرير بين العرب والترك مختلف الصفحات . ولقد تكررت انتفاضاتهم . وكان ينال العرب منهم في بعض المراحل كثير من الشدة والأذى. غير أنهم كانوا في النهاية ينتصرون عليهم ويوطدون سلطانهـــم على بلادهم ويسكنون بينهم وينشرون دينهم ولغتهم . حتى صار الاسلام دين اهل البلاد التركية اجمالا في آخر عهـــد الدولة الاموية كما صارت لغتها مرصعة باللغة العربية بل تكاد تكون نصفها .

ولقد كان صيال العرب مع الترك يتيح بعض الفرص لبعض أهل بلاد الفرس والديلم والكرد والارمـــن والخزر الذين كانوا خضعوا للسلطان العربي في زمن الخلفاء الراشدين فينتقضون عليه فكان يتجدد نتيجة لذلك صراع بين العرب وبينهم لتوطيد سلطانهم ثانية .

وكان هذا يؤدي إلى توطيد السلطان العربي على بعض البلاد والجماعات التي لم تكن خضعت له من قبل في هذه الانحاء .

ولقد كانت حركات العرب هـذه وتلك مؤدية كذلك الى التوغل شرقاً في بلاد السند والصين والهند وتوطيد السلطان العربي في بعض انحائها .

ولقد بدأ العرب في التدفق نحو بلاد الترك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبأمره حيث تقدم نحوها عبد الرحمن بن ربيعة متولي فتح اقليم الباب حتى وصل الى عاصمة مـــن عواصمها اسمها بلنجر . وتكررت حركاته حولها فكمن له الترك وقتلوه وشتتوا شمل جيشه .

ثم شغلت العرب الشواغل عن هذه البلاد الى أن استتب الامر لمعاوية بن ابي سفيان فتحركوا نحوها من جديد ثم اتسعت حركاتهم حتى غدت سيلا متدفقاً عم جميع انحائها .

وكانت حركاتهم نحوها من ثلاث طرق . وهي طريق خراسان وطريق سجستان . وطريق ارمينية . ولقد بدأت حركاتهم نحوها عن الطريقين الاولين في عهدمبكر . وكانت في بدء الامر على صورة غارات غادية رائحة مع فتح خفيف .

والمستفاد من روايات الطبري [1] ان اول ما كان من ذلك غزوة عبد الله بن سوار سنة ٤٣ . ثم غزوة الحكم بن عمرو الغفاري في سنة ٤٧ وكان هذا اميراً على خراسان فغزا جبال الغور وفراونده فقهر اهلها وفتحها واصاب فيها سبياً ومغانم كثيرة .

وقد سجلت الروايات ان الحكم هذا هو اول من قطع النهر وراء خراسان كما سجلت ان مولاه هو اول من ملأ ترسه من مائه وشرب منـــه ثم ناوله للحكم فشرب ثم توضأ وصلى ركعتين وقفل دون ان يتوغل . ثم غزا الحكم سنة ٥١ المنطقة المعروفة بجبل الاشل . ولقد أحدق الترك بالغزاة ولكنهم استطاعوا ان ينجوا بعد ان ملأوا ايديهم بالغنائم الكثيرة . وفي سنة (٥١) غزا الربيـع بن زياد الحارثي ناحية بلخ ففتحها صلحاً ثم تقدم نحو قهستان ففتحها عنوة . وتولى خراسان بعد ذلك عبيد الله بن زياد فقطع سنة (٥٤) النهر الى جبـال بخارى ففتح راتين ونصف بيكند .

ومما يرويه الطبري ان الترك لما انهزموا امام العرب اعجلت قبج خان زوجة ملكهم عن لبس خفيها فأصاب المسلمون احدهما فقوم ما عليه من حلية فبلغت مئتي الف درهم . وقد اثر

---

(١) انظر ج ٤ ص ١١٤ وبعدها و ١٨٦-٢٢٨ .

عن عبادة بن حفص وصفاً رائعاً لعبيد الله بن زياد في هذا السياق حيث قال (ما رأيت احداً اشد بأساً من عبيد الله بن زياد حين لقي الترك حيث كان يحمل عليهم ثم يغيب عنا ثم يرجع ورايته تقطر دماً . وقد اسر العرب من الترك في هذه الغزوة الفين فاعتنقوا الاسلام وكانوا ماهرين برمي النشاب فانضم بهم الى الجيش الاسلامي قوة جديدة حيث صاروا يقاتلون معهم.

وفي سنة ٥٦ قطع سعيد بن عثمان بن عفان الذي صارت اليـــه ولاية خراسان النهر الى سمرقند فخرج اليه اهل الصغد وهم من طوائف الترك فقاتلهم وهزمهم وحصرهم في مدنهـــم فصالحوه واعطوه خمسين غلاماً من ابناء عظمائهم رهناً على الصلح .

ثم شغل العرب مرة اخرى بفتنهم الداخلية فتوقفت حركتهم نحو بلاد الترك الى سنة ٧٨هـ حيث استؤنفت ثانية . وقد عين الحجاج بن يوسف والي العراق ومـــا وراءه المهلب بن ابي صفرة على خراسان وعبيد الله بن ابي بكرة على سجستان وامرهما بالجهاد . ولم يكد المقام يستقر بهما في ولايتيهما حتى بادرا الى تحقيق رغبة واليهم العام . ومنذئذ دخلت حركة الفتح والتوسع في بلاد الترك مرحلة حادة ايجابيـــة امتدت خمساً واربعين سنة بدون انقطاع . وتخللها انتفاضات عديدة ومصاولات شديدة ثم انتهت بنجاح العرب في بسط سلطانهم على هذه البلاد ونشر الدين الاسلامي فيها .

وأول ما سجل من ذلك [1] غزوة عبيد الله بن ابي بكرة لبلاد رتبيل احد ملوك الترك . وقد اوغل واضطر ملكها الى الخضوع واداء الجزية . غير انه لم يلبث أن نقض الصلح فأمر الحجاج ابن ابي بكرة بمناجزته وارغامه فمضى وتوغل وهدم قلاعاً وحصوناً وغـــنم أموالاً ومواشي كثيرة وغلب على انحاء عديدة . ولكنه تعرض مع جيشه لكيد رتبيل حيث كان يأمر جيشه واهل بلاده بالتقهقر حتى توغـــل المسلمون كثيراً ثم كروا عليهم وقطعوا خط رجعتهم وقتلوا عدداً عظيما منهم بما فيهم قائدهم ولم ينج الأحياء الا بفدية كبيرة .

وعظم الامر على الحجاج فهيأ حملة قوية عهد بقيادتها الى عبد الرحمن بن الاشعث وسيرها للثأر وتوطيد هيبة العرب وسلطانهم . وقد توغل هذا في بلاد رتبيل واخذ يستولي عليهـــا شيئاً بعد شيء ويملأ يديه بالغنائم . وطلب رتبيل ان يجدد الصلح فأبى فأخذ يخلي البلاد امامه

---

(١) الطبري ج ٥ ص ١٣٦ — ١٤٨ .

كما فعل مع جيش ابي بكرة رستاقاً بعد رستاق .

وكان ابن الاشعث يتقدم بحذر ويستولي على ما يخلونه ويعين عليه العمال ويضع الحاميات حتى حاز ارضاً عظيمة وغنائم كبيرة ثم حبس الناس عن الوغول وقال لهم حسبنا ما أصبناه هذا العام . وفي العام القابل نتعاطى ما وراء ذلك حتى نقاتلهم الى اقصى بلادهم وممتنع حصونهم . ثم كتب للحجاج بما فتح الله وبما صنع فلم يستحسن رأيه في التوقف فكتب اليه يندد به فأثاره فأرسل الى رتبيل فصالحه ثم قفل مع جيشه متمرداً على الحجاج مما أدى إلى فتنة كبرى كادت ان تزعزع الدولة على ما سوف نشرحه في نبذة اخرى .

ولقد كان المهلب بن ابي صفرة والياً على خراسان فقطع سنة ٨٠ نهر بلخ فنزل على كش وهي من العواصم التركية الكبرى وحاصرها فطلب اهلها الصلح لقاء فدية كبيرة وقبلوا الخضوع للسلطان العربي فقبل منهم . وفي اثناء حصاره لكش سير ابنه يزيد نحو بلاد الختل فخرج اليه ملكها على رأس جيش كبير ودارت رحى القتال بين الفريقين واحرز العرب النصر عليهم وحينئذ فعل الملك ما فعله اهل كش من اداء الفدية والخضوع للسلطان العربي . وسير المهلب في الوقت نفسه ابنه الثاني حبيباً نحو بخارى فاثخن في اقليمها وعاد غانماً [١] .

وكان له ابن ثالث اسمه المغيرة ينوب عن والده في مرو فمات فسير المهلب يزيد ليحل محله فسار في سبعين فارساً فلقيهم خمسمئة من الترك فطمعوا فيهم لقلتهم وهاجموهم فتلقاهم يزيد وفرسانه بقوة وبسالة حتى اثخنوا فيهم وهزموهم . وكان ليزيد في هذا الموقف صولات هائلة فقال شاعر معاصر فيه :

والترك تعلم إذ لاقى جموعهم	ان قد لقوه شهابا يفرج الظلما
بفتية كأسود الغاب لم يجدوا	غير التأسي وغير الصبر معتصما
وتحتهم قرح يركبن ما ركبوا	من الكريهة حتى يبتلعن دماً [٢]

---

(١) الطبري ج ٤ ص ١٣٩ وبعدها .

(٢) ١٥٨-١٦٠ .

ولقد مات المهلب سنة ٨٢ [١] فعين الحجاج ابنه يزيد والياً لخراسان مكانه فسار على خطة

---

(١) يجمع الرواة على ان المهلب كان من عظماء رجال هذا العهد حيث كان قائداً حكيما وشجاعاً باسلا وعاقلا حازماً وكان عظيم المروءة شهيراً في المكرمات . وكان له في حرب الخوارج بلاء عظيم على ما سوف نشرحه في نبذة الخوارج . وقد اورد الطبري نص الوصية التي وصى بها بنيه حينما حضرته الوفاة وقد جاء فيها (انه دعا بسهام فخرمت وقال اترونكم كاسريهـــا مجتمعة قالوا لا قال افترونكم كاسريها متفرقة قالوا نعم قال فكهذا الجماعـــة . فاوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم . فان صلة الرحم تنسيء في الاجل وتثري المال وتكثر العدد . وانهاكم عن القطيعة فان القطيعة تعقب النار وتورث الذلة والقلة . فتحابوا وتواصلوا واجمعوا امركم ولا تختلفوا وتباروا تجتمع اموركم . ان بني الامم يختلفون فكيف ببني العلات . وعليكم بالطاعة والجماعة وليكن فعالـكم افضل من قولكم فاني احب للرجـــل ان يكون لعمله فضل على لسانه واتقوا الجواب وزلة اللسان فان الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته ويزل لسانه فيهلك . اعرفوا لمن يغشاكم حقه . فكفى بغدو الرجل ورواحه اليكم تذكرة له ، وآثروا الجود على البخل واحبوا العرب واصطنعوا العرف فان الرجل من العرب تعده العدة فيموت دونك فكيف الصنيعة عنده . عليكم في الحرب بالاناة والمكيدة . فانها انفع في الحرب من الشجاعة . واذا كان اللقاء نزل القضاء فان اخذ رجل بالحزم فظفر على عدوه قيل اتى الامر من وجهه ثم ظفر فحمد . وان لم يظفر بعد الاناة قيل ما فرط ولاضيع . ولكن القضاء غالب وعليكم بقراءة القرآن وتعلم السنن وادب الصالحين . واياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم) مما فيه مصداق للصفات التي وصفناه بها والتي جعلته من عظماء رجال العهد . وقد رثاه نهار التميمي فقال :

الا ذهب الغزو المقرب للغنى	ومات الندى والجود بعد المهلب
اقاما بمرو الروذرهني ضريحه	وقد غيبا عن كل شرق ومغرب
اذا قيل اي الناس اولى بنعمة	على الناس قلناه ولم يتهيب
اباح لنا سهل البلاد وحزنها	بخيل كارسال القطا المتسرب
يعرضها للطعن حتى كأنمـــا	يجللها بالارجوان المخضب
تطيف بهقحطان قد عصبت به	واحلافها من حي بكر وتغلب

الطبري ج ٥ ص ١٦١-١٦٢

ولقد وفد المهلب على الحجاج بعد ان بدا منه ما بدا من عظيم البـــلاء في حرب الخوارج فاكرمه واجلسه الى جانبه وقال يا اهل العراق انتم عبيد المهلب ثم قال له انت كما قال لقيط بن يعمر الايادي في صفة امراء الجيوش :

وقـــلدوا امركم لله دركم	رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفاً ان رخاء العيش ساعده	ولا اذا عض مكروه به خشعا
مسهد النوم تعنيه ثغوركم	يروم منها الى الاعداء مطلعا
ما انفك يحلب هذا الدهر اشطره	يكون متبعاً طوراً ومتبعا
وليس يشغله مال يثمره	عنكم ولا ولد يبغي له الرفعا
حتى استمرت على شزر مريرته	مستحكم السن لاقحماً ولاضرعا

ابن الاثير ج ٤ ص ١٧١

أبيه . ومما سجل له من البـــلاء الجهادي في هذه المرحلة فتحه سنة ٨٤ قلعة نيزك بباذغيس وكانت قلعة مهمة . فاغتنم غياب صاحبها عنها فخالفه اليها ودخلها فلمـــا رجع نيزك ساوم يزيد على الصلح على أن يدفع له ما في خزائن القلعة . وكان يحب قلعته ويعظمها حتى كان يسجد لها كلما نظر اليها . فقبل [١] .

وفي سنة ٨٥ عزل الحجاج يزيد عن خراسان وولاها اخاه المفضل بن المهلب فسار بدوره على خطة أبيه واخيه ومما سجل له في هذه المرحلة غزوته لباذغيس ثم لشومان وأخرون في ما وراء النهر . وقد ظفر وغنم غنائم عظيمة وزعها على رفاق جهاده .

ومن طريف ما يروى عن المفضل وفيه صورة نادرة انه لم يكن له بيت مال وانه كان يعطي الناس كل ما يدخل ليده من الجباية ثم يقسم عليهم ما يدخل في يده من الغنائم [٢] . وبعد قليل عزل المفضل ايضاً ثم عزل اخا ثالثاً لهم اسمه عبد الملك كان على شرطته [٣] .وولى

---

(١) الطبري ج ٤ ص ١٨٦–١٨٧ .

(٢) ص ١٩٤ .

(٣) كان بنو المهلب كأبيهم اقوياء الشخصية والعصبية اصحاب مروءات ومكرمات وقواداً شجعاناً ويعدون من كبار رجال هذا العهد ايضاً . وهم كأسرة تولى عدد من افرادها الحكم قد تشبه اسرة زياد ابن ابي سفيان . وفي ذلك صورة من صور الحكم في عهد هذه الدولة . ولقد كانوا اعضاد ابيهم في حروب الخوارج وفي حكم خراسان والفتوحات في منطقتها ومات احدهم المغيرة في حياة ابيه في ساحة الجهاد على ما مر بيانه . واستأنفوا نشاطهم في نطاق عمل الدولة في عهد سليمان بن عبد الملك . ومع ذلك فقد سجل التاريخ عنهم بعض الهنات بعد موت ابيهم حيث اتهمهم الحجاج بمال الدولة بعدان عزلهم وحبس يزيد والمفضل وطالبهم بستة آلاف الف ثم اتهم عمر بن عبد العزيز يزيدبن المهلب بمثل ذلك وطالبه بعشرين الف الف وحبسه وقد فروا من الحبس مرتين على ما ذكرناه في سيرة عبد الملك والوليد وعمر . ثم قاموا بثورة دموية ضد الدولة على ما سوف نشرحه في نبذة خاصة . وبهذه الثورة يفترقون عـــن الاسرة الزيادية وان كانت الروايات سجلت على افراد هذه الاسرة تهماً مالية على ما ذكرناه في سياق سيرة معاوية . وهذه التهمة تكررت كثيراً بالنسبة لولاة آخرين على ما ذكرناه في سيرة غير واحد من الخلفاء حيث يبدو انها من طبيعة العهد وصور حكمه . ويظهر ان بني المهلب كانوا معتدين بأنفسهم او اشداء في معاملة الغير حتى قال عنهم عمر بن عبد العزيز انهم جبابرة على ما ذكرناه في سيرته .

خراسان قتيبة بن مسلم فكان له اعظم البلاء في الغزو والفتوح فيما وراء النهر . ولقد خطب قتيبة بالناس بعد وصوله حاثاً على الجهاد فقال : (إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وقماً . وقد وعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله الى قوله أحسن ما كانوا يعملون) ثم أخبر عمن قتل في سبيله انه حي مرزوق فقال (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على اقصى أثر وأمضى ألم وإياي والهوينا)[1] حيث ينطوي في الخطبة صورة قوية لما كان يحفز قواد المسلمين إلى الجهاد في سبيل الله دون مبالاة بما يتحملون من التضحيات من رغبة في نشر دين الله والدفاع عن حرماته وكبت أعدائه وتوطيد السلطان العربي الاسلامي في الارض .

وهذه صورة ملموحة بكثرة في اقوال وخطب وعزائم ولاة المسلمين وقادتهم في هذا العهد استمراراً لما كان من ذلك في عهد الخلفاء الراشدين ثم تقدم نحو الطالقان فتلقاه دهاقين بلخ وبعض عظمائهم وساروا معه فلما قطع النهر تلقاه بش ملك الغانيان بالهدايا ومفتاح ذهبي صنعه خصيصاً واعطاه اياه دليلا على تسليمه حكم بلاده له ودعاه اليها . ثم أتاه ملك كفتان بهدايا وأموال ودعاه إلى بلاده أيضاً حيث يبدو أن صيت العرب الجهادي كان داوياً جعل هؤلاء الملوك يجنحون الى المسالمة .

ولقد مضى قتيبة أولاً إلى الصغانيان مع ملكها فوطد السلطان العربي الاسلامي فيها . وكان لهذا الملك عدو يزعجه وهو ملك أخرون وشومان وهما من أقاليم طخارستان فحرض قتيبة عليه فاتجه نحو بلاده . وفي طريقه جاءه ملك لشتان فصالحه على فدية اداها اليه . ثم غزا بلاد شومان وأخرون فسبى وغنم وجاءه ملكها غيسلشتان وصالحه على فدية أداها . واستخلف أخاه على الجند وعاد الىمرو مركز خراسان وقد فتح أخوه حصن ياسار فيطريق عودته مع الجيش[2] .

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٢١٤ وبعدها .

(٢) ص ٢١٥ .

ولقد كان وقع في يد نيزك ملك طرفان بعض المسلمين اسرى فكتب اليه قتيبة باطلاقهم وهدده في حالة الرفض فأطلقهم ثم قدم على قتيبة فجدد الصلح معه . وفعل مثله أهل بلاد باذغيس ايضاً [1] .

وغزا قتيبة في نفس السنة مدينة بيكند وهي ادنى مدائن بخارى إلى النهر فلما نزل بساحتهم استنصروا بالصغد وغيرهم ممن حولهم فأتاهم عدد كبير حتى لقد أحاطوا بقتيبة ومن معه وانقطع خبره عن الحجاج ونصحه أحد رجاله بالاحتيال على العودة فأبى . وحث جيشه على القتال والاستماتة فيه فاستجابوا واشتبكوا مع اعدائهم في معركة حامية فحالفهم النصر وانهزم الترك وركبهم المسلمون يقتلون ويأسرون ما شاؤوا . واعتصم الناجون في المدينة المسورة فأمر بنقب الاسوار وهدمها . وحينما رأى المحصورون جده سألوه الصلح فصالحهم وخلف عليهم عاملا . غير انهم لم يلبثوا ان ثاروا على العامل وقتلوه مع من معه من الحامية ومثلوا فيهم فعاد قتيبة وحاصرهم وشدد عليهم فطلبوا الصلح فأبى وظل مضيقاً عليهم الخناق إلى أن تمكن من دخول المدينة فقتل مقاتلتها وخضد شوكتها .

ومما يروى ان احدهم قال اني افدي نفسي فسألوه بماذا فقال بخمسة آلاف حريرة صينية قيمتها الف الف فأبى قتيبة وقتله ارهاباً للناقضين الغادرين .

وقد اصاب المسلمون في بيكند ما لا يقع تحت حصر من اواني الذهب والفضة والمتاع حتى لم يصيبوا مثله في خراسان . وقووا بذلك واشتروا السلاح والخيل حتى لقد بلغ ثمن الرمح سبعين الفاً . وقال الكميت في يوم بيكند :

ويوم بيكند لا تحصى عجائبه ... وما بجاراه مما اخطأ العدد

وقد وجد قتيبة في مخازن المدينة شيئاً كثيراً من السلاح وآلة الحرب فوزعه على الجيش بعد الاستئذان من الحجاج واذنه .

وبعد قليل من الاستجمام زحف نحو امل ثم عبر من ذم إلى بخارى فأتى نومكشت وهي

---

(١) ص ٢٦٧ .

من بخارى فصالحه اهلها . وفي سنة ٨٨ زحف نحو راميته فصالحه اهلها كذلك

ولقد تجمع الصغد والترك واهل فرغانة وهو عائد وهاجموا مؤخرة جيشه حتى كادوا يفنونها وبلغ الخبر قتيبة فعجل اليهم واشتبك معهم وانتصر عليهم . وكان قائدهم كوبغانون ابن اخت ملك الصين . وعدتهم مئتي ألف . وكان نيزك ملك طرخان مع قتيبة فأبلى في هذا الموقف بلاء عضيما .

وفي سنة ٨٩ اتى قتيبة زم فقطع النهر قاصداً غزو ملك بخارى وردان خداه بأمر من الحجاج فوجد اهل الصغد واهل كش ونسف مجتمعين مجمعين على الوقوف في وجهه فقاتلهم وهزمهم ثم مضى الى بخارى فوجد المنهزمين قد جمعوا شملهم في جمع كبير فقاتلهم يومين وليلتين فمنحه الله النصر عليهم ثم عاد دون فتح جديد . وفي عام ٩٠ عاد الحجاج ثانيـــة فأمره بغزو بخارى فسار اليها فاستنصر ملكها بالصغد والترك ومن حولهم فجاؤه بعدد كبير وأخذ الفريقان يشتبكان في معارك حامية . وكاد الترك يطبقون على المسلمين في احدى الجولات حتى لقـد دخل بعضهم معسكر قتيبة . واستمات المسلمون في القتال وقامت ثلة منهم بقيادة بطلين من ابطالهم واحد اسمه هريم والاخر اسمه وكيع بعملية فدائية خطيرة حيث اقدموا عـــلى اجتياز نهر كان يحجز بينهم وبين الترك بعدد قليل ثم شدوا عليهم فهزموهم وجرح خاقان الترك وابنه . وامتلأ اهل الصغد رعباً وخوفاً نتيجة لذلك وارسل ملكهم طرخون الى قتيبة يعرض عليه الصلح مقابل فدية كبيرة فقبل منه وانصرف الى بلاده .

ولقد دب الذعر في قلب نيزك ايضاً مما رأى من انتصارات المسلمين المتوالية فبيت الغدر مع اصحابه واستأذن من قتيبة بالرجوع الى طخارستان . واذن له . فلما بلغ شعب خلم اعلن التمرد وكتب الى اصبهبذ بلخ وملك مروزورد بادم وملك الطالقان سهرك وملك الفارياب ترسيل وملك الجوزجان وكابلشاه وملك كابل يدعوهم الى الانتفاض على العرب . فأجابوه وتواعدو على موعد . وكانت هذه البلاد في صلح مع المسلمين فأخرجوا عمال المسلمين من المدن التي لهم فيها عمال . ونمي الخبر الى قتيبة فأخذ يستعد لمواجهـة الموقف العصيب . ويستقدم المجاهدين من ابرشهر وابيورد وسرخس وهراة حتى اذا اتم استعداده بدأ بالزحف عـــلى الطالقان التي كانت من اقاليم خراسان فقتل من اهلها مقتلة عظيمة وصلب منهـــم سماطين - صفين - طولها اربعة فراسخ في نظام واحد . ثم ثنى بأهل مروزورد فشفى نفسه منهم ثم مضى الى الفارياب فخرج اليه ملكها مذعناً معلناً طاعته فقبل منه ومضى الى الجوزجان ففر ملكها

الى الجبال مع قسم من جنده وسارع اهل البلاد الى اعلان طاعتهم فقبل قتيبة منهم . ثم اتى بلخ فلقيه اصبهذها كذلك مظهراً الندم والطاعة فقبل منه حيث يبدو من هذا ان قتيبة كان أسرع حركة من المتآمرين على التمرد فلم يمكنهم ان يجتمعوا ويحتشدوا في الموعـــد المعين فصاروا مضطرين الى اعلان الندم والخضوع ، وان قتيبة عاملهم معاملة متسامحة يتم حبوط مؤامرة نيزك ويكون فيها وحيداً أو كالوحيد . وقـد جاء بعد ذلك الى شعب خلم الذي كان موعد احتشاد الجماعات المتمردة ولم يكن قد جاء اليه احد إلا نيزك الذي ذعر بدوره وفر الى منطقة بغلان بعد أن حصن الشعب من ورائه . وجاء رؤوب خان ملك الرؤوب وسمنجان الى قتيبة طالباً الامان منه على ان يدله على مدخل قلعة نيزك فأجابـه الى طلبه . ودخل القلعـــة . ولم يستطع نيزك الصمود ففر نحو فرغانه وأرسل ثقله وامواله الى كابل شاه . ونصحه بعض رجاله بالقدوم على قتيبة وإعـــلان الخضوع له . ولم يعد له مناص من ذلك فقدم على قتيبة ومعه بعض أمراء وزعماء الترك المتحالفين معه فاعتقله قتيبة ولم يمنحـه أمانا واستأمر الحجاج في قتله فاذن له فقتله وصلبه مع عدد كبير من رجاله لقاء ما كان من غدره الذي كاد يكون كارثة على المسلمين [١] .

وفي سنة ٩١ طرد ملك شومان عامل قتيبة ومنع الخراج فأرسل قتيبة اليه انذاراً مع رسول وأرسل قتيبة معه رجلا من مسلمي خراسان ، فلما قدما المدينة منعا من دخولهـــا ورشقا بالنبل فانصرف الرجل الذي كان مع عياش وصعب على عياش ان يعود دون ان يجاهد في العدو الغادر . فهتف في من كان عـــلى سور المدينة اما من رجل مسلم هنا فجاءه شخص وقال له أنا مسلم فماذا تريد قال أريد أن تعينني عـــلى جهاد الكفار فتكون خلفي لتمنع ظهري فوافق وحينئذ تحدى الكفار بالمبارزة فصاروا يبرزون اليه فيقتل منهم واحداً بعد واحد مما جعلهم يكاثرونه ويقاتلونه جميعاً حتى قتلوه . وقد وجد فيه ستون جرحاً . مما فيه صورة من صور بطولة المجاهدين الرائعة .

ولما علم قتيبة بمصير رسوله واصرار ملك شومان على النقض سار اليه عن طريق بلخ فعبر

---

(١) السياق من غزو بيكند الى هنا من الطبري ج ٤ ص ٢١٨ – ٢٣٠ و ٢٣٥ – ٢٣٨ وابن الاثير يذكر صفحات نشاط قتيبة متطابقة مع الطبري انظر ج ٤ ص ٢٠٠ وبعدها .

النهر وضرب الحصار على المدينة ونصب عليها المجانيق . ولما ضاق الخناق على الملك خرج مع جماعة من جيشه مستميتاً فقاتلوا حتى قتل الملك ومعظم من معه . وحينئذ دخل قتيبة القلعة وقتل المقاتلة وسبى الذرية . ثم أتى كش وتسف اللتين كانتا قد نقضتا أيضاً ففتحها ثانية وجاء الى فرياب فامتنعت عليه فحرقها . وسرح اخاه عبد الرحمن الى الصغد وطرحون فاعلنوا الطاعة والخضوع فقبل منهم وصالحهم [1] .

وفي سنة ٩٢ توجه عن طريق سجستان قاصداً رتبيل الاعظم وبلاد الزابل فلما بلغ سجستان تلقته رسل الرتبيل بالصلح والجزية فقبل وارسل عماله اليهم .

وفي سنة ٩٣ دخلت بلاد خارزم في حكم المسلمين . وقد روي في صدد ذلك انه كان لملك خارزم أخ ظالم فاسق متسلط على اخيه فأرسل الى قتيبة يدعوه الى بلاده وارسل مع الرسل مفاتيح ذهبية لمدائنه علامة على الخضوع والتسليم وجعل من شروطه اعتقال اخيه وانصاره وتسليمهم اليه . فرحب قتيبة بالفرصة واتجه نحو خارزم فلما بلغها خرج اليه الملك وصالحه . وقد تمكن من اعتقال الاخ المتسلط وانصاره فسلمهم الى الملك وفاء بشرطه .

وكان لهذا الملك عدو آخر هو ملك خام جرد فحرض قتيبة عليه فسار نحوه وقتله واستولى على بلاده وأقام عماله فيها وفي مملكة خارزم معاً . ثم اعتزم على غزو سمرقند عاصمة الصغد حيث كان ملكها غوزك ممن استجاب لدعوة نيزك الى الغدر وتألب معه فزحف عليها وضرب الحصار . وكتب ملكها الى ملوك الشاش واخشاش وفرغانه يخوفهم من عاقبة انتصار العرب فارسلوا اليه مدداً . وعلم قتيبة بذلك فأرسل جريدة من جيشه للقاء المدد قبل وصوله فلقيته واشتبكت معه في معركة حامية وانتصرت عليه وظفرت منه بغنائم عظيمة من السلاح والمتاع والمناطق الذهبية ففت ذلك من عضد الصغد . وشدد قتيبة الحصار على سمرقند وقذفها بالمجانيق فاضطر أهلها الى اعلان الندم والخضوع وطلب الصلح فصالحهم على الفي الف كل عام مع ثلاثين الف رأس في رواية ومائة الف في رواية أخرى . وأمر باصنام المدينة فحرقت بعد أن سلب ما عليها من الحلى . وخوفه اهل الصغد منها وقالوا له إن من يحرقها يهلك فقال أنا اول من يفعل ذلك . وقد اشعل فيها النار

---

(١) ص ٢٤١ وبعدها

بنفسه . ولما ذابت بلغ بقايا ما كان فيها من مسامير الذهب والفضة خمسين الف مثقال . وقد اصاب المسلمون من سمرقند غنائم عظيمة . وقد نفى قتيبة غوزك عن سمرقند واقام عليها عاملا مع حامية كثيفة . وقال له لا تدعن مشركاً يدخل باباً من أبواب سمرقند إلا مختوم اليد . وإن وجدت معه حديدة سكيناً فما سواه فاقتله . وإن اغلقت الباب ليلا فوجدت أحداً منهم فاقتله مما يتسق مع الحذر في ظروف الحرب ومما قد يدل على شدة غيظ الفاتح العربي من اهل سمرقند لغدرهم [1] .

وفي سنة ٩٣ تمرد اهل خارزم بتحريض ملكها على عامل قتيبة فوجه قتيبة جيشاً نكل بهم واضطرهم الى الخضوع ثانية . اما ملكهم فانه لم يسعه إلا ان يفر ويوغل في بلاد الترك الشرقية . ثم اعتزم على تأديب بلاد الشاش وفرغانه التي كانت من جملة المستجيبين لتحريض رتبيل ايضاً . وقد فرض على اهل بخارى وكش ونسف وخارزم عشرين الف مقاتل فوجههم الى الشاش حيث يبدو من هذا انهم إما ان يكونوا اسلموا وإما ان يكونوا قد اظهروا من الولاء ما جعل قتيبة يأمن اليهم . وقد توجه هو الى فرغانه فأتى أولا خجنده فوجد أهلها مستعدين للقتال فقاتلهم ودارت بينه وبينهم معارك عديدة ثم ظفر بهم . واتى بعدها كاشان مدينة فرغانه فاستحوذ عليها بيسر [2] .

وفي سنة ٩٥ عاود قتيبة الكرة على بلاد الشاش لانه لم يكن غزاها في سنة ٩٣ إلا غزواً خفيفاً فشفى نفسه منها . ولما عاد الى مرو جاءه خبر بموت الحجاج وكتاب من الوليد يثني عليه وبنوه ببلائه ويقول له ان امير المؤمنين قد عرف بلاءك وجدك في جهاد اعداء المسلمين وهو رافعك وصانع بك الذي يجب لك . فالمم مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغب عن امير المؤمنين كتبك حتى كأنه ينظر الى بلادك والثغر الذي انت فيه [3] .

وفي نفس السنة فتح آخر الهند إلا الكيرج والمندل [4] .

---

(١) ٢٤٨ – ٢٥٥

(٢) ص ٢٥٧ – ٢٥٨

(٣) ٢٦٣ – ٢٦٤

(٤) ص ٢٦٣ هذه عبارة الطبري وليس معها بيان لا عن البلاد ولا عن الفاتح وقد رأينا ايرادها بنصها لانها جاءت في كتابة في سلسلة الاحداث حسب تتابع السنين . وفي هذه النبذة التي سوف نوردها بعد نقلا عن البلاذري بعض البيان عن ذلك .

وفي سنة ٩٦ فتح قتيبة كاشغر وغزا الصين [١] ومما رواه الطبري في صدد ذلك انه بعث كثيراً بن فلان الى كاشغر ففتحها وسبى منها سبياً كثيراً . وان قتيبة وغل حتى قرب من الصين فكتب له ملك الصين ان ابعث الينا رجلا من اشراف قومك ليخبرنا عنكم وعن دينكم فاختار قتيبة عشرة من فتيان القبائل لهم جمال وأجسام وألسن وشعور وبأس . وأمر لهم بعدة حسنة من السلاح والمتـاع والوشي واللين من البياض والرقيق من النعال والعطر . وحملهم على خيول مطهمة تقاد لهم ودواب يركبونها وجعل لهم هبيرة بن المشمرخ الكلامي رئيساً لانه كان مفوهاً بسيط اللسان وقال لهم إذا دخلتم عليه فاعلموه أني حلفت ان لاأنصرف حتى أطأ بلادهم واختم ملوكهم واجبي خراجهم فلما وصل الوفد دخلوا على الملك متعطرين متزينين . فلم يكلمهم احد فقاموا وانصرفوا فسأل الملك رجاله فقالوا ما رأينا إلا ما يشبه النساء . ثم جاءوا في اليوم الثاني متعممين وعليهم المعـارف . فلم يكلمهم احد فقاموا وانصرفوا وسأل الملك رجاله فقالوا هم اليوم اشباه رجـال . ثم جاءوا في اليوم الثالث متسلحين مشمّرين . فسألهم الملك عن صنيعهم في الايام الثلاثة فقالوا إن ما فعلناه اول يوم هو ما نفعله في بيوتنا وثاني يوم هو ما نفعله حين نقابل امراءنا وثالث يوم هو ما نفعله اذا هاجمنا عدو . فاستحسن تدبيرهم وجوابهم . ثم قال لهم لقد رأيتم عظيم ملكي . وانه ليس احد يمنعكم مني فانصرفوا وقولوا لصاحبكم ينصرف وقد عرفت حرصه وقلة اصحابه . والا بعثت عليكم من يهلككم . فقالوا له ان من أول خيله في بلدك وآخرها في منابت الزيتون لا يكون قليلا . وإن من ترك الدنيا وتقدم الى غزوك لا يكون حريصاً . اما الموت فنحن نعرف ان لنا آجالا فان حضرت فأكرمها علينا ان تكون قتلاً في الجهاد . فلما سمع قولهم قال لهم وما الذي يرضي صاحبكم فذكروا له يمينه فقال نحن نخرجه منها . ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب ليطأه وبأربعة غلمان من ابناء الملوك ليختم رقابهم . وبحرير وذهب لتكون جزية وعاد الوفد فقص رحلته على قتيبة فختم رقاب الغلمان ثم ردهم [٢] .

وليس في سياق الطبري بيان عن مدينة هذا الملك وموقعها ولم نقع على شيء من ذلك

---

(١) ص ٢٦٨ وبعدها

(٢) ٢٦٩ وبعدها

في الكتب القديمة الاخرى . وقد تكون الرواية شيبت بشيء من الخيال . ولكنا نرجح أن لها اصلا ما .

وهذا آخر ما روي عن جهاد قتيبة . وقد روى انه كان اذا رجع من غزاته كل سنة اشترى اثني عشر فرساً من جياد الخيل واثني عشر هجيناً فيقام عليها الى وقت الغزو وتضمر لتكون له عدة وحمولة في السنة التالية حيث يفيد هذا أنه كان قد أخذ نفسه بالقيام بالجهاد في كل سنة .

وواضح مما تقدم ما كان لقتيبة من بلاء عظيم ونقيبة ميمونة .

ولقد روى الطبري في أعقاب غزواته وفتوحاته مقطوعات شعرية لشعراء كانوا يشهدون معه مشاهده . فيها تنويه وثناء وتسجيل لما كان الله ييسره تحت رايته للمسلمين من فتح ونصر وغنائم . فمن ذلك عقب النصر على نيزك [١] :

اراك الله في الاتراك حكما	كحكم في قريظة والنضير
قضاء من قتيبة غير جور	به يشفى الغليل من الصدور
فان ير نيزك خزياً وذلا	فكم في الحرب حمق من أمير

ومنها لشاعر آخر في الظرف نفسه [٢] :

أبلغ أبا حفص قتيبة مدحتي	واقرأ عليه تحيتي وسلامي
يا سيف ابلغها فان ثناءها	حسن وانك شاهد لمقامي
يسمو فتتضع الرجال اذا سما	لقتيبة الحامي حمى الاسلام
لأغر منتخب لكل عظيمة	نحِرٍ يباح به العدو لهام
يمضي اذا هاب الجبان واحمشت	حرب تسعر نارها بضرام
تروى القناة مع اللواء امامه	تحت اللوامع والنحور دوام
وترى الجياد مع الجياد ضوامراً	بفنائه لحوادث الايام

---

(١) ٢٤٠ (٢) ٢٤٠

وبهن أنزل نيزكا من شاهق　　والكرز حيث يروم كل مرام
واخـــاه شقرانا سقيت بكأسه　　وسقيت كأسهما اخا باذام
وتركت صولا حين صال مجولا　　يركبنه بـــدوابر وحوام

ومنها لكعب بن شقرى عقب انتصار قتيبة على خارزم شاه واخيه[1]:

رمتك فيل بما فيهـــا وما ظلمت　　ورامهـــا قبلك الفجفاجة الصلف
لا يجزىء الثغر خوار القناة ولا　　هش المكاسر والقلب الذي يجف
هل تذكرون ليالي الترك تقتلهم　　ما دون كازه والفجفاج ملتحف
اني رأيت أبا حفص تفضـــله　　ايامـــه ومساعي الناس تختلف
لو كنت طاوعت اهل العجز مااقتسموا　　سبعين الفـــاً وعز الصغد مؤتنف
وفي سمرقند أخرى انت قاسمها　　لئن تأخر عن حوبائـــك التلف
ما قدم الناس من خير سبقت به　　ولا يفوتك ممـــا خلفوا شرف

ومنها بعد النصر على الصغد أيضاً[2]:

ما كان مذ كنا ولا كان قبلنا　　ولا هو فيما بعـــدنا كابن مسلم
أعم لأهـــل الترك قتلا بسيفه　　واكثر فينا مقسما بعـــد مقسم

ومنها بعد فتح سمرقند[3]:

كل يوم يحوي قتيبـــة نهبـــاً　　ويزيد الاموال مـــالا جديدا
باهلي قـــد ألبس التاج حتى　　شاب منه مفارق كن سودا
دوخ الصغـــد بالكتائب حتى　　ترك الصغـــد بالعراء قعودا
فوليـــد يبكي لفقـــد ابيه　　وأب موجـــع يبكي الوليدا
كل ما حل بلدة أو أتاهـــا　　تركت خيله بهـــا اخدودا

ومنها في يوم خجندة قالها سحبان وائل:

فسل الفوارس في خجندة　　تحت مرهفـــة العوالي

---

(١) ٢٤٨ - ٢٤٩ (٢-٣) ٢٥٤ - ٢٥٥

هل كنت اجمعهم اذا هزموا واقدم في قتالي
أم كنت اضرب هامة العاتي وأصبر للعوالي
هذا وانت قريع قيس كلها ضخم النوال
وفضلت قيساً في الندى وابوك في الحجج الخوالي
ولقد تبين عدل حكمك فيهم في كل مال
تحت مروءاتكم وناعي عزكم غلب الجبال

ومنها في قصة وفد الصين [1] :

لا عيب في الوفد الذين بعثتهم للصين ان سلكوا طريق المنهج
كسروا الجفون على القذى فوق الردى حاشا الكريم هبيرة بن مشمرج
لم يرض غير الختم في اعناقهم ورهائن دفعت بجمل سمرج
أدى رسالتك التي استرعيته وأتاك من حنث اليمين بمخرج

وفي سنة وفد الصين مات الوليد وتولى سليمان . فكان من امر قتل قتيبة ما شرحناه في سيرته شرحاً يغني عن التكرار .

ولقد عين سليمان بعد فترة قصيرة يزيد بن المهلب والياً على خراسان فاستمر على خطة قتيبة في الجهاد والفتوح فيما وراء النهر وأبلى هو الآخر بلاء عظيما في ذلك . من ذلك زحفه على دهستان التي كان اهلها طائفة من الترك وكان معه مئة الف مقاتل من اهل الكوفة والبصرة والشام وخراسان والري سوى الموالي والماليك والمتطوعين . وقد حاصر المدينة . وكان اهلها يخرجون حينما يشاؤون فيقاتلون المسلمين ثم يعودون . وقد شدد عليهم الحصار من كل جانب حتى جهدوا وعجزوا فأرسل اليه دهقانها صول التركي يقول له اني اصالحك على ان تؤمنني على نفسي واهل بيتي ومالي وادفع لك المدينة وما فيها فقبل منه ووفى هذا فدخل يزيد المدينة واستولى على ما فيها من اموال وكنوز وسبي عظيم المقدار وقتل من مقاتلتها ١٤٠٠٠ [2] وكان ذلك في سنة ٩٨ هـ. جرجان ذكر انه زحف على طرستان دون ان يذكر سبباً كذلك

---

(١) ص ٢٧١ وقد يكون في هذا الشعر المأثور دليل على صحة قصة الوفد إجمالا .

(٢) ص ٢٩٣-٢٩٥ .

وفي البلاذري نبذة فيها بيان اوضح في صدد ذلك سنورده فيما بعد .

وقد ذكر الطبري ان يزيد لما زحف على طبرستان ارسل اليه أصبهذها ليسأله الصلح وان يخرج من طبرستان فأبى ورجا ان يفتحها . واستجاش الاجهبذ بأهل جيلان واهل الديلم فأتوه والتقوا بالمسلمين فهزموهم فلحقوا بهم حتى انتهوا الى فم الشعب فصعد المشركون في الجبل فاتبعهم المسلمون فرماهم العدو بالنشاب والحجارة مما اضطرهم الى الانسحاب من الشعب . وكتب الاجهبذ الى المرزبان ابن عم فيروز بن قول وهو بأقصى جرجان مما يلي البياسان انا قد قتلنا يزيد واصحابه فاقتل من في البياسان من العرب فهاجم اهل البياسان العرب على حين غرة وقتلوهم جميعاً اربعة آلاف فكانت الكارثة مزدوجة . وعظم الامر على يزيد فأرسل شخصاً إلى الاجهبذ اسمه حيان النبطي يخوفه من العاقبة فخاف وصالح يزيد على سبعمائة الف في رواية وخمسمائة ألف في رواية اخرى مع اربعمائة وقر زعفران او قيمته من العين واربعمائة رجل على كل رجل منهم برنس وطيلسان ومع كل رجل منهم جام فضة وسرقة خز وكسوة[1] . وبعد ذلك زحف نحو جرجان . وكان اقسم حين بلغه غدرهم بالمسلمين في البياسان بأن لا يقلع عنهم ولا يرفع السيف حتى يطحن بدمائهم ويخبز ويأكل من الطحين . ولقد تحصن اهل جرجان وراء مدينتهم فحاصرهم يزيد سبعة اشهر ثم تمكن من اقتحام المدينة فقتل مقاتلتهم وصلبهم في صفين على طول فرسخين عن يمين الطريق ويساره وسبى ذراريهم . واجرى الماء في الوادي على الدم فدارت الارحاء فطحن وخبز واكل براً بيمينه . وقد غنم غنائم عظيمة حتى بلغ الخمس ستة آلاف ألف . وقد كتب لسليمان يقول متباهياً :

(إن الله قد فتح لامير المؤمنين فتحاً عظيما وصنع للمسلمين احسن الصنع . فلربنا الحمد على نعمه واحسانه . اظهر في خلافة امير المؤمنين على جرجان وطبرستان . وقد اعيا ذلك سابور ذا الاكتاف وكسرى بن قباذ وكسرى بن هرمز والفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومن بعدهما من خلفاء الله حتى فتح الله ذلك لامير المؤمنين كرامة من الله له

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٩٩ــ٣٠٠ وقد روى البلاذري نفس الشيء ولكنه ذكر ان الصلح كان على اربعة آلاف الف نقداً وسبعمائة الف درهم مثاقيل سنوياً مع بقية ما ذكره الطبري (فتوح البلدان ٣٤٥) .

وزيادة في نعمه عليه . وقد صار عندي من خمس ما افاء الله على المسلمين بعد أن صار إلى كل ذي حق حقه من الفيء والغنيمة ستة آلاف الف وأناحامل ذلك الى امير المؤمنين ان شاء الله[1]) .

ومما رواه الطبري وفيه صورة من صور الحكم وذهنيته في ذلك العهد ان كاتب يزيد نصحه بان لا يكتب رقم الخمس فانك من ذلك بين امرين إما استكثره فأمرك بحمله وإما سخت نفسه لك به فتكلفت الهدية فلا يأتيه من قبلك شيء إلا استقله فكأني بك قد استغرقت ما سميت ولم يقع منه موقعاً ويبقى المال الذي سميت مخلداً عندهم عليك في دواوينهم فان ولي وال بعده اخذك به وان ولي من يتحامل عليك لم يرض منك باضعافه ولكن اكتب بالفتح وسله القدوم فتشافهه بما احببت مشافهة وتقصر . فانك إن تقصر عما احببت احرى من ان تكثر . فأبى يزيد وامضى الكتاب . وقال الطبري في نهاية هذا السياق أن بعضهم روى ان مقدار الخمس الذي كتبه يزيد كان اربعة آلاف ألف[2] .

ومما رواه الطبري كذلك ان سليمان بن عبد الملك كان كلما فتح قتيبة فتحاً في ايام الوليد قال ليزيد الذي كان نازلا في جواره هرباً من الوليد والحجاج اما ترى ما يصنع الله على يدي قتيبة فيقول له هذه الفتوح ليست بشيء . الشأن في جرجان لانها تحول بين الناس والطريق الاعظم . فلما تولى يزيد خراسان للمرة الثانية في خلافة سليمان لم يكن له همة غير جرجان[3] .

وفي سنة ٩٩ اغار الترك على اذربيجان فقتلوا جماعة من المسلمين ونالوا منهم . فوجه عمر ابن عبد العزيز الذي خلف سليمان حاتم بن النعمان الباهلي فقتل معظم المغيرين واسر الباقين واتى بهم الى عمر في خناصره[4] . وفي سنة ١٠٠ وجه الجراح بن الحكم والي خراسان جهم بن زحر الى الختل فأصاب منهم مغنما[5] . وفي سنة ١٠٢ كفر جماعة من الصغد مرة اخرى فارسل والي سمرقند شعبة بن ظهير الى المسلمين في الصغد يعيرهم بالجبن ويقول لهم إني لا أرى فيكم جريحاً ولا اسمع منكم انة . ثم غزا الصغد بنفسه وانتصر عليهم ووطد السلطان العربي مرة اخرى . ولقد جمع خاقان الترك جموعاً وجهها الى الصغد لنصرتهم في نفس السنة بقيادة قائد اسمه كور صول فبيتوا المسلمين في مكان يعرف بقصر الباهلي واضطروهم الى افتداء

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٩٩-٣٠٣ .

(٢) ٣٠٣ (٣) ٢٩٨-٩٩ : (٤) ٣٠٩ (٥) ٣١٣ .

أنفسهم باربعين الف درهم وأخذوا منهم ١٧ رجلا رهينة على المال . غير أن المسلمين ظلوا في وسط البلاد معرضين للخطر فانتدب منهم الوالي الناس لانقاذهم وارسلهم بقيادة المسيب بن بشير وخطب هذا في جماعته فقال : إنكم تقدمون على حلبة الترك . حلبة خاقان وغيرهم . والعوض ان صبرتم الجنة ، والنار إن فررتم فمن أراد الغزو فليتقدم فانصرف عنه بعض الجماعة لاستشعارهم بالخطر ثم كرر القول فانصرف آخرون ولم يبق معه إلا سبعماية عاهدوا الله على الموت . وسارع خاقان بحشود أخرى حينما علم بان المسلمين بعثوا بعثاً لانقاذ المحصورين . وقتلوا الرهائن . واستمات المسيب ومن معه واستبسلوا حتى وصلوا الى القصر وانقذوا اخوانهم المحصورين ونجوا واياهم مما فيه صورة بطولة فدائية رائعة حتي لقد قال الترك لشدة دهشتهم ما هؤلاء إنساً وإنما هم من الجن [1] .

وبعد ذلك تجهز والي خراسان سعيد بن حذيفة وقطع نهر بلخ وغزا بلاد الصغد وانتصر عليهم ووطد السلطان الاسلامي العربي مرة اخرى [2].

ومع ذلك فقد عادوا سنة ١٠٣ الى التمرد واستجاشوا مالك فرغانه وغيره من ملوك الترك الذين كانوا في صلح مع المسلمين فنقضوا صلحهم وتهيأوا لنصرة الصغد . وكان والي خراسان حينئذ سعيد الحرشي فقطع النهر ثم نزل على اشروسنة فصالحه اهلها ثم تقدم نحو خجنده فاستولى عليها ثم أوغل في البلاد يقتل ويسبي ويغتنم حتى أعاد السلطان العربي الاسلامي عليها .

وكان هذا الوالي شجاعاً مغواراً يسير في طليعة الزحف . ولقد خطب جنده حينما وصل وحثهم على الجهاد وقال لهم إنكم لا تقاتلون بكثرة ولا بعدد ولكن بنصر الله وعز الاسلام فقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله وسأكون في الزحف في مقدمتكم ثم انشد هذه الابيات :

فلست لعامر إن لم تروني ... أمام الخيل تطعن بالعوالي
وأضرب هامة الجبار منهم ... بعضب الحد حودث بالصقال
فما انا في الحروب بمستكين ... ولا أخشى مصاولة الرجال
أبى لي والدي من كل ذم ... وخالي في الحوادث خير خال

---

(١) الطبري ايضاً ج ٥ ص ٣٥١ – ٣٥٥ (٢) ٥ ٣٥٥

ولقد عاد اهـــل البلاد الى النقض للمرة الرابعة في سنة ١٠٤ وكان سعيد ما زال والياً فقطع النهر وجد في الامر حتى شفى نفسه منهم واخضعهم [١]

وفي نفس السنة غزا الجراح بن عبد الله الحكمي أمـــير ارمينية وآذربيجان الترك من الناحية الغربية ففتح بلنجر وما يليها من الحصون وسبى منهم سبياً كثيراً [٢] .

وفي سنة ١٠٥ غزا الجراح بلاد الهلال وجاز منهـا إلى مدائن وحصون من وراء بلنجر ففتح بعضها واصاب غنائم كثيرة [٣] .

وفي نفس السنة غزا مسلم بن سعيد الذي صارت ولاية خراسان اليه أفشينه احـــدى مدائن الصغد التي لم تكن قـــد فتحت على ما هو المتبادر فصالحه ملكها [٤] . ثم سار الى فرغانه فأقبل اليه خاقان بخيل وحشد كبيرين فقابلهم المسلمون بجـد واستماتة حتى هزموهم وكان عدد الاعداء اضعافاً مضاعفة . ومما روي ان احد قواد الكتائب ثابت بن قطينة اراد أن يخطب في جماعته حاثاً محمساً فارتج عليه فما كان منه إلا أن قال :

إن لم أكن فيـكم خطيباً فانني ... بسيفي اذا جد الوغى لخطيب

فبلغ في قوله الذروة من الخطابة [٥] .

وفي سنة ١٠٧ غزا أسد بن عبد الله والي خراسان جبال نمرون ملك الغرسشتان فصالحه وأسلم على يديه . وفي نفس السنة غزا أسد الغور ايضاً . واسكن فيـه جماعات من العرب وملكهم ارضها [٦] .

وفي سنة ١٠٨ قطع أسد والي خراسان النهر وغزا الختل . وأقبـــل خاقان لنصرتهم ولكنه رجع الى بلخ دون لقاء وقتال . ومضى اسد الى الغوريان فقاتل اهلها وهزمهم وملأ المسلمون ايديهم بالغنائم والسبايا واحتووا معسكرهم [٧] .

وفي سنة ١٠٩ غزا أسد غورين . ولقد أورد الطبري لشاعر اسمه ثابت قطنة مقطوعة بعد هذا الخبر فيها تنويه بما كان من بلاء اسد وجهاده نوردها كتسجيل لهذا البلاء والجهاد لم يعبر

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٣٦١ – ٣٦٢ وانظر ايضاً تاريخ ابن الاثير ج ٥ ص ٣٩

(٢) ٣٦٨ (٣) ٣٧٣ (٤) ٣٧٤ (٥) ٣٨٥ – ٣٨٦ (٦) ٣٨٨ (٧) ٣٨٩ – ٣٩٠

عنها سياق الطبري تعبيراً شافياً :

أرى أسداً في الحرب إذ نزلت بـه ... وقارع أهـل الحرب فاز وأوجبا
تناول أرض السبل خـاقان ردؤه ... فحرق ما استعصى عليـه وخرّبا
أتاك وفود الترك ما بـين كابل ... وغورين إذ لم يهربوا مـنك مهربا
فما يغمر الاعـداء من ليث غابة ... الى ضاريات مرشوة فعقبـا
أزب كأن الورس فوق ذراعه ... كريه المحيا قـد أسن وجربا
ألم يـك في الحصن المبارك عصمة ... لجندك إذ هاب الجبان وأرهبـا
بني لـك عبد الله حصناً ورثته ... قديماً إذا عـد القديم وأنجبا [1]

وفي السنة ١١٠ وقع حادث صدام بين بعض اهل ما وراء النهر والسلطات الاسلامية في خراسان بسبب تصرف عجيب مناف للحق والشرع . فقـد عزل الخليفة أسداً بسبب تعصبه القبلي وعين مكانه والياً اسمه الاشرس السلمي . فرغب في نشر الاسلام في هاتيك الربوع فكلف رجلاً من صلحاء المسلمين في خراسان بان يـذهب الى ما وراء النهر ويدعو الناس فاشترط هذا أن ترفع الجزية عمن يسلم فقبل الاشرس هذا الشرط وذهب الرجـل فدعا الناس على هذا الشرط فسارع كثيرون الى الاستجابة .

فكتب متولي الخراج في سمرقند الى الاشرس ان الخراج قد انكسر فكتب الاشرس الى عامل سمرقند يقول له إن في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني ان أهل الصغد واشباههم لم يسلموا رغبة وإنما دخلوا في الاسلام تعوذاً من الجزية فانظر من اختتن واقام الفرائض وحسن إسلامه وقرأ سورة من القرآن فارفع عنـه الخراج فكتب له إن الناس قد اسلموا وبنوا المساجـد . وجاء دهاقين اقليم بخارى الموكلون بجباية الخراج فقالوا ممن نأخذ الخراج وقـد صار الناس عرباً – اي مسلمين – فاستعظم الاشرس ما سوف يؤدي اليه فراغ الخزانـة من انقطاع الجزية فكتب الى عامل سمرقند يأمره بأخذ الجزية ممن كان يأخذها إطلاقاً . فأخذها من الضعفاء وامتنع الاقوياء فأراد اخذها منهم بالقوة فأدى ذلك الى كفر الصغد وبخارى وارتدادهم واستجاشوا سائر الترك فيما وراء النهر لنصرتهم . وخرج الاشرس لمعالجة الموقف بالقوة وعبر النهر . واقبل اهل الصغد وبخارى معهم خاقان وجيوشه الى لقائه والتقى

(١) ٣٩١ – ٣٩٢

الفريقان واخذا يتصاولان دون ان يكسب فريق على آخر جولة حاسمة . وارتحل الاشرس بجيشه إلى بيكند وقطع الاتراك عنه الماء فعطشوا ومات جماعة كبيرة من العطش فقالوا إن القتل بالسيف اكرم من الموت عطشاً فحماوا على الترك مستميتين فأزالوهم عن المـــاء ثم استمروا في حملتهم حتى هزموهم وركبوهم وفر كثير منهم الى بخـارى فلحق بهم الاشرس وضرب الحصار على بخارى . وجمع خاقان فلول جموعه وجاء من وراء المسلمين مفاجأة فكان موقف عصيب . غير ان المسلمين صمدوا للمفاجأة حتى ضيعوا على خاقان فرصتها . ورأوا من مصلحتهم ان يرتحلوا عن بخارى ففعلوا . ثم عادوا في السنة التالية الى بخارى فضربوا الحصار عليها . ونمي خبر تصرف الاشرس الاحمق للخليفة هشام فعزله وعين مكانه الجنيد بن عبد الرحمن وجاء هذا والحصار مضروب من قبل المسلمين على بخارى وخاقان مقبل مع جموعه لنصرة اهلها فاستلم القيادة واخذ الطرفان يتصاولان وتتداول الايام بينهما ثم كتب النصر للمسلمين فهزموا خاقان واستولوا على بخارى واعادوا اليها السلطان العربي الاسلامي ثانية [1] ولم يذكر السياق ماذا تم بالمسألة التي اثارت هذه الحركة اي جباية الجزيـة من المسلمين . ولكن عزل هشام للاشرس قد يدل على انه استخطأه في تصرفه وامر واليه الجديد بإصلاح الخطأ .

ولقد روينا في سيرة عمر بن عبد العزيز أن احد الوافدين عليه من خراسان شكا له سوء تصرف واليه الجراح بن عبد الله ومن جملة ذلك اخذ الجزية ممن اسلم من اهل البلاد فأرسل عمر إلى الوالي يوبخه ويأمره بوضع الجزية عن كل من صلى القبلة . ولما قيل له إن الناس إنما اسلموا هرباً من الجزية واقترح عليه امتحانهم بالختان أبى وقال إن الله لم يبعث محمداً جابياً ولا خاتناً وإنما بعثه هادياً ثم امر واليه إعلان ذلك فكان هـذا من اسباب فشو الاسلام فيما وراء النهر حيث يبدو ان عقدة المال وفراغ الخزينة عادت لتظهر ثانية بعد موت عمر فتؤدي إلى هذه الاحداث الدامية .

وفي سنة ١١٢ تمرد الترك في الهلال فسار لهم الجراح بن عبد الله الحكمي واشتبك معهم فدارت الدائرة على المسلمين وقتل الجراح وكثير من رجاله واسر منهم كثيرون واستولى الترك على درديل . فعين هشام سعيداً الحرشي والياً على اذربيجان التي تقع بلاد الهلال في

---

(١) النبذة مقتبسة من الطبري ج ٥ ص ٣٩٧ وبعدها .

نطاقها وامره بمعالجة الموقف فذهب واستطاع ان ينكل بالمتمردين تنكيلا شديداً وان ديستر اردبيل وان يستنقذ الاسرى من المسلمين ومن اهل الذمة [1] .

وفي سنة ١١٢ خرج الجنيد بن عبد الرحمن والي خراسان غازياً يريد طخارستان فنزل على نهر بلخ . وجاش الترك بقيادة خاقان فاتوا إلى سمرقند فاتجه الجنيد اليها . وغور الترك الآبار في الطريق ثم قصدوا المسلمين بجمع عظيم فيهم جماعات من الصغد والشاش وفرغانة الذين استجابوا لتحريض خاقـــان ونقضوا وتمردوا . واشتبك الفريقان في معارك ضارية ودارت الدائرة على الترك فانهزموا وأمعن المسلمون فيهم قتلا وأسراً . ومع ذلك فان خاقان جمع الفلول واتجه بها إلى بخارى فحصرها ولحق به المسلمون فكشفوهم عنها .

ومما رواه الطبري ان أحد أبطال المسلمين محمد بن عبد الله بن حوذان حمل سبع مرات وفي كل مرة كان يقتل رجلا حتى هابه من كان في ناحيته من الترك فناداه ترجمان خاقان بأمر منه يقول له ان الملك يطلب منك ان تتحول الينا فنرفض صنمنا الذي نعبده ونتخذك معبوداً بديلا عنه فقال لهم أنا اقاتلكم لتتركوا عبادة الاصنام وتعبدوا الله وحده ثم ظل يقاتل حتى استشهد .

والمتبادر أنه كان للبطل سيرة داوية حفظتها الالسن جيلا بعد جيل . ولقد أحاط الترك بجماعة من المسلمين فحمل هؤلاء عليهم حملة مستميتة حتى فكوا عنهم الطوق . ولكن الترك كانوا قد اشعلوا الحشيش في اطراف الميدان المطوق فسقط الترك والمسلمون في النيران فأكلت معظم الفريقين [2] .

ويستفاد من سياق الطبري انه كان لنصر بن سيار في هذه المواقع بلاء عظيم فكان ذلك مما رشحه للمنصب الرفيع بعد قليل .

وفي سنة ١١٣ عين هشام أخاه مسلمة والياً على خراسان ففرق الجيوش في بلاد خاقان فاستطاعت ان تفتح كثيراً من مدنه وحصونه ودان لمسلمة من كان وراء جبال بلنجر . وقد قتل واسر كثير من جند خاقان . وكان ابنه من جملة القتلى [3] .

---

(١) ٤١٠ (٢) ٤١٥-٤٢١ (٣) ٤٢٤-٤٢٥ .

وفي سنة ١١٩ غزا أسد بن عبد الله الذي عاد إلى ولاية خراسان مرة ثانية بلاد الختل وفتح قلعة زعرزك وسار منها الى خوداش وملأ يديه بالسبي والشياه. ولما علم خاقان بغزوة أسد تجهز وبادر الى نصرة الختل . وعلم أسد بخروجه فاستعد له وسار لملاقاته . والتقى بفريق من جموعه فهزمهم واحتوى معسكرهم . وجاء إلى بلخ فاستجم فيها . واقبل خاقان بجموعه التي انضم اليها كثير من اهل طخارسان والصغانيان وغيرهم فاخذت تدور بينهم الاشتباكات . وانتصر المسلمون عليهم في النهاية وهزموهم بعد قتل واسر كثير منهم . وقد ملأوا أيديهم بالغنائم ومن جملتها (١٥٥٠٠٠) رأس من الغنم . وبلغ من ذهول الترك انهم كانوا يضربون بعضهم . وفي هذه الاثناء اختلف خاقان مع زعيم من زعماء الترك فبيته هذا وقتله . وكان ذلك خاتمة لمتاعب عظيمة كان يثيرها خاقان في وجه المسلمين . ولقد كان ذلك نصراً عظيما للمسلمين حتى ان هشاماً لما جاءه الخبر نزل عن سريره وسجد سجدة شكر لله [١].

وفي السنة نفسها غزا أسد بلاد الختل مرة ثانية . ولما وصلت طلائعه الى عاصمة الملك بدر طرخان طلب الامان على ان يخرج الى اسد فسمح له فلما بلغه عرض عليه فدية مقدارها ألف ألف درهم فأبى ورده إلى مأمنه لأنه جاء باذن وأمان. ولقد تحصن في حصن له غير ان أسداً حصره وضيق عليه حتى ظفر به وقتله وبسط السلطان العربي الاسلامي على بلاده وعاصمته [٢] .

ومات أسد الذي كان من عظماء رجال هذا العهد ومجاهديهم بعد ذلك بأمد قصير فكان لموته رنة اسى سجلها الشعراء الذين سجلوا ما كان من جهاده وبسالته وسخائه . ومما روي من ذلك لابن عرس العبدي :

نعى أسد بن عبد الله ناع	فريع القلب للملك المطاع
ببلخ وافق المقدار يسري	وما لقضاء ربك من دفاع
فجودي عين بالعبرات سحاً	ألم يحزنك تفريق الجماع
أتاه حمامه في جوف صبغ	وكم بالصبغ من بطل شجاع

(١) ٤٤٣ وبعدها .

(٢) ص ٤٦١ وبعدها .

كتائب قد يجيبون المنادي | على جرد مسوّمة سراع
سقيت الغيث إنك كنت غيثاً | مريعاً عند مرتاد النجاع

ولسليمان بن قتيبة :

سقى الله بلخاً سهل بلخ وحزنها | وروى خراسان السحاب المجمما
وما بي لتسقاه ولكن حفرة | بها غيبوا شلواً كريماً وأعظما
مراجم اقوام ومردى عظيمة | وطلاب اوتار عفرنا عشمشما
لقد كان يعطي السيف في الروع حقه | ويروي السنان الزاغي المقوما

ومما رواه الطبري وفيه صورة لما كان لأسد من صيت ومنزلة في قلوب الترك بسبب ما كان من عدله وحسن سيرته وبلائه واعماله العمرانية ان امراء النواحي والدهاقين اتوه بهدايا عظيمة من أواني الذهب والفضة وان أحدهم خطب أمامه فقال إنا معشر العجم اكلنا الدنيا أربعمئة سنة بالحلم والعقل والوقار ليس فينا كتاب ناطق ولا نبي مرسل وكان الرجال عندنا ثلاثة ميمون النقيبة أينما توجه فتح الله على يده والذي يليه رجل تمت مروءته في بيته ورجل رحب صدره وبسط يده وان الله جعل صفات هؤلاء الثلاثة فيك وما نعلم احداً هم اتم كتخدانية (ملكا أو أمارة) منك . إنك ضبطت اهل بيتك وحشمك ومواليك. فليس منهم احد يستطيع ان يتعدى على صغير ولا كبير ولا غني ولا فقير . ثم بنيت الايوانات في المفاوز فيجيء الجائي من المشرق والاخر من المغرب فلا يجدان عيباً إلا أن يقولا سبحان الله ما احسن ما بني . ومن يمن نقيبتك أنك لقيت خاقان وهو في مئة ألف فهزمته وقتلته وقتلت اضحابه وأبحت عسكره . واما رحب صدرك وبسط يدك فانا ما ندري اي المالين اقر لعينك امال قدم عليك أم مال خرج من عندك . بل انت بما خرج اقر عيناً [1].

وفي سنة ١٢١ غزا مروان بن محمد والي ارمينية واذربيجان والجزيرة بلاد الترك من ناحيته . وكان ملكها يعرف بصاحب سرير الذهب ففتح قلاعه وضرب عليه جزية سنوية مقدارها الف رأس واخذ رهناً منه على ذلك .

---

(١) ج ٥ ص ٤٩٥ .

ولقد عين هشام لولاية خراسان بعد اسد نصراً بن سيار الذي استمرت ولايته بنحو عشر سنين والذي كان له بلاء عظيم عد به من عظماء هذا العهد ايضاً .

وقد غزا في سنة ١٢١ اي في السنة التي عين فيها ما وراء النهر ثلاث غزوات . وكانت الاولى من ناحية ما عرف بباب الحديد . وقد امر مناديه ان يعلن في هذه الناحية أيما رجل من المسلمين يؤخذ منه جزيـــة او يثقل عليـــه خراج فليرفـــع ذلك إلى صاحب الخراج ليرفعه عنه وقد امرتـــه بالعدل . فمـــا كانت الجمعـــة الثانيـــة حتى اتاه ثلاثون الف مسلم كان العمال يجبون منهم الجزية فرفعها عنهم حيث يبدو ان عقدة الجزية من الذين اسلموا ظلت تستمر الى هذا الوقت برغم ما كان بسببها من كوارث وبرغم مـــا صدر من عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك من اوامر شديدة في ذلك .

على ان ذلك لم يعد يذكر بعد نـــداء نصر بن سيار الجدير بالتسجيل والتنويه في صدد الانصاف وازالة العقبات في طريق انتشار الاسلام في هاتيك الربوع حتى غدا دين اهلها العام .

وكانت الغزوة الثانية لنصر الى درغر والثالثة الى الشاش التي تمردت من جديد . وقد تصدى له هذه المرة قائد تركي اسمه كورصول في خمسة عشر الفاً ليحول بينه وبين قطع نهر الشاش . وكانت مراماة بالنبال بين الطرفين . غير ان بعض المسلمين قاموا بعملية فدائية وبطولية فاضطرب المعسكر التركي واسر المسلمون فيما اسروه شيخاً عظيم الهيئة وعليه درع سابغ وثياب من ديباج وقباء مكفف بالديباج فأتوا به الى نصر فاذا هو القائد نفسه . وقد قال لنصر ما ترجو من قتل شيخ . انا اعطيك الف بعير من ابل الترك والف برذون تقوي بها جندك فدية عني فشاور اصحابه فقالوا له خذ الندية . وسأله نصر عن عمره فقال ما ادري قال كم غزوت فقال اثنتين وسبعين غزوة . فسأله هل شهدت يوم العطش فقال نعم فقال له حينئذ لو اعطيتني ما طلعت عليه الشمس ما افلت مـــن يدي بعد ما ذكرت مـــن مشاهدك ثم امر به فقتل وصلب ثم احرق . ولما علم الترك بقتله اقاموا عليه الندب وحرقوا متاعه وقطعوا آذانهم وجردوا وجوههم ثم ارتحلوا مهزومين مرتاعين .

وارتفع نصر بعد ذلك الى فرغانة التي كانت متمردة فسبى منها ثلاثين الف رأس غنم ثم تقدم الى بلاد الشاش واشتبك فيها مع الجماعات المتمردة . وقـــد قتل المسلمون واسروا

خلقاً كبيراً منها واسروا فيمن اسروه فارسهم الاكبر المسمى الاخرم وسبعة من كبار رفاقه فأمر نصر بضرب رقابهم والقاء رؤوسهم على معسكر الترك الذين قابلوا ذلك بالضجيج والذهول ثم ارتحلوا مهزومين . وتقدم في البلاد فتلقاه ملكها بالهدايا وطلب منه الصلح فصالحه . ثم توغل في فرغانة حتى بلغ قلعة ملكها . واشتبك المسلمون مع جيش فرغانة فانتصروا عليه وحينئذ طلب الملك الصلح فاجيب إلى طلبه .

وفي سنة ١٢٣ أرسل نصر الى جماعات من اهل السغد كانوا تشردوا عن بلادهم إبان الحركات التمردية السابقة يدعوهم الى الرجوع ويمنحهم شروطاً سخية لم يمنحها لهم الذين سبقوه فعابه المسلمون فأرسل يستأذن الخليفة ويقول له انه أراد أن يتألفهم لما عرفه من نكايتهم وشوكتهم فأمضى شروطه [١] .

وفي نفس السنة غزا نصر فرغانة غزوة ثانية دون ان يذكر الطبري سبباً وتفصيلا [٢] .

وتقف روايات الطبري عن الحركات في بلاد الترك عند هذا الحد .

وفي فتوح البلدان للبلاذري فصول عديدة عن الحركات والفتوح والمصاولات العربية في انحاء بلاد العجم والترك في زمن الدولة الاموية . منها ما ذكره الطبري ومنها ما لم يذكره ومنها ما جاء ببيان اوفى . فرأينا ان نورد ما لم يورده الطبري اتماماً للموضوع .

فأولا في قزوين وزنجان :

يذكر البلاذري تحت هذا العنوان ان هذه الانحاء غزيت وفتحت في خلافة عثمان وكان المتولي لذلك ولاة الكوفة واكثر سكانها من الديلم . وقد اسلم كثير منهم انفة من الجزية . وظل امرهم مستقيما الى ان كانت فتنة عبد الرحمن بن الاشعث في زمن عبد الملك بن مروان وولاية الحجاج سنة ٨٠ على ما سوف نشرحه في نبذة خاصة فتحرك الاكراد الذين كانوا من سكانها واخذوا يعيثون ويفسدون . فسير الحجاج عليهم جيشاً بقيادة عمرو بن هاني فأوقع فيهم وقمع حركتهم . وقد امره الحجاج ان يغزو الانحاء التي لم تكن اسلمت والتي علم ان

---

(١) غزوات ونشاط نصر بن سيار مقتبس من الطبري ج ٥ ص ٤٩٢ وبعدها .

(٢) ص ٣٢٩-٣٣٣ .

اهلها يتحفزون للتمرد . فغزاها وقمع حركتهم .

وثانياً اذربيجان [1]

وذكر البلاذري تحت هذا العنوان ان هذه البلاد كانت فتحت في زمن عمر بن الخطاب بقيادة حذيفة بن اليمان .

وفي زمن عثمان وعلي قامت فيها بعض الحركات التمردية فقمعت وانتهى امرها . وفي سنة ١١٤ عين هشام بن عبد الملك محمداً بن مروان والياً عليها فغزا بلاداً قريبة اليها لم تغز من قبل وهي بلاد موقان وجيلان .

وثالثاً جرجان وطبرستان [2]

ذكر البلاذري تحت هذا العنوان أن هذه البلاد كانت من جملة البلاد التي غزيت لاول مرة في زمن عثمان رضي الله عنه وصولحت على أتاوة كانت تدفعها عفواً مرة وبالقتال مرة . وأن أول من غزاها هو سعيد بن العاص سنة ٢٩ . وأن معاوية ولى مصقلة بن هبيرة طبرستان وجميع أهلها حرب – أي أعداء – فتوغل فيها فلما جاوز المضايق اخذوها عليه ودحرجوا الصخور من الجبال فهلك هو وجميع جيشه الذي كان عدده عشرة آلاف في رواية وعشرين الفاً في رواية اخرى حتى ضرب المثل به فقيل (حتى يرجع مصقلة من طبرستان) وعين والي العراق عبد الله مكانه في زمن معاوية محمداً بن الاشعث الكندي فصالحهم وعقد لهم عقداً . ثم أمهلوا له حتى دخل فأخذوا عليه المضايق . غير أنه نجا مع معظم الجيش ولم يهلك إلا القليل ومن جملتهم ابنه ابو بكر . وظل المسلمون لذلك يغزون هذه البلاد وهم حذرون من التوغل إلى ولاية يزيد بن المهلب . ثم ذكر جل ما رويناه قبل عن الطبري من بلاء يزيد بن المهلب مع زيادة هامة وهي ان يزيد فتح في سياق ما فتح بلاد الرويان ودنباوند ورتب على اهلها مالا وثياباً وآنية كجزية سنوية وذلك بعد صلحه مع طبرستان وقبل مسيره الى جرجان .

---

(١) ٣٣٣ – ٣٣٩ (٢) ٣٤٢ – ٣٤٨

ورابعاً سجستان وكابل [1]

ذكر البلاذري تحت هذا العنوان ان العرب غزوا سجستان لاول مرة سنة ٣٠ بقيادة الربيع بن زياد وان انس بن الريان اتجه من كرمان في زمن عثمان بن عفان أيضاً فغزا رساتيق زالق وهيسون وزرنج والهندمند وناشروز وسناروز فظفر وغنم وصالحه الدهاقين على اتاوات . غير أن السلطان العربي لم يتوطد توطداً قوياً حيث كانوا يتمردون حيناً ويخضعون حيناً . وفي أوائل خلافة معاوية كفرت فندب والي البصرة عبد الله بن عامر عبد الرحمن بن سمره لغزوها فغزاها واخذ يوطد السلطان العربي فيها . وظل ينتقل من بلد إلى بلد حتى بلغ كابل فحاصرها شهراً وتمكن من ثلم سورها بالمنجنيق فخرج أهلها لقتال المسلمين وكان معهم فيل فأصابه سهم فسقط على الباب ولم يقدروا على غلقه فدخل المسلمون المدينة عنوة وتم الفتح . ثم قطع عبد الرحمن وادى نسل وأتى حواش وقوزان بست ففتحها وسار الى رزان فهرب اهلها فغلب عليها ثم سار الى خشك فصالحه أهلها ثم أتى الرخج فقاتله أهلها فانتصر عليهم وفتحها ثم سار الى ذابلستان [2] فقاتله أهلها فانتصر عليهم وفتحها وأصاب منها سبياً كثيراً . وفي هذه الاثناء نقض أهل كابل فعاد اليها وفتحها فتحاً ثانياً . ولم يكد يفارقها حتى نقضت للمرة الثانية . وقد أخرج ملكها من كان فيها من المسلمين واستعد للقتال وجاء رتبيل ملك الترك من ناحية أخرى فغلب على ذابلستان والرخج حتى انتهى الى بست . فندب والي البصرة هذه المرة الربيع بن زياد فسار نحو بست اولا فقاتل رتبيل وهزمه ثم لحق به الى الرخج فقاتله وهزمه . ومضى بعد ذلك ففتح بلاد الداور .

وعين معاوية بعد ذلك عبد الله بن ابي بكره والياً على سجستان فغزا بلاد رتبيل فلما اعياه الامر سأل الصلح على بلاده وبلاد كابل مقابل الف الف ومئتي الف في السنة فأجابه عبد الله .

وفي أواخر عهد يزيد بن معاوية أو بعد موته غدر اهل كابل فسار اليهم يزيد بن زياد فقاتلهم فدارت الدائرة على المسلمين واستشهد يزيد وكثير من جنده وأسر كثير منهم أيضاً حتي اضطر المسلمون الى دفع فدية كبيرة مقابل اطلاق أسراهم . فلما استتب الامر لعبد

---

(١) ص ٤٠٠ - ٤٠٩

(٢) يذكر ابن الاثير هذه الوقائع ويقول موضحا بعد كلمة زابلستان وهي غزنه واعمالها (ج ٣ ص ١٧٤)

الملك عين أمية بن عبد الله والياً على خراسان . فغزا البلاد المتمردة فعرض عليه ملكها الصلح فأبى واخذ يتوغل في البلاد وكان اهلها يخلونها أمام الزحف العربي حتى إذا صار المسلمون في منطقة المضايق اخذها الاعداء عليهم ثم عرضوا الصلح ثانية بثلاثماية الف بشرط ان يكتب لهم عهد بعدم غزو بلادهم مرة ثانية . وقبل أمية العرض والشرط لانه رأى نفسه على ما يبدو في مأزق . ولم يجز عبد الملك عمل أمية فعزله واعاد عبد الله بن ابي بكره على ولاية سجستان وأمره بفتح كابل وإرغام العدو . وسار هذا لتحقيق الامر وفعل العدو بقيادة رتبيل ما فعلوه قبل ثم عرضوا الصلح للمرة الثالثة بخمسمائة الف ونفس الشرط وطلبوا أن يرسل القائد العربي أولاده الثلاثة اليهم رهناً إذا وافق . وقد وافق لانه هو الآخر وجد نفسه في مأزق . ولكن رؤساء جنده لم يقروه وفضلوا القتال فجاراهم ولكنهم لم يحرزوا نصراً وهلك كثير منهم جوعاً وعطشاً ومات قائدهم هماً وكمداً .

ويتفق الطبري والبلاذري فيما جرى بعد ذلك من تسيير الحجاج ابن الاشعث الى نهاية القصة التي اوجزناها قبل .

ومما ذكره البلاذري ولم يرد في الطبري من أحداث سجستان وطبرستان ان رتبيل طلب من قتيبة بن مسلم الصلح حينما عينه مكان المفضل بن المهلب وقال إنا لم نخلع يداً من طاعة وانما فارقتمونا على عروض فلا تكلمونا فقبل قتيبة وصالحه مجدداً . ولكن رتبيل لم يؤد ما صالح عليه بانتظام طيلة عهد قتيبة . فلما تولى يزيد بن المهلب ولاية خراسان بعده ولى ابنه والياً على سجستان فشدد على رتبيل حتى رضخ . ثم نكل في زمن يزيد بن عبد الملك واستمر في نكوله بقية دولة بني أمية .

خامساً خراسان [1]

ذكر البلاذري تحت هذا العنوان ان اول من غزا كرمان كان عبد الله بن بديل في عهد عمر بن الخطاب وقد مضى حتى بلغ الطبسين وهما حصنان يعدان بابا خراسان فأصاب مغنما ثم صالحه اهلها . وتوالى بعد ذلك غزو هذه الانحاء في عهد عثمان بن عفان وتيسر للمسلمين فتوحات ومغانم كثيرة فيها ومما ذكر من اسماء الاقاليم والمدن التي تم غزوها وفتحها قوهستان ونيسابور ومنساوازام وأبيورد وسرخس وهراة وباذغيس وبوشنج ومرو وبلخ

---

(١) ٤١٠ - ٤٣٧

والصغانيات والجوزجات وكلها في نطاق خراسان وما وراء النهر . وكان الامر ينتهي بعد قتال شديد او خفيف او بدون قتال احياناً الى طلب الاهالي الصلح على مقادير معينة من المال وقبول طلبهم . وممن تولى الحركات الحربية في هذه الانحاء الاحنف بن قيس ويزيد الحرشي وقيس بن الاهثم وعبد الله بن خازم وأوس بن ثعلبة .

وفي عهد علي بن ابي طالب انتفضت البلاد وظلت منتفضة الى ان استتب الامر لمعاوية فولى قيس بن الهيثم السلمي ناحيـــة خراسان فسار الى بلخ فأخرب انهارها فسألوه الصلح ومراجعة الطاعة فقبل .

ولم يتشدد هـذا الوالي مع سائر الناقضين واكتفى بجباية الذين لم ينقضوا من اهــل خراسان فعزل وعين مكانه عبد الله بن خازم فأرسل اليه اهـــل هراة وبوشنج وباذغيس فطلبوا الامان والصلح فقبل منهم وكان ذلك في سنة ٤٥ هـ .

ثم تولى امير بن احمر حكم مروأي خراسان لان مرو عاصمتهـا فكان اول من اسكن العرب فيها . وفي سنة ٥١ تولى حكم خراسان الربيـع بن زياد فأتى بزهاء خمسين الف اسرة عربية واسكنها دون النهر ايضاً . وفي سنة ٥٣ تولى حكم خراسان عبد الله بن الربيـع فقاتل اهل آمل وزم واضطرهم الى الخضوع وطلب الصلح . ثم تولى حكم خراسان بعده عبيد الله بن زياد وهو ابن ٢٥ سنـة فقطع النهر في (٢٤٠٠٠) فأتى بيكند وكانت خاتون ملكة الترك بمدينة بخارى فأرسلت الى الترك تستمد منهم فجاءها مدد فلقيهم المسلمون وهزموهم وحووا عسكرهم ثم اقبلوا يحرقون ويخربون فاضطرت الملكة الى طلب الصلح على الف الف . وفتح بعدها رامدين ويقال انه فتح بعد ذلك الصغانيات . ثم تولى بعده ولاية خراسان سعيد بن عثمان فقطع النهر وكان اول من قطعه . فلما بلغ خاتون الخبر حملت اليه الاتاوة المتفق عليها. واقبل اهل السغد والترك واهل كش ونسف على سعيد بمائة وعشرين الفاً وندمت خاتون على دفع الاتاوة واعلنت نقض الصلح . وقابل المسلمون الموقف بقوة حتى جعل الذين اقبلوا يرتدون .

واعلنت الخاتون ندمها وطلبت تجديد الصلح واعطت سعيداً رهناً عـــلى ذلك . ثم غزا سمرقند واعانته الخاتون بمقاتلين من بخارى وتحصن اهل سمرقند وراء اسوارهم وحلف سعيد ان لا يبرحها حتى يفتحهـــا وتراشق الفريقان بالنبال واصيب سعيد والمهلب بن ابي صفرة وغيرهم بجراح ومع ذلك بقي سعيد متشدداً في الحصار وتضييق الخناق عـــلى المدينة حتى

اضطر اهلها الى عرض الصلح لقاء (٧٠٠٠٠٠) . واعطوه رهناء من ابناء عظمائهم وشرط ان يدخل المدينة من باب ويخرج من باب آخر فنفذ شرطه . ثم انصرف الى الترمذ ففتحها صلحاً ولقد مضى سعيد بالرهائن و كانوا يلبسون الثياب الثمينة ويتمنطقون بالمناطق الذهبية فأمرهم بخلعها واعطاها لمواليه والبسهم جباب الصوف والزمهم السقي والسواني والعمل فأثار حقدهم فدخلوا عليه يوماً على غرة ففتكوا به ثم قتلوا انفسهم .

وفي خلافة يزيد بن معاوية تولى سلم بن يزيد ولاية خراسان فصالحه اهل خارزم على ٤٠٠٠٠٠ وحملوها اليه وقطع النهر ومعه زوجته ام محمد و كانت اول عربية عبرت النهر فأتى سمرقند فأعطاه أهلها الف دية ، ووجّه وهو بالسغد الى خجندة بعثاً فهزم . ثم قطع النهر ثانيــة الى السغد فقتل ملكهم وهزم جيشهم واخضعهم للسلطان العربي .

وفي هذه الاثناء تفاقمت حركة ابن الزبير واستولى على العراق فصارت خراسان تابعة لها و كان سلم قد عهد بها الى عبد الله بن خازم فدخل هذا في بيعة ابن الزبير . واغتنم الترك الفرصة فأخذوا يغيرون على بلاد المسلمين حتى بلغوا قرب نيسابور . فتصدى لهم ابن خازم وردهم . فلما صار الامر الى عبد الملك كاتب ابن خازم وساومه على البقاء في ولاية خراسان على ان يدخل في بيعته فأنف واستكبر وتطور موقفه الى تمرد وفتنة على ما سوف نشرحه في نبذة اخرى .

وقد عين عبد الملك بكيراً بن وشاح السعدي التميمي والياً على خراسان فثار بينه وبين زعيم آخر نزاع قبلي . فكتب وجوه اهل خراسان وخيارهم — والمقصود هنا العرب الذين فيها - إن خراسان لا تصلح الا برجل من قريش فولاها امية عبد الله بن خالد . و كان له بلاء جهادي في هـــذه البلاد بدوره . ومن ذلك غزوة بخارى حتى اضطرهم الى افتداء انفسهم ونقض في عهده الختل فغزاهم واخضعهم ثانية .

وتولى خراسان بعد امية المهلب بن ابي صفرة ثم ابناه يزيد والمفضل ثم قتيبة بن مسلم . ويتوافق البلاذري مع الطبري في معظم ما كان من بلاء القواد الاربعة في خراسان وما وراءها . ومن زيادات البلاذري ان ملك الجوزجان طلب من قتيبة في مرحلة نشاطه الاولى الصلح فأجابه الى ذلك وانه فتح في هذه المرحلة كاسان وادرشت وبيغمز وبنشكت من بلاد فرغانة ومدينة فيل وانه شرط في صلح سمرقند ان يبني في المدينة مسجداً ويصلي فيه وحقق شرطه .

وفي خلافة عمر بن عبد العزيز توغل عبد الله اليشكري بامر والي خراسان الجراح بن عبد الله فيما وراء النهر وأوغل وهم بدخول الصين فأحاط به الترك ولم ينج منهم هو وجشيه إلا بفدية كبيرة .

وفي خلافة يزيد بن عبد الملك ارسل والي خراسان سعيد بن عبد العزيز سورة بن الحر الى ما وراء النهر غازياً فنزل اشتجن فتصدى له جماعة من الترك فحاربهم وهزمهم . ثم صارت الولاية لسعيد الحرشي فافتتح عامة حصون السند ونال من العدو نيلا شافياً .

وفي خلافة هشام صارت الولاية على خراسان الى مسلم بن سعيد فغزا افشين فصالحه صاحبها ثم أتى فرغانه التي كان فيها بعض التمرد فأناخ على مدينتها ووطد السلطان العربي فيها . ثم صارت الولاية إلى أسد بن عبد الله فغزا بلاد نمرود وأخضعها للسلطان العربي . وقد أسلم ملكها وتابعه اهل بلاده في ذلك .

وفي خلافة مروان بن محمد غزا نصر بن سيار والي خراسان اشروسنه . وكان ذلك آخر حركات الغزو والفتح الاسلامية في هذه الناحية في زمن الدولة الاموية .

سادساً فتوح السند (١)

ذكر البلاذري تحت هذا العنوان حركات ومصاولات وفتوحات عربية عديدة . والمستفاد من سياقه ان هذه الحركات كانت تجري من ناحية البصرة والخليج العربي وساحل عمان . وان الانحاء التي كانت تجري فيها واقعة في السمت الجنوبي من آسيا ومنها ما كان يقع في بلاد الهند ومنها ما كان يقع في بلاد السند . وان الولاة الذين كانوا يتولون هذه الحركات كان منهم من يسمى والي ثغر الهند . ويلمح احياناً في التسمية أو دلالتها شيء من الخلط بين هذا وذاك .

ولقد بدأت هذه الحركات في زمن عمر بن الخطاب وباشراف عثمان بن ابي العاص والي عمان حيث وجه أخاه المغيرة الى خور الديبل فلقي العدو وظفر . وفي زمن علي ابن ابي طالب تقدم الحارث بن مره العبدي الى هذه الناحية غازياً وظفر . ولما استتب الامر لمعاوية تعددت الحركات والغزوات الاسلامية في هذه الناحية .

---

(١) ص ٤٣٨ — ٤٥١

وأول حركة في عهد معاوية قام بها الحارث بن مرة المذكور آنفاً حيث تقدم نحو أرض القيقان من بلاد السند فلقي حتفه .

وفي سنة ٤٤ هـ غزا المهلب بن ابي صفرة بنة والاهواز وهما بين الملتان وكابل فلقي العدو وقاتله . ثم عين عبد الله بن سوار على ثغر (الهند) فغزا بلاد القيقان واصاب مغنما من جملتها خيل . ويظهر أنها كانت مشهورة حيث ذكرت الرواية انه أهدى خيلا قيقانية الى معاوية. ثم رجع الى بلاد القيقان فجمع له اهلها واستجاشوا الترك فقتلوه وجماعة من المجاهـــدين . وتولى بعده هذه الناحية سنان بن سلمة ففتح مكران عنوة ومصرها وأقام بها وضبط البلاد . وتولى بعده راشد الجديدي فغزا القيقان والميد مرة أخرى ولكن اهـــل البلاد جمعوا له وقتلوه أيضاً .

ولقد غزا عباد بن زياد ثغر الهند من ناحية سجستان حيث كان والياً عليها في زمن معاوية ومن قبل . ابيه زياد والي العراق العـــام فأتى سناورد ثم الروزبار ونزل كش وقطع المفازة حتى أتى القندهار فقاتل أهلها فهزمهم وفتحها .

وتولى ثغر الهند بعـــد راشد الجديدي المنذر بن الجارود فغزا البوقان والقيقان وظفر المسلمون وغنموا وبث السرايا في البلاد وفتح قصدار وسبا منها سبياً . وتولى الثغر بعـــده حري الجاهلي نفتح الله تلك البلاد على يده وقاتل فيها قتالا شديداً فظفر وغنم . وقد أخـذ الاسلام يفشو في بلاد البوقان من ذلك الوقت .

وتوقفت الحركات في هذه الناحية بعـــد معاوية الى ان ولي الحجاج بن يوسف ولاية العراق . ومما روي من صور ان الحجاج استعمل على الثغر محمد بن هارون النمري فأهدى اليه ملك جزيرة الياقوت نسوة ولدن في بلاده مسلمات ومات آباؤهن الذين طرقوا بلاده للتجارة. وقد تعرض للسفينة التي ركبت فيها النسوة قوم من ميد الديبل فأخذوا السفينة بمـــا فيها فنادت امرأة منهن من بني يربوع يا حجاج وبلغ الحجاج ذلـك فقال يا لبيك . ثم ارسل الى ملك الديبل داهر يطلب منه تخلية النساء فلم يفعل فأغزى الحجاج عبد الله بن نبهان الديبل فقتل فأمر بديلا بن طهفة العجلي عامل عمان بالسير الى الديبل فقتل . ثم ولى الحجاج محمداً بن القاسم الثغر فكان صاحب البلاء الاعظم في هذه الناحية .

ولقد سار أولا إلى مكران ثم أتى قنزبور ففتحها ثم ارمائيل ففتحها ثم الديبل فحاصرها وكانت مكان اعظم معبد ويسمى البدّ الاعظم ثم تمكن من اقتحامها واخضاعها . وقد بني

فيها مسجداً واسكن فيها أربعة آلاف عربي . ثم أتى البيرون فطلب أهلها الصلح فصالحهم . وجعل لا يمر بمدينة إلا فتحها حتى عبر نهراً دون مهران فأتاه اهل سخين فصالحوه وأقاموا له العلوفة وادخلوه مدينتهم . ثم أتاه اهل سربيدس فصالحوه ثم سار الى سهبان ففتحها وبعث سرية الى سدوسان فطلب اهلها الصلح فصولحوا . ثم جاء الى نهر مهران مما يلي بلاد راسل قصبة الهند فجعل عليه جسراً وعبره . وكان داهر ملك الديبل قد فر من مدينته حينما اقتحمها المسلمون وجمع الجموع وكان معه جماعات من التكاكره فبرز عند الناحية الثانية من النهر واشتبك مع المسلمين في قتال شديد وترجل وفاتل قتالا يائساً فقتل وانهزمت جموعه وركبهم المسلمون يقتلون ويأسرون منهم ما شاؤوا .

وقد أثرت هذه المقطوعة لرجل من بني كلاب هو الذي قتل داهراً :

الخيل تشهد يوم داهر والقنا	ومحمد بن القاسم بن محمد
اني فرجت الجمع غير معرد	حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجدلا	متعفر الخدين غير مؤسد

وبقتل داهر غلب محمد بن القاسم على بلاد السند . ولقد سار بعد ذلك الى مدينة راور ففتحها ثم مدينة برهمناباذ وقد لجأ اليها فل داهر ففتحها ثم سار يريد الرور وبغرور فتلقاه اهل ساوندرى فسألوه الامان والصلح فقبل . ثم تقدم الى بسمد فصالحه أهلها . وانتهى الى مدينة الرور وهي من مدائن السند الحصينة فحاصرها اشهراً ثم فتحها صلحاً على ان لا يتعرض لمعبدهم (بدهم) وبنى فيها مسجداً . ثم سار الى مدينة السكة ففتحها ثم قطع نهر بياس الى الملتان فقاتله اهلها ثم تحصنوا في المدينة فقطع عنهم الماء حتى عطشوا فنزلوا على حكمه فقتل المقاتلة وسبى الذرية وسبى سدنة البد وكان عددهم ستة آلاف واصابوا ذهباً كثيراً . وكان بد الملتان من المعابد الكبرى التي يحج اليه وينذر له النذور . ويطوف الناس حوله ويحلقون عنده رؤوسهم ولحاهم . ومما رواه البلاذري في سياق هذه الفتوح ان الحجاج حسب ما انفقه على حركات محمد بن القاسم فاذا هو ستون الف الف وحسب ما حمل اليه من خمس الغنائم فاذا هو مائة وعشرون الف الف فقال شفينا غيظنا وادركنا ثأرنا وازددنا ستين الف الف ورأس داهر . ثم وجه محمد جيشاً الى ابيلمان فأعطاه الطاعة . وسالمه كذلك اهل سرست . وأتى بعد ذلك الكيرج فخرج اليه ملكها دوهر فقاتله وهزمه ونزل اهل المدينة على حكم محمد فقتل وسبى واقام عليها السلطان العربي .

وفي هذه الاثناء مات الحجاج ثم مات الوليد بن عبد الملك وتعرض محمد بن القاسم لسخط خليفته سليمان بن عبد الملك على ما ذكرناه في سيرته . ولم تتوقف الحركات في هذه الناحية فقد عين سليمان حبيباً بن المهلب والياً على ثغر السند وكان ملوك الهند قد رجعوا الى ممالكهم ومنهم داهر الذي رجع الى برهمناباذ . ونزل حبيب على شاطىء نهر مهران فأعطاه اهل الرور الطاعة وحارب قوماً فظفر بهم . ولما تولى عمر بن عبد العزيز بعد سليمان كتب الى الملوك يدعوهم الى الاسلام والطاعة على ان يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وكانت بلغتهم سيرته ومذهبه فأسلموا وتسموا بأسماء العرب .

ولقد تولى بعد حبيب عمرو بن مسلم الباهلي ثغر الهند فغزا بعض البلاد الهندية . ثم تولى ثغر السند في عهد عمر أيضاً الجنيد بن عبد الرحمن المرادي وظل والياً له في عهد هشام . وقد سجل في هـــذا العهد بعض الحركات حيث نزل على شط مهران فمنعه حليشه ملك برهمناباذ العبور وقال له اني اسلمت وولاني الرجل الصالح بلادي ولست آمنك . فأعطاه رهناً واخذ منه رهناً بما على بلاده من الخراج . غير أنه لم يلبث ان نشب خلاف بين الملك حليشه والجنيد فرد كل منهما الرهن لصاحبه . وقامت الحرب بينهما . وهناك رواية تذكر ان الملك ارتد واعلن الحرب على العرب . ورواية اخرى تذكر أن الجنيد تجنى على الملك . ولقـــد جمع الملك من الهند جموعاً كثيرة . وسار اليه الجنيد بجيشه والتقى بـــه في موقع يقـــال له البطيحة ودارت الدائرة في الحرب على الملك فهزم جيشه بعـــد ان قتل منه مقتلة عظيمة . ووقع هو اسيراً ثم قتل ، وكان احد الملوك الذين اسلموا واسمه صاصا بن داهر يريد ان يمضي الى العراق ليشكو غدر الجنيد فاحتال هذا عليه حتى قبض عليه وقتله . وغزا الجنيد بعد ذلك الكيرج التي كان أهلها قد تمردوا ونقضوا فحاصرها وضربها بالكباش النطاح حتى ثلم سورها ودخلها عنوة فقتل وسبى وغنم . ووجه العمال الى مرمد والمندل ودهنج وبروص ووجه جيشاً الى أرين وجيشاً آخر الى ارض المالية فأغاروا وغنموا . ثم غزوا بهريمـــد . وسار الجنيد الى البيلمان والجزر وفتحها .

وقد روي أن مجموع ما حصل في منزله من الغنائم بلغ اربعين الف الف سوى ما اعطاه الى زواره وأنه حمل مثلها الى الخليفة ، وقد أثر لجرير الشاعر في هبات الجنيد لزواره هـذا البيت .

اصبح زوار الجنيد وصحبـــه   يحيون صلت الوجه جما مواهبه

كما اثر الجنيد عن شاعر اسمه ابو الجويرية في مدح الجنيد :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم	قوم باحسابهم او مجدهم قعدوا
محسدون على ما كان من كرم	لا ينزع الله منهم ما له حسدوا

وتولى الثغر بعد الجنيد تميم بن زيد العتبي . وكان ضعيفاً واهناً فأخرج اهل الهند من عندهم من العرب المسلمين . وتولى بعده الحكم بن عوانه فأظهر اهل الهند في زمنه الكفر والنقض باستثناء اهل قصة . ولم يكن للمسلمين في هذه الناحية ملجأ امين عاصم فأنشأ لهم من وراء البحيرة مما يلي الهند مدينة سماها المحفوظة او المنصورة وظل يغازي اهل الهند حتى قتل وظل عمال هذه الناحية يقاتلون العدو فيأخذون ما استلطف لهم ويعيدون بعض الانحاء الى حظيرة السلطان العربي الى آخر عهد الدولة الاموية .

سابعاً فتوح ارمينية (١)

ذكر البلاذري تحت هذا العنوان حركات حربية عديدة في زمن الدولة الاموية لم ترد في فصوله السابقة . وسياقه يفيد ان هذه الحركات كانت في بلاد أرمينية الشرقية مما يلي بلاد الخزر والتركمان وبعضها كان في هذه البلاد .

وقد بين المؤرخ في مطلع كلامه أن اسم ارمينية كان يطلق على اربع مناطق مع اختلاف في ما تشتمل عليه كل منطقة حيث ذكر أن ارمينية الاولى تشمل بلاد السيسجان وثاران وبعضهم يضم اليها تفليس . والثانية تشمل جرزان او سراج طير وبغروند ودبيل والبسفرجان . والثالثة تشمل قاليقلا وخلاط وارجيش وباجنس في قول والبسفرجان ودبيل وسراج طير وبغروند في قول آخر . والرابعة تشمل شمشاطا وقاليقلا وخلاط وارجيش وباجنيس في قول وشمشاطا وحدها في قول آخر .

ولقد بدأت حركات المسلمين في ارمينية في خلافة عثمان بن عفان حيث كتب الى والي الشام معاوية بتوجيه حبيب بن مسلمة الفهري الى ارمينية فكان له نشاط وبلاء عظيمان توطد بها السلطان العربي في قسم كبير منها على ما أوردناه في الجزء السابق . ولقد كانت الانحاء الغربية من ارمينية موضوع تشاد وتجاذب بين المسلمين والروم حيث كانت تتاخم الاناضول

---

(٢) ص ٢٠٢ ٢١٩

او جزءاً منها تابعاً لحكم الروم او نفوذهم على ما ألمعنا اليه في نبذة مصاولات الروم . ولقد انتقضت الانحـاء التي دخلت في السلطان العربي من ارمينية في اثناء حركة ابن الزبير فولى عبد الملك بن مروان أخاه محمداً ولاية هذه المنطقة فبذل جهـــده الموفق في اخماد التمرد وتوطيد السلطان العربي ثانية .

وفي خلافة يزيد بن عبد الملك كان والي ارمينية الحارث بن عمرو الطائي فغزا أهـــل اللكز وفتح رستاق حمدان .

ثم تولى الجراح بن عبد الله الحكمي بعده فكان له بلاء كبير حيث عبر النهر المعروف بالسمور وسار الى الخزر فقتل منهم مقتلة عظيمة . وقاتل اهل بلاد حمزين ثم صالحهم ونقلهم الى رستاق خيزان واوقع بأهل غوميك وسبى منهم . ثم قفل فنزل شكا وشتاجنده ببوذعة البيلقان . وجاشت الخزر وعبرت الرس فحاربهم في صحراء ورثان فانحازوا الى ناحيـــة اردبيل فواقعهم على اربعة فراسخ مما يلي ارمينية فاقتتلوا ثلاثة ايام فاستشهد ومن معه فسمي ذلك النهر نهر الجراح .

ومما رواه البلاذري نص كتاب اعطاه الجراح هذا لاهـــل تفليس يذكر فيه انهم أتوه بكتاب أمان اعطاهم إياه حبيب بن مسلمـــة مذكور فيه انهم اقروا له بالجزية وتعهدوا له باداء خراج على أراضيهم وكرومهم وارحائهم في رستاق منجليس وطلبوا منـه اقرارهم على امانهم وصلحهم فأجابهم الى ذلك وأمر ان لا يتعدى احد عليه .

ولقد عين هشام بن عبد الملك اخاه مسلمة والياً على ارمينية بعد الجراح فجد في المصاولة مع الخزر حتى انتصر عليهم واخضعهم ثانية للسلطان العربي . وصالح اهل خيزان بعد أن هـــدم حصناً حصيناً لهم . وسالمه ملوك الجبال . واتى اليه منهم شروانشاه وكيرانشاه وطبرشاه وفيلانشاه وجرشان شاه . وأتى اليه صاحب مسقط ايضاً . وغزا مدينتي الباب والابواب وفتحها واسكن فيها ٢٤ الفاً من اهل الشام - اي من العرب المستقرين في الشام - وقد تحصن جماعة من الخزر في قلعة الباب فحاصرهم وشدد عليهم وافسد ماءهم حتى اضطرهم الى التسليم .

وولى هشام ارمينية بعد مسلمة سعيداً الحرشي ثم مروان بن محمد فكان لهذا بخاصة بلاء جهادي كبير . ولقد دخـــل ارض الخزر مما يلي باب اللان ومعه ملوك الجبال فأغار عليهم وسبى عشرين الف اهل بيت منهم . ثم ارسل الى عظيمهم رسولا يدعوه الى الاسلام فطلب

ارسال من يعرض له قواعد الدين فأرسل اليه من فعل فأظهر الاسلام وودع مروان فأقره في مملكته . ثم سار بخلق من الخزر فأنزلهم ما بين السمور والشابران في سهل بلاد اللكز . ودخل بعد ذلك ارض السرير فأوقع بأهلها وفتح قلاعاً فيها ودان له ملكها واعطاه الرهائن على الصلح . ودخل بعد ذلك ارض زريكر فصالحه ملكها . وانتقض في زمنه اهل حمزين فسار عليهم وحصرهم وشدد عليهم حتى اضطرهم الى الخضوع واداء الجزية كما كان . وقد سار الى قلعة تدعى خرس على البحر تابعة لملك شروان فأذعن صاحبها بالطاعة له . وسار بعد ذلك الى الدودانية فأوقع بأهلها . وفي هذه الاثناء قتل الوليد بن يزيد فاتجه مروان الى الشام واندمج في الحركات التي ثارت نتيجة لذلك ووقف شان ارمينية عند الحد الذي كان عليه الى قيام الدولة العباسية . وهو منشىء مدينة كسال الواقعة على اربعين فرسخاً من بردعة وعشرين فرسخاً من تفليس .

وفي تاريخ اليعقوبي كذلك بعض وقائع لم يذكرها الطبري والبلاذري او ذكراها باساوب مغاير وفيها اشياء مهمة فرأينا كذلك ايجازها فيما يلي :

١ ـ ان هذا المؤرخ يسجل حركة عبد الرحمن بن سمرة والي خراسان الذي وجهه عبد الله بن عامر والي البصرة كأولى الحركات في هذه الانحاء في زمن الدولة الاموية وقد ذكر أنه غزا بلخ وكابل وافتتح بلخ بعد حرب شديدة وزحف على كابل فأقام عليها اياماً ثم تمكن من دخولها فصالحه اهلها [١] .

٢ ـ وذكر في جملة ما قام به الحكم بن عمرو الغفاري والي خراسان من حركات مضيه الى الجوزجان وفتحه اياها وسجل ذلك في سنة ٤٤ هـ [٢] .

٣ ـ وذكر من جملة ما كان في عهد الربيع بن زياد الحارثي والي خراسان فتح خارزم من قبل جيش سيره بقيادة عبد الله بن عقيل الثقفي [٣] .

٤ ـ وذكر أن عبيد الله بن زياد هو اول عربي قطع نهر بلخ . وانه بدا ببخارى وحارب القوم حرباً شديدة وكان له الظفر [٤] .

٥ ـ ومما ذكره من اخبار الجنيد بالاضافة الى ما ذكره البلاذري والطبري ان امره

---

(١) ج ٢ ص ٢١٧ – ٢١٨ (٢–٣) ص ٢٢٢ (٤) ٢٣٧

عظم ببلاد السند ودوخها حتى صار الى ارض الخزر ثم الى ارض الصين ودعا ملكهـــا الى الاسلام فقاتله فثبت له وما زال يقاتله حتى اضطره الى طلب الصلح فصالحه ودخل مدينته ثم غزا الكيرج ومعه اشندابيد ملك الصين فهرب ملك الكيرج وفتح الجنيد مدينته وسبى وغنم واستقامت اموره . وانه كتب الى هشام يقول له اني نظرت في ديواني فوجـدت ما افاء الله عليّ مذ توليت بـــلاد السند ٦٥٠ الف رأس من السبي . وحملت ثمانين الف الف وفرقت في الجند امثالها مراراً . وان مدة ولايته للسند وما وراءها عشر سنين [1]

وفي تاريخ ابن الاثير خبر مهم لم يرد في الطبري ولا في البلاذري وهو ان سلماً بن زياد حينما كان والياً على خراسان في خلافة يزيد بن معاوية وجه المهلب بن ابي صفره الى مدينة مما يلي خوارزم كانت ملتقى ملوك ما وراء النهر حينما كانوا يتصاولون مع العرب فحاصرها حتى طلبوا الصلح على فداء قدره عشرون الف الف وقبض القيمة متاعـاً وعروضاً بأثمان بخسة حتى بلغت قيمتها خمسين الف الف [2]

كذلك روى خبراً لم يروه الطبري ولا البلاذري [3] وهو أن جيشاً للمسلمين دخـل سنة ١٠٤ بلاد الخزر من ارض ارمينية بقيادة ثبيت النهراني فاجتمع الخزر لصدهم واعـــانهم القفجاق وغيرهم من طوائف الترك وهـاجموهم وقتلوا منهم بشراً كثيراً واحتووا عسكرهم وغنموا ما فيه ، ثم ذكر ولاية الجراح بن عبد الله الحكمي وطرفاً من بلائه في هذه المنطقة بسياق فيه بعض البيانات الهامة والمغايرة مع ما ذكره البلاذري حيث ذكر أن يزيد بن عبد الملك عين الجراح لمعالجة ما وقع من الخزر ومناصريهم على المسلمين وامده بجيش كثيف وانه تظاهر بالتباطؤ حتى اغتر العدو ثم فاجأهم حتى انتهى الى مـدينة الباب والابواب . ثم اخذ يسير سراياه فتغير وتقتل وتغنم . وجاءه الخزر بجموعهم فاشتبك معهم في قتال عنيف فـدارت الدائرة عليهم فانهزموا وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون كيف شاؤوا وغنموا جميع ما معهم . ثم ساروا الى حصن الحصين فطلب اهله الصلح والامان فأجابهم الى طلبهم ثم جاء الى مدينة برغوقا فطلب اهلها الامان فاجابهم ثم جاء الى بلنجر وكان حصناً حصيناً مشهوراً . وقد وضع الخزر امامه زيادة في التحصين صفاً من العجلات مربوطـــة بالسلاسل فكان ذلك من اشد ما رآه المسلمون .

ولقد انتخى ثلاثون منهم ليقوموا بحركة فدائية نحو هذا الصف فكسروا جفون سيوفهم

---

(١) ٣١٦ (٢) ج ٤ ص ٣٩ – ٤٠ (٣) ج ٥ ص ٤١ – ٤٣ و ٥٩ – ٦٠ .

وحملوا حملة شديدة حتى وصلوا الى العجلات. وقطعوا سلاسلها فانهارت وانفتح مجال الحركة امام المسلمين فاقتحموا والتحموا مع الخزر في قتال عنيف وتمكنوا من دخول الحصن عنوة وغنموا جميع ما فيه . وقد اصاب الفارس من الغنائم (٣٠٠) دينار وكان عدد المسلمين بضعة وثلاثين الفاً .

ثم ساروا بعد ذلك الى حصن الونبدر فطلب اهـــله الصلح فاجابهم الجراح الى طلبهم . وعاد الخزر فتجمعوا ونقضوا وهاجموا المسلمين من ناحية اللان فتصدى لهم الجراح واشتبك معهم فدارت الدائرة على المسلمين هذه المرة واستشهـد الجراح فيمن استشهد منهم . وعين هشام سعيداً الحرشي مكانه وامده بالمدد فأعاد فتح البلاد من جديد بادئاً من خلاط وانقذ كثيراً من اسرى المسلمين وحرائرهم واموالهم .

تعقيب عام على الفصلين السابقين

•

واضح مما تقدم في الفصلين السابقين من اخلاق الخلفاء الامويين وصفاتهم واقوالهم وافعالهم المذكورة في تراجمهم ومما كان في عهودهم من حركة الفتوح العظمى والمصاولات الظافرة على الاعم الاغلب مع الامم الاخرى ان معظمهم كانوا من حيث الاجمال على جانب كبير من قوة الشخصية وبعد الهمة والمواهب والمطامح والحكمه والعقل والجهد في السير على هـــدى القرآن والسنة ومصلحة المسلمين والتمسك بالدين والقيام بواجباته والرغبة في الجهاد وتوسيع رقعة انتشار الاسلام والسلطان العربي والذب عن حياضها .

واذا كانت هناك هنات وانحرافات متنوعة مروية عن معظمهم ويجوز ان تكون صحيحة فانها ليس من شأنها فيما نعتقد ان تؤثر في الصورة الاجمالية المذكورة .

ولقد كان الى جانب هؤلاء الخلفاء عدد كبير من رجالات العرب المتصفين بصفات مماثلة اجمالا لصفاتهم بقطع النظر عن هنات وانحرافات متنوعة مروية عنهم يجوز ان تكون صحيحة وليس من شأنها ان تؤثر في الصورة المذكورة ايضاً تولوا الحكم والقيادة امثال زياد ابن ابي سفيان واولاده والمغيرة بن شعبة والحجـــاج بن يوسف ومحمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم والمهلب بن ابي صفرة واولاده وموسى بن نصير واولاده وبسر بن ارطاة وقيس بن الهيثم وجنادة بن ابي امية وخالد بن العاص وسفيان بن عوف والنعمان بن بشير وسعيد بن عثمان ومحمد بن مسلم وعبد الرحمن بن خالد وحسان بن النعمان ومعاوية بن خديج والحكم بن عمر وزهير بن قيس ومسلمة بن مخلد وعقبة بن نافع وعبد الله البطال وعبيد الله بن ابي بكرة وخالد ابن عبدالله واسد بن عبدالله ويوسف بن عمر ونصر بن سيار ويزيد بن ابي كشه وعمر بن هبيرة وعمر ابن الجراح وسعيد الحرشي وسعيد خدينه والجنيد بن عبدالرحمن والجراح بن عبدالله والاشري السلمي وعبدالرحمن القشيري وعبد الرحمن الغافقي وحنظلة بن صفوان وكلثوم بن عياض وعبيد الله بن الحبحاب وعبيد الله بن حبيب والسمح بن مالك عبد الملك بن قطن ومحمد بن يزيد ومالك بن هبيرة

وعبد الله بن قيس ومصقله بن هبيرة وعمرو بن هبيرة وعمرو بن قيس وخالد بن معدان والوليد بن القعقاع ومجاهد بن جبر وابو المهاجر واسماعيل بن حسن وعبد الله بن سوار والحكم بن عمر الغفاري ومسلم بن سعيد وعبد الله بن خازم وهبيرة بن المشمرخ وطريف بن مالك وطارق بن زياد وعقبة بن الحجاج وابو الخطار الكلبي والهيثم بن عبيد والربيع بن زياد والاحنف بن قيس ومحمد بن الاشعث وامية بن عبد الله والاشرس السلمي . واخوة ابناء الخلفاء الذين لم يتولوا الخلافة والذين كان لهم بلاء عظيم في الحكم والقيادة امثال مسلمة وسعيد وعبد الله ابناء عبد الملك وعنبسة وعتبة ابنا ابي سفيان والوليد ومعاوية وابراهيم ابناء هشام ومحمد وبشير وعبد العزيز ابناء مروان والعباس وعبد العزيز وعمر واولاد الوليد وغيرهم وغيرهم ممن لا يكادون يحصون كثرة .

ولم يذكر المؤرخون منهم الا الاقل فكان هذا وذاك مما ساعد على توسيع رقعة الدولة من الشرق والغرب والشمال والجنوب اضعافاً مضاعفة مما كان عليه في آخر زمن الخلفاء الراشدين . وعلى انشاء ملك عربي اسلامي ضخم . وجعل الدولة الاموية الشامية اعظم واقوى امبراطورية عربية الجنس قبل الاسلام وبعده بل ومن اعظم واقوى واوسع امبراطوريات العالم قديماً وحديثاً حيث امتدت رقعتها من اطراف بلاد الصين والهند شرقاً الى المحيط الاطلاسي وجبال البرانس غرباً وضمت بالاضافة إلى بعض بلاد الصين والهند بلاد السند والترك والعجم والديلم والارمن والخزر والكرد على اختلاف مسمياتها واختلاف طوائف سكانها وجزءاً كبيراً من بلاد الاناضول الشرقية والجنوبية ومعظم جزر البحر الابيض المتوسط وبخاصة كبرياتها مثل قبرص وردوس وكريت وصقلية وسردانية وميورقة ومنورقة وقسماً كبيراً من شبه جزيرة ابيريا الذي كان ضمنه بلاد الاندلس من اسبانيا وقسماً كبيراً من بلاد البرتغال وبعض انحاء فرنسة ، وبالاضافة الى جميع شمال افريقية ممتدة الى مساحات شاسعة في الجنوب وجميع بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية ، وتوطيد السلطان العربي الاسلامي إلى آماد بعيدة بعد زوال دولتهم والتمهيد لقيام مدنية عربية اسلامية باذخة كانت وما تزال مضرب المثل في الروعة والفخامة في المجالات الثقافية والتشريعية والعمرانية والانسانية والاجتماعية .

ومهما يكن من امر الفتن التي نشبت في عهد الوليد بن يزيد وبعده فانها لم تكن لتؤثر في الحقيقة في بنيان الدولة وقوتها لانها لم تدم إلا امداً قصيراً ثم صار الامر الى مروان بن محمد الذي كانت الدولة في عهده قوية متماسكة والذي استطاع ان يواجه مختلف الاحداث بقوة

وحزم لولا ما كان من المؤامرة التي حاكها الهاشميون ضدها بالتآمر مع العناصر الاعجمية الحاقدة على غير ضرورة دينية وقومية وسلطانية وسلوكية على ما سوف يأتي شرحه بعد بحيث يمكن ان يقال ان الدولة الأموية لم تزل نتيجة انحطاط وانحلال وهرم وشيخوخة ، وانما انقصفت حياتها وهي في قوتها وتماسكها وسلطانها المستتب في معظم انحائها وانهـــا لولا تلك المؤامرة لكان من الممكن ان تمتد حياتها — ولقد امتدت فعـلا في الاندلس امتداداً كان باهر النتائج عظيم السناء خلال ثلاثمئة سنة — ولكان من المحتمل كثيراً ان يتغير بذلك وجه تاريخ الجنس العربي والتاريخ الاسلامي معاً . لانها استطاعت في عمرها القصير ان تنشر رايات العروبة والاسلام في هاتيك البقاع الشاسعة الواسعة . وكان لها من حيويتها وحيوية العرب ما يسمح لها بالامتداد الى آفاق وساحات وراءها .

وقد ظهرت بوادر ذلك على حدود فرنسة من الغرب والصين والهند من الشرق فضلا عما كان يتحقق للعروبة من رسوخ خالد في الساحات التي امتدت وكان يمكن ان تمتـد اليها ، ويكفي لتصوير ذلك ان نذكر ان الاسلام صار دين معظم الطوائف التركـــية والفارسية والسندية والكردية والديلمية والبلوجية الدائم المستمر وان اللغة العربيـــة قد دخلت في اصول لغات هذه الطوائف حتى صارت نصفها او كادت ليظهر انه لوامتدعمر هـــذه الدولة والسلطان الاسلامي العربي في ظلها لكان من المحتمل ان يعم الاسلام جميـع اهل هذه البلاد وما والاها وان تصبـح اللغة للعربية لغتها الوحيدة .

الفصل الثالث

المعكرات الداخلية

في زمن الدولة الاموية

المعكرات الداخلية في زمن الدولة الاموية

تمهيـــد

•

لقد كان في زمن الدولة الاموية احداث داخلية عديدة ومتنوعة اشرنا الى شيء منها في سياق سيرة الخلفاء اشارات عابرة كانت من حين لآخر تعكر صفو العرب في دورهم الجديد وتشغل قواهم وجهودهم في مختلف المجالات حتى ليمكن ان يقال انها لو لم تكن لكان النشاط العربي العظيم الذي كان في زمن هذه الدولة والذي كان يبلغ ذروة مداه حين لا تكون قواها مشغولة بذلك قد آتى اضعاف ما آتاه من ثمرات في مجال الفتوح ونشر السلطان والدعوة الاسلامية والتبسط في العمران وناهيك بما كان مـــن هذه الثمرات التي اسفرت عن قيام ملك ضخم ممتد من حدود الصين والهند والسند في الشرق الى البحر الاطلانتي في الغرب بالاضافة الى امتداده العظيم في الشمال والجنوب من هذه الرقعة الواسعة الشاسعة على ما شرحناه في الفصل السابق .

وقد كانت هذه المعكرات الى ذلك سبباً من اسباب طمع الروم في العرب وكرتهم على السواحل الشامية والافريقية وطمع الافرنج في غرب الاندلس وشمالها وكرتهم على بلاد المسلمين في الجنوب الغربي من اوروبا على ما شرحناه كذلك في الفصل المذكور ثم مجالا لاندساس اصابـع اعداء العروبة والاسلام وموتوري الامم الاخرى الذين اندمجـــوا في الاسلام من غير ايمان صادق ولعبهم ادواراً خبيثة متنوعة ووسيلة من وسائل تشويه تاريـخ الدولة الاموية ورجالها . ومؤدية في النهاية الى سقوطها

هذا بالاضافة الى ان هذه المعكرات كانت هي والذرائـع التي تذرع بها اليها وسيلة بعيدة المدى من وسائل التشويش على الدولة الاموية وخلفائها وولاتها وتسويء سيرتهم . من ذلك ما كان في عهد الدولة من قبل خصومها الهاشميين وانصارهم الذين كانوا يسعون في تقويضها ويتوسلون بكل وسيلة الى اثارة الافكار عليها . ومن ذلك ما كان بعدهـــا

لنفس المقاصد وبنفس الوسائل . وكانت هذه المعكرات في الوقت نفسه ذات تأثير بعيد المدى في تاريخ الاسلام والعروبة بعد الدولة الاموية .

وقد يلحظ المتمعن في اسباب المعكرات ان الطابع العام لمعظمها هو التذرع بعدم شرعية سلطان بني امية او انحراف خلفائهم وعمالهم وفسادهم . واستهداف تبديلهم بالاصلح والافضل او الحلول محلهم من قبل القائمين بالحركات المعكرة .

وقد يثير هذا ظناً او اعتقاداً بانه لا بد من ان يكون للذرائع التي كان يتذرع بها القائمون بهذه الحركات اصل صحيح من سيرة خلفاء بني امية وعمالهم ولا سيما انه كان الى جانب الجماعات التي كانت تتوخى من حركاتها المطامح الاسروية والحلول محل الامويين في السلطان العربي الاسلامي وتسوق الاحاديث والتأويلات وتنشر الدعايات المتنوعة بسبيل ذلك جماعات مخلصة في اجتهادها متجردة عن المآرب الاسروية والشخصية كالخوارج بقطع النظر عن ما في اجتهادها منخطأ او صواب .

وقد يكون حقاً هناك هنات كثيرة في هذه السيرة قد تجعل هذا الظن او الاعتقاد في محله لأول وهلة .

غير ان مما يجب ملاحظته ايضاً ان سيرة الخلفاء الراشدين التي كانت التزاماً تاماً رائعاً لكتاب الله وسنة رسوله ومصلحة المسلمين العامة كانت هي المثال الذي يساق للناس بسبيل الدعوة ضد السلطان الاموي والخروج عليه . وان الداعين والمستجيبين لم ينتبهوا عن قصد او غير قصد الى ان هذا المثال قد اصبح عزيز المنال بعد ان انتقل مركز العرب من الجزيرة الى بلاد الشام وبعد ان اختلطوا بالامم الاخرى وتأثروا بمختلف مظاهر حياتها ومعايشها وان هذا التطور كان امراً لا بد منه . كما انهم لم يستطيعوا ان ينفذوا الى الهدي النبوي في احاديث كثيرة الذي كان يأمر بوجوب التزام الجماعة والابتعاد عن الفتنة ووجوب طاعة اولي الامر فيما يحبه المسلم وما يكرهه حتى ولو كانوا من ناحية ما ليسوا بررة كل البررة[1] وهذا بقطع النظر عن انه لم يكن في سيرة واخلاق معظم بني امية

---

(١) نورد فيما يلي طائفة من الاحاديث النبوية التي وردت في كتب الاحاديث الصحيحة والتي تنطوي على الهدي النبوي العظيم المنوه به . وقد تعمدنا ايراد كل ما اطلعنا عليه من الاحاديث الصحيحة في

وولاتهم إن لم نقل كلهم انحراف خطير عن الاسلام وحدود كتاب الله وسنة رسوله اجمالا . وان كثيراً منهم كانوا يبذلون جهدهم في التزام ذلك والامر به . وهذا فضلا كذلك عن ما كان لهم من خدمات جلى للاسلام والمسلمين فيما باشروه وشجعوا عليه من حركات الجهاد ومصاولة اعداء الاسلام وما كان من نتائج ذلك من اتساع رقعة السلطان العربي الاسلامي وانتشار الاسلام والطابع العربي فيها والمشاريع العمرانية والتنظيمية العظمى التي تمت على عهدهم . بحيث يصح أن يقال بحق ان القائمين بتلك الحركات لو انصفوا وتجردوا ووسعوا افق نظرهم وأدركوا عزة منال المثال النبوي والراشدي واستطاعوا أن ينفذوا الى الهدى النبوي لما كان لهم اي مبرر للحركات التي قاموا بها . وهو ما ينبغي ان يسلم به من توخى

ذلك لان من واجب المسلم ان يحيط بها ويلاحظها حينما يطلع على اسباب وسير الحركات المعكرة التي نحن في صددها .

فمن ذلك حديث رواه الشيخان عن عبادة بن الصامت قال : (بايعنا رسول الله على السمع والطاعة واليسر والمنشط والمكره وعلى اثرة علينا وعلى ان لا ننازع الامر اهله . وعلى ان لا نقول الا الحق اينما كنا لا نخاف لومة لائم وفي رواية الا ننازع الامر اهله إلا ان تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان).

وحديث رواه الشيخان ايضاً جاء فيه : (سيكون خلفاء بعدي فتكثر قالوا فما تأمرنا قال فوا ببيعة الاول فالاول واعطوهم حقهم فان الله سائلهم عما استرعاهم) .

وحديث رواه مسلم : (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الاخر منهما) .

وحديث رواه الخمسة عن ابن عمر عن النبي صلعم قال : (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما احب او كره ما لم يؤمر بمعصية فاذا امر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) .

وحديث رواه الشيخان جاء فيه : (من رأى من اميره شيئاً يكرهه فليصبر فان من فارق الجماعة شبراً فمات مات ميتة جاهلية).

وحديث رواه مسلم وابو داود جاء فيه : (انه يستعمل عليكم امراء فتعرفون وتنكرون فمن كره فقد برىء ومن انكر فقد سلم ولكن من رضي وتابع . قيل يا رسول الله الا نقاتلهم قال لا ما صلوا).

وحديث رواه الثلاثة عن حذيفة بن اليمان قال : (قلت يا رسول الله انا كنا بشر فجاء الله بخير فنحن فيه فهل من وراء ذلك الخير شر . قال نعم . قلت هل وراء ذلك الشر خير قال نعم قلت فهل من وراء ذلك الخير شر قال نعم قلت كيف قال يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي . وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في ثياب انس . قلت كيف اصنع يا رسول الله ان ادركت ذلك . قال

الحق والانصاف وكان بعيد النظر واسع الافق .

على ان من الحق ان ننبه على نقطة هامة . وهي ان الجمهور الاكبر من العرب والمسلمين في مختلف انحاء الدولة لم يندمجوا في هذه الحركات . وظلوا في الأعم الأغلب موالين للدولة الاموية متعاونين معهاعلى قمع هذه الحركات واحباطها ومصاولة القائمين بها والتغلب عليهم. وان هذا هو الذي انجح معظم حركات القمع والاحبــاط والمصاولة . ومكن الدولة في الوقت نفسه من القيام بما قامت به من اعمال عظيمة في مجالات الفتح والاعمار والشؤون الحضارية المتنوعة .

تسمع وتطيع للامر وان ضرب ظهرك واخذ مالك فاسمع واطع وفي رواية تلزم جماعة المسلمين وإمامهم قلت فان لم تكن لهم جماعةولا امام قال فاعتزل تلك الفرق كلها ولو ان تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وانت على ذلك) .

وحديث رراه مسلم عن ابي هريرة جاه فيه : (قال النبي صلعم من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات ماتميتة جاهلية ومن قتل تحت راية عمية يغضب للعصبية ويقاتل للعصبية فليس من أمتي . ومن خرج من امتي على امتي يضرب برها وفاجرها لا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي بذي عهدها فليس مني).

وحديث رواه مسلم عن ابن عمر قال : (قال النبي صلعم من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) .

وحديث رواه مسلم عن عرفجة قال : (سمعت رسول الله صلعم يقول انه ستكون هنات وهنات فن اراد ان يفرق امر هذه الامة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان)وفي رواية (من اتاكموامركم جميع على رجل واحد يريد ان يشق عصاكم او يفرق جماعتكم فاقتلوه) ٣ .

وحديث رواه مسلم عن عوف بن مالك قال : (قال النبي صلعم خيار أئمتكم الذين تحبونهمويحبونكم. ويصلون عليكم وتصلون عليهم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهــم ويبغضونكم وتلعنونهمويلعنونكمقيل يا رسول الله افلا ننابذهم بالسيف فقال لا ما اقاموا فيكم الصلاة واذا رأيتم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يداً من طاعة) ٤ .

وحديث رواه ابو داود عن عبد الله ان النبي قال : (انكم سترون بعدي اثرة واموراً تنكرونها . قالوا فما تأمرنا يا رسول الله قال ادوا اليهم حقهم وسلوا الله حقكم) .

وحديث رواه ابو داود عن ابي ذر قال : (قال النبي من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة

وهذا التوضيح يزيل ما علق في اذهان قراء التاريخ العربي من صور قاتمة تجاه هـــذا التاريخ بسبب هذه الاحداث المعكرة المتنوعة ويضع الأمر في نصابه الحق بكون هذه الاحداث هي احداث جماعات كانت وظلت على كل حـــال تمثل اقليات شاذة مندفعة باجتهادات لا تؤيدها الجماهير او بطامح ومطامع ومآرب شخصية واسروبـــة أو بعواطف ورواسب موروثة عن عهد الجاهلية لم تكن المدة التي مرت كافية لزوالها أو اضعافها أو بأحقادشخصية أو عنصرية.

الاسلام من عنقه) .

وحديث رواه ابو داود عن ابي ذر قال النبي صلعم : (كيف انتم وأئمة من بعدي يستأثرون بهذا الفيء قلت أما والذي بعثك بالحق اضع سيفي على عاتقي واضرب به حتى القاك . قال اولا ادلك على خير من ذلك : تصبر حتى تلقاني).

وحديث رواه مسلم وابو داود عن ابي بكرة قال : (قال النبي صلعم انها ستكون فـــتن . الاثم تكون فتنة القاعد فيها خير من الماشي فيها . والماشي فيها خير من الساعي اليها . الا فاذا نزلت او وقعت فمن كان له إبل فليلحق بها ومن كان له غنم فليلحق بها ومن كان له ارض فليلحق بأرضه ، فقال رجل يا رسول الله ارأيت من لم تكن له ابل ولاغنم ولاارض قال يعمد الى سيفه فيدق على حده بحجر ثم لينج ان استطاع النجاة ، اللهم بلغت ثلاثاً فقال رجل يارسول الله ان اكرهت وانطلق بي إلى الصفين او احدى الفئتين فضربني رجل بسيفه او يجيء سهم فيقتلني قال يبوء باثمه واثمك ويكون من اصحاب النار).

وحديث رواه مسلم جاء فيه : (سيكون في امتي اختلاف وفرقة ، قوم يحسنون القيـــل ويسيئون الفعل ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم . يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية لا يرجعون حتى يرتد على فوقه ، هم شر الخلق والخليقة طوبى لمن قتلهم وقتلوه يدعون إلى كتاب الله وليس منه في شيء، من قاتلهم كان اولى بالله منهم) .

وجميع هذه الاحاديث وردت في مسانيد الاحاديث الصحيحة (انظر التاج الجامع لاصول احاديث الرسول ج ٣ ص ٣٨-٢ ؛ وج٥ ص ٢٧٣و٢٨٦) .

وليس فيها كما قد يتوهم متوهم تناقض ولا حث على الرضوخ للظلم والرضاء به فهي مصبوبة على وجوب تجنب الفتن والتزام الجماعة الاسلامية وعدم التفرق والشذوذ عنها وعدم الخروج على ولي امر المسلمين القائم لاجتهادات او عواطف فردية او اغراض ومآرب شخصية وعدم الشغب عليه ووجوب السمع والطاعة له ما دام قائماً بواجباته الدينية ومحاربة من يفعل ذلك ويتظاهر كذباً بالحمية الدينية .

١ - حركة الخوارج

كانت حركة الخوارج من اولى الحركات المعكرة التي ذر قرنها في زمن الدولة الاموية ثم ظلت مستمرة تخف حدتها حيناً وتشتد حيناً الى نهاية هذه الدولة ثم استمرت بعدها ايضاً.

وقد استنفدت من الدولة جهداً كبيراً واريق بسبيلها دمـــاء غزيرة . وثارت دعايات ومقالات متنوعة في الملة الاسلامية نتيجة لها .

ولقد ظهرت بادرة هذه الحركة قبل قيام الدولة الاموية . وتمثلت في انشقاق فريق من جيش علي رضي الله عنه بسبب قبوله التحكيم وخروجهم عليه بحجة أن لا حكم إلا الله وانه لا يجوز تحكيم البشر في حكم الله . ويعنون بذلك ان معاوية كان باغياً في مشاقته لعلي الذي كانت امامته شرعية بالبيعة في نظرهم وان حكم الله هو قتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله . وقالوا إن من قبل بالتحكيم هو مرتد وعليه ان يتوب ويجدد اسلامه .

وقد جددوا هم إسلامهم لأنهم رضوا اولاً بالتحكيم . وطلبوا من عـلي ان يفعل ذلك فحاجهم فلم يقنعوا فحاربهم وانزل فيهم خسائر فادحة غير انه لم يقض عليهم . وكان منهـم الثلاثة الذين تآمروا على قتله وقتل معاوية وعمرو بن العاص على ما شرحناه في الجزء السابق . بل لعل بادرتها الاولى كانت فيما قام من شغب على عثمان رضي الله عنه وطلب التخلي عن الامامة منه لأنه انحرف عن سيرة صاحبه في نظرهم وآثر اقاربه بفيء المسلمين ولم يكن هذا صحيحاً في حقيقة الامر على ما شرحناه في ذلك الجزء ايضاً .

بل لقد روى البخاري ومسلم والترمذي ثلاثة احاديث عن ابي سعيد الخدري يصح في الحقيقة ان يكون فيها البادرة الاولى من هذه الحركة في حياة النبي ﷺ .

وقد جاء في واحد منها : (بعث علي بن ابي طالب الى رسول الله من اليمن بذهيبة لم تحصل من ترابها في اديم مقروظ فقسمها بين اربعة نفر بين عيينه بن بدر والاقرع بن حابس وزيد الخيل وعلقمة بن علاثة فقال رجل من اصحابه كنا نحن احق بهذا من هؤلاء . فبلغ النبي ﷺ ذلك فقال الا تأمنوني وأنا امين السماء يأتيني خبر السماء صباحاً ومساء . فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناشز الجبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الازار فقال يارسول الله اتق الله فقال : ويلك أو لست أحق اهل الارض أن يتقي الله . ثم ولى فقال خالد بن الوليد يارسول الله

ألا اضرب عنقه فقال لا لعله ان يكون يصلي . قال خالد وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه فقال رسول الله إني لم أومر ان انقب عن قلوب الناس ولا اشق بطونهم ثم نظر اليه وهو مقف فقال انه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . قال اظنه قال لئن ادركتهم لأقتلنهم قتل ثمود) .

وجاء في ثالثها : (بينا نحن مع النبي ﷺ وهو يقسم قسما أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم فقال يا رسول الله اعدل فقال رسول الله ﷺ ويلك من يعدل إن لم اعدل . قد خبت وخسرت ان لم اعدل . فقال عمر بن الخطاب يارسول الله ائذن لي فيه اضرب عنقه . قال دعه فان له اصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية . ينظر الى نصله فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر الى رصافه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر الى نضيه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر قذذه فلا يوجد فيه شيء . سبق الفرث والدم . آيتهم رجل اسود احدى عضديه مثل ثدي المرأة او مثل البضعة تتدرر يخرجون على حين فرقة من الناس) وعقب ابو سعيد على ما رواه عن النبي فقال اشهد اني سمعت هذا من النبي واشهد ان علياً قاتلهم وانا معه فامر بهذا الرجل فالتمس فأتى به فنظرت اليه على نعت رسول الله الذي نعت [1] .

اما الحديث الثاني فهو مختصر للحديث الاول فلم نر ضرورة لايراد نصه .

اما بدء نشاط الخوارج فقد كان عقب الصلح بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما . فلم يكد يتم ذلك حتى اخذت فاولهم تتجمع ليعلنوا تمردهم على سلطان معاوية . ثم اخذت حركتهم تتسع وفكرتهم تتطور حتى غدت من الحركات الخطيرة في تاريخ العرب والاسلام .

ولقد كانت الفكرة التي انطوت في بوادرهم الاولى في حياة النبي وخلافة عثمان هي اعلان عدم رضائهم عن ما رأوه او حسبوه انحرافاً عن الحق والعدل . وكانت حركتهم

---

(١) الاحاديث من كتاب التاج ج ٥ ص ٢٨٣–٢٨٥ وهذا تفسير الكلمات في الحديث الاخير : النصل حديدة السهم ، ورصافة مدخل الفصل من السهم ونضية السهم او القدح الذي يرمي به عن القوس ، وقذذه ريش السهم . سبق للفرث والدم ، اي ان السهم تجاوزهما والمراد بذلك بعدهم عن الاسلام كبعد السهم عن الفرث والدم ، وتتدرر تتحرك .

التمردية الاولى بسبب رفضهم التحكيم في امر حكم الله به وخروجهم على علي رضي الله عنه لانه قبل به كما ذكرنا . ثم تركزت في نظرية واسعة قوامها ان ولاية المسلمين يجب ان تكون شورى بينهم وليست فرضاً ولا قهراً ولا إرثاً ولا إرهاباً ولا إطماعاً . وان يتولاها الاصلح الاتقى من المسلمين اطلاقاً . وان من واجب من يتولاها ان تكون سيرته مستمدة من القرآن والسنة وسيرة ابي بكر وعمر المستمدة منها وان لا طاعة لسلطان في معصية .

وإن من واجب المسلمين البراءة من ولي الامر الذي تكون ولايته بالغلبة والقهر والترهيب والترغيب او يكون منحرفاً في الاصل أو انحرف فيما بعد عن القرآن والسنة وسيرة ابي بكر وعمر وعدم الاعتراف بسلطانه والخروج عليه وقتاله واقصائه ومبايعة من يصلح للقيام بالامر على الاسس المذكورة دون اعتبار لجنسه ولونه . والتبرؤ من عثمان بالنسبة للشطر الثاني من خلافته لانحرافه فيه بزعمهم عن الكتاب والسنة وسيرة ابي بكر وعمر . والتبرؤ من علي لانه قبل التحكيم في امر حكم فيه القرآن بزعمهم . والتبرؤ من بني امية لان سلطانهم استند الى الارهاب والترغيب وانحرف عن سيرة ابي بكر وعمر وخالفوا كثيراً من احكام الكتاب والسنة وصار الملك أسروياً لا يراعى فيه الاصلح والاتقى . ومن مذاهبهم او مقالاتهم المتسمة بسمة المذاهب الكلامية ان الانسان العاقل قادر على تمييز الحسن والقبيح وعلى كسب افعاله وغير مجبر عليها وهو مسئول عنها . وان مرتكب الكبيرة كافر مخلد في النار وان من واجب المسلم محاربة الباغي الظالم في اي حال والتمرد عليه وتغيير واقع الظلم والبغي بالقوة وعدم الرضاء ، وعدم اعتباره قدراً أزلياً لا مندوحة عنه . والصلة وثيقة كما هو ظاهر بين هذا وبين نظريتهم وحافزهم عليها .

ولقد أورد المؤرخون القدماء روايات عديدة عن كيفية خروج الخوارج في سنين مختلفة في عهد الدولة الاموية . تبرز فيها هذه النظريات قوية رائعة . ننقل فيما يلي بعضاً منها للدلالة والتمثيل .

١ – جمع حيان بن ظبيان احد زعماء الخوارج اصحابه بعد قليل من استتباب الامر لمعاوية اي في سنة ٤٢ هـ وقال لهم والله ما يبقى على الدهر باق . فانصرفوا بنا يرحمكم الله الى مصرنا . فلنأت إخواننا فلندعهم الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فانه لا عذر لنا في القعود . وولاتنا ظلمة . وسنة الهدى متروكة . فان يظفرنا الله بهم نقم بالتي هي اهدى وارضى واقوم . وإن نقتل فان في مفارقة الظالمين راحة لنا . ولنا في اسلافنا اسوة . فقالوا له كلنا قائل ما ذكرت وحامد رايك . ثم اجتمع هذا الزعيم بزعيمين آخرين من الخوارج

هما المستورد بن علفة ومعاذ بن جوين فتذاكروا وتشاوروا وصار كل منهم يعرض على اخويه ان يتوليا الامرة ثم اتفقوا على مبايعة المستورد لانهم رأوه ابصرهم بالحرب وافقههم في الدين واشدهم قوة على الاضطلاع بالامر . ثم اتفقوا على الخروج . وعلمت السلطات بامرهم فسيرت عليهم جيشاً فلم يشاؤوا ان يقاتلوه قبل الانذار فأرسل المستورد الى عامل المدائن التي عسكر فيها الجيش كتاباً جاء فيه (من عبد الله المستورد أمير المؤمنين الى سماك ابن عبيد . أما بعد فقد نقمنا على قومنا الجور في الاحكام وتعطيل الحدود والاستئثار بالفيء . وإنا ندعوك الى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ وولاية ابي بكر وعمر رضوان الله عليهما والبراءة من عثمان وعلي لإحداثهما في الدين وتركهما حكم الكتاب فان تقبل فقد أدركت رشدك وإلا تقبل فقد أبلغنا في الإعذار اليك وقد آذناك بحرب فنبذنا اليك على سواء إن الله لا يحب الخائنين [1] .

٢ - ولقد استطاع الجيش ان يشتت شمل الجماعات التي تحشدت مع المستورد ويقتل المستورد وبعض رفاقه ويأسر بعضهم ويلقيهم في السجون . وكان من هؤلاء حيان بن ظبيان ومعاذ بن جوين زميلي المستورد في الزعامة فلم يكادا يخرجان من السجن سنة ٥٨ هـ حتى جمعا إخوانهم المشردين فخطبهم الاول قائلا (إن الله عز وجل كتب علينا الجهاد فمنا من قضى نحبه ومنا من ينتظر أولئك الابرار الفائزون بفضلهم ومن يكن منا من ينتظر فهو من سلفنا القاضين نحبهم السابقين باحسان فمن كان منكم يريد الله وثوابه فليسلك سبيل اصحابه وإخوانه يؤته الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) وخطبهم الثاني فقال (يا اهل الاسلام والله لو علمنا أنا إذا تركنا جهاد الظلمة وإنكار الجور كان لنا به عند الله عذر لكان تركه ايسر علينا وأخف من ركوبه . ولكنا قد علمنا واستيقنا أنه لا عذر لنا وقد جعل لنا القلوب والاسماع حتى ننكر الظلم ونغير الجور ونجاهد الظالمين ثم قال لحيان ابسط يدك نبايعك فبايعه وبايعه القوم ، ثم اتعدوا على وقت ومكان فخرجوا) [2] .

ونكتفي بهذين المثلين من الامثلة الكثيرة المماثلة التي يراها المتتبع خلال أحداثهم وحركاتهم ومحاوراتهم فيما بينهم ومع غيرهم .

ومن المثلين يبان انهم كانوا يبايعون من يرونه الاصلح الاتقى من زعمائهم بالخلافة ويخاطبونهم

---

(١) الطبري ج ٤ ص ١٣١ - ١٤٦

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

بامرة المؤمنين . وكانوا يقيمون الحكومات في المناطق التي يتمكنون فيها احياناً فيعينون العمال ويجبون الخراج ويسيرون سيرة ابي بكر وعمر في تحري الحق والعدل والتعفف عن مال بيت المال والتقشف في الحياة وإقامة حدود القرآن . وكان خلفاؤهم هم المباشرين لقيادة الحرب وحركاتها بل وكانوا دائماً في المقدمة فكان هذا مما يزيد في ضراوتهم وشدة صولاتهم .

ولقد كانوا يقاتلون بكل بسالة واستماتة وشجاعة . وكانوا على اشد ما يكون المؤمن المسلم صلابة عقيدة وورع وتقوى وزهد وصيام وصلاة وتهجد وتلاوة وتجرد من المطامع الشخصية مما يسوغ القول ان عقيدة الخروج على السلطان غير الشرعي أو الحكام البغاة في نظرهم كانت عقيدة جهاد في سبيل الله والتقرب اليه وابتغاء مرضاته ونصر دينه وشريعته وحسب . وكان هذا مما يدفعهم على الخروج مهما كان عددهم قليلا حتى ولو كانوا آحاداً ومهما كان أملهم في النجاح مفقوداً ومصيرهم الى الموت مرجحاً او محققاً . وكانوا يسمون انفسهم الشراة اي الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة فيقاتلون في سبيل الله اقتباساً من الآية ٧٤ في سورة النساء وهي (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما)[1] وكان هذا من اسباب ضراوتهم

---

(١) رويت لهم مقطوعات شعرية في ذلك ايضاً .
منها هذا البيت :

ألا ايها الشارون قدحان لامرىء ... شرى نفسه لله ان يترحلا

ومنها هذان البيتان :

لله در الشراة انهم ... اذا الكرى مال بالطلا ارقوا
يرجعون الحنين آونة ... وان علا ساعة بهم شهقوا

ومنها هذا البيتان ايضاً :

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له ... إن لم افز فوزة تنجي من النار
والنار لم ينج من روعاتها احد ... إلا المنيب بقلب المخلص الشاري

ولقد اثر عن عمران بن حطان بيتان فيهما وصف بليغ لحالة الخوارج هذه وهما :

فثوى . ريعا والرماج تنوشه ... ان الشراة قصيرة الاعمار
ادباء اما جئتهم خطباء ... ضمناء كل كتيبة جرار

من . ' البار بيتان من ابيات مروية عن سيرة ابن الجعد :

او عصبة اما النهار فانهم ... م اسد اسد الغيل عند التهايج
واما اذا ما الليل جن فإنهم ... قيام بانواع النساء النواشج

انظر رسالة أدب الخوارج سهير القلماوي

وشدتهم وصولاتهم بالعدد القليل على العـدد الكبير . وتمكنهم في كثير من المرات التغلب على اعداد كبيرة تفوق عددهم اضعافاً مضاعفة مما سوف نورد الامثلة عليه في سياق الحوادث.

ولقد كان فيهم خطباء بلغاء وشعراء مفلقون ومجادلون اشداء فكانوا يدافعون عـن فكرتهم اشد دفاع ويدعون اليها اشد دعوة ويلهبون عواطف جماعاتهم ويجعلونهم يقدمون على الجهاد والموت في سبيل الله بكل استماتة ورضا حتى لقد قال ابن زياد عنهم (ان كلامهم أسرع إلى قلوب الناس من النار الى اليراع) [١] وقال عبد الملك بعد موقف جدلي بينه وبين أحد زعمائهم : (لقد كاد يوقع في خاطري ان الجنة خلقت لهم وأني اولى بالجهاد منهم) ثم حبس الزعيم وقال (لولا ان تفسد بالفاظك رعيتي ما حبستك) [٢] .

وواضح مما تقدم ان النظرية التي قامت عليها حركة الخوارج من حيث الفكرة والمبدأ قد تكون مـن اعظـم النظريات السياسية والاجتماعيـة خطورة ومدى في صدد توطيد الدولة والسلطان على اساس الحق والعدل والنأي بها عن الشذوذ والشهوات . وهي كذلك من حيث الفكرة والمبدأ قد تكون متسقة مع الرسالة الإسلامية التي اتسم بهـا الدور العربي الجديد والتي زادت من خطورته وعظم مداه مما احتوى القرآن دعائم قوية له مثل ايجاب قيام جماعة من المسلمين في كل وقت بالدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وتقرير كون امر المسلمين شورى بينهم وكون الطاعة للسلطان إنما تكون فيما هو خير للمسلمين وموافق لمصلحتهم وحياتهم ولا يكون في معصية وايجاب اتصاف الذي يتولى امر المسلمين بالعدل والإحسان والحرص التام على المسلمين وإشفاقه عليهم وبره بهـم وسيرته فيهم سيرة بعيدة عن الظلم والفظاظة والغلظة الخ [٣] .

ولعل من الحق ان تعتبر هذه الحركة وما نتج عنها من اعظم الحركات التاريخية خطورة بقطع النظر عن ضيق النظر والافق وشدة التزمت وعدم النفوذ الى الهدي النبوي المنطوي في

(١-٢) رسالة ادب الخوارج لسهير القلماوي ص ٤٠ .

(٣) في القرآن آيات كثيرة في هذا الصدد كما ان في الاحاديث النبوية احاديث كثيرة في ذلك وفي فصل الدستور القرآني في آخر الجزء السادس وفي الهدي النبوي في آخر الجزء السابع ما يغني عن التكرار والزيادة .

الأحاديث التي اوردناها في مطلع الفصل . بل ان ما كانت تحفز اليه من ثورات وتمردات مستمرة خلال القرون الاربعة الاولى من تاريخ الإسلام . وبقاء الفكرة إلى اليوم تقـــوم عليها دولة من الدول العربية الإسلامية في عمان ليجعل التاريخ الإسلامي العربي بها فـــذاً رائعاً . لان التاريخ لم يكد يسجل مثلا لها لامة اخرى من حيث الاستمرار والإتسام بسمة مبدئية سياسية مجردة عن المآرب الشخصي في صدد تقويم امر الدولة والسلطان واقامتها على اساس الحق والعدل والشرع الإسلامي وقتال المنحرفين عن هذا الاساس بدون هوادة وفي اي حال وظرف .

ولم يكن الخوارج قلة في العدد . فقد كان الذين انشقوا عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه بضعة آلاف كلهم محاربون . قتل كثير منهم في وقعة النهروان وتفرق باقيهم في مختلف الامصار والانحاء ليبثوا دعوتهم وفكرتهم وليعودوا فيقاتلوا في سبيلها .

وقد بلغ عدد الذين قتلهم زياد بن ابي سفيان ثم ابنه عبد الله والي العراق في عهد معاوية ثم في عهد ابنه يزيد ثلاثة عشر الفاً وهناك رواية تذكر ان عدد الذين قتلهم سمرة بن جندب الذي اقامه زياد نائباً موقتاً عنه في البصرة ثمانية آلاف [1]. وعدد الذين سجنوهم أربعة آلاف وينبغي ان يضاف الى هذا العدد عدد آخر قتلهم وسجنهم المغيرة بن شعبة والي الكوفة في عهد معاوية ايضاً [2] .

ومهما كان في الاعداد مبالغة فان كثرة خروجهم وتعدد مناطق نشاطهم ليدل على ان عددهم قد كثر ونما في خلافة معاوية حتى بلغ عشرات الالوف [3] قتل منهم من قتل وبقي الناجون منبثين بين الناس يتربصون الفرص . وظل عددهم ينمو وحركتهم تتسع بعـــد خلافة معاوية . ويدل على هذا كون وقائعهم وحروبهم العنيفة انما كانت بعد معاوية . وكون هذه الوقائع والحروب استمرت شديدة لا تخمد حتى تعود الى الفوران بقوة نحـــو عشرين سنة متواصلة .

---

(١) الطبري ج ٤ ص ١٧٦ .

(٢) انظر هذه المسألة في المصدر نفسه ص ١٣٨ وبعدها .

(٣) انظر لاجل الاعداد والحركات ايضاً مختصر الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٦٤ وبعدها .

ومن الحق ان نذكر أن جمهور المسلمين لم يكونوا راضين عن حركات الخوارج بصرف النظر عما اذا كان ذلك عن يقين وبينة أم تفادياً من الخلاف مع الدولة والسلطان والتعرض لنقمتها . ونحن وان كنا نعتقد باحتمال الامرين معاً الا ان مجرى حركة التنكيل فيهم قد يدل على ان الاحتمال الاول هو الاقوى الحافز على تكتل الناس مع الدولة لمكافحة هذه الحركة الخطيرة .

ومن الدلائل القوية على كون الإحتمال الثاني هو الحافز الاقوى تصدي اهل البصرة لقتال الخوارج الازارقة من تلقاء انفسهم وعلى حسابهم -- ان صح التعبير - على ما سوف نذكره بعد في ظرف كان سلطان الامويين فيه قد انهـــار في العراق ولم يكن سلطان ابن الزبير قد توطد .

ولعل ما كان يبدر من الخوارج من اعمال متسمة بالقسوة والتزمت الشديد من شأنها ان تثير في النفوس بالغ الدهشة والاشمئزاز والذعر والحنق على ما سوف نذكره بعد ايضاً ذو اثر قوي في قوة هذا الحافز .

ولقد كان في بنيتهم او تكوينهم بالاضافة الى موقف جمهور المسلمين المذكور ثم بالاضافة الى ما ذكرناه من ضيق النظر والافق وشدة التزمت وعدم النفوذ الى الهدي النبوي نقطة ضعف بارزة اخرى جعلت حركتهم سلبية ومزعجة اكثر من اي شيء آخر وهي انهم لم يكونوا كتلة واحدة وان كانت الفكرة جامعة بينهم ، ثم انهم كانوا مبعثرين هنـــا وهناك وهنالك . وكانت حركة خروجهم هذا وذاك متفرقة وبأعداد قليلة أحياناً لم تكن تتجاوز المئات بل واحياناً في حدود العشرات . فكان هذا مما يسهل على السلطات الاموية التغلب عليهم عاجلا او آجلا مهما بدا منهم من شدة وضراوة . وكل ما يكون من امرهم ان يقتلوا ويقتلوا . ثم نشب فيما بينهم خلاف جعل نقطة ضعفهم هذه اشد واقوى . لان هذا الخلاف فرقهم وان كان فرعياً بل وأدى الى تكفير بعضهم بعضاً وقتال بعضهم بعضاً فان احد زعمائهم نافع بن الازرق اخذ يرى تكفير من لا يرى رأيه من التبرؤ من عثمان وعلي وقتال السلطات الاموية ويقعد عن هذا القتال ، واستحلال دمه وماله وتحريم ذبيحته ومناكحته واعتباره مرتداً لا يقبل منه الا التوبة والخروج . واخذ مع جماعتـــه يعترضون الناس ويمتحنونهم ويقتلون مـــن لا يقول بقولهم ويسبون نساءه وينهبون امواله ولا يتورعون عـــن قتل الاطفال والنساء

والشيوخ [1] . وكانوا ـ وهذا بالغ في الغرابة والتزمت ـ اذا ما اتقاهم أحد بالقول يمتحنونه بقتل من كان في أيديهم من الاسرى فاذا ابى او تردد اعتبروه مرتداً واستحلوا دمـــه .

وهكذا اعتبروا جميع المسلمين ما عداهم كفاراً مرتدين واستحلوا قتالهـــم واموالهم ونساءهم ولم يتوانوا عن مكافحةالسلطات الحكومية غير الشرعية في نظرهم.

وعرفت هذه الفرقة باسم الازارقة نسبة الى رئيسها وكانت اشد فرق الخوارج عنفـــاً وضراوة وتزمتاً . ولقد روى المؤرخون بعض الامثلة من ذلك ان صحت فانها تثير بالـغ الدهشة والاشمئزاز من ذلك ان جماعة منهم رأوا رجلا يسوق حمـــاراً عليه امرأة فدعوه فانتهروه فأفزعوه وسألوه عن نفسه فقال لهم انا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله فقالوا له لا روع عليك افزعناك . حدثنا عن ابيك حديثاً سمعه من رسول الله قال روى ابي عـن رسول الله انه قال (تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه . يمسي فيـــها مؤمناً ويصبح كافراً . ويصبح كافـــراً ويمسي مؤمنـــاً) . فقـــالوا له لهـــذا الحديث سألناك . ما تقول في ابي بكر وعمر فأثني عليهما خيراً . فقالوا مـــا تقول في عثمان في اول خلافته وفي آخرها فقال انه محق في اولها وآخرها . فقالوا ما تقول في علي قبل التحكيم وبعده فقال انه اعلم بالله وحكمه منكم واشد توقياً على دينه وانفذ بصيرة فقالوا انك تتبـع الهوى وتوالي الرجال . والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها احداً . فأخذوه وكتفوه واقبلوا به وبامرأته وهي حبلى متئم حتى نزلوا تحت نخل فسقطت رطبة فأخذها احدهم فلاكها في فيـــه فقال له آخر اخذتها بغير حلها وبغير ثمن فالقاها من فيه . ثم مر بهم خنزير لذمي فضربه احدهم بسيفه فقالوا هذا فساد في الارض فبحث عن صاحب الخنزير حتى لقيه فارضاه . فلمـــا رأى ذلك منهم ابن خباب قال ان كنتم صادقين فما أرى علي بأساً منكم . إني مسلم مـــا احدثت في

---

(1) من عجيب ما يرويه مؤلف الاغاني وفيه ان صح دليل من ادلة كثيرة على مشاركة المرأة في هذه الحركة اسوة بغيرها من الحركات ان نافعاً كان متردداً في نظرته إلى القاعدين فقالت له امرأته إن كنت قد كفرت بعد إيمان وشككت فدع نحلتك ودعوتك وإن كنت قد خرجت من الكفر الى الايمان فاقتل الكفار حيث لقيتهم واثخن في النساء والصبيان كما قال نوح (رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً) فقبل قولها وصار يستعرض الناس ويقتل الرجال والنساء والصبيان (المجلد السادس خبر وقعة دولاب وام حكيم) .

الإسلام حدثاً وقد امنتموني وقلتم لا روع عليك ، فلم يغنه ذلك فأضجعوه وذبحوه واقبلوا إلى المرأة فقالت لهم انا امرأة . افلا تتقون الله فلم يغنها ذلك فبقروا بطنها . وقتلوا ثلاث نسوة من طي كن معها[١] .

ومن ذلك ان شخصاً اسمه عبادة الليثي مر بجماعة منهم ومعه ابنه وابن اخيه فسألوهم عن انفسهم فقالوا لهم مسلمون فقالوا لهم كذبتم فقال عبادة سبحان الله اقبلوا منا ماقبل منا رسول الله فاني كذبته وقاتلته ثم اسلمت فقبل مني فقالوا له بل انت كافر وقتلوه وقتلوا ابنه وابن اخيه[٢] .

ومن ذلك ان شخصاً اسمه سماك بن زيد مر بجماعة من الازارقة ومعه ابنته فأخذوهما ثم استشهدوا سماكاً فلم يشهدبما طلبوه منه فقرروا قتله مع ابنته وكان مريضاً فقالت البنت يا اهل الإسلام إن ابي مصاب وانا جارية ما اتيت والله بفاحشة قط فلم يغن ذلك عنها . فلما هموا بقتلها سقطت ميتة من الخوف فقتلوا اباها وصلبوه وقطعوهما باسيافها[٣] .

ولقد خالف نافعاً بن الازرق في غلوه في ارائه ثلاثة من رفاقـــه وهم عبد الله بن اباض وعبد الله بن الصفار[٤] ونجدة بن عامر كما اختلفوا هم فيما بينهم في الآراء في الوقت نفسه فصار هناك اربع فرق رئيسية لهم اختزل اسماؤها من اسمائهم . وهي الازارقة والاباضية والصفرية والنجدات .

ويستفاد مما ذكره البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق ان فرقة النجدات كانت لا ترى قتال القاعدين ولا تستحل قتل اطفال ونساء المخالفين وان فرقة الصفرية كانت لا ترى قتل

---

(١) ابن الاثير ج ٣ ص ١٣٨-١٣٩ .

(٢) نفس الجزء ١٦٧ .

(٣) ابن الاثير ج ٤ ص ١١٠ وهناك حوادث مماثلة اخرى سوف نوردها في مناسباتها الآتية .

(٤) البغدادي يسمي رئيس فرقة الصفرية زياد بن الاصفر في حين ان المستفاد من سياق الطبري ان اسمه عبد الله بن الصفار (انظر مختصر الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٧٩ وتاريخ الطبري ج ص ٤٣٩) .

الاطفال والنساء وان فرقة الاباضية كانت تعتبر القاعدين غير مؤمنين وغير مشركين وتجيز شهاداتهم ومنا كحتهم والتوارث بينهم وتحرم دماءهم . ثم تفرع عن هذه الفرق فروع اخرى عرفت باسماء العجاردة والحازمية والشعبية والخلفية والصلتية والحمزية [1] والثعالبة والمعيدية والاخنسية والرشيدية والمكرمية والحفصية والحارثية نسبة الى زعماء اختزلت هـذه التسميات من اسمائهم بسبب اختلاف في النظرة الى القاعدين او في تطبيق الفكرة او في مسائل القدر والجبر وخلود مرتكبي الكبائر في النار واعتبارهم كفاراً واستحلال دمهم ومالهم ونحو ذلك . ومنهم من اجاز عدم اقامة امام اصلا إذا لم يكن هناك من يصلح للأمامة صلاحاً شرعياً كاملا [2] .

ولقد كان بعض هذه الفرق تصطدم مع بعضها بالقتال فيزداد بذلك ضعف بنيتهم واستمرار بقاء حركتهم سلبية مزعجة اكثر من أي شيء آخر كما قلنا . ولم يكد يكون لها اثر الا التهديم والازعاج وإراقة دماء اصحابها وغيرهم من المسلمين واشغال قوى الدولة واستنفاد جهودها على غير طائل باستثناء محدود الدائرة والاثر وهو تمكن جماعة من المنتسبين الى الاباضية من اقامة امامة ذات سلطان في اقليم الجزائر المغربي استمر اكثر من قرن (١٦٠–٢٩٩) وهي الدولة الرستمية التي كانت عاصمتها مدينة تاهرت في اقليم الجزائر [3] ثم في اقليم (عمان – مسقط) في شرق جزيره العرب استمرت احد عشر قرناً ولا تزال قائمة الى اليوم (١٢٠–١٣٨٣هـ) مع تقطع وتطور في بعض الفترات [4] .

ولقد كان قوام حركة الخوارج على الاعم الاغلب عرباً اقحاحاً وكان معظمهم من بني تميم وبني شيبان وبني طي وقد ظلت العروبة صفة هذه الحركة البارزة طيلة العهد الاموي غير

---

(١) انظر ص ٦٥ – ٩٤ .

(٢) انظر ايضاً كتاب الدولة العربية الاسلامية علي حسني الخربوطلي الذي يستند من مذاهب الخوارج إلى مصادر عربية عديدة ص (١٤٠–١٥٢) .

(٣) انظر تفصيل حياة هذه الدولة في تاريخ الجزائر للعكال ص١٦٣–٢٠٢ وكتابنا العرب في حقبة التغلب التركي ج ٣ص٥٧٥–٥٧٧ .

(٤) انظر تفصيل حياة هذه الدولة في كتاب تحفة الاعيان في سيرة اهل عمان للسالمي .

ان التاريخ سجل اندماج بعض الموالي الفرس في المشرق وجماعات من البربر في المغرب فيها إما لوحدهم وإما بالاشتراك مع العرب وتأثراً بهم على ما سوف نشرحه بعد .

ولقد بدأت حركة الخوارج في عهد خلافة معاوية منذ عهد مبكر كما ذكرنا وتعددت وقائعهم في سنين مختلفة في هذا العهد حتى أواخره .

ولقد كان معظم هذه الوقائع في منطقتي البصرة والكوفة . وكان معظم القائمين بها من القبائل العربية النازلة في هذه المناطق . فكانت وشائج القربى مما يجعل كثيراً من اهلها ضالعين مع القائمين بها ولو لم يكونوا مندمجين فيها . والى هـــذا فقد كان اهل هذه المناطق غير مخلصين في خضوعهم للسلطان الاموي وانما كان خضوعاً للأمر الواقع فكان كل ذلك مما يساعد على تكرر الوقائع واستشراء الحركات . ولقد كانت هذه الحالة غير خافية على معاوية ولا على ولاة العراق من قبله المغيرة بن شعبة وزياد بن ابي سفيان وعبيد الله بن زياد فجدوا في الامر وقابلوا الموقف بالشدة والصرامة . سواء أبالنسبة لأهل العراق ام بالنسبة للخوارج منهم حيث كانوا يوالون إنذارهم ووعيدهم للاولين ويحملونهم وزر الخوارج ويحملونهم على قتالهم وتخذيلهم اي يضربون الحديد بالحديــد وحيث كانوا يرسلون الحملات القوية التي يفوق عددها اعداد الخوارج اضعافاً كثيرة فيغلبون الشجاعـة بالكثرة . ومما كانوا يفعلونه إثارة شيعة علي على الخوارج وجعلهم من دعامات الحملات لان هؤلاء كانوا يتبرأون من علي وينالون منه وكان بدء ظهورهم ضده وهو اول من حاربوه فكان الشيعة يقـــاتلونهم بكل استماتة وقلب . وبذلك امكن ابقاء حركات الخوارج في عهد معاوية في نطاق ضيق والتغلب عليها .

ولقد بدأت أولى حركاتهم التي قلنا انها في أول خلافة معاوية في ناحية الكوفة . وقـد كان جماعة منهم قد اعتزلوا في شهرزور بعد معركة النهروان بزعامة فروة بن نوفل الاشجعي عددهم خمسماية فلما قدم معاوية الى الكوفة بعد المفاوضة مع الحسن والاتفاق على تنازل هذا له قالوا لبعضهم لقد جاء الان ما لا شك فيه فسيروا إلى معاوية فجاهدوه فأقبلوا حتى دخلوا الكوفة وكان ذلك في سنة ٤١ هـ فأرسل اليهم معاوية خيلا من خيل اهـــل الشام فكشفوا أهل الشام فقال معاوية لأهل الكوفة لا أمان لكم والله عندي حتى تكفوا بوائقـــكم (اي يكف كل منهم المنتسبين الى قبيلته) فخرج اهل الكوفة اليهم فانذروهم فلم يغن الانـذار فقاتلوا وشردوهم .

وقـد روى الطبري الذي يروي الخبر حواراً طريفاً بين الخوارج واهل الكوفة حيث

قال الخوارج للكوفيين (ويلكم ما تبغون منا . أليس معاوية عدونا وعدوكم . دعونا نقاتله فان أصبناه كفيناكم عدوكم وإن اصابنا كفيتمونا) ولكن الكوفيين ابوا إلا أن يكفوا أو يقاتلوهم خشية إنذار معاوية [1] . ولقد سحبت عشيرة اشجع صاحبها قهراً فتولى قيادة الخوارج شخص اسمه ابو الحوساء فقتل فتولى القيادة بعده حوثرة الاسدي فأرسل معاوية الى أبيه ليكفيه ابنه فأتاه وردعه فأبى فقال له أجيئك بابنك لعلك تراه فتحن اليه فقال له يا أبت انا والله إلى طعنة نافذة أتغلب فيها على كعوب الرمح اشوق مني إلى ابني ثم صرخ بأهل الكوفة الذين جاؤوا الى قتالهم قائلا يا أعداء الله بالامس كنتم تقاتلون معاوية لتهدموا سلطانه واليوم تقاتلون معه لتشدوا أزره . ثم حمل عليهم وهو يرتجز :

احمل على الجموع حوثرة فعن قريب ستنال المغفرة

فحمل عليه رجل من طي فقتله فرأى أثر السجود قد لوح جبينه . ثم تمكن الكوفيون من تشتيت شمل هذه الجماعة بعد الاثخان فيهم [2] .

ولقد عين معاوية المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة فلم يتشدد في التحري عنهم فاغتنموا الفرصة وأخذوا يتجمعون وشعر المغيرة بهم فاعتقل بعضهم وانذرهم ثم اطلق سراحهم فعادوا الى التجمع فجمع المغيرة الناس وخطبهم قائلا (قد علمتم ايها الناس إني لم ازل احب لجماعتكم العافية واكف عنكم الاذى وإني والله لقد خشيت ان لا اجد بداً من ان يغصب الحليم التقي بذنب السفيه الجاهل فكفوا ايها الناس سفهاءكم قبل ان يشمل البلاء عوامكم . وقد ذكر لي ان رجالاً منكم يريدون ان يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف . وأيم الله لا يخرجون في حي من احياء العرب في هذا المصر إلا أبدتهم وجعلتهم نكالا لمن بعدهم فلينظر قوم لانفسهم قبل الندم فقد قمت في هذا المقام إرادة الحجة والاعذار) فخرج رؤساء العشائر إلى ابناء عشائرهم فناشدوهم الاسلام ان يدلوهم على من يريد اهاجة الفتنة ومفارقة الجماعة . وخطب صعصعة بن صوحان احد زعماء الشيعة في هذا الصدر محرضاً على من يريد الفتنة والخروج . فلم يمنعهم هذا من الحركة .

وممن سجل لهم حركة في اوائل حكم المغيرة في انحاء الكوفة جماعات قليلة العدد كانت

---

(١) الطبري ج ٤ ص ١٢٦ - ١٢٧

(٢) انظر صحف جزء تاريخ الطبري المذكور سابقاً تاريخ ابن الاثير ج ٣ ص ١٦٤

تعلن خروجها واحدة بعد اخرى . واحدة بقيادة شبيب بن بجرة وثانية بقيادة شخص اسمه معين وثالثة بقيادة شخص اسمه ابو مريم ورابعة بقيادة شخص اسمه ابو ليلى فكان المغيرة يرسل اليهم من يقاتلهم ويقتلهم [١] .

وسجلوا في انحاء البصرة في اوائل عهد ولاية زياد بن ابي سفيان حركتين واحدة بقيادة سهم بن غالب واخرى بقيادة الخطيم فطاردهم زياد وقتلهم [٢].

ثم سجلوا حركة قوية نوعاً بقيادة المستورد . فقد كان هـذا من الزعماء الذين سجنهم المغيرة ثم اطلق سراحه فتجمع الخوارج عليه فور ذلك وبايعوه بالخلافة . ثم قرروا التحول على الكوفة الى مكان اكثر تحرزاً وإعلان تمردهم فخرجوا الى مكان اسمه الصراة . وقد كان ممن بقي في سجن المغيرة من زعمائهم معاذ بن جوين . فلما علم بخروجهم ارسل اليهم من سجنه هذه القصيدة يحرضهم فيها على الجهاد :

ألا أيها الشارون قد حان لامرىء ... شرى نفسه لله ان يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة ... وكل امرىء منكم يصاد ليقتلا
فشدوا على القوم العداة فانما ... اقامتكم للذبح رأياً مضللا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي ... اذا ذكرت كانت أبر واعدلا
فيا ليتني فيكم على ظهر سابح ... شديد القصيرى دارعاً غير أعزلا
ويا ليتني فيكم اعادي عدوكم ... فيسقيني كأس المنية اولا
يعز علي ان تخافوا وتطردوا ... ولما أجرد في المحلين منصلا
ولما يفرق جمعهم كل ماجد ... اذا قلت قد ولى وادبر أقبلا
مشيحاً بنصل السيف في حمى الوغى ... يرى الصبر في بعض المواطن امثلا
وعز علي ان تضاموا وتنقصوا ... واصبح ذا بث اسيراً مكبلا
ولو أنني فيكم وقد قصدوا لكم ... اثرت اذاً بين الفريقين قسطلا
فيا رب جمع قد فللت وغارة ... شهدت وقرن قد تركت مجدلا .

ولما علم المغيرة بخروجهم وتجمعهم سير حملة قوية عليهم . فجمع المستورد كبار اصحابه واستشارهم فمال بعضهم الى الزوغان من وجه الحملة الى ان يستكملو أهبتهم ولكن المستورد

(١-٢) تاريخ ابن الاثير ج ٣ ص ١٦٥-١٦٧

أبي قائلا يا معشر المسلمين إني والله ما خرجت التمس الدنيا ولا ذكرها ولا فخرها ولا البقاء وما أحب انها لي بحذافيرها واضعافـما يتنافس فيه منها بقبال نعلي . وما خرجت إلا التماساً للشهادة وان يهديني الله الى الكرامة بهوان بعض اهل الضلالة . وقال بعضهم والله ما خرجنا نريد الا الله وجهاد من عادى الله وقد جاؤونا فأين نذهب عنهم بـــل نقيم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين . وهكذا تغلب رأي المجابهة على رأي الزوغان .

وفي هذا السياق تاييد لما قلناه من ان جمهور الناس كانوا ضد حركات الخوارج وانهم كانوا يعتبرونها فساداً وفتنة ويتعاونون مع السلطات عليها ثم تأييد لما قلناه كذلك من الفكرة المبدئية التي كانت تحرك الخوارج بقطع النظر عن انفقاد الامل في النصر والغلبة على خصومهم.

وقد أرسل المستورد إلى عامل المدائن كتاب الإنذار والتحذير الذي اوردنا نصه قبل . فلما قرأ العامل الكتاب قال لحامله اذهب الى صاحبك فقل له اتق الله في دماء المسلمين وان اراد ان اطلب له اماناً من المغيرة فعلت وسوف يكون سريعاً إلى الإصلاح محباً للعافية .

فلما رجع الرسول إلى المستورد وبلغه الرسالة تلا قول الله : (إن الذين كفروا سواء عليهم أءنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) ومن ثم أخذت الاشتباكات تقـــع بينهم في امكنة متعددة واحد بعد آخر .

وقد اسهب الطبري في تفصيلها وكان يتخللها محاورات عقائدية وتنديدية شديدة بـــين الطرفين . وكان المستورد يهتف بهم محمساً مذكراً . وكانوا يصولون صولات قوية وينالون من الجيش نيلا شديداً . وقد عالج فارس منهم اسمه ابو الرواغ مئة فارس من حملة المغيرة . وكان يحمل وهو يرتجز قائلا :

إن الفتى كل الفـتى من لم يهـــل	إذا الجبان حـاد عن وقع الاسل
قـــد علمت اني إذا البأس نزل	أروع يوم الهيج مقدام بطـــل

وفعل مثله فارس آخر اسمه عمير بن ابي اشاءة وكان يرتجز قائلا :

قد علمت أني إذا ما اقشعوا	عني والتاث اللئـــام الوضع

أحوس عند الروع ندب أروع

ثم طلب خليفتهم المستورد قائد الجيش واسمه معقل بن قيس إلى البراز وشد كل منهما على الآخر فقتله . وقت قتل المستورد في عضد أصحابه وكتب النصر في النهاية للجيش فقتلوا من الخوارج مقتلة كبيرة ووقع بعض رؤسائهم في الاسر وتشرد الباقون شذر مذر .

وكان جماعة من شيعة علي بقيادة شريك الاعور وغيره ممن قاتلوا الخوارج مع علي ابن ابي طالب يقاتلون مع الجيش بنفس القوة والعقيدة التي كان يقاتل بها الخوارج لما بين الفريقين من عداء عقائدي شديد فكان بالاضافة إلى تفوق الجيش عدداً ومدداً الاثر الحاسم في المعركة . وكانت هذه الاحداث سنة ٤٣ هـ[1] .

ولقد سجلت الروايات حادثين آخرين من حوادث الخوارج احدهما وقع سنة ٤٦ حيث روي أن الخطيم وسهم بن غالب الهجيمي خرجا فحكما في ناحية البصرة فطلبهم زياد فهربوا ثم ظفر بهم فقتلهم[2]. وثانيها وقع سنة ٥٠ حيث روي أن جماعة منهم خرجوا بقيادة شخصين اسم احدهما قريب وثانيها زحاف في ناحية البصرة ايضاً فجد نائب زياد في البصرة سمرة بن جندب في أمرهم وقتلهم قتلا ذريعاً[3] .

ثم سكنت حركتهم إلى سنة ٥٨ حيث يدل على أن الضربات التي نزلت فيهم كانت قاصمة . وقد أتاح هذا السكون لمعاوية أن يوالي اهتمامه لمصاولة الروم في حدود الاناضول وشمال افريقية على ما شرحناه في نبذة سابقة .

ثم تحركوا في سنة ٥٨ هـ فقد سجن بعض رؤسائهم الذين أسروا في الوقعة السابقة ولبثو في السجن معظم هذه المدة ثم اطلق سراحهم . وكان منهم حيان بن ظبيان ومعاذ بن جوين زميلي المستورد في الزعامة فبادروا إلى جمع إخوانهم المشردين وخطبوا فيهم وبايعوا حياناً على ما أوردناه في المثال الثاني في مطلع النبذة .

ولم يكونوا في أول أمرهم أكثر من مئة . واقترح بعضهم الخروج إلى مأمن مثل حلوان

---

(١) نبذة المستورد وخلفاؤه مقتبسة من الطبري ج ٤ ص ١٣٨–١٦٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٧٢ وتعبير (حكما) كان يطلق على حركة خروج الخوارج.

(٣) نفس المصدر ص ١٧٦–١٧٧ .

أو عين التمر حتى يأتي اليهم اخوانهم الذين هم على رأيهم فقال لهم امامهم الجديد : (إن عدوكم معاجلكم قبل اجتماع الناس ولن يتركوكم حتى تكثروا . وقد رأيت أن أخرج بكم في جانب الكوفة أو الحيرة ثم نقاتلهم حتى نلحق بربنا . واني والله لقد علمت أنكم لا تقدرون وأنتم دون المئة أن تهزموا عدوكم ولكن متى علم الله أنكم قد جهدتم أنفسكم في جهاد عدوه وعدوكم كان لكم به العذر وخرجتم من الاثم) .

فوافقه أكثرهم . وحينئذ هتف بهم قائلا : (إن الله قد جمعكم لخير وعلى خير . والله الذي لا إله غيره ماسررت بشيء قط في الدنيا بعد أن أسلمت سروري لمخرجي هذا على الظلمة الاثمه . فو الله ما أحب أن الدنيا بحذافيرها لي وان الله حرمني في مخرجي هذه الشهادة. فاستعدوا فاذا خرجوا اليكم ناجزتموهم) .وعني والي الكوفة ابن ام الحكم بأمرهم فاخرج اليهم حملة تمكنت من قتل معظمهم وتشريد باقيهم [1] .

ومع ذلك فقد قامت الفلول مع من انضم اليهم من أفراد بحركة جديدة بعد سنة . وقد بدأت بحادث فردي حيث وقف احدهم عروة بن أدية في مجلس لعبيد الله ابن زياد فقال له : (خمس كن في الامم قبلنا صرن فينا . أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين [2] .

وكان عبيد الله آنئذ في مشهد سباق فانصرف من المشهد ثم ارسل فاعتقل عروة وامر بقطع يديه ورجليه ثم قال له ما ترى الآن فأجابه افسدت دنياي وأفسدت آخرتك فقتله .

وتبع هذا الحادث خروج أخي عروة مرداس الملقب بأبي بلال وكان هذا ممن شهد حرب صفين مع علي ابن أبي طالب وخرج عليه بسبب التحكيم وقاتله في النهروان . وكان سجيناً في الكوفة فأطلق سراحه في هذه الظروف فاجتمع عليه نحو أربعين وبايعوه فخرج بهم إلى ناحية متربصاً . فمر بهم مال للدولة فأخذوا منه بعضه عنوة وقالوا للجباة قولوا لصاحبكم إنما أخذنا عطاءنا – وفي هذا صورة من صور حركة الخوارج – وقد أرسل اليهم عبيد الله بن زياد جيشاً فأرسل مرداس إلى قائده يقول له اتق الله فاننا لا نريد

---

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص ٢٢٩–٢٣١ .

(٢) من آيات في سورة الشعراء ١٢٨–١٣٠ .

قتالا ولا نروع أحداً وانما خرجنا من الظلم ولا نأخذ من الفيء الا عطاءنا ولا نقاتل الا من قاتلنا ـ وفي هذا صورة اخرى ـ فقال القائد لا بد من ردكم الى ابن زياد فقالوا له وان قتلنا قال وان قالوا فتشرك في دمائنا قال نعم فشدوا على الجيش حينئذ شدة رجل واحد فهزموه بعد ان اثخنوا فيه . وفي هذا يقول احدهم :

أءلفا مؤمن فيما زعمتم	ويهزمكم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم	ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك	على الفئة الكثيرة ينصرونا

فسير عليهم عبيد الله جيشاً آخر في ثلاثة آلاف فلما التقوا حمل مرداس وجماعته فلم تغن حملتهم هذه المرة . فقال لاصحابه من كان منكم انما خرج للدنيا فليذهب ومن كان منكم انما اراد الآخرة ولقاء ربه فقد سبق ذلك اليه فلم يفارقه احد وقتلوا عن آخرهم [١] .

ومن طريف ما يرويه الطبري وروائعه عن مرداس الذي كان يكنى بأبي بلال أن السجان كان يرى عبادته واجتهاده حين كان مسجوناً فكان يأذن له بالخروج بالليل احياناً فيخرج ثم يعود من نفسه اذا طلع الفجر . وعلم صديق له أن عبيد الله بن زياد اعتزم قتله وقتل من في السجن من الخوارج وكان ذلك الوقت خارج السجن فبلغه الخبر فما كان منه الا أن عاد الى سجنه كالعادة . فلما عاد ارتاع السجان وقال له ألم يبلغك ان ابن زياد اعتزم قتلك قال نعم قال له ثم غدوت الى سجنك قال نعم لانه لم يكن جزاؤك مع احسانك ان تعاقب بسببي . واصبح عبيد الله فجعل ينفذ عزيمته ويقتل الخوارج الذين في سجنه فلما دعا بمرداس وثب السجان الى ابن زياد فأخذ بقدمه ثم قال له هب لي هذا وقص عليه قصته فوهبه له واطلقه .

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٣١-٢٣٣و٣٦٠-٣٦١ وأدب الخوارج لسهير القلماوي ص ٥٣ وفي ادب الخوارج زيادة بيت في اول الابيات وهو :

فلما اصبحوا صلوا وقاموا	الى الجرد العتاق مسومينا

وقائل الشعر هو عيسى بن فاتك في ادب الخوارج ورجل من تيم الله بن ثعلبة في الطبري . وآسك اسم المكان الذي التقى فيه جماعة مرداس مع الجيش الاموي .

وقد رثى شاعر الخوارج عمران بن حطان ابابلال في هذه الابيات :

يا عين بكي لمرداس ومصرعـــه	يا رب مرداس اجعلني كمرداس
تركتني هائمـــاً ابـكي لمرزأني	في منزل موحش من بعدأيناس
انكرت بعدك من قد كنت تعرفه	ما الناس بعدك يا مرداس بالناس
اما شربت بكأس دار اولهـــا	على القرون فذاقوا جرعة الكأس
فكل من لم يذقها شارب عجلا	منها بأنفاس ورد بعد انفاس

ادب الخوارج ص ٩٠

ويروي اليعقوبي خبر بعض حركات اخرى في زمن معاوية للخوارج غير التي يرويهـــا الطبري ولخصناها عنه . من ذلك خروج جماعة منهم في البصرة في ولاية زياد بن ابي سفيان في وقت كان فيه هذا في الكوفة . وكانوا بقيادة شخصين اسم احدهما قريب والثاني زحاق وقد استعرضا الشرط فقتلوا منهم خلقاً عظيما وصاروا الى المسجد الجامع فقتلوا فيه خلقاً من الناس ومالوا الى القبائل ففعلوا مثل ذلك فأرسل اليهم نائب زياد عبيد الله بن ابي بكرة حملة فلم يكن لها بهم طاقة . واقبل زياد فخطب باهل البصرة قائلا : (ما هذا الذي اشتملتم عليه ، اني اعطي عهد الله لا يخرج علي خارجي بعدها فادع من حيه وقبيلته أحداً فاكفوني بوائقكم فتعاونوا معه على قمع الحركة[1] .

ومن ذلك خروج جماعة من الموالي في ولاية المغيرة بن شعبه في الكوفة وكانت اول خارجة خرجت فيها الموالي وكان اميرها شخصاً اسمه ابو علي مولى لبني الحارث فأرسل المغيرة قوة لقتالهم فناداهم قائدها قائلا يا معشر الاعاجم هذه العرب تقاتلنا على الدين فما بالكم .

فأجابوه (إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ، وإن الله قد بعث نبيه للناس كافة ولم يزوه عن أحد) فقاتلهم فقتلهم[2] .

---

(١) ج ٢ ص ٢٠٧ مطبعة الغرى .

(٢) نفس المصدر ص ١١٧ .

وروى ابن الاثير[1] حركة خروج في عهد عبيد الله بن زياد قادها شخص اسمه طواف بن غلاق في ناحية البصرة فقاتلهم عبيد الله وقتلهم .

ولقد فتر نشاط الخوارج بضع سنين بعد ذلك بسبب ما كان من صرامة ابن زياد وعزيمته على مطاردتهم واستئصالهم وتحميل وزرهم وكفاحهم لقبائلهم .

فلما اعلن ابن الزبير خلع يزيد في مكة واخذ لنفسه البيعة على ما سوف نشرحه في نبذة خاصة انصرف تفكيرهم إليه وقال أحد زعمائهم نافع بن الازرق لاصحابه اخرجوا بنا إلى مكة لنلقى هذا الرجل فان كان على رأينا جاهدنا معه العدو . وإن لم يكن دافعنا عن البيت ما استطعنا ونظرنا بعد ذلك في امورنا . فذهب جماعة منهم الى مكة على رأسهم نافع هذا وعبد الله بن إباض وعبد الله بن صفا ونجدة العامري .

وقد رحب بهم ابن الزبير وسر بقدمهم وحدثوه فقال لهم إنه على رأيهم واعطاهم الرضا بدون توقف وكان جيش يزيد محاصراً لمكة فقاتلوا معه حتى مات يزيد وارتد جيشه .

ثم رأوا ان يسبروا حقيقة بن الزبير فجاؤوا اليه وكلموه وبينوا رأيهم المتمثل في الرضاء عن ابي بكر وعمر لانهما سارا بسيرة النبي والتزما كتاب الله والبراءة من عثمان لانحرافه عن ذلك والبراءة من علي وطلحة والزبير وعائشة . وفي جعل الامر شورى بين المسلمين يختارون من يرونه الاصلح والاتقى على الكتاب وسنة الرسول ومجاهدة البغاة . وطلبوا بيان رأيه في ذلك فأجابهم في شأن عثمان وعلي وطلحة والزبير وعائشة اجابة لم ترضهم واعلن ولايته لهم وبرأ عثمان مما نسبوه اليه . وحينئذ قالوا له بريء الله منك يا عدو الله فرد الكلمة عليهم .

وقد غادروا بعد ذلك مكة فذهب بن الازرق وابن اباض وابن صفار ومعهم جماعة من انصارهم إلى البصرة وذهب نجدة ومعه جماعة إلى اليمامة حيث بسطوا سلطانهم عليها تحت إمامة نجدة العامري[2] .

---

(١) ج ٤ ص ٢٠٢ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٤٣٦-٤٣٩ .

ولقد كان العراق في هذه الآونة في بلبلة وفراغ. ولقد حاول عبيد الله بن زياد الاستمساك وجمع الناس عليه إلى ان يجتمع امرهم على خليفة فلم يستطع فخرج من العراق. وأخذت كل ناحية فيه تقيم على رأسها حاكماً.

وقال فريق من الخوارج لبعضهم يجب علينا الخروج والدعوة الى سبيل الله والجهاد واجتمعوا على نافع بن الازرق وبايعوه بالخلافة. وتخلف عنه ابن اباض وابن صفار مع جماعة اخرى.

وقد اعتبر ابن الازرق الناس الذين ليسوا على رأيه مشركين واوجب قتالهم وحرم المقام بين أظهرهم وإجازة شهادتهم وأكل ذبائحهم ومناكحتهم ومواريثهم.

فوافقه الذين بايعوه على ذلك وبعث بكتاب به الى ابن اباض وابن صفار فلم يوافقوه وقال ابن اباض ان الناس الآخرين ليسوا مشركين وانما هم كفار بالنعم والاحكام ولا يحل لنا إلا دماؤهم وما سوى ذلك من اموالهم فهو علينا حرام. وقال ابن صفار لابن أباض بريء الله منك فقد قصرت وبريء الله من ابن الازرق فقد غلا فرد عليه ابن اباض بل الله قد بريء منك فتفرق الزعيمان عن بعضهما كل مع جماعته، وصار لكل منهم مذهب [1].

ثم اخذ ابن الازرق ينشط وتجمع حوله نحو ثلاثمئة فاستولوا على الاهواز واقاموا فيها حكومة ثم اخذوا يحاولون بسط سلطانهم على البصرة وغيرها. واظهروا عداءهم لابن الزبير الذي اخذت دعوته تنتشر في العراق وللأمويين على السواء. وصار خليفتهم يرى قتال كل من لا يندمج في حركته ويدخل في بيعته وسلطانه مشركاً او مرتداً ويوجب قتاله ويستحل دمه وعرضه وماله ويقتل نساءه واطفاله وصار يمتحن الناس على ذلك.

وما رواه الطبري من ذلك ان الخوارج الازارقة شنوا الغارة على اهل المدائن فقتلوا الولدان والنساء والرجال وبقروا الحبالى ثم اقبلوا الى ساباط فوضعوا اسيافهم في الناس فقتلوا أم ولد لربيعة بن ناجذ. وبنانة ابنة ابي يزيد الأزدي وكانت قرأت القرآن فلما غشوها بالسيوف قالت ويحكم هل سمعتم بأن الرجال تقتلون النساء ويحكم تقتلون من لا يبسط اليكم يداً ولا يريد بكم ضراً ولا يملك لنفسه نفعاً قال بعضهم اقتلوها وقال آخر لو تركتموها فقال له بعضهم اعجبك جمالها يا عدو الله قد كفرت وافتتنت ثم حملوا عليها فقتلوها. ووجدوا

---

(١) ٤٣٩–٤٤٠ وابن الاثير ج ٤ ص ٦٤ وبعدها.

شخصاً عند الحرارة ومعه ابنته فقتلوها ثم قتلوه [١] . فأثار هذا أهل منطقة البصرة وحفزهم على مكافحته ، وكانت وقائع عديدة بين هؤلاء وهؤلاء اقتتل الطرفان فيها بشدة وانهزم اهل البصرة اكثر من مرة من امام الخوارج .

وقتل ابن الازرق في بعض المعارك فبايع اتباعه عبد الله بن الماخوز بالامامة . واستمر هذا على خطة سلفه ورأيه واستمرت المصاولة بينه وبين اهل البصرة بنفس الشدة .

وقتل عبد الله في احدى الجولات فبايعوا أخاه عبيد الله واستمروا في المصاولة بكل شدة وعنف مما افزع اهل البصرة وهالهم فلجأوا الى المهلب بن ابي صفرة الذي كان والياً على خراسان في زمن معاوية ثم في زمن ابنه يزيد وانسحب الى البصرة بعد موت يزيد ليقيم بين قومه فيها . وكان من رجالات العرب المعدودين اقداماً وحزماً ودهاء وشجاعة وبصيرة في الحرب ويمن نقيبة .

وقد ذكرنا ما كان منه من ذلك في نبذة الحركات والفتوح في خراسان وما وراءها . وطلبوا منه ان يتولى قيادة قتال الازارقة فاشترط عليهم ان يكون له حكم ما غلب عليه من بيت المال ما يحتاج اليه وان ينتخب من الفرسان والرجال ما يريد فوافقوه وكتبوا له بذلك وارسلوا وفداً الى ابن الزبير فاخذوا موافقته ايضاً وحينئذ اخذ يشتبك مع الخوارج في صراع مرير مديد حتى لقد ذعر منه الخوارج على شدة صولتهم وضراوتهم واستبشر الناس حتى قال قائلهم :

كرنبوا ودولبـــوا وحيث شئتم فاذهبوا

قـــد أمر المهلب

ومع ذلك فقد صمد الخوارج له وكانوا يتساجلون معه فيكون يوم له ويوم لهم . وكان يجري في اثناء ذلك بين الفريقين محاورات يندد فيها بعضهم ببعض ويصمون بعضهم بعضاً بالفسق والكفر . وكان عدد الفريقين يصل الى الآلاف وضحاياهم تعد بالآلاف مما فيـــه

---

(١) هذه امثلة اخرى تضاف الى الامثلة التي اوردناها قبل والتي تثير بالغ الدهشة والاشمئزاز ان صحت .

دلالة على كل حال على شدة ضراوة القتال المتقابل . وقد سجل المهلب عليهم نصرا قوياً وكتب بذلك كتاباً الى والي ابن الزبير باالبصرة يصف فيه له ماكان من سير القتال وتشريد الازارقه في ارض الاهواز بعد قتل مقتلة كبيرة منهم . غير ان هذا النصر لم يكن حاسماً حيث تجمعوا بعد مدة وبايعوا الزبير بن الماحوز بديلا من اخيه عبد الله الذي قتل في المعركة وصاروا الى بلاد فارس فتصدى لهم واليها و تمكن من هزيمتهم فصاروا الى اصطخر فتصدى لهم واليها كذلك وهزمهم فصاروا الى أصبهان وكرمان . ثم عادوا ثانية الى ناحية البصرة . وكان ابن الزبير قد عين المهلب والياً على الموصل والجزيرة ليكون بين العراق والشام وعين اخاه مصعباً والياً للعراق فتصدى هذا لهم وصاولهم . وقتل امامهم الزبير فبايعوا قطري بن الفجاءة [1] الذي كان من اشد زعماءالازارقة إقداماً و شدة و فصاحة وتأثيراً [2] والذي

---

(١) الفجاءة اسم امه وهو بطن تميم من بني شيبان

(٢) من الشعر المأثور عن قطري ويتمثل فيه بأسه وفصاحته :

١-أقول لها وقدطارتشعاعاً	من الابطال ويحك لن تراعي
فانك لو سألت بقاء يوم	على الاجل الذي لك لن تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً	فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز	فيطوى عن اخي الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حي	فداعية لاهل الارض داع
ومن لايعتبط يسأم ويهرم	وتسلمه المنون الى انقطاع
وما للمرء خير من حياة	إذا ما عد من سقط المتاع
٢-لايركنن احدالىالاحجام	يوم الوغى متخوفاً لحمام
فلقد أراني للرماح دريئة	من عن يميني مرة وأمامي
حتى خضبت بما تحدر مندمي	إكفاف سرجي او عنان لجامي
متعرضاً للموت اضرب معلماً	شاهر الحروب شهر الاعلام
ادعوالكماة الىالنزالولا ارى	نحر الكريم على التنا بحمام
ثمانصرفتوقداصبتولم اصب	جذع البصيرة قارح الاقدام
٣- لعمرك إني فيالحياة لزاهد	وفيالعيش ما لم ألق ام حكيم

استمرت امامته و قيادته ومصاولاته بضع سنين كان فيها للخوارج صولات شديدة لقي الناس والدولة منها عنتاً شديداً لمدة طويلة .

وكل هذا بينما كان العراق يموج بالحركات الاخرى من حركة ابن الزبير الى حركة الشيعة الذين تحركوا لاخذ ثأر الحسين إلى حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي الى حركة الحملات الاموية التي قاد اولاها عبيد الله بن زياد واخراها عبد الملك بن مروان على ماسوف يأتي شرحه في نبذ اخرى . فلما تمكن عبد الملك من الانتصار على مصعب بن الزبير وقتله وتوطيد سلطانه على العراق في سنة ٧٢ هـ جد في نضال الخوارج الازارقة الذين عادوا الى انحاء البصرة بعد المصاولات التي جرت بينهم وبين بلاد فارس وكرمان واصطخر على ما ذكرناه قبل قليل فأمر أخاه بشر الذي كان والياً على العراق بالجد بأمرهم وامر هذا والي البصرة بذلك فأرسل

من الخفرات البيض لم ير مثلها — شفاء لذي بث ولا لسقيم
لعمرك إني يوم الطم وجهها — على نائبات الدهر جد لئيم
ولو شهدتني يوم دولاب ابصرت — طعان فتى في الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائل — وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس اول جدها — واحلافها من يحصب وسليم
وظلت شيوخ الازد في حومة الوغى تعوم وظلنا في الجلاد نعوم
فلم ار يوماً كان اكثر مقعقعاً — يمج دماً من فائظ وكليم
وضاربة خداً كريما على فتى — أغر نجيب الامهات كريم
اصيب بدولاب ولم تك موطناً — له ارض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا — تبيح من الكفار كل حريم
رات فتية باعوا الاله نفوسهم — بجنات عدن عنده و نعيم

٤ - الا ايها الباغي البراز تقربن — اساقك بالموت الزعاف المتشبا
فما في تساقي الموت في الحرب سبة — على شاربيه فاسقني منه واشربا

٥ - هناك خطبة طويلة بليغة معزوة له وردت في العقد الفريد وفي البيان والتبيين . وهي في ذم الدنيا والدعوة الى الله والجهاد وحساب الاخرة . وقد قال الجاحظ ان الناس يروونها لامير المؤمنين علي بن ابي طالب واني رأيتها في كتاب الموفق للمزرباني مروية له وهي بكلامه أشبه . وليس يبعد عندي ان يكون قطري قد خطب بها بعد ان اخذها من اصحابه وانصاره وقد لقي قطري اكثرهم . ولذلك لم نوردها .
انظر ادب الخوارج لسهير القلماوي ص ٥٦ — ٧٤

حملة مع أخيه فهزمت فأرسل ثانية فهزمت فكتب عبد الملك إليه يندد به ويقول كيف تبعث اعرابياً مثل اخيك لقتال الازارقة وتدع المهلب الى جنبك وهو الميمون النقيبة الحسن السياسة البصير بالحرب المقاسي لها ابنها وابن ابنائها . ويأمره بايكال حربهم اليه وبأن لا يفعل شيئاً إلا برأيه ومشورته وأمر أخاه بشراً بمد المهلب بما يحتاج اليه من من مال ورجال . فعادت المصاولات لتشتد بينهم .

ومن طريف ما يرويه الطبري محاورة جرت بين الخوارج والجيش الذي يقاتلهم حيث بلغ الخوارج قبل الجيش ان مصعباً بن الزبير قتل فنادوا خصومهم وسألوهم ما قولكم في مصعب فقالوا لهم امام هدى قالوا فهو وليكم في الدنيا والآخرة وأنتم اولياؤه احياء وامواتاً قالوا نعم فقالوا ما قولكم في عبد الملك بن مروان قالوا ذلك ابن اللعين نحن الى الله براء منه وهو احل دماً منكم عندنا فقالوا فأنتم منه براء في الدنيا والآخرة قالوا نعم فقالوا لهم إن امامكم مصعباً قد قتله عبد الملك ونراكم ستجعلون غداً عبد الملك امامكم وأنتم الآن تتبرأون منه وتلعنون أباه قالوا كذبتم يا اعداء الله فلما كان الغد تبين لهم قتل مصعب واخذ المهلب من الجيش البيعة لعبد الملك فأتاهم الخوارج فسألوهم عن قولهم في مصعب فكرهوا أن يكذبوا أنفسهم فسألوهم عن قولهم في عبد الملك فقالوا انه امامنا وخليفتنا فقالوا لهم يا أعداء الله تتبرأون منه بالامس وتتولونه اليوم فقالوا لهم بل أنتم أعداء الله رضينا بذاك اذا كان ولي امرنا ونرضى بهذا اذا صار ولي امرنا [1] .

ولقد استطاع الازارقة بقيادة قطري أن يصمدوا هذه المرة بضع سنين امام المهلب . ومات بشر بن مروان فعين عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفي مكانه وامره بتعضيد المهلب والاهتمام لحسم حركة الخوارج . فما أن وصل العراق حتى باشر تنفيذ الامر . ولقد كان قدومه اولا الى الكوفة سنة ٧٥ فدعا الناس فور وصوله الى الاجتماع وصعد المنبر وكان

---

(١) ج ٥ ص ١٥-١٦ والسياق يفيد ان المحاورة جرت والمهلب قائد الناس مع ان عبد الملك هو الذي عينه وكان ذلك بعد مقتل مصعب فان كان للمحاورة اصل فتكون في مرحلة سابقة لهذه المرحلة وحينما كان قتال الخوارج يجري باشراف مصعب بن الزبير . والله اعلم . وفي الطبري محاورات كثيرة كانت تجري اثناء القتال بين بعض الخوارج وافراد الجند الذين كانوا يقاتلونهم مماثلة لهذه . ومن المستبعد ان يكون كل ذلك مصنوعاً واحتمال صحته اجمالا قوي .

معتماً بعمامة خز حمراء ومتلثماً ببعض عمامته . فلما اجتمع الناس في المسجد الجامع ظنوه أحد قواد الخوارج فهموا به فكشف عن وجهه ثم خطب خطبته الشهيرة التي نرجح أن لها أصلا لاشتهارها وروايتها في معظم الكتب القديمة . وقد بدأها قائلا :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا　　　متى أضع العمامة تعرفوني

ثم قال أما والله إني لاحمل الشرّ محمله . واخذوه بنعله . واجزيه بمثله . وإني لارى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها . وإني لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى وانشد راجزاً :

هذا اوان الشد فاشتدي زيم　　　قد لفها الليل بسواق حطم

ليس براعي ابل ولا غنم　　　ولا بجزاز على ظهر وضم [1]

قد لفها الليل بعصلبي　　　أروع خراج من الدوي

مهاجر ليس بأعرابي

ليس أوان يكره الخلاط　　　جاءت به والقلص الاعلاط

. تهوي هوي سابق الغطاط

إني والله يا اهل العراق ما اغمز كتغماز التين ولا يقعقع لي بالشنان ، ولقد فررت عن ذكاء وجريت إلى الغاية القصوى . إن امير المؤمنين عبد الملك نثر كنانته ثم عجم عيدانها فوجدفي أمرها عوداً واصلبها مكسراً فوجهني اليكم فانكم طالما اوضعتم في الفتن وسننتم سنن البغي . أما والله لألحونكم لحو العود . ولأعصبنكم عصب السلمة . ولاضربنكم ضرب غرائب الابل . إني والله لا أعد إلا وفيت ولا أخلق إلا فريت [2] . فاياي وهذهالجماعات .

---

(١) فسر الطبري الذي ننقل عنه : ابن جلا الذي يجلو الصبح اي الفجر والثنايا ما صغر من الجبال . وزيم الحرب . والوضم ما وقي به اللحم من الارض .

(٢) فسر الطبري العصلبي بالشديد والدوي الارض الفضاء التي تسمع بها اصوات سير الابل والاعلاط والقلص من اسماء وصفات الابل والشنان التربة اليابسة يدق عليها للتنبيه وعجم عيدانها تفقدها واستعرضها واوضعتم سارعتم لاعصبنكم عصب السلمة اقطعكم كما تقطع شجرة العضاه ولا اخلق الافريت لا اقدر على عمل شيء الا عملته باقوى ما يمكن .

وقيلا وما يقول - فيم أنتم وذاك . والله لتستقيمن على سبل الحق او لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده . من وجدت بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه وانهبت ماله [1].

ومما يروى انه امر الكاتب فقرأ كتاب عبد الملك بتوليته و كان يبدأ بالسلام فلم يقل احد (وعليكم السلام) فأمر الكاتب بالتوقف ثم قال يا عبيد العصا ايسلم عليكم امير المؤمنين فلا يرد راد منكم السلام . هذا أدب ابن نهية [2] . اما والله لاؤدبنكم غير هذا الادب . ثم امر الكاتب بالتلاوة من جديد فلم يبق احد الا قال وعلى امير المؤمنين السلام .

ومما روي ان شخصاً قال للحجاج انا في هذا البعث وانا شيخ كبير وهذا ابني اشب مني فتوسم بالرجل ثم قال له الست انت الذي غزا امير المؤمنين عثمان قال بلى - وكان من الجماعات التي ذهبت الى المدينة ناقمة على عثمان واسمه عمير بن ضابىء التميمي - قال وما حملك على ذلك قال كان حبس ابي وهو شيخ كبير . فقال او ليس انت الذي يقول :

هممت ولم افعل وكدت وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائله

اني لأحسب في قتلك صلاح المصرين . قم اليه يا حرسي فاضرب عنقه . ثم كرر انذاره بأنه من بقي بعد ثلاثة ايام من بعث المهلب ولم يلتحق به فسوف يقتل فخرج الناس وازدحموا على الجسر وخرج العرفاء إلى المهلب ليأخذوا منه كتباً بموافاة افراد البعث حتى لقد خرج في ليلة واحدة اربعة آلاف . وحتى قال المهلب : اليوم قدم العراق رجل ذكر وحتى قال احد الشعراء :

اقول لابراهيم لما لقيته ... ارى الامر امسى مهلكا متصعبا
تجهز فاما ان تزور ابن ضابىء ... عميراً وإما ان تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما ... ركوبك حولياً من البلج اشهبا
فاضحى ولو كانت خراسان دونه ... رآها مكان السوق او هو اقربا

---

(١) ويروي الطبري نصا آخر او زيادات اخرى على الخطبة . فاكتفينا بما اوردناه .

(٢) الارجح ان المقصود هو عبيد الله بن زياد .

والا فما الحجاج مغمد سيفه مدى الدهر حتى يترك الطفل اشيبا[1]

ثم انتقل الحجاج إلى البصرة فخطب بالناس خطبة مماثلة وانذر المتخلفين عن المهلب بمثل ما انذر اهل الكوفة . واتي برجل متخلف فقال ان بي فتقاً وقد رآه بشر فعذرني وهذا عطائي مردود في بيت المال فلم يقبل منه وقتله ففزع اهـــل البصرة كذلك وتزاحموا على الخروج والالتحاق بالمهلب [2].

ونستطرد الى ذكر حادث تمرد ضد الحجاج في البصرة وقع بعد قدومه اليهـــا بقليل . فقد كان ابن الزبير قد زاد في عطاء الناس مئة مئة . فقال الحجاج في خطبة له ان ابن الزبير قد زاد ما زاده نفاقاً وإني معيد العطاء إلى ما كان عليه قبل فوقف احـــد الزعماء عبد الله ابن الجارود فرد على قول الحجاج فرد عليه الحجاج متوعداً منذراً . ووقف زعيم آخر فأعلن السمع والطاعة .

غير ان وجوه الناس جاؤوا إلى ابن الجارود وصوبوا رأيه وقالوا له هلم نبايعك عـــلى اخراجه والكتابة الى عبد الملك لارسال غيره فان ابى خلعناه ايضاً . ولن يأبى لانه هائب ما دام الخوارج ناشطين واعطوه المواثيق على ذلك . ثم تجمعوا وخرجوا يريدون ارغـــام الحجاج بالقوة على الذهاب مع اختلافهم على القتال . ولم يكن وقت خروجهم حول الحجاج قوة ما تمنعه فوصل الامر بهم الى نهب فسطاطه ومتاعه ثم اكتفوا بذلك وانصرفوا بسبب خلافهم على قتاله . واختلف اخصاء الحجاج في الامر فاقترح بعضهم اخـــذ امان للحجاج وخروجه بالسلام غير أن زعيما آخر رفض ذلك وذكر الحجاج بما صار له من منزلة وكرامـة في نظر امير المؤمنين وسيقضي فراره عليها ابداً وستعود العراق ثانيـــة الى الفتن والفوضى وقال له أرى ان نمشي بسيوفنا معك فنقاتل حتى نظفر او نموت نأخذ بهـــذا الرأي واغتنم

---

(١) يروي الطبري قول المهلب هذا في تزاحم اهل البصرة على الخروج والالتحاق بالمهلب ايضا . ومن الممكن ان يكون ذلك متكرراً . والمتبادر ان الرواية الثانية اوجه لان المهلب انما كان يقاتل في جبهة البصرة .

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٧١-٧٢ .

فرصة كف الناس عن قتاله فأخذ يجمع الناس حتى لم يصبح الصباح الا وكان حوله ستة آلاف. وندم ابن الجارود واصحابه على كفهم ولكن فرصتهم قد فاتت ولم يبق مناص من القتال فاشتبك الطرفان في قتال عنيف بضع ساعات وكادت الدائرة تدور على الحجاج لولا أن اصاب ابن الجارود سهم أرداه فأدى ذلك إلى اضطراب اصحابه وهزيمتهم. وجنح الحجاج إلى عدم توسيع الامر لان حركة الخوارج كانت مشتدة. وهو في حاجة الى الرجال والقلوب فأمر مناديا ينادي بالامان وبعدم تتبع المنهزمين فثاب الناس. واحتز رأس ابن الجارود وثمانية عشر من اصحابه وارسل الرؤوس إلى المهلب لينصبها ويراها الخوارج وغيرهم وييأسوا.

ولقد كان عبد الله بن انس بن مالك من جملة المنضمين إلى ابن الجارود والقتلى. وعلم الحجاج أن اباه رضي الله عنه كان محبذاً انضمامه فصادر امواله في البصرة. وجاء اليه فخاطبه بشدة وقال له فيما قال شيخ ضلالة وجوال فتن. مرة مع ابي تراب ومرة مع ابن الزبير ومرة مع ابن الجارود فلأجردنك جرد القضيب. ولأعصبنك عصب السلمة ولاقلعنك قلع الصمغة. فكتب انس الى عبد الملك يشكو معاملة الحجاج له فكتب عبد الملك الى الحجاج يؤنبه ويأمره بالاعتذار اليه واسترضائه فصدع بما أمر على ما ذكرناه في سيرة عبد الملك [1].

وإذا لاحظنا ان هذه الحركة قامت ولم يمض على وجود الحجاج في العراق الا مدة قصيرة ظهر ان حافزها إنما كان ذهنية اهل العراق اكثر من اي شيء آخر وهي ذهنية وصفها زياد وابنه على ما ذكرناه قبل ثم وصفها الحجاج في مناسبة تمرد عبد الرحمن بن الاشعث على ما سوف يأتي شرحه في نبذة خاصة اكثر من اي شيء آخر.

ولا يبرر الحركة انضمام احد اصحاب رسول الله اليها فهو بشر قد يخطيء وقد يصيب وقد يتأثر بروح البيئة التي يعيش فيها. وموقف الحجاج منه مهما اتسم بالغلظة فهو مستمد من الحنق الذي اثارته هذه الحركة التي كادت تغرق العراق في الفتنة والفوضى كما هو المتبادر.

ولقد كان في حوض الفرات الجنوبي وفي انحاء البصرة جماعات من الزنج. فخرج منهم

---

(١) الطبري ذكر حركة ابن الجارود مقتضبا وابن الاثير ذكرها مفصلة ونحن لخصناها عن هذا الاخير انظر تاريخ الطبري ج ٥ ص ٤٥–٤٨ وتاريخ ابن الاثير ج ٤ ص ١٤٧–١٥٠.

جماعة في اواخر ايام مصعب فضربهم والي البصرة ضربة شديدة. فلما قامت حركة ابن الجارود اغتنموا الفرصة فتحركوا بزعامة رجل اسمه رباح ويلقبونه بلقب شير زنجي وشير كلمة فارسية بمعنى الاسد فأخذوا يعيثون في الارض فساداً. فلما فرغ الحجاج من فتنة ابن الجارود ارسل اليهم جيشاً فضربهم بدوره ضربة حاسمة[١] .

ونعود إلى سياق المصاولة مع الخوارج فنقول انهم كانوا في الظرف الذي قدم فيه الحجاج إلى العراق مسيطرين على الاهواز وكرمان وما اليها من الانحاء الجنوبية الموالية لمنطقة البصرة فاتخذ المهلب نيسابور مركزاً لقيادتـــه ثم أخذت كتائبه تشتبك مع كتائبهم في معارك ضارية. وكان ابناء المهلب يزيد والمفضل وحبيب والمغيرة يقودون الكتائب لضمان صدق الجهاد وجده وهم في الوقت نفسه مثل أبيهم ابطال مغاوير . وصمد الخوارج مع ذلك برغم ما كان ينزل فيهم من ضربات ويتكبدونه من خسائر فادحة واستمر النضال نحو ثمانية عشر شهراً . وكان لقيادة قطري وصولاته وبسالته أثر كبير في هذا الصمود . وسجلت المرأة العربية في هـذه الحركة وجودها بقوة حيث روي اسم ام حكيم في عداد المقاتلين مع قطري وفي الشعر المروي عن قطري . وقد روى عنها صاحب الأغاني أنها كانت من اشجع الناس واجملهم وجهـاً واحسنهم بدينهم تمسكا . وانها كانت تحمل على جند الدولة وهي ترتجز :

احمل رأساً قد سئمت حمله   وقـــد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عني ثقله

وكان الخوارج يفدونها بالآباء والامهات وانه لم ير مثلها قبلها وبعدها [٢] .

ومما يرويه المسعودي وفيه دلالة على قوة تأثير دعاية الخوارج وفكرتهم انه كان شخص اسمه سبرة بن الجعد اتخذه الحجاج سميراً له ونديماً بعد ان اعجبه عقله وادبه . وكان يرى رأي

---

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ١٥٠ .

(٢) ادب الخوارج ص ٦٥ وليس في سياق الكلام عنها ما يفيد بيان صلتها بقطري مع انه ذكرها في شعره باسلوب قد يفيد انها وثيقة الصلة به ،وهو الشعر الذي رويناه سابقا .

الخوارج. فأرسل إليه قطري هذه الابيات:

لشتان مـا بين ابن جعد وبيننا … إذا نحن رحنا في الحديد المظاهر
نجاهـد فرسان المهلب كلنـا … صبور على وقع السيوف البواتر
وراح يجر الخز عنـد اميره … امـير بتقوى ربه غـير آمر
ابا الجعد ابن العلم والحلم والنهى … وميراث آباء كرام العنـاصر
ألم تر أن الموت لا شك نازل … ولا بد من بعث الألى في المقابر
حفاة عراة والتراب لديهـم … فمن بين ذي ربح وآخر خاسر
فان الذي قد نلت يغني وإنمـا … حياتك في الدنيـا كوقعة طائر
فراجع أبا جعـد ولاتك مغضياً … على ظلمة أعشت جميع النواظر
وتب توبـة تهدي اليك شهادة … فانك ذو ذنب ولست بـكافر
وسر نحونا تلق الجهاد غنيمة … تفدك ابتياعاً رابحاً غير خاسر
هي الغاية القصوى الرغيب ثوابها … إذا نال في الدنيا الغنى كل تاجر

فلما قرأ الابيات بكى وركب فرسه واخذ سلاحه ولحق بقطري وترك للحجاج ابيات قطري وتحتها هذه الابيات التي تحتوي وصفاً قوياً لفكرة الخوارج وقوتهم وعبادتهم:

فمـن مبلغ الحجاج ان سميره … قلى كل دين غير دين الخوارج
رأى الناس إلا من رأى مثل رأيه … مـلاعين تراكين قصد المخارج
فاقبلت نحو الله بالله واثقـاً … وما كربتي غير الاله بفارج
الى عصبة امـا النهـار فانهم … هم الاسد اسد الغيل عند التهايج
وأما إذا ما الليل جن فانهم … قيـام بانواح النساء النواشج
ينادون للتحكيم لله انهـم … رأوا حكم عمرو كالرياح الهوائج
وحكم ابن قيس مثل ذاك فاعصموا … بحبل شديد المتن ليس بناهج [1]

ثم نشب بين الخوارج الازارقة نزاع أدى إلى انقسامهم. فقد قتل رجل منهم رجلا.

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٧٧–٧٨.

فطلب اولياء القتيل القصاص فأبى قطري وقال ان القاتل كان متأولا . فلم يرضهم جوابه . وتمردوا عليه وتابعهم آخرون . فأعلنوا خلع قطري . وبايعوا زعيما اسمه عبد ربه الكبير . وظل جماعته ملتفين حول قطري معترفين بامامته . ونتيجة لذلك نشب قتال بين الفريقين ووقف المهلب موقف المتفرج [1] . وخرج قطري نحو طبرستان . وانفرد عبد ربه الكبير فنهض اليه المهلب وجد في قتاله حتى تمكن من قتله وقتل معظم جماعته وتشريد باقيهم . ثم وجه الحجاج حملة من جند الشام الذي جاءه مدداً لتعقب قطري وجماعته فتعقبوه وشتتوا شمل جماعته وتردى هو عن فرسه في هوة فاندفع وراءه نفر من الجند فقتلوه واحتزوا رأسه [2] .

ومما يرويه اليعقوبي وفيه صورة طريفة ان قطري لما افترق عن عبد ربه الكبير واتجه نحو طبرستان استأذن اجهبذها باللجوء الى بلده وكانوا جرحى منهوكين فأذن لهم فلما برئوا بادر قطري الى ممارسة مهمته كخليفة فعرض الاسلام او الجزية على الاجهبذ واهل بلاده واراد ان يعتبرهم اعداء ويحاربهم اذا رفضوا فما كان من الاجهبذ الا ان قال له انت الأم من في الارض . جئتني شريداً طريداً فآويتك ثم ترسل إلي بهذا . ثم رفض وتصدى لقتاله واخراجه فقاتله قطري وتمكن من التغلب عليه وتوطيد سلطانه على طبرستان. والتجأ الاجهبذ الى عامل الري وادخله طبرستان من طريق مختصرة فقاتل قطري وقتله [3] .

ومن الجدير بالذكر ان الازارقة لم يبقوا وحدهم في الميدان . فبينما كان هؤلاء في الجبهة

---

(١) في هذا الخلاف الدموي يقول احدهم زيد بن جندب اسيفاً حزيناً وفيه عبر خالدة :

قل للمحلين قد قرت عيونكم	بفرقة القوم والبغضاء والهرب
كنا اناسا على دين ففرقنا	قرع الكلام وخلط الجد باللعب
ما كان اغنى رجالا ضل سعيهم	عن الجدال واغناهم عن الخطب

ادب الخوارج ص ٥٣

(٢) نبذة حركة الازارقة ومناضلتهم مقتبسة من الطبري ج ٤ ص ٤٧٦–٤٨٣ و ٥٧٩–٥٨٦ وج ٥ ص ١٥–٤٩ انظر ايضا ابن الاثير ج ٤ ص ١٠٩ وبعدها .

(٣) ج ٢ ص ٢٧٦ .

الجنوبية الشرقية اي جبهة البصرة والاهواز يتصاولون مع المهلب تحت قيـــادة قطري ابن الفجاءة قام ابو فديك الخارجي من بني قيس فقتل نجدة العامري الحنفي الذي ذكرنا قبل خبر انسحابه الى اليمامة والذي روى اليعقوبي انه سيطر على البحرين واليمامة وعمان وهجر وطوائف من ارض العارض خمس سنين وحل محله في القيادة والامامة. فسير عليه والي البصرة حملة بقيادة اخيه فهزمه ابو فديك واخذ اثقال القائد وحرمه فأمر عبد الملك بارسال حملة قوية اخرى فيها المغيرة بن المهلب وغيره من الفرسان المشهورين فنفذ الامر وامكن بذلك قتل ابي فديك وستة آلاف من اصحابه وقمع حركته واستنفاذ اثقال القائد وحرمه بعد جهد كبير ومعارك عديدة كان ابو فديك وجماعته يسجلون في بعضها نصراً على خصومهم [1] . وكان ذلك سنة ٧٢ و ٧٣ هـ .

ولم تكن حركة أبي فديك هي الوحيـــدة التي ظهرت على مسرح النضال من حركات الخوارج إبان احتدام المعركة مع الازارقة . فقد قام شخص عرف بالصلاح والفضل والصلاة والاجتهاد اسمه عبد الله بن الحر التميمي في سنة ٦٨ بحركة تتسم الى درجـــة كبيرة بسمة حركة الخوارج مع بعض الفوارق التي ينطوي فيها صورة جديدة .

ولقد كان ممن عاش في فتنة عثمان ثم الفتنة التي نشبت بين علي ومعاوية . وقد أثر عنه انه قال إن الله يعلم اني احب عثمان ولأنصرنه ميتاً . ثم خرج إلى الشام فكان مع معاوية وشهد حرب صفين فلما قتل علي قال لقومه في الكوفة ما ارى احداً ينفعه اعتزاله . كنـــا بالشام فكان من معاويه كيت وكيت . فقالوا له وكان من علي كيت وكيت . فقال لهم إن مكنتنا الايام فاخلعوا عذركم واملكوا امركم .

فلما مات معاوية وهاج الهيج في فتنة ابن الزبير قال ما ارى قريشاً تنصف فأين ابناء الحرائر فضوى اليه الناس حتى بلغوا سبعمائة فارس .

فلما مـــات يزيد بن معاوية وخرج عبيد الله بن زياد من العراق قال لاصحابه اذا شئتم تخرج إلى المدائن فخرجوا فصاروا لا يدعون مالا قـــدم من الجبل للسلطان إلا اخذوه باسم

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٠ و ٣٤ واليعقوبي ج ٢ ص ٢٧٣ وابن الاثير ج ٤ ص ٧٨-٨٠ و ١٤٠ .

أعطياتهم السابقة والآتية واعطوا الحامل براءة بما قبضوه منه . وكانوا لا يتعرضون لاحد من الاهالي تجاراً كانوا أم غير تجار .

وبقي أمرهم على هذه الحال حتى ظهر المختار بن ابي عبيد على مسرح العراق على ما سوف نشرحه في نبذة اخرى وبلغه ما يصنع ابن الحر في السواد فأخذ امرأته وحبسها وأقسم ليقتلنه واصحابه وبلغ الخبر ابن الحر فدخل هو واصحابه الكوفة ليلا وكسروا باب السجن واخرجوا المرأة وكل من كان في السجن من رجال ونساء . فبعث اليه المختار بعثاً فقاتله وهزمه وجعل يعبث بعمال المختار واصحابه . وأحرق المختار داره وانتهب ضيعة له . وعاون المختار في ذلك جماعة من همذان فسار هو الى ماه فانتهب ضياع همدان ثم أقبل إلى السواد فلم يدع مالاً لهمذاني إلا اخذه.وكان يأتي المدائن فيمر بعمال مركز جوخى فيأخذ ما معهم من الاموال ثم يميل إلى الجبل .

فلم يزل كذلك حتى قتل المختار واستتب سلطان العراق لابن الزبير . فقال الناس لمصعب ابن الزبير الذي جاء نائباً عن اخيه ان ابن الحر قد شاق ابن زياد والمختار ولا تأمنه أن يثب بالسواد فاحتال عليه مصعب حتى اعتقله. غير انه استطاع أن يخرج من السجن ثم اعلن التمرد على مصعب فأقبل الناس عليه فقال إن هذا الامر لا يصلح الا بمثل خلفائكم الاربعة الماضين . وكل من بعدهم عاص مخالف . قوي الدنيا ضعيف الآخرة . فعلام يستحل حرمنا ونحن اصحاب النخيلة والقادسية وجلولاء ونهاوند . نلقى الاسنة بنحورنا والاسنة بجباهنا ثم لا يعرف حقنا وفضلنا فقاتلوا عن حريمكم فأي الامر كان فلكم فيه الفضل . ثم اخذ يعيث في الارض فسير عليه مصعب بعثاً فهزمه ثم بعثاً ثانياً ثم ثالثاً فهزمها . وكان يبارز بعض القواد فيغلبهم وتكون الهزيمة نتيجة لذلك وأتى تكريت فهرب عاملها فاستولى عليها وجبى خراجها . فوجه اليه مصعب بعثاً رابعاً فهزمه ثم أتى كسكر فهرب عاملها فأخذ بيت مالها ثم أتى الي الكوفة فبعث مصعب اليه بعثاً جديداً فكثر في أصحابه الجراح ولكنه ظل صامداً وجاء الى المدائن وتحصن فيها فبعث مصعب اليه بعثاً آخر فهزمه واقام في السواد يغير ويجبي الخراج . وبدا له أن يذهب الى الشام فينضم الى عبد الملك بن مروان ليتضامن معه على ابن الزبير . وسار في نفر من أصحابه اليه . فرحب به عبد الملك ثم وجهه الى الكوفة على ان يلحقه الجنود فلما بلغ الانبار أرسل إلى أصحابه ، وأتى خصومه الى عامل

ابن الزبير في الكوفة فجعلوه يرسل بعثاً جديداً . وكان هذه المرة في عدد قليل فقاتل البعث ساعة ثم حاول أن ينسحب فعبر معبراً في نهر فوثب عليه بعضهم فسقط في النهر فكان في ذلك هلاكه . وقد احتز رأسه وارسل الى مصعب [1] .

وقد قام في هذه الاثناء حركتان تافهتان ولكنهما تمثلان صورتين من صور الحركة . احداهما خروج جماعة في ناحية الجزيرة تهتف بشعار الخوارج بقيادة فضالة بن سيار التميمي الشيباني في سنة ٧٦ هـ فتصدى لهم جماعة من عنزة فقتلوهم وأتوا برؤوسهم الى عبد الملك [2] .

وثانيتهما خروج جماعة بالخيف من منى بقيادة شخص اسمه بدر . وقد هتفوا بذلك الشعار وسلوا سيوفهم وهاجموا الناس فمال الناس عليهم وقتلوهم وذلك سنة ٧٠ [3] .

ثم كانت حركة الصفرية القوية في الانحاء الشمالية اي فيما يلي الجزيرة والموصل ممتداً الى الكوفة . فقد اجتمع فريق من الخوارج الصفرية في سنة ٧٦ على زعيم لهم اسمه صالح بن مسرح الذي كان من مذهبه تولي أبي بكر وعمر والتبرؤ من عثمان وعلي وخلفاء بني امية وقتالهم وقتال اوليائهم . وكان ينعتهم بأئمة الظلم والضلال فقال لهم ما ادري ما تنتظرون وحتى متى انتم مقيمون هذا الجور قد فشا وهذا العدل قد عفا . ولا تزداد هذه الولاة على الناس الا غلواً وعتواً وتباعداً عن الحق وجرأة على الرب فاستعدوا وابعثوا الى اخوانكم الذين يريدون من انكار الباطل والدعاء الى الحق مثل الذي تريدون فيأتونكم فنلتقي وننظر فيما نحن صانعون وفي أي وقت ان خرجنا نحن خارجون . فتراسلوا وتلاقوا وانضم اليهم فيمن انضم شبيب بن يزيد الشيباني الذي كان صنواً لقطري بن الفجاءة في الشخصية والقوة والاقدام والبسالة وبايعوا صالحاً بالإمامة ثم خرجوا . وكان من رأيه أن يقاتل ولاة الامويين وعمالهم ومن تصدى لقتالهم من الناس وان يدعوهم الى الحق قبل القتال وان لا يقاتل الا من اصر على موقف العداء منهم . واذا اسروا احداً ممن قاتلهم كانوا بالخيار بين قتله والمن عليه . وكان يقول انما خرجتم غضباً لله حيث انتهكت محارمه . وعصي

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٥٨٦-٥٩٥ .

(٢) ج ٥ ص ٥٧ .

(٣) ج ٤ ص ٦٠٣ .

في الارض وسفكت الدماء بغير حلها . واخذت الاموال بغير حقها . فلا تعملوا ما تعيبونه على غيركم . وفي هذا صورة من صورة مذاهب الخوارج .

واول ما كان منهم غارة على قافلة لمحمد بن مروان امير الجزيرة وارمينية وكان ذلك في ناحية المدائن . ولم يكن عددهم يبلغ المئة حين بدأوا نشاطهم فقصدهم محمد واخـذ يتصاول معهم . وكانوا يقاتلون بضراوة وبسالة . وقد هزموا حملات عديدة سيرها عليهم محمد يزيد عددها اضعافاً عن عددهم . وكان الواحد منهم يصول على العشرين والثلاثين ويهزمهم .

وبادر الحجاج إلى مساعدة محمد فسير نجدة من ثلاثة آلاف من الكوفة فصاروا بين نادرين وامكن بذلك انزال ضربة شديدة عليهم . وكان صالح في جملة من قتل .

ومع ذلك فانهم لم يسكتوا حيث تجمعت فلولهم وبايعوا شبيباً الذي استطاع ان يهزم الحملة التي ضربتهم ، وكان بطاشاً قاسياً فأوقع الرعب في اهل المنطقة [1] . وكان يلقى وهو في قلة العدد الكبير فيهاجمهم ويصول فيهم ويهزمهم ، ثم اتجه من ادنى للموصل نحو الكوفـة فصار النضال بينه وبين الحجاج .

وسير الحجاج عليه حملة بعد حملة وكانت الحملات بأعداد تفوق اعـداد شبيب اضعافاً مضاعفة فكان يهزمها رغم ما يبذله قوادها من جهود ويتلقونه من الحجاج من مدد وتشجيع وتحريض وتنديد، وكان يقسم اصحابه في كتائب قليلة العدد ويوجهها في انحاء عديدة فتعيث في مناطق الموصل والكوفة والمدائن وتثير في اهلها الذعر .

وقد اقتحم المدائن فنهبها ، وقتل من تصدى له من حاميتها ، ثم تهيأ لاقتحام الكوفة ، فبادر الحجاج بنفسه اليها من البصرة ، ولكن ذلك لم يجعل شبيباً يضرب عن تنفيذ عزيمته ، فقد دخل المدينة قبل وصول الحجاج وبلغ قصر الحجاج وضرب بابه بعمود حتى كاد يهدمه

---

(١) مما رواه ابن عبد ربه ان شبيبا كان يصيح في جنبات الجيش فلا يلوي احد على احد (العقد الفريد ج ١ ص ٦٥) وقد وصف شاعر صيحته في هذا البيت :

ان صاح يوما حسبت الصخر منحدراً والريـح عاصفة والمـوج يلتطم

ادب الخوارج ص ٤٨

ووقف عند المصطبة منددا بالحجاج:

عبد دعي مـــن ثمـود اصله | لا بل يقال ابو ابيهم يقدم [1]

ثم اقتحم المسجد الاعظم وقتل من وجده فيه ، وخرج من المدينة كما دخلها بدون حرج وكانت معه امرأته غزالة التي كانت تشترك في الجهاد والصيال بقوة واقدام وضراوة عجيبة[2].

وزادت هذه الجرأة غيظ الحجاج وجعلته يضاعف جهوده وحملاتـــه لمطاردة شبيب وكتائبه التي كانت تنمو بما ينضم اليها من الحاقدين والناقمين مستمرة على صيالهم ، وكان شبيب يدعو الناس الى مبايعته فيضطر الذين هم في منطقة نشاطه الى الاجابة ليأمنوا من بطشه.

ولقد كان عبد الرحمن بن الاشعث من جملة من سيره الحجاج على رأس حملة قوية فلم يستطع ان يفعل شيئاً على ما كان معروفاً عنه من شجاعة واقدام ، فعزله وعين قائداً آخر فلم يغن شيئاً . واستمر النضال عنيفاً متلاحقاً فيه كثير من العنت والتوتر والحقد المتبادل على ما يشرحه ابن الاثير خاصة شرحاً مثيراً حقاً .

وهدد الحجاج اهل الكوفة وقال لهم لتقاتلن عن بلادكم وعن فيئكم او لابعثن الى قوم

---

(١) قيل في تفسير البيت ان اصل ثقيف من ثمود وان يقدم اسم الرجل الذي عبد الاصنام في الجزيرة لاول مرة .

(٢) مما رواه المسعودي في مروج الذهب (ج ٣ ص ٧٧–٧٨) ان غزالة نذرت ان تصلي في مسجد الكوفة ركعتين تقرأ فيها سورتي البقرة وآل عمران فوفت نذرها. وعلى كل حال فوقف غزالة يؤكد كما قلنا قبل في سياق ذكر ام حكيم وجود المرأة العربية في هذا الميدان الخطير من الحياة الاسلامية في صدر الاسلام كما كانت في غيره من الميادين .

ولقد اثر عن عمران بن حطان احد شعراء الخوارج بيتان يعير فيها الحجاج حينما اقتحم شبيب وغزالة الكوفة وهما :

اسد علي وفي الحروب نعامـــة | ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت الى غزالة في الوغى | بل كان قلبك في جناحي طائر

ادب الخوارج ص٧٦

هم اطوع واسمع واصبر على اللأواء والغيظ منكم فيقاتلون عدوكم ويأكلون فيئكم . ولكن ذلك لم يغن ازاء ضراوة شبيب وكتائبه وصولاتهم . فكتب الى عبد الملك يطلب منه نجدة من جند الشام فلبى طلبه . وتحمس حينئذ اهل الكوفة فجدوا اكثر من ذي قبل وحمي الوطيس .

واشتد شبيب من جانبه في صولاته وبطشه حتى لقد اقتحم الكوفة للمرة الثانية . وكان الحجاج فيها فخرج بنفسه وهتف بالجند الشامي يا اهل الشام انتم اهل السمع والصبر واليقين لا يغلبن باطل هؤلاء الارجاس حقكم . غضوا الابصار . واجثوا على الركب وخذوا عليهم السكك ، ووقف في وسطهم يشجعهم ويهتف بهم مثل هتافه السابق مرة بعد مرة ودارت معركة ضارية في الكوفة بين الجند الشامي وشبيب وجماعته فدارت الدائرة فيها هذه المرة على الخوارج وقتل منهم مقتلة كبيرة كانت غزالة في جملة القتلى وانهزم الباقون بما فيهم شبيب فأرسل الحجاج حملاته لتعقبهم ومطاردتهم ، وفي اثناء المطاردة اراد شبيب وبعض اصحابه قطع جسر على نهر فنفرت الفرس من تحته فوقع في الماء فغرق فمات . وقد فت ذلك من عضد جماعته ويسر على كتائب الحجاج تمزيقهم شذر مذر . وكان ذلك ٧٨ ﻫ [1] .

ولقد روى الطبري خبر حركة تتسم بسمة حركات الخوارج وتمت بصلة ما الى حركة شبيب ظهرت اثناء هذه الحركة وقمعت قبل قمع حركة شبيب نهائياً أي في سنة ٧٧ ﻫ وفيها صورة جديدة من صور حركة الخوارج وفكرتها وسيرها . وهي الحركة التي قادها مطرف بن المغيرة بن شعبة .

والسياق يذكر أن مطرفاً واخويه عروة وحمزة جاؤوا إلى الحجاج حينما عينه عبد الملك والياً للعراق في سنة ٧٥ ﻫ فقابلهم مقابلة حسنة وشعر بأنهم مخلصون له . وكانوا صلحاء نبلاء واشرافاً بأنفسهم سوى شرف أبيهم ومنزلتهم في قومهم فاستعمل عروة على الكوفة ومطرفاً على المدائن وحمزة على همذان . فساروا على أحسن سيرة واقوموها واضبطها .

وفي هذه الاثناء اخذ شبيب يعيث في نواحي المدائن فطلب مطرف من الحجاج مدداً

---

(١) نبذة صالح بن مسرح مقتبسة من الطبري ج٥ص٩٤-١٠٢ وابن الاثير ج٤ص ١٥١-١٦٨ .

لمناضلته . ورأى من جهة ثانية أن يتصل بشبيب وجماعته وينصحهم قبل الاقدام على قتالهم فطلب من شبيب ارسال وفد من صلحاء اصحابه لينظر فيما يدعو اليه فطلب شبيب رهناً من رجاله فارسل اليه ما طلبه . وجاء وفد شبيب فسألهم ماذا يريدون فقال أحدهم السلام على من خاف مقام ربه وعرف الهدى واهله . فقال مطرف أجل سلم الله عليهم ثم قال لهم قصوا علي امركم فقالوا : (إن الذي ندعو اليه هو كتاب الله وسنة رسوله . وإن الذي نقمنا على قومنا به الاستئثار بالفيء وتعطيل الحدود والتسلط بالجبرية) . فقال لهم مطرف ما دعوتم إلا الى حق ولا نقمتم إلا جوراً ظاهراً وأنا لكم على هذا متابع فتابعوني إلى ما أدعوكم اليه ليجتمع امري وامركم وتكون يدي وأيديكم واحدة . فقالوا له اذكر ما تريد فان يكن ما تدعونا اليه حقاً اجبناك . فقال إني ادعوكم إلى قتال هؤلاء الظلمة العاصين على إحداثهم الذي احدثوا وان ندعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه وان يكون الامر شورى بين المسلمين يؤمرون عليهم من يرضون لانفسهم على مثل الحال التي تركهم عليها عمر بن الخطاب . فان العرب إذا علمت إنما يراد بالشورى الرضى من قريش (أي ان يكون الامام من يرضون من قريش)رضوا وكثر تبعكم منهم واعوانكم على عدوهم،فذهبوا إلى شبيب واخبروه بما جرى فأرسلهم ثانية اليه ليقولوا له انه قد مضت السنة بعد الرسول على أن يختار المسلمون منهم خيرهم وارشدهم وقد اخترنا لانفسنا ارضانا واشدنا اضطلاعاً لما حمل فما لم يغير ويبدل فهو ولي امرنا وانا لا نرى قريشاً أحق بهذا الامر من غيرها ولو كان ذلك بسبب قربهـــا من رسول الله لـكان الاولى بأسلافنا الصالحين أن يتولوا اسرة النبي وليطلبوا منه ان يبايع شبيباً فيكون له مـا لهم وعليه ما عليهم والا فيكون بعض من يعادونهم ويقاتلونهم من المشركين . فلما بلغوه ذلك طلب لهم مهلة حتى ينظر في الامر .

ثم جمع اصحابه وثقاته واستشارهم وقال لهم اني ما زلت لأعمال هؤلاء الظلمـــة (يعني الامويين وولاتهم) كارهاً منكراً فلما مر هؤلاء ظننت اني اجد فيهم عوناً عليهم . ولو تابعوني لخلعت عبد الملك والحجاج وسرت معهم اجاهدهم ثم ندعو الى الرضى من قريش .

فقال له احدهم انهم لن يتابعوك وقد اختاروا امامهم ، والاولى لك أن تخفي هذا الذي في نفسك ، فوثب مولى له اسمه ا زياد فقال والله لن يخفى مما قلت على الحجاج كلمة واحدة وليزادن عليها عشر وليلتمسنك لو هربت الى السحاب حتى يهلك فالنجاء النجاء ولن يمسي المساء حتى يبلغه جميع ما كان بينك وبينهم . فقال ما تشيرون فقالوا نحن معك نواسيك

ونقاتل عدوك .

وحينئذ جمع اصحابه وانصاره وقال لهم ان الله قد كتب الجهاد على خلقه وامر بالعدل والاحسان واني اشهد الله بأني خلعت عبد الملك والحجاج فمن احب منكم صحبتي على هذا فليأت معي والا فليذهب حيث شاء واني ادعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله وقتال الظلمة فاذا جمع الله لنا امرنا كان هذا الامر شورى بين المسلمين يختارون من يرضونه لامرهم .

فبايعه معظمهم وارتحل بهم نحو حلوان وماه سبدان ،فارسل اليه عاملها ان كنتم تريدون الخروج من هنا فارتحلوا وان كنتم تريدون البقاء ونصب الحرب للحجاج فنحن مضطرون الى قتالكم ، واصطدموا اصطداماً خفيفاً ثم اتجهوا نحو همذان وماه دينار وكتب الى اخيه حمزة عامل همذان يستمده ، فلم ير مناصاً من ذلك على مضض وأرسل اليه مالا وسلاحاً ، وسار حتى نزل في ناحية امينة من اقليم اصفهان واطمأن ، واخذ يرسل كتبه بدعوته الى قتال الظلمة ورد الامر شورى بين المسلمين ، وكتب عامل اصفهان للحجاج ، وكان قد بلغه خبر مطرف وهو مشغول بقتال شبيب فكتب اليه يأمره بالاستعداد وأخذ يرسل اليه الرجال تدريجياً ، ووثب صاحب شرطة حمزة في همذان على حمزة فحبسه وسيطر على الحكم وكتب بذلك للحجاج فسر سروراً عظيما لانه كان يخشى ان ينضم الى اخيه .

ثم عين والي الري قائداً عاماً لقواته في المنطقة ولمن يرسله من مدد وتدانى الفريقان ، وارسل مطرف من يدعوهم الى دعوته ويذكر لهم ظلم عبد الملك والحجاج فردوا عليه قائلين كذبت يا عدو الله انهما ليسا كذلك ، ومن ثم اشتبك الفريقان وقاتل مطرف واصحابه قتالا عظيما غير ان الدائرة دارت عليهم فكسروا وانهزموا بعد قتل كثير منهم وكان مطرف من جملتهم ، وقد احتز رأسه وارسل الى الحجاج وتشردت فلوله شذر مذر ، وسعى اقاربهم فأخذوا لهم الامان من الحجاج ووقفت هذه الحركة عندهذا الحد [1]

وقد روى اليعقوبي ان خارجياً اسمه ابو زياد المرادي خرج بعد قتل شبيب فوجه اليه الحجاج الجراح الحكمي فلقيه بالفلوجة فقتله ، ثم خرج بعده خارجي بناحية البحرين

---

(١) الطبري ج ٥ ص ١٠٦-١١٩ .

اسمه ابو معبد من بني عبد القيس فوجه اليه الحجاج الحكم بن ايوب عامل البصرة فقتله كذلك [1]

ولم يرو بعد هذا حركة للخوارج لمدة عشرين عاماً او اكثر قليلا حيث يبدو ان الضربات التي انزلها الحجاج عليهم في جنوب العراق وشماله اخمدت نأمتهم ونشاطهم كما كان الامر بعد الضربات التي انزلها المغيرة وسمرة بن جندب ومواقف الشدة التي وقفها زياد وابنه من اهل الاهواء عامة ، وان كانت فترة الخمود هذه المرة كانت اطول .

وقد تسنى للدولة فيها ان توجه جهودها وقواها الى ما هو اكثر فائدة وعائدة على العرب والاسلام فكان ما كان من فتوحات عظمى في المشرق والمغرب ونهضة اصلاحية وعمرانية واسعة في مختلف المجالات والبلاد على ما شرحنا مظاهره قبل .

ولقد استمر هذا الخمود بقية عهد عبد الملك ثم طيلة عهد الوليد وسليمان ابنيه ، فلما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز اخذت حركتهم تنشط من جديد في العراق بزعامة زعيم من بني يشكر اسمه بسطام وله اسم آخر هو شوذب حيث خرج على رأس ثمانين فارساً .

وهناك رواية تذكر انه لما بلغ عمر خبر خروجهم كتب الى واليه في العراق ليدعوهم الى كتاب الله وسنة رسوله ففعل فلم يرعووا ورأى الوالي انه قد اعذر فسير عليهم حملة فهزموها فبلغ ذلك عمر فندد به ثم بعث مسلمة بن عبد الملك بجند من الشام فأظهره الله عليهم .

وهناك رواية تذكر ان عمر امر واليه بأن لا يحركهم الا ان يسفكوا دماً او يفسدوا في الارض فان فعلوا فليحل بينهم وبين ذلك فأرسل الوالي لمراقبتهم ثم دعاهم الى مناظرته فارسلوا اليه رجلين منهم فتناظر معهم على النحو الذي رويناه في سيرة عمر فلا نرى حاجة للتكرار .

وقد مات عمر بعد ذلك بأيام على ما رويناه كذلك في سيرته فاستأنفت هذه الجماعة بقيادة زعيمها المذكور في خلافة يزيد بن عبد الملك ، وقد كتب يزيد الى والي العراق بالجد

---

(١) ج ٢ ص ٢٧٥ .

في امرهم وقمع حركتهم فسير عليهم هذا حملات عديدة فكانوا يهزمونها واحدة بعد اخرى ويقتلون كثيراً منها ومن جملتهم بعض قوادهم ، وطاردوا بعضها الى اخصاص الكوفة فبعث يزيد مسلمة والياً على العراق وهيأ حملة قوامها عشرة آلاف،فلما رأوا أن ما جاءهم هو فوق طاقتهم قال شوذب لاصحابه من كان يريد الله فقد جاءته الشهادة ومن كان خرج للدنيا فقد ذهبت الدنيا وانما البقاء للدار الآخرة فكسروا أغماد سيوفهم وحملوا حملة قوية حتى زعزعوا أركان جيش مسلمة وكادوا يهزمونه وكان قائده سعيد الحرشي من الفرسان المغاوير المشهورين فخشي الفضيحة وهتف بأصحابه مشجعاً ثم حمل بنفسه فتابعه جيشه بمثل حماسه فطحنوا الخوارج طحناً وقتلوهم عن آخرهم وكان ذلك في سنة (١٠١) .

ولقد روى الطبري مقطوعتين من الشعر في رثائهم يدل فحواهما على ما كان للخوارج وفكرتهم من جذور وأوشاج واستمرار حيث جاء في احداهما معزوة الى شمر بن عبد الله اليشكري الذي كان اخوه من جملة قتلاهم :

ولقد فجعت بسادة وفوارس للحرب سعر من بني شيبان
اعتاقهم ريب الزمان فغالهم وتركت فرداً غير ذي اخوان
كمد تجلجل في فؤادي حسرة كالنار من وجد على الريان
وفوارس باعوا الاله نفوسهم من يشكر عند الوغى فرسان

وحيث جاء في ثانيتهما المعزوة الى حسان بن جعدة :

يا عين اذري دموعاً منك تسجاما وابكي صحابة بسطام وبسطاما
فلن ترى أبداً ما عشت مثلهم أتقى وأكمل في الاحلام احلاما
بسيبهم قد تأسوا عند شدتهم ولم يريدوا عن الاعداء احجاما
حتى مضوا للذي كانوا له خرجوا فأورثونا منارات وأعلاما
إني لأعلم أن قد انزلوا غرفاً من الجنان ونالوا ثم خداما
أسقى الاله بلاداً كان مصرعهم فيها سحاباً من الوسمي سجاما[1]

---

(١) نبذة بسطام من الطبري ج ٥ ص ٣١٠-٣٢٨ .

وقد روى ابن الاثير خبر حركات خارجية اخرى في زمن يزيد . منها حركة بقيادة شخص اسمه عقفان في العراق وكان عدد المنضوين اليه ثمانين فنصح ناصحون ليزيد أن يخذل من معه برجال من قبائلهم ففعل فنجح وتفرقوا . ومن جملتهم عقفان نفسه الذي اقنعه اخوه. ولقد ظل على ولائه في زمن هشام بن عبد الملك فعينه هذا ليكون رقيباً على العصاة والخارجين.

ولقد كان من جملة العصاة ابن له فقبض عليـــه وشده بوثاق وارسله إلى هشام ، واحترم هشام هذا الاخلاص من الرجل فخلى سبيل الابن . ثم استعمله على الصدقة فبقي في عمله الى آخر ايام هشام [1] وفي كل ذلك صور نادرة .

ومن هذه الحركات حركة ظهرت في البحرين بزعامة مسعود بن ابي زينب العبدي . وقد سار إلى اليمامة ليثيرها فتصدى له واليها وتمكن من قتله فتولى قيادة جماعته شخص آخر اسمه هلال،ولكن الجماعة ما لبثوا أن تفرقوا عنه فالتجأ إلى قصر وتحصن فيه فدخل عليه من قتله. وهناك رواية تذكر أن مسعوداً غلب على البحرين واليمامة تسع عشرة سنة قبل ان يقتل [2].

ومنها حركة بزعامة مصعب بن محمد الوالبي في العراق فتصدى لها والي العراق خالد القسري فقمعها . وفي رواية ان قمعها كان في زمن هشام [3] .

وقد روى الطبري [4] في حوادث سنة ١٠٧ خبراً مقتضباً عن حركة للخوارج في اليمن حيث يدل على أن الفكرة قد سرت إلى هذا القطر ايضاً . ومما ذكره في صدد هذه الحركة ان زعيما اسمه عباد الرعيني خرج على رأس ثلاثمائة من اصحابه محكما فوجه الوالي حملة تمكنت من قتله وقتل معظم جماعته . وكان ذلك في خلافة هشام .

وتوقف نشاط الخوارج الى سنة ١١٩ ثم استؤنف وقـــد روي في صدد اولى الحركات الجديدة رواية تنطوي على صورة جديدة من صور هذه الحركات . حيث روى الطبري ان شخصاً من احدى قرى الموصل اسمه بهلول كان يتأله وكان ذا بأس شديد فأرسل غلامـــه

(١-٢) ج ٥ ص ٤٤ .

(٣) ج ٥ ص ٤٤-٤٥ (٤) ج ٥ ص ٣٨٧ .

لشراء خل فأعطاه بائع الحانة خمراً بدلا من الخل فأراده على رده فأبى وقال له الخمر خير منك ومن قومك . وكان يريد الحج فمضى الى حجه وهو محنق ، ولقي في مكة جماعة من اهل منطقة الموصل ناقمين على والي العراق خالد بن امية الذي كان ينعت بابن النصرانية لان امه كانت نصرانية . وكانوا يتهمونه بتهم عجيبة منها هدمه المساجد وانشاؤه البيع والكنائس وتولية المجوس على المسلمين وسماحه بنكاح الرجال الذميين للمسلمات مما لا يمكن أن يصدق لانه كان مسلماً على كل حال وكان الخليفة هشام من انقياء بني امية ولا يمكن أن يقر مثل هـــذه الافعال ومما يحتمل ان يكون ذلك دعاية تسويئية بثت بين العامة من خصوم الامويين في ذلك الوقت الذي كانوا فيه ينشطون نشاطاً عظيما في تقويض دولتهم ومما نجد امثلة له في كل ظرف حتى في ظرفنا الحاضر الذي يرمي فيه رجال احزابنا بعضهم بتهم ملفقة للتشويه والتسويء .

وقد اتفقوا على الخروج وتواعدوا على الاجتماع في مكان معين . فلما عادوا اجتمعوا في الموعد وأمروا بهلولا عليهم . وكانوا نحو أربعين . وقد تظاهروا في بدء حركتهم بأنهم عمال من قبل الوالي . ثم صاروا يأخذون ما يلقونه من دواب البريد .

ولما جاؤوا إلى قرية بهلول اراد هذا قتل بائع الخمر فناشده أصحابه أن لا يفعل لئلا ينذر بهم الناس فيفلت ابن النصرانية منهم فأبى واصر على قتله وقتله فنذر بهم الناس وعلموا انهم خوارج وبلغ الخبر خالداً فسير عليهم حملة فهزموها وقتلوا قائدها وكثيراً من افرادها واخذوا ما معهم من اموال ومتاع فسير حملة ثانية عليهم فشدوا عليها حتى دب فيهم الذعر فناشدهم قائدها بالرحم فكفوا عنه وانهزم اصحابه .

وقد طمعوا بعد ذلك بالاستيلاء على الموصل بل وقال لهم بهلول ان الاوجب ان نتوجه الى الشام لانها هي الرأس الذي سلطه علينا ابن النصرانية . ورأى الوالي تفاقم امر بهلول فجد فيه وسير عليه جنداً كثيفاً يزيد عليهم اضعافاً مضاعفة حتى روي وفي الرواية مبالغة كبيرة ان عدده اكثر من عشرين الفاً بينما كان عددهم نحو السبعين . واخذوا يتصاولون . وادرك بهلول وجماعته حرج موقفهم فعقروا دوابهم واصلتوا سيوفهم وحملوا حملة مستميتة ، ولكن شجاعتهم لم تغن عن الكثرة الكاثرة فقتلوا عن آخرهم [1] .

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٤٥٧ – ٤٦٠ .

ثم خرج في نفس السنة في ناحية الكوفة جماعة آخرون عددهم سبعة بزعامة المغيرة بن سعيد وزعيم آخر اسمه بيان فأخذهم والي العراق وقتلهم [١] .

ثم خرج في نفس السنة في ناحية الحيرة جماعة آخرون بزعامة وزير الشختياني فكانوا لا يمرون بقرية إلا احرقوها ولا بأحد الا قتلوه . وغلبوا على الحيرة وبيت مالها . فسير عليهم الوالي حملة طاردتهم فقتلت بعضهم واسرت بعضهم وهم مثخنون بالجراح فصب عليهم الوالي نفطاً واحرقهم [٢] .

ثم خرج – والطبري يستعمل هنا كلمة شرى – الصحاري بن شبيب وحكم في ناحية واسط ، وكان عدد المنضوين اليه ثلاثين . فارسل خالد من طاردهم وقتلهم جميعاً وكان ذلك في نفس السنة .

ومما يرويه الطبري ان الصحاري بدأ حركته بالدخول على خالد بقصد اغتياله وتذرع بطلب فريضة له . فلم تسنح له الفرصة . واثر عنه في ذلك هذه الابيات التي تبرز فيها فكرة الخوارج وحافزها وغايتها :

لم ارد منــــه الفريضة الا	طمعاً في قتـــله ان انالا
فاريح الارض منه وممن	عاث فيها وعن الحق مالا
كل جبــــار عنيـد اراه	ترك الحـق وسن الضلالا
انــــي شار بنفسي لربي	تارك قيلا لديهم وقـــالا
بائع اهلي ومالي ارجـــو	في جنان الخلد اهلا ومالا [٣]

ومرت فـــترة سبع سنوات بدون حركة للخوارج . وفي سنة ١٢٦ خرج في الجزيرة جماعة بزعامة سعيد بن بهدل الشيباني في مئتي شخص وكان على رأي الصفرية .

---

(١) ٤٥٦–٤٥٧ .

(٢) ج ٥ ص ٤٦١ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٤٥٧–٤٦٤ .

وكانت الفتنة بين الاسرة الاموية قد استشرت في هذا الظرف فاغتنم الفرصة وخرج مع جماعته نحو العراق لما بلغه من تشتت الامر فيها واختلاف اليمانية والمضرية واقتتالهم فيما بينهم.

وقد مات سعيد في الطريق فبايع جماعته الضحاك بن قيس وانضم اليهم آخرون حتى بلغ عددهم ثلاثة أو اربعة آلاف ، ولقد تهادن اليمانيون والمضريون حينما علموا بسيرهم نحو العراق واجمعوا على مقاتلتهم ، غير أن الخوارج انتصروا عليهم حين اللقاء وهزموهم أقبح هزيمة واستولوا على الكوفة وحواليها وجبوا السواد .

واستخلف الضحاك احد رجاله في الكوفة واتجه مع فريق من جماعته نحو واسط وكان فيها والي العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ومن حشده معه لقتال الخوارج ، واخذ الفريقان يشتبكان في معارك ضارية . وكان الخوارج يقاتلون أشد قتال حتى امتلأت القلوب منهم رعباً .

وقد انفرد فريق من جند الوالي بزعامة زعيم اسمه منصور لان هذا اقترح مهادنة الخوارج حتى يتجهوا نحو الشام التي كانت مسرحاً لمنازعة دامية بين الامراء الامويين نتيجة لمقتل الوليد بن يزيد فأبى فذهب منصور إلى الخوارج مع جماعته وانضم اليهم وبايع الضحاك .

ورأى الوالي تفاقم الحركة فجنح إلى التفاهم وتفاوض مع الضحاك واتفق معه أن يكون له ما كان غلب عليه من الكوفة وسوادها ويكون للوالي ما بقي تحت سيطرته من كسكر وميسان ودستميسان وكور دجلة والاهواز وفارس .

وفي هذه الاثناء اعلن سليمان بن هشام تمرده على مروان ورشح نفسه للخلافة حيث قال له بعض اصحابه أنت ارضى من مروان وتحالف مع الخوارج ايضاً . وهكذا عظمت حركة الخوارج وتفاقمت حتى صارت صاحبة السلطان على معظم العراق ثم على الموصل وساحة واسعة من الجزيرة وارمينية فكانت من اعظم حركات الخوارج تفاقماً وسعة .

وحينما استتب الامر لمروان بن محمد سير حملة بقيادة ابنه عبد الله نحو العراق لمصاولة هذه الحركة وقمعها . وقاد بنفسه حملة اخرى لقتال سليمان بن هشام الذي انضم اليها وتوقف مع ذلك مع انصاره في قنسرين .

وقد تمكن مروان من هزيمة سليمان مع ان الرواية تذكر ان عدد من تجمع عليه بلغ سبعين

الفاً ، وقد هزم الخوارج حملة ابنه في العراق فسير حملة جديدة بقيادة يزيد بن عمر بن هبيرة الذي عينه في الوقت نفسه والياً على العراق فسارت هذه الحملة من طريق الجنوب وسار هو بعد ان هزم حشود سليمان من طريق الشمال فصار الخوارج بين نارين . ولقد دار صراع قوي بين الخوارج وجيوش مروان امتد اسابيع عديدة وتكررت وقائعه وانهزم مروان في إحداها غير أنه تمكن في النهاية من التغلب على الخوارج وتشتيت شملهم بعد عناء شديد ودماء غزيرة .

ولقد قتل الضحاك فبايع الخوارج زعيما اسمه الخيبري إماماً مكانه فتولى قيادة الصراع فقتل فبايعوا زعيما ثالثاً اسمه شيبان . وكانت الغلبة النهائية عليهم في عهد قيادة هـذا الزعيم حيث قتل وتشتتت جماعاته سنة ١٢٨ [١] .

ومن روائع ما ورد في سياق هذه الحركة في الطبري انه كان في صفوف الخوارج فارس ملثم كان يصول صولات عظيمة حتى كاد في بعض المواقف أن يقتل منصوراً الذي انفرد عن جماعة الوالي مع بعض انصاره وانضم الى الخوارج . ولقد سألهم عن هذا الفارس فنادوا يا ام العنبر فخرجت امرأة من اجمل الناس فقال لها مندهشاً أنت فقالت نعم . قبح الله سيفك فوالله ما صنع لك شيئاً وكان عليك ان تستعمله في ذلك الموقف فترسلني به الى الجنة .

وهذا مثل آخر يضاف إلى مثل غزالة زوجة شبيب. ولا نعتقد ان هذين المثلين وحيدان.

ولم تكد هذه الحركة تنتهي حتى كانت حركة اخرى تظهر وتتفاقم في الحجاز بزعامة المختار بن عوف الازدي الملقب بأبي حمزه . وكان يأتي الى مكة في موسم الحج فيدعو إلى الخروج على آل مروان .

وجاء سنة ١٢٨ فلقي عبد الله بن يحيى الذي عرف باسم طالب الحق فدعاه الى مذهبه والذهاب معه الى اليمن فاستجاب وذهب معه الى حضرموت فبايعه ابو حمزة بالخلافة على مذهب الصفرية من الخوارج فكان ذلك صورة جديدة من صور هذه الحركة .

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٦١١–٦٢٢ و ج ٦ ص ١٥–٢٢ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٣٧ .

ووافى ابو حمزه الموسم في سنة ١٢٩ نائباً عن خليفته ومعه سبعمائة رجل يحملون الاعلام السوداء ويتعممون بالعمائم السوداء ويعلنون البراءة من بني مروان . ففزع الناس منهم وارسل اليهم والي المدينة من قبل مروان بن محمد يطلب التهادن الى أن ينقضي الحج فوافقوا. فلما انقضى أرسل اليهم وفداً من وجوه القرشيين بينهم بعض أحفاد علي وأبي بكر وعمر ليطلبوا منهم احترام حرمة مكة فقال لهم ابو حمزة والله ما خرجنا إلا لنسير سيرة آبائكم ولكنه رفض عدم القتال بعد انقضاء الحج فلم يكن من الوالي إلا أن انسحب من مكة إلى المدينة فسيطر الخوارج عليها بدون قتال . وذهب الى المدينة وأخذ يهيء جنداً للقتال .

وخرج ابو حمزة وجماعته إلى المدينة فصدهم الجند وتضامن معهم في ذلك القرشيون من أهلها وانتصر الخوارج عليهم وقتلوا مقتلة كبيرة منهم . ثم استولوا على المدينة وقد فر الوالي مع من استطاع الافلات .

وقد ذكر الطبري في السياق ان القرشيين اتهموا خزاعة بالمخامرة مع الخوارج وانهم هم الذين دلوهم على عورة المدينة . وقد خطب ابو حمزة في أهل المدينة بعد ذلك من على منبر رسول الله خطبة طويلة إن لم تكن صحيحة بحروفها فليس ما يمنع أن تكون صحيحة بخبرها وروحها .

وقد رأينا ايرادها لما فيها من شرح ووصف لفكرة الخوارج وهدفهم وسيرتهم يتسقان مع ما شرحناه من ذلك ولا سيما آخر حركة من حركاتهم في العهد الاموي تدل على استمرار الفكرة بكل شدتها وقوتها :

(يا أهل المدينة ، إنا لم نخرج من ديارنا واموالنا اشراً وبطراً ولا عبثاً ، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ، ولا لثأر قديم نيل منا ، ولكننا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت . وعنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط فاضت علينا الارض بما رحبت وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن ، وحكم القرآن فأجبنا داعي الله واقبلنا من قبائل شتى ، النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وانفسهم يتعاورون لحافاً واحداً. فآوانا الله وايدنا بنصره ، ولقينا رجالكم بقديد فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان فشتان لعمر الله ما بين الرشد والغي ، يا اهل المدينة أولكم خير اول وآخركم شر آخر ، يا اهل المدينة

الناس منا ونحن منهم إلا مشركا عابد وثن أو مشركاً أهل كتاب أو إماماً جائراً ، يا اهل المدينة بلغني أنكم تنتقصون أصحابي وتقولون شباب أحداث وأعراب جفاة . ويلكم يا أهل المدينة ، وهل كان أصحاب رسول الله إلا شباباً أحداثاً ، شباب والله مكتهلون وشبابهم غضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أقدامهم ، قد باعوا الله عز وجل أنفساً تموت بأنفس لا تموت ، قد خالطوا كلالهم بكلالهم وقيام ليلهم بصيام نهارهم ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مروا بآية شوق شهقوا شوقاً إلى الجنة ، فلما نظروا إلى السيوف قد انتضت . والرماح قد شرعت والسهام قد فوقت وارعدت الكتيبة بصواعق الموت استخفوا وعيد الكتيبة لوعيد الله عز وجل ولم يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة فطوبى لهم وحسن مآب).

ومما روي عنه انه كان يعلن من على منبر رسول الله أنه يرى أن كل من شك فهو كافر وكل من زنى فهو كافر وكل من سرق فهو كافر .

وبلغت الاخبار مروان الخليفة فسير عليهم حملة قوامها اربعة آلاف مقاتل مجهزة تجهيزاً قوياً ، وعلم ابو حمزة بذلك فخرج للقائها والتقوا في وادي القرى .

وقد ودع ابو حمزة اهل المدينة وقال لهم إن نظفر نعدل في احكامكم ونحكم على سنة نبيكم ونقسم فيئكم بينكم وان يكن ما تتمنون فسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

ومما ذكر في السياق ويحتمل شكاً كبيراً ان ابا حمزة قال لاصحابه لا تقاتلوهم حتى تخبروهم ثم نادوهم قائلين ما تقولون في القرآن والعمل به فصاح قائد الحملة واسمه ابو عطية نضعه في جوف الجوالق . فقالوا ما تقولون في مال اليتيم قال نأكل ماله ونفجر بأمه فاشتبكوا حينئذ في قتال مرير حتى امسى المساء فصاحوا يطلبون من ابن عطية التوقف للصباح ويقولون له ان الله قد جعل الليل سكناً فأبى واستمر في قتالهم حتى اثخن فيهم فانهزموا الى المدينة وقابلهم الموتورون من اهلها بالسيف فانهزموا الى مكة ومنها الى اليمن وكان جيش مروان يتعقبهم في كل مراحلهم ويقتل فيهم حتى أفنى معظمهم . وخرج خليفتهم عبد الله بن يحيى وكان في صعدة بمن عنده للقاء جيش مروان فانتصر الجيش عليه وقتله مع جمع كبير من انصاره واحتزوا رأسه وارسلوه الى مروان [١] .

---

(١) هذه النبذة مقتبسة من الطبري ج٦ ص ١٧-٦٣ وقد اشير اليها في مروج الذهب ج ٣ ص ١٧٢ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٣٩-٣٤٠ ولم يذكر المؤلفون الثلاثة مصير ابي حمزة ، وفي المجلد العشرين من

ولقد كانت حركتا الخوارج الاخيرتان في العراق والحجاز في ظروف اشتداد الدعوة الهاشمية العباسية بزعامة أبي مسلم في خراسان فكانتا مما شغلتا قوى الدولة الاموية عن هذه الدعوة فكان ذلك من اسباب نجاحها .

ولقد روى اليعقوبي دون الطبري حركة من حركات الخوارج في ناحية الاردن بزعامة ثابت بن نعيم الجذامي في سنة ١٢٨ فسير عليه مروان من قمع حركته . وهذه الحركة هي الوحيدة التي سجل وقوعها التاريخ في هذه الناحية [١] .

ولقد سرت فكرة الخوارج إلى شمال افريقية أيضاًفاعتنقهاجماعات من البربروالعرب ونتج عن ذلك حركات خارجية عديدة في عهد الدولة الاموية.

ومن أول ما سجل من ذلك حركة ميسرة المضفوري من بني فاتن الذي كان على مذهب الصفرية . وكان سبب خروجه المباشرسوء سيرة والي طنجة عمر بن عبدالله الحبحاب وابوه كان

الاغاني نبذة طويلة في اخبار عبد الله بن يحيى فيها تفصيلات اخرى وبعض المغايرة ، وخطبا عديدة لابي حمزة في اهل المدينة واهل مكة ، ويستفاد منها ان عبد الله بن يحيى هو من حضرموت من قبيلة كندة وكان عابداً مجتهداً فرأى في اليمن عسفاً وجوراً فاخذ يحرض على الخروج ، وجاء اليه ابو حمزة مع جماعة من الاباضيه فانضموا اليهوبايعوه وسموهطالبالحق وفي سنة ١٢٨ خرج مع جماعته فيحضرموت فطردوا عاملها واستولوا على الحكم ثم ساروا نحو صنعاء واستطاعوا ان يغلبوا عليها ويهزموا واليها مع الحامية . ثم صار لهم السلطان في جميع اليمن ، فلما كان موسم حج وجه طالب الحق ابا حمزة على رأس جيش الى مكة ليقيم له السلطان في الحجاز ويرسل بعد ذلك جيشا الى الشام ، وقد تمكن ابو حمزة من الاستيلاء على مكة والمدينة على النحو المذكور تقريبا في المتن ثم ارسل جيشا نحو الشام فلقيه جيش مروان وانتصر عليه وقتل قائده واستمر في زحفه نحو المدينة فانسحب ابو حمزة منها الى مكة فتعقبه الجيش الشامي واشتبك معه في مصاولة ضارية وانتصر عليه وقتله مع جماعة كبيرة من انصاره ثم اتجه نحو اليمن حيث انتصر على طالب الحق وقتله وقمع حركته ، ومما جاء في خطبة ابي حمزة ولم يرد في النص الوارد في الطبري تعداد متسلسل لما كان يعزى الى خلفاء بني امية او يروى من اسواء واحاديث قادمة من لدن معاوية مما قد يكون فيه دلالة على ان هذه الاقوال والروايات التي علقنا عليها او فندناها في سياق سيرة الخلفاء كانت تساق وتنشر في زمن الدولة الاموية بقصد التسويء والاثارة .

(١) ج ٣ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

والياً عاماً للمغرب . فقد رغب في أخذ الجزية ممن أسلموا من البربر واعنتهم بالتكاليف في المطالب فأثارهم فدعاهم ميسرة اليه فاستجابوا وبايعوه بالخلافة وخاطبوه بأمير المؤمنين وثاروا تحت رايته على والي طنجة وقتلوه .

وسير الوالي العام حملتين فهزموهما واحدة بعد اخرى . وقد قتل الخوارج من احداهما عدداً كبيراً من فرسان العرب وأعيانهم حتى سميت وقعـــة الاشراف . وأدى ذلك إلى انتقاض البلاد كلها وسريان الانتقاض إلى الاندلس حيث ثارت على اميرها عقبة بن الحجاج . وكان ذلك سنة ١١٧ في زمن هشام .

ولما بلغت هشاماً الاخبار قال لاغضبن للعرب غضبة ولأسيرن جيشاً يكون اوله عندهم وآخره عندي ثم ارسل جيشاً كثيفاً وعين كلثوم بن عياض قائداً ووالياً . ولما وصل الزحف على الخوارج واشتبك معهم في معارك طاحنة فانتصروا عليه وهزموا جيشه وقتلوه أوجرحوه حسب اختلاف الرواية فجهز هشام جيشاً كبيراً آخر وارسله بقيادة حنظلة بن صفوان سنة ١٢٢ هـ فتمكن من قمع الحركة .

وقد ذكرت الروايات ان عدد قتلى الخوارج في المصاولة التي جرت بينهم وبين حنظلة بلغ ١٨٠ الفاً [١] . وفي الرقم مبالغة ولكنه يدل على كل حال على انه كان ينضوي تحت راية الخوارج خلق عظيم .

ولم تكد هذه الحركة تقمع حتى ظهرت حركة اخرى متسمة بمذهب الصفرية ايضاً بزعامة عكاشة بن ايوب الفرازي وعبد الواحد بن يزيد الهواري . وقد جد حنظلة في امرها وتمكن من قمعها وقتل قائديها وكثير من المنضوين اليها .

وتذكر الروايات حركة ثالثة متفرعة في اصلها عن حركة ميسرة وإن كانت اتسمت بشيء من الشذوذ . وهي حركة صالح بن طريف البرغواطي . فقد كان طريف مـــن قواد حركة ميسرة وكان ابنه صالح معه . فلما قمعت هذه الحركة ظهر صالح للميدان باسلوب جديـد .

---

(١) الاستقصاء في تاريخ دول المغرب الاقصى للسلاوي ج ١ ص ٩٤-١٠١ وتاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١١٨-١١٩ وتاريخ ابن الاثير ج٥ ص٦٩-٧١ .

وهي دعوى المهدوية ثم النبوة . واستطاع أن يغري جماعة من البربر فالتفوا حوله وصار يشرع لهم شرائع جديدة منها صوم شهر رجب بدلا من رمضان وزيادة عدد الصلوات إلى خمس عشرة ، عشر في الليل وخمس في النهار مع قصرها على الوقوف والايماء بدون سجود الا الركعة الاخيرة حيث يسجدون خمس سجدات متواليات . ورفع قيد العدد في الزواج ورفع قيد عدد الطلاق الرجعي ، واختصار سور من القرآن نفاها منه وزيادة عدد جديد ، ورفع الغسل عن الجنابة إلا إذا كانت بالحرام ... وكان ذلك سنة ١٢٧ هـ .

وقد ساعد اضطراب حالة الدولة في الشام وفي المغرب والاندلس على استمرار هذا المتنبىء إلى ما بعد سقوط الدولة الاموية ، بل واستمرار ابنائه من بعده على رأس هذه الحركة في نطاق دولة مدة غير قصيرة في زمن الدولة العباسية في المشرق والدولة الاموية الاندلسية في المغرب [1] .

ولقد تعددت حركات الخوارج في شمال افريقية في زمن مروان بن محمد ايضاً (١٢٧–١٣٢هـ) منها ما كان بقيادة عربية ومنها ما كان بقيادة بربرية . فكانت حركة بقيادة ابي عطاف عمران او عمر بن عطاف الازدي ببلدة طنفاس وحركة بقيادة عروة بن الوليد الصدفي – والصدف قبيلة عربية – بتونس وكلتاهما صفرية المذهب . وحركة عبد الجبار بن الحرث بطرابلس وثابت الصنهاجي البربري بباجة وكلتاهما إباضية المذهب .

وقد اهتم عبد الرحمن بن حبيب الذي غلب على افريقية والمغرب في هذا الظرف اغتناماً لفرصة اضطراب امر الشام وظل متغلباً عليها الى ما بعد قيام الدولة العباسية لقمع هذه الحركات . وقد باشر ذلك بنفسه بالنسبة لبعضها وسير اخاه الياس الى بعضها حتى تم قمعها [2] .

ولقد سرت الفكرة من المغرب الى الاندلس حيث ثار فريق من البربر متسمين بها على الوالي عبد الملك بن قطن فجد في حربهم واستعان عليهم بعصبيته المضرية وانتصر عليهم . غير انهم لم يسكتوا حيث تحالفوا مع خصوم قبيلته اليمانيين سنة ١٢٤ وتمكنوا من قتله . وهاج قومه المضريون وتحركوا بقيادة ابنيه قطن وامية وتمكنوا بدورهم من اخذ ثأرهم من

---

(١) الاستقصاء ج ١ ص ١٠٢–١٠٣ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٠٧–٢١٠ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٠ وابن الاثير ج ٥ ص ١١٥ .

البربر الخوارج وخصومهم اليمانيين معاً وقتلوا منهم جماعة كثيرة وشردوا باقيهم [1] .

ولقد روى الطبري خبر بعض حركات للخوارج في خراسان ايضاً ابان احتدام النزاع بين المضريين واليمانيين واحتدام الدعوةالعباسية بزعامة ابي مسلم مما سوف نشرحه في نبذخاصة.

من ذلك حركة قادها الحارث بن سريج أحد قواد الجند في خراسان حيث أعلن في سنة (١١٦هـ) تمرده على الوالي عاصم بن عبد الله وأخذ يدعو إلى الكتاب والسنة والبيعة للرضى . وقد انحاز اليه من الجند بضعة آلاف . وتوجه نحـــو بلخ فخرج إليه واليها نصر بن سيار ولكنه تغلب عليه وهزمه واستولى على بلخ ثم مد سيطرته إلى الجوزجان والفارياب والطالقان ومرو الروز [2].

وقد ذعر أهل مرو عاصمة خراسان واخذوا يكاتبونه . مما جعل الوالي ينسحب منها الى مدينة ابرشهر للاتصال بالخليفة والاستعداد للنضال . وقد اقبل الحارث على مرو . وكان عدد الذين صاروا تحت لوائه قد بلغ ستين الفاً من قبائل الآزد وتيم ومن مسلمي الجوزجان والطالقان وخراسان .

واستطاع الوالى أن يحشد قوات كافية فزحف بدوره نحو مرو والتقى الفريقان قربها فبدأ الحارث بدعوتهم إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله والبيعة للرضى على طريقةالخوارج.

وكان معنى البيعة للرضى خلع الخليفة القائم . فأخذ الفريقان يشتبكان بقتال شديد . وقطع فريق الوالي الماء عن الحارث وجيوشه حتى عطشوا فاضطروا الى الانسحاب عن مرو وتبعهم عاصم وجيوشه فنزلوا الدنداتقان قرب منزل الحارث وجرت مراسلة بين الحارث وعاصم على ان ينزل الحارث في اي مكان شاء من خراسان ويكتب الاثنان الى الخليفة يسألانه كتاب الله وسنة نبيه فان ابى اجتمعا عليه . وابى بعض قواد جند عاصم الموافقة على ذلك لأنهم اعتبروه خلعاً لهشام والحوا على عاصم حتى اعادوا القتال ثانية . وقد هزموا الحارث وجيوشه . ولكنه ظل يسيطر على معظم ما كان يسيطر عليه وراء النهر دون ان

---

(١) الاستقصاء ج ١ ص ١٠٠-١٠١ وتاريخ الاندلس لعنان ص ٦٣-٦٥.
(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٠ .

يقدر الوالي على زحزحته عنه .

وبلغ الخبر هشاماً فعزل الوالي وعين اسد بن عبد الله لولاية خراسان للمرة الثانية فأخذ يتصاول مع الحارث بالاضافة الى ما كان يبذله من جهد في الفتوح وتوطيد سلطان الدولة في هاتيك الربوع . وتحالف الحارث مع خاقان وملوك الصغد والشاش والاشكمند والختل الذين رأوا في الحركة فرصة للعصيان والتمرد . غير أن اسداً اندفع في مصاولتهم بكل شدة وحزم واستمر في ذلك حتى تمكن في النهاية من التغلب ثانية على هؤلاء الملوك واسترداد معظم ما كان في سيطرة الحارث وتشتيت شمل جموعه .

ولقد ظل الحارث متمرداً مستمسكاً في بعض انحاء بلاد الترك ومعه جماعة من انصاره إلى ان صارت الخلافة الى يزيد بن الوليد اي نحو سبع سنين . وكان النزاع بين المضريين واليمانيين قد اشتد في خراسان وخشي نصر بن سيار الذي صار والياً ان يغتنم الحارث الفرصة ويقدم على خراسان فأرسل اليه يعرض عليه ان يحصل له على امان من الخليفة وان يرد اليه امواله ويطلق سراح من اعتقل من ذويه فوافق فأرسل نصر الى الخليفة رسولا بذلك فوافق بدوره وأصدر اليه كتاب امان وامر برد امواله واطلاق سراح ذويه فجاء الى خراسان . وفي هذه الاثناء مات الخليفة يزيد وصارت الخلافة الى مروان فقال الحارث انما امنني يزيد ومروان لا يجيز هذا الامان فلا آمنه ثم دعا الى البيعة لنفسه . فنصحه بعض رجال الجند فأبى وارسل الى نصر يقول له اجعل الامر شورى فأبى بدوره ولكنه عرض عليه ولاية ثغر سمرقند او طخارستان او ما وراء النهر فأبى بدوره ، وقال انا صاحب الرايات السوداء فقال له خذ ما تشاء من مال وسلاح واذهب الى الشام فان كنت حقاً كذلك واظهرك الله فأنا في طاعتك .

وفي هذه الاثناء اشتد النزاع بين اليمانيين بزعامة زعيم اسمه الكرماني والمضريين بزعامة نصر بن سيار فحاول الحارث ان يجعل نفسه قطب رحى في هذا النزاع واندمج فيه متقلباً بين الطرفين فلم يلبث ان قتل في احدى جولات النزاع .

وقد يبدو من سيرة الحارث انها كانت شاذة عن سيرة الخوارج الصادقين الذين كانوا لا يهادنون ولا يساومون . ولقد روى الطبري في سياق اخبار هذه السيرة ان الحارث لم يكن ذا سيرة حسنة وانه كان غداراً خبيثاً . وان احد رفاقه من قواد الجند حينما سمعه يدعو الى

كتاب الله وسنة رسوله والبيعة للرضى قال له متعجباً أنت يا حارث تدعو إلى ذلك . والله لو أن جبريل عن يمينك وميكائيل عن يسارك ما صدقتك ، حيث ينطوي في هذا تعليل لذلك الشذوذ مع انطواء هذه الحركة على صورة اخرى من صور الحركات التي كانت تتسم بسمة الخوارج [١] .

ولقد كان مع الحارث قائد اسمه بشر بن جرموز الضبي واتهمه بانه انما قام بحركته لمآرب شخصي وتمرد عليه . وانضوى اليه اربعة آلاف وتسموا بالفئة العادلة . واخذ بشر يدعو الى كتاب الله وسنة رسوله وان يكون الامر شورى بين المسلمين . وذلك سنة ١٢٨ وبعد أن حصل الحارث على امان يزيد بن الوليد فكان ذلك حركة خارجية جديدة في خراسان .

ولقد كان بشر وجماعته مضريين فاصطدموا باليمانيين الذين اعتبروا نشاطهم نشاطاً قبلياً ضدهم وكان بينهم صيال دموي انتهى بقتل بشر وكثير من جماعته . فانفرط بذلك عقد حركتهم [٢] .

ثم سجلت الروايات حركة اخرى في سنة ١٣٠ في خراسان بزعامة شخص اسمه شيبان بن مسلمة الذي وصفه سياق الطبري بالحروري وقال عنه انه كان يرى رأي الخوارج ويعلن البراءة من مروان وعماله .

ولقد روي ان ابا مسلم أرسل اليه يدعوه الى البيعة للعباسيين فقال له أنا ادعوك الى بيعتي فأرسل اليه إن لم تدخل معي فارتحل عن منزلك الذي انت فيه . واستنصر شيبان بالكرماني زعيم اليمانيين فلم ينصره فسار الى سرخس واجتمع عليه جمع كثير من بكر بن وائل . وارسل إليه ابو مسلم رسولا يطلب منه الكف عن نشاطه فسجن الرسول فسير أبو مسلم حينئذ حملة طاردته وقتلته مع عدد كبير من انصاره وبذلك انفرطت حركته التي كانت اخرى حركات

---

(١) نبذة الحارث بن سريج مقتبسة من الطبري ج ٥ ص ٤٢٨ – ٤٣٩ و٥٩١ – ٥٩٢ و ج ٦ ص ٢ – ١١ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠ – ١٣ .

الخوارج في عهد الدولة الاموية [1] .

وهكذا تكون حركة الخوارج قد ظهرت في عهد الدولة في معظم البلاد التي كانت تحت سلطان هذه الدولة في صور واشكال وادوار مختلفة . وقد نكون اطلنا الكلام عنها وتوسعنا في شرح احداثها . ولقد قصدنا من ذلك الى التنويه بهذه الحركة الخطيرة الفذة في التاريخ من جهة واظهار ملامحها ونقاط ضعفها وآثارها التي المعنا اليها في مطلع النبذة من جهة اخرى.

وننبه إلى ان هذه الحركة لم تنته بانتهاء الدولة الاموية . بل استمرت حية في زمن الدولة العباسية ايضاً وسجل التاريخ لها كثيراً من الافكار والصور والاحداث في المشرق والمغرب اندمج فيها عرب وغير عرب في نطاق الأسلام الذي جمعهم مما سوف يأتي شرحه في الجزء التالي ان شاء الله .

٢ – خروج الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهما ومقتله

لم تكد تهدأ حركة الخوارج الاولى نتيجة لموقف معاوية وولاته موقف الحزم والشدة منها حتى كانت حركة خروج الحسين بن علي ومقتله بعد مدة قصيرة من موت معاوية .

ولقد كانت هذه الحركة من اشأم المعكرات التي عكرت صفاء الدولة الاموية والسلطان العربي والتاريخ الاسلامي . وكان لها تأثير شديد في تاريخ الاسلام يفوق ما كان من تأثير فتنة عثمان وإن كانت من ناحية ما تعد امتداداً لها .

ولقد كثرت الروايات حول هذا الحادث ووقائعه وبواعثه وظروفه في بعضها تغاير وتخالف في الاسماء والاحداث .ويبرز على بعضها الهوى وقصد التسويء او التبرير والدفاع . ولكن بعضها بل كثير منها لا يخلو من سمة الصحة والصدق إذا ما انعم النظر فيها بحيث يصح القول إنه من المستطاع الوصول منها إلى ما تطمئن اليه النفس من الوقائع والاستنتاجات التي تضع الحادث في موضعه الصحيح والمعقول .

واكثر الكتب القديمة استيعاباً للروايات هو الجزء الرابع من تاريخ الطبري الذي

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٥٠ .

استغرقت منه اكثر من مئة صفحة . وقد سار على عادته الحميدة في ايراد مختلف الروايات من مختلف الطرق . ولا يلمح منه تعصب ولا غلو ولا يوصف بنوع خاص بالتعصب ضد أهل البيت بل هو شديد التوقير والاحترام لهم كأهل السنة والجماعة . وما احتوته الكتب القديمة الاخرى حول الحادث نفس ما جاء في بعض روايات الطبري او متطابق معه .

وليس هناك كتب اقدم واكثر استيعاباً للروايات منه . وقد كتب كتابه في زمن الدولة العباسية التي كانت تبذل كل جهد في تسويء سمعة الدولة الاموية وهذه نقطة هامة في الموضوع ، بحيث يمكن ان يقال انه الاولى بالاعتماد بالدرجة الاولى .

وفي كتب الشيعة روايات وتعليقات كثيرة عن هذا الحادث . غير انها احدث من كتاب الطبري من جهة وشيبت اكثر من غيرها بالهوى والصنعة والتبرير والتسويء من جهة اخرى شأن ما يرويه ويكتبه مؤلفو الشيعة اندفاعاً مع اهوائهم بقطع النظر عن أي اعتبار آخر . مما يوجب اشد التحفظ والحذر .

ونشرع الآن في عرض الوقائع المستندة الى الروايات القديمة فنقول .

لقد ذكرنا في سيرة معاوية ان الحسين كان خامس خمسة امتنعوا عن البيعة بولاية عهد يزيد في حياة معاوية وان معاوية لم يلح عليهم بعد ان حصل على بيعة الجمهور الاكبر من المسلمين في مختلف الامصار وفيهم كثير من اصحاب رسول الله ﷺ الاحياء .

فلما مات معاوية واستلم يزيد الحكم كتب لولاة الامصار بتجديد البيعة له . وكتب فيما كتب الى والي المدينة ونبه عليه بصورة خاصة بأخذ البيعة من الذين امتنعوا عنها في حياة ابيه ولقد كان عبد الرحمن بن ابي بكر احد الخمسة قد مات قبل موت معاوية وكان عبد الله ابن عباس وعبد الله بن عمر في مكة ولم يكن في المدينة الا الحسين وعبد الله بن الزبير . فاستدعى الوالي الحسين واخبره بموت معاوية وطلب منه البيعة ليزيد فقال إنا لله وإنا اليه راجعون ، رحم الله معاوية وعظم لك الاجر . اما ما سألتني من البيعة فان مثلي لا يعطيها سراً ولا اراك تجتزىء بها مني سراً قال أجل فقال فاذا خرجت الى الناس فدعوتهم دعوتنا معهم فكان امراً واحداً ، فاستحسن الوالي قوله . ثم خرج من عنده وتمكن من مغادرة مكة مع بنيه واخوته وبني اخيه وجل اهل بيته . وكان ذلك في ٢٨ رجب سنة (٦٠) اي

بعد أستلام يزيد للحكم بعشرين يوماً .

ولم تذكر الروايات ان الوالي حاول منعه من الخروج وإرغامه على البيعة مع أنـــه لا يمكن أن يكون عرف ذلك ، بل هناك رواية تذكر أن معاوية قال ليزيد إن الحسين أحب الناس إلى الناس فصل رحمه وارفق به يصلح لك وأن يزيد حينما كتب لواليه بشأنه قال له إن امير المؤمنين قد عهد إلي بالرفق بالحسين واستصلاحه [١] . ورواية تذكر أن الوالي حينما أرسل اليه ليأخذ بيعته قال له أخرني وارفق فأخره فخرج إلى مكة [٢] . بل هناك روايتان مروان بن الحكم قال للوالي لئن فلت منك الحسين فلــن تقدر عليه وحرضه على اجباره حتى وعلى قتله اذا امتنع فقال له الوالي اخترت لي التي فيها هلاك ديني . والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت من مال الدنيا وملكها واني قتلت الحسين أن قال لا ابايـع [٣] .

ولقد امتنـع ابن الزبير عن البيعة ليزيد حينما طلب الوالي منه ذلك وتمكن من الخروج بدوره الى مكة فذكرت الروايات أن الوالي سرح وراءه ثمانين راكباً فطلبوه فلم يقدروا عليه [٤] وأن يزيد أمر والي المدينة بارسال حملة إلى مكة لارغامه [٥] ولم تذكر من هذا شيئاً بالنسبة للحسين . مع أن موقف الرجلين واحد بل وخطر الانتقاض والنجاح واستجابة الناس بالنسبة للحسين اكثر وروداً منه بالنسبة لابن الزبير بحيث إذا صح الخبر يكون يزيد وواليه قد استمرا على سياسة الرفق والاستصلاح للحسين وبحيث يصح القول إن الحسين لم يلاحق ولم يعنف معه أو حسب التعبير المشهور لم يحرج فيخرج .

ولقد ذكرت الروايات ان عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس لقيا الحسين وابن الزبير في مكة وعلما منهما امتناعهما عن البيعة فحذراهما وناشداهما تقوى الله وعدم تفرقة الجماعة ثم قدما الى المدينة فبايعا [٦] حيث يفيد هذا ان الصحابيين الجليلين شعرا بنية مبيتة في نفس الحسين

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٦٢ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٥٧ .

(٣) نفس المصدر والصفحة ، انظر ايضاً الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٧ .

(٤-٥) الطبري ج ٤ ص ٢٥٢و٢٥٤-٢٥٥ .

(٦) ٢٥٤ .

وابن الزبير .

وهناك رواية اخرى تؤيد وجود هذه النية في الحسين في حياة معاوية حيث روى ابن قتيبة [1] أن سليمان بن صرد من كبار انصار علي بن ابي طالب في الكوفة وغيره أنكروا على الحسن تنازله لمعاوية وجاؤوا إلى الحسين فقال لهم ليكن كل رجل حلساً من احلاس بيته (أي لا يأتي بحركة ما) ما دام معاوية حياً . فإنها بيعة كنت والله كارها لها . فان هلك نظرتم ونظرنا ورأيتم ورأينا .

ومما ذكرته الروايات [2] ان محمداً بن الحنفية اخا الحسين لما علم بنية اخيه بالخروج إلى مكة قال له (يا اخي انت احب الناس إلي وأعزهم علي . ولست ادخر النصيحة لاحد من الخلق احق بها منك ، تنح بتبعتك عن يزيد وعن الامصار ما استطعت ثم ابعث رسلك إلى الناس فادعهم إلى نفسك فان بايعوا لك حمدت الله على ذلك وإن اجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك إني اخاف ان تدخل مصراً من هذه الامصار وتأتي جماعة من الناس فيختلفون بينهم فمنهم طائفة معك واخرى عليك فيقتلون لأول الأسنة فاذا خير هذه الامة كلها نفساً وأباً واماً أضيعها دماً واذلها اهلا) قال له الحسين فإني ذاهب يا اخي قـــال فانزل مكة فان اطمأنت بك الدار فسبيل ذلك وان نبت بك لحقت بالرمال وشعف الجبال حتى تنظر الى ما يصير امر الناس فانك اصوب ما يكون رأياً واحزمه عملا حين تستقبل الامور استقبالا ولا تكون الامور عليك ابداً اشكل منها حين تستدبرها استدباراً قال يا اخي قد نصحت فاشفقت فارجوا ان يكون رأيك سديداً موفقاً . وان عبد الله بن مطيع احد زعماء المدينة لقي الحسين وهو يتهيـــأ للخروج فقال له أين تريد قال أما الآن فاني اريد مكة . أما بعدها فاني استخير الله فقال له (خار الله لك وجعلنا فداك فاذا انت اتيت مكة فاياك أن تقرب الكوفة فانها بلدة مشؤومـــة بها قتل ابوك وخذل اخوك واغتيل بطعنة كادت تأتي على نفسه . الزم الحـــرم فانك سيد

---

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٥٣ ويقصد بجملة تنح بتبعتك عن يزيد وعن الامصار (لاتحمله جريرتك) وروى هذا ابن الاثير ايضا ج ٤ ص ٦-٧ .

العرب ، لا يعدل بك والله اهل الحجاز احداً ويتداعى اليك الناس مــن كل جانب ، لا تفارق الحرم فداك عمي وخالي . فوالله لئن هلكت لنسترقن بعدك)[1] حيث يفيد هــذا وذاك ايضاً ان الحسين حينما خرج من المدينة كان مبيتاً الخروج على يزيد والدعوة لنفسه إن وجدالاسباب متوفرة .

والروايات متفقة على ان الحسين بعد قليل من قدومه الى مكة ارسل اليه اهل الكوفة رسلا يقولون له (قد حبسنا أنفسنا عليك ولسنا نحضر الجمعة مع الوالي فاقدم الينا) وارسلوا اليه كتباً في ذلك .

وقد روى الطبري صيغة كتاب ارسله سليمان بن صرد كبير الشيعة في الكوفة نتيجة لاجتماع الشيعة في بيته وقرارهم دعوة الحسين اليهم هذه هي (بسم الله الرحمن الرحيم لحسين بن علي من سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وحبيب بن مظاهر وشيعته من المؤمنين والمسلمين من اهل الكوفة . سلام عليك . فإنا نحمد اليك الله الذي لا إله الا هو اما بعد فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد الذي انتزى على هذه الامة فابتزها أمرها وغصبها فيأها وتآمر عليها بغير رضى منها ثم قتل خيارها واستبقى شرارها وجعل مال الله دولة بين جبابرتها واغنيائها فبعداً له كما بعدت ثمود . انه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق . والنعمان بن بشير في قصر الامارة لسنا نجتمع معه في جمعة ولا نخرج معه في عيد . ولو قد بلغنا انك اقبلت الينا اخرجناه حتى نلحقه بالشام إن شاء الله والسلام ورحمة الله عليك ثم اتبعوا هذا الكتاب بكتاب ثان مع رسول ثان هذه صيغته (بسم الله الرحمن الرحيم لحسين بن علي من شيعته اما بعد فحيهلا فان الناس ينتظرونك ولا رأي لهم في غيرك فالعجل العجل والسلام عليك)[3] ثم اتبعوه بكتاب ثالث مع رسول ثالث فيه استعجال له[4] .

وفي رواية يرويها الطبري ايضاً ان اهل الكوفة ارسلوا للحسين يقولون له أن معك

---

(١) نفس المصدر ص ٢٦١ .

(٢) نفس المصدر ٢٦١-٢٦٢ .

(٣-٤) نفس الجزء ص ٢٦١- ٢٦٣و٢٩٤ انظر ايضا ابن الاثير ج ٤ ص ٨-٣٨ .

مئة الف [1] . ثم تواترت عليه الرسل بالكتب فقرر ان يبعث ابن عمه مسلم بن عقيل بن ابي طالب الى الكوفة لينظر ما كتبوا له فان كان حقاً خرج اليهم . وارسل معه كتاباً موجهاً لعموم المسلمين هذا نصه [2] (اما بعد فان هانئاً وسعيداً قدما علي بكتبكم وكانا آخر من قدم علي من رسلكم وقد فهمت الذي ذكرتم وقد بعثت اليكم أخي وابن عمي وثقتي من اهل بيتي وأمرته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم فإن كتب إليّ أنه قد أجمع رأي ملئكم واهل الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت به رسلكم وقرأت في كتبكم أقدم عليكم وشيكا . إن شاء الله . فلعمري ما الامام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله والسلام) .

وقد كتب الى اهل البصرة كذلك كتاباً جاء فيه (ان الله اصطفى محمداً ﷺ على خلقه واكرمه بنبوته واختاره لرسالته ثم قبضه إليه وقد نصح لعباده وبلغ ما أرسل به . وكنا أهله وأولياءه وأوصياءه وورثته واحق الناس بمقامه في الناس فاستأثر علينا قومنا بذلك فرضينا وكرهنا الفرقة وأحببنا العافية . ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه وقد أحسنوا واصلحوا وتحروا الحق فرحمهم الله وغفر لنا ولهم . وقد بعثت رسولي اليكم بهذا الكتاب وانا ادعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه فان السنة قد أميتت وان البدعة قد أحييت وإن تسمعوا قولي وتطيعوا امري أهدكم سبيل الرشاد والسلام عليكم) [3] .

وغادر عقيل مكة في ٨ ذي الحجة سنة ٦٠ فلما وصل إلى الكوفة نزل في دار المختار بن ابي عبيد الثقفي وأخذ الشيعة يجتمعون عليه ويؤكدون له ما كتبوه . وعلم والي الكوفة النعمان بن بشير الانصاري بالامر فجمع الناس وخطبهم قائلا (اتقوا الله عباد الله ولا تسارعوا الى الفتنة والفرقة فان فيها يهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الاموال . وإني احب العافية فلا اقاتل من لم يقاتلني ولا اثب على من لا يثب علي ولا اتحرش بكم ولا آخذ بالظنة والتهمة ولكنكم إن ابديتم صفحتكم لي ونكثتم بيعتكم وخالفتم إمامكم فوالله الذي لا إله إلا غيره لاضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ولو لم يكن منكم ناصر . أما إني ارجو ان

(١-٢) نفس الجزء ص ٢٦١-٢٦٣ و ٢٩٤ انظر ايضاً ابن الاثير ج ٤ ص ٨-٣٨ .

(٣) نفس الجزء ٢٦٦ .

يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل) فقام له رجل فقال إن موقفك موقف المستضعفين ولا يصلح الامر إلا الغشم (القوة والقسوة) فقال لأن اكون من المستضعفين في طاعة الله أحب إلي من ان اكون من الأعزين في معصية [1] .

وكتب انصار الامويين الى يزيد يشكون ضعف النعمان وعدم جده في الامر ويطلبون والياً اشد حزماً وقوة فاستشار اخصاءه فأشاروا عليه بعبيد الله بن زياد الذي كان والياً على البصره فكتب اليه بعهده على البصرة والكوفة معاً في كتاب يقول له فيه (لقد كتب إلي شيعتي من اهل الكوفة ان ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع لشق عصا المسلمين . فسر حين تقرأ كتابي حتى تأتي الكوفة فتطلبه حتى تثقفه فتوثقه او تقتله او تنفيه) [2] .

ولقد كان ممن قرأ كتاب الحسين الى البصرة المنذر بن الجارود فخشي ان يكون في الامر دسيسة فجاء الى عبيد الله ومعه الرسول فلما قرأ الكتاب ضرب عنق الرسول ثم جمع الناس وخطبهم قائلا : (اما بعد فو الله ما تقرن بي الصعبة ولا يقعقع لي بالشنان وإني لنكل لمن عاداني وسم لمن حاربني . انصف القارة من راماها . يا اهل البصرة ان امير المؤمنين ولاني الكوفة وأنا غاد اليها الغداة وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد . فاياكم والخلاف والارجاف فوالله الذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لاقتلنه وعريفه ووليه . ولآخذن الأدنى بالاقصى حتى تستمعوا لي ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق) [3] .

ثم جاء الكوفة وهو متعمم بعمامة سوداء ومعه جمع من اهل البصرة وفيهم المتشيع لآل

---

(١) نفس الجزء ص ٢٦٤-٢٦٥ وابن قتيبة يروي رواية اخرى عن موقف النعمان حيث روي انه قال (لابن بنت رسول الله احب الينا من ابن بحدل يعني يزيد فبلغ يزيد فعزله) ج ٢ ص ٤ الامامة والسياسة ، وهذه الرواية محل شك كبير لان بشير بن النعمان ظل صاحب مركز مرموق عند يزيد بعد الكوفة وهو الذي امره ان يجهز نساء الحسين بما يصلحهن ويحملهن الى المدينة على ما سوف يأتي شرحه في هذه النبذة ، وقد ارسله يزيد الى اهل المدينة حينما اعلنوا خلعه لينصحهم ويخوفهم على ما سوف يأتي في نبذة ثورة المدينة .

(٢) نفس الجزء ص ٢٦٥ .

(٣) ٢٦١ .

علي . فظنوه الحسين وصاروا يرحبون به ويخاطبونه بابن رسول الله . وكان ممن وقع في الوهم الوالي فلما قدم عبيدالله الى دار الامارةوطرق الباب هتف من ورائه (انشدك الله الا تجنبت عني فمالي في قتلك من أرب وما انا مسلم اليك اماتني) فصرخ به ابن زياد افتح لا فتحت فقد طال ليلك فسمعها شخص كان خلفه فعرف شخصيته وفتح النعمان وانفض الناس مذعورين ولقد كان المنزل الذي نزل فيه مسلم معروفاً فرأى ان يتحول الى منزل آخر فجاء الى دار هانيء بن عروة المرادي احد كبار الشيعة وقال له اتيتك لتجيرني وتضيفني فقال له رحمك الله لقد كلفتني شططاً ولولا دخولك داري لسألتك ان تخرج وآواه على مضض، واخذ الشيعة يختلفون اليه في هذه الدار ويعطونه البيعة للحسين حتى بلغ عدد المبايعين (١٨٠٠٠) وحينئذ كتب الى الحسين كتاباً يقول له فيه (اما بعد فان الرائد لا يكذب اهله وقد بايعني من اهل الكوفة ثمانية عشر الفاً فعجل الاقبال حين يأتيك كتابي فان الناس كلهم معك ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوى والسلام) [١] وحينئذ اعتزم الحسين الخروج الى العراق .

ولقد رويت روايات كثيرة غير منقوضة بروايات اخرى تفيد ان الحسين نصح من اطراف عديدة بعدم الخروج ، من ذلك ان عمر بن عبد الرحمن المخزومي حدث انه لما قدمت كتب اهل العراق الى الحسين وتهيأ للسفر اليهم وهو في مكة جئته وقلت له اريد ان انصحك ان كنت ترى ان تستنصحني والا كففت فقال قل فوالله ما اظنك بسيء الرأي ولا قبيح الهوى فقال له بلغني انك تريد المسير الى العراق واني مشفق عليك من مسيرك انك تأتي بلداً فيه عماله وامراؤه ومعهم بيوت الاموال وانما الناس عبيد للدرهم والدينار ولا آمن عليك ان يقاتلك من وعدك نصره ومن انت احب اليه ممن يقاتلك معه فقال جزاك الله خيراً يا ابن عم فقد والله علمت انك مشيت بنصح وتكلمت بعقل ومهما يقض من امر يكن اخذت برأيك او تركته فانت عندي احمد مشير وانصح ناصح فانصرف من عنده فدخلت على الحارث بن خالد بن العاص فسألني هل لقيت حسيناً قلت نعم قال فما قال لك وما قلت له فأخبرته فقال نصحته ورب المروة الشهباء ثم قال :

رب مستنصح يغش ويردي ... وظنين بالغيب يلفى نصيحا [٢]

---

(١) ص٢٨٧ (٢)ص ٢٧٠ و ٢٨١ .

وروى المسعودي : ان ابا بكر بن الحرث بن هشام دخل على الحسين فقال له يا ابن عم ان الرحم يظائرني عليك ولا ادري كيف أنا في النصيحة لك فقال ما انت ممن يستغش فقال كان ابوك أشد بأساً والناس له ارجى ومنه اسمع وعليه اجمع فسار إلى معاوية والناس مجتمعون عليه إلا أهل الشام وهـــو اعز منه فخذلوه وتثاقلوا عنه حرصاً على الدنيا فجرعوه الغيظ وخالفوه ثم صنعوا بأخيك بعد ابيك ما صنعوا وقد شهدت ذلك كله ثم أنت تريد أن تسير إلى الذين عدوا على أبيك واخيك تقاتل بهم أهل الشام واهل العراق ومن هو اعـــد منك واقوى والناس منه أخوف وله ارجى . فلو بلغهم مسيرك لاستغطوا الناس بالاموال وهم عبيد الدنيا فيقاتلك من قد وعدك ان ينصرك ويخذلك من أنت احب إليه ممن ينصره فاذكر الله في نفسك فقال الحسين جزاك الله خيراً يا ابن عم فقد اجهدت رأيك ومهما يقض الله يكن [1] .

وروى الطبري ان عبد الله بن عباس جاء اليه فقال يا ابن عم قد ارجف الناس أنك سائر إلى العراق فبين لي ما انت صانـع فقال إني اجمعت المسير في احد يومي هذين ان شاء الله فقال له إني اعيذك بالله من ذلك . أخبرني اتسير الى قوم قد قتلوا اميرهم وضبطوا بـــلادهم ونفوا عدوهم فان كانوا فعلوا ذلك فسر إليهم وإن كانوا إنما دعوك اليهم واميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تجبي بلادهم فانهم إنمـــا دعوك إلى الحرب والقتال ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك وان يستنفروا اليك فيكونوا اشد الناس عليك [2] فقـــال الحسين واني استخير الله وانظر ما يكون [3] واتاه مرة ثانية فقال له اني اتصبر ولا اصبر اني اتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال . ان اهل العراق قوم غدر بهم فلاتقربنهم أقم بهذا البلد فانك سيد اهل الحجاز . وان كان اهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب اليهم فلينفوا عدوهم ثم اقدم عليهم. فان ابيت الا ان تخرج فسر الى اليمن فان بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة . ولابيك بها شيعة وانت عن الناس في عزلة فتكتب الى الناس وترسل دعاتك فاني ارجو ان يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية فقال له الحسين يا ابن عم إني والله لاعلم انك ناصح مشفق ولكني قد ازمعت على المسير فقال له ان كنت سائراً فلا

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٥ — ٦ .

(٢) ج ٤ ص ٢٨٧ (٣) ٢٨٨ .

تسر بنسائك وجيشك فوالله اني لخائف عليك ان تقتل كما قتل عثمان وولده ينظرون اليه ثم قال له لقد اقررت عين ابن الزبير بتخليتك اياه والحجاز والخروج منها . وهو يوم لا ينظر اليه أحد معك. والله الذي لا اله الا هو لو أعلم انك اذا اخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علي وعليك الناس أطعتني لفعلت ذلك ثم خرج فمر بعبد الله بن الزبير فقال له قرت عينك يا ابن الزبير هذا حسين يخرج إلى العراق وعليك الحجاز . ثم انشد متمثلا :

يا لك من قنبرة بمعمر ... خلالك الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئت ان تنقري

ومما رواه الطبري في هذا السياق ان ابن الزبير جاءه وشجعه على المسير وقال له لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت بها . وان الحسين ادرك انما شجعه لتخلو له الحجاز [1] .

ولقد روى الطبري ان الحسين لمـــا خرج من مكة اعترضه رسل الوالي عمرو بن سعيد

---

(١) ج ٤ ص ٢٨٨ ومن الواجب ان نذكر ان هناك روايات اخرى رواها الطبري جاء في احداها ان ابن الزبير قال للحسين حينما قال له ما قاله وخشي ان يتهمه اما انك لو اقمت بالحجاز ثم اردت هذا الامر هنا مـــا خولف عليك ان شاء الله (٢٨٨) وفي احداها ان عبد الله بن مسلم والمذري بن المشمعل جمعا الزبير يسار الحسين بين الحجر والباب فيقول له ان شئت ان تقيم اقمت فوليت هـــذا الامر فآزرناك وساعدناك ونصحنا لك وبايعناك فقال له الحسين ان ابي حدثني إن بها كبشاً يستحل حرمتها فمـــا احب ان اكون ذلك الكبش فقال له فأقم ان شئت وتوليني الامر فتطاع ولا تعصى فقال له وما اريد هذا ضاً (٢٨٩) وفي احداها ان شخصاً سمع مسارة بـــين الحسين وابن الزبير فقال هذا ان الحسين التفت الينا فقال اتدرون ما يقول ابن الزبير فقلنا لا فقال يقول اقم في هذا المسجد اجمع لك الناس ثم قال الحسين والله لان اقتل خارجاً منها بشبر احب الي من ان اقتل داخلا منها بشبر ، وايم الله لو كنت في جحرها هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا في حاجتهم . ووالله ليعتدن علي كما اعتدت اليهود على السبت (٢٨٩) .

وقد روى ابن كثير رواية رابعة في هذا الصدد جاء فيها ان الحسين قال لابن الزبير اتتني بيعة اربعين الفاً يحلفون بالطلاق والعتاق فقال له اتخرج الى قوم قتلوا اباك واخرجوا اخاك . (البداية والنهاية ج ٨ ص ١٦١) .

بقيادة اخيه يحيى فقالوا له أين تذهب وطلبوا منه الانصراف فأبى فتدافع الفريقان وتضاربا بالسياط وامتنع الحسين منهم ثم مضى فناداه يحيى يا حسين اتق الله ولا تخرج من الجماعة وتفرق هذه الامة فأجابه بالآية لي عملي ولكم عملكم انتم بريئون مما اعمل وانا بريء مما تعملون ثم مضى [1] . ولا يبعد ان يكون الوالي قد ارسل الرسل مع اخيه لبذل محاولة في رده .

ولما بلغ التنعيم التقى بقافلة آتية من والي اليمن الى يزيد فيها حلل وورس فاحتازها ثم قال لاصحاب الابل من احب منكم المضي معنا الى العراق اوفينا كراءه واحسنا صحبته فمضى معه بعضهم واعطى الآخرين كراءه فكان هذا اول عمل عدائي من الحسين استحل به قافلة للدولة واخذها .

وقد روى الطبري كذلك أن عبد الله بن جعفر لما علم بخروج الحسين من مكة ارسل اليه كتاباً مع ابنيه عون ومحمد يقول فيه (اني اسألك بالله لما انصرفت حين تنظر في كتابي فاني مشفق عليك من الوجه الذي توجه اليه ان يكون فيه هلاكك واستئصال اهل بيتك ان هلكت اليوم طفيء نور الارض فانك علم المهتدين ورجاء المؤمنين فلا تعجل بالسير فاني في اثر الكتاب) .

ثم جاء الى عمرو بن سعيد الوالي فقال له اكتب للحسين كتابا تجعل له فيه الامان وتمنيه فيه البر والصلة وتوثق له في كتابك وتسأله الرجوع لعله يطمئن الى ذلك فيرجع فقال له عمرو اكتب ما شئت حتى اختمه فكتب كتاباً باسمه هذا نصه (أما بعد فاني أسأل الله ان يصرفك عما يوبقك وان يهديك لما يرشدك . بلغني انك توجهت الى العراق واني اعيذك بالله من الشقاق فاني اخاف عليك فيه الهلاك وقد بعثت اليك عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد فأقبل الي معهما فان لك عندي الامان والصلة والبر وحسن الجوار لك الله علي بذلك شهيد وكفيل) فختمه عمر وذهب عبد الله ويحيى به حتى لحقا بالحسين واقرآه الكتاب فاعتذر وقال (اني رأيت رؤيا فيها رسول الله ﷺ وامرت فيها بأمر أنا ماض له علي كان اولى فقالا له فما تلك الرؤيا قال ما حدثت بها احداً وما انا محدث بها حتى القى ربي) .

---

(١) ج ٤ ص ٢٨٩-٢٩٠ .

ثم سلمها جواباً لسعيد يقول له (انه لم يشاقق الله ورسوله من دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين ، وقد دعوت الى الامان والبر والصلة . فخير الامان امان الله ، ولن يؤمن الله يوم القيامة من لم يخفه في الدنيا فنسأل الله مخافة في الدنيا توجب لنا امانة يوم القيامة وان كنت نويت بالكتاب صلتي وبري فجزيت خيراً) ثم استمر في سبيله [1] .

ولقد روى ابن كثير [2] ان عبد الله بن عمر لما سمع بخروج الحسين الى العراق وكان هو في مكة لحق به على مسيرة ثلاث ليال فقال له اين تريد قال العراق . وهذه كتبهم وبيعتهم فقال له ابن عمر اني محدثك حديثاً ان جبريل اتى النبي ﷺ فخيره بين الدنيـــا والآخرة فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا . وانك بضعة من رسول الله ، والله ما يليها احد منكم ابـداً وما صرفها الله عنكم الا للذي هو خير لكم فابى ان يرجع ، فاعتنقه وبكى وقال له استودعك الله من قتيل .

كما روي عن سعيد ابن مينا انه سمع عبد الله بن عمرو يقول عجل حسين قدره . والله لو ادركته ما تركته يخرج الا ان يغلبني ، ببني هاشم فتح هذا الامر وببني هاشم يختتم ، فاذا رأيت الهاشمي قد ملك فقد ذهب الزمان [3]

كذلك روي ان ابا سعيد الخدري جاء الى الحسين وقال له (اني لك ناصح واني عليك مشفق ، وقد بلغني انه قد كاتبك قوم من شيعتكم بالكوفة يدعونك الى الخروج اليهم ، فلا تخرج . فاني سمعت اباك يقول بالكوفة والله لقد مللتهم وابغضتهم وملوني وابغضوني وما يكون منهم وفاء قط . ومن فاز منهم فاز بالسهم الاخيب . والله ما لهم نيات ولا عزم على امر ولا صبر على السيف) [4] .

وروي كذلك ان عبد الله بن مطيع لقيه في مكة فقال له (فداؤك امي وابي . امتعنا بك ولا تسر الى العراق . ولئن قتلك هؤلاء يتخذونا عبيداً وخولا) [5]

---

(١) ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٦٠ .

(٣-٥) نفس المصدر ص ١٦١-١٦٣ .

وروي ان جابر بن عبد الله قال (كلمت الحسين وقلت له اتق الله ولا تضرب الناس بعضهم ببعض فو الله ما حمدتم ما صنعتم فعصاني) [1] .

وروي ايضاً ان يزيـــد بن معاوية كتب الى عبد الله بن عباس يطلب منه ان يكف الحسين وقال له (احسبه قد جاءه رجال من المشرق فمنوه بالخلافة وعندك منهم خبر وتجربة فان كان قد فعل فقد قطع راسخ القرابة وانت كبير اهل بيتك والمنظور اليه فاكففه عن الفرقة . وان ابن عباس دخل على الحسين فكلمه طويلا وقال له انشدك ان تهلك غداً بحال مضيعة ، لا تأتي العراق وان كنت لا بد فاعلا فأقم حتى ينقضي الموسم وتلقى الناس وتعلم ما يصدرون ثم ترى رأيك فأبى) [2] .

وروي ان اخاه محمداً بن الحنفية لما علم بعزمه جاء من المدينة الى مكة ونصحه بعدم الخروج فلما لم يستجب له منع اولاده من الذهاب معه [3] .

وروى الطبري ان الفرزدق لقي الحسين في طريقه فسأله عن انباء الناس خلفه فقال له (من الخبير سألت ، قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني امية والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء ، قال صدقت) ثم حرك راحلته ومضى [4].

وكذلك روي ان احد بني عكرمة لقيه وهونازل في بطن العقبة فسأله اين تريد فحدثه فقال له اني انشدك الله لما انصرفت فو الله لا تقدم الا على الاسنة وحد السيوف ، فلو كان الذين بعثوا اليك كفوك مؤونة القتال ووطئوا لك الاشياء فقدمت عليهم كان ذلك رأياً فقال له يا عبد الله انه ليس يخفى علي ما رأيت ولكن الله لا يغلب على امره ثم ارتحل [5] بل ان الحسين استمر في سيره بعد ان وصله خبر مقتل مسلم وتفرق الناس عنه ايضاً .

ولقد ذكرنا قبل خبر التجاء مسلم الى دار هانيء بن عروة وكان هذا لا ينقطع عن مجلس

---

(١) نفس المصدر ص ١٦١–١٦٣ .

(٢–٣) ص ١٦٤–١٦٥ .

(٤) الطبري ج ٤ ص ٢٩٠ .

(٥) ص ٣٠١ انظر هذه الروايات في ابن الاثير ج ٤ ص ١٥–١٨ .

ابن زياد فلما نزل عليه مسلم انقطع عن مجلسه واذاع انـــه مريض فجاء ابن زياد لعيادتـــه فهم الشيعة بقتله في الدار فنجا بتنبيه بعض من كان معه . ولمـــا تأكد من ان هانئاً يخفي مسلماً في داره استدعاه وعاتبه وطلب منه تسليم مسلم فأبى فهدده بدوره بل نصحه بالفرار وقال له ان لابيك عندي يداً وبلاء فاخرج قبل ان تقتل فأثاره وضربه وكسر انفه واعتقله ثم جمع الناس في المسجد الجامع وخطبهم وهددهم وتوعدهم . فرأى مسلم ان يبادر إلى العمل ويأخذابن زياد قبل ان يأخذه فاختار أربعة آلاف ممن بايعوه مشاة وخيالة وسار بهم نحو القصر حتى احاطوا به .

وقابل ابن زياد الموقف برباطة جأش وطلب من اشراف الكوفة تخذيل الناس عـــن مسلم وتخويفهم من العصيان والنكال والحرمان من العطاء ففعلوا فأخذ الناس ينصرفون عن مسلم فنزل عدد من كان معه في اول النهار الى ثمانمائة ثم استمر العـــدد في التناقص الى الثلاثين ثم انفض عنه هؤلاء ايضاً فمضى على وجهه يتلدد في ازقة الكوفة لا يدري اين يذهب حتى اتى الى باب امرأة كندية فطلب شربةماء ولما لم ينصرف سألته عن امره فأخبرهاوطلب منها ان تخفيه ففعلت .

وخفتت النأمة حتى ارتاب ابن زياد من خفوتها ، ولما تحقق من انصراف الناس عـــن مسلم جمع الناس وخطبهم قائلا (اما بعد فان ابن عقيل السفيه الجاهل قد اتى ماقد رأيتم من الخلاف والشقاق . فبرئت ذمة الله من رجل وجدناه في داره ومن جاء به فله ديته فاتقوا الله والزموا طاعتكم وبيعتكم ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا) ثم هتف بصاحب شرطته ثكلتك امك ان خرج هذا الرجل ولم تأتني به وقد سلطتك على دور اهل الكوفة فابعث مراصدة على افواه السكك واصبح غداً واستبر الدور وجس خلالها حتىتأتينيبه . وعلم هذا بمكانـه فارسل ثلة من الشرطة اليه فخرج اليهم مسلم يائساً مستبسلا واخذ يصول عليهم ويلقي الرعب فيهم . وهتف محمد بن الاشعث به يا فتى لك الامان . لا تقتل . فاستمر يقاتل وهو يقول :

اقسمت الا اقتـــل الا حراً	وإن رأيت الموت شيئاً نكرا
كل امرىء يومـــاً ملاق شراً	ويخلـط البـــارد سخناً مـرا
رد شعاع الشمس فاستقرا	اخـاف ان اكـذب او اغرا

وكرر ابن الاشعث هتافه له فقبل بعد ان اثخنته الحجارة التي رشق بها فاستسلم فأخذوا

سيفه فقال هذا اول الغدر وبكى وكان بقربه عمرو بن عبيدالله بن عباس فقال له ان من يطلب مثل الذي تطلب اذا نزل به الذي نزل بك لا يبكي فقال له والله ما لنفسي ابكي ولا لها من القتل ارثي ولكن ابكي لاهلي المقبلين أبكي الحسين وآل الحسين ، ثم اقبل على محمد بن الاشعث فقال له يا عبدالله والله ستعجز عن اماني فهل عندك خير تستطيع ان تبعث من عندك رجلا على لساني يبلغ حسينا فاني لا اراه الا قد خرج اليكم هو واهل بيته فيقول له ان مسلماً اسير ولا يمسي حتى يقتل فارجع بأهل بيتك ولا يغرك اهل الكوفة فانهم اصحاب ابيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت او القتل ، وقد كذبوني وكذبوك وليس للكذاب رأي . فوعده بأن يفعل ثم ارسل شخصاً يخبره خبر مسلم ورسالته فلقي الحسين واخبره فقال كل ما حم نازل وعند الله نحتسب انفسنا وفساد امتنا [1] . ثم استمر في رحلته وكان في امكانه ان يعود .

ولقد احضر ابن زياد مسلماً الى مجلسه واخذ يندد به ويتحاور معه فلما تيقن انه قاتله طلب ان يسمح له بمكالمة عمر بن سعيد بن ابي وقاص الذي كان في المجلس فسمح له فقال له مسلم ان علي ديناً استدنته منذ قدمت الكوفة سبعمائة درهم فاقضها عني وانظر في جثتي فاستوهبها من ابن زياد فوارها وابعث الى حسين من يرده فاني قد كتبت اليه اعلمه ان الناس معه ولا اراه الا مقبلا . فذكر عمر لابن زياد ما قاله له فقال له اما مالك فهو لك ولسنا نمنعك ان تصنع فيه ما احببت واما جثته فانا لا نبالي اذا قتلناه ما صنع بها ، واما حسين فانه ان لم يردنا لم نرده ، وان ارادنا لم نكف عنه .

وتذكر رواية اخرى انه ابى الوعد بتسليم جثته وقال انه جاهدنا وجهد على هلاكنا ، ولا تذكر الرواية ان عمر ارسل رسولا الى الحسين ، ولكن المرجح انه فعل اذ لم يمنعه ابن زياد وهو قرشي قريب النسب من حسين ومسلم .

ويروي الطبري بعد هذا حواراً جرى بين ابن زياد ومسلم وبخ فيه الاول الثاني على محاولته تفريق كلمة الناس ورد مسلم عليه بأنه انما جاء ليأمر بالعدل ويدعو الى حكم الكتاب ويحارب الظلم والانحراف عن حدود الله ثم تحول الحوار الى شتائم مقذعة - ادلها الرجلان ثم

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٧٨-٢٨١ .

أمر ابن زياد بضرب عنقه فنفذ الشرطة امره ومسلم يقول اللهم احكم بيننا وبين قومنا غرونا وكذبونا وأذلونا، وبعد ذلك امر ابن زياد بقتل هاني ابن عروة، وروي انه كان يهتف وامذحجاه فلم يستجب اليه احد .

ثم كتب ابن زياد كتاباً الى يزيد أخبره فيه بما وقع ، وبعثه مع رسولين بعث معهما رأسي مسلم وهانيء وقال ليزيد : (فليسألهما امير المؤمنين عما احب فان عندهما علماً وصدقاً وفهماً وورعاً) .

وقد كتب اليه يزيد جواباً قال فيه : (إنك لم تعد أن كنت كما احب ، عملت عمل الحازم وصلت صولة الشجاع الرابط الجأش ، وقد بلغني ان الحسين توجه الى العراق فضع المناظر والمسالح واحترس على الظن وخذ على التهمة ، غير ان لا تقتل الا من قاتلك)[1] .

ولقد روى ابن كثير[2] ان مروان بن الحكم كتب الى عبيد الله بن زياد حينما خرج الحسين الى العراق (إن الحسين قد توجه إليك وهو ابن فاطمة وفاطمة بنت رسول الله ﷺ وتالله ما أحد يسلم الله أحب إلينا من الحسين فاياك أن تهيج على نفسك ما لا يسده شيء ولا تنساه العامة ولا تدع ذكره آخر الدهر) حيث يبدو من الكتابين إن صحا وليس ما يمنع صحتهما رغبة بني امية تفادي قتال الحسين وحب الرفق به .

وهذه الرغبة بدت في وصية معاوية لابنه وكتابة يزيد لوالي المدينة وتصرف هذا الوالي مع الحسين على ما ذكرناه قبل .

ولقد روى الطبري ان رجلين من بني أسد كانا يحجان ورغبا في الانضمام الى الحسين فسارا مسرعين إليه بعد ان أديا حجهما فلقيا شخصاً من قبيلتهما فسألاه عن الاخبار فقال لهما لم أخرج من الكوفة حتى قتل مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة ورأيتهما يجران بأرجلهما في السوق فلما لحقا بالحسين اخبراه بما سمعا فقال إنا لله وإنا إليه راجعون فقالا له ننشدك الله في نفسك

---

(١) السياق من الطبري ج ٤ ص ٢٨٢-٢٨٦ .

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٦٥ .

واهل بيتك إلا انصرفت من مكانك فانه ليس لك في الكوفة ناصر ولا شيعة بل نتخوف ان تكون عليك فوثب عند ذلك بنو عقيل وقالوا لا والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أونذوق ما ذاق أخونا فقال الحسين لا خير في العيش بعد هؤلاء ثم مضى [1] .

فلما صار بينه وبين القادسية ثلاثة اميال لقيه الحر بن يزيد التميمي فقال له اين تريد قال اريد هذا المصر فقال له ارجع فاني لم ادع خلفي لك خيراً ارجوه واخبره بقتل مسلم فهم ان يرجع فقال بنو عقيل مـــا قالوه قبل فقال لهم الحسين لا خير في الحياة بعدكم ثم استمر في سيره [2] .

فلما قرب الكوفة نزل على ماء هناك وكان عليه عبد الله بن مطيع العدوي فقام إليه فقال له بأبي أنت وامي ما اقدمك فقال له كتب إلي اهل العراق يدعونني الى انفسهم فقال له اذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الاسلام ان تنتهك انشدك الله في حرمـــة العرب . فو الله لئن طلبت ما في ايدي بني امية ليقتلنك ولئن قتلوك لا يهابون بعدك احداً والله إنها لحرمة الاسلام ان تنتهك وحرمة العرب وحرمة قريش فلا تفعل ولا تأت الكوفة فأبى الا ان يمضي [3] .

وروى ابن كثير ان جماعة من الكوفة مروا بالحسين في احد منازله فسألهم عما وراءهم فقالوا له : (اشراف الناس إلب عليك لأنهم عظمت رشوتهم وملئت غرائرهم . اما سائر الناس فأفئدتهم تهوي إليك وسيوفهم غداً مشهورة عليك) .

وقد كان ارسل كتاباً مع رسول اسمه قيس بن سهر الى اهل الكوفة يقول فيه :(امـا بعد فان كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم واجـــتماع ملئكم على نصرنا والطلب بحقنا فسألت الله ان يحسن لنا الصنـع وان يثيبكم على ذلك اعظم الاجر وقد شخصت اليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة فاذا قدم عليـكم رسولي فاكمشوا امركم وجدوا فاني قادم عليكم في ايامي هذه ان شاء الله) .

فسأل الجماعة هل لـكم برسولي علم قالوا اخذه الحصين بن نمير فبعث به الى ابن زياد فأمره

(١ ـ ٣) الطبري ج٤ ص٢٩٨ ـ ٣٠٠ .

ابن زياد ان يلعنك ويلعن اباك ويصفك ويصف اباك بالكذاب ابن الكذاب فصلى عليك وعلى ابيك ولعن ابن زياد واباه ودعا الناس الى نصرتك واخبرهم بقدومك فأمر به فالقي من رأس القصر فمات فترقرقت عينا الحسين وترحم عليه [1] . وان الطرماح بن عدي لقي الحسين فقال له ان ظاهر الكوفة مملوء بالخيول والجيوش يعرضون ليقصدوك وليس معك احد إلا هذه الشرذمة اليسيرة فأنشدك الله إن قدرت ان لا تتقدم إليهم شبراً فافعل وإن اردت سرت معك الى جبلي اجا وسلمى حيث قومي وانا زعيم على عشرة آلاف طائي فلا يصل احد اليك ومنهم عين تطرف فقال له الحسين جزاك الله خيراً ولم يرجع عما هو في سبيله [2] .

وقد روى الطبري [3] ان الحسين لما تيقن من مقتل مسلم وتيقن من خذلان اهل العراق له قال لمن معه من غير اسرته ولمن انضم اليه في طريقه : (لقد خذلتنا شيعتنا فمن احب منكم الانصراف فلينصرف) . فتفرق اكثر الناس ولم يبق معه الا ابناؤه واقاربه وبعض المخلصين من اوليائه ولم يكن يزيد مجموعهم عن المائة .

وقد روى الطبري روايات عديدة في كيفية نشوب القتال بين قوات ابن زياد والحسين وجماعته متفقة في النتائج مختلفة في التفاصيل . منها [4] ان زياداً عين عمر بن سعد بن ابي وقاص والياً على الري ولكنه قال له اذهب بالجيش الذي معك فاكفني الحسين اولا فاستعفاه فلم يعفه فذهب على مضض . وكان الحسين قد عدل الى كربلاء فاسند ظهره الى قصباء كيلا يقاتل إلا من جهة واحدة وكان اصحابه خمسة واربعين فارساً ومائة راجل فلما اقبل عمر بن سعد عليه قال له الحسين اختاروا واحدة من ثلاث إما تدعوني انصرف من حيث جئت واما تدعوني اذهب الى يزيد واما تدعوني الحق بالثغور فقبل ذلك عمر وكتب الى زياد به فكتب له هذا جواباً قال فيه لاولا كرامة حتى يضع يده في يده فقال الحسين لا والله لا يكون ذلك ابداً فقاتله فقتل اصحاب الحسين كلهم وفيهم بضعة عشر شاباً من اهل بيته وجاء سهم فأصاب ابناً له في حجره فجعل يمسح الدم عنه ويقول اللهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا فقتلونا ثم امر بحبرة فشققها ثم لبسها وخرج بسيفه فقاتل حتى قتل. وقد قتله رجل من مذحج وحز رأسه وانطلق به الى ابن زياد وقال له :

(١-٣) الطبري ج ٤ ص ٢٩٧ وبعدها .

(٤) ج ٤ ص ٢٩٢ - ٢٩٤ .

اوقر ركابي فضة وذهبا　　　　فقد قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس اماً وابا　　　　وخيرهم اذ ينسبون نسبا

واوفده ابن زياد [1] ومعه الرأس الى يزيد. فوضع رأسه بين يديه وعنده ابو برزة الاسلمي فجعل ينكت بالقضيب على فيه ويقول :

يفلقن هاماً من رجال أعزة　　　　علينا وهم كانوا أعق وأظلما

فقال له ابو برزة ارفع قضيبك فوالله لربما رأيت رسول الله على فيه يلثمه . وسرح عمر بن سعد بحرمه وعياله الى ابن زياد ولم يكن بقي الا النساء وعلي بن الحسين وهو غلام مريض . فأمر به ليقتل فطرحت زينب نفسها عليه وقالت والله لا يقتل حتى تقتلوني فرق لها وكف عنه ثم جهزهم وحملهم إلى يزيد فأدخلهم على عياله فجهزهم وحملهم الى المدينة فلما دخلوها خرجت امرأة من بني عبد المطلب ناشرة شعرها واضعة كمها على رأسها تلقاهم وهي تبكي وتقول :

ماذا تقولون إن قال النبي لكم　　　　ماذا فعلتم وانتم آخر الامم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي　　　　منهم أسارى وقتلى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم　　　　أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

وليس في الرواية بيان صريح عن الذي بدأ بالقتال . والمفروض ان جيش عمر حاول ارغام الحسين على السير الى الكوفة تحت الحفظ فقاوموا فنشب القتال .

ولقد روى الطبري في سياق آخر نصوصاً اخرى للمراسلات التي جرت بين عمر بن سعد وابن زياد . من ذلك ان نص كتاب عمر كان هكذا : (إني حيث نزلت بالحسين بعثت إليه رسولي فسألته عما أقدمه وماذا يطلب فقال كتب إلي أهل هذه البلاد واتتني رسلهم فسألوني القدوم ففعلت فأما اذ كرهوني فبدا لهم غير ما اتتني به رسلهم فأنا منصرف عنهم) .

---

(١) يروي المسعودي ان ابن زياد قال للقاتل ان كان خير الناس اماً واباً وخير عباد الله فلم قتلته ثم امر بضرب عنقه مروج الذهب ج ٣ ص ١٤١ .

فأجابه بما نصه : (قد بلغني كتابك فاعرض على الحسين ان يبايع يزيد بن معاوية هو وجميع اصحابه فاذافعل ذلك رأينا رأينا) .

وقد روي ان عمر استحسن من ابن زيادهذا الجواب وقال قد حسبته الا يقبل العافية[1].

ومن ذلك ان كتاب عمر كان بهذا النص: (اما بعد فقد اطفأ الله الثائرة وجمع الكلمة واصلح امر الامة . فقد اعطاني الحسين ان يرجع الى المكان الذي منه اتى او ان نسيره الى اي ثغر من ثغور المسلمين شئنا فيكون رجلا من المسلمين له مالهم وعليه ما عليهم او ان يأتي يزيد امير المؤمنين فيضع يده في يده فيرى فيما بينه وبين رأيه . وفي هـذا لكم رضى وللامة صلاح) .

فلما قرأ ابن زياد الكتاب قال هذا كتاب رجل ناصح لأميره مشفق على قومه . نعم قد قبلت . فقام اليه شمر بن ذي الجوشن ، فقال أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك الى جنبك . والله لئن رحل من بلدك ولم يضع يده في يدك ليكونن اولى بالقوة والعزة ولتكونن اولى بالضعف والعجز فلا تعطه هذه المنزلة فانها من الوهن ولكن لينزل على حكمك هو واصحابه فان عاقبت فأنت ولي العقوبة وان غفرت كان ذلك له . والله لقد بلغني ان حسيناً وعمر بن سعد يجلسان بين العسكرين فيتحدثان عامة الليل .

فجعل هذا ابن زياد يعدل عن رأيه الى شمر وارسل شمر الى عمر وكتب له كتاباً يأمره به أن يبلغ عمر ليعرض على الحسين واصحابه النزول على حكمه فان فعلوا فليبعث بهم اليه سلماً وإن أبوا فليقاتلهم فان فعل فاسمع له واطع وان هو ابى فقاتلهم فأنت اميرالناس وثب عليه فاضرب عنقه وابعث إلي برأسه . وكتب الى عمر كتاباً يقول له فيه :(اني لم ابعثك الى حسين لتكف عنه ولا لتطاوله ولا لتمنيه السلامة ولا لتقعد له عندي شافعاً. فان نزل واصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم الي سلماً وان ابوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فانهم مستحقون لذلك. فان قتل الحسين فاوطىء الخيل صدره وظهره . فانه عاق مشاق قاطع ظلوم ، فان انت مضيت لامرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع . وان ابيت فاعتزل عملنا وجندنا وخل بين شمر

---

(١) ٣١١ .

ابن ذي الجوشن وبين العسكر فانا قد امرناه بأمرنا) .

ويستمر الطبري في سياقه الذي يفيد ان عمر قبل تنفيذ امر ابن زياد على مضض وانهى الى الحسين انه مؤجله الى الغد فان استسلم مع اصحابه سرحهم الى الامير وان ابوا فلن يدعهم وشأنهم ، وفي الليل قال الحسين لمن معه من اقاربه وانصاره ان الطلب هولي فاذهبوا فتفرقوا في المدائن . فأبوا واعلنوا انهم سيبقون معه ويقاتلون الى جانبه . وفي الصباح اعلنهم الحسين رفضه للاستسلام فنشب القتال . واستمر حتى قتل معظم الذين معه او كلهم [1] .

ومما يروي الطبري ايضاً ان ابن زياد امر في كتابـــه عمر بن سعد بالحيلولة بين الحسين واصحابه وبين الماء فلا يذوقوا منه قطرة كما صنع بالتقي الزكي المظلوم امير المؤمنين عثمان .

ويروي الطبري رواية عن عقبة بن سمعان قال [2] اني صحبت الحسين فخرجت معه من المدينة الى مكة ومن مكة الى العراق ولم أفارقه حتى قتل وليس من مخاطبته الناس كلمة بالمدينة ولا بمكة ولا في الطريق ولا في العراق ولا في عسكر الى يوم مقتله الا وقد سمعتها ألا والله ما اعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون من ان يضع يده بيد يزيد بن معاوية ولا ان يسيره الى ثغر من ثغور المسلمين ولكنه قال دعوني فلأذهب في هذه الارض العريضة حتى ننظر ما يصير امر الناس .

ومهما يكن من امر هذه الروايات الواردة في هذا السياق التي يبدو بين بعضها تناقض وتداخل في المواقف المحلية فيها والتي يحسن الوقوف من بعضها موقف التحفظ فان السياق يفيد ان الحسين لما رأى رأي العين ان لا طاقة له بالقتال وان اهل العراق خذلوه ادرك ما كان منه من تورط فحاول التراجع فلم تقبل الدولة منه الا الاستسلام والنزول على حكمها فأبى فكان القتال .

ويروي الطبري سياقاً آخر يخالف بعض ما جاء في السياق السابق من اسماء واحداث

---

(١) ٣١١ وبعدها .

(٢) ص ٣١٣ .

ونصوص ويتطابق مع بعض ما جاء فيه ايضاً ويبدو فيه تداخل في الوقت نفسه .

والمستفاد منه ان ابن زياد انما ارسل الجيش للقاء الحسين وصده مع الحصين بن نمير وان هذا قدم بين يديه الحر بن يزيد بألف مقاتل وان عمر بن سعد انما جاء ردءاً لهذا .

ومما ورد في السياق الجديد ان الحر وجد الحسين قرب القادسية فسار وحضرت صلاة الظهر فأذن مؤذن الحسين فقال الحسين هل تصلون لحدتكم قالوا بل نصلي معكم فصلوا وخطب الحسين فقال ايها الناس انها معذرة الى الله عز وجل واليكم ، اني لم آتكم حتى اتتني كتبكم وقدمت الي رسلكم يقولون ليس لنا امام فاقدم علينا لعل الله يجمعنا بك على الهدى فان كنتم على ذلك فقد جئتكم فان تعطوني ما اطمئن اليه من عهودكم ومواثيقكم اقدم مصركم وان لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذي اقبلت منه اليكم .

فسكتوا وجاء وقت العصر فنادى الحسين للصلاة فصلى بالقوم ثم خاطب الناس قائلا انكم ان تتقوا الله وتعرفوا الحق لاهله يكن ارضى لله ونحن اهل البيت اولى بولاية هذا الامر من هؤلاء المدعين ما ليس لهم والسائرين فيكم بالجور والعدوان وان كرهتمونا وكان رأيكم غير ما اتتني كتبكم انصرفت عنكم .

فقال له الحر والله ما ندري ما هذه الكتب التي تذكر ، فأمر الحسين احد اصحابه فأخرج خرجين مملوئين صحفاً فنشرها فقال الحر فانا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك وقد امرنا اذا لقيناك ألا نفارقك حتى نقدم بك على ابن زياد فقال الحسين الموت ادنى اليك من ذلك ثم قال لاصحابه قوموا فاركبوا فلما ركبوا وتهيأوا للمسير حال القوم بينهم وبين الانصراف فقال الحسين للحر ثكلتك امك ما تريد ، قال اما والله لو غيرك من العرب يقولها ما تركت ذكر امه ولكن مالي الى ذكر امك من سبيل الا بأحسن ما يقدر عليه . قال له فما تريد قال ان انطلق بك الى ابن زياد فقال والله لا اتبعك فقال له الحر والله لا ادعك ، ثم قال له الحر إني لم اومر بقتالك وانما امرت ان لا افارقك حتى اقدمك الى الكوفة فاذا ابيت فخذ طريقاً لا تدخلك الكوفة ولا تردك الى المدينة لتكون بيني وبينك نصفاً حتى اكتب الى ابن زياد وتكتب انت الى يزيد او الى ابن زياد فلعل الله يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من ان ابتلي بشيء من امرك .

فخاطب الناس بمثل ما خاطبهم به قبل ذاكراً حقه واولويته وجور سلطان بني امية ونكث عهد الله ومخالفة سنة رسوله وقال لهم انكم ان نقضتم عهدكم معي وخلعتم بيعتي فما ذلك بنكر لقد فعلتموها بابي واخي وابن عمي مسلم.

وظل الحر يسايره ويقول له يا حسين اذكرك الله في نفسك فاني اشهد لئن قاتلت لتقتلن ولئن قوتلت لتهلكن فقال له ابالموت تخوفني وهل يعدو بكم الخطب ان تقتلوني ثم تمثل قائلا :

سأمضي وما بالموت عار على الفتى	اذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما
وآسى الرجال الصالحين بنفسه	وفارق مثبوراً يغش ويرغما

ولقد كتب الحر الى ابن زياد فأرسل اليه جواباً يقول فيه : (اما بعد فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي فلا تنزله الا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء وقد امرت رسولي ان يلزمك ولا يفارقك حتى يأتيني بانفاذك امري) .

وجاء عمر بن سعد ردءاً للحر فازداد الخطر على الحسين واهله واصحابه فطلب امهاله ليلة فامهلوه . وفي الليل قال لمن معه تفرقوا في السواد حتى يفرج الله فان القوم انما يطلبوني ولو قد اصابوني للهوا عن غيري وقال لبني عقيل حسبكم من القتل بمسلم فأبوا وقالوا لن نتركك وسنقاتل معك ونفديك بانفسنا حتى نرد موردك .

واصبح الحسين فعبأ اصحابه وجعل بينهم وبين القوم شبه خندق لئلا يأتوهم من ورائهم ثم دخل فسطاطه فتطلى بالنورة ثم خرج فركب دابته ودعا بمصحف فوضعه امامه وهتف بالناس مذكراً بصلته برسول الله ﷺ ومناشداً عدم انتهاك حرمته . وهتف احد ممن كان معه بالقوم الا تقبلون من الحسين خصلة من الخصال التي عرض عليكم فيعافيكم الله من حربه وقتاله فهتف عمر بن سعد اني لم ار سبيلا الى ذلك . وليس للحسين الا ان ينزل على حكم الامير فنادى قيس بن الاشعث الحسين قائلا او لا تنزل على حكم بني عمك فانهم لن يروك الا ما تحب ولن يصل اليك منهم مكروه فقال له لا والله لا اعطيهم بيدي اعطاء الذليل ولا اقر اقرار العبيد وحينئذ لم يعد بد من القتال .

ولقد بدأ القتال بالمبارزة حيث تبارز بعض اصحاب الحسين مع بعض اصحاب عمر ثم

اشتبك الجميع فيه . وقد قاتل الحسين واصحابه قتال اليائس المستبسل وكانوا يصولون على ما ترويه الروايات صولات جبارة ويرتجز بعضهم الاراجيز ولكنهم كانوا امام عدد عظيم ، فقتل الحسين وجميع من معه وكان عددهم ٨٨ منهم ١٦ من صلبه وبني عمه . ولم يبق الا ابنه علي الذي كان صغيراً ومريضاً .

وقد اطنب الطبري في وصف سير القتال وما لقيه الحسين وصحبه من جهد وعطش لانهم منعوا من الماء وما تدفق منه من دماء السهام التي اصابته قبل ان يقتل، وما قتل بين يديه من اولاده واهله وانصاره، وما جرى بينه وبين نسائه من محاورات وما كان يجري بينه وبين اصحابه من ناحية وبين الفريق الآخر من ناحية من محاورات وهتافات عدائيـة وتنديدية متقابلة نخشى بل نرجح ان يكون اكثرها مصنوعاً للاثارة والتسويء .

وقد ذكر السياق ان اول قتيل قتل من اهل الحسين ابنه علي الاكبر وانه قاتل قتالا باسلا وكان يرتجز قائلا :

انا علي بن الحسين بن علي نحن وبيت الله اولى بالنبي
تالله لا يحكم فينا ابن الدعي

وكان قاتل الحسين سنان بن انس وقد احتز رأسه ووقف به امام فسطاط عمر بن سعد يرتجز :

اوقر ركابي فضة وذهبـا انا قتلت الملك المحجبـا
قتلت خير الناس امـا وابا وخيرهم اذ ينسبون نسبا

ثم اخذ الرأس الى ابن زياد فجعل ينكت ساعة بثنايا الحسين ، وادخل عليه بعد ذلك نساء الحسين فأمر لهم بمنزل واجرى عليهم رزقاً وامر لهم بنفقة وكسوة ثم سيرهم الى يزيد، ويروى انه علق رأس الحسين في الكوفة اياماً ثم بعث به الى يزيد .

والسياق يذكر ان الحسين ليس وحده الذي احتز رأسه وبعث به الى يزيد بل كان معه سبعون رأساً من رؤوس اصحابه ايضاً . وفي حين يذكر السياق ان ابن زياد عامل نساء الحسين وابنه بالرفق يذكر في مكان آخر انه ارسل علياً مغلول اليد وحملهم على اقتاب الابل

وشتم الحسين ونعته بالكذاب ابن الكذاب .

ومما يروى ان الذين حملوا الرأس الى يزيد حين اقبلوا عليه قالوا له أبشر يا امير المؤمنين بفتح الله ونصره . ورد علينا الحسين بن علي في ثمانية عشر من اهل بيته وستين من شيعته فسرنا اليهم فسألناهم ان يستسلموا وينزلوا على حكم الامير او القتال فاختاروا القتال فغدونا عليهم فأحطناهم من كل ناحية فما كان إلا جزر جزور او نومة قائــل حتى اتينا على آخرهم فهاتيك اجسادهم مجردة وثيابهم مرملة وخدودهم معفرة فدمعت عين يزيد وقال قد كنت ارضى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن سمية . امـــا والله لو اني صاحبه لعفوت عنه فرحم الله الحسين ولم يصل المبشرين بشيء . ولما وضعت رأس الحسين ورؤوس اهل بيته واصحابه امام يزيد قال :

يفلقن هاماً من رجـال اعزة علينا وقد كانوا اعق واظلمـا

اما والله يا حسين لو أنا صاحبك ما قتلتك . ثم دعـــا بعلي الصغير بن الحسين ونسائه فادخلوا عليه وعنده اشراف الشام [1] فقال لعلي ابوك الذي قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني فصنع الله به ما قد رأيت. ثم أمر بانزالهم في دار وأمر لهم بما يصلحهم وكان لا يتغدى ولا يتعشى الا علي معه . ثم امر النعمان بن بشير ان يجهزهم بما يصلحهم ويسيرهم الى المدينة مع اناس صالحين . ولما ارادوا الخروج دعا علياً فودعه وقال له لعن الله ابن مرجانة ، اما والله لو اني صاحبه ما سألني خصلة الا اعطيتها اياه ولدفعت عنه الحتف بكل مـــا استطعت ولو بذلت بعض ولدي ولكن الله قضى ما رأيت . فكاتبني وانه الي كل حاجة تكون لك .

ومما يروى ان يزيد قال لمن في مجلسه اتدرون من اين أتى هذا . قال ابي خير من ابيه . وامي خير من امه . وجدي خير من جده وانا خير منه واحق بهذا الامر منه. اما قوله ابوه خير من ابي فقد حاج ابي اباه وعلم الناس ايهما حكم له . واما قوله امي خير من امه فلعمري ان فاطمة بنت رسول الله خير من امي . واما قوله جدي خير من جده فلعمري ما احـد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا نداً ولكنه اتى من فقهه ولم يقرأ

---

(١) يروي ابن قتيبة انه لما ادخلوا عليه بكى حتى كادت نفسه تفيض وبكى معه اهل الشام حتى علت اصواتهم .

قول الله (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير) .

ومهما يكن كذلك في هذا السياق من روايات اوردناها وروايات اخرى اهملناها لما بينها وبين ما اوردناه من تشابه وبين بعضها من تناقض وتداخل. وفي بعضها غلو وقصد إثارة وتسويء وصنعة يحسن الوقوف منها موقف التحفظ فان الخطوط العامة فيه متساوقة في النتيجة مع السياق السابق من حيث كون القتال انما نشب بسبب امتناع الحسين عن النزول على حكم ابن زياد الذي لم يقبل الا ذلك .

وقد قتل الحسين رحمة الله عليه في صفر سنة ٦١ في رواية وفي العاشر من المحرم في رواية اخرى . وهذا هو المشهور .

ولقد ذكرت الروايات انه خرج الى العراق في ايام الحج وفي رواية في الثامن من ذي الحجة [١] غير ان هناك رواية تذكر ان مسلماً خرج من مكة في الثامن من ذي الحجة ايضاً [٢] . فتاريخ العاشر من المحرم كتاريخ قتله لا يمكن ان يكون صحيحاً إلا في حالة خروج مسلم بن عقيل قبل التاريخ المذكور بشهر على الاقل حيث يفرض ان مسلم وصل العراق بعد عشرة ايام على الاقل واقام فيها قبل ان يرسل اليه رسولا يدعوه للقدوم عشرة وقطع الرسول الطريق في عشرة وقطع الحسين الطريق في عشرة على اقل تقدير .

والسياق يفيد الى هذا ان القتال لم ينشب الا بعد وصوله بمدة ما .

واختلفت الروايات في عمره حين قتل بين ٥٧ و ٦٦ والاول هو المعقول لأنه ولد في المدينة بعد الهجرة ببضع سنين .

والمشهور ان جسمه دفن في كربلاء في محل قتله الذي يعرف بالطف . وان رأسه ارسل الى يزيد ثم دفن في دمشق. وهناك رواية تذكر ان الرأس نقل الى مصر ودفن فيها ايضاً [٣] .

ولقد رويت روايات عديدة وعجيبة على هامش مقتل الحسين . من ذلك ان هاتفاً من

(١ - ٢) الطبري ج ٤ ص ٢٨٦ و ٢٩٠

(٣) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٠٤ .

الجن هتف في المدينة صبيحة قتله قائلا :

ايهـــا القاتلون ظلماً حسيناً ابشروا بالعذاب والتنكيل
كل اهل السماء يدعو عليكم من نبي ومالك وقبيـــل
لقد لعنتم على لسان داود وموسى وحامل الانجيل [1]

ومن ذلك حديث عن علي قال : (دخلت على رسول الله ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان فقلت ما ابكاك يا رسول الله قال قام من عندي جبريل فحدثني ان الحسين يقتل بشط الفرات وقال هل لك ان اشمك من تربته قال فمد يده فقبض قبضة من تراب فاعطانيها فلم املك عيني ان فاضتا)[2] .

وحديث عن انس بن الحارث قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول ان ابني يعني الحسين يقتل بأرض يقال لها كربلاء فمن شهد ذلك منكم فلينصره) [3] .

ومن ذلك حديث عـــن ابن عباس قـــال : (رأيت رسول الله ﷺ في المنـــام نصف النهار اشعث اغبر معه قارورة فيها دم فقلت بأبي وامي يا رسول الله ما هذا ، قال هذا دم الحسين واصحابه لم ازل التقطه منذ اليوم) قال الراوي فأحصينا ذلك اليوم فوجدناه قد قتل في ذلك اليوم [4] .

ومن ذلك حديث مماثل جاء فيه ان امرأة اسمها سلمى دخلت على ام سلمة (ام المؤمنين) وهي تبكي فقالت ما يبكيك فقالت : (رأيت رسول الله ﷺ وعلى رأسه ولحيته التراب فقلت مالك يا رسول الله قال شهدت قتل الحسين آنفاً) [5] .

ومن ذلك ان الذين قتلوه باتوا يشربون الخمر والرأس معهم فبرز لهم قلم من حديد فرسم لهم في الحائط بالدم هذا البيت :

أترجو امـــة قتلت حسيناً شفاعة جده يوم الحساب [6]

(١-٣) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٩٨-١٩٩ .

(٤-٦) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ٢٠٠ .

ومنهاعن كعب الاحباران اهل كربلاء لا يزالون يسمعون نوح الجن على الحسين وهم يقولون :

مسح الرسول جبينـــه فـــله بريق في الخدود
ابواه مـن عليـــا قريش جده خـــير الجدود [1]

ومنها ان طائفة من الناس ذهبوا في غزوة الى بلاد الروم فوجدوا في كنيسة مكتوباً :

اترجو امـة قتلت حسيناً شفاعة جـده يوم الحساب

فسألوا اصحاب الكنيسة من كتب هذا فقالوا انه مكتوب هنا من قبل مبعث نبيكم بثلاثمائة سنة [2] .

ومنها حديث عن ابن عباس ان الله اوحى الى محمد اني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين الفاً وانا قاتل بابن بنتك سبعين الفاً وسبعين الفاً [3] .

ومنها رواية تذكر ان الشمس كسفت يوم مقتله حتى بدت النجوم وما رفع يومئذ حجر الا وجد تحته دم . وان ارجاء السماء احمرت وان الشمس كانت تطلع وشعاعها كأنه الدم وان السماء صارت كأنها علقة وان الكواكب ضرب بعضها بعضاً وان السماء امطرت دماً احمر [4] .

والصنعة بارزة على هذه الروايات التي قصد بها التسويء والتهويل كما هو المتبادر .

ولقد اعتاد الشيعة ان يقيموا المناحات وان يلدموا اجسادهم بالايدي والحديد كل سنة يوم عاشوراء لاحياء ذكرى فاجعة مقتل الحسين ، وهذا مما صار مؤخراً حينما رسخت فكرة الشيعة العلوية وغدت نحلة عقيدية ، وليس هناك ما يبررها في اي حال الا الفكرة الحزبية الشيعية والرغبة في استمرارها والانطلاق من عقيدتها مع الاسف الشديد ليظل جمهور الشيعة الامامية مفترقين عن جمهور المسلمين الاعظم وتتغذى بها الاحقاد التي تكمن وراءها المآرب الشخصية ، ومن الادلة على ذلك ان الشيعة لا يحيون ذكرى قتل علي بن ابي طالب على النحو

(١ – ٤) المصدر السابق ص ٢٠٠ – ٢٠٢ .

الذي يحيون به ذكرى الحسين وهو افضل منه وقتل ظلماً وهو امام المسلمين ، ولا يحيي احد ذكرى قتل عثمان الذي كانت ظروف قتله اشد بغياً وظلماً .

وبعد فهذه قصة خروج الحسين رضي الله عنه التي انتهت بقتله المفجع الذي كانت له على الاسلام والعرب آثار مشؤومة .

غير ان الروايات المروية تسوغ بدون ريب استخراج نتائج عديدة معقولة منها ، منها ان خروج الحسين كان تمرداً على سلطان يزيد بن معاوية الموطد ببيعة جماهير المسلمين في مختلف الامصار ومن جملتها العراق ودعوة الى نقضها وتحدياً لهذا السلطان برغبة الحلول محل يزيد شخصياً واسروياً تستمد بواعثها من اعتقاد شخصي بالافضلية والاولوية المستند بالدرجة الاولى الى كونه ابن بنت رسول الله ﷺ ، وان شخصية الحسين وصلته برسول الله هما اللتان اسبغتا على الحادث المعنى القدسي الذي اكتنفه فأدى قتله إلى ما أدى إليه من مرارة وألم ونتائج مشؤومة ، في حين انه ليس هناك ما يبرر له ذلك من الوجهة الشرعية والقومية والسياسية ، فقد كان الحسين معترفاً بشرعية خلافة معاوية المستندة الى بيعة جمهور اهل الحل والعقد العامة له وبتنازل الحسن له وبيعته هو واخوته له ، وهو يعرف ان خلافة يزيد مستندة الى مثل هذه البيعة ، ولا يجهل ان الخروج على الامام المستند الى مثل هذه البيعة موضوع وعيد وتنديد نبويين شديدين [1] ، وعدم مبايعته شخصياً ليزيد وصلته برسول الله ﷺ واعتقاده بأفضليته واولويته بل والتسليم بذلك لا يمكن ان يبرر له الخروج عليه والدعوة الى نقض بيعته في نطاق توجيه الاحاديث النبوية العديدة .

وقد اعتبر اصحاب رسول الله ذلك منه تفريقاً للجماعة وناشدوه بتقوى الله في ذلك على ما تفيده الروايات المروية عن ابن عباس وابن عمر ، وما اثر عنه وسيق في مجال الدفاع من كون خروجه انما كان لمكافحة الظلم والانحراف واحياء احكام كتاب الله وسنة رسوله التي ماتت انما هو تبرير دعائي لا يتسق مع الظروف والوقائع ، فالحسين كان مبيتاً في نفسه امراً في حياة معاوية ، ومتربصاً وفاته ليظهر ما بيته .

وقد امتنع عن البيعة ليزيد بعد موت معاوية بناء على ذلك ، وكان داخلا في بيعة

---

(١) تمعن في الاحاديث النبوية التي اوردناها في مطلع فصل الحركات المعكرة .

معاوية وبالتالي معترفاً بشرعية خلافته .

ولم يكن قد مر على ولاية يزيد حينما امتنع عن مبايعته وخرج من المدينة الا ايام قليلة لم يرو احد عنه حادثاً ما خلالها فيه انحراف وبغي ومعصية ، حتى ان خروجه لايشبه خروج الخوارج بسبب ذلك كله ، لأن هؤلاء اعتقدوا من الاصل بعدم شرعية حكم علي ثم حكم معاوية ومن بعده ولم يعترفوا به ، ولم يكن السلطان الشخصي او الاسروي هدفاً لهم حيث كانوا يبايعون من يرونه الافضل والاتقى والاشجع .

ولقد اوقفوا نشاطهم في عهد عمربن‌عبد العزيز لأنهم رأوا ان ما يهدفون إليه من الحق والعدل‌والسيرة الصالحة متحقق بكل قوة في‌عهده على ما ألمعنا إليه في سيرته .

و كتابة الشيعة‌في‌العراق‌ودعوتهم او بيعتهم له لاتبرر خروجه في حدذاتها بقطع النظر عن كونه خرج من المدينة وهو مبيت النية على الخروج لان هناك اماماً مبايعاً من قبل جمهور المسلمين ومن جملتهم اهل العراق ، وسلطانه مستتب وحالة الدولة والمسلمين في كنفه حسنة ، وشذوذ اقلية من المسلمين ليس من شأنه ان يخل في ذلك في حال ، ويدخل في مدى النهي والتنديد النبويين .

ويتداول الشيعة احاديث نبوية بحق علي واولاده بالخلافة بعد النبي ﷺ ، وقد محصنا الامر بالنسبة لعلي رضي الله عنه‌الذي هو الاصل في الجزء السابق ووصلنا الى نتيجة‌سلبية‌منه .

ولا تذكر الروايات ان الحسين ساق شيئاً من ذلك او استند اليه في خروجه ، وقد كان تنازل الحسن لمعاوية ودخوله ودخول اخوته وبني هاشم عامة في بيعة معاوية بمثابة اقرار صريح ايضاً بأن ذلك لم يكن صحيحاً وانه انما وضع وتداول بعد هذه الحقبة .

ومن هذه النتائج انه ليس هناك ما يبرر نسبة قتل الحسين الى يزيد ، فهو لم يأمر بقتاله فضلا عن قتله ، وكل‌ما امر به ان يحاط به ولا يقاتل الا اذا قاتل ، ومثل هذا القول يصح بالنسبة لعبيد الله بن زياد ، فكل ما امر به ان يحاط به ولا يقاتل الا اذا قاتل ، وان يؤتى به إليه ليضع يده في يده او يبايع يزيد صاحب البيعة الشرعية ، بل إن هذا ليصح قوله بالنسبة لامراء القوات التي جرى بينها وبين الحسين وجماعته قتال ، فانهم ظلوا ملتزمين بما امروا به بل وكانوا يرغبون اشد الرغبة في ان يعافيهم الله من الابتلاء بقتاله فضلا

عن قتله ، ويبذلون جهدهم في اقناعه بالنزول على حكم ابن زياد ومبايعة يزيد ، فاذا كان الحسين ابى ان يستسلم ليدخل فيما دخل فيه المسلمون وقاوم بالقوة فمقابلته وقتاله صار من الوجهة الشرعية والوجهة السياسية سائغاً .

وينطوي في هذا رد حاسم على الحملة الشديدة التي يشنها الشيعة منذ ثلاثة عشر قرناً على يزيد وابن زياد ، وتكون مسؤولية ما وقع من الحادث المفجع المشؤوم ونتائجه عليه بدون ريب ، ولقد تلقى نصائح كثيرة جداً في المدينة وفي مكة وفي الطريق ومن اقاربه واوليائه ومحبيه بعدم الخروج وتقوى الله في تفريق جماعة المسلمين وتعريض نفسه للقتل ، ثم تيقن من انفضاض الناس عن مسلم وتيقن انه لا قبل له بقتال قوات الدولة ، وكان في امكانه الرجوع لأنه تلقى الخبر قبل دخول العراق ، ومع ذلك فقد أصر إصراراً يثير أشد العجب على موقفه بما يزيد في عظم مسؤوليته ، وليس في نزوله على حكم سلطان الدولة نقص في دين ولا كرامة فصاحب هذا السلطان امام شرعي وحسين على كل حال فرد من امة المسلمين ولو فعل لما اصابه اذى بل ولنال التوقير والاحترام .

وهذا يجعل الروايات الواردة في حسن معاملة عبيد الله بن زياد ثم يزيد لابن الحسين الصغير وبناته ونسائه واستياء يزيد لقتله وبكائه عليه ومشاركة اهله نساء ورجالا في ذلك اصح من تلك التي تذكر قسوتها وجفاءها ازاءهم ، ولا سيما انه لم يكن هناك قتال شديد يثير نقمة وانفعالا يمتد اثرهما الى النساء والاطفال وكان ما وقع من قتال على غير ارادتهم بل وعلى مضض منهم .

ولعل من الدلائل على ذلك ما رواه الطبري وابن قتيبة معاً من استمرار الصلات الحسنة والمكاتبات بين يزيد وعلي بن الحسين وما كان من موقف هذا ابان ثورة المدينة حيث رويا انه لا علي ولا اقاربه اشتركوا في هذه الحركة وان يزيد وصى قائد جيشه به وامره بأن يدني مجلسه وان يبلغه انه وصل إليه كتابه وان هؤلاء الخبثاء شغلوه عنه . وان القائد رحب به واجلسه معه على السرير وبلغه رسالة يزيد[1] .

---

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ٢٠٠ وتاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٧٩ .

ومن العجيب ان الانفعال العاطفي يذهل اكثر الناس عن الحقائق الموضوعية في هذه المسألة .

ولقد روى اليعقوبي نص رسالة طويلة من عبد الله بن عباس الى يزيد بن معاوية يوبخه فيها اشد توبيخ واقساه ويتهمه بأمر عبيدالله بن زياد أن يستقبل حسيناً بالرجال وان يترك مصاولته وان يلح عليه حتى يقتله ومن معه من بني عبد المطلب .

ويذكر فيها ان الحسين طلب الموادعة من عبيد الله بن زياد ورجاله وسألهم الرجعة ولكنهم اغتنموا قلة انصاره فعدوا عليه وقتلوه واستأصلوا اهل بيته وان يزيد حمل نساء الحسين وصغار ولده كالسبي المجلوب ثم يتذره ويتهدده ويغمز به وبأبيه وبنسب زياد غمزاً شديداً [1] .

ونرجح بل نجزم ان الرسالة مصنوعة مؤخراً لتسويء سمعة يزيد ودمغه ودمغ عبيد الله بقتل الحسين عمداً . والروايات التي يرويها الطبري المغايرة لذلك كله اولى بالاعتماد والاطمئنان ولا سيما وفي هذه الروايات اقوال ومواقف لابن عباس متناقضة مع هذه الرسالة المزعومة .

ونشير بخاصة الى ما روي من نصائحه وتحذيراته المشددة التي اسداها الى الحسين حينما رآه معتزماً على حركته .

وقد يقال انه كان على ابن زياد ان يراعي شخصية الحسين وان لا يصر على القدوم إليه ووضع يده في يده او النزول على حكمه وان يقبل منه احدى الخصال التي عرضها ان صحت الروايات لأن هناك رواية تنفي ان يكون الحسين طلب ان يترك ليعود من حيث أتى او يذهب الى يزيد وتذكر ان كل ماطلبه ان يترك ليذهب في ارض الله العريضة .

وقد يكون هذا القول صحيحاً، ولكن نشاط شيعة علي رضي الله عنه ومواقفهم المزعجة التي كانت منذ عهد معاوية والتي ذكرنا بعض صورها ومنها قتل حجر بن عدي ورفاقه في سيرة معاوية كان ذا تأثير في الموقف الذي اصر عليه فيما يتراءى لنا ، وليس فيما كان من

---

(١) ج٣ ص ٢٢٠–٢٢٣ مطبعة الغري .

اصرار ابن زياد وامراء قواته ما لا تسيغه السياسة ومصلحة امن الدولة الشرعية ، عدا عن انه قد يكون خشي من احتمال قيامه بحركة ثانية اذا ما تركه يرجع دون ان يبايع ليزيد .

ونشهد الله على اننا لم نكتب ما كتبناه عن هوى او بغض للحسين وآل البيت وعلى اننا نكن لهم اشد الاحترام والمحبة لصلتهم الشريفة برسول الله ﷺ .

ولكننا كمؤرخين لا يسعنا ان نكتب غير ذلك اذا اردنا ان نلتزم المنطق والانصاف والحق لأن الروايات التي تطمئن بها النفس لا تسمح بغيره .

ولم ننفرد بهذه النتائج التي استنتجناها من الروايات . فهناك كثيرون غيرنا يشاركوننا فيها ، بل وإنه ليشاركنا فيها كل منصف متجرد عن الهوى من المسلمين على اختلاف طوائفهم . ونورد هنا قولين في ذلك احدهما للامام المصلح العظيم ابن تيمية ، والثاني للمؤرخ المحقق الشيخ محمد الخضري رحمهما الله .

ولقد اورد الامام ابن تيمية خبر ما تلقاه الحسين من نصائح كثيرة بعدم الخروج والتحذير من العواقب ثم قال انه لم يكن في الخروج مصلحة لا في دين ولا في دنيا . وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يحصل لو قعد في بلده . فان ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء بل زاد الشر بخروجه وقتله ونقص الخير بذلك وصار سبباً لشر عظيم ، وكان قتل الحسين مما اوجب الفتن [1] .

اما الشيخ الخضري فانه عقب على حادث قتل الحسين قائلا : (وعلى الجملة ان الحسين اخطأ خطأ عظيما في خروجه هذا الذي جر على الامة وبال الفرقة والاختلاف وزعزع عماد إلفتها الى يومنا هذا ، وقد اكثر الناس من الكتابة في هذه الحادثة لا يريدون بذلك الا ان تشتعل النيران في القلوب فيشتد تباعدها . وغاية ما في الامر ان الرجل طلب امراً لم يتهيأله ولم يعد له عدته فحيل بينه وبين ما يشتهي وقتل دونه ، وقبل ذلك قتل ابوه فلم يجد من اقلام الكاتبين من يبشع امر قتله ويزيد به نار العداوة تأجيجاً . والحسين قد خالف يزيد

---

(١) انظر المنتقى من منهاج السنة ص ٢٨٧-٢٨٨ .

وقد بايعه الناس ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العسف عند اظهار الخلاف حتى يكون في الخروج مصلحة للامة)[1].

٣ – حركات ثارات الحسين وحركة المختار بن ابي عبيد الثقفي

هذه الحركات متداخلة في بعضها ولذلك جعلناها في نبذة واحدة ويقص الطبري قصة هذه الحركات باسهاب عجيب ويروي روايات عديدة في صددها عن رواة مختلفين فيها كالعادة تغاير في الأسماء والاحداث ويبرز على بعضها المبالغة والخيال ولكن الراجح انها تحتوي كثيراً من الحقائق ومن العجيب ان ابن قتيبة لم يورد في كتابه الامامة والسياسة الا حادثة قتل المختار لاحد قواد الجيش الذي قاتل الحسين ثم قتل مصعب بن الزبير للمختار .

وهذا عرض لقصة هذه الحركات مقتبس من الجزء الرابع من تاريخ الطبري الذي استغرقت منه نحواً من مئة وخمسين صفحة[1] .

وقد كانت حركات ثأر الحسين مزدوجة القيادة في بعض ظروفها . حيث كانت بقيادة زعماء الشيعة ثم اندمج فيها المختار بن ابي عبيد الثقفي الذي برز ليقود حركة منفصلة من جهة ثم تطورت تطورات خطيرة .

ولقد شعر شيعة آل البيت بما كان في تقصيرهم وخذلهم للحسين من خزي وإثم ورأوا انه لا يغسل عارهم واثمهم الا بقتل قاتليه او القتل في سبيل ذلك فقاموا في سنة ٦٤ﻫ بحركة عظيمة امتدت ثلاث سنين ونتج عنها مآس مروعة جديدة صبغت بها ارض العراق بل والجزيرة بالدماء وزهقت فيها ارواح الآلاف المؤلفة كثير منها لم يكن لها ضلع في قتل الحسين . واشتدت بها الاحقاد القبلية من جهة وفكرة التشيع والنصب (بغض آل علي) من جهة اخرى .

---

(١) محاضرات الخضري تاريخ الامم الاسلامية ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٢) ص ٤٢٦–٥٧٧ انظر ايضاً تاريخ ابن الاثير ج ٤ ص ٦٢ وبعدها.

ويروي الطبري في صدد حركة القيادة الاولى ان الشيعة في الكوفة تلاقوا بالتلاوم والتندم ورأوا أنهم قد اخطأوا خطأً كبيراً بدعوتهم للحسين وتركهم نصرته وقالوا له انه لا يغسل عارهم وإثمهم ولا تقبل توبتهم الا بالنهوض لأخذ ثأره من قاتليه ، وفزعوا الى خمسة من رؤوسهم في الكوفة وهم سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجبيه الفرازي وعبد الله بن سعيد الأسدي وعبد الله بن وال التيمي ورفاعة بن شداد البجلي . فاجتمع هؤلاء مع اناس من خيار الشيعة في بيت اولهم فتذاكروا ثم اتفقوا على ان يزعموا سليمان للحركة . وان يجمعوا الاموال اللازمة ويعدوا السلاح . ويتصلوا باخوانهم في البلاد الاخرى .

ويروي الطبري ان الكلام في هذا الامر بدأ في سنة ٦١ بعد قليل من مقتل الحسين واخذوا من ذلك الوقت في جمع آلة الحرب والاستعداد للقتال ودعوة الناس في السر من الشيعة وغيرهم فكان يجيبهم القوم بعد القوم والنفر بعد النفر ، فلما مات يزيد بن معاوية جاؤوا الى سليمان فقالوا قد مات الطاغية والامر الآن ضعيف فان شئت وثبنا على عمرو بن حريث عامل الكوفة واخرجناه ثم اظهرنا الطلب بدم الحسين وتتبعنا قتله ودعونا الناس الى اهل البيت المستأثر عليهم المدفوعين عن حقهم ، فقال لهم رويداً لا تعجلوا . إني قد نظرت فيما تذكرون فرأيت ان قتلة الحسين هم اشراف اهل الكوفة وفرسان العرب ومتى علموا ما تريدون وعلموا انهم المطلوبون كانوا أشد عليكم ونظرت فيمن يتبعني منكم فعلمت انهم لو خرجوا لم يدركوا ثأرهم ولم يشفوا أنفسهم وكانوا لهم جزراً . ولكن بثوا دعاتكم في المصر وادعوا الى أمركم شيعتكم وغيرهم فاني ارجو ان يكون الناس اليوم اسرع استجابة من قبل ، فاندفعوا يدعون الناس حتى صار المستجيبون إليهم بعد هلاك يزيد اضعاف من استجاب لهم قبل ذلك .

وفي هذه الاثناء حدثت ثلاثة احداث هامة في العراق ، وهي انسحاب عبيد الله بن زياد والي العراق وعمال بني امية من العراق ، ودخول العراق في بيعة عبد الله بن الزبير الذي خلع يزيد واخذ البيعة لنفسه في الحجاز على ما سوف نشرحه في نبذة خاصة وقدوم عماله الى العراق ، وظهور المختار بن ابي عبيد الثقفي ، باسم طلب ثارات الحسين والدعوة الى محمد بن علي بن ابي طالب المعروف بابن الحنفية .

وفي صدد الحادث الاول يروي الطبري روايتين مختلفتين في الاحداث متفقتين في النتائج. وقد جاء في الرواية الاولى ان ابن زياد خطب في اهل البصرة فقال ان امير المؤمنين قد مات فأجمعوا امركم على شخص حتى تجتمع كلمة المسلمين على خليفة. فقالوا له نبايعك فأبى فكرروا حتى رضي ولكنهم لم يلبثوا أن تنكروا له وارادوا ان يثبوا عليه . وحاول إرغامهم فلم يطعه الجند فما كان منه الا ان حمل ما في الخزانة من اموال كان يريد توزيعها عليهم وخرج من البصرة ثم من العراق حتى لحق بالشام بمساعدة وجوار زعيمين من زعماء العراق ، وقد انسحب بانسحابه سائر عمال الامويين في العراق .

وجاء في الرواية الثانية انه لما قال لهم ذلك اقترح عليهم ان يبايعوه فسبوه وحصبوه فاستجار بالزعيمين القويين وخرج بمساعدتهما من العراق حتى لحق بالشام ، وقد اتفق اهل الكوفة والبصرة بعد انسحاب عمال بني امية على اشخاص للحكم والصلاة موقتاً الى ان جاء عمال ابن الزبير ، وكان انسحاب ابن زياد في شوال سنة ٦٤ . ولقد مات يزيد في ربيع الآخر من هذه السنة وتنازل ابنه بعد ولايته بمدة قصيرة . وكان تنازله بل وموته على كل حال قبل شوال ، حيث يتبادر ان ابن زياد خطب خطبة وطلب البيعة لنفسه او عرضت عليه على اختلاف الروايات بعد فراغ العرش الاموي بتنازل معاوية وليس بعد موت يزيد . وان في الخبر التباساً [1] .

ولقد ذكر ان ابن قتيبة [2] ان اهل العراق بايعوا بعد خروج ابن زياد لعبد الله بن الزبير وكتبوا له فأرسل لكل من البصرة والكوفة والياً ووكيلا للخراج .

ومما رواه الطبري [3] في صدد حادث ظهور المختار ان هذا قدم من الكوفة على عبد الله ابن الزبير في مكة اثناء حصارها من قبل جيش يزيد ومعه ثلاثمائة رجل فقال لابن الزبير هلم ابايعك على ان لا تقطع امراً دوني فتردد فقال له احد اخصائه اشتر منه دينه وبايعه فقبل

---

(١) الطبري ج٤ص٣٨٧ وبعدها انظر ايضاً تاريخ ابن الاثير ج٤ص٥١ وبعدها.

(٢) الامامة والسياسة ص ١٨ وبعدها .

٣) ج٤ص٥٤٥ وبعدها .

ابن الزبير ، وحينئذ قاتل جيش الشام مع ابن الزبير قتالا عظيما ، وكان مسلم بن عقيل حينما قدم من طرف الحسين قد نزل اول الامر في دار المختار وجرى بينه وبين ابن زيادعتاب فأهانه هذا وضربه فحقد عليه واقسم ليقطعنه اربا اربا . وفي هذه الاثناء قدم على مكةرجل من الكوفة فسأله عن الاحوال فقال له ان الناس يريدون الانحياز الي ابن الزبير . ولو كان لهم رجل يجمعهم اكل بهم الارض فقال المختار انا ابو اسحاق انا والله اجمعهم ثم خرج الى الكوفة فلما قدم قال للناس ابشروا فقد قدمت عليكم بما يسركم فان المهدي ابن الوصي محمداً بن علي ابن الحنفية بعثني اليكم اميناً ووزيراً واميراً وامرني بقتال الملحدين والطلب بدماء اهل بيته والدفاع عن الضعفاء وجعل ثارات الحسين شعاراً له ومما زال يكرر كلامه حتى استجاب له جماعة كبيرة من الناس من شيعة وغير شيعة ، وقد قيل له إن الشيعة اجمعوا امرهم على تولية سليمان بن صرد للمطالبة بثارات الحسين فكان يقول ان هذا ليس بذي تجربة للامور وليس لهم علم بالحروب وانما يريد ان يخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم .

ويروي المسعودي في ظهور المختار رواية مخالفة لما رواه الطبري تفيد ان المختار قد اثار طموح ابن الزبير الى العراق وقال له لو كان لأهله رجل له رفق وعلم لاستخرج لك منهم جنداً تغلب بهم اهل الشام فاقترح عليه ان يقوم بالمهمة فجاء واخذ يتقرب الى الشيعة ويبكي على اهل البيت ويحث على اخذ ثأر الحسين فمالت الشيعة إليه وغلب على الكوفة . ثم خلع ابن الزبير وكتب الى علي بن الحسين يريده على ان يبايع له ويظهر دعوته وانفذ له مالا فأبى وسبه على رؤوس الملأ واظهر كذبه وفجوره في مسجد رسول الله . فلما يئس منه كتب إلى محمد بن الحنفية يريده على مثل ذلك ايضاً ، غير ان المختار لم يبال وظل على دعوته باسم محمد ابن الحنفية وهتافه بثارات الحسين[1] .

ونعود إلى سياق الطبري فنقول ان سليمان ورفاقه الزعماء وجمهور الشيعه ظلوا على عزيمتهم ودعوا الذين اكتتبوا للجهاد الى الاجتماع في مكان اسمه النخيلة في شهر ربيع الآخر سنة ٦٥

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .

فلما جاء الوعد كان عدد المجتمعين ٤٠٠٠ مع ان العدد المكتتب كان ستة عشر الفـــاً وكان هذا النقص نتيجة لتثبيط المختار .

ولقد بلغ سليمان ان عبد الملك بن مروان سير بقيادة عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير جيشاً لاعادة العراق إلى السلطان الاموي فانصرف تفكيره الى الاتجاه إلى لقائه وبدء الجهاد به على اعتبار ان ابن زياد هو الذي بعث الجيوش لقتال الحسين وان الحصين كان قائداً لهـــا . وقال لاصحابه ان يظهركم الله عليهم كان من بعده أهون شوكة منه . وان قاتلتم قبل ذلك اهل مصركم لم يعدم رجل ان يرى رجلا قد قتل اخاه او اباه او حميمه فاقتنعوا .

وكتب له والي الكوفة من قبل ابن الزبير ينصحه بالتريث ويعده بالتضامن على لقاء ابن زياد معاً ويخوفه من الانفراد على ما هو عليه من قلة وضعف فأبى وقال اني لا ارى الجهاد مع ابن الزبير الا ضلالا .

وخطب في الناس محرضاً محمساً ثم اتجهوا اولا الى قبر الحسين فأقاموا به ليلة ويوماً يصلون ويستغفرون [1] ويبكون ويترحمون على الحسين ويلعنون قاتليه ويشهدون الله على تصميمهم على مجاهدتهم ويطلبون منه النصرة ثم تحركوا نحو الشام بطريق الانبار فهيت فقرقيسيا .

وجاءهم خبر بأن ابن زياد والحصين جاؤوا بعدد كثير وجد وحديد ، ونصحهم والي قرقيسياء وكان هواه معهم بأن يبقوا عند مدينته وان شاؤوا فتحها لهم حتى اذا جاء الجيش الشامي قاتلوه عندها وقاتل معهم فأبوا الا ان يسيروا حتى بلغوا عين الوردة ، وبلغهم ان الجيش الشامي مقبل فقرروا البقاء حيث هم واستراحوا واطمأنوا وخطبهم سليمان ثانية محمساً محرضاً على الجهاد وعين رفاقه الاربعة الذين ذكرنا اسماءهم قبل قواداً بعده بالتوالي اذا ما اصابه حدث .

---

(١) سماهم الطبري عند تحركهم هذا بالتوابين . وليس في عبارته ولا سياقه ما يساعد على القول اذا كان هذا الاسم قديماً نقله كما روي له ام كان منه نعتاً لحركتهم . (ج٤ص٤٥١) .

ثم ارسل طلائعه فأشرفوا على طلائع الجيش الشامي وهم غادون فحملوا عليهم فهزموهم وقتلوا منهم عدداً ، فارسل ابن زياد الحصين باثني عشر الفاً ، فلما تدانوا من بعضهم دعا الحصين الجيش العراقي الى الجماعة والدخول في طاعة عبد الملك بن مروان ، وطلب الجيش العراقي الجيش الشامي بالمقابلة تسليم ابن زياد ليقتلوه بالحسين وخلع عبد الملك ورد الامر إلى الى اهل بيت النبي ورفض كل من الطرفين دعوة الآخر .

واخذت الاشتباكات تقع بينهما شديدة ضارية ويقع القتل والجرح فيهما بقياس واسع . غير ان الجيش الشامي كان اكثر عدداً واحسن عدة . فما كان من سليمان الا ان كسر جفن سيفه وهتف : من اراد البكور إلى ربه والتوبة من ذنبه والوفاء بعهده فالي . فأقبل عليه الناس كاسرين جفان سيوفهم وحملوا حملة جبارة وقاتلوا قتالا بطولياً وقتلوا من اهل الشام مقتلة عظيمة وجرحوا منهم عدداً عظيما ، ولكنهم كاثروهم ورشقوهم بالنبال ودهموهم بالخيل حتى كسروهم وهزموهم وقتل قوادهم الخمسة واحداً بعدآخر .

واصبح الحصين فاستطلع طلع القوم فوجد الارض خالية منهم فلم يبعث احداً في اثرهم ، وارسل الحصين بشرى الفتح إلى عبد الله فحمد الله وخطب في الناس منوهاً بالنصر مبشراً بالمزيد .

ولما بلغ المختار ما حل بسليمان وجيشه برزللميدان ليتزعم حركة الثار الذي اشتد في نفوس الشيعه بما حل في اخوانهم من القتل والهزيمة ، واصطدم اولا بابراهيم بن الاشتر الذي انضوى إليه جمهور الشيعة ثم بوالي ابن الزبير ، وكان اصطدامه بالأول لارتياب هذا في دعوى المختار بأنه مكلف من قبل محمد بن الحنفية .

ولقد سافر بعض الشيعة الى مكة ليقابلوا محمداً ويعرفوا الحقيقة منه فقابلوه واخبروه بدعوى المختار فأجابهم باجابة لا تنفي ولا تثبت حيث قال لهم : (واما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم الى الطلب بدمائنا فوالله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه) .

ولكن الوفد فهموا من الجواب تأييداً لدعوى المختارفعادوا فأخبروا جماعتهم ودخلوا على المختار فقالوا له امرنا بنصرتك وكان قد شق عليه سفرهم خشية ان يأتوا بامر يخذل الشيعة عنهم

فلماقالوا لهم ذلك قال الله اكبر وجمع الشيعة فقال لهم إن نفراً منكم احبوا ان يعلموا مصداق ما جئت به فرحلوا الى امام الهدى فنبأهم بأني وزيره وظهيره ورسوله وامركم باتباعي وطاعتي فيما دعوتكم إليه ، وصادق رئيس الوفد على كلامه فكان ذلك نجاحه الاول في زعامة الشيعة.

ولقد ظل ابراهيم ابن الاشتر مرتاباً فذهب المختار إليه في جماعة من انصاره وقال له لقد جئتك بكتاب من الامام المهدي ثم دفع إليه كتاباً مختوماً ففضه فاذا فيه: (من محمد المهدي الى ابراهيم بن مالك الاشتر سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا إله الا هو ، ما بعد فاني قد بعثت إليكم بوزيري واميري ونجيبي الذي ارتضيته لنفسي وقد امرته بقتال عدوي والطلب بدماء اهل بيتي فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن اطاعك فانك ان نصرتني واجبت دعوتي وساعدت وزيري كانت لك عندي بذلك فضيلة ولك بذلك أعنة الخيل وكل جيش غاز وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه بين الكوفة واقصى بلاد الشام وعلى الوفاء بذلك عهد الله، فان فعلت ذلك نلت به عند الله افضل الكرامة وإن ابيت هلكت هلاكاً لا تستقيله ابداً والسلام عليك).

فقال فمن يعلم ان هذا كتابه فتبرع اثنان بالشهادة فأخذ منهم عهداً خطياً لانه ظل مرتاباً في قرارة نفسه ثم بايع هو الآخر المختار فكان ذلك نجاحه الثاني [1].

ولقد قيل لوالي ابن الزبير في الكوفة ان المختار والشيعة يريدون ان يثبوا عليك ويطالبون بدم الحسين فخطب الناس منذراً مهدداً وقال ما انا قتلت الحسين ولا انا ممن قاتله ومن اراد قتال قاتليه فهاهم مقبلون عليكم بقيادة ابن زياد على مسيرة ليلة من جسر منبج . وإني لن اقاتل احداً ما لم يقاتلني فمن قاتلني قاتلته .

ورأى وكيل الخراج موقف الوالي ضعيفاً فكتب الى ابن الزبير فعزله وعين مكانه عبد الله بن مطيع وجاء هذا فدشن عمله بخطبة قوية وانذر وتوعد واستطاع ان يعتقل المختار اسبوعين ، غير ان جماعة المختار قابلوا الموقف بمثله فهاجموا السجن واخرجوا منه صاحبهم ثم

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٤٩٢-٤٩٦ .

اضطروا بزعامة المختار الوالي الجديد الى الخروج من الكوفة .

وحينئذ بسط هذا سيطرته عليها وعلى ما والاها من الشمال والغرب حتى الموصل وارمينية واخذ يجبي الخراج واستفحل امره بل لقد طمح الى الحجاز ايضاً حيث ارسل جيشاً لمساعدة ابن الزبير على دفع جيش اموي وجهه عبد الملك الى الحجاز في الظاهر بعد مكاتبة جرت بينه وبين ابن الزبير وامر قائد الجيش ان يحتل المدينة ويقيم عليها اميراً ثم يسير فيحاصر ابن الزبير في مكة ويقاتله ان امكنه ذلك .

وقد اخفق في حركته هذه لان ابن الزبير ادرك مكر المختار فأوقع في الجيش الذي ارسله حتى اتى على اكثره ، وكتب المختار الى محمد بن الحنفية بما فعله ابن الزبير وعرض عليه ارسال جيش آخر لارغام ابن الزبير اذا هو وافق وامر اهل المدينة بالمساعدة فكتب اليه محمد جواباً غير مشجع وامر الرسول بأن يبلغه ان يتقي الله ويكف عن الدماء ، فوقف الامر عند هذا الحد[1] .

ولقد حاول ان يبسط سيطرته على البصرة وما والاها ولكنه اخفق ايضاً فاكتفى بما ناله من سلطان في الكوفة وما فوقها من شمال وشرق وغرب[2] .

وبعد ان تم له ذلك اندفع هو والشيعة في ملاحقة من ظنوا انهم اشتركوا في قتال الحسين من جند ابن زياد والحصين بن نمير وعمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن تحت شعار يا لثارات الحسين وقتلوا خلقاً كثيراً ، وكان المطلوبون يقابلون هم وذووهم القوة بالقوة فتجري معارك ضارية بين الفريقين ، وكانوا يعتقلون الناس بالمئات فيعرضونهم على المختار فيأمر بضرب عنق كل من اشتبه فيه انه شهد مقتل الحسين او شهد عليه بذلك .

وقد قتل اناس كثيرون في سياق ذلك ليس لهم اي ضلع وانما بشهادة اناس لهم ثارات او عداء او مأرب ، وقد قتلوا فيمن قتلوه محمد بن الاشعث وشمر بن ذي الجوشن وعمر بن سعد بن ابي وقاص .

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٥٤٠-٥٤٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٣٦ .

ثم سير المختار جيشاً بقيادة ابراهيم بن الاشتر للقاء جيش ابن زياد الذي استمر في سيره بعد انتصاره حتى دخل ارض الموصل ، وكان الجيش الشيعي هذه المرة اكثف واقوى من الجيش الشيعي الاول ، وقد اشتبك الفريقان في حرب ضارية ، وكان ابن الاشتر يهتف بجماعته محمساً محرضاً وكان هو نفسه يصول صولات جبارة ، وقد دارت الدائرة في النهاية على الجيش الشامي بعد ان قتل من الطرفين مقتلة عظيمة ، وكان ابن زياد والحصين بن نمير من جملة القتلى [1] .

ولقد اشتد طموح المختار بعد هذا الى الانفراد بالسلطان [2] واخذ يتقرب الى الموالي ويغدق عليهم الاعطيات ويقطعهم الارضين فالتفوا حوله وايدوه حتى لقد روي ان عددهم في جيشه كان اضعاف عدد العرب ولا سيما انهم كانوا يرون من العرب والولاة اهمالا واستعلاء حتى قال قائلهم :

أن الموالي امست وهي عاتبة	على الخليفة تشكو الجوع والحربا
ماذا علينا وماذا كان يرزؤنا	اي الملوك على ما حولنا غلبا

وقد جاء بعض زعماء العرب يعاتبونه على ذلك فراوغهم ، ثم قالوا له زعمت انك لست الا نائباً ومرسلا من ابن الحنفية فراوغهم ايضاً [3]. فدب الخلاف بينهم وبينه وانقسم الناس نتيجة لذلك الى قسمين قسم معه وقسم عليه ، وظل ابراهيم بن الاشتر وقسم كبير من الشيعة معه فنشب صراع شديد بين الطرفين زهقت فيه آلاف الارواح .

واخذ يظهر من المختار في اثناء ذلك بعض الخارق . فادعى انه ينزل عليه

---

(١) انظر المصدر السابق ص ١٥٥ وبعدها .

(٢) روى الطبري ان المختار قال لاحد اخصائه انما انا رجل من العرب ، رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز ونجدة الخارجي على اليامة ومروان بن الحكم على الشام ، ولم اكن دون احدهم فاخذ هذه البلاد (ج ٤ ص ٥٦٩ — ٥٧٠) حيث ينطوي في هذا ما حاك صدره من الرغبة في الحكم والسلطان التي كانت حافزا على حركته .

(٣) الطبري ج ٤ ص ٤٧٨ وبعدها والمسعودي ج ٣ ص ٢٢ وسياق ابن الاثير في حركات المختار يفيد انه كان معه من الموالي خلق كثير انظر ج ٤ ص ١٠٥ .

وحي [١] . واتخذ كرسياً يستنصر به تشبهاً بتابوت بني اسرائيل فكان يقدمه بين يديه حين يخرج الى قتال خصومه ، وكان يحمل على بغل اشهب ويغطى بثوب ، وقال حين اتخذه انه لم يكن في الامم الخالية امر الا هو كائن في هذه الامة مثله وان كان في بني اسرائيل تابوت فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هرون وان هذا الكرسي فينامثل التابوت وتقرب اليه بعضهم بشهادةانه رأى الملائكة تقاتل مع جماعته فأمره ان يعلن ذلك للناس [٢].

---

(١) مما رواه البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق ص ٤٤–٦ ؛ هذه الاسجاع للمختار يزعم انه مما انزله الوحي عليه : «اما والذي انزل القرآن، وبين الفرقان . وشرع الاديان ، وكره العصيان ، لاقتلن العتاة ، من ازدعمان ومذحج وهمدان ، وبهز وخولان وبكر وهزان وثعل ونبهان ، وعبس وذبيان ، وقيس وعيلان،وحق السميع العليم العلي العظيم،العزيزالحكيم الرحمن الرحيم، لاعركن عرك الاديم،اشراف بني تميم».و«أما ومنشيء السحاب،الشديد العقاب،السريع الحساب،العزيزالوهاب،القدير الغلاب ، لانبشن قبر ابن شهاب ، المفتري الكذاب المجرم المرتاب ، ثم ورب العالمين ، ورب البلد الامين ، لاقتلن الشاعر الهجين،وراجز المارقين،واولياء الكافرين،واعوان الظالمين،واخوان الشياطين الذين اجتمعوا على الاباطيل،وتقولوا علي بالاقاويل،ألا فطوبى لذوي الخلائق الحميدة،والافعال السديدة والآراء العتيدة والنفوس السعيدة» . و«الحمد لله الذي جعلني بصيراً ونور قلبي تنويراً،والله لاحرقن بالمصر دوراً ، ولانبشن بها قبوراً ولاشفين منها صدوراً،وكفى بالله هادياً ونصيراً».و«رب الحرم والبيت المحرم،والركن المكرم،والمسجد المعظم،وحق نون والقلم ليرفعن علم من ها هنا الى اضم، ثم الى اكناف ذي سلم،اما ورب السماء لتنزلن نار من السماء فلتحرقن دار اسماء».واسماء هذا هو اسماء بن خارجة،وروى البغدادي في سياقه ان المختار ارسل من احرق الدار بالليل واظهر من غده ان ناراً من السماء نزلت فأحرقتها .

(٢) روى الطبري ان واحداً من خصوم المختار وقع اسيراً فتقرب اليه بابيات قال فيها :

نصرت على عدوك كل يوم ... بكل كتيبة تنعى حسينا

كنصر محمد في يوم بدر ... ويوم الشعب اذ لاقى حنينا

ثم اقسم له انه رأى الملائكة يقاتلون معه كما قاتلوا مع النبي في اليومين المذكورين على ما اخبر به القرآن فعفا عنه فلما أمن وسأله اصحابه عن ما رأى قال لهم ما كنت في ايمان حلفت بها اشد مبالغة في الكذب مني في ايماني هذه التي حلفت بها اني رأيت الملائكة ثم انشد هذه الابيات ساخراً بالمختار:

ورأى السبئية في هذه المخارق فرصة للدس عـــلى الاسلام فالتفوا حوله و كان صاحب كرسيه واحداً منهم اسمه حوشب البرسمي ، و كانت هذه المخارق مع ظهور كذبه على محمد ابن الحفيفة سبباً لانفضاض كثير من اشياعه عنه ونعتهم له بالكذاب والدجال [1] .

وقد روى الطبري انه كان يقول حين يبلغه هذا النعت قد بلغني انكم تكذبوني وإن كذبت فقد كذب رسل من قبلي ولست انا خيراً منهم [2] .

ثم جاء مصعب بن الزبير الى البصرة التي لم يستطع المختار ان يبسط سلطانه عليها كما قلنـا

ألا ابلغ ابا اسحق اني	رأيت البلق دهماً معتمات
وكفرت بوحيكم وجعلت نذراً	علي قتالكم حتى الممات
ارى عيني ما لم تبصراه	كلانا عالم بالترهات
اذا قالوا اقول لهم كذبتم	وان خرجوا لبست لهم اداتي

ج ٤ ص ٢٦٦-٥٢٨

(١) وروى الطبري هذا الشعر في كذب المختار وتدجيله ودعواه بعلم الغيب :

ما شرطة الدجال تحت لوائه	بأضل مما غره المختار
أبني قسى اوثقوا دجالكم	يجلى الغبار وانتم احرار
لو كان علم الغيب عند اخيكم	لتوطأت لكم به الاخبار
ولكان امرأ بينا فيما مضى	تأتي به الانباء والاخبار
اني لارجوان بكذب وحيكم	طعن يشق عصاكم وحصار

٤ ص ٥٣٩-٥٤٠

ويروي ابن الاثير هذه الابيات لاعشى همدان في كرسي المختار ومذهبه :

شهدت عليكم انكم سبيئة	واني بكم يا شرطة الشرك عارف
فاقسم ما كرسيكم بسكينة	وان كان قد لفت عليه اللفائف
وان ليس كالتابوت فينا وان سعت	شبام حواليه ونهـد وخارف

ج ٤ ص ١٠١

(٢) ص ٥٣٩ .

قبل فأخذ يتصاول معه واخذ يفد عليه الذين انفضوا عن المختار من الشيعة وغيرهم من الذين صار لهم عنده ثارات لما قام به من حركة تقتيل ما سماه قتلة الحسين وجاء إليه المهلب بن ابي صفره الذي كان عاملا لابن الزبير على فارس ومعه جموع كثيرة واموال عظيمة. وكانت جولات قتال بين جموع الفريقين وتداولا النصر والهزيمة وكثر القتل فيها وابدى كل من مصعب والمختار بسالة عظيمة في القيادة والقتال.

واستمر الانفضاض من حول المختار حتى قل اشياعه فعمد الى التحصن في قصره فحاصره مصعب اربعة اشهر وكان يخرج فيقاتل من وجه واحد ثم يعود الى قصره ثم تمكن مصعب من قتله في إحدى خرجاته واسر بقية من كان معه فقتلهم صبراً. وكان ذلك في رمضان عام ٦٧ وهكذا انتهت حركة المختار العجيبة وصفي العراق وما وراءه لابن الزبير خمس سنين اخرى إلى ان تمكن عبد الملك بن مروان من بسط سلطانه عليه على ما سوف نشرحه في نبذة ابن الزبير [١].

٤ - خروج زيد بن علي بن الحسين

لم يكن الحسين رضي الله عنه الوحيد الذي خرج على الامويين من الهاشميين وادى خروجه إلى مثل مأساته المشؤومة. فان الهاشميين والعلويين خاصة ظلوا يبثون الدعايات ضد الدولة الاموية ويتربصون بها الدوائر ويخرج عليها من كان يظن ان الفرصة سانحة له لانتزاع الحكم منها لهم وكان اول الخارجين عليها بعد الحسين حفيده زيد بن علي [٢].

---

(١) ٥٥٨ – ٥٧٨.

(٢) ان ما ورد في النبذة السابقة قد يورد الى الذهن انه كان لمحمد بن علي بن الحنفية رضي الله عنه طموح الى الامامة او نشاط في سبيلها برغم انه لا يساعد على ذلك بيقين.

وهناك روايات عن مبايعة الشيعة لمحمد بعد تنازل الحسن لمعاوية واستخلاف محمد لابنه ابي هاشم حينما حضرته الوفاة.

وهناك روايات عن جماعة عرفت بالكيسانية وجدت في زمن الدولة الاموية كانت تعتقد بامامة محمد.

وقد أورد الطبري في حوادث سنة ١٢١ هـ سياقاً طويلا [1] في صدد خلاف ونزاع على مال وارض كان بين زيد واقاربه من ناحية وخالد بن عبد الله من ناحية ثم انتهى الى القول ان هشاماً بن عبد الملك الذي كان الامر في خلافته قال له لقد بلغني يا زيد انك تذكر الخلافة وتتمناها ولست هناك وانت ابن امة ، فرد عليه قائلا ان لك يا امير المؤمنين جواباً فقال له تكلم فقال إنه ليس أحد أولى بالله ولا أرفع عنده منزلة من نبي ابتعثه وكان اسماعيل ابن امة وهو من خير الانبياء وولد خيرهم محمداً ﷺ وما على احد من ذلك جده رسول الله ﷺ ما كانت امه فقال له هشام اخرج قال أخرج ثم لا تراني إلا حيث تكره، ثم انصرف من عنده الى الكوفة فجعلت الشيعة تختلف عليه وتأمره بالخروج وتقول له إنا نرجو ان تكون المنصور وأن يكون هذا الزمان هو الذي يهلك فيه بنو امية .

واستشعر والي العراق يوسف بن عمر بما يقال ويحاك فأمره بالخروج من الكوفة فاعتل بالوجع وبأعمال اخرى فألح عليه فاعتزم الخروج إلى الشام بل وخرج فلحقه الشيعة وقالوا له أين تذهب عنا ومعك مئة ألف من اهل الكوفة يضربون دونك بأسيافهم غـــداً ، وليس قبلك من اهل الشام الا عدة قليلة لو أن قبيلة من قبائلنا نحو مذحج او همدان او تميم او بكر نصبت لهم لكفتكهم باذن الله فننشدك الله لما رجعت وما زالوا به حتى ردوه .

غير ان ذلك كله لم ينشأ عنه اية حركة فعلية من **محمد** بحيث يسوغ القول انه قد ظل اذا صحت الروايات في حيز الفكر ونطاق العقيدة . وهذا ما جعلنا نعتبر حركة خروج زيد اول حركة خروج هاشمية علوية بعد الحسين .

ولسوف نورد الروايات المروية عن مبايعة الشيعة لمحمد بعد تنازل الحسن في سياق الحركة العباسية ونعلق عليها لانها اتصلت بها، ولسوف نورد بياناً عن الفرقة الشيعية الكيسانية في نبذة التيارات الفكرية والسياسية التي سوف تكون بعد هذا الفصل .

(١) ج ٥ ص ٤٨ وبعدها ويروي المسعودي رواية جاء فيها ان زيداً دخل على هشام بالرصافة فلم ير موضعاً يجلس فيه في صدر المكان فجلس حيث انتهى به المجلس وقال لهشام يا امير المؤمنين ليس احد يكبر عن تقوى الله ولا يصغر دون تقوى الله فقال له هشام اسكت لا ام لك . انت الذي تنازعك نفسك في الخلافة وانت ابن امة ، فرد عليه نحواً مما جاء في سياق الطبري (ج٣ص١٤٠) .

وفي رواية اخرى في سياق الطبري ايضاً انهم قالوا له نحن اربعون ألفاً واذا رجعت إلى الكوفة لن يتخلف عنك احد،فقال لهم اني اخاف ان تخذلوني وتسلموني كفعلكم بأبي وجدي فحلفوا له الايمان المغلظة واعطوه المواثيق ، ونصحه داود بن علي بن عبد الله بن عباس قائلا انهم يغرونك ولقد خذلوا من كان أعز عليهم منك جدك علياً بن ابي طالب حتى قتل والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه وانتزعوا رداءه من عنقه وانتهبوا فسطاطه وجرحوه. أو ليس قد اخرجو جدك الحسين وحلفوا له بأوكد الأيمان ثم خذلوه واسلموه ثم لم يرضوا بذلك حتى قتلوه ، فلا تفعل ولا ترجع معهم،فقال له الشيعة إن هذا لا يريدان تظهر أنت لهم ويزعم انه واهل بيته أحق بهذا الامر منكم[1] فقال زيد لداود ان علياً كان يقاتله معاوية بدهائه ونكرائه باهل الشام وإن الحسين قاتله يزيد والأمر عليهم مقبل فقال له إني لخائف ان رجعت معهم أن لا يكون أحد أشد عليك منهم ، ونصحه سلمه بن كهيل حيث دخل عليه كما يروي السياق فذكر قرابته من رسول الله وحقه ثم قال له اجعل لي الامان فقال سبحان الله مثلك يسأل مثلي الامان فقال له نشدتك بالله كم بايعك قال أربعون الفاً قال فكم بايع جدك قال ثمانون الفاً قال فكم حصل معه قال ثلاثمائة . قال نشدتك الله أنت خير ام جدك قال بل جدي قال أفتطمع أن يفي لك هؤلاء وقد غدر اولئك قال قد بايعوني ووجبت البيعة في عنقي وأعناقهم .. ونصحه ابن عمه عبد الله بن الحسن حيث كتب له يقول ان اهل الكوفة نفخ العلانية خور السريرة هرج في الرخاء جزع في اللقاء تقدمهم السنتهم ولاتشايعهم قلوبهم لا يبيتون في الاحداث ولا ينوؤن بدولة مرجوة ، ولقد تواترت إلى كتبهم فصممت عن ندائهم وألبست قلبي غشاء عن ذكرهم يأسا منهم واطراحاً لهم ومالهم مثل إلا ما قال علي بن ابي طالب ان اهملتم خضتم وان حوربتم خرتم وان اجتمع الناس على امام طعنتم وان أجبتم الى مشاقة نكصتم ، ونصحه ابن عمه محمد بن عمر بن علي قائلا اذكرك الله يا زيد لما لحقت بأهلك ولم تقبل قول أحد من هؤلاء الذين يدعونك الى ما يدعونك اليه فانهم لايفون لك . ونصحه اخوه محمد المعروف بابي جعفر اذ شاوره حيث أشار عليه ان لا يركن الى اهل

---

(١) كان العباسيون في هذا الظرف يدبرون حركة سرية لصالحهم في خراسان على ما سوف نشرحه بعد .

الكوفة لأنهم اهل غدر ومكر وبها قتل علي وطعن الحسن وقتل الحسين وفيها وفي اعمالنا شتمنا [1] فلم يقبل من احد نصحاً واستمر في حركته .

ولقد نمي خبر التفاف الشيعة على زيد وتحريضهم اياه الى هشام فكتب الى والي العراق يقول : (اما بعد فقد علمت بحال اهل الكوفة في حبهم اهل هذا البيت ووضعهم اياهم في غير موضعهم لأنهم افترضوا على انفسهم طاعتهم ووظفوا عليهم شرائع دينهم حتى حملوهم من تفريق الجماعة على حال استخفوهم الى الخروج ، فادع اليك اشرافهم واوعدهم العقوبة في الأبشار واستصفاء الاموال. فسيرتدعون ولا يبقى مع زيد الا الرعاع فبادهم بالوعيد واعضضهم بسوطك وجرد فيهم سيفك ، وقد اعذر امير المؤمنين وقضى من ذمامه واحب اليه بقاء الجماعة حبل الله المتين ودين الله القويم ويسأل الله ان يصلح منهم من كان فاسدا ويسرع بهم الى النجاة) .

ولقد ظل زيد في الكوفة مستخفياً واقبلت الشيعة تبايعه حتى احصى ديوانه (١٥٠٠٠) رجل واخذ يبعث رسله الى اهل السواد واهل الموصل والبصرة ، وكانت بيعته للناس : (انا ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين واعطاء المحرومين وقسم الفيء بين اهله بالسواء ونصر اهل البيت على من نصب لهم وجهل حقهم فكانوا يقولون نبايعك على ذلك فيقول لهم عليكم عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله لتفين ببيعتي ولتقاتلن عدوي ولتنصحن لي في السر والعلن فيقولوا نعم ويمسحون ايديهم بيده فيقول اللهم اشهد) .

ولما شعر انه صار في قوة كافية اخذ يتهيأ لاعلان دعوته والخروج على الدولة، واستعد والي العراق واخذ يهدد الناس ويتوعدهم فلم يلبث ان دب الرعب في قلوب المبايعين، ولقد جاء بعض رؤسائهم الى زيد فقالوا له : (رحمك الله ما قولك في ابي بكر وعمر قال رحمهما الله وغفر لهما ما سمعت احداً من اهل بيتي يتبرأ منهما ولا يقول فيهما الا خيراً قالوا فلم تطلب اذا بدم اهل البيت الا ان وثبا على سلطانكم فنزعاه من ايديكم فقال ان اشد ما اقول

---

(١) نصيحة ابي جعفر واردة في مروج الذهب ج ٣ ص ١٣٩-١٤٠ .

انا كنا احق بسلطان رسول الله من الناس اجمعين وان القوم استأثروا علينا ودفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً فقد ولوا فعدلوا وعملوا بالكتاب والسنة فقالوا لم يظلمك هؤلاء اذا كأن اولئك لم يظلموك فلم تدعو الى قتال قوم ليسوا لك بظالمين فقال ان هؤلاء ليسوا كأولئك انهم ظالمون لي ولكم ولانفسهم وانما ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه والى السنن ان تحيا والبدع ان تطفأ فان انتم اجبتمونا سعدتم وان ابيتم فلست عليكم بوكيل) .

ففارقوه ونكثوا بيعته ورفضوه وقالوا ان الاحق بالامامة هو اخوه ابو جعفر فعرفوا بالرافضة [1] . ولقد بقي عدد كبير من المبايعين لزيد على عهدهم له فتواعد معهم على الخروج اول ليلة من صفر سنة ١٢٢ وبلغ ذلك الوالي فأمر بجمع الناس في المسجد الجامع ونادى منادية ان برئت الذمة ممن تخلف فأدى ذلك الى تخلف اكثر المبايعين عن زيد حتى انه لما نفذ عزيمته وخرج منادياً بالشعار (يا منصور أمت) لم يلبه الا نحو مئتين .

وقد تصدى لهم جند الشام الذين كانوا في الكوفة واخذوا يتصاولون معهم ، وكان لزيد صولات قوية كانت تزعزع الجند الشامي وتوقع فيهم الذعر . وكان الذين التفوا عليه يهربون كلما حزبهم الموقف مما جعله مضطراً الى الانسحاب والاختفاء مع عدد قليل من انصاره ، واستطاع الوالي ان يعرف مخبأه فأرسل ثلة من الجند اليه ولما تصدى لهم رشقوه بالسهام فأصابه سهم كانت فيه منيته ، ولقد اخفى بعض انصاره جثته ولكن الوالي استطاع ان يعثر عليها فأحضرها وحز الرأس فأرسله الى هشام فعلقه على باب مدينة دمشق مدة ثم ارسله الى المدينة فنصب فيها الى ان مات هشام فأنزل وحرق بأمر الوليد الذي خلفه .

وخطب الوالي بعد مقتل زيد في الناس فقال : (يا اهل المدرة الخبيثة اني والله ما تقرن بي الصعبة ولا يقعقع لي بالشنان ولا اخوف بالذئب ، ابشروا بالصغار والهوان . لا عطاء لكم عندنا ولا رزق . ولقد هممت ان اخرب بلادكم ودوركم واحرمكم اموالكم اما والله ما

---

(١) انظر الطبري ج ٥ ص ٤٩٨ .

علوت منبري إلا أسمعتكم ما تكرهون . فانكم اهل بغي وخلاف ما منكم الا من حارب الله ورسوله ، ولقد سألت امير المؤمنين ان يأذن لي فيكم ولو اذن لقتلت مقاتلتكم وسبيت ذراريكم) حيث يتمثل في هذه الخطبة إن صحت ولا مانع من صحتها معنى ان لم يكن حرفياً ما اثارت حركة أهل الكوفة من مرارة في نفس الوالي لأنها كررت حركتهم مع الحسين وحركاتهم العديدة الاخرى بعد الحسين مثل حركات ابن الزبير والمختار بن ابي عبيد وعبد الرحمن الاشعث فضلا عن حركات الخوارج على ما شرحنا بعضه قبل وسوف نشرح بقيته بعد .

وهكذا تجددت مأساة الحسين في حفيده. والسياق الذي ليس هناك ما ينقضه في الكتب الاخرى يسوغ ان يقال في هذا الحادث جميع ما قلناه في حادث الحسين من حيث كونه خروجاً على إمامة شرعية موطدة منبعث عن الرغبة الشخصية والاسروية في الحلول محل السلطان الاموي ومستمد من اجتهاد الافضلية والاولوية بسبب الصلة برسول الله ﷺ .

ولم يكن هناك استفزاز له ولا بغي عليه شخصياً . بل وهناك ما يزيد عن ظروف خروج جده بأنه كان يعترف بامامة هشام ويتردد عليه ويرفع اليه مشاكله ويستعين به على حلها ، وقد نصح كجده من اقاربه وغير اقاربه وذكر بما كان من حادث جده ونوشد الله فلم ينتصح .

وما ساقه او يساق بأن الخروج هو بسبب الظلم والانحراف والرغبة في اقامة الحق والعدل هو من قبيل التبرير الدعائي . ولقد كان عهد هشام من افضل عهود بني امية ، وكان هو من افضل خلفاء بني امية واورعهم واحزمهم وابعدهم عن الانحراف على ما مر بيانه في سيرته .

ولقد تفرع عن حركة زيد مذهبان من المذاهب الشيعية . واحد عرف بالرفض وهو رفض من لم يتبرأ من ابي بكر وعمر رضي الله عنهما ولم يتبرأ منهما ويقر بعدلهما وسيرتهما الصالحة وعرف الثاني بالزيدي وهو القول بجواز وصحة إمامة المفضول دون الافضل على اعتبار أن علياً كان افضل من ابي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم اجمعين فبايعهم علي وتعاون معهم مع ذلك .

٥ - خروج يحيى بن زيد بن علي بن الحسين

ثم خرج في سنة ١٢٥ هـ يحيى بن زيد . ولقد كان مع ابيه حينما خرج وقتل فعمد اليه رجل من بني اسد فقال له قد قتل ابوك واهل خراسان لكم شيعة فاخرج إليهم فقال وكيف لي بذلك فقال له تتوارى حتى يكف عنك الطلب فوافق فواراه .

ثم خاف فجاء الى عبد الملك بن بشر بن مروان فقال له ان قرابة زيد بك قريبة وحقه عليك واجب وكان العفو عنه اقرب إلى التقوى . وهذا ابنه حدث لا ذنب له وان علم الوالي يوسف بن عمر بمكانه قتله فأجره وواره عندك قال نعم وكرامة فواراه فبلغ الخبر الوالي فطلبه منه فانكر وقال كيف اواري من ينازعني سلطاني ويدعي فيه اكثر من حقي فكف عن طلبه فلما سكن الطلب خرج مع بعض اولياء ابيه الى خراسان [١] .

وكتب يوسف بن عمر الى نصر بن سيار والي خراسان بسفر يحيى الى خراسان حين بلغه ذلك ونبهه الى ما تحدثه به نفسه ووجوب اخذه ، فبذل نصر جهده حتى ظفر به وحبسه وانهى ذلك الى يوسف بن عمر فكتب هذا بأمره الى الوليد بن يزيد فأمر هذا نصراً ابن سيار بمنحه الأمان واخلاء سبيله وتسييره إليه واعطائه نفقة وركائب ففعل بعدما امره بتقوى الله وحذره من الفتنة .

غير ان يحيى لم يذهب الى الشام وظل يتنقل بين مدن خراسان ويدعو إلى نفسه حتى اجتمع عليه جمع . فصار يحتاز ما يقع في يده من قوافل الدولة والناس فسير عليه نصر قوة طاردته وظفرت به وقتلته مع معظم انصاره بعد جولات حربية ابدى فيها بسالة وصولة . وقد احتزت رأسه وارسلته الى نصر فأرسله الى والي العراق وعلم الوليد بما تم فأمر بحرق جثته ونسف رمادها . وكان ذلك عام ١٢٦ هـ .

ومن الجدير بالذكر والتعجب معاً انه كان في هذا الظرف في خراسان حركة دعائية نشيطة يديرها ابناء علي بن عبد الله بن العباس بدأت قبل عشرين سنة وكادت تبلغ اوجها في

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٥٠٥ - ٥٠٦ .

وقت خروج يحيى فلم تبادر الى نصرته ، والراجح انه واخوته وبني علي لم يكونوا يعرفون شيئاً عنها وان القائمين بها كان ولاؤهم ونشاطهم للعباسيين دون العلويين . فظل كل فريق في عزلة عن الآخر .

وواضح من السياق [1] ان حركة يحيى تتسم بنفس السمات التي اتسمت بها الحركتان السابقتان ويصح فيها ما قلناه في صددهما .

وقد يمكن ان يضاف الى ذلك ان الامويين عاملوا يحيى بتسامح وتساهل كبيرين على أمل استصلاحه ، فلم يرعو عن دعواه وحركته حين ظهر انه يمكن ان ينجح فيها .

٦ - خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب

وفي سنة ١٢٧ هـ كانت حركة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب . ومما رواه الطبري في صدد هذه الحركة [2] ان عبد الله جاء الى الكوفة زائراً لواليها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ملتمساً صلته ومعه بعض اقاربه فرتب لهم مرتبات واستبقاهم عنده .

وفي هذه الاثناء نشبت الفتن في دمشق بين الامراء الامويين ونشبت في العراق فتنة بين جماعات من مضر وربيعة فاضطربت الامور فجاء جماعة من الشيعة الى عبد الله فقالوا له ادع الى نفسك فبنو هاشم اولى من بني مروان بالامر فاستجاب لهم واخذ يتلقى البيعة منهم ثم اعلن خروجه ، واقبل في جماعته فأخرج الوالي للقائه جيشاً وسار هو بنفسه في اثره وامر منادياً ينادي من جاء برأس فله خمسمائة فسارع الناس الى التنافس فما كان الا هنيهة حتى تكوم امامه خمسمائة رأس . وانهزم عبد الله ومن بقي معه ولقد حالفه مع ذلك حظ جديد بسبب ما كان في العراق من حركات الخوارج بقيادة الضحاك بن قيس وانشغال والي العراق بها فاستطاع ان يغلب على المدائن ثم على حلوان وقوس واصبهان واصطخر

---

(١) انظر ايضاً الطبري ج ٥ ص ٥٣٩ وبعدها .

(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٩٩ وبعدها .

وفارس ونيسابور . وقد عين اخاه الحسن على الجبال واخاه يزيد على نيسابور وما حولها وعين عمالا على البـــلاد الاخرى وجبى خراجها وبـــدا ان امره قـــد استقام . حتى جـــاء إليه بنو هاشم علويون وعباسيون وشيبان الخارجي الذي كان يشغب على السلطان الاموي في نواحي العراق . غير ان يزيد بن عمرو بن هبيرة الذي خلف عبد الله بن عمر في ولاية العراق جد في الامر ورتب جيوشاً عديدة سيرها في نواح مختلفة فأخذت تتصاول مع عبدالله واخوته وعماله . وقد استطاعت ان تنزل في قواتهم الهزائم وان تأسر وتقتل كثيراً منها وأن تضطر معاوية واخوته الى الانتقال الى خراسان طمعاً بالتعاون مع ابي مسلم الذي كان قد غلب على خراسان وهراة وكان يدعو الى الرضا من آل محمد . فانتقل اولا الى هراة هو واخوته وكتب عامل هراة بأمره لابي مسلم الذي كان يعمل في الحقيقة لبني العباس فرأى في افساح المجال له خطراً على عمله فلم يكن منه الا ان امر عامله في هراة باعتقاله مع اخوته ، ثم امره بقتله فنفذ العامل الامر فكان ذلك نهاية هذه الحركة . وكان خروج عبد الله في اوائل سنة ١٢٧ وقتله في سنة ١٢٩ هـ .

ومن طريف ما يروى ان عامل هراة طلب من عبد الله حين قدم عليه ان ينتسب فلما سمى اسمه واسم ابيه وجده قال اما عبد الله وجعفر فمن اسماء آل الرسول واما معاوية فلا نعرفه في اسمائهم فقال ان جدي كان عند معاوية حين ولد ابي فبعث إليه مئة الف على ان يسمي ابنه باسمه فقال له لقد اشتريتم الاسماء الخبيثة بالثمن اليسير فلا نرى لك حقاً فيما تدعو اليه ثم بعث بخبره الى ابي مسلم فأصدر إليه امره الذي ذكرناه قبل .

وقد رمي باللواط على لسان عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس الذي كان من جملة من أتى اليه . ومما روي في صدد ذلك ان هذا وقع في اسر ابن ضبارة احد قواد ابن هبيرة الذين سيروا الى قتال عبد الله بن معاوية واخوته في جملة من وقع في يده من الاصحاب عبد الله بن معاوية وقواته . فسأله القائد ما جاء بك مع ابن معاوية وقد علمت خلافه لامير المؤمنين فقال كان علي دين فأتيته فيه ، واستعلم منه اخبار ابن معاويـــة فذمه ورماه هو واصحابه باللواط .

ويذكر ابن كثير الذي نروي عنه الخبر في سياقه انه كان في جملة الاسرى مئة غلام عليهم

الثياب المصبغة وكان يعمل فيهم الفاحشة .

وقد تكون هذه الرواية من مصنوعات العباسيين ودعاتهم في سياق المشادة التي قامت بينهم وبين العلويين بعدما صار لهم السلطان حيث انبرى العلويون لمنافستهم والشغب عليهم على ما سوف يأتي شرحه في الجزء التالي ان شاء الله[١] .

وواضح ان السمة التي اتسمت بها الحركات الثلاث السابقة ، وما قلناه في صددها يقال هنا ايضاً مع التنبيه على نقطة هامة وهي ما انطوت عليه من سمة امروية جديدة. فقد كانت الحركات الثلاث السابقة مستندة الى اجتهاد الاولوية والافضلية بسبب صلة الحسين وزيد ويحيى برسول الله ﷺ في حين ان هذه الحركة برزت كعملية منافسة بين بني هاشم وبني امية ، مما قد يجعل صلة ما بينها وبين ما قبل البعثة وفي إبانها حيث كانت الاسرة هي الابرز فأثارتها بعثة النبي الهاشمي التي رأت فيها في بدء الامر مظهراً من مظاهر المنافسة لها ووسيلة الى استعلاء الاسرة الهاشمية عليها فوقفت منها موقف العداء بزعامة زعيمها ابي سفيان نحو ثمانية عشر عاماً اي الى فتح مكة واستطاعت ان تكيد لهـا كثيراً في مجال الحرب والدعاية والصد والتعطيل ثم ظلت بعد ان دخلت الاسلام حين فتح مكة تنفس عليهـا شرفها . ولما ولي عثمان الاموي الخلافة حاولت اغتنام الفرصة لاستعادة ما فقدته من الزعامة والقيادة .

ولما قتل عثمان واتهم الثائرون عليه والمتهمون بقتله الى علي بن ابي طالب زعيم الاسرة الهاشمية الذي بويع بالخلافة بعده في المدينة أراد الامويون ان يعتبروه مسئولا عن قتله او حماية قاتليه وجعل معاوية زعيم الاسرة الاموية ذلك وسيلة لتمرده على خلافة علي ولا سيما ان هذا لم يلبث ان عزل معاوية عن ولاية الشام التي كانت في عهدته منذ خمس عشرة سنة والتي كان له فيها فرصة لممارسة السلطان والاستمتاع بأبهته ، فكان ما كان من تشاد وقتال

---

(١) اقرأ حركة عبد الله بن معاوية في الطبري ج٦ ص ٣٣ و ٣٤ والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ٣٣ — ٣٤ ايضاً .

الى ان استتب الامر لمعاوية بتنازل الحسن له .

وإذا صح أن من شروط الاتفاق بين معاوية والحسن ان يكون الامر للحسن من بعد معاوية على ما رواه ابن قتيبة بدا ان الهاشميين لم ينفضوا يدهم من الخلافة وبعبارة ثانية لم ينسحبوا من ميدان المنافسة مع الامويين وهو ما انطوى عليه موقف الحسين حينما اجاب الذين جاؤوا إليه من شيعة ابيه منكرين تنازل الحسن على ما اوردناه قبل .

وهكذا يمكن أن يلمح في حركة الهاشميين وتطلعهم إلى الحكم عنصر او باعث اسروي جديد كان قوي البروز في حركة عبد الله بن معاوية التي نحن في صددها وان كنا نرجح ان الباعث الاقوى فيها هو الشرف الذي اضفته عليهم صلتهم برسول الله ﷺ .

٥ – الحركة العباسية [١]

وكان للهاشميين حركة خامسة يبرز عليها سمة العنصر الاسروي الهاشمي التي نبهنا عليها في سياق حركة عبد الله بن معاوية بن جعفر وهي الحركة العباسية التي نظمها وادارها محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وابناؤه من بعده .

ولقد كان غلو العرب في عهد الامويين في شعورهم بالعزة القومية وادلالهم بالتفوق على غيرهم من الاجناس الاخرى على ما اشرنا اليه قبل ثم سياسة الشدة والحزم التي سار عليها الولاة في بلاد العجم بسبب ما كان يظهر فيها من الحركات المخلة بالامن والولاء مما ضاعف الحقد والنقمة على العرب وعلى الدولة الاموية التي كانت مظهر العروبة الاعظم في قلوب كثير من رجال العجم النابهين الذين كانوا يتحرقون ألماً على ضياع ملكهم وسلطانهم القومي

---

(١) الاحداث في هذه النبذة مقتبسة من تاريخ الطبري ج ٥ ص ١١٥ وبعدها في اماكن عديدة من الجزء و ج ٦ ص ٢٢–١٠٠ والامامة والسياسة ج٢ص ١١٩–١٤١ والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ٣٠ وبعدها في اماكن عديدة واليعقوبي ج ٢ ص ٣٤٠ وبعدها وابن الاثير ج ٥ ص ٣٠ وبعدها في اماكن عديدة من الجزء .

والذين لم يهضموا السلطان العربي منذ البدء ولم يرضخوا له الا مقهورين وجعلهم يندمجون في دعوة التشيع لآل النبي الذين تجمع بينهم وبينهم جامعة كره الامويين والرغبة في اسقاط دولتهم على امل اضعاف وحدة العرب وقوتهم وضربهم ببعضهم وينشرونها بين قومهم الذين أعتنقوا الاسلام ليتسنى لهم تحريكهم تحريكا دينياً ضد الامويين . فأدى ذلك الى اندمـــاج العجم زعماء وعامة فيها اندماجاً اشتد مع الزمن حتى لم يعد يمكن فصلها عنهم في مختلف آثارها ومظاهرها وادوار تاريخها بل صارت قائمة بهم في الدرجة الاولى .

وهكذا تهيأ في العجم وبلادهم جو ملائم استغله محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الذي كان يقيم في مكان منعزل في البلقاء او الشراة يسمى الحميمة هو واسرته منطوين على انفسهم في الظاهر استغلالا بارعاً . ولا سيما انه ادرك عدم امكان جد العرب في الانتصار للهاشميين لانهم كانوا اجمالا راضين معتزين في كنف الدولة الاموية. واعتبر في الوقت نفسه بالتجارب التي مرت في سياق الحركات السابقة والتي كان قوامها شيعة العراق حيث تكشفت عن خلق النكث والتراجع وضعف التماسك والرغبة في ما عند الدولة والرهبة منها .

على ان من الحق ان ننبه على ان محمداً لم يهمل العراق التي كانت بؤرة شيعة آل البيت وكانت رعاية دعاة آل البيت وحركاتهم تغذي باستمرار عاطفتهم الشيعية كما كان يغذيها شدة ولاة الامويين عليهم بسبب كثرة شغبهم ومطالبيهم وتكرر استجابتهم لحركات التمرد والخروج على السلطان الاموي ، وكل ما في الامر انه جعل جل اهتمامه ونشاطه في بلاد العجم [1] .

ويروي ابن قتيبة [2] رواية عن الهيثم بن عدي عن الرجال الذين حدثوه انه لما سلم الحسن ابن علي الامر الى معاوية قامت الشيعة من اهل المدينة ومكة والكوفة واليمن وخراسان في ستر وكتمان فاجتمعوا الى محمد بن علي بن ابي طالب وهو ابن الحنفية فبايعوه على طلب

---

(١) انظر وصيته لابي مسلم التي سوف نوردها بعد قليل.

(٢) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١١٨–١١٩ .

الخلافة ان امكنه ذلك وعرضوا عليه قبض زكاتهم لينفقوها يوم الوثوب علي فرصته فيما يحتاج من النفقة على مجاهدتها فقبلها وولى على شيعة كل بلد رجلا منهم وامره باستدعاء من قبله منهم في سر وتوصيتهم بألا يبوحوا بكتومهم الا لمن يوثق به حتى يرى للقيام موضعاً. وان محمداً اقام اماماً للشيعة قابضاً لزكاتهم حتى مات. ولما حضرته الوفاة ولى الامر ابنه ابا هاشم عبد الله فأقام إماماً للشيعة. وبلغ ذلك سليمان بن عبد الملك في اول خلافته فاستدعاه وسأله عما بلغه فأنكره وقال له ما زال لنا اعداء يبلغون الأئمة قبلك عنا مثل ما بلغك لتغزوهم بنا فيدفع الله عنا كيد من ناوأنا وانا بما يلزمني من مؤونتي اشغل مني بطلب هذا الامر ثم خرج عائداً الى المدينة. ولم يطمئن سليمان بجوابه فرتب له على الطريق اناساً يعرضون عليه اشربة مسمومة فتفادى اكثرها ثم تناول لبناً من رجل في خباء وكان مسموماً بدوره فلما وجد حس السم عرج على الحميمة وبها جماعة آل العباس فنزل على محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فأخبره الخبر وقال له إليك الامر والطلب للخلافة بعدي فولاه واشهد له من الشيعة رجالا. ثم مات فأقام محمد دعوة الشيعة له حتى مات فلما حضرته الوفاة ولى الامر ابنه ابراهيم.

والرواية غريبة لان محمداً بن علي بن الحنفية كان اصغر من الحسن والحسين. وقد روينا قبل عن ابن قتيبة ان الحسين هو الذي جاء إليه شيعة ابيه في العراق بعد تنازل الحسن ووعدهم بالنظر في الامر بعد موت معاوية. وشيعة العراق إنما كاتبوا الحسين ودعوه دون محمد بن الحنفية. ومحمد بن الحنفية كان متوجساً من خروج الحسين الى العراق ونصحه بالتريث مع الاعتراف بحقه وفضله على ما رويناه قبل. ومحمد دافع عن يزيد بن معاوية حينما اراد اهل المدينة خلعه على ما رويناه في سيرة يزيد ايضاً.

ولقد ذكر اليعقوبي هذه الرواية بما يقارب ما ذكره ابن قتيبة مع زيادة هامة وهي ان ابا هاشم قال لمحمد بن علي العباسي ان وصية ابي تذكر ان الامر صائر اليك وإلى ولدك ووصاه بالشيعة. وقال له الشام ليست لكم ببلاد ولتكن دعوتكم بخراسان فاني ارجو ان تتم دعوتكم ويظهر الله اموركم وان صاحب هذا الامر من ولدك عبد الله بن الحارثية

ثم اخوه عبد الله فاذا مضت سنة الحمار فوجه رسلك بكتبك وكان ذلك سنة ٩٧ هـ [١].

ونرجح برغم اتفاق المؤرخين في هذه الرواية انها من مصنوعات العباسيين لاثبات كون خلافتهم بعهد وتنازل من ابي هاشم بن محمد بن علي بن ابي طالب ووصيته الذي انتقلت اليه الخلافة من ابيه الذي اجمع الشيعة مبايعته بعد تنازل الحسن لان الشيعة وابناء علي نقموا عليهم استئثارهم بالامر واعتبروهم غاصبين لحقهم .

والطبري [٢] يذكر محمداً بن علي كأول رجل نشط في الدعوة الى نفسه في خراسان حيث روي انه وجه في سنة ١٠٠ هـ من ارض الشراة رسله الى العراق وخراسان وامرهم بالدعاء اليه وإلى اهل بيته . وكان رسوله إلى العراق ميسرة ورسله الى خراسان محمد بن خنبس وابا عكرمة السراج وحيان العطار .

ومهما يكن من امر رواية ابن قتيبة واليعقوبي فانها تلتقي مع رواية الطبري في ان الذي نشط من العباسيين لاول مرة هو محمد بن علي وليس هناك خلاف في ذلك .

ومما رواه الطبري ان محمداً نهى دعاته عن رجل اسمه غالب لأنه كان مفرطاً في حب بني فاطمة حيث يدل هذا على ان دعوته من اصلها كانت دعوة عباسية ، ومع ذلك فقد كان من توجيهاته الى دعاته التي تدل ان صحت على الدهاء ان تكون الدعوة بين سواد المنضمين إلى الحركة (إلى الرضا من آل محمد) أي (إلى من يرضى به الشيعة او من يكون ارضى لهم من آل محمد الذين يدخل فيهم بنو هاشم جميعاً عباسيون وعلويون) لان ذلك يستهوي الجميع وكان من خططه تشويه سيرة الامويين وعمالهم والطعن في ذممهم ودينهم وتذكير الناس بما نال آل النبي منهم من حرمان واذى وكان حادث الحسين في رأس الحوادث .

---

(١) ج٢ص٢٩٧–٢٩٨ وقد ذكر الراوية ايضاً ابن الاثير والراجح انه نقلها عن هذه المصادر لانها اقدم من كتابه انظر ج ٥ص١٧–٢٠ .

(٢) ج٥ص٣١٥ – ٣١٧ .

والراجح ان كثيراً من الروايات والاقوال والافعال المنسوبة الى العهد الاموي والخلفاء الامويين بل والى عثمان بن عفان الاموي بما فيه التسويء والتشويه والطعن وحكاية المواقف الباغية والمحاباة والتلاعب والاثراء والمجون والخلاعة والفسق والالحاد الخ وكذلك ان كثيراً من الاقوال والاحاديث المنسوبة الى النبي ﷺ وعلي وفاطمة رضي الله عنهما والمحتوية على تدعيم للحركة الشيعية واهدافها وتسويء سمعة الذين قيل إنهم ناوأوا الهاشميين او يناوئونهم قد وضعت وبثت في ظروف هذه الدعوة ووفقاً لتلك الخطة .

ولقد اندمج العلويون واشياعهم في العراق وبلاد الفرس في الحركة وظلوا مندمجين فيها الا قليلا الى ان نجحت وصدمتهم الحقيقة بمبايعة العباسيين دونهم فكان هذا مما حفزهم على استئناف السعي لانفسهم والشغب على الدولة العباسية وتقويضها .

ولقد لبثت الدعوة تجري في الخفاء نحو ثلاثين سنة . وكانت بمثابة جمعية سرية يتكتم المنتسبون اليها واذا علم امرهم او شيء منه انكروا وتنصلوا . ولقد كان ولاة خراسان يقبضون على بعضهم فيقتلونهم ولكن ذلك لم يكن يفت في عضدهم او يخمد حركتهم .

ولقد كان محمد يتلقب بالامامة مما يرجح انه اخذ البيعة لنفسه من شيعته إذا لم تكن رواية عهد عبد الله بن محمد بن علي بن الحنفية صحيحة، وكان بعض اركان دعوته يأتون اليه في الحميمة حيناً ويلتقون به في موسم الحج حيناً ويقدمون اليه ما كان يجتمع معهم من خمس اموال الشيعة وتبرعاتهم ويتلقون منه التوجيهات والتعليمات .

ويروي الطبري روايات عديدة عن سير حركة الدعوة ونشاطها منها ما ذكرناه قبل من ارسال محمد رسله الى العراق وخراسان في حوادث سنة ١٠٠ بعنوان أول الدعوة .

وقد ذكر في سياق ذلك ان هؤلاء الرسل لقوا الناس وارسلوا الى محمد بكتب من استجاب اليهم . فعين اثني عشر نقيباً واختار سبعين رجلا آخرين

فأرسل اليهم كتاباً عاماً ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرون عليها [1] .

ومنها ما جاء فيه ان اول من جاء اهل خراسان بكتاب من محمد بن علي هو حرب بن عثمان مولى بني قيس من اهل بلخ وان اول من قدم خراسان من دعاة بني العباس زياد ابومحمد مولى همدان في ولاية اسد بن عبد الله الاولى . وقد قال له ادع الينا والطف بمضر وانزل في اليمن ونهاه عن غالب الذي كان مفرطاً في حب بني فاطمة . واخـــذ زياد ينشط في مرو ويطعم الطعام ويذكر سيرة بني مروان وظلمهم فاستجاب اليه بعض الناس . ونما خبره الى الوالي فاستدعاه وسأله ما هـــذا الذي يبلغني عنك وامره بالخروج فأنكر وقال انما قدمت في تجارة وقد فرقت مالي فاذا صار لي خرجت فأصر عليه بالخروج فتلكأ واستمر في نشاطه فاستدعاه ثانية فراوغه فأمر بقتله مع عشرة من رفاقه . وقد ذكر الطبري هـــذا في سياق حوادث سنة ١٠٩ هـ [2] .

والذي نرجحه ان تعيين النقباء انما كان بعد امد ما من نشاط الدعوة وتكاثر المستجيبين إليها وأن الخطوات الاولى كانت من قبل افراد اختارهم وارسلهم منهم الرسل المذكورون في سنة ١٠٠ هـ ومنهم زياد هذا .

ولقد استمر نشاط الدعاة بعد قتل زياد ورفاقه حيث ذكر الطبري انه جاء في نفس السنة من الكوفة رجل اسمه كثير ليقوم مقـــام زياد فنزل على رجـــل اسمه ابو النجم فصار الناس الذين لقـــوا زياداً يأتون اليه فيحدثهم ويدعوهم ومكث على ذلك سنة او

---

(١) ج ٥ص٣١٦-٣١٧ وهذه اسماء النقباء كما ذكرها الطبري : سليمان بن كثير الخزاعي ولاهز بن قريظ التميمي ، وقحطبة بن شبيب الطائي ، وموسى بن كعب التميمي ، وخالد بن ابراهيم ابو داود من بني عمرو بن شيبان والقاسم بن مجاشع التميمي وعمران بن اسماعيل ابو النجم مولى آل ابي معيط ومالك بن الهيثم الخزاعي وعمرو بن اعين ابو حمزة مولى خزاعه وشبل بن طهمان ابو علي الهروي مولى بني حنيفة وعيسى بن اعين مولى خزاعه . والموالي هم على الاغلب من مسلمي العجم.

(٢) ج٥ ص ٣٩٤-٣٩٥ .

سنتين [1] وفي سنة ١١٤ اشتد نشاط دعاة بني العباس في خراسان في عهد واليها الجنيد فأخذ منهم رجلا فقتله ثم نادى من اصيب منهم فدمه هدر [2] .

واستمر الدعاة في نشاطهم مع ذلك حيث ذكر الطبري في حوادث سنة ١١٧ ان اسد ابن عبد الله اخذ في ولايته الثانية لخراسان جماعة من الدعاة ومنهم بعض النقباء مثل سليمان ابن كثير ومالك بن الهيثم ولاهز بن قريظ وكانوا يمانيين ، وكان أسد يمانياً فحاولوا ان يثيروا نعرته فقال احدهم :

لو بغير الماء حلقي شرق   كنت كالغصان بالماء اعتصاري

ثم قال له انما حملهم على ذلك بغضهم للمضريين . غير انه لم يأبه لاعتذارهم فحبس بعضهم وجلد بعضهم وتشفع اناس ببعضهم [3].

واستمر النشاط مع ذلك حيث ذكر الطبري في حوادث سنة ١٢٠ ان رجال الدعوه ارسلوا الى الامام محمد رسلا فلقوه في الحميمة واخبروه بما يحدث عندهم وكان حانقاً عليهم لما بلغه من فتورهم فاعتذروا له . وبعد انصرافهم وجه بكيراً بن ماهان كنائب اومندوب خاص من قبله وارسل الى شيعته معه كتاباً فلم يصدقوه فعاد اليه فبعث معه بعصي مضببة بعضها بالحديد وبعضها بالشبه فلما رجع جمع النقباء والشيعة ودفع اليهم العصي فعلموا انهم مخالفون لاوامره فتابوا ورجعوا [4].

والخبر طريف ولعل العصي كانت رمزاً من الرموز السرية بينه وبينهم .

ومما رواه الطبري ومؤلف النجوم الزاهرة ان بكيراً وجه شخصاً اسمه عمار بن يزيد الى خراسان والياً على شيعة بني العباس فنزل مرو وغير اسمه الى خواش ودعا الناس

---

(١) ٣٩٥ (٢) ٤١٥ .

(٣) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٤٣٩ .

(٤) نفس الجزء ص ٤٦٧ .

فأقبلوا عليه . غير انه انحرف عن الاسلام واظهر دين الخرمية ودعا اليه ورخص لبعضهم في نساء بعض وقال انه لا صوم ولا صلاة ولا حج وان تأويل الصوم ان يصام عن ذكر الامام فلا يباح باسمه والصلاة والدعاء له والحج القصد اليه . واخبرهم ان هذه هي تعليمات الامام محمد بن علي . وبلغ اسداً خبره فاستدعاه وسأله عن حاله فأجابه بغلاظة فقطع يده وقلع لسانه وسمل عينيه ثم امر بقتله وصلبه [1] .

ومما رواه كذلك في حوادث سنة ١٢٥ ان بكيراً وجماعة من رؤساء الشيعة خرجوا من خراسان للقاء الامام في مكة فمروا بالكوفة فعلم واليها بأمرهم او بأمر بكير فحبسه وكان في الحبس جماعة فدعاهم فأجابوه حيث يبدو في هذا الخبر شدة نشاط وعمق ايمان هذا الداعية .

ومما ذكره في هذا السياق انه كان في السجن شخص اسمه عيسى بن معقل معه مملوك رأى بكير فيه علامات كان سمعها من الامام ان صاحبها هو الذي على يده نجاح الحركة ، فاشتراه واخذ يربيه ويدربه [2] . وهو الذي عرف فيما بعد بأبي مسلم الذي كان نجاح الدعوة فعلا على يده .

وذكر الطبري في حوادث نفس السنة قدوم بعض نقباء الدعوة منهم قحطبة بن شبيب وسليمان بن كثير الى مكة حيث التقوا بالامام وقدموا له ما جمعوه من الشيعة من مال وكان **مئتي الف درهم** وكسوة قيمتها ثلاثون الفاً واخبروه بقصة ابي مسلم وعلاماته فأمرهم بعتقه والعناية به ثم قال لهم لا اظنكم تلقوني بعد عامي هذا فان حدث لي حادث فصاحبكم ابراهيم ابني فاني اثق به واوصيكم به خيراً وقد اوصيته بكم . ولم يلبث ان توفي كما خمن [3] .

وفي سنة ١٢٦ ارسل ابراهيم عقب وفاة ابيه بكيراً بن ماهان وحمله وصاياه فقدم مرو

---

(١) ج٥ ص٤٤٠ وننبه على ان الطبري ذكر هذا في حوادث سنة ١١٨ مع انه ذكر نيابة بكر في سنة ١٢٠ فاما ان يكون خبر السنة هذه أو تلك خطأ انظر النجوم الزاهرة ج ١ ص٢٧٨ .

(٢) ٥١٢ - ٥١٣ (٣) ٤٣٥ .

وجمع النقباء والدعاة فنعى لهم الامام محمد ودعاهم الى مبايعة ابراهيم واعطاهم كتابه فقبلوا ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة فحملها وقدم بها على ابراهيم [1] .

وفي سنة ١٢٧ مرض بكير بن ما هان فلما حضرته الوفاة عين ابا سلمه خلفاً له وكتب بذلك الى الامام ولم يلبث ان مات فاقر الامام ابا سليمة فقبل ودفعوا له ما تجمع عندهم من النفقات وخمس الاموال [2] .

وننبه على ان ابن قتيبة ذكر خبر قدوم سليمان بن كثير وقحطبة بن شبيب ورفقاؤهم على الامام محمد في صيغة مخالفة حيث قال انه لما غلظ امر الشيعة في خراسان قدموا الى مكة فالتقوا بالامام وقدموا له الاموال وقدموا له ابا مسلم .

وقد رأى عقل هذا وظرفه فكتب للنقباء والدعاة بعد انصراف القادمين عليه انه امره على ما يغلب علي خراسان فلما جاءهم لم يقبلوا قوله وخرجوا في السنة التالية فقابلوا الامام في مكة وجاء ابو مسلم ايضاً وقال لهم انهم لم ينفذوا امره فقال لهم انه اجمع رأيه على ابي مسلم فاسمعوا له واطيعوا ثم وصى ابا مسلم بهذه الوصية الخطيرة البعيدة المدى حيث خاطبه قائلا : (يا ابا عبد الرحمن انك رجل منا اهل البيت فاحفظ وصيتي انظر هذا الحي من اليمن فاكرمهم فوالله لا يتم هذا الامر الا بهم وانظر هذا الحي من ربيعة فانهم معهم . وانظر هذا الحي من مضر فانهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت في امره ومن وقع في نفسك منه تهمة) .

فقال ايها الامام فان وقع في انفسنا من رجل هو على غير ذلك احبسه حتى تستبينه قال لا لا السيف لا تتق العدو بطرف وان استطعت ان لا تدع بخراسان ارضاً فيها عربي فافعل . وايما غلام بلغ خمسة اشبار فاتهمته فاقتله ولا تخالف هذا الشيخ يعني سليمان بن كثير ولا تعصه . ثم قال للنقباء من اطاعني فليطع هذا يعني ابا مسلم ومن

---

(١) ص ٥٩٢ (٢) ٦٢٢ .

عصاه فقد عصاني [1] .

ومنذ استلم ابو مسلم المهمة اشتد النشاط واتسع اتساعاً كبيراً . ولقد نشبت في خراسان فتنة

---

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ١٢٣-١٢٤ وتاريخ الطبري ج ٦ ص ١٤ ونص الوصية في الطبري مطابق تقريباً لنص ابن قتيبة عدا عبارة ربيعة فانهـا في الطبري :« فاتهمهم في امرهم بدل فانهم منهم » في ابن قتيبة ، ولعل ذلك تصحيف . وهناك صيغة اخرى للوصية فيها زيادة مهمة كنا نقلناها في المسودة وضاع عنا مصدرها ، وقد جاء فيها : « امـا الكوفة وسوادها فشيعة لعلي وولده واما البصرة وسوادها فعثمانية واما الجزيرة فحرورية (اصطلاح كان يطلق عـلى الخوارج) مارقة . واما اهل الشام فلا يعرفون الا آل ابي سفيان وطاعة بني مروان . واما مكة والمدينة فقد غلب عليها ابو بكر وعمر - اي لا يرضون عن اي انسان لا يسير بسيرتها - ولكن عليك بخراسان فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر. وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة ، لم تقسمها الاهواء ، وهم جندهم ابدان واجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب واصوات هائلة ولغات فخمة - واضح ان المقصود بذلك اهل خراسان الاعاجم - يا عبد الرحمن انك رجل منا اهل البيت فاحتفظ بوصيتي ، انظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في امرهم ، وانظر هذا الحي من مضر فانهم العدو القريب الدار . واقتل من شككت فيه ومن كان في امره شبهة وان استطعت ان لا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل ، فأي ما غلام بلغ خمسة اشبار فاتهمته فاقتله » .

والغالب ان تحذيره من المضريين آت من كونهم جماعة نصر بن سيار الوالي وان توصيته باليمنيين لانهم كانوا ضدهم بزعامة الكرماني، والوصية مع ذلك ضد كل عربي . لان العرب كانوا راضين معتزين اجمالا في كنف الدولة الاموية . وكانت استجابتهم ضدها غير واسعة وغـير متماسكة . فلم يكن للامام العباسي الا ان يجعل جل اعتماده على العجم استغلالا لحقدهم على العرب وفي كتاب ارسله الامام ابراهيم لابي مسلم رواه الطبري تحريض صريح على قتال العرب وعدم ابقائه على احد منهم حيث يتطابق هـذا مع ذاك .

واية صيغة من الصيغ صحت فالنتيجة المستنتجة تظل واردة ، ولقد جاءت هذه الصيـغ في كتب دونت في عهد العباسيين وهذه نقطة هامة في الموضوع .

ونعتقد انه لا بد من ان يكون لها اصل ما ان لم تصح حرفيتها ، حتى لو لم تصح فانا نعتقد انهـا كانت تعبر عن الحالة الغربية الذهنية التي كان يصدر عنها مدبر الدعو عباسية ، وسيرة الدولة العباسية بعد قيامها تؤيد ذلك على ما سوف نشرحه في الجزء التالي ان شاء الله .

قبلية بين النزاريين المضريين بزعامة نصر بن سيار والي خراسان واليمانيين بزعامة جديع الكرماني وصار الفريقان يشتبكان في قتال ودامت مدة طويلة على ما سوف نشرحه في نبذة العصبية القبلية .

ثم قامت الفتنة بين الامراء الامويين في الشام على ما شرحناه في سيرة الوليد الثاني ويزيد الثالث وابراهيم ومروان . واشتدت في الوقت نفسه حركة الخوارج في العراق والجزيرة الفراتية والحجاز على ما شرحناه في نبذة الخوارج ، فشغل كل ذلك الدولة شغلا كبيراً استغله ابو مسلم والامام ابراهيم اعظم استغلال وغلظ امرهم نتيجة لذلك .

ولقد طلب الامام ابراهيم في سنة ١٢٩ من ابي مسلم ان يلقاه في موسم الحج في مكة ويحمل ما عنده من اموال فخرج مع سبعين من النقباء فلما وصل قومس لقيه رسول من قبل ابراهيم ومعه كتاب يقول له فيه قد بعثت اليك براية النصر فارجع حيث القاك كتابي واظهر دعوتك ولا تتربص فقد آن ذلك . ووجه قحطبة بما عندك . حيث يبدو ان الامام ايضاً رأى الظروف ملائمة للظهور . وقد ارسل قحطبه ومعه ما قيمته (٣٦٠٠٠٠) درهم اشترى بها بضائع وصفائح حتى لا يثير الريب . ورجع ابو مسلم فنزل في قرية سفيدنج . وكان شيبان الخارجي والكرماني يقاتلان مع انصارهما نصراً بن سيار وانصاره المضريين .

فاظهر امره وبث دعاته فوافاه في يوم واحد اهل ستين قرية . وكانت الراية التي ارسلها الامام سوداء تدعى السحاب . وقد عقدها على رمح طوله ١٤ ذراعاً ثم صار يفد عليه الانصار من مرو وغيرها . وقام بحركة قطع بها الطريق بين مرو التي كان فيها نصر وبين مروروز وبلخ وطخارستان ووجه نصر كتيبة من الفرسان لتتصدى له فالتقوا به عند آلين فدعاهم الى الرضا من آل رسول الله اي الى الشخص الذي يرضى به . وكان هذا شعار دعوته الظاهري — فاستكبروا ثم اشتبكوا معه فدارت الدائرة عليهم وارسل ابو مسلم حملة على مروروز واخرى على هراة فاستولتا عليها وقتلت عامل الاولى وشردت عامل الثانية مع فلول حامياتها .

وظل انصار الدعوة يتوافدون عليه وتعظم بهم قوته . وهتف زعيم اسمه يحيى بن هبيرة

باليمانيين والمضريين منبهاً للخطر الشديد الحائق بكيان الدولة ودعاهم الى المهادنة . فجنح الكرماني الى المهادنة حتى لقد اجتمع ممثلو الفريقين وكتبوا كتاب الصلح . فدس ابو مسلم دسائسه حتى جعله ينقض الصلح وهتف به زعيم ثان اسمه قديد فقال له يا ابا علي لقد لجبت . واخاف ان يتفاقم الامر فنهلك جميعاً ويشمت بنا هؤلاء الاعاجم فظل هذه المرة سادراً في غيه وعادت الاشتباكات ثانية بين الفريقين ، واستطاع الكرماني ان يغلب على مرو ويلجيء نصراً الى الخروج منها ، ولم يدع هذا الصيال فاستمرت الجولات بينهم واشتد القتل في الطرفين .

وجنح ابو مسلم الى الدس بين العرب لما استيقن ان كلا الفريقين قد اثخن في صاحبه فجعل يكتب الكتب في بعضها ذم لليمانيين واعلان ثقته بالمضريين وفي بعضها العكس ويوصي حاملي الاولى بالتعرض للمضريين للاطلاع على الكتب وحاملي الثانية بالتعرض لليمانيين حتى يثير البلبلة بين الجهتين .

ثم كتب الى نصر والكرماني يقول ان الامام اوصاني بكم ولست اعدو رأيه فيكم بقصد تثبيط عزائمها عنه حتى لم يتمالك نصراً ان قال (يا عباد الله هذه والله الذلة رجل بين اظهرنا يكتب لنا بمثل هذا فلا نقدر له علي ضر) هذا بينما كانت كتائبه تنشط في البلاد وتستولي عليها وتطرد عمال الامويين عنها وترفع الرايات السوداء عليها .

واستمرت مع ذلك الجولات بين اليمانيين والمضريين وانتصر هؤلاء في جولة واسروا فيها جديعاً الكرماني الزعيم فقتله نصر وصلبه ، واشتد ثوران اليمانيين بزعامة ابنه علي وعثمان فسارعا الى ابي مسلم يطلبان مساعدته فرحب بالفرصة ووعد بالمساعدة ، وكان شيبان الخارجي حليفاً مع الكرماني فأرسل نصر إليه يحذره من العواقب ويعرض عليه الصلح فجعل ابومسلم ابني الكرماني يحولان دون ذلك .

وادرك نصر خطورة الموقف فكتب الى مروان يعلمه بحركة ابي مسلم وكثرة من معه وكتب تحت الكتاب هذه الابيات :

أرى بين الرماد وميض جمر   فأحج بأن يكون له ضرام
فان النار بالعودين تذكى   وان الحرب مبدؤها كلام

فقلت من التعجب ليت شعري | أأيقاظ أميـــة أم نيام [1]

فكتب إليه مروان الشاهد يرى ما لا يراه الغائب فاحسم الثؤلول بقوتك . فهتف نصر يقول ليس عند صاحبكم نصر . ثم كتب الى يزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق وفي رواية ان مروان امره بذلك يستعده وكتب تحت كتابه هذه الابيات :

أبلغ يزيد وخير القول اصدقه | وقد تبينت الا خير في الكذب
إن خراسان أرض قد رأيت بها | بيضاً لو افرخ قدحدثت بالعجب
فراخ عامين الا انها كبرت | لما يطرن وقد سربلن بالزغب
فان يطرن ولم يحتل لهن بهـــا | يلهبن نيران حرب أيمـــا لهب

فلم يستطـع يزيد ان يفعل شيئاً لانه كان مشغولا بفتوق في العراق وقال لا غلبـة الا الكثرة وليس عندي رجل .

وفي هذه الاثناء وقع كتاب من ابي مسلم الى ابراهيم يخبره به بأمره وقوته في يـــد مروان حيث كان وضع الارصاد على الطرق . فرشى الرسول بمبلغ كبير ووعده بمبلغ اكبر على ان يذهب بالكتاب ويحصل على جوابه ويأتيه بـه . ففعل وكان في جواب ابراهيم شتم

---

(١) هذه الابيات جاءت في سياق الطبري وهناك روايات اخرى تروي الابيات بشيء مـن الزيادة فبعد البيت الثاني هذا البيت :

فان لم يطفها عقلاء قـــوم | يكون وقودها جثث وهام

وبعد البيت الثالث هذه الابيات :

فان يك قومنا اضحوا نياماً | فقل قوموا فقد حان القيام
وان يقظت فذاك بقاء ملك | وان رقدت فاني لا الام
وفري من رحالك ثم قولي | على الاسلام والعرب السلام

وهذه الابيات بزيادة ونقص مشهورة وردت في اكثر من كتاب من الكتب القديمة بحيث يسوغ القول ان لها اصلا وان ما فيها من تغاير زيادة ونقصاً هو من التداول .

لأبي مسلم لأنه لم ينتهز الفرصة حينما امكنتـــه من نصر والكرماني وامر له بأن لا يدع بخراسان عربياً الا قتله وغير ذلك من امره ونهيه . ثم هذا الرجز :

دونك امراً قد بدت اشراطه ان السبيل واضح صراطـــه
لم يبق الا السيف واختراطه

وحينئذ امر مروان عامله في البلقاء ان يسير الى الحميمة وكان لها اسم آخر وهو الكدار حيث ورد في الروايات الاسمان حيث كان يقيم ابراهيم مع اهل بيته واقاربه فيشده وثاقاً ويبعث به اليه فنفذ العامل الامر فاعتقل ابراهيم وكان في مسجد القرية جالساً ملففاً وارسله الى مروان فسأله عن امر ابي مسلم فأنكر فأخرج له كتابه بخطه وقال له أليس هذا كتابك لأبي مسلم يا منافق . ثم حبسه . وتعقب من علم مكانـــه من بني العباس فحبسهم وحبس معهم جماعة من بني امية عرف مخامرتهم عليه منهم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والعباس بن الوليد بن عبد الملك . وكان سجنهم في حران حيث كان يقيم . ولما اشتد امر ابي مسلم امر بقتلهم فقتلوا . وقد استطاع اخوة ابراهيم ابو العباس وابو جعفر واعمامه عبد الله وداود وعيسى وصالح واسماعيل وعبد الصمد وابناؤهم النجاة والافلات والذهاب الى الكوفة حيث اختفوا فيها الى ان استولت قوات ابي مسلم على خراسان ثم على بلاد الفرس ثم على الكوفة . ويروى ان ابراهيم عين اخاه ابا العباس ولياً لعهده . فكان اول الخلفاء العباسيين .

ولقد حاول نصر ان يتصالح مع ابني الكرماني فسعى ابو مسلم في احباط المسعى واثارة الحقد في نفسيهما فنجح . واسقط في يد نصر فأرسل الى ابي مسلم يفاوضه في الدخول معه هو والمضريون .

وعلم ابناء الكرماني بذلك فارسلا بدورهما الى ابي مسلم يفاوضانه في الدخول معـــه هم واليمانيون ووازن ابو مسلم واصحابه بين العرضين ثم رجحوا اليمانيين والكرمانيين وقالوا ان مضر قتلة آل النبي واعوان بني اميـــة وشيعة مروان الجعدي ونصر يدعو لمروان ويسميه امير المؤمنين وخرج وفـــد المضريين ذليلا وهتف ابو مسلم بشيعته قائلا ان الله قد اعفاهم من اجتماع كلمة العرب وصيرهم بنـــا الى افتراق الكلمة وكان ذلك قدراً

من الله مقدراً [1] .

وفي ربيع عام ١٣٠ استعد الفريقان للمعركة الفاصلة ابو مسلم ومعه اليمانيون وزعماؤهم وشيبان الخارجي وجماعته ونصر على رأس المضريين واخذا يشتبكان في اطراف مرو . ودارت الدائرة على المضريين . وفر نصر ودخل ابو مسلم مرو وجلس يأخذ البيعة من الناس (على كتاب الله وسنة رسوله والطاعة للرضا من اهل بيت رسول الله) واستمر نصر في تراجعه مع جمع من انصاره الى طوس ثم إلى نيسابور . وطفق ابو مسلم يلاحق المضريين ويقتلهم قتلا سريعاً .

ودعا ابو مسلم شيبان الى البيعة فقال بل انا ادعوك الى بيعتي وادى ذلك الى افتراقه عن ابي مسلم . وطلب شيبان من ابن الكرماني نصرته فأبى فسار الى سرخس وتحشد مع جمع كثير من بكر بن وائل فسير عليه ابو مسلم حملة قاتلته وقتلته مع عدد كبير من جماعته . واستمر يرسل كتائبه فتوطد سيطرتها على انحاء خراسان وما يليها وترفع عليها الرايات السود وتقتل من يقاومها من المضريين .

وكان ابنا الكرماني وانصارهم يأملون ان يكون لهم سلطان خراسان فخاب املهم فأدى ذلك الى خلاف بينهم وبين ابي مسلم وانقلب الخلاف الى نزاع فقتال وكانت جولات بينهم دارت الدائرة في نهايتها على اليمانيين وقتل علي وعثمان الكرماني فيمن قتل من جماعتهم .

ولما انتهى ابو مسلم من تصفية المضريين والكرمانيين والخوارج وبسط سيطرته على خراسان وما والاها رتب حملة قوية بقيادة قحطبة بن شبيب احد النقباء نحو الغرب والجنوب

---

(١) هذا السياق من الطبري ، ونحن نشك ان يكون نصر قد عرض على ابي مسلم الدخول معه وهو والي الدولة ويعرف مدى وهدف حركة ابي مسلم ثم يعرف انه وراء اليمانيين يقويهم ويحرضهم ، اما ما روي عن هتافه فلا يبعد ان يكون صحيحاً نتيجة لنجاحه في احباط سعي الصلح والمهادنة بين المضريين واليمانيين .

الغربي لتطارد نصراً بن سيار وتقصي عمال بني امية من الاقاليم العجمية الاخرى . وحاول يزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق الذي كانت هذه الانحاء تابعة لولايته العامة ان يقف في وجه السيل وبعث حملة لتتضامن مع نصر بسبيل ذلك والتقوا مع جيش قحطبة في جرجان ودار بينهم قتال شديد فدارت الدائرة على الجيش الاموي وقتل قائده فيمن قتـل ، وجاء نصر بن سيار كسيراً حزيناً الى الري فمرض فنقلوه الى همدان حيث مات فيها وعمره ٨٥ سنة . واستمر جيش قحطبة في سيره الى نيسابور فالري فاصفهان فهمدان فنهاوند يقاتل من يتصدى له من الحاميات الاموية وينتصر عليها ويرفع الرايات السود على البلاد ويهرب الفلول وانصار الامويين من العرب مذعورين من امامـــه حتى بلغ العراق . وكان يصادر اموال الهاربين واملاكهم . وقد روت بعض الروايات ان عدد من قتله في جرجان من العرب بلغ ثلاثين الفاً . وقد استولى على الكوفة . وحاول واليهـــا ابن هبيرة ان يقف في وجهه مرة اخرى فاخفق فانسحب من امامه وطارده قحطبة وفي اثنـــاء المطاردة غرق قحطبة في الفرات فاستلم قيادة الجيش ابنه حميد . وكان ذلك في اوائل سنة ١٣٢ هـ .

ولقد كان ابو العباس عبد الله بن محمد واخوه واعمامه مختفين في الكوفة كما قلنا قبل . وكان ابو سلمة الذي يعرف بوزير آل محمد هو الذي صار صاحب الامر في الكوفة حينما غلب جيش قحطبة عليها بتفويض منه وكان هواه في آل ابي طالب فتباطأ في امر بيعة ابي العباس الذي عينه اخوه ابراهيم خليفة له .

ويظهر ان ابا مسلم كان يعرف هذه النزعة فيه فوجه قوة الى الكوفة ليسابق ابا سلمه في البيعة لابي العباس ، فجاء القائد وبحث عن ابي العباس حتى وجده واخرجه الى المسجد ودعا الناس الى مبايعته . وصعد هو الى المنبر فخطب خطبة طويلة ذكر فيهـــا بني امية وسوء آثارهم وظلمهم ونوه بما خص الله اهل بيت رسوله من المزايا والطهارة ووعد انصارهم بالخير واوعد اعداءهم بالويل ووصف نفسه بالسفاح المبيـح والثائر المبير ووعد بالعـــدل

والاصلاح وقسم الفيء على وجهه [1] . وصعد بعده عمه داود فخطب خطبة طويلة مثلها واشار الى ابي العباس فوصفه بأمير المؤمنين وقال ان هذا الامر سيظل فينا ليس بخارج عنا حتى نسلمه الى عيسى بن مريم ثم انصرف مع ابن اخيه الى القصر وتركوا ابا جعفر اخا ابي العباس في المسجد ليتلقى البيعة العامة من الناس، بينما وفد اهل الرأي على القصر الى مبايعة ابي العباس ولم تلبث ان جاءته البيعة من سائر انحاء العراق بالاضافة الى بلاد العجم فكان ذلك بدء نشوء الدولة العباسية .

ولقد حاول ابن هبيرة ان يستمسك في واسط بعد ان غرق قحطبة في الفرات فاتصل ابو جعفر به واعطاه ومن معه من اهل العراق والشام اماناً قوياً مؤكداً بالايمان المغلظة فكف عن النضال ، ، ولم يحترم ابو العباس هذا الامان حيث امر قواته بطاردته حتى ظفرت به وقتلته على ما رواه ابن قتيبة .

وقد سير ابو العباس بعد ذلك جيشاً بقيادة عمه علي او بقيادة قائد اسمه ابو عون على اختلاف الروايات نحو الشام فخرج مروان الى لقائه ولكن الدائرة دارت عليه فانهزم واخذ الجيش العباسي يتقدم في بلاد الشام ويستولي عليها ويطارد مروان الى فلسطين فمصر حيث وطد السلطان العباسي عليها وظفر بمروان وقتله على النحو الذي فصلناه في سيرة مروان تفصيلا يغني عن التكرار .

ولقد تتبع العباسيون بعد قتل مروان واستتباب الامر لهم في العراق والشام ومصر والحجاز رجال بني امية فقتلوا كل من وقع في ايديهم قتلا ذريعاً .

وقد روى الطبري خبر ذلك مقتضباً حيث ذكر ان عبد الله بن علي الذي صار والياً للشام وهو من اعمام الخليفة قتل ٧٢ منهم بنهر ابي فطرس سنة ١٣٢ وان داود بن علي الذي صار والياً للحجاز وهو كذلك من اعمام الخليفة قتل سنة ١٣٣ من كان في مكة

---

(١) النص الوارد في ابن الاثير عن الخطبة اكثر اسهاباً منه في الطبري انظر ابن الاثير ج ٥ من ١٥٣–١٦٣ والطبري ج ٦ ص ٨١–٨٢ .

والمدينة منهم [1] .

وأورد ابن قتيبة بياناً اوفى في ذلك حيث روى ان عبد الله بن علي الذي وصفه بالسفاح أظهر ان اميرالمؤمنين ارسل اليه يوصيه ببني امية خيراً وان يرد عليهم أموالهم ويلحقهم بالعطاء الكامل والرزق الوافر فقدم عليه من أكابرهم ٨٣ وكان قد اعد لهم مجلساً فيه اضعافهم من الرجال فأخرجهم عليهم فقتلوهم ثم صادر اموالهم .

وعف عن دم عبد الواحد بن سليمان وكان عابداً مجتهداً ولكنه طلب منه ان يتنازل له عن ارض له فيها مياه وعيون فأبى واختفى فبحث عنه حتى قبض عليه واعتقله واستصفى ماله .

وقد روي ان ابا العباس الخليفة حنق على عمه لقتله عبد الواحد وقال لولم يكن السفاح عمي وذمامه ورعاية حقه واجب علي لأقدت منه ولكن الله طالبه به وقد كنت اعرف عبدالواحد براً تقياً صواماً قواماً ثم كتب الى عمه ان لا يقتل احداً من بني امية حتى يعلمه به .

ويستفاد من سياق ابن قتيبة انه لم ينج من بني امية الا افراد منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي حذره رجل له عليه جميل والح عليه بالنجاة الى بلاد المغرب ولما قال له ما يظهره عبد الله من امر الخليفة في الوصية والبر ببني امية قال له هل تصدق ان بني العباس يمكن ان يشعروا باستقرار ملكهم ومنكم عين تطرف . فاقتنع وفر الى المغرب وهو الذي انشأ دولة بني امية في الاندلس .

ويذكر ابن قتيبة خبر قتل سليمان بن هشام من قبل ابي العباس نفسه . ومما اورده في صدد ذلك ان سليمان هذا كان اكرم الناس على ابي العباس لحسن بلائه مع قحطبة وقيامه معه على مروان . حيث انضم إلى جيش قحطبة حينما قدم الى العراق مع من كان معه من جموع وعددهم اربعه آلاف وبايع ابا العباس الذي كان بينه وبينه مودة سابقة واشترك في الزحف على الشام ومطاردة مروان الى مصر . ولما قتل مروان ارسل قائد الحملة سليمان بكتاب الى

---

(١) ج ٦ ص ٩٧ و١١٦ .

الخليفة يبشره فيه بقتل مروان فكان هذا مما زاد في مقام سليمان عند الخليفة وجعله يكرمه ويفعل به ما لم يفعله بأحد سواه من البر والاكرام . وبينما كان معه في مجلس مباسطة دخل مولى لابي العباس اسمه سديف فناول مولاه ورقة فيها هذه الابيات :

أصبح الملك ثابت الاساس ... بالبهاليل من بني العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها ... بعد ميل من الزمان وياس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً ... واقطعن كل نخلة وغراس
ذلها اظهر التودد منها ... وبها منكم كحز المواسي
ولقد غاظني وغاظ سوائي ... قربهم من منابر وكراسي
اذكرن مقتل الحسين وزيداً ... وقتيلا بجانب المهراس

فقال للمولى بعد ان قرأ الورقة وناولها لابي جعفر اخيه نعماعين وكرامة وسننظر في حاجتك . ونبه بعض الناصحين سليمان الى الخطر المحدق به فهرب الى بعض انحاء الجزيرة وكتب الى مواليه وصنائعه فاجتمع عليه خلق كثير فبعث إليه ابو العباس بعثاً فهزمه ثم بعثاً ثانياً فهزمه ثم بعثاً ثالثاً فتغلب عليه ووقع هو وابنه في الاسر فأمر ابو العباس بضرب رقابهما وصلبهما على باب الامارة في الكوفة [1] .

وقد ذكر اليعقوبي اخبار قتل بني امية بشيءمن المغايرة [2] حيث روى ان عبد الله بن علي بعد انصرافه من مصر وصار بنهر ابي فطرس بين فلسطين والاردن دعا بني امية لاخذ الجوائز والعطايا فجاء إليه ثمانون رجلا منهم ، وبينما هم جالسون عنده قام الشاعر العبدي فأنشد قصيدته التي يقول فيها :

اما الدعاة الى الجنان فهاشم ... وبنو امية من كلاب النار

---

(١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٣١-١٣٥ .

(٢) ج٣ص ٩١-٩٦ مطبعة الغرى سنة ١٣٥٨ .

وكان النعمان بن يزيد بن عبد الملك جالساً إلى جنب عبد الله فقال له كذبت يا ابن اللخناء فقال له عبد الله بل صدقت يا ابا محمد فامض لقولك ثم اقبل عليهم فذكر لهم قتل الحسين واهل بيته ثم صفق بيده فخرج عليهم الرجال وضربوهم بالعمد حتى اتوا عليهم . وناداه رجل من اقصى القوم قائلا :

عبد شمس ابوك وهو ابونا	لا تناديك من مكان بعيد
فالقرابات بيننا واشجات	محكمات القوى بعقد شديد

فقال هيهات . قطع ذلك قتل الحسين . ثم امر بهم فسحبوا فطرحت عليهم البسط وجلس عليها ودعا الطعام فأكل وقال يوم كيوم الحسين ولا سواه .

وروي في السياق رواية بصيغة (يقال) جاء فيها ان ابا العباس كتب إليه خذ بثأرك من بني امية ففعل بهم ما فعل ، وقد وجه عبد الله فنبش قبور بني امية فاخرجهم واحرقهم بالنار وما ترك منهم احداً ، ولما صار الى الرصافة اخرج هشاماً الذي وجده في مغارة على سريره قد طلي بماء يبقيه فضرب وجهه بالعمود ونصب جثته ثم ضربها مئة وعشرين سوطاً وهي تتناثر ثم جمعه فحرقه بالنار . وقال إن ابي كان يصلي يوماً وعليه إزار ورداء فسقط الرداء عنه فرأيت في ظهره آثار السياط فلما فرغ من صلاته سألته عن ذلك فقال إن الاحول – يعني هشاماً – اخذني ظلماً فضربني ستين سوطاً فعاهدت الله إن ظفرت به ان اضربه بكل سوط سوطين . والرواية الاخيرة خاصة تتحمل الشك الكبير .

ومن الدلائل على ذلك ما رواه ابن قتيبة واوردناه في سيرة هشام [1] من دخول محمد بن علي على هشام وكان شيخاً كبيراً قد غشي بصره حيث يعني هذا على ما هو المتبادر ان علياً ابا محمد وابا عبد الله لم يكن حياً في خلافة هشام .

وقد روى اليعقوبي في صدد قتل سليمان بن هشام أنه كان قد استأمن الى ابي العباس فقدم

---

(١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١١٩ .

عليه مع ابنين له فأكرمه وبره واجلسه وبنيه على النمارق والكراسي وفيما كانوا عنده يسمرون استأذن عليه مولى له اسمه سديف جاء من سفر بعيد فسلم وقبل يديه ورجليه ثم انشد :

اصبح الملك ثابت الاساس	بالبهاليل من بني العباس
يا امير المطهرين من الرجس	ويا رأس منتهى كل راس
انت مهدي هاشم وفتاها	كم اناس رجوك بعد اياس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً	واقطعن كل رقلة وغراس
افنها ايها الخليفة واحسم	عنك بالسيف شأفة الارجاس
انزلوها بحيث انزلها الله	بدار الهوان والاتعاس
ولقد ساءني وساء قبيلي	قربهم من نمارق وكراسي
خوفهم اظهر التودد منهم	وبهم منكم كحز المواسي
واذكروا مصرع الحسين وزيد	وقتيلا بجانب المهراس
والقتيل الذي بحران أمسى[1]	رهن رمس في غربة وتناسي
نعم كلب الهراش مولاك لولا	حله من حبائل الافلاس

فقال له سليمان يا امير المؤمنين ان مولاك يحرضك على قتلي وقتل ابني وقد تبينت انك والله تريد ان تغتالنا . فقال لو اردت ذلك ما كان يمنعني منكم على غير غيلة . فاما اذا سبق ذلك الى قلبك فلا خير فيك ، ثم امر حاجبه ابا الجهم ان يخرجهم فيضرب اعناقهم ويأتيه برؤوسهم ففعل .

وقد روى ابن الاثير اخبار قتل بني امية ببعض المغايرة ايضاً[2] من ذلك ان سديفاً

---

(١) المقصود من قتيل حران هو الامام الذي اعتقله مروان وسجنه في حران ثم قتله على ما اوردناه قبل .

٢ ج ٥ ص ١٩١ .

انما انشد ابياتاً اخرى في مجلس السفاح الذي كان عنده سليمان وهي هذه :

لا يغرنك ما ترى من رجال ... إن تحت الضلوع داء دويا
فدع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها اموياً

فأخذ السفاح سليمان عند ذلك وامر بقتله . وسياق ابن الاثير يفيد ان لقب السفاح هو الخليفة ابي العباس في حين ان سياق ابن قتيبة يفيد ان لقب السفاح هو لقب عبد الله بن علي عم الخليفة .

اما الابيات السينية فان ابن الاثير يعزوها الى شبل مولى بني هاشم ويروى انه انشدها امام عبد الله بن علي وعنده من بني امية نحو تسعين رجلا على الطعام . فأمر بهم بعد ان سمع الابيات فضربوا بالعمد حتى قتلوا وبسط عليهم الانطاع فأكل وهو يسمع انين بعضهم حتى ماتوا جميعاً . وفي رواية ابن الاثير بيتان زيادة على الابيات واحد بعد البيت الخامس وهو :

انزلوها بحيث انزلها الله ... بدار الهوان والاتعاس

وواحد بعد البيت السادس وهو :

والقتيل الذي بحران اضحى ... ثاوياً بين غربة وتناسي

ويروي ابن الاثير ان عبد الله بن علي أمر بعد ذلك بنبش قبور بني امية بدمشق فنبش قبر معاوية فلم يجدوا فيه الا خيطاً مثل الهباء ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد ونبش قبر عبد الملك فوجدوا جمجمته وكان لا يوجد في القبر الا العضو بعد العضو الا هشام فانه وجد صحيحاً لم يبل منه الا ارنبة انفه فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه في الريح . وتتبع بني امية اولاد الخلفاء وغيرهم فأخذهم ولم يفلت منهم الا رضيع او من هرب الى الاندلس فقتلهم بنهر ابي فطرس واستصفى كل شيء لهم من مال وغير ذلك ولما فرغ قال :

بني امية قد افنيت جمعكم ... فكيف لي منكم بالاول الماضي

يطيب النفس ان النار تجمعكم	عوضتم مـن لظاهـا شر معتاض
منيـــتم لا اقــــال الله عثرتكم	بليث غاب الى الاعداء نهــاض
ان كان غيظي لفوت منكم لقـد	منيت منكم بما ربي بـــه راض

ويروى كذلك ان سليمان بن علي العباسي قتل بالبصرة ايضاً جماعة من بني امية عليهم الثياب الموشية المرتفعة وامر بهم فجروا بارجلهم فالقوا على الطريق فأكلتهم الكلاب .

واخبار هذه المجزرة قد ذكرت في مصادر قديمة اخرى مع شيء من التطابق وشيء من التغاير الذي لا يؤثر في جوهر المسألة ومنها كتاب الاغاني ومنهـــا الفخري لابن الطقطقي والعقد الفريد لابن عبد ربه [1] . بحيث يسوغ القول انها محتملة الصحة .

وظاهر انها مجزرة سياسية أملتها رغبة التشفي من جهة وفكرة حماية الدولة التي قامت على انقاضهم من جهة اخرى . ولا تشبه على كل حال ما كان من قتل مسلم بن عقيل والحسين بن علي وزيد بن علي ويحيى بن زيد وابراهيم بن علي العباس في زمن بني امية كما اراد صالح بن علي العباس ان يحتج به لنساء مروان وبناته على ما رويناه في سيرة مروان ان صحت الرواية او كما يمكن ان يحتج به على كل حال . لأن هؤلاء تآمروا وخرجوا ودعوا الى العصيان على سلطان مستتب وإمامة شرعية منعقدة .

ولما رأى بقية بني امية ما حل بذويهم اشتد خوفهم وتشتت شملهم . وكان ممن اختفى عمرو بن معاوية بن عمر بن ابي سفيان على ما رواه ابن الاثير ايضاً الذي روى ان هذا لمـــا ضاقت عليه الارض جاء الى سليمان بن علي عم الخليفة وهو لا يعرفه وقال له لفظتني البلاد اليك ودلني فضلك عليك فاما قتلتني فاسترحت او رددتني سالماً فسأله عن نفسه فعرفه بنفسه فقال مرحباً . ما حاجتك فقال له ان الحرم اللواتي انت اولى الناس بهن واقربهم اليهن قد خفن لخوفنا ومن خاف خيف عليه . فبكى كثيراً ثم قـــال يحقن الله دمك ويوفر مالك

---

(١) الفخري ص ١٠٨-١٠٩ والعقد الفريد ج٣ ص ٢٠٥-٢٠٧ .

ويحفظ حرمك ثم كتب الى السفاح يلتمس منه ان يرفع السيف عن بني امية ويعلن الامان لهم وقال لهم انا قتلناهم على عقوقهم لا على ارحامهم ويجمعنا واياهم عبد مناف ففعل فكان هذا اول امان لبني امية [1] .

ومما رواه ابن الاثير عن مسير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الى بلاد المغرب عزواً إليه : (إنا لما أعطينا الامان ثم نكث بنا بنهر ابي فطرس وابيحت دماؤنا اتانا الخبر وكنت منتبذاً من الناس فرجعت الى بيتي يائساً وخرجت خائفاً مع اهلي الى قرية على الفرات واذا بالرايات السوداء تنحط عليها واخي يأتي فزعاً ويقول النجاء النجـــاء فأخذت دنانير معي وخرجت انا واخي واعلمت اخواتي بمتجهي وامرتهن ان يلحقنني مولاي بـدر . واحاطت الخيل بالقرية فلم يجدوا لي اثراً وطلبت من رجل اعرفه ان يشتري لي دواب ومـا يصلحني فدل علي عبد له فأقبل قائد الخيل لطلبي فخرجنا هراباً والخيل تبصرنا فنزلنا الفرات وسبحنا وأما انا فنجوت والخيل ينادوننا بالامان واما أخي فعجز عن السباحة فرجع اليهم بالامان فأخذوه وقتلوه وانا انظر اليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة . فمضيت لوجهي وتواريت حتى انقطع عني الطلب ثم خرجت حتى بلغت افريقية فأتيت نفزاوه وهم اخـــوالي - وام عبد الرحمن من سبي البربر - فاحسنوا قبولي)[2] .

ولقد رثى الأمويين اكثر من شاعر من الشعراء الذين عاشوا في زمنهم وفي زمن الدولة العباسية رثاء بليغا يدل على ما احدثه قتلهم وذهاب ملكهم من وقع أليم .

من ذلك مرثية للشاعر ابي العباس الاعمى جاء فيها :

ليت شعري أفاح رائحة المسك ومـــا ان اخال بالخيف انسي

---

(١)ج ٥ ص ١٦١-١٦٢ .

(٢)ابن الاثير ج٥ص١٨٣-١٨٥ الرواية تتمة فيها ما كان من عبد الرحمن من نشاط حتى غلب على الاندلس سنرويها في سياق سيرته ان شاء الله .

حين غابت بنو امية عنه — والبهاليل من بني عبد شمس
خطباء على المنابر فرسان — عليها وقالة غير خرس
لا يعابون صامتين وان — قالوا اصابوا ولم يقولوا بليس
بحلوم اذ الحلوم تقضت — ووجوه مثل الدنانير ملس [1]

ومن ذلك مرثية للشاعر العبلي جاء فيها:

تقول امامة لما رأت — نشوزي عن المضجع الانفس
وقلة نومي على مضجعي — لدى هجعة الأعين النعس
ابي ما عراك فقلت الهموم — منعن اباك فلا تبلس
عرون اباك فحبسنه — من الذل في شر ما محبس
لفقد العشيرة اذ نالها — سهام من الحرب لم تبأس
رمتها المنون بلا انصل — ولا طائشات ولا نكس
بأسهمها الخالسات النفوس — متى ما اقتضت مهجة تخنس
فصرعاهم في نواحي البلاد — تلقى بأرض ولم ترمس
كريم اصيب واثوابه — من العار والذام لم تدنس
وآخر قد طار خوف الردى — وكان الهمام فلم يخنس
فكم غادروا من بواكي العيون — مرضى ومن صبية بؤس
اذا ما ذكرتهم لم تنم — لحر الهموم ولم تجلس
يرجعن مثل بكاء الحمام — في مأتم قلق المجلس
فذاك الذي غالني فاعلمي — ولا تسأليني فتستنحس
واشياء قد ضفنني بالبلاد — ولست لهن بمستخلس
افاض المدامع قتلى كدا — وقتلى بكثوة لم ترمس

---

(١) اخبار الشاعر المذكور في المجلد الخامس عشر من الاغاني .

وقتلى بوج وباللابتين من يثرب خير ما انفس
وبالزابيين نفوس ثوت وقتلى بنهر ابي فرطس
اولئك قوم تداعت بهم نوائب من زمن متعس
أذلت قيادي لمن رامني والزقت الرغم بالمعطس
فما أنس لا أنس قتلاهم ولا عاش بعدهم من نسي(١)

والتماثل بين قافية المرثيتين وبين قافية قصيدة سديف التي احتوت تحريضاً على بني امية واوردناها قبل يورد على البال ان الشاعرين نظما مرثيتيهما رداً على هذه القصيدة او مناقضة لها على الطريقة التي كان يجري عليها شعراء ذلك العصر .

هذا وواضح مما تقدم ان الحركة العباسية اتسمت هي الاخرى بالسمات التي اتسمت بها الحركات السابقة أي الرغبة الشخصية والاسروية في الحلول محل الامويين في السلطان العربي الاسلامي استناداً إلى الصلة برسول الله ﷺ دون ان يكون لها مبرر شرعي وسياسي وقومي لأن حكم الخلفاء الامويين الذين تولوا إبانها كان مستنداً الى بيعة عامة لازمة في اعناق المسلمين وكان الذين اداروا هذه الحركة من جملة المبايعين والمعترفين . والخروج عليهم يتسم بسمة الخروج على الامام الشرعي القائم ويكون موضوع الوعيد المنطوي في الاحاديث النبوية لأن فيه فساداً كبيراً وتفريقاً بين المسلمين .

ولقد بدأت الحركة في عهد عمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح التقي الورع الذي اوقف الخوارج نشاطهم فيه لتقواه وعدله وصلاحه . وكان يزيد الثاني بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك اللذين خلفاه وبخاصة هشام من افضل خلفاء بني امية حزماً وعدلاً وعقلا وورعاً وجهاداً .

وكانت الدولة الاموية إبان الحركة موطدة السلطان شامخة البنيان وكان العرب في ظلها

---

(١)اخبار الشاعر المذكور في المجلد العاشر من الاغاني .

اقوياء اعزاء الى اقصى ما يمكن ان تكون القوة والعزة . وقد تضاعفت رقعة الدولة العربية في عهدها واتسع نطاق الدعوة الاسلامية والصبغة العربية. وكانت تتمكن من رد كل اعتداء خارجي وقمع كل فتنة داخلية ولقد كان هذا الوصف ينطبق كذلك على عهد الخلفاء الذين سبقوا عمر بن عبد العزيز ايضاً حيث كانوا متصفين بصفات ممتازة من الحزم والحلم والعقل والقوة الشخصية وحب العلم والعمران والتنظيم والرغبة في توسيع آفاق الدولة العربيـــة والدعوة الاسلامية . وبكلمة ثانية ان الدولة الاموية كانت تقوم بواجباتها نحو الاهداف التي كانت من حوافز او مميزات الموجة العربية الجديدة قياماً محموداً .

وإذا كان العباسيون والفاطميون قد بذلوا جهودهم لطمس كثير من معالم اعمالهـــم وتشويه سيرتهم وتسويء ذكرهم فقد بقي منها ما لم يقدروا او ما لم يجرأوا على طمسه وفيه من الدلالة البالغة على الروعة والعظمة ما فيه مما كان متمثلا في المساجد العظيمة والمشاريع العمرانية العديدة وفي انتشار السلطان العربي والدعوة الاسلامية في اقطار شاسعة واسعة لم تكن داخلة في نطاقها قبل قيام دولتهم ثم في ما وصل الينا من مدونات قديمة تذكر كثيراً من اعمالهم وجهادهم واخلاقهم واقوالهم العظيمة التي تدل على ما كانوا عليه من صفات وما اسدوه للاسلام والعروبة من خدمات .

وكما كان ما وصفه الذين قاموا بالحركات الاربع السابقة من ظلم الامويين وانحرافهم وبغيهم ذريعة دعائية فقد كان هذا شأن ما وصفه العباسيون وتذرعوا به في حركتهم .

ولقد كان من المحتمل ان لم نقل من المحقق ان هذه الحركة الاخيرة التي نجحت لو لم تنجح لطال عمر الدولة الاموية أمداً آخر ولاستمرت حركة الفتوح في المشارق والمغارب ورافقها استمرار حركة نشر الاسلام واللغة العربية والصبغة العربية وبالتالي لتغير مجرى التاريخ الاسلامي والعربي .

ولا يرد ان الفتن التي قامت بين الامراء الامويين كانت من اسباب القضاء عليها لأن

هذه الفتن انحسرت وكان مروان بن محمد آخر خلفائها قوي الهمة والشخصية والحزم والمطامح والنشاط والجهاد وكانت الدولة في عهده قوية وظل سلطانها موطداً في اكثر اقطارها .

ولقد اخذ الامويون يسكنون العرب في الاقطار المفتوحة البعيدة في المشرق والمغرب فيكونون من وسائل نشر الاسلام واللغة العربية .

وكان مـــن الممكن ان يستمر ذلك في ظلهم ويقوى حتى يتسع نطـــاق الاسلام والاستعراب . ولقد صار نصف لغة اهل البلاد التي سادها الاسلام من غير الجنس العربي عربياً فكان من الممكن ان تصبح اللغة العربية لغتهم لو استمر ذلك في ظل الدولة الاموية .

ولكن ذلك كلا قد توقف او كاد لأن السلطان العربي اخذ ينحسر في ظل الدولـــة العباسية ثم اخذت العناصر الاعجمية تتغلب عليها في مركزها واقطارها غير العربية فيزداد ذلك الانحسار ويفقد امل شمول الاستعراب بالتالي .

والمدقق في تاريخ الدول الهاشمية من عباسية وعلوية التي قامت بعد الدولة الاموية الى اليوم لا يجد بين ملوكها من هو افضل من افاضل خلفاء بني امية ديناً وعلما وعقلا وحزما وجهاداً وطموحا [1] . ومنهم من كان منحرفا في كل ذلك . وهذا فضلا عمـــا كان بين العلويين والعباسيين من تنافس وتناحر وعما كان في الوقت نفسه من مثل ذلك بين العباسيين انفسهم وبين العلويين انفسهم في مختلف ادوار التاريخ وفي مختلف بقاع البلاد الاسلامية مشرقا ومغرباً . ثم فضلا عما صار اليه السلطان الاسلامي العربي من تضاؤل ووهن . وما تعرض له من تغلب العناصر الاعجمية وتلاعبها في الدولة والخلفاء معاً بحيث يصح ان يقال ان الهاشميين عجزوا عن تحقيق ما وعدوه أو لم يهتموا لذلك بعد أن صار السلطان اليهم وكان ذلك هو

---

(١) في اخبار الشاعر العبامي في المجلد العاشر من الاغاني يروى قـــول لمحمد بن عبد الله الحسن الذي خرج على العباسيين في عهد ابي جعفر المنصور جاء فيه : (لئن نقمنا عـــلى بني امية ما نقمنا فما بنو العباس الا أقل خوفاً لله منهم وان الحجة على بني العباس لاوجب منا عليهم . ولقد كانت للقوم اخلاق ومكارم وفواضل ليست لابي جعفر) . وهذه شهادة من اهله .

الهدف الرئيسي لحركاتهم ونشاطهم وبحيث يثبت انتفاء المبرر الديني والسياسي والقومي في رغبتهم في الحلول محل الامويين وتحقيقها وكون الحافز الاقوى او الاوحدهو تلك الرغبة.

وفضلا عن كل ما تقدم فقد اشتدت صبغة التشيع واتسع نطاقها ورسوخها بدعايات الهاشميين واندماج الاعاجم فيها وصار لها آثار بعيدة المدى في غير مجال السياسة بالاضافة الى هذا المجال ما تزال قائمة الى الآن . وكانت في كثير من الاوقات عاملا تهديميــاً للاسلام ولسلطان العرب الذين حملوا رايته ومضعفاً لتماسكهم ومؤدياً الى اندحارهم .

وكل من يقرأ كتب التفسير يجد كثيراً من الاقوال والروايات والتأويلات التي يبرز عليها طابع التشيع القوي في صدد كثير من الآيات القرآنية ولا تتسق مع اهداف القرآن وتوجيهاته ومضامينه وظروف نزوله معزوة الى النبي ﷺ واصحابه مما يرجح ان يكون موضوعاً او محرفاً ليتسق مع تلك الصبغة واهداف العاملين فيها ومما هو بالتالي من نتائجها . ومنه ما وضع او حرف ونشر في عهد الدولة الاموية ليكون دعامة ضدها وان كان اكثره وضع ودون بعدها .

ويقال مثل هذا في الاحاديث التي يبرز فيها طابع التشيع القوي والتي تسوغ الشك الكبير في صدورها من النبي ﷺ واصحابه لان فيها ما لا يتسق مع القرآن والاحاديث الصحيحة الكثيرة الاخرى معزوة الى اسماء معينة تصل الى اصحاب رسول حيناً والى تابعيه حيناً ومرفوعة حينا مما يرجح ان يكون كثير منها موضوعا او محرفاً ليتسق مع تلك الصبغة واهداف العاملين فيها وبالتالي مما هو من نتائجها . ومنه ما وضع او حرّف ونشر في عهد الدولة الاموية ليكون دعامة الحركات الهاشمية ضدها وان كان اكثره وضع ودون بعدها .

وكل من يقرأ كذلك كتب التاريخ والسير والتراجم والملل والنحل يرى اثر هذه الصبغة بارزا في كثير من الروايات لتدعيمها . وفيها العجيب من المتناقضات . ثم يرى ما كان من كثرة الفرق الشيعية التي نجمت في اواخر عهد الدولة الاموية ثم اتسعت بعدها وكثرت كثرة عجيبة مما هو من نتائج هذه الحركة . ولقد وصل كثير من هذه الفرق الى غلو بالغ الخطورة في عقائدهم مثل القول بالوهية علي ونبوته . وغلط جبريل في نزوله على محمد دونه . وحلول الله سبحانه في الائمة . ونبوتهم . وتلقي الائمة الوحي من الله مباشرة . وصيرورتهم

بذلك افضل من الانبياء . والوهيتهم . هذا بالاضافة الى ما يعتقده معظم الشيعة من انحصار الامامة في الأئمة العلويين الفاطميين وعدم شرعية اي سلطان غير سلطانهم . وانحباس الامام في مخبأ حياً مرزوقاً الى ان يحين وقت خروجه . وايجابهم على انفسهم او ايجاب الائمة عليهم اداء صدقاتهم اليهم وهذه نقطة هامة مثيرة ومغرية . وايجابهم على انفسهم او ايجاب الأئمة عليهم بعدم تلقي الدين والاحاديث وتفسير القرآن عن غيرهم . ثم مـا يعتقده بعض فرقهم ومنهم المعتدلة في عقائدها الاخرى من كفر ابي بكر وعمر وعثمان لقبولهم بالخلافة دون علي وبكفر سائر اصحاب رسول الله لمبايعتهم للثلاثة وتعاونهم معهم لانهم بذلك خالفوا امر النبي الذي وصى بالخلافة لعلي وغصبوا حقه في الخلافة وبكفر كل من تولى السلطان الاسلامي دون أئمتهم لأنهم غاصبون لحقهم ومخالفون بذلك أمر الله ورسوله وبكون امامهم حيــاً مرزوقاً مختبئاً في غار الى ان يحين وقت خروجه الخ .

ولا يزال فرق شيعية عديدة تقول بهذه الاقوال او بعضها في مختلف انحاء العالم الاسلامي ويكون بذلك المسلمون شيعاً واحزاباً يكره بعضها بعضاً ويلعن بعضها بعضاً رغم القرون العديدة التي مرت وانتفاء أي معنى وسبب لبقائها لانها صارت تمثل عقائـــد عميقة الغور لا ترعوي للحقائق والحجة والمنطق . ولان زعماءها يحرصون أشد الحرص على دوامها بسبب ما تضمنه لهم من نفوذ ومكاسب ومنافع .

وقد يقال ان هدف الحكم والسلطان الذي استهدفته الحركات الهاشمية في زمن الدولة الاموية وبعدها على غير ضرورة شرعية ودينية وقومية واسلامية وسياسية لم يكن قاصراً عليها بل كان طابــع جميــع المساعي والحركات التي قام بها الطامحون الى الحكم والسلطان من العرب والمسلمين بعد عهد الخلفـــاء الراشدين وفي مقدمتهم الامويون باستثناء حركات الخوارج مما كان له اضرار عظيمة في العروبة والاسلام في مختلف ادوار التاريخ . وهـــو ينطبق بطبيعة الحال على مسعى معاوية بن ابي سفيان بحيث يقال بحق انه لم يكن ضرورة قومية ولا دينية له . وإن معاوية لو لم يقف موقف المناوىء لحكم علي لكانت خلافة هذا قد توطدت ولكان من المحتمل ان يقوم في ظلها دولة عظيمة الشأن والسلطان مستمرة في اعقابه لا تقل عن الدولة الاموية ان لم تكن اعظم منها شأناً وسلطاناً واطول عمراً لأن من المحتمل

أن تخلو من كثير من المعكرات والمزعجات التي نجمت في عهد الدولة الاموية نتيجة لما كان من تنافس وتنـــازع بين الامويين والهاشميين والتي اودت بها في النهاية فضلا عن احتمال ان تكون اقل انحرافاً وتساهلا مما كان من الامويين عــن كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين لأن الامويين قد تساهلوا وانحرفوا قليلا او كثيراً بسبيل توطيد سلطانهم الذي اكتنفته الحركات التمردية والمناوأة الكثيرة .

وهذاصحيح بدون ريب . غيران المؤرخ إذ يصدر حكمه او تعقيبه على حادث اوموقف تاريخي انما يصدره في نطاق الاحداث والنتائج . وما عدا هذا فتظل الاحكام والتعقيبات في مداها النظري او الادبي .

ونحن هنا في صدد ما كان من حركات هاشمية ضد الدولة الاموية ونتائجها . ومهما اتصف مسعى معاوية بنفس الصفة التي اتصفت بها هذه الحركات فان امامة علي بن ابي طالب لم تكن قد توطدت في جميع الامصار ولم يكن الاجماع او ما كان يقوم مقامه من بيعة اولي الحل والعقد من اصحاب رسول الله في المدينة وسكوت المسلمين سكوت رضا قد انعقد عليها كما كان الامر في امامة ابي بكر وعمر وعثمان . ولم تكن بيعته التي تمت تحت ارهـاب وضغط الناقمين على عثمان وقاتليه قد لزمت اعناق جمهور المسلمين وكان عدد غـير يسير من اصحـاب رسول الله قد وقفوا منها موقف المناوىء او المحايد واصطدمت بغير معاوية مــن المناوئين والناقمين . وقد انتهى مع ذلك النزاع بين علي ومعاوية الى وفاق وتفاهم بلغ نهايته المحمودة حينما تنازل الحسن واجتمع المسلمون على امام واحد على ما شرحناه في الجزء السابق .

ثم سارت الدولة الاموية خطواتها الجبارة في سبيل تقوية البنيان الاسلامي العربي واصابت من ذلك اعظم النجاح ، وترتب على هدمها على غير ضرورة قومية ودينية آثار سيئة ومشؤومة على هذا البنيان .

٧ - ثورة المدينة على يزيد بن معاوية

وخلعها إياه

•

تختلف الروايات في اسباب وظروف هذا الحادث المعكر الذي كان من الحوادث المفجعة في عهد الدولة الاموية .

فابن قتيبة يروي فيما يرويه [١] انه كان لمعاوية بن ابي سفيان في المدينة اموال ونخيل تدر عليه مئة وستين الف درهم فأراد الوكيل ان يجنيها في خلافة يزيد فمنعه اهل المدينة وقالوا لواليها عثمان بن محمد الثقفي ان هذه الاموال كلها لنا وان معاوية آثر علينا في عطائنا فلم يعطنا قط درهماً حتى مضنا الزمان ونالتنا المجاعة فاشتراها منا بجزء من مئة من ثمنها فأغلظ الوالي لهم واغلظوا له بالمقابلة . وقال لهم لاكتبن الى امير المؤمنين بسوء رأيكم وما انتم عليه من كمون الاضغان القديمة والاحقاد التي لم تزل في صدوركم فافترقوا على موجدة ، واجمعوا على منع الوكيل . وكتب الوالي الى يزيد فغضب واقسم ليطأنهم وطأة يأتي بها على انفسهم ثم كتب الى اهل المدينة كتاباً قال فيه فيما قال بعد البسملة :

(اما بعد فقد نفستكم حتى اخلفتكم ورفعتكم حتى اخرتكم ورفعتكم على رأسي ثم

---

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٨ وبعدها .

وضعتكم . وايم الله لئن اشرت ان اضعكم تحت قدمي لأطأنكم وطأة اقل منها عددكم واتركم احاديث تتناسخ كأحاديث عاد وثمود . وايم الله ليأتينكم مني اولى من عقوبتي فلا افلح من ندم) .

وكان عبد الله بن جعفر بن ابي طالب حاضراً مجلس يزيد حينما جاءه كتاب والي المدينة واقسم قسمه فأخذ يهدىء من روعه ويذكر له انه اذا قتلهم فانما هو يقتل نفسه حتى لان . ثم قال له ان ابن الزبير قد نصب الحرب في مكة وارسل الجيوش اليه وامر قائد اول جيش ان يتخذ المدينة طريقاً وان لا يقاتل فان اقروا بالطاعة ونزعوا من غيهم وضلالهم فلهم علي عهد الله وميثاقه ان لهم عطاءين في كل عام ما لا افعله بأحد من الناس طول حياتي عطاء في الشتاء وعطاء في الصيف ولهم علي عهد ان اجعل الحنطة عندهم كسعر الحنطة عندنا والعطاء الذي يذكرون انه احتبس عنهم في زمان معاوية فعلي ان اخرجه لهم وافراً كاملا . فان انابوا وقبلوا ذلك جازوا الى ابن الزبير وان ابوا قاتلهم ثم ان ظفر بهم انهبها ثلاثاً هذاعهدي الى صاحب جيشي لمكانك ولطلبتك فيهم ولما زعمت انهم قومي وعشيرتي .

فرأى عبد الله فيما قاله يزيد فرجاً فكتب اليهم يعلمهم فيه قول يزيد ويحضهم على الطاعة والتسليم والرضا والقبول لما بذل لهم وينهاهم عن التعرض لجيوشه ، فلم يريدوا ذلك ولم يقبلوه وقالوا والله لا يدخلها عنوة ابداً .

وقرأعليهم الوالي كتاب يزيد فازدادوا حنقاً واجمعوا على المقاومة واخذوا يستعدون لها وعهدوا بالزعامة لعبد الله بن حنظلة ، فلم يكن من الوالي إلا ان هرب ، واراد من في المدينة من بني امية الخروج وكان كبيرهم مروان بن الحكم ولكن اهل المدينة لم يدعوهم يخرجون حتى اخذوهم الى المسجد النبوي وحلفوهم عند منبر رسول الله لئن لقوا جيش يزيد ليذودنهم عنهم ان استطاعوا فان لم يستطيعوا مضوا الى الشام ولم يرجعوا معهموشرطوا عليهم ان يقيموا بذي خشب عشرة ايام قبل ان يمضوا الى الشام فحلفوا وحينئذ تركوهم يخرجون وتبعهمالصبيان وسفهاءالناس يرمونهم بالحجارة حتى انتهوا الى ذي خشب ثم ارتحلوا بعد مضي الايام العشرة على اقبح حال واجتثاث وخوف من اهل المدينة ان يأتوا اليهم فيأخذوهم .

ولقد هيأ يزيد جيشاً كثيفاً باداة كاملة وكان عدده على ما رواه ابن قتيبة ثلاثين الــفاً ومعه عشرة آلاف بعير تحمل الزاد . وجعل قيادته لمسلم بن عقبة المري بناء على مديح فيه سمعه من ابيه وقال له انهض باسم الله الى ابن الزبير واتخذ المدينة طريقاً فان صدوك فاقتل من ظفرت به منهم وانهبها ثلاثاً واجهز على جريحهم واقبل على مدبرهم واياك ان تبقي عليهم. وان لم يتعرضوا لك فامض الى ابن الزبير – وقد كان جهر بخلع يزيد في هذه الاثناء في مكة على ما سوف نشرحه في نبذة خاصة – وان حدث لك حادث فأمير الجيش الحصين بن نمير .

وسار الجيش فلما بلغ وادي القرى لقي بني امية فأخبرهم مروان ان عدد المجتمعين لهم في المدينة كثير ولكن عامتهم ليس لهم نيات ولا بصائر ولا بقــاء لهم مع السيف وليس لهم سلاح ولا كراع ، وقد خندقوا عــلى انفسهم وحصنوا ، وخيرهم مسلم في الاستمرار الى الشام او العودة معه ففضل اكثرهم برأ بيمينهم ان يستمروا وعاد معه مروان وابنه عبد الملك قائلا اريد ان ادرك ثأري من عدوي الذي اخرجني من بيتي وفرق بيني وبين اهلي . وكان قد طلب من ابن عمر ان يضم اهله الى اهله ويخرج بهم الى مكة فاعتذر وطلب ذلك من علي بن الحسين فقبل .

وعلم اهل المدينة بسير الجيش فجمعهم ابن حنظلة وخطبهم قائلا : ايها الناس انما خرجتم غضباً لدينكم فابلوا الى الله بلاء حسناً ليوجب لكم به الجنة ومغفرته ويحل بكم رضوانه واستعدوا بأحسن عدتكم ثم طلب منهم ان يبايعوه على الموت والا فلا حاجة في بيعتهم فبايعوه على الموت .

وجاء الجيش فأحدق بالمدينة وحاول عبثاً ان يجد مجالا للاقتحام بسبب الخندق والحراسة الشديدة التي وراءه واخذ اهل المدينة يرشقونهم بالنبل والحجارة .

وقد استطاع مروان ان يغري احد بني حارثة على فتح طريق للجيش بوعود كبيرة له ولقومه ففعل واقتحمت الخيل المدينة وتبعهم بقية الجيش واشتبكوا مع اهل المدينة في قتال شديد . ونادى منادي مسلم من جاء برأس فله كذا فأخذ بعض الناس يستجيبون .

وقتل القائد الزعيم ابن حنظلة فصاروا كالنعم بلا راع واخذ اهل الشام يقتلونهم من كل

وجه . ونادى مسلم بالامان لبني حارثة وبالامان لمن يقصد محلتهم فهرع كثير من الرجال والنساء اليها ونهب الجيش المدينة في ثلاثة ايام فما تركوا في منازلها شيئاً. وبلغ عدد الذين قتلوا من الانصار والمهاجرين (١٧٠٠) في رواية و (٧٠٠) في رواية وعدد اصحاب رسول الله ثمانين ومن سائر الناس (١٠٠٠٠) في رواية و (٤٠٠٠) في رواية سوى النساء والصبيان .

وقد احتوى سياق ابن قتيبة حوادث جزئية كثيرة بما كان من جيش مسلم من قسوة في النساء والاولاد ومن قتل بعض الاسرى ومن اذية ابي سعيد الخدري وعبد الله بن جابر من اصحاب رسول الله ومن تسمية المدينة بالخبيثة في مجال المحاورة بين بعض الجيش وبين بعض اهل المدينة مقابل تسميتهم اياها بالطيبة وهي تسمية نبوية لها .

ثم قال في جملة واحدة في سياق آخر (وقتل الناس وفضحت النساء ونهبت الاموال ثلاثة ايام) ثم امر مسلم بالكف . ثم قصد دار الامارة ودعا الناس الى تجديد البيعة ليزيد والطاعة لمن استخلفه عليهم على ان يكون لأمير المؤمنين اموالهم ودماؤهم وانفسهم يقضي فيها ما شاء .

ومما ورد في سياق ابن قتيبة ان مسلماً سأل عن علي بن الحسين فأتاه فرحب به وسهل ، وقال له ان امير المؤمنين اوصاني بك . كما ورد فيه انه لم ينصب احد من بني هاشم للحرب حيث لزموا بيوتهم فسلموا الا ثلاثة منهم تعرضوا للقتال فأصيبوا .

وكتب مسلم الى يزيد كتاباً يذكر له ما جرى وانه اعذر اليهم واخبرهم بعهد امير المؤمنين وما بذل لهم فأبوا وانهم لم يقوموا لهم الا ساعة من ساعات النهار فما صلى الظهر حتى هو في المسجد بعد القتل الذريع والانتهاب العظيم وانه اوقع بهم السيوف وقتل من اشرف لهم منهم واتبع مدبرهم واجهز على جريحهم وانتهب المدينة ثلاثاً ، ونوه ببلاء مروان وعظيم نكايته وما كان من جهده في اغراء بني حارثة .

ولما جاء يزيد الكتاب استدعى عبد الله بن جعفر فقرأه عليه فاسترجع وبكى بكاء شديداً وكان معاوية بن يزيد حاضراً فبكى هو الآخر حتى كادت نفسه ان تخرج . وقال

يزيد لعبد الله ألم اجبك الى مـــا طلبت واسعفك فيما سألت فبذلت لهم العطاء واجزلت لهم الاحسان واعطيتهم الامان والعهود والمواثيق على ذلك فأظهر الاسف اذا ختاروا البلاء على العافية والفاقة على النعمة والحرمان على العطاء .

ويتفق الطبري مع ابن قتيبة في بعض الامور ونختلف معه في بعضها . ومما ذكره [1] ان ابن الزبير كان في مكة يبيت في نفسه الخروج على يزيد وان والي مكة عمرو بن سعيد كان يداريه فنمى ذلك الى يزيد فعزل الوالي وعين مكانه الوليد بن عتبة فأخذ يشدد الرقابة على ابن الزبير ويحصي عليه حركاته . فكتب هذا الى يزيد يقول له انك بعثت الينا بوال اخرق لا يستمع لعظة حكيم ولا يتجه لرشد فلو بعثت الينا برجل سهل لين رجوت ان تسهل الامور ويجتمع ما تفرق من الشمل فانخدع يزيد وعزل الوليد وعين مكانه محمد بن عثمان الثقفي وكان فتى حدثاً غير محنك وجعل اكثر مقامه في المدينه . وبعث الى يزيد وفداً من اشرافهـــا فأكرمهم واحسن اليهم واعظم بجوائزهم . فلما عادوا الى المدينة اظهروا شتم يزيد وقالوا انا قدمنا من عند رجل ليس له دين . يشرب الخمر ويضرب بالطنابير وتعزف عنده القـــيان ويلعب بالكلاب ويساير الخراب والفتيان وانا نشهدكم انا خلعناه فتابعهم الناس .

ومما جاء في مكان آخر من السياق انه كان ممن وفد على يزيد عبد الله بن حنظلة وكان شريفاً فاضلا عابداً ، و... معه ثمانية بنين له . فأعطاه مئة الف واعطى لكل واحد من بنيه عشرة آلاف سوى كسوتهم وحملانهم فلما سأله الناس ما وراءك قال والله جئتكم مـن عند رجل والله لو لم اجد الا بني هؤلاء لجاهدته بهم . فقالوا له بلغنا انه اجداك واعطاك واكرمك قال قد فعل وما قبلت منه الى لأتقوى به وحضض الناس فبايعوه .

كذلك مما جاء في السياق انه كان مع الوفد المنذر بن الزبير وان يزيد اجازه بمئة الف وانه قال ان جائزة يزيد لا تمنعني من ان اخبركم خبره واصدقكم عنه . والله انه ليشرب الخمر وانه ليسكر حتى يدع الصلاة وبلغ ذلك يزيد فقال اللهم اني آثرته واكرمته ففعل ما

---

(١) ج ٤ ص ٣٦٦ وبعدها .

رأيت فاذكره بالكذب والقطيعة ، يعني بذلك انه انما قال عنه كذباً .

وقد طلب يزيد من النعمان بن بشير ان يذهب الى المدينة فيفثأهم عما يريدون قائلا له ان بها من عشيرتي ما لا احب ان ينهض في الفتنة فيهلك . فأقبل النعمان فدعا الناس الى الطاعة ولزوم الجماعة وخوفهم من الفتنة وقال لهم لا طاقة لكم بأهل الشام . فقال له عبد الله بن مطيع احد زعماء الحركة ما يحملك على تفريق جماعتنا وفساد ما اصلح الله من امرنا فقال له النعمان (اما والله لكأني بك لو قد نزلت تلك التي تدعو اليها وقامت الرجال على الركب تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيوف ودارت رحا الموت بين الفريقين قد هربت على بغلتك تضرب جنبيها الى مكة وقد خلفت هؤلاء المساكين يقتلون في سككهم ومساجدهم وعلى ابواب دورهم) وقد عصى الناس النعمان الذي تحقق كل ما خمنه وانذرهم به .

ويستمر الطبري في سياقه الذي يذكر ان اهل المدينة بايعوا عبد الله بن حنظلة واعلنوا خلع يزيد وحاصروا الوالي ومن في المدينة من بني امية ومواليهم ومن على رأيهم من قريش فكانوا نحو الف . وارسل مروان بن الحكم الى يزيد كتاباً يقول فيه انا حصرنا ورمينا بالحبوب فيا غوثاه يا غوثاه .

وهذا الكلام قد يفيد ان الحملة التي هيأها يزيد كانت خصيصة لقمع فتنة المدينة في حين ان سياق ابن قتيبة يفيد انها كانت مهيأة لحرب عبد الله بن الزبير في مكة الذي خلع يزيد ونصب الحرب وان ثورة المدينة انفجرت في هذه الاثناء فأمر يزيد قائد الحملة بأن يتخذ المدينة طريقاً له فيعالج الامر في المدينة اما بالقتال واما بالارهاب ثم يمضي الى حرب ابن الزبير . وبقية سياق الطبري الآتية بعد هذا تؤيد ذلك .

ولما اقترب الجيش الى المدينة وثب اهلها على من فيها من بني امية فحصروهم في دار مروان وقالوا لهم لا نكف عنكم والله حتى نستنزلكم ونضرب رقابكم او تعطونا عهد الله وميثاقه لا تبغونا غائلة ولا تدلوا لنا على عورة ولا تظاهروا علينا فنكف عنكم ونخرجكم فأعطوهم عهداً فأخرجوهم فلقوا الجيش في طريقهم ودخل عبدالملك بن مروان على مسلم فاستشاره فرسم خطة حربية بارعة فاتبعها .

فلما وصل الكتاب الى يزيد وكان جالساً على كرسي وواضعاً قدميه في طست ماء من وجع النقرس تمثل قائلا :

لقد بدلوا الحلم الذي من سجيتي   فبدلت قومي غلظة بليان

ثم قال للرسول يكون بنو امية ومواليهم في المدينة الفاً فما يستطيعون ان يقاتلوا ساعة من نهار فقال له الرسول اجمع الناس كلهم عليهم يا امير المؤمنين فليس بهم طاقة عليهم .

وحينئذ انتدب الناس واعلن عن اعطائه لكل من يذهب مئة دينار فوق عطائه فانتدب ١٢٠٠٠ وجعل قيادة الجيش لمسلم بن عقبة المري فان حدث اه حادث فالحصين بن نمير السكوني ووصاه قائلا ادع القوم ثلاثاً فان هم اجابوك والا فقاتلهم فاذا ظهرت عليهم فأبحها ثلاثاً فما فيها من مال او رقة او سلاح او طعام فهو للجند ثم اكفف وانظر علياً بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيراً وادن مجلسه فانه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه وقد اتاني كتابه بذلك. ان ينزل في الحرة فنزل ثم خاطب اهل المدينة الذين كانوا في الجهة المقابلة مستعدين للمقاومة فقال لهم ان امير المؤمنين يزعم انكم الاصل واني اكره هراقة دمائكم واني اؤجلكم ثلاثاً فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه وانصرفت عنكم الى هذا الملحد الذي بمكة – يعني ابن الزبير – وان ابيتم نكون قد اعذونا اليكم ولما مضت الايام الثلاثة خاطبهم سائلا قد مضت الايام الثلاثة أتسالمون ام تحاربون فقالوا بل نحارب فقال لهم لا تفعلوا وادخلوا في الطاعة ونجعل حدنا وشوكتنا على هذا الملحد الذي قد جمع المراق والفساق من كل اوب فقالوا لهم انتم اعداء الله ولن نتركم تجوزوا حتى نقاتلكم ولا ندعكم تأتون بيت الله الحرام وتخيفوا اهله وتلحدوا فيه وتستحلوا حرمته .

وكان اهل المدينة قد اتخذوا حولها خندقاً ونزل منهم جمع عظيم للقتال وكان امير جماعتهم عبد الله بن حنظلة وعلى ربع من ارباعهم عبد الله بن مطيع وعلى ربع آخر عبد الرحمن بن زهير بن عوف . واخذ الجمعان يشتبكان في قتال شديد وكان الفضل بن عباس مع المقاتلين من اهل المدينة وكانت له صولات قوية حتى انه زحزح بعض اركان الجيش الشامي . واخذ مسلم يهتف بأهل الشام محرضاً محمسا واعداً فجدوا وشدوا ثم كان النصر

لهم . وقد قتلوا من اهل المدينة مقتلة عظيمة وكان الفضل بن عباس وعبد الله بن حنظلة وزيد ابن عوف ومشهورون آخرون من المقتولين . ثم اباح مسلم المدينة ثلاثاً ثم امر بالكف ودعا الناس الى البيعة فبايعوا وكان يقتل من يتلكأ او يتعنت او يشترط . وجاءه علي بن الحسين فرحب به واجلسه معه على السرير وقال له ان امير المؤمنين اوصاني بك ويقول لك ان هؤلاء الخبثاء شغلوني عنك . وقد عرفت هذه الوقعة بوقعة الحرة [1] لان المعركة الرئيسية جرت عندها وكانت لليلتين او ثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٦٣ هـ .

ومما توافق فيه الطبري مع ابن قتيبة مساعدة بني حارثة لجيش الشام واتاحة اسباب اقتحام الخندق له وقد قال ان الناس انهزموا عند الاقتحام حتى ان الذين اصيبوا بالخندق اكثر من الذين قتلوا .

وواضح من السياق ان الفرق الهام بينهما هو ان سياق ابن قتيبة يفيد ان اسباب الخلع والثورة منع اهل المدينة وكيل معاوية من جباية ريع امواله في حين ان سياق الطبري يفيد ان اخلاق يزيد الشخصية هي السبب .

ومما رواه اليعقوبي ان مسلماً اباح حرم رسول الله حتى ولدت الابكار لا يعرف من اولدهن [2] .

ولقد روى الطبري في سياق حركة ابن الزبير التي سوف نشرحها في نبذة اخرى [3] ان ابن الزبير حين جهر بخلع يزيد والدعوة الى نفسه في مكة كاتبه اهل المدينة . وان عمرو بن سعيد والي مكة الذي عزله يزيد بسبب مداراته لابن الزبير قال ليزيد حينما عاتبه في ذلك ان جل اهل مكة واهل المدينة قد قاموا اليه وهدوه واعطوه الرضا ودعا بعضهم بعضاً سراً

---

(١) سميت الحرة لانها مكان بركاني اسود الحجارة وهي في الشمال الغربي من المدينة .

(٢) ج ٢ ص ٢٢٣ مطبعة الغري وذكر في هامش هذه الصفحة ان الف امرأة ولدت من غير ازواج من هذه الوقعة .

(٣) ج ٤ ص ٣٦٥ و ٣٦٧

وعلانية حيث يسوغ هذا ان يقال ان لابن الزبير يدا ما في تحريك اهل المدينة . بل ان يقال ان هذا هو الاساس لثورة اهل المدينة وان ما ورد في سياق ابن قتيبة والطبري ان صح ولا مانع من صحة ما ورد في السياقين معاً كان من قبيل الذريعة او الاسباب المباشرة.

هذا مع القول ان في كلا السياقين وبخاصة في سياق ابن قتيبة ورواياته ما يثير في النفس احتمال المبالغة والتهويل وبالتالي ما يبعث على الشك في كون وقائع الحادثة قد شيبت بذلك فيما بعد بقصد التسويء والتشويه والدعاية ضد يزيد .

ولقد اورد ابن قتيبة نبذة تحت عنوان فضائل قتلى اهل الحرة جاء فيها [١] ان رسول الله ﷺ خرج في سفر من اسفاره فلما مر بحرة بني زهرة وقف فاسترجع .

وقد روى ابن كثير عن ابن عساكر عن المدائني انه لما قتل اهل الحرة هتف هاتف بمكة على ابي قبيس مساء تلك الليله وابن الزبير جالس يسمع .

والصائمون القانتون ... اولو العبادة والصلاح
المهتدون المحسنون ... السابقون الى الفلاح
ماذا بواقم والبقيع ... من الجاحجة الصباح
وبقاع يثرب ويحهن ... من النوادب والصياح
قتل الخيار بنو الخيار ... ذوي المهابة والسماح

فقال ابن الزبير يا هؤلاء قتل اصحابكم فانا لله وانا اليه راجعون [٢] .

فقالوا ماهذا يا رسول الله قال يقتل في هذه الحرة خيار امتي بعد اصحابي . وان عبد الله ابن سلام وقف بالحرة زمان معاوية بن ابي سفيان فقال اجد في كتاب اليهود الذي لم يبدل وم يغير انه يكون ههنا مقتلة قوم يحشرون يوم القيامة واضعي سيوفهم على رقابهم حتى يأتوا

---

(١) الامامة والسياسة ج ٨ ص ٢٠٨

(٣) البداية والنهاية ج ٨ ص٢٢٢

الرحمن تبارك وتعالى فيقفون بين يديه فيقولون قتلنا فيك . وان داود بن الحصين قال عندنا قبور قوم من قتلى الحرة فقلما حركت إلا فاح منها ريح المسك .

وان بعضهم روى عن عبد الله بن ابي سفيان عن ابيه قال رأيت عبد الله بن حنظلة في منامي بأحسن صورة معه لواؤه فقلت يا ابا عبد الرحمن اقتلت قال بلى فلقيت ربي فأدخلني الجنة فأنا اسرح في ثمارها حيث شئت قلت فأصحابك فما صنع بهم قال هم معي وحول لوائي هذا الذي ترى لم يحل عقده بعد .

والصنعة وقصد تعظيم امر قتلى الحرة الذي ينطوي فيه قصد تسويء جيش يزيد ووسمه بالبغي بارزان على هذه الروايات ويمكن ان يكون ذلك مؤيداً لما قلناه قبل .

وفي البداية والنهاية لابن كثير روايات هامة في صدد هذه الوقعة واحداثها لم ترد في كتابي الطبري وابن قتيبة وتتلاقى مع بعض روايات الطبري ويعزوها ابن كثير الى مصادر قديمة .

من ذلك ان وفد المدينة لما رجع من عند يزيد مشى عبد الله بن مطيع واصحابه الى محمد بن الحنفية فأرادوه على خلع يزيد فأبى عليهم فقال ابن مطيع ان يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة ويتعدى حكم الكتاب فقال لهم ما رأيت منه ما تذكرون وقد حضرته واقمت عنده فرأيته مواظباً على الصلاة متحرياً للخير يسأل عن الفقه ملازماً للسنة . قالوا ان ذلك كان منه تصنعاً لك فقال وما الذي خاف مني او رجا حتى يظهر لي الخشوع . افأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر ، فلئن اطلعكم على ذلك انكم لشركاؤه وان لم يطلعكم فما يحل لكم ان تشهدوا بما لم تعلموا . قالوا انه عندنا الحق وان لم نكن رأيناه فقال لهم ابى الله ذلك على اهل الشهادة فقال (إلا من شهد بالحق وبه يعلمون) [1] ولست من امركم على شيء ، قالوا فلعلك تكره ان يتولى الامر غيرك فنحن نوليك امرنا قال ما استحل القتال على ما تريدونني عليه تابعاً ولا متبوعاً . قالوا فقد قاتلت مع ابيك . قال جيئوني بمثل ابي

---

(١) الاية ٨٦ من سورة الزخرف .

اقاتل على ماقاتل عليه . فقالوا فمر ابنيك ابا القاسم والقاسم بالقتال معنا قال لو امرتها لقاتلت . قالوا فقم معنا مقاماً تحض الناس فيه على القتال . قال سبحان الله أ آمر الناس بما لا افعله ولا ارضاه . اذا ما نصحت لله في عباده . قالوا اذاً نكرهك قال اذاً آمر الناس بتقوى الله ولا يرضون المخلوق بسخط الخالق وخرج الى مكة [1] حيث ينطوي في هذه الرواية تكذيب شديد لما اتهم به يزيد بل اثبات لعكس ذلك من مواظبة على الصلاة وتحر للخير والفقه واتباع للسنة وحيث يؤيد ذلك ما قلناه من ان الانحراف الاخلاقي الذي نسب الى يزيد وجعل سبباً للثورة عليه وخلعه كان ذريعة على غير اساس .

ومن ذلك ما رواه ابن كثير عن ابي القاسم البغوي الذي يروى عن راو فراو الى اسلم بن عبدالله بن عمر أن عبد الله بن عمر دخل على عبد الله بن مطيع فقال له مرحباً بأبي عبد الرحمن فقال انما جئتك لاحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول (من نزع يداً من طاعة فانه يأتي يوم القيامة لا حجة له . ومن مات مفارق الجماعة فانه يموت ميتة جاهلية) [2].

ومن ذلك ما رواه عن الامام احمد الذي يروى عن راو فراو إلى نافع بن عمر قال لما خلع يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه واهله فقال لهم إنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله . واني سمعت رسول الله ﷺ يقول (ان الغادر ينصب له لواء يوم القيامة يقال هذه غدرة فلان . وان من اعظم الغدر بعد الشرك ان يبايع رجل رجلا على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته ، فلا يخلعن أحد منكم يزيد ولا يسرفن احد منكم في هذا الامر فيكون الفيصل بيني وبينه) [3]. حيث يفيد هذا ان هذا الصحابي الجليل لم ير ما يبرر خلع يزيد واعتبر ذلك غدراً ونقضاً يدخلان في نطاق ما نهى عنهما النبي ﷺ .

ومن ذلك ما رواه عن ابي جعفر الباقر انه لا احد من آل ابي طالب ولا من بني

---

(١) ج ٨ ص ٢٣٣ .

(٢) نفس المصدر وعقب ابن كثير فقال ان هذا الحديث مسلم .

(٣) نفس المصدر ٢٣٢ — ٢٣٣ وعقب ابن كثير فقال ان هذا الحديث رواه مسلم والترمذي .

عبد المطلب خرج إيام الحرة [1] .

وهذا متفق جوهرياً مع ما اوردناه قبل عن موقف علي بن الحسين وموقف محمد بن علي بن ابي طالب المعروف بابن الحنفية ودفاعه عن يزيد وإبائه الاندماج في الثورة عليه حيث يفيد هذا ان معظم الهاشميين لم يندمجوا في الحركة وبالتالي لم يروها مشروعة .

ومن ذلك أي من مرويات ابن كثير عن المدائني انه لما جاءت بشرى النصر الى يزيد هتف وا قوماه ثم دعا الضحاك بن قيس الفهري فقال له ترى ما لقي اهل المدينة ومـا الذي يجبرهم فقال الطعام والاعطية ، فأمر بحمل الطعام اليهم وافاض عليهم بالاعطية [2] .

ولقد روي ان يزيد لما جاءته البشرى تمثل بشعر لابن الزبعري انشده شماتة بأهل المدينة حينما انتصرت قريش عليهم في وقعة أحد الذي يقول فيه :

ليت أشياخي ببـــدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الاسل
حين حلت بفنائهـــم بركـها	واستحر القتل في عبـد الاشل
قـد قتلنا الضعف من اشرافهم	وعدلنا ميـــل بدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فـــلا	ملك جاءه ولا وحي نزل [3]

مما لا يمكن ان يصدق ذلك عنه وهو متناقض مع ما اثر من سيرته ومع ما اثر من اسفه لما وقع في المدينة . ونـكاد نجزم انه مصنوع عليه للتسويء والتشويه .

وعلى كل حال فان من المستفاد من الروايات التي لا خلاف فيها ان اهل المدينة نقضوا بيعتهم للامام وحملوا السلاح ضد سلطانه بدون مبرر شرعي واستجابة الى دعـاية ابن الزبير

---

(١) ص ٢٣٣ .

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٢٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٢٤ وقريب من معنى البيت الاخير ينسب الى الوليد بن يزيد على ما اوردناه في سيرته . وهو مصنوع حتما مثل هذا ونسبة البيت للشخصين من دلائل الصنعة .

الذي يعد خروجه هو الآخر غير شرعي على ما سوف يأتي شرحه في نبذة حركته . وان يزيد كلف غير واحد بنصحهم وتحذيرهم كما ان غير واحد من اصحاب رسول الله تطوعوا بتحذيرهم وتذكيرهم بالاحاديث النبوية . وان يزيد بذل كل جهده بما اعطاه من امان ومواثيق ووعود لتفادي القتال وامر قائده امراً صريحاً بعدم قتال غير من يقاتله وان القتال وقع بعدانذار وإمهال وبعد وقوف اهل المدينة موقف المحارب الصريح . وليس في هذا ما يخالف ديناً ولا عقلا ولا منطقاً .

ولقد روى الطبري ان مسلماً بن عقبه حين حضرته الوفاة قال اللهم اني لم اعمل عملا قط بعد شهادة ان لا اله إلا الله وان محمداً عبده ورسوله احب الي من قتلى اهل المدينة ولا ارجى عندي في الآخرة [١] . حيث ينطوي انه كان معتقداً بصحة قتاله اهل المدينة من الوجهة الشرعية على اعتبار انهم بنقضهم بيعة الامام ونصبهم له الحرب قد فرقوا جماعة المسلمين وافسدوا مصلحتهم .

ومن هذا الباب ما رواه ايضاً في سياق التشاد الذي كان في بلاد الشام حول ترشيح ابن الزبير للخلافة بعد تنازل معاوية بن يزيد وسعي بني امية للاحتفاظ بها لهم حيث سأل حسان بن مالك احد زعماء انصار بني امية الناس في الاردن ما شهادتكم على ابن الزبير وعلى قتلى اهل الحرة فقالوا نشهد ان ابن الزبير منافق وان قتلى اهل الحرة في النار فسأل ما شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلاكم بالحرة فقالوا نشهد ان يزيد على الحق وان قتلانا في الجنة [٢] .

غير ان تبرير قتال اهل المدينة لا يمكن ان يشمل ما روي من اباحة المدينة للنهب وقتل النساء والصبيان والاسرى وفضح النساء وايقاع الاذى على بعض اصحاب رسول الله ﷺ المنعزلين عن الحركة مما يعتبر من افظع الاعمال والجرائم وادعاها لسخط الله وغضبه والنقمة واللوم في كل وقت ان صحت الروايات حقاً لو كان ذلك ضد اية مدينة اسلامية وجماعة من

---

(١) ج ٤ ص ٣٨٢ . (٢) ص ٤١٠ .

المسلمين في أي وقت فكيف وذلك ضد مدينـــة شرفها الله بأن تكون دار هجرة رسوله ومثوى جثمانه الشريف وورد في فضلها احاديث نبوية عديدة [1] . وضد جماعة فيهم الكثير من المهاجرين والانصار مـــن اصحاب رسول الله ﷺ وابنائهم وتابعيهم الذين قرنهم خير القرون والذين اثنى رسول الله عليهم اعظم الثناء في احاديث عديدة ظلما وبغيا . واذا كان هناك احاديث نبوية تبيح قتل الخارج عن الامام والمفرق للجماعة فلا يمكن ان يشمل ذلك فضح النساء واباحة المدينة للنهب وقتل الاسرى والعدوان على المنعزلين عن الفتنة .

ونقول ان صحت الروايات حقاً لان صدور مثل هـــذه الجرائم الفظيعة ضد المدينة الشريفة والمهاجرين والانصار من اصحاب رسول الله وابنائهم وتابعيهم مما لا يصدق بسهولة

---

(١) هناك حديث صحيح مروي عن سعد بن ابي وقاص في صيغ متغايرة قليلا ومن طرق عديدة هذه احدى صيغه قال سمعت رسول الله(ص)يقول(لايكيد اهل المدينة احد الا انماع كما ينماع الملح في الماء) وهذه صيغة اخرى(لا يريد احد المدينة بسوء الا اذابه الله في النار ذوب الرصاص او ذوب الملح في الماء).

وهناك حديث صحيح مروي عن السائب بن خلاد في صيغ متغايرة ومن طرق عديدة هذه احدى صيغه قال (قال رسول الله صلعم مـــن اخاف اهل المدينة ظلماً اخافه الله وعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا النهاية لابن كثير ج ٨ ص ٢٢٤ .

وقد روى البخاري ومسلم حديثاً عن عمران بن حصين عن النبي صلعم جاء فيه (خير امتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) التاج ج ٣ ص ٢٧٠ .

وروى مسلم عن ابي موسى حديثاً نبوياً جاء فيه (النجوم أمنة السماء فاذا ذهبت النجوم اتى السماء ما توعد وانا أمنة اصحابي فاذا ذهبت اتى اصحابي ما يوعدون واصحابي امنة امتي فاذا ذهب اصحابي اتى امتي ما يوعدون) التاج ج ٣ ص ٢٧١ .

وحديث رواه الترمذي جاء فيه (الله الله في اصحابي الله الله في اصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمن احبهم فبحبي احبهم ومن ابغضهم فببغضي ابغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك ان يأخذه) نفس المصدر ص ٢٧٢

من اناس يؤمنون بالله ورسوله وكتابه واليوم الآخر وهو مـــا نعتقده في يزيد وقائده وافراد جيشه ومما في سياق الطبري وابن قتيبة وغيره من الروايات الكثيرة ما يؤيده .

ونخشى كثيراً بل نحن اميل الى الجزم بأن ذلك مصنوع مثل كثير مـــن الروايات المروية في سياق قصة مقتل الحسين وغيرها وفي اخلاق وافعال خلفاء بني اميـــة ورجالهم المشهورين من قبل اعدائهم في عهدهم وبعده بقصد التسويء والطعن والدعاية . ولا سيما ان المسألة حساسة تثير العواطف في عامة المسلمين بل وخاصتهم ، واذا كان من الثابت ان اعداء بني امية من الهاشميين وشيعتهم قد اجترأوا بسبيل تأييد اهوائهم وتجريح اعدائهم على صرف الآيات القرآنية عن معانيها ووضع الاحاديث النبوية فليس غريبا ان يقال إنهم صنعوا هذه الروايات بل ان ذلك يكون اهون واكثر وروداً واحتمالا .

٨ - حركة عبد الله ابن الزبير رضي الله عنه

•

تقلبت هذه الحركة في اطوار مختلفة وامتدت نحو عشر سنين . وكلفت الدولة الاموية كثيراً من الجهد والعنت ، وانتهكت في سياقها حرمة مكة المكرمة والكعبة المشرفة وزهقت فيها ارواح آلاف المسلمين ، وحاول الروم استغلال انشغال الدولة بها فقاموا ببعض الحركات المزعجة للدولة حتى لقد اضطر عبد الملك بن مروان ان يدفع اتاوة لاسكاتها على ما سوف نشرحه في نبذة اخرى واتسعت حتى شملت الحجاز واليمن والعراق وما وراءها ايضاً بحيث يمكن ان يقال انها كادت تقضي على الدولة الاموية وتحل محلها في السلطان العربي الاسلامي .

ولقد ذكرنا في سيرة معاوية أن عبد الله بن الزبير كان خامس خمسة من مشهوري اصحاب رسول الله امتنعوا عن البيعة بولاية العهد ليزيد في زمن معاوية ، فلما مات معاوية كتب يزيد لواليه في المدينة ان يأخذ البيعة له مجدداً ويأخذها من الذين امتنعوا عنها في حياة ابيه . وقد دعا الوالي عبد الله بن الزبير الى البيعة فراوغ ثم خرج سراً الى مكة .

وقد ارسل الوالي خلفه ثمانين راكباً فلم يدركوه . وامر يزيد واليه بأن يبعث جيشاً إلى مكة لارغامه وان يغل عنقه ويديه ويرسله اليه مع انهما لم يفعلا ذلك مع الحسين بن علي على ما ذكرناه في نبذته حيث يدل هذا على ان يزيد كان يتوقع من ابن الزبير موقفاً مزعجاً اكثر

مما كان يتوقع من الحسين [1] .

ولقد ذكرنا في تلك النبذة عزواً الى الطبري ان ابن الزبير شجع الحسين على الخروج الى العراق بناء على دعوة الشيعة له وان ابن عباس لما علم بذلك قال له هذا حسين يخرج الى العراق وعليك بالحجاز ثم انشده :

يا لك من قنبرة بمعمر خلا لك الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئت ان تنقري

حيث يفيد هذا ان ابن الزبير كان يبيت امراً وخروجاً على يزيد .

ولقد اخفق الجيش الذي سيره والي المدينة لارغام ابن الزبير فكان ذلك من عوامل جرأته وقوة عزيمته [2] .

ومن ثم اخذ ينشط في سبيل الدعوة لنفسه . ولقد روى الطبري ان يزيد عاتب عمرواً بن سعيد والي مكة وكان قد عزله بسبب مانما اليه من مداراته لابن الزبير فقال له (إن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب وان جل اهل مكة واهل المدينة قد كانوا مالوا اليه وهووه واعطوه الرضا ودعا بعضهم بعضاً سراً وعلانية ولم يكن معي جند اقوى بهم عليه لو ناهضته . وكان يحذرني ويتحرز مني وكنت أرفق به وادار يه لاستمكن منه فاثب عليه [3]) مما فيه الدليل على ذلك . وكان ذلك قبل مقتل الحسين .

فلما جاء خبر مقتله جمع اهل مكة وخطبهم فعظم مقتل الحسين وعاب على اهل الكوفة خاصة ولام اهل العراق عامة ونوه بما كان من اباء الحسين الاستسلام والنزول على حكم ابن زياد وقال انه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة وعرض بيزيد وشربه الخمر واهماله

(١-٢) الطبري ج ٤ ص ٢٥٠-٢٥٥ .

(٣) الطبري ج ٤ ص ٣٦٧ .

واجبات الدين ولهوه بالغناء والصيد .

وقد حرضه بعض انصاره على اظهار بيعته قائلين له انه بعد مهلك الحسين لم يعد احد ينازعه . فأخذ يتهيأ لذلك وجرت بينه وبين اهل المدينة مكاتبة كانت كما ذكرنا في نبذة ثورة المدينة محركة لهذه الثورة [1] .

وبلغ يزيد ما يدبره ابن الزبير فأمر عبيد الله بن زياد ان يغزوه فاعتذر فعزم على ارسال جيش من الشام وفي اثناء تهيئة الجيش ثارت المدينة فأمر يزيد قائد الجيش ان يتخذ المدينة طريقاً له ليعالج الامر فيها ثم يتجه لمهمته الاصلية .

وفي الطبري رواية [2] تفيد ان الوليد بن عتبة والي الحجاز من قبل يزيد هو الذي حج بالناس وان ابن الزبير كتب إلى يزيد يشكو خرق الوليد ويطلب منه تبديله بوال لين واسهل وان يزيد استجاب الى طلبه حيث يفيد هذا وذاك ان جهر ابن الزبير بخلع يزيد تأخر مدة غير قصيرة بعد مقتل الحسين الذي كان في محرم عام ٦١ بل هناك رواية يرويها الطبري [3] ايضاً تذكر انه كان في حج سنة ٦٢ في عرفات ثلاث جماعات كل جماعة تقف لحدتها وهي جماعة لواء الامويين وجماعة نجدة الخارجي وجماعة ابن الزبير وان نجدة كان يلقى ابن الزبير فيكثر معه حتى ظن الناس انه سيبايعه وان طلب ابن الزبير عزل الوالي من يزيد كان بعد ذلك حيث يفيد هذا ان جهر ابن الزبير بالخلع تأخر الى سنة ٦٣ وان كانت بدرت بوادر منه قبل [4] . ولما كانت وقعة الحرة في ذي الحجة سنة ٦٣ فان هذا يفيد ان يزيد تأخر في ارسال الجيش لحرب ابن الزبير نتيجة لموقف ابن الزبير غير الصريح قبل ثورة المدينة .

ولقد سار مسلم بن عقبه بالجيش بعد قمع ثورة المدينة نحو مكة في شهر المحرم سنة ٦٤ فلما انتهى الى مكان اسمه المشلل نزل به الموت . ولما احس بدنو اجله اخبر الحصين بن نمير ان

---

(١) المصدر السابق ٣٦٤-٣٦٥ .

(٢-٤) نفس المصدر ٣٦٦-٣٦٩ .

يزيدا عهد له بأمرة الجيش من بعده ووصاه بتعمية الاخبار والاسراع في السير والتعجيل بالوقاع وعدم الاستماع الى القرشيين ومناجزة ابن الزبير الذي نعته بالفاسق وعدم رد اهل الشام عن عدوهم [1].

ودفن الحصين مسلماً حيث مات ثم تقدم نحو مكة وقد بايع اهلها ابن الزبير. وانحاز اليه نجدة الخارجي وقدم من اهل المدينة كثيرون عليه. وتحالف الجميع معه على قتال الجيش الشامي. وقد أخرج قوة بقيادة اخيه المنذر فاشتبكت مع الجيش الزاحف في معركة شديدة ثم تبارز المنذر مع رجل من جيش الشام فقتل كل منهما صاحبه وشعر بعد ذلك جند الشام فكشفوا قوة ابن الزبير وهزموها. فعمد هذا الى التحصن في مكة. واقام جيش الشام على حصارها ونصب عليها المجانيق وكان يرشقها بالحجارة. وظل الحصار الى ان جاء نعي يزيد في ربيع الآخر سنة ٦٤ فهتف جماعة ابن الزبير للجيش الشامي علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم. فلم يصدقوا الخبر الا بعد ان اخبرهم به شخص قادم من الكوفة يعرفه الحصين. وحينئذ بعث الحصين الى ابن الزبير يطلب منه الاجتماع وتم اللقاء بين الرجلين فعرض الحصين عليه ان يبايعه ويخرج معه الى الشام. وقال له ان هذا الجند هم وجوه اهل الشام وفرسانهم فاذا بايعوك لا يختلف عليك اثنان [2] وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك وبيننا وبين اهل المدينة. فأبى ان يهدر قتلى مكة والمدينة واصر على قتال جيش الشام وقتله وكان الحصين يكلمه سرا وهو يجهر جهراً فما كان من الحصين الا ان قال له قبح الله من بعدك داهية. قد كنت اظن ان لك رأياً. فأنا ادعوك

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨١-٣٨٢.

(٢) نقول هنا ما قلنا في ظرف خطبة ابن زياد في البصرة التي ذكرناها في نبذة ثارات الحسين والمختار فقد كان ليزيد ولي عهد له بيعة في اعناق الناس وهو ابنه معاوية وقد تولى الحكم عقب موت ابيه ولا بد من ان يكون الحصين يعرف ذلك فالعرض الذي عرضه على ابن الزبير ان صح فلا يستقيم الا اذا كان العرش فارغاً ولهذا فنحن نرجح في حالة صحته ان يكون خبر تنازل معاوية بن يزيد وفي ظرف فراغ العرش.

الى الخلافة وانت تتوعدني القتل . ثم تركه وخرج وهتف بجيشه بالرحيل . وندم ابن الزبير فارسل اليه اني اكره الخروج من مكة فبايعوني هنا وانا مؤمنكم وعادل فيكم فأبى واستمر في سيره الى المدينة دون ان يقدر ابن الزبير على شيء معه . غير ان اهل المدينة اظهروا شماتتهم بالجيش واجترأوا عليه وقتلوا بعض رجاله . وقد خرج مع الجيش من كان في المدينة من بني امية وانصارهم حيث تيقنوا ان المدينة ستدخل في حكم ابن الزبير ، وقد تم ذلك فعلا ، وارسل اخاه عبيدة والياً ثم استبدله بمصعب فغدت الحجاز جميعها في حكمه [1].

ولقد احترقت الكعبة اثناء الحصار . ويروي الطبري روايتين في ذلك . واحدة تذكر ان الجند الشامي قذفوها بالمجانيق وحرقوها بالنار وان ذلك كان في الثالث من شهر ربيع الاول يوم السبت سنة ٦٤ .

والرواية الثانية تذكر ان جند الزبير كانوا يوقدون حول الكعبة نارا فهبت شرارة منها الى ثوب الكعبة فاحترق واحترق خشب الكعبة نتيجة لذلك [2] .

وقد تطمئن النفس بهذه الرواية اكثر لانه ليس هناك رواية تذكر ان المجانيق في ذلك الزمن كانت ترمي مادة مشتعلة ، وانما كانت ترمي حجارة فقط وهذه لا تسبب حريقاً وهذا فضلا عن ان الجيش الشامي الذي كان من ابناء جيوش الفتح لا يعقل ان يكون قصد رمي الكعبة وهدمها او حرقها .

والسياق المتقدم مقتبس من الجزء الرابع من تاريخ الطبري . وفي الامامة والسياسة لابن قتيبة روايات عن هذه المرحلة فيها ما يتفق مع هذا السياق وفيها ما يختلف [3] .

---

(١) جميع سياق حصار مكة من الطبري ج ٤ ص ٣٨ وبعدها .

(٢) نفس المصدر .

(٣) ج ٢ ص ١٠-١٤ .

ومما جاء من ذلك ان الحصين نصب على مكة العرادات والمجانيق وفرض على جيشه عشرة آلاف صخرة كل يوم يرمونها على المدينة . وان خبر موت يزيد جاء الى الحصين فأرسل الى ابن الزبير يقول ان صاحبنا قد مات فأذن لنا نطوف البيت وننصرف عنكم فمنعهم من ذلك وقال لهم وهل تركتم من البيت الا مدرة . حيث يعني ان المجانيق قد هدمت الكعبة . مع انه يروى ان ابن الزبير أسند الواحاً من الساج الى البيت والقى عليها القطائف والفرش فكان اذا وقع عليها الحجر نبا عن البيت وسقط على الفرش والقطائف حيث يعني هذا ان الكعبة لم تهدم .

ومما جاء في سياق ابن قتيبة ايضاً ان الناس في الطريق ثم في المدينة اعتدوا على الجيش الشامي واوقعوا فيه بعض القتلى واسروا بضع مئات فلما جاء مصعب الى المدينة ضرب اعناقهم .

وقد توافق ابن قتيبة مع الطبري في روايته الثانية في اسباب حريق الكعبة معه كما توافق معه فيما كان من عرض الحصين على ابن الزبير وتعنت هذا واضاعته الفرصة بذلك .

ومما ذكره الطبري ان ابن الزبير جدد بناء الكعبة في سنة ٦٥ وادخل فيه الساحة التي كانت تعرف بالحجر او مصلى ابراهيم استناداً الى حديث نبوي روته عائشة ام المؤمنين جاء فيه (لولا حداثة عهد قومك بالكفر لرددت الكعبة على اساس ابراهيم فأزيد فيها من الحجر وانه لما امر بحفر الاساس لادخال الحجر وجدوا قلاعاً امثال الابل فحركوا منها صخرة فبرقت بارقة فقال اقروها على اساسها . وقد جعل للكعبة بابين بابا يدخل منه وآخر يخرج منه ولم يكن لها الا باب واحد [١] .

وقد ذكر ابن قتيبة ان طول الكعبة في السماء كانت ثمانية عشر ذراعاً [٢] .

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٤٨٣-٤٨٤ .

(٢) الامامة والسياسة ج ٢ ص١٣ .

وذكر المسعودي ان ابن الزبير جلب من صنعاء الفسيفساء التي كانت في الكنيسة التي بناها أبرهة الحبشي ومعها ثلاثة اساطين من رخام فيها وشي منقوش وقد حشي النقش بانواع الالوان والاصباغ حتى من رآه ظنه ذهباً فجعل ذلك في الكعبة . وان سبعين شيخاً من قريش شهدوا ان قريشاً حين بنت الكعبة عجزت نفقتهم فنقصوا من سعة البيت سبعة اذرع من اساس ابراهيم فأدخلها ابن الزبير فيه . وجعل له بابين بابا يدخل منه وباباً يخرج منه فلم يزل البيت على ذلك حتى قتل الحجاج عبد الله بن الزبير فهدم الكعبة بعد الاستئذان من عبد الملك واعادها الى ما كانت عليه في زمن الرسول ﷺ من حيث السعة ووحدة الباب [1] .

ولقد كان من اثر حركة ابن الزبير في الشام بعد موت يزيد وتنازل معاوية ابنه ان اقبل جل اهل الشام وجماعات من الاردن وفلسطين على بيعته حتى لقد عهد الى الضحاك بن قيس ليكون عامله في الشام . غير ان معركة مرج راهط قلبت الموقف رأساً على عقب حيث استتب الامر في الشام لمروان بن الحكم على ما شرحناه في سيرته .

ولقد بعث ابن الزبير اخاه مصعباً نحو الشام فلم يكد يصل الى الاردن حتى كان الامر قد استتب لمروان فبعث هذا بجيش الى لقاء مصعب فلقيه وهزمه [2] .

ولقد كان من اثر هذه الحركة في مصر ان قام واليها عبد الرحمن بن جحدم القرشي بالدعوة اليه فسار مروان الى مصر ووطد السلطان فيها لنفسه [3] .

والمستفاد من بعض الروايات ان اليمن دخلت في بيعة ابن الزبير ايضاً بعد الحجاز [4] .

---

(١) مروج الذهب ج٣ص٢٩ — ٣٠ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٤١٧ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) انظر البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٩ .

وظلت في حكمه الى ان تقوض حكمه عن الحجاز فسقط عنها تبعاً لذلك .

ولقد كان من اثر حركته في العراق ان اتجه زعماء الخوارج فيها ومنها نافع بن الازرق وعبد الله بن صفار وعبد الله بن اباض وعبيدة بن هلال اليه حيث قال لهم نافع ان الله قد كتب عليكم الجهاد في اهل الظلم والغشم . وقد ثار هذا الرجل بمكة فأخرجوا بنا اليه فان كان على رأينا جاهدنا معه العدو فقبلوا اقتراحه وخرجوا فسر عبد الله بن الزبير بقدمهم وكان جيش الشام محاصرا له فقاتلوا معه فلما مات يزيد وانفك الحصار تحدثوا معه فقالوا فيما قالوه ان الله بعث محمداً ﷺ يدعو الناس الى عبادة الله واخلاص الدين له ففعل واستجاب له الناس فعمل فيهم بكتاب الله وامره فلما قضى خلفه ابو بكر ثم عمر فسارا على منهجه ثم استخلف عثمان فخالف واساء الاستعمال وعددوا المساوىء المنسوبة اليه وقالوا فنحن للاولين اولياء ومن عثمان واوليائه برءاء . فدافع ابن الزبير عن عثمان وفند ما نسب اليه وقال لهم انا وليه كما انا ولي من قبله . فقالوا له برىء الله منك يا عدو الله فرد عليهم الكلمة وحينئذ انفضوا عنه وعادوا الى العراق [1] .

على ان العراق لم يلبث ان دخل في بيعته على اثر انسحاب ابن زياد وعمال بني امية على النحو الذي شرحناه في نبذة حركة ثارات الحسين والمختار الثقفي . حيث كتب اليه اهل العراق بذلك . وحينما نشط الخوارج في انحاء البصرة وعهد اهلها بقيادة نضالهم الى المهلب واشترط هذا ان يكون له ما يغلب عليه اجابوه الى شروطه واوفدوا وفداً الى ابن الزبير بذلك فأمضى الشروط حيث اعتبروه ولي امرهم حالما كتبوا له بيعتهم ، ولم يلبث ان ارسل الى كل من الكوفة والبصرة والياً ووكيلا للخراج فصار السلطان يمارس باسمه . ولقد كان عبد الله بن حازم احد رجالات العرب في خراسان قد استغل فرصة فراغ العرش الاموي فغلب على خراسان وفرض فيها سلطانه . فدخل هو الآخر في بيعة ابن الزبير حينما دخل العراق في هذه البيعة [2] .

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٤٣٦ وبعدها .

(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ .

ولقد انكمش هذا السلطان بعد فترة قصيرة وانحصر في البصرة شيئاً مـا نتيجة لموقف المختار الثقفي والشيعة واستمر منكمشاًالى سنة ٦٧ ثم عاد فاستتب ثانية حينما ارسل ابن‌الزبير اخاه مصعباً الذي استطاع ان ينتصر على المختار ويقتله مع عدد كبير من جماعته على مـــا شرحناه في نبذة ثارات الحسين والمختار شرحاً يغني عن التكرار .

ومما رواه الطبري[١] ان مصعباً اول مـــا قدم على البصرة حيث كان سلطان ابن الزبير قائماً فصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال والله ما اكثر الكلام ثم تـلا قول الله (طسم تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى الى قوله انـه كان من المفسدين)[٢] . وأشار بيده نحو الشام و (نريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجلعهم الوارثين)[٣] . واشار بيده نحو الحجاز و(نرى فرعون وهامان وجنودهما منهم مـا كانوا يحذرون)[٤] واشار بيده الى ناحية الكوفة حيث يقيم المختار . ثم قال بلغني يا اهل البصرة انـكم تلقبون امراءكم وقد سميت نفسي الجزار .

ولقد حقق بفعله هذا الاسم الذي سمى به نفسه حيث روى ان عدد الذين قتلهم صبراً اي بعد الاسر والاعتقال كان ٥٠٠٠ في روايةو ٧٠٠٠ ولقد ناشده بعض اصحابه ان لا يقتلهم وان يمن عليهم فيكسب قلوب قبائلهم ويكونوا له عوناً فأبى ، ويظهر ان هؤلاء قد نزلوا على حكمه واستأسروا استناداً الى عهد وامان على مـــا يفيده شعر مأثور لعقبة الأسدي جاء فيه :

قتلـتم ستة الآلاف صـــبراً	مـــع العهد الموثق مكتفينا
جعلتم ذمـــة الحبطى جسراً	ذلولا ظهره للواطئينا
وما كانوا غـــداة دعوا فغروا	بعهدهم بأول خائنينــا
وكنت امرتهـــم لو طاوعوني	بضرب في الازقـــة مصلتينا

---

(١) ج ٤ ص ٥٧٧-٥٧٨ .

(٢-٤) هذه لايات من اوائل آيات سورة القصص .

حيث يزداد عظم الاثم ان صح [1] .

ولقد أثر ان عبد الله بن عمر لقي مصعباً فقال له انت الذي قتلت في غداة واحدة هـذه الآلاف ممن يوحد الله . فاعتذر إليه بأنهم بايعوا المختار فقال أما يمكن أن يكون فيهم المستكره او الجاهل فتنظر هل يتوب . والله لو نحرت غداة يوم هذه الآلاف من غنم ابيك لعد ذلك سرفاً وهي لا تعبد الله ولا تعرفه كما يعرفه الآدمي [2] .

ولقد كان هذا الاسراف في القتل من اسباب انفضاض اهل العراق عن مصعب وانتصار عبد الملك بن مروان عليه على ما سوف نذكره بعد .

ومما يروى ان مصعباً شخص الى مكة عام ٧٠ بدواب كثيرة وظهر واثقال واموال عظيمة فقسمها على قومه وغيرهم بما فيه صورة من صور الحكم ومآربه في ذلك الظرف [3] .

ولقد استمر حكم ابن الزبير على العراق الى سنة ٧١ او ٧٢ ثم زال نتيجة لزحف عبد الملك بن مروان وانتصاره على مصعب وقتله .

ومما يروى في صدد ذلك ان مصعباً جاء الى مكة سنة ٧٠ او ٧١ ومعه رؤساء ووجوه واشراف العراق وقال لاخيه قد اتيتك بالذين سارعوا الى بيعتك وقاموا باحياء دعوتك وحاربوا اهل معصيتك فأعطهم من هذا المال فقال له اخوه جئتني بعبيد اهل العراق وتأمرني ان اعطيهم مال الله ، والله لا افعل ، وايم الله لوددت اني اصرفهم كما تصرف الدنانير بالدراهم عشرة من هؤلاء برجل من اهل الشام . فقال له رجل منهم علقناك وعلقت اهل الشام . ثم انصرفوا عنه وقد يئسوا مما عنده فاجتمعوا واجمعوا على خلعه وكتبوا بذلك الى

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٥٧٦–٥٧٧ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٥٧٧ وابن الاثير ج ٤ ص ١٠٨ والبداية والنهاية ج ٨ ص ٣٢٠ ويروي ابن الاثير ان مصعباً قال لابن عمر حينما سألة انهم كانوا كفرة فجرة فاجابه بما جاء في الرواية .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٢ .

عبد الملك [1] .

ولقد فكر عبد الملك بن مروان فور توليه ان يبدأ مصاولته مع عبد الله بن الزبير في الحجاز . فسير بسبيل ذلك في سني ٦٥ و ٦٦ و ٦٧ بعض السرايا ، ووقعت مناوشات بينها وبين سرايا ابن الزبير حول المدينة وفي وادي القرى ، ثم وقفت هذه المصاولة [2] . حيث يبدو ان عبد الملك رأى في تمسك اهل الحجاز بابن الزبير وتعصبهم له ما لا يسهل معه التغلب عليه في ذلك الظرف . وانصرف الى مصاولة سلطانه في العراق .

ولقد بدأ ذلك في عهد مروان حيث سير عبيد الله بن زياد على رأس جيش . ولم يكن سلطان ابن الزبير قد توطد قوياً ، فخرج الشيعة بقيادة سليمان بن صرد اليه فقاتلوه فانتصر عليهم (سنة ٦٥) ثم خرجوا اليه بقيادة ابراهيم بن الاشتر (الذي كان متحالفاً مع المختار فانتصروا عليه سنة ٦٧ وقتلوه على ما شرحناه في نبذة ثارات الحسين والمختار .

وبعد ذلك بقليل توطد سلطان ابن الزبير في العراق وقتل مصعب المختار وصفى الحكم لأخيه . ولقد ارسل عبد الملك عبيد الله بن الحر التميمي في محاولة ضد الحكم الزبيري فقتل على ما شرحناه في نبذة الخوارج . ثم ارسل في سنة ٧٠ خالدا بن اسيد الى البصرة فلم يستطع ان يفعل شيئاً وانهزم بعد ان قتل عدد ممن انضووا اليه من اهل البصرة [3] .

وحينئذ اعتزم الخروج بنفسه على رأس جيش قوي وخرج سنة ٧٠ او ٧١ ونزل اولا في مسكنه اي انه سلك طريق دير الزور . ولا يبعد ان يكون كتابة العراقيين مما شجعه على الخروج ان صحت الرواية .

ومما يروى ان اهل الشام – والمقصود هم رؤساء الجند العربي في الشام ورجالات

---

(١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٣–٢٤ .

(٢) ابن الاثير ج ٤ ص ١٣٥ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٣ .

العرب – كرهوا خروجه بنفسه خشية على الناس وكيان الدولة . وقالوا له لو اقمت يا امير المؤمنين مكانك وبعثت على هؤلاء الجيوش رجلا من اهل بيتك فقال لهم انه لا يقوم بهذا الامر الا قرشي له رأي . ولعلي ابعث من له شجاعة ولا رأي له . واني اجد في نفسي اني بصير بالحرب شجاع بالسيف ان الجئت الى ذلك . ومصعب من بيت شجاعة ولا علم له بالحرب [1] .

ويروي الطبري ان كلا من عبد الملك ومصعب تنافسا على كسب ابراهيم بن الاشتر زعيم الشيعة الى صفه في نضالها ضد بعضهما فدعاه الاول الى طاعته ووعده بالعراق ودعاه الثاني الى طاعته وطاعة آل الزبير ووعده بالشام وأعنة الخيل وما غلب عليه من ارض المغرب ما دام لآل الزبير سلطان . واستشار اصحابه فمنهم من اشار عليه بعبد الملك ومنهم من اشار عليه بمصعب فقال لو لم اكن اصبت عبيد الله بن زياد ورؤساء الشام لتبعت عبد الملك مع اني لا احب ان اختار مصراً على مصري وعشيرة على عشيرتي . ثم دخل في صف مصعب [2] .

ولقد عسكر عبد الملك بجيوشه في اول الامر في مسكنه كما قلنا فنصح بعض رجال مصعب صاحبهم ان يسرع الى لقائه خارج العراق تفادياً من الخذل والغدر ففعل . وتدانى الطرفان عند دير الجاثليق واخذت تدور بينهما اشتباكات ضارية . وقد قتل ابراهيم بن الاشتر وكان من اقوى رجاله ، وهرب قائد خيله فاضطرب جيشه ودب فيه الفوضى والخذلان ، وصار يأمر الناس بالتقدم والجد فيتلكأون ، فقال لابنه اذهب الى عمك بمكة فأخبره ما صنع اهل العراق ودعني فاني مقتول فقال له والله لا افارقك . ولكن ان اردت فالحق بالبصرة او بأمير المؤمنين فقال مصعب والله لا تتحدث قريش اني فررت ولكن اقاتل فان قتلت فلعمري ما السيف بعار وما الفرار لي بخلق . ولقد ارسل عبد الملك اخاه محمداً الى مصعب يطلب منه الكف ويعطيه الأمان فقال له مصعب ان مثلي لا ينصرف من

---

(١) المصدر السابق ص ٦ – ٧ .

(٢) ج ٤ ص ٥٧٣ .

هذا الموقف الا غالباً او مغلوباً ، ونادى محمد عيسى ابن مصعب يا ابن اخي لا تقتل نفسك فلك الامان فقال له ابوه قد آمنك عمك فامض إليه فقال لا تتحدث نساء قريش اني اسلمتك للقتل فقال له فتقدم بين يدي احتسبك فتقدم فقاتل حتى قتل،وظل مصعب يقاتل حتى اثخن بالجراح وسقط فنزل اليه رجل فاحتز رأسه وجاء به فطرحه امام عبد الملك وانشد :

نطيع ملوك الارض ما قسطوا لنا وليس علينـــا قتلهم بمحـــرم

فسجد لله شكرا ، ثم نظر الى الرأس فقال متى تغدو قريش مثلك ! والله لقـد كانت بيننا حرمة قديمة . ولكن هذا الملك عقيم . ثم انشد :

من يذق الحرب يجد طعمها مرأ وتتركـــه بجعجاع

ومما يروى [1] ان شاعراً اموي الهوى هو ابو العباس الاعمى رثى مصعباً فعاتبه عبدالملك فقال له انما رثيته لأنه كان صديقي وقد علمت ان هواي اموي فقال صدقت فانشدني قولك فيه فانشده :

رحـــم الله مصعباً فلقـــد مات كريماً ورام امراً جسيما

فقال عبد الملك اجل لقد مات كريماً ولكنه رام التي لا وما من الناس الا كل حر معمم .

وقد قتل على نهر يقال له الدجيل عند دير الجاثليق . ودفن هناك هو وابنه . وكان عمره لما قتل ٣٦ سنة [2] .

ثم دخل عبد الملك الكوفة فبايعه اهلها وتبعهم سائر اهل العراق . وعين اخـــاه بشرا

---

(١) تاريخ اداب اللغة العربية زيدان ج ١ ص ٢٦٨ .

(٢) ابن الاثير ج ٤ ص ١٢٩ .

والياً على الكوفة وخالداً بن عبد الله والياً على البصرة ووزع الاموال والجوائز على الناس وعاد الى دمشق .

وهكذا عاد العراق الى السلطان الاموي بعد انفصال دام نحو عشر سنين .

ولقد اثر عن الاقشر الاسدي هذا الرثاء في مصعب الذي تواترت الروايات عن بأسه وشجاعته وانفته [1] :

حمى انفه ان يقبل الضيم مصعب	فمات كريماً لم تذم خلائقه
ولوشاءاعطى الضيم من رام هضمه	فعاش ملوماً في الرجال طرائقه
ولكن مضى والبرق يبرق خاله	يشاوره مرا ومراً يعانقه
فولى كريماً لم تنله مذمة	ولم يك رغداً تطبيه نمارقه

ولما بلغ عبد الله بن الزبير مقتل اخيه ترحم عليه ونعت اهل العراق بالغدر والنفاق وقال إنهم باعوه بأقل الثمن ثم قال ولئن اصبت بمصعب لقد اصبت بالزبير قبله . وان يقتل فانا والله ما نموت على مضاجعنا كما يموت بنو ابي العاص . وما نموت الا قصعاً بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف . ألا انما الدنيا عارية من الملك الاعلى الذي لا يزول سلطانه ولا يبيد ملكه فان تقبل لا آخذها اخذ الاشر البطر وان تدبر لا أبك عليها بكاء الخرق المهين [2] .

ولقد جهز عبد الملك بعد عودته جيشاً وسيره الى ابن الزبير بقيادة الحجاج بن يوسف فسار في اواخر سنة ٧٢ فنزل بالطائف وكان يبعث منها بالبعوث في الحل ـ أي في غير الاشهر الحرم ـ الى عرفة ويبعث ابن الزبير ببعوثه فيقتتل الفريقان وكان النصر دائماً حليفاً لبعوث الحجاج . ثم استأذن عبد الملك بحصار مكة ودخول الحرم على ابن الزبير وطلب منه مدداً

---

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ١٢٩ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ١٤ .

فأذن له وأرسل اليه مدداً فضرب الحصار على ابن الزبير حتى لم يستطع ان يقف هو وجماعته في عرفة . واقام الحجاج الحج للناس ثم نصب على مكة المجانيق . وكان هـو اول من رمى حجراً ليشجع غيره على الرمي .

ومما يرويه الطبري [1] ان الدنيا ارعدت بعد رمي الحجارة على مكة واصابة الكعبة ببعضها وقتلت الصواعق ١٢ رجلا من جند الحجاج فذعر الجند الشامي . فقال لهم الحجاج يا اهل الشام اني ابن تهامة فلا تنكروا ما رأيتم فانها صواعقها وهذا الفتح قد حضر فابشروا ولما ادرك ان الخناق قد ضاق على اهل مكة اعلن الأمان لمن يخرج اليه فصاروا يخرجون بالآلاف حتى روي ان حمزه وخبيب ابني عبد الله بن الزبير كانا من جملة من خرج واخذ أماناً [2] .

ومما روي ان عبد الله جمع القرشيين وسألهم مـاذا ترون فقال رجل من بني مخزوم والله لقد قاتلنا معك وصبرنا ما نجد مقاتلا برغم انك لم تف لنا [3] . وقد صار الحال الى ما صار .

---

(١) ج ٥ ص ٣٠ وابن الاثير ج ٤ ص ١٣٩ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٣٠ .

(٣) الراجح ان المقصود بعدم الوفاء عدم الاغداق عليهم في العطاء . والمأثور عن عبد الله بن الزبير انه شحيح بخيل .

وقد جاء وصفه بهذا على لسان عبد الملك بن مروان على ما ذكرناه في سيرته . وقد روى هـذا المسعودي وروى في صدده شعراً لمولى له اسمه ابو حرة جاء فيه :

ان المـوالي امست وهي عاتبـة — على الخليفة تشكو الجوع والحربا
ماذا علينـا وماذا كان يرزؤنا — اي الملوك على مـا حولنا غلبا

ثم فارقه وقال بعد فراقه:

ما زال في سورة الاعراف يقرؤها — حتى فؤادي مثـل الخز في اللين
لو كان بطنك شبراً قد شبعت وقد — اقفلت فضـلا كبيراً للمساكين
ان امرأ كنت مـولاه فضيعني — يرجو الفلاح لعمري حق مغبون

مروج الذهب ج ٣ ص ٢٣

فأنت امام خصلتين اما ان تأذن لنا فنأخذ الامان لأنفسنا ولك واما ان تخرج فنأخـــذه لأنفسنا ، وقال رجل آخر اكتب الى عبد الملك فقال كنت اكتب له من عبد الله ابي بكر أمير المؤمنين الى عبد الملك ، فكيف اكتب له من عبد الله بن الزبير الى عبد الملك امـير المؤمنين ، فوالله لأن تقع الخضراء على الغبراء احب إلي من ذلك ، وقــال له اخوه عروة قد جعل الله لك يا امير المؤمنين اسوة ، فقال ومن هو قال الحسن بن علي بن ابي طالب خلع نفسه وبايع معاوية فرفع عبد الله رجله وضرب عروة حتى القاه ثم قال له قلبي اذاً مثل قلبك. والله لو قبلت ما تقولون ما عشت الا قليلا . وقد اخذت الدنية ، وما ضربة بسيف الا مثل ضربة بسوط . ولا اقبل شيئاً مما تقولون .

ولما يئس ابن الزبير من الحالة دخل على امه اسماء بنت ابي بكر فقال يا امـــه خذلني الناس حتى ولدي واهلي ، فلم يبق معي الا اليسير ممن ليس عنده من الدفع اكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما اردت من الدنيا ، فقالت انت والله يا بني اعلم بنفسك . ان كنت تعلم انك على حق وإليه تدعو فامض له . فقد قتل عليه اصحابك ولا تمكن مـــن رقبتك يتلعب بها غلمان بني امية ، وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد انت ، اهلكت نفسك واهلكت من قتل معك ، وان قلت كنت على حق فلما وهن اصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الاحرار ولا اهل الدين وكم خلودك في الدنيا ، القتل احسن ، فدنا منها فقبـــل رأسها وقال هذا والله رأيي ، والذي قمت به داعياً الى يومي هذا ، ما ركنت الى الدنيا ولا احببت الحياة فيها وما دعاني الى الخروج الا الغضب لله ان يستحل حرمـه ولكنني احببت ان اعلم رأيك فزدتني بصيرة مع بصيرتي ، واني مقتول من يومي هـــذا فلا يشتد حزنك وسلمي الامر لله فان ابنك لم يتعمد اتيان منكر ولا عملا بفاحشة . ولم يجر في حكم الله ولم يغدر في أمان . ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به ، ولم يكن شيء آثر عندي من رضى ربي . اللهم اني لا اقول هذا تزكية مني لنفسي فأنت اعلم بي ولكن اقوله تسلية وعزاء لامي فقالت امه اني لأرجو من الله ان يكون عزائي فيك حسناً ان تقدمتني او تقدمتك ، فقال لها لا تدعي الدعاء لي فقالت لا ادعه ابداً . فمن قتـــل على باطل فقد قتلت على حق ثم قالت اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل وذلك النحيب والظمأ

وبره بأبيه وبي اللهم قد سلمته لامرك ، ورضيت بما قضيت ، فلما ازمع على الخروج دخل عليها يودعها فلما عانقها احست بدرعه فقالت ما هذا صنيع من يريد ما تريد فقال ما لبسته الا لأشد منك قالت فانه لا يشد مني ، فنزعه ثم ادرج كميه وشد أسفل قميصه وجبة خز تحت القميص فأدخل اسفلها في المنطقة ثم انصرف وهو يقول :

اني اذا اعرف يومي اصبر   اذ بعضهم يعرف ثم ينكر

فسمعته امه فقالت تصبر والله ان شاء الله . ابوك ابو بكر والزبير وامك صفية بنت عبد الملك .

ولقد اخذ الحجاج عليه الابواب فبات ليلته الاخيرة يصلي ثم احتبى بحمائل سيفه فأغفى ثم انتبه بالفجر فتوضأ وصلى ثم قال لمن بقي حوله من خاصته وذويه صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ولا يرعكم وقع السيوف وليشغل كل امرىء قرنه ولا يلهينكم السؤال عني فاني في الرعيل الاول وانشد :

أبي لابن سلمى انه غير خالد   ملاقي المنايا اي صرف تيمما
فلست بمبتاع الحياة بسبة   ولا مرتق من خشية الموت سلما

ثم قال احملوا على بركة الله فحملوا وحمل معهم حتى بلغ معهم الحجون فرمي بآجرة في وجهه فأرعش لها ودمي وجهه فلما وجد سخونة الدم قال :

لسنا على الاعقاب تدمى كلومنا   ولكن على اقدامنا تقطر الدما

وتغاووا عليه حتى هوى ميتاً ، وجاء الخبر الى الحجاج فسجد لله شكراً وامر باجتزاز رأسه فأرسله الى عبد الملك ثم دخل مكة فأخذ البيعة مجددا من اهلها ، فكان ذلك نهاية هذه الحركة ، وكان يوم ابن الزبير الاخير هو السابع عشر من جمادى الاولى من سنه

٧٣ هـ وكان عمره ٧٢ سنة ، وقد دامت خلافته نحو تسع سنين [١] .

ولقد روى ابن كثير عن ابن عساكر ان الحجاج خطب الناس يوم قتل ابن الزبير فقال ان ابن الزبير كان من خيار هذه الامة حتى رغب في الخلافة ونازعها اهلها وألحد في الحرم فاذاقه الله من عذابه الاليم . وان آدم كان اكرم على الله من ابن الزبير وكان في الجنة وهي اشرف من مكة فلما خالف امر الله واكل من الشجرة التي نهي عنها اخرجه الله من الجنة.

كذلك مما رواه ان الحجاج صلب جثة ابن الزبير على ثنية كدا عند الحجون وظلت مصلوبة أياماً حتى مر بها عبد الله بن عمر فقال رحمة الله عليك يا اباخبيب، أما والله لقد كنت صواماً قواماً ، ثم قال اماآن لهذا الراكب ان ينزل ، فبعث الحجاج فانزلت الجثة ودفنت [٢].

ومن عجيب ما يرويه ابن الاثير ونحن نعتقد بعدم صحته ان ابن الزبير بقي اياماً يستعمل الصبر والمسك قبل قتله لئلا ينتن فلما صلبه الحجاج ظهرت منه رائحة المسك فقيل ان الحجاج صلب معه كلباً او سنوراً ميتاً لتغلب رائحة نتنه على ريح المسك! [٣] كذلك من عجيب ما يرويه وهو غير صحيح فيما نعتقد ان الحجاج القى بجثة ابن الزبير في مقابر اليهود [٤] .

ولقد روى هذا المؤرخ في الوقت نفسه ان عروة بن الزبير جاء الى عبد الملك بعد مقتل اخيه واستوهب جثته لامه فكتب بذلك الى الحجاج [٥] .

---

(١) سياق توجه الحجاج وحصار مكة وقتل ابن الزبير مقتبس من الطبري ج ٥ ص ٢٣-٣٥ انظر ايضاً الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص٢٨-٢٩ وابن الاثير ج ٤ ص١٣٥-١٤٠ .

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣١-٢٣٢ .

(٣-٥) تاريخ ابن الاثير ج ٤ ص ١٣٨-١٣٩ .

ومما جاء في سياق هذه الرواية ان الحجاج كتب الى عبد الملك ان عروة اخذ من مال الله الذي كان عند اخيه وهرب فكتب عبد الملك اليه بل انه جاءني مبايعاً فأمنته وحللته مما كان منه ثم وصاه به .

ومن باب الروايات التي لا يمكن ان تصدق ما رواه ابن الاثير ان الحجاج ضرب ظهر قدم عبد الله بن عمر بزج رمح مسموم فمات منها وكان ذلك بعد قتل ابن الزبير بثلاثة اشهر وكان عمر ابن عمر سبعاً وثمانين سنة [1] .

ومن ذلك انه قدم الى المدينة بعد ان عينه عبد الملك والياً على الحجاز فأقام بها شهراً او شهرين فأساء الى اهلها وقال لهم انتم قتلة امير المؤمنين عثمان ، وختم على أيدي جماعة من الصحابة بالرصاص منهم جابر بن عبد الله وانس بن مالك وسهل بن سعد ، وانه لما خرج منها قال الحمد لله الذي اخرجني من بلد نتن اهلها اخبث بلد وأغشه لأمير المؤمنين واحسدهم له على نعمة الله والله لو ما كانت تأتيني كتب امير المؤمنين فيهم لجعلتها مثل جوف الحمار ، اعواد يعودون بها ورمة قد بليت يقولون منبر رسول الله وقبر رسول الله [2] .

ولقد نقض الحجاج بناء الكعبة الذي بناه ابن الزبير واعادها الى ما كانت عليه في زمن النبي ﷺ [3] .

وعلى كل حال فالواضح مما تقدم من قصة ابن الزبير انه خلع يزيد بن معاوية الذي كانت الامامة الشرعية منعقدة له ، واخذ البيعة لنفسه . وهذا وذاك مما يدخل في نطاق النهي والوعيد والتوجيه الذي تضمنته الأحاديث النبوية التي اوردناها في اول فصل المعكرات . ولا يبرر ذلك كونه لم يبايع يزيد ، فهو فرد لا يجوز له ان يخرج على جماعة المسلمين وامامهم الشرعي او يدعو الى ذلك . وما ساقه في سبيل ذلك من كونه خرج على الظلم غضباً لله

(١-٢) تاريخ ابن الاثير ج ٤ ص ١٣٩ .

(٣) الطبري ج ٤ ص ٣٥ .

ولكتابه وسنة رسوله هو من قبيل التبرير وليس فيه حجة في نطاق التوجيه النبوي المنطوي في الاحاديث المذكورة .

ولقد كان يبيت النية على الخروج على ما يدل عليه كلام ابن عباس له الذي اوردناه قبل وامتناعه عن البيعة ليزيد بولايه العهد اولا ثم بالخلافة ، ولم يكن ظهر من يزيد ما فيه عصيان لله ورسوله وانحراف عن مصلحة المسلمين حتى يكون ذلك التبرير في محله .

ويقول ابن كثير [1] ان بن حزم وطائفة من المسلمين يعتبرون إمامته شرعية وينعتونه بأمير المؤمنين ، وقد يكون لهذا وجه لو كان خروجه واخذه البيعة لنفسه بعد موت يزيد وتنازل ابنه معاوية الذي كانت له البيعة في رقاب المسلمين . ولكن الذي لا خلاف فيه انه خلع يزيد وجهر لنفسه في حياته ، ولعلهم اعتبروها كذلك لأن اكثر الذين بايعوه قد بايعوه بعد موت يزيد وتنازل ابنه اي في حين كانت الامامة الشرعية شاغرة . غير ان هذا لا يغطي كونه قد خرج ودعا لنفسه في حياة الامام الشرعي كما قلنا . ولا يجعله من اجل ذلك خارجاً عن شمول الاحاديث النبوية .

ولقد روى ابن كثير [2] انه بعث الى محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر ليبايعوه فأبوا ، وفي هذا ان صح ولا مانع من صحته لانه متسق مع مواقفهم تأييد لما نقرره ، وقد كان الثلاثة ممن بايعوا يزيد .

ولقد روى الطبري [3] ان ابن الزبير حبس بن الحنفية ومن معه من اهل بيته وسبعة عشر رجلا من وجوه الكوفة بزمزم لانهم ابوا البيعة له وتوعدهم بالقتل والاحراق واعطى الله عهداً ان لم يبايعوا ان ينفذ فيهم ما توعدهم به وضرب لهم اجلا . وكان ذلك سنة ٦٦ فأرسل ابن الحنفية الى المختار بن ابي عبيد الثقفي يعلمه بحاله فندب هذا عدداً من أهل النجدة والبأس فذهبوا الى مكة بقيادة ابي عبد الله الجدلي والتمسوا اولا من ابن الزبير اخلاء سبيلهم فأبى واصر على وجوب مبايعته فهددوه فخافهم وافرج عن المسجونين . وفي هذا توكيد آخر لما نقرره.

(١-٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٨ . (٣) ج ٤ ص ٥٤٤-٥٤٥ .

٩ - حركة عبد الله بن خازم

وابنه موسى في خراسان وما وراءها

●

هذه الحركة ذيل مـــن ذيول حركة ابن الزبير وفراغ العرش الاموي ثم تطورت حتى صارت فتنة دامية .

وكان بدؤها ان سلماً بن زياد والي خراسان لما مات يزيد بن معاوية وتنازل ابنه دعا الناس الى البيعة على الرضا حتى يستقيم الناس عـــلى خليفة فبايعوه ثم تنكروا له ونكثوا البيعة فخرج من خراسان تلافياً للفتنة واستخلف المهلب بن ابي صفرة . فلقيه عبد الله بن خازم السلمي في نيسابور الذي يظهر انه كان من مشاهير رجال العرب في بلاد العجم او من قواد الجند الكبار فسأله من وليت خراسان فقال له المهلب فقال اما وجدت في مضر رجلا تستعمله (والمهلب كان ازدياً يمانياً) اكتب لي عهداً على خراسان وخلاك ذم فكتب له وبلغ الخبر المهلب فترك خراسان وخلف عليها رجلا من جشم بن سعد بن زيد بن مناة فلما وصل ابن خازم منعه هذا فكانت بينهما مناوشة فضربه ابن خازم ثم تقدم نحو خراسان فغلب عليها . والتف حوله المضريون . وتصدى له بنو مرشد اليمانيون في مرو والطالقان فقاتلهم وانتصر عليهم ووطد سلطانه على هذه الانحاء . ثم وطده عـلى هراة ، وحاول اليمانيون بسعي بني تميم تجميع عصبياتهم وقتال ابن خازم ولكنهم لم ينالوا منه منالا ، وظل طول سنتي ٦٥و٦٦ مستقلا في الحكم متمكناً فيه يقاتل الترك والعجم وينتصر عليهم .

ولما صفا السلطان لعبد الله بن الزبير في العراق بعـــد الحجاز سنة ٦٧ دخل في بيعته شكلا وظل كذلك الى ان انتصر عبد الملك على ابن الزبير في العراق ثم في الحجاز فكتب له يدعوه الى الدخول في طاعته على ان يبقي والياً في خراسان وتكون طعمة له عشر سنين او سبع سنين حسب اختلاف الروايات .

والمتبادر من العرض ان لا تحاسبه الدولة عن ما يدخل في يده من موارد البلاد فينفق منها على ما يحتاج اليه الجند والعمال والمرافق الاخرى ويكون ما يبقى بعد ذلك له خاصة.

وفي هذا صورة من صور الحكم في عهد الدولةالاموية وتكررت اكثر من مرةوبالنسبة لاكثر من وال اما برضاء الخليفة وموافقته واما بفرض الامر من قبل الوالي بسبب قرابته او نفوذه او عصبيته او بلائه مما مر بعض الامثلة له في النبذ السابقة .

وقد ارسل عبد الملك الى ابن خازم رأس عبد الله بن الزبير ليجعله يستيقن من مصير خليفته على ما جاء في الرواية وقد دعا ابن خازم بطست فغسل الرأس وحنطه وكفنه وصلى عليه وبعث به الى اهله في المدينة . وقال للرسول الذي حمل اليـــه الكتاب والرأس لولا خوفي من التضريب بين بني سليم وبني عامر — وابن خازم من سليم والرسول من بني عامر — ولولا انك رسول لقتلتك ولكن كل كتاب ابي الذبان — وهذه كنية غمز لعبد الملك — فأجبره على اكل الكتاب وفي رواية قطع يديه ورجليه ثم ضرب عنقه .

ولما بلغ خبر ما فعله ابن خازم عبد الملك كتب الى بكير بن وشاح السعدي وكان على شرطة ابن خازم او نائبه في مرو كتاباً يعينه فيه والياً عـــلى خراسان ويعده ويمنيه ويطلب منه الوثوب على ابن خازم وكان هذا في خارج مرو فاستجاب بكير واعلن خلع ابن خازم .

وكان لابن خازم ابن اسمه موسى يتولى الترمذ من قبله فاستدعاه مع من عنده مـــن الجند فسارع الى نجدة ابيه وسار جند الاب والابن معاً نحو مرو وجمع بكير جند خراسان الذين انضووا اليه ، وكان بنو تميم وهم عصبة بكير اكثرهم حماسة واقبالا ، واشتبك الطرفان

في قتال شديد ودارت الدائرة على ابن خازم وقتل مع عدد كبير من جماعته ، وامر بكير باحتزاز رأسه وارسله الى عبد الملك .

ولم تقف هذه الحركة عندهذاالحد . فان ابن خازم احتاط لأمواله واثقاله حينما اعلن بكير فأمر ابنه موسى ان يهربها عبر نهر بلخ . فلما دارت دائرة القتال عليه استطاع ابنه مع جماعة من رجاله الافلات فعبر نهر بلخ . وضوى اليه اناس كثيرون . وطلب من امير بخارى ان يقبل ببقائه في اقليمه لاجئاً مع جماعاته الذين كان عددهم سبعمائة فاعتذر تفادياً من الاصطدام مع والي خراسان والدولة من ورائه فنزل على دهقان نوقان فاستثقله وطلب منــه الرحيل فرحل الى سمرقند فأقام عند ملكها طرخون مدة ثم طلب منه الخروج . وحينئذ انقلب مع اصحابه الى عصابة فاتكة مستميتة وتغلب على بلاد الترمذ واتخذها معصماً له وصار يغير على بلاد الترك ويحاربهم وانضم اليه جماعات من فلول جيش عبد الرحمن بن الاشعث الذي سوف نشرح حركته في نبذة اخرى فازداد قوة وتمكناً وصار مرهوب الجانب من قبل الترك وولاة خراسان معاً وتحاشوا الاشتباك معه ، وظل امره مكيناً قوياً الى سنة ٨٥هـ يغازي وينهب ويسبي ، كيف شاء . وفي هــذه السنة اتفق امراء الترك مع امراء العرب في خراسان والانحاء الاخرى عليه بسبب اشتداد اذاه وفتكه وتولى المفضل بن المهلب الذي صارت إليه ولاية خراسان امر نضاله واخذ يتصاول معه ويقتل ويأسر من قدر عليه من رجاله حتى قل عددهم وتمكن في النهاية من الظفر به وقتله (١) .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٠ ٤–٢٢٦ و ج ٥ ص ١٩٥–٢٠٦ وتاريخ اليعقوبي ج٢ص٢٧١ .

١٠ ــ تمرد عبد الرحمن بن الاشعث الكندي

واستطراد الى ترجمة الحجاج [١]

●

كانت هذه الحركة من اشد الحركات عنفاً وخطورة . وقد استنفدت من الدولة جهداً كبيراً بل كادت ان تعصف بها واريق في سبيلها كثير من الدماء وشغلت ببعض احداثها المؤرخين وكانت وسيلة لتسويء سيرة الحجاج وتهويلها .

ولقد روي في صددها روايات كثيرة فيها تناقض وتضارب ويلمح في بعضها غرابة ومبالغة بل وخيال . واكثر الكتب استيعاباً لها الجزء الخامس من تاريخ الطبري ، وفي الامامة والسياسة ومروج الذهب روايات لم ترد في هذا الجزء وفيها روايات تتفق مع ما ورد فيه واخرى لا تتفق .

ولقد بدأت هذه الحركة في سجستان من بلاد العجم . وكان موجهاً ضد الحجاج والي العراق الذي كانت سجستان في نطاق حكمه . ثم اتسع حتى صار ضد الخليفة والدولة .

---

(١) هذه النبذة مقتبسة من الطبري ج ٥ ص ١٤٠ـ١٩٤ والامامة والسياسة ج ٢ ص ٣٤ـ٥٠ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٧٠ وبعدها والعقد الفريد ج ٣ ص ٢٣٨ـ٢٦٤ ومروج الذهب ج ٣ ص ٦٧ـ١١١ وابن الاثير ج ٤ ص ١٧٤ـ١٩٠ والبداية والنهاية ج ٩ ص ١١٧ـ١٤٠ .

والروايات مختلفة في سبب توجيه الحجاج لابن الاشعث الى سجستان . فمنها ما يذكر ان واليها اعلن عصيانه فأرسله لتأديبه والحلول محله . ومنها ما يذكر انه سيره للتنكيل برتبيل ملك الترك الذي مكر بالمسلمين وغدر بهم حتى انزل بهم كارثة مروعة .

وقد اوردنا خبر هذا المكر والغدر في نبذة حركة الفتوح والمصاولات في ما وراء النهر وبلاد الترك ، وسياق الاحداث يجعل هذه الرواية مقبولة اكثر حيث روى معها أن الحجاج جهز لابن الاشعث جيشاً مؤلفاً من (٢٠٠٠٠) من اهل البصرة ومثلها من اهل الكوفة وحرص على ان يكونوا من ذوي الشجاعة والحماسة وانفق عليه الفي الف واعطى افراده اعطياتهم تامة . حتى لقد سمي هذا الجيش بجيش الطواويس لحسن سمت أفراده وعدته .

ولقد روى الطبري ان الحجاج كان يبغض ابن الاشعث لخيلائه وزهوه ويقول انه ما رآه قط الا اراد قتله وانه قال للشعبي احد فقهاء البصرة (انظر إلى مشيته . والله لهممت ان اضرب عنقه) وان الشعبي اخبر ابن الاشعث بما قاله الحجاج بعد ان اخذ عهداً بالكتمان فقال (وانا كما زعم الحجاج ان لم احاول ان ازيله عن سلطانه ، ولسوف اجهد الجهد اذا طال بي وبه البقاء) وان عم ابن الاشعث جاء الى الحجاج حين عين ابن اخيه قائداً للجيش ووالياً فقال له لا تبعثه فاني اخاف خلافه . (اي تمرده) والله ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطاناً) فقال له (ليس هناك هو لي اهيب وفي ارغب من ان يخالف امري او يخرج عن طاعتي) .

ولقد روى ابن قتيبة ان الحجاج كان يلمح من ابن الاشعث زهواً او شموخاً وانه قال له انك لتقبل بوجه فاجر وتدبر بقفا غادر واني مبتليك لاعرف حقيقة امرك ثم عينه والياً على سجستان .

والروايات عجيبة لا تكاد تصدق ، فلا يعقل ان يعين الحجاج هذا الرجل وهو يبغضه ويتوقع منه الغدر ويسلمه قيادة جيش عرمرم من اهل العراق الذين يعرف نفسيتهم معرفة تامة . وكل ما يمكن ان يصح ان تكون هذه الروايات تنطوي على ذكرى ما كان عليه

ابن الاشعث من اعتداد وقوة شخصية . وسبكت في الصورة التي رويت بها بعد الاحداث .

ولقد سار ابن الاشعث الى سجستان عام ٨٠ هـ ومن هناك استعد لدخول ارض رتبيل . وارسل هذا اليه كتاباً او رسلا يعتذر عما وقع على المسلمين ويتنصل ويسأل تجديد الصلح . فلم يقبل ولم يرفض وانما اتجه نحو بلاده حتى دخلها ، واخذ رتبيل ينسحب من امامه .

وكان ابن الاشعث كلما انسحب رتبيل من بلد احتله وعين له العمال واقام فيه الحاميات حتى اذا حاز ارضاً عظيمة وملأ يديه بالغنائم حبس الناس وقال نكتفي بما اصبناه هذا العام حتى نعرفه ونجنيه ويتعود المسلمون عليه ثم نتعاطى في العام المقبل ونظل كذلك حتى نأتي على آخر البلاد والكنوز .

وكتب للحجاج بما فتح الله وبما تم رأيه عليه ، فأجابه بجواب فيه تسفيه لرأيه وتنديد به وتهمته بالجبن وتشديد على وجوب الوغول في ارض رتبيل ، فجمع رؤساء الجيش واخبرهم بجواب الحجاج وقال لهم انما انا رجل منكم امضي اذا مضيتم وآبى اذا ابيتم فصاحوا بل نأبى على عدو الله (يعنون الحجاج) فلا نسمع ولا نطيع وهتف احدهم قائلا اخلعوه وبايعوا عبد الرحمن فارتفعت الاصوات من كل جانب قد فعلنا وخلعنا عدو الله ثم وثبوا فبايعوا ابن الاشعث على الجهاد معه حتى ينفي الله الحجاج من ارض العراق .

وقد ارسل ابن الاشعث الى الحجاج رسالة فيها تنديد ببغيه وظلمه وانحرافه واعلان بأن الله قد أنهضه لمصاولته ، ثم ارسل الى رتبيل فصالحه على ان يكون معفواً من الخراج ان ظفروا على ان يقبله لاجئاً في بلاده ويحميه ان هزم واتجه بجيشه نحو العراق .

وكان كلما مر ببلد انضم اليه جماعة من حامياتها ، ولما دخلوا اقليم فارس قالوا انا اذا خلعنا الحجاج عامل عبد الملك فقد خلعنا عبد الملك ، وحينئذ اتفقوا على خلع عبدالملك ايضاً .

وهناك رواية تذكر ان هذا جرى بعد وقعة البصرة الاولى التي انتصر فيها جيش ابن الاشعث على ما سوف يأتي بعد ، ولعل هذا هو الاصح ، هذا مع ما يحيك في الصدر

من شك واستغراب لانفجار جيش ابن الاشعث وقد اغدق الحجاج عليه الاموال والجهاز والرعاية التامة .

ولم يرو ابن قتيبة قصة غزو ابن الاشعث لارض رتبيل وانما ذكر انه كان يبيت النيةعلى خلع الحجاج منذ خروجه من العراق وانه بعد وصوله الى سجستان كتب للحجاج كتاباً يندد به فيه ويعلن خلعه ويتوعده بالمسير اليه .

والذي يتبادر لنا انه المعقول ان الحركة انبثقت في نفس ابن الاشعث حينما رأى نفسه قائداً لجيش عرمرم ، ولقد كان الجيش عراقياً. وكان العراق قد اثبت اسراعه في الاستجابة إلى كل دعوة وتقلبه مع اصحابها فكان ذلك مما قوى عزيمة ابن الاشعث على حركته وهيأ له استجابتها حين دعا الجيش اليها.

ولقد اورد ابن قتيبة نص الرسالة التي ارسلها ابن الاشعث بخلع الحجاج واعلانه عزيمته على مناضلته والتنديد بافعاله الباغية ونص خطبة خطبها الحجاج حينما استلم الرسالة وفيها تنديد بأهل العراق لمسارعتهم الى الفتنة كلما دعا داع اليها وتذكير بمواقفهم المشينة ووعيد شديد لهم وهتاف بجند الشام للاستعداد للموقف ونص رسالة جوابية ارسلها الى ابن الاشعث يذكر فيها اخلاقه ويندد بها ويتوعده توعداً شديداً .

والنصوص تدل على ان الحركة انبثقت من ابن الاشعث وان المطمع الشخصي كان حافزاً قوياً عليها .

ومما رواه الطبري ان المهلب بن ابي صفرة الذي كان يتولى قيادة الحرب في خراسان كتب لابن الاشعث ينصحه ويخوفه من عواقب الفتنة وسفك الدم الحرام حيث ينطوي في هذا ـ وصحته محتملة جداً ـ أن المهلب لمح ايضاً انه الاصل المحرك للفتنة وان غايتها تحقيق مطمح شخصي .

ولقد روى ابن الاثير ان جماعات كثيرة من الموالي قد انضموا الى حركة ابن الاشعث

ودخلوا في بيعته حيث يبدو انهم رأوها فرصة لتفريج غيظهم من العرب .

ولقد كتب الحجاج الى عبد الملك بخبر التمرد وطلب منه مدداً لان جل جند العراق كان مع ابن الاشعث ولم يكن من عنده منهم مأموناً على ما هو المتبادر فارتاع عبد الملك من الخبر وقال ان اهل العراق استعجلوا قدري . اللهم سلط عليهم اهـل الشام حتى يبلغوا رضاك ، فاذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا الى سخطك ، ثم اخذ يرسل اليه المدد بعد المدد .

ولقد كتب المهلب الى الحجاج ينصحه بالبقـاء في العراق لان الزحف المتمرد كالسيل المنحدر لا يرده شيء حتى ينتهي الى قراره ، فاذا بلغوا اهلهم واولادهم سقطوا اليهـم فتكون موافقتهم حينئذ مجدية.

ولكن الحجاج لم يأخذ بهذا الرأي وفضل ارسال الجيش للقاء الزحف قبل ان يدخـل العراق ، وفعل . والتقى الجيشان فدارت الدائرة على جيش الحجاج وانهزم واستمر الزحف حتى البصرة ، وتمكن من دخولها فأقبل اهلها على مبايعة ابن الاشعث وبايعه فيمن بايعـه كثير ممن كان فيها من علماء وقراء وفقهاء[1] وكان ذلك في ذي الحجة سنة ٨١ هـ .

وجمع الحجاج فلول جيشه وعسكر بهم خارج البصرة . ثم اخذت الاشتباكات تقع بين الجيشين ثانية في مكان يعرف بالزاوية فدارت الدائرة على جيشه للمرة الثانية . وجمع الحجاج شمل جيشه وعاود الاشتباك مع الجيش المتمرد في نفس المنطقة . وكادت الدائرة تدور للمرة الثالثة عليه ، لولا انه جثا في اللحظة الاخيرة على ركبتيه وانتضى نحو شبر من سيفه وقال لله در مصعب ما كان اكرمه حين نزل به ما نزل . فاشتد حماس الجنـد الشامي على اثر ذلك واستبسلوا فدارت الدائرة هذه المرة على جيش ابن الاشعث .

غير ان الكسرة لم تكن حاسمة ، واستطاع ابن الاشعث ان يجمع شمل جيشه . ثم اتجه

---

(١) مما رواه ابن الاثير انه كان للقراء كتيبة تحارب مع ابن الاشعث ج ٤ ص ١٨٣ .

مزبد يهـــدر مــــا لم يرني	فاذا اسمعته صوتي انقمـــع
ويحييني اذا لاقيتـــه	واذا يخـــلو له لحمي رتـــع
ورث البغضاء عـن والـــده	حافظاً منه الذي كان استمع
ولساني صيرفي صارم	كذباب السيف مامس قطـع

ولقد استطاع ابن الاشعث ان يفلت فاتجه نحو سجستان مع شراذم من جموعه . ومنها انتقل الى ارض رتبيل الذي رحب به لاجئاً حسب اتفاقه معه سابقاً والذي هدد حاكم بست إذا لم يسمح له بالانتقال اليه حينما علم بقدومه .

وقد اكرمـــه وعظمه واخذت تتابـع اليـــه فلول جموعـــه حتى بلغـــوا ستين الفاً على ما يرويه الطبري . وهو على كل حال ينطوي على ذكرى كثرة ما التحق به منهم . وقد حرضوه على احتلال خراسان والمناداة بسلطانه عليها ثم السير مرة اخرى لقتال الحجاج وعبد الملك ، وكان واليها حينئذ يزيد بن المهلب . فتفادى ابن الاشعث الاصطدام معـــه لانه يماني مثله وهو نضو له ان لم يفقه في قوة الشخصية والبسالة واكتفى باحتلال هراة احدى مدن خراسان . ولكنه لم يلبث ان اصطدم معه لانه كان يتحرك في منطقة هراة ويجبيها وهي في نطاق حكمه . وقد سير عليهم جيشاً انتصر عليهم وقتل واسر كثيراً منهـــم .

وارسل الاسرى الى الحجاج ، وهرب ابن الاشعث الى رتبيل ثانية ، فأرسل الحجاج الى هذا يهدده ويتوعده ان لم يسلمه اليه او يرسل رأسه ووعده باعفائه من الخراج تسع سنين ان هو فعل ، وتردد في اول الامر فتوالت عليه رسائل الحجاج بالوعيد واخذت جيوش خراسان وسجستان تتحرك نحوه بأمره . فخاف وبيت النية على تسليمه ، وشعر ابن الاشعث بذلك فألقى بنفسه من سطح عال فتحطم وهلك . وكان ذلك في سنة ٨٤ او ٨٥ هـ .

وهكذا انتهت حياة هذا الرجل القوي الطموح . ولقد روى الطبري ان عامل كرمان قال له حينما جاء اليها مهزوما بلغنا انك كنت جباناً فقال (والله ما جبنت ، والله لقـــد دلفت الرجال بالرجال ، ولففت الخيل بالخيل ، ولقد قاتلت فارساً وقاتلت راجلا . ومـا انهزمت ولا تركت الفرصة للقوم في موقف حتى لا اجد مقاتلا ولا ارى معي مقاتـلا ،

ولكني زاولت ملكا مؤجلا) . حيث ينطوي في جوابه سر اندفاعه في مغامرته .

ولقد روى المؤرخ المذكور ان عبد الملك ارسل برأس ابن الاشعث حينما جيء اليه به الى امرأة كندية تحت رجل من قريش فلما وضع بين يديها قالت (مرحباً بزائر لايتكلم، ملك من الملك ، طلب ما هو اهله فأبت المقادير) ثم غسلته وحنطته وغلقته واعادتــه الى عبد الملوك، ومع ذلك فقد عيره بعض رجاله على هروبه حيث روى الطبري ايضاً ان رجلا من اصحابه سمعه يقول متمثلا وهو هارب نحو رتبيل :

يطرده الخوف فهـــو تائـه	كذاك من يكره حر الجلاد
منخرق الخفين يشكو الوجا	تنكبه اطراف مرو حــداد
قد كان في الموت له راحـة	والموت حتم على رقاب العباد

فالتفت اليه فقال هلا ثبت في موطن من المواطن فنموت بـين يديك فكان خيراً لك مما صرت اليه [1] .

وهنا يبدو الفرق قوياً عظيما بين الخوارج الذين كانوا يقاتلون عن عقيدة لوجه الله لا يبالون بكثرة عدوهم وقلة عددهم ويقدمون على الموت دون خوف ولا تردد .

وقد ذكر ابن الاثير حادثة تمردية من ذيول تمرد ابن الاشعث . فقد لحق كثير مــن رجال ابن الاشعث المهزومين بعمر بن ابي العلت في الري فتمكن بهم من الغلبة على هذا الاقليم،والعرغلبه المنضوون اليه باعلان خلع الحجاج فاستجاب وكان الحجاج قد عين في هذا الظرف قتيبة بن مسلم والياً لخراسان فجد في امر هذا التمرد وسير جيشاً على عمر وجماعتـه وانتصر عليهم ، ففر عمر مع ابنه لاجئـــاً الى طبرستان فآواهما اجهبذها واكرمها . وعلم

---

(١) صيغة الطبري تفيد ان المتمثل بالشعر هو صاحب ابن الاشعث وان السؤال كان من ابن الاشعث لصاحبه . ونرجح ان هناك غلطاً في الطبع والنسخ . لان المعنى لا يستقيم ولا يبدو للخبر معنى قوي الا بالصيغة التي اوردناها (انظر الطبري ج ٥ ص ١٩٠).

فيمن اعان علينا والب فقال له (اصلح الله الامير ، إني امرت باشياء اقولهـا لك ارضيك واسخط الرب ولست افعل ، ولكني اقول اصلح الله الامير واصدقك القول فان كل شيء يقع بين يديك فهو الصدق ان شاء الله،نبابنا المنزل ، واجدب الجناب ، واكتحلنا السهر. استحلسنا الخوف وضاق بنا البلد العريض فوقعنا في حرب لم نكن فيه بررة اتقياء ولا فجرة اقوياء)وهذه الصيغة من رواية ابن قتيبة .

وقد روى الطبري صيغة اخرى جاء فيها بعد المقدمة المماثلة (والله قـد سودنا عليك وحرصنا وجهدنا عليك الجهد فما آلونا فما كنا بالاقوياء الفجرة ولا الاتقياء البررة . ولقـد نصرك الله علينا واظفرك بنا فان سطوت فبذنوبنا وما جرت اليه ايدينا وان عفوت فبحلمك وبعد الحجة لك علينا) فنظر الحجاج الى اهل الشام قال (صدق والله ما كانوا بررة اتقياء ولا فجرة اقوياء ثم قال له انطلق يا شعبي فقد عفونا عنك فانت احق بالعفو ممن يأتينا وقد تلطخ بالدماء ثم يقول كان و كان). حيث اعتبر الحجاج كلام الشعبي ندماً وتوبة فعفا عنه.

وفي هذا الكلام وضع للفتنة وما ينبغي ان يترتب عليها في نصابها الصحيح كما هـو المتبادر . وقريب من جواب الشعبي يروى عن شخص اسمه عمرو بن موسى كان على شرطة ابن الاشعث فجيء به الى الحجاج فقال له (اصلح الله الامير كانت فتنة شملت البر والفاجر فدخلنا فيها فقد امكنك الله منا فان عفوت فبحلمك وفضلك وان عاقبت عاقبت ظلمة مذنبين). فقال له كذلك في قولك انها شملت البر والفاجر ولكنها شملت الفجار وعوفي منها الابرار واما اعترافك بذنبك فعسي ان ينفعك وعزل . غير انه قتله حيث اثاره موقف شخص مثله . فقد جيء بشخص اسمه الهلقام بن نعيم فسأله ما الذي رجوته من اتباع ابن الاشعث ارجوت أن يكون خليفة . قال نعم رجوت ذلك وطمعت ان ينزلني منزلتك من عبد الملك فغضب وامر بضرب عنقه ثم نظر الى عمرو بن موسى فأمر بضرب عنقه كذلك .

وينطوي في هذا صور من الحوافز على فتنة ابن الاشعث وكبار المنضوين اليها . وقد روي انه كان في جملة المنضوين الى حركة ابن الاشعث ابراهيم النخعي والحسن البصري ومجاهد وعطاء بن يسار وهم من مشهوري علماء التابعين فسجن بعضهم حتى مات في سجنـه

وهو مجاهد واطلق سراح بعضهم بعد سجن مدة وعفا عـــن بعضهم لاعتذارهم ومن هؤلاء ابراهيم النخعي بالاضافة الى الشعبي [1] .

ومما يخطر بالبال ان شهرة هؤلاء العلماء ومن جملتهم سعيد بن جبير آتية من هذه المحنة السياسية . فكثيراً ما تسلط الاضواء على الاشخاص الذي يندمجون في حركة سياسية مـــا طوعاً او كرها اكثر من غيرهم .

وممن قتله الحجاج من مشهوري النبهاء ابن القرية الذي كان فقيهاً وكاتباً اديباً . وقد كان في حاشية الحجاج بل وفي ديوانه فخامر مع ابن الاشعث حتى لقد روي انه هو الذي كتب له كتاب الخلع الذي ارسله هذا الى الحجاج . والكتاب شديد في تنديده بالحجاج شديد في وعيده .

وممن قتلهم الحجاج اعشى همدان الشاعر . وكان اول من خلع عبد الملك والحجاج بين يدي ابن الاشعث بسجستان وقال مخاطباً ابن الاشعث :

من مبلغ الحجـــاج اني ... قد جنيت عليـــه حربا
وصفقت في كف امرىء ... جلد اذا ما الامر عبـــا
انت الرئيس ابن الرئيس ... وانت اعلى الناس كعبا
فابعث عطية بالخيـــول ... يكبهن عليـــه كبا
وانهض هديت لعـــله ... يجلو بك الرحمن كربا
نبئت ان بني يوسف ... خر مـــن زلق فتبـــا

وقد حاول الشاعر ان ينقذ نفسه فأنشد الحجاج حينما جيء اليه به يتملقه ويذم اهل العراق :

ابى الله إلا ان يتمم نوره ... ويطفىء نور الفاسقين فيخمدا

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٧٨ .

واذا رأيت منافقين تخـــيروا سبل الضجاج اقمت كل ضجاج
داويتهم وشفيتهم مـن فتنـة عبراء ذات دواحن واجـــاج

ومنها هذه الابيات :

يسر لك البغضاء كل منافــق كما كل ذي دين عليك شفيق
واطفأت نيران العراق وقد عـلا لهن دخـــان ساطع وحريق

ورغم كل ما كان هناك من مبررات ، ورغم كون الحجاج ليس منفردا في هذه الافعال وأن قتل المرتدين والمتمردين والخوارج والعصاة والذين اجتهد فرقاء المسلمين بأنهم في موقف الخارج على الجماعة والباغي جرى على نطاق واسع قبله في حوادث الردة وفي حروب علي مع طلحة والزبير وعلي وفي حرب مصعب بن الزبير مع المختار وفي حروب الخوارج في زمن علي بعده وفي حروب الشيعة لجند الشام وما سموهم بقتلة الحسين وفي حركة ابي مسلم الخراساني بعده التي لم يكن عشرات الالوف او مئاتها الذين قتلهم ابو مسلم معتدين متمردين عـــلى سلطان وانما كانوا يقفون في وجه حركة تمردية ضد سلطان قائم فان سمة القسوة المذكورة ظلت تقريباً تسم الحجاج دون غيره وغلبت على ما لعمله من مبررات بسبب ما دار حولهـا وتكرر وتضخم من دعاية تسويئية وتهويلية حتى غطت او كادت تغطي على ما كان للحجاج من مواهب ومزايا وفضائل تؤهله لان يسلك بحق في سلك عظماء بل اقدار رجال العرب الذين ظهروا في هذه الحقبة سواء افي قوة عقله وشخصيته ام في اقدامه وبصيرته وحزمـــه وجرأته أم في فصاحته أم فيما كان في ظل ولايته من فتوحات عظمى في بلاد الترك والسند والهند والصين قام بها ولاته بتشجيعه وتأييده وتوجيهه فضلا عن جهوده العظمى في توطيد سلطان وهيبة اعظم واقوى دوله عربية اسلامية فيها للعرب كل الفخر وكل المجد وكل الاعتزاز .

والى كل هذا فقد كان على ما تفيده الروايات العديدة قوي الايمان بالله ورسوله وكتابه حريصاً على اداء واجباته الدينية منصرفاً عن اللهو والترف والبذخ . قوي العارضة والفراسة خطيباً مصقعاً شجاعاً باسلا رابط الجأش حازم الرأي لا يداجى ولا يماري ولا يكذب ولا

يغدر ، يقابل الحسنة بالحسنة كمقابلته السيئة بالسيئة ، يرعوي للحق ، ويعطي النصفة ، عظيم الشهامة ، كثير الزهد والعبادة ، وكان كثير التلاوة للقرآن حتى انه كان يختم كل ليلة ختمة.

وقد خشي مغبة عدم نقط القرآن او اعجامه فأشرف على نقطه واعجامه ، وهو الذي بنى مدينة واسط بعد فراغه من فتنة ابن الاشعث لتكون مركزاً له متوسطاً بين الكوفة والبصرة ، وهو الذي نقل دواوين الخراج من الفارسية الى العربية .

ولقد روي عنه اقوال وخطب ومواقف كثيرة تنم عن عقله الناضج وتقواه وخوفه من الله وبلاغته وقوة ايمانه وانصافه ومروءته . من ذلك خطبة جاء فيها : (الرجل ، وكلكم ذلك الرجل ، رجل خطم نفسه وزمها فقادها بخطامها الى طاعة الله وكفها بزمامها عن معاصي الله رحم الله امرءاً رد نفسه ، امرءاً اتهم نفسه ، امرءاً اتخذ نفسه عدوة ، امرءا حاسب نفسه قبل ان يكون الحساب الى غيره ، امرءاً نظر الى ميزانه ، امرءاً نظر الى حسابه ، امرءاً وزن عمله ، امرءاً فكر فيما يقرأ غداً في صحيفته ويراه في ميزانه ، وكان عند قلبه زاجراً وعند همه آمراً ، امرءاً اخذ بعنان عمله كما يأخذ بعنان جمله فان قاده الى طاعة الله تبعه ، وان قاده الى معصية الله كف . امرءاً عقل عن الله امره ، امرءاً فاق واستفاق ، وابغض المعاصي والنفاق ، وكان الى ما عند الله بالاشواق) .

وقد روى ابن كثير الذي روى هذه المواعظ ان مالكاً ابن دينار احد مشاهير العلم والزهد كان من السامعين وان الحجاج ما زال يقول امرءاً امرءاً حتى بكى مالك . ومن ذلك (ان الله تعالى كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء فلا فناء لما كتب عليه البقاء ولا بقاء لما كتب عليه الفناء ، فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة ، واقهروا طول الامل بقصر الاجل) .

ومما روي عن الحسن البصري قوله وقذتني كلمة سمعتها من الحجاج يقولها على هذه الاعواد وهي (ان امرءاً ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لحري ان تطول عليها حسرته الى يوم القيامة) ومن اقواله المأثورة من خطبة له (الصبر على محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله) .

وجيء اليه بزوجة عبد الرحمن بن الاشعث فأمر الحجاج لحرسيه ان يقول لها يا عدوة الله اين مال الله الذي جعلته تحت ذيلك ، فقال لها يا عدوة الله اين مال الله الذي جعلته تحت استك ، فقال له كذبت ما هكذا قلت وخلى عنها .

وكان بدء بروزه ان عبد الملك شكا من انحلال العسكر وان الناس لايرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله فقال له روح بن زنباع يا امير المؤمنين ان في شرطتي رجلا لو قلده امير المؤمنين امر عسكره لارحلهم برحيله وانزلهم بنزوله اسمه الحجاج بن يوسف فقال فانا قد قلدناه ذلك فكان لا يقدر احد ان يتخلف عن الرحيل والنزول الا اعوان روح بن زنباع فوقف عليهم يوماً وقد رحل الناس وهم على طعام يأكلون فقال لهم ما منعكم ان ترحلوا برحيل امـــير المؤمنين فقالوا له انزل يا ابن اللخناء فكل معنا فقال هيهات ذهب ما هنالك ثم امر بهـــم فجلدوا بالسياط وطوفوا في العسكر وامر بفساطيط روح فأحرقت فدخل روح عـــلى عبد الملك باكياً فقال له مالك قال الحجاج بن يوسف الذي كان في عديد شرطتي ضرب عبيدي واحرق فساطيطي فاستدعاه وسأله عما حمله على ما فعل فقال ما انا فعلته وانمـــا انت والله فعلت وانما يدي يدك وسوطي سوطك وما على امـــير المؤمنين ان يخلف روح بن زنباع للفسطاط فسطاطين وللغلام غلامين فلا يكسرني فيما قدمني له ، فكان هذا الموقف اول ما عرف من كفايته .

وحينما ولي العراق قال لاخصائه دلوني على رجل اوليه الشرطة فقالوا له اي الرجال تريد فقال (اريد دائم العبوس ، طويل الجلوس ، سمين الامانة ، اعجف الخيانة ، لا يحنق في الحق على حرة ، ويهون عليه سؤال الاشراف في الشفاعة) فدلوه على عبد الرحمن بن عبيد التميمي فلما عرض عليه المنصب قال له لست اقبل الا ان تكفيني عمالك وولدك وحاشيتك فأمر غلامه فنادى من طلب من هؤلاء حاجة منه فقد برئت الذمة منه . وفي هذا يقول الشعبي فوالله مـــا رأيت قط صاحب شرطة مثله ، كان لا يحبس الا في دين ، واذا اتى برجل نقب على قوم وضع منقبته في بطنه حتى تخرج من ظهره واذا اتي برجـــل نبش قبراً حفر له قبراً ودفنه فيه ، واذا اتي برجل قاتل بحديدة او اظهر سلاحاً قطع يده ، فربما اقام اربعين يوماً لا يؤتى اليه بأحد ، فضم الحجاج اليه شرطة الكوفة مع البصرة .

ولقد مر الحجاج بخالد بن يزيد بن معاوية وهو جالس في المسجد وعليه سيف محلى وهو يخطر متبختراً فقال رجل قرشي لخالد ما هذه التخترة فقال بخ بخ هذا عمرو بن العاص . فسمعه الحجاج فمال اليه فقال (قلت هذا عمرو بن العاص ، والله ما سرني ان العاص ولدني ولا ولدته ، ولكن ان شئت اخبرتك من انا ، انا ابن الاشياخ من ثقيف والعقائل من قريش . والذي ضرب مائة بسيفه هذا كلهم يشهدون على ابيك بالكفر وشرب الخمر حتى اقروا له بالطاعة) .

ولقد سأله الوليد ان يصف له سيرته فكتب يقول (إني ايقظت رأيي ، وانمت هواي ، فأدنيت السيد المطاع في قومه ووليت الحرب الحازم في امره وقلدت الخراج الموفر لامانته وصرفت السيف الى المنطق المسيء . فخاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب) .

ولقد كان يصنع في كل يوم في رمضان الف خوان وفي سائر الايام خمسمائة ، وعلى كل خوان عشرة انفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وارزة بسكر . وكان يدور على الموائد يتفقدها فاذا رأى ارزة ليس عليها سكر وسعى الخباز ليجيء بسكرها فأبطأ حتى اكلت الارزة بلا سكر امر به فجلد فكان الخبازون لا يمشون إلا متأبطي خرائط السكر ، وكان اذا استغرب ضاحكاً والاه بالاستغفار .

ومما رواه الاصمعي ان الحجاج مرض فأرجف الناس بموته فخطبهم بعد ابلاله فقال : (إن طائفة من اهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم قالوا مات الحجاج ، واذا مات الحجاج فمه ؟ فهل يرجو الحجاج الخير الا بعد الموت ، والله ما يسرني ان لا اموت وان لي الدنيا وما فيها وما رأيت الله رضي التخليد إلا لأهون خلقه عليه ابليس) .

ولقد دعا الله العبد الصالح فقال (هب لي ملكاً لا ينبغي لاحد من بعدي) . فاعطاه الله ذلك الا البقاء . ولقد طلب العبد الصالح الموت بعد أن تم له امره فقال توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) .

ومما رواه ابراهيم بن هشام عن عمر بن عبد العزيز أنه قال (ما حسدت احداً حسدي الحجاج على حبه القرآن واعطائه اهله عليه وقوله حين حضرته الوفاة اللهم اغفر لي فان الناس يزعمون انك لا تفعل) .

ومما رواه الاصمعي ان الحجاج لما حضرته الوفاة انشأ يقول :

يا رب قد حلف الاعداء واجتهدوا	بأنني رجل من ساكني النار
ايحلفون على عمياء ويحهم	ما علمهم بعظيم العفو غفار
ان الموالي اذا شابت عبيدهم	في رقهم عتقوهم عتق ابرار
وانت يا خالقي اولى بذاكر ما	قد شبت في الرق فاعتقني من النار

وقد يقال ان الحجاج في مناجاته لربه كان يستشعر عظم ما ارتكبه من جرائم واقترفه من ظلم ، والاولى في هذا المقام ان يقال انه يعرف ان الانسان موضع خطأ وذنب وان كل امرىء مؤمن يستشعر بالخوف من ربه في آخر لحظة من حياته ويجتهد بالندم والاستغفار .

ولقد ظل الحجاج متولياً للعراق عشرين عاماً ، وهو يعرف انه وتر كثيرين ونكل بكثيرين واخاف كثيرين . وان له نتيجة لذلك اعداء كثيرين ، وليس من الضروري ان يكونوا على حق وصدق في نظرتهم اليه .

ولقد روي انه حينما مات لم يترك الا ثلاثمائة درهم مع ما كان له من صولة ودولة وسلطان ، ومع ما كان من طبيعة الحكم الجارية آنذاك التي تسوغ احتجاز الولاة للاموال الطائلة .

وما اوردناه من قبل من شعر جرير ليس كل ما قاله فيه حيث مدحه في قصائد عديدة مدحاً فيه ترديد لأخلاقه واثر مواقفه وحوافزه على ما كان من سلوكه وتصرفه ، من ذلك من قصيدة :

رأى الحجاج عافية ونصراً	على رغم المنافق والحسود

دعا اهل العراق دعاء هود — وقد ضلوا ضلالة اهل هود

فجاؤوا خاطمين ظليم قفر — الى الحجاج في اجم الاسود

أقمت لهم بسكن سوق موت — واخرى يوم زاوية الجنود

ترى نفس المنافق في حشاه — تعارض كل جائفة عنود

ومن ذلك من قصيدة :

ولولا امير المؤمنين وانه — امام وعدل للبرية فاصل

وبسط يد الحجاج بالسيف لم يكن — سبيل جهاد واستبيح الحلائل

اذا خاف درءاً من عدو رمى به — شديد القوى والنزع في القوس نابل

دعوا الجبن يا اهل العراق فانما — يباح ويشرى سبي من لا يقاتل

لقد جرد الحجاج بالحق سيفه — لكم فاستقيموا لا يميلن مائل

فما يستوي داعي الضلالة والهدى — ولا حجة الخصمين حق وباطل

وثنتان في الحجاج لا ترك ظالم — سوياً ولا عند المراشات نائل

ومن غل مال الله غلت يمينه — اذا قيل ادوا لا يغلن عامل

قدمت على اهل العراق ومنهم — مخالف دين المسلمين وخاذل

فكنت لمن لا يبرىء الدين قلبه — شفاء وخف المدهن المتثاقل

لقد جهد الحجاج في الدين واجتبى — جبا لم تغله في الحياض الغوائل

ولقد مدحه الفرزدق بقصائد عديدة فيها تعبير عن دوافع واهداف الحجاج فيما كان منه كما تضمن ذلك شعر جرير من ذلك في قصيدة:

امير المؤمنين وقد بلونا — امورك كلها رشداً صوابا

تعلم انما الحجاج سيف — تجذ به الجماجم والرقابا

ومن ذلك في قصيدة:

ان ابن يوسف محمود خلائقه — سيان معروفه في الناس والمطر

هو الشهاب الذي يرمى العدو به | والمشرفي الذي تعصى به مضر
احيا العراق وقد ثلت دعائمه | عميـاء صماء لا تبقي ولا تذر

ومن ذلك في قصيدة:

ولم يكن الحجاج الا على الذي | هو الدين او فقد الامام ليجزعا
وقد كنت ضراباً بها يا ابن يوسف | جماجم من عادى الامام وشيعا
جماجم قوم ما كثين جرى بهم | الى الغي ابليس النفاق واوضعا

ومن ذلك في قصيدة:

بسيف به الله تضرب من عصى | على قصر الاعناق فوق الكواهل
شفيت من الداء العراق فلم تدع | به ريبة بعد اصطفاق الزلازل

ولما مات رثاه الفرزدق بهذه الابيات التي تضمنت تلك المعاني ايضاً:

ليبك على الحجاج من كان باكياً | على الدين او ثار على الثغر واقف
وايتام سوداء الذراعين لم يدع | لها الدهر مالا بالسنين الجوالف
وما ذرفت عينان بعد محمد | على مثله الا نفوس الخلائف
وما ضمنت ارض فتحمل مثله | ولا خط ينعى في بطون الصحائف
ولم ار يوماً كان انكى رزية | واكثر لطماً للعيون الذوارف
من اليوم للحجاج لما غدوا به | وقد كان يحمي مضلعات المكالف
ومهمجلة لما اتاها نعيه | اراحت عليها مهملات التنايف
فقالت لعبديها اريحا فعقلا | فقد مات راعي ذودنا بالطرايف
ومات الذي يرعى على الناس دينهم | ويضرب بالهندي رأس المخالف
فليت الاكف الدافنات ابن يوسف | تقطعن اذ يحثين فوق السقايف

ألم تعلموا ان الذي تدفنونـــه   به كان يرعى قاصيات الزعانف [1]

والفرزدق خاصة ينعت بأنه شيعي الهوى وانه من الشعراء ذوي الصدق والاخلاص [2] والرثاء بعد الموت لا اجر له وليس للحجاج عصبية اسروية مخيفة ، حيث يسوغ هذا ان يقال ان الصورة التي وصفه الفرزدق بها صحيحة .

ويحسن ان يضاف الى ما اوردناه في النبذ السابقة من مواقفه وجـــده وبأسه في قتال ابن الزبير والخوارج وتوجيه الولاة الى الفتوحات العظيمة وتأييدهم . وحينئذ تكمل الصورة العظيمة لهذا الرجل العظيم .

ولا نريد ان نزعم ان كل ما اوردناه عن صورته صحيح ، فقـــد يكون فيه المصنوع ايضاً . ولكننا نقول ان جميـع ما في جانبه هو في نطاق الامكان والاحتمال .

ولقد رويت ضده روايات كثيرة ايضاً بالاضافـــة الى الروايات والاقوال الـــتي ادت الى اتسامه بتلك السمة . من ذلك حديث مروي عن اسماء بنت ابي بكر عن النبي ﷺ قال (يخرج من ثقيف رجلان كذاب ومبير) وفسر الكذاب بالمختار بن ابي عبيد والمبير اي المبيد بالحجاج [3] . ومنها انه ولد بدون ثقب في مخرجه ، ومنها انه لم يقبل على الرضاعـــة

---

(١) القصيدة منقولة من الديوان المشروح والمنشور من عبد الله الصاوي .

وهناك روايات تروى بعض كلماتها بصيغة اخرى حيث تروي البيت الاول هكذا :

ليبك على الاسلام مـــن كان باكياً   على الدين من مستوحش الليل خائف

وتروى كلمة (وارملة) بدلا من (ومهملة) في البيت السابع.

(٢) مما يروى ان يزيد بن عبد الملك طلب منه ان يهجو بني المهلب بعد ان بطش فيهم نتيجة اتمردهم على ما سوف نذكره بعد قليل فابى وقال (لقد امتدحتهم بمدائح ما امتدحت بمثلها احداً ويقبح بمثلي ان يكذب نفسه على كبر السن فليعفني امير المؤمنين) فاعفاه. انظر تاريخ ادب اللغة العربية ج١ ص ٢٦٤ .

(٣) روى هذا الحديث مسلم والترمذي ايضاً انظر التاج ج ٥ ص ٢٩٤ .

حين ولد الا بعد ان سقي من دم جدي ثم من دم سالح - ثعبان - ولطخ بدمه وجهه وان هذا ما جعله ينشأ سفاكاً للدماء .

ومنها ان علياً بن ابي طالب دعا على رجل فقال (لا مت حتى تدرك فتى ثقيف) فقال وما فتى ثقيف فقال (رجل يملك عشرين سنة لا يدع لله معصية إلا ارتكبها حتى لو لم يبق إلا معصية واحدة وكان بينه وبينها باب مغلق كسره حتى يرتكبها) .

ومنها ان علياً بن ابي طالب قال للاشعث بن قيس (ان غلاماً من ثقيف يملك عشرين عاماً لا يبقى اهل بيت من العرب إلا ألبسهم ذلاً) .

ومنها دعاء لعلي على اهل العراق جاء فيه (اللهم كما ائتمنتهم فخانوني ونصحت لهم فغشوني سلط عليهم فتى ثقيف الذيال الميال يأكل خضرتها ويلبس فروتها ويحكم فيها بحكم الجاهلية) .

وفي رواية (ويقتل اشراف اهلها يشتد منه الفرق ويكثر منه الارق ويسلطه الله على شيعته) .

ومنها قول لعمر بن عبد العزيز (لو جاءت كل امة بخبثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم) .

ومنها ان انس بن مالك كان يلقبه بالملعون . وان مجاهداً كان يلقبه بالشيخ الكافر .

ومنها ما روي عن انس بن مالك من انه كان يلقبه بالملعون . وعن الشعبي انه كان يقول انه مؤمن بالجبت والطاغوت كافر بالله العظيم . ومن ذلك حديث معزو الى النبي ﷺ جاء فيه (ان ثقيف وامية حلف) .

وقد روي انه لما مات وجد في سجنه ثمانون الف سجين منهم (٣٠٠٠٠) امرأة ليس على احدهم تهمة هامة . وانه ختم على اعناق بعض اصحاب رسول الله حينما فرغ من قتال ابن الزبير وعاد الى المدينة . وانه كان يكره ابن مسعود وينهى عن قراءة القرآن بقراءته ومصحفه ويقول لا اجد احداً يقرأها إلا ضربت عنقه ولأحكنها ولو بضلع خنزير ، ولو أدركته لضربت عنقه . وانه كان يقول (والله لو امرت الناس ان يخرجوا من باب في المسجد فخرجوا من باب آخر لحلت لي دماؤهم واموالهم) . وان عبد الملك سأله ان يصف نفسه فاستعفاه فأصر فقال انا لجوج حسود حقود . فقال له ما في ابليس شر من هذا . وانه

رأى الناس يطوفون بقبر رسول الله ومنبره فقال انما يطوفون بأعواد ورمة . وانـه كتب لعبد الملك كتاباً يعظم فيه امر الخلافة ويزعم ان السماوات والارض ما قامت إلا بهـا وان الخليفة عند الله افضل من الملائكة والمقربين والانبياء المرسلين .

وروي فيما روي نص كتابين طويلين اولهما كتاب من عبد الملك اليه كتبه اليه استفزازاً من افعال الحجاج وسفكه الدماء واحتوى ذمـاً شديداً وتنديداً قوياً وامره بالاعتزال والذهاب ملعوناً مذموماً .

وثانيهما جواب من الحجاج فيه اعتذار وتذلل مما جعل عبد الملك يعدل عن عزله . وان رجلا حلف بالطلاق ان الحجاج في النار فأتى امرأته فمنعته نفسها فسأل الحسن البصري فقال له لا عليك يا ابن اخي فانه ان لم يكن الحجاج في النار فما يضرك ان تكون مع امرأتك في زنى . وان القاسم بن محمـد كان يقول كان الحجـاج بن يوسف ينقض عرى الاسلام عروة عروة ...

والذي نعتقده ان معظم هذه الروايات ان لم يكن كلها مصنوعـة اما في زمن الدولة الاموية واما بعدها من قبل خصومها بقصد التسويء والتشويه والاثارة . وآثار الصنعـة لا تخفى عليها . ومنها مالا يعقل . فرواية ختم الحجاج لاعناق بعض اصحاب رسول الله تقتضي ان يكون ذلك في سنة ٧٣ اي بعد موت النبي بثلاث وستين سنة . ولو كان بقي في هـذا الوقت احد من اصحاب رسول الله فانه يكون شيخاً طاعناً في السن لا يستطيع ان يفعل شيئاً او يندمج في حركة ما تسوغ احتمال فعل الحجاج ما روي فيها . ومثل هذا في عـدد الذين وجدوا في سجن الحجاج بعد موته . وفي وصف الحجاج لنفسه لعبد الملك وفي كتاب عبد الملك اليه وهو الذي كان يقول عنه انه جلدة ما بين عيني . حتى ولو صحت الاقوال المنسوبة الى انس بن مالك ومجاهد والحسن البصري والشعبي لكان فيها تجوز كبير آت من وحي الاحداث ودعايات الموتورين .

وقد ذكرنا قبل ان مجاهداً والحسن والشعبي كانوا من المندمجين في فتنة ابن الاشعث

وان انساً بن مالك وابنه كانا مندمجين في حركة تمرد ابن الجارود وليس من الضروري ان يكون اجتهادهم الذي اداهم الى ذلك الاندماج وجعلهم يقولون هذه الاقوال عن الحجاج صواباً .

ولقد استحل بعض المؤلفين منذ القديم لعن الحجاج حين ذكره . ونعتقد ان ذلك بتأثير الحملات التسويئية التي كثرت ضده من خصوم الامويين في عهدهم وبعده وان الشرع لا يجوز ذلك قط . فالآثار الكثيرة التي لا ينكرها إلا مكابر متفقة على ان الحجاج مؤمن بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر . وانه كان يقوم بواجباته الدينية . وهذا وحده بقطع النظر عن اي اعتبار آخر يمنع ذلك .

ولقد اطلنا في الكلام لتنبيه القارىء وبخاصة الناشىء العربي الى عظمة أحد رجال قومه العظماء والى وجوب التروي فيما يقرأه في الكتب القديمة من ذم وقدح وروايات غير معقولة عنه وعن امثاله . ولا سيما انهم يرون ويسمعون اليوم من الاحزاب المتنافرة والمتنافسة وصحافتها شيئاً كثيراً مثل ذلك .

١١ - تمرد يزيد بن المهلب وذويه [١]

•

ذكرنا بعض اشياء عن المهلب بن ابي صفرة وبنيه في سيرة عبد الملك والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز وفي نبذة الفتوح في خراسان وما وراء النهر . واشرنا اشارة خاطفة الى فرار يزيد بن المهلب من السجن وثورته في زمن يزيد بن عبد الملك . ولقد كانت هذه الثورة من معكرات هذا العهد ايضاً .

اما سببها المباشر فهو اصدار يزيد بن عبد الملك امره إلى والي العراق بطاردة يزيد بن المهلب وذويه المتعاونين معه الذين سهلوا له الفرار من السجن . ونفذ الوالي الامر فاعتقل اخوة يزيد وابنه وارسل ابنه خالداً الى الشام مكبلا .

ولقد تعصب اليمانيون مع يزيد وتعصب المضريون مع الوالي بالاضافة الى الجند الشامي . وقد استطاع يزيد ان يتغلب على البصرة ويهزم الجند الشامي ومن ناصرهم من المضريين ويخرج الوالي من قصره يستولي على بيت المال ومخازن السلاح . وحينئذ اعلن خلع يزيد بن عبد الملك ودعا الى نفسه مبايعة اهل البصرة وما والاها وامتد سلطانه الى الاهواز ثم الى اقليم كرمان وفارس وعين العمال وجبى الخراج . واخذ يفكر في غزو الشام حيث روي انه حث اهل البصرة على الجهاد في اهل الشام وقال لهم ان الجهاد فيهم اعظم ثواباً من جهاد الترك

---

(١) هذه النبذة مقتبسة من تاريخ الطبري ج٥ ص ٣١٧-٣٤٩ ومروج الذهب ج ٣ ص ١٣٤ — ١٣٥ وتاريخ ابن الاثير ج ٥ ص ٢٦-٣٤

والديلم . فتحمسوا واكتتبوا في الديوان حتى بلغ عدد المكتتبين الذين رتب لهم اعطيات (١٢٠٠٠٠)

وبلغت الاخبار يزيد فجهز حملة قوية وسيرها مع اخيه مسلمة وابن اخيه العباس بن الوليد . وبلغ الخبر يزيد بن المهلب فخلف اخاه المفضل على البصرة وخرج ومعه ما في بيوت المال ومخازن السلاح حتى نزل واسط . ثم استشار اصحابه . فأشار اخوه حبيب عليه ان يتجه نحو فارس وخراسان فيضوي اليه اهل الجبال ويكون في قلاع وحصون . فلم يحبذ هذا الرأي وقال انه يجعله كالطائر على رأس جبل . ثم فضل ان يتقدم للقاء حملة الشام . وقدم طليعة بين يديه نحو الكوفة التي كان قدم اليها العباس بن الوليد مع فريق الحملة كطليعة للزحف الشامي . وقد اشتبكت الطليعتان فكسب المهلبيون الجولة الاولى وكسب الشاميون الجولة الثانية وارتد الاولون نتيجة لذلك مهزومين الى معسكر يزيد بن المهلب .

وفي هذه الاثناء قدم من الجبال والثغور ناس كثيرون وانضموا الى يزيد بن المهلب . واستشار اصحابه في التقدم بالجيش او إرسال طليعة قوية أخرى . وهنا تحركت شنشنة العراقيين فقالوا بل نرسل الى مسلمة فندعوه الى كتاب الله وسنة رسوله قبل أن نزحف عليهم . وحاول عبثاً ردهم عن ذلك فأصروا وأرسلوا وفداً . فلاينهم مسلمة في الكلام فخفف حماسهم رغم أن يزيد بن المهلب قال لهم انه يخدعهم وانه لا يعقل ان يقبلوا بالتخلي عن ما في ايديهم من دولة وسلطان وانه لقي بني مروان فما لقي رجلا أمكر ولا ابعد غوراً من مسلمة الذي سماه الجرادة الصفراء فأبوا حتى يسمعوا جوابه .

واصر على التقدم فتباطأ كثير منهم حتى لقد قال والله لوددت ان معي في هذه الساعة مكانهم الف من قومي الذين في خراسان . وظل على رأيه رغم ذلك وتقدم ووقع الاشتباك فانهزم معظم العراقيين مما جعله يقول قبحهم الله انهم بق دُخن عليه فصار ، او غنم عدا عليها الذئب . واني لأرجو ان لا يجمعني الله واياهم في مكان واحد . وانف أن يتراجع وينهزم وانشد متمثلا :

عش كريماً او مت كريماً وان تمت ... وسيفك مشهورٌ بكفك تعذر

ثم اندفع هو واخوته وابناؤه ومن ثبت معه من قومه واخصائه يقاتلون ويصولون صولات جبارة . غير ان ذلك لم يغن امام الكثرة الكاثرة فقتل هو وبعض اخوته وابنائه واسر باقيهم . وامر مسلمة باحتزاز رأس يزيد وارسله إلى يزيد أخيه مع من أسر من بني المهلب فضرب رقابهم .

ولقد رثي يزيد بن المهلب بمراث عديدة . منها هذه المقطوعة التي يذكر ناظمها غدر المنضوين الى يزيد وتراجعهم عن نصرته :

كل القبائل بايعوك على الذي	تدعو اليه طائعين وساروا
حتى اذا حضر الوغى وجعلتهم	نصب الاسنة اسلموك وطاروا
إن يقتلوك فان قتلك لم يكن	عاراً عليك وبعض القتل عار

ومع ذلك فقد روي هجاء لجرير الشاعر المشهور في آل المهلب بعد قتل يزيد منه هذه الابيات :

آل المهلب جز الله دابرهم	أمسوا رماداً فلا اصل ولا طرف
ما نالت الازد من دعوى مضلهم	إلا المعاصم والاعناق والخطف !

١٢ ـ العصبية القبلية

•

من المعكرات التي كانت تعكر صفو الدولة الاموية ايضاً وتستنفد قوى المسلمين والعرب في حركات منافية لمصالحهم العامة ، وتعرضهم للهزات والنكسات والفتن والاخطار الداخلية والخارجية (العصبية القبلية) .

ولقد كانت هذه العصبية من اهم مظاهر حياة القبيلة العربية ـ التي كانت هي الغالبة ـ وضوابطها واسباب امنها وسلامتها قبل الاسلام على ما شرحناه في الجزء الخامس .

ولقد حرص كتاب الله ورسوله على تخفيف حدتها وجعل الحيـــاة الاجتماعية للعرب في دورهم الاسلامي الجديد تقوم على الوحدة الدينية والقومية العامة والارتفاع بهم الى الاندماج في اخوة دينية وقومية عامـة واعتبار المصلحة الاسلامية العربية فوق كل مـأرب خاص أو نظرة قبلية ضيقه

ولقد كانت سيرة الرسول وخلفائه مساعدة على تحقيق شيء من ذلك غير ان الزمن لم يكن كافياً لتحقيقه كاملا حيث كانت مظاهر هذه العصبية تظهر في زمنهم في مختلف المناسبات والمواقف . ثم استمرت في زمـن الدولة الاموية حيث رويت روايات كثيرة في مظاهرهـا وآثارها في مختلف المناسبات والامصار .

منها ما كان بتأثير تنافس زعماء القبائل وتناحرهم على المنافع والمنـــاصب حيث كانوا يثيرون عصبية قبائلهم لينالوا تأييدهم وتعضيدهم .

ومنها ما كان نتيجة للتلاحي والتهاجي والتفاخر والتنازع والعـــدوان بين بعض افراد قبيلة واخرى .

ومنها ما كان نتيجة غضب قبيلة من جراء ما رأت فيه غمطاً لحقها ومركزها او تقديم غيرها عليها واختصاصه ببعض المكاسب والمنافع دونها او حرمانها مما كانت تتمتع به مـن ذلك .

ومنها ما كان بين قبائل عدنانية ونزارية ومضرية وقيسية وقبائل قحطانية .

ومنها ما كان بين قبائل تتفرع من هذه الاصول وبخاصة ممن كان بينهم في الجاهلية حروب ومنافرات .

ومنها ما كان محدود النطاق والاثر والضرر .

ومنها ما كان واسع النطاق والاثر والضرر .

وقد انعكس ذلك في شعر العصر الاموي بمختلف اشكاله وصوره بمقياس واسع حتى لم يكد يخلو منه شعر شاعر من شعراء هذا العصر سواء منهم المشهورون او الثانويون .

ولقد كان جيش الدولة وحامياتها في الاقطار يتألف مـــن افراد ينتسبون الى مختلف الجماعات القبلية فكانت هذه النعرة احياناً حينما تثار وتثور تصل الى أن تجعل الجيش فرقاً واحزاباً متلاحية متنافرة متحاربة فيسود العداء والثارات وينفقد الانسجام والتضامن اللذان هما عماد الجيش وقوته .

وتمر عليه فترة من الزمن وهو متفكك متناحر متعاد مشغول بنفسه وثاراته ومكايداته غير مندفع او غير قادر على الاندفاع الوقوف امام الاحداث التي تطرأ على الدولة مـــن خارجها او داخلها والتي تحتاج الى تضامن وتواثق وتواد وانسجام .

وكان المظهر يبدو كذلك بالنسبة الى كثير مـــن رجالات العرب الذين لهم شأن في الدولة ونشاطها . فكان اعداء الدولة والعروبة والاسلام الخارجيون والداخليون يغتنمون

فرص ثورات هذه النعرة ونتائجها المادية والنفسية ويغذونها ويستغلونها بأوسع مقياس يستطيعونه . وكان الكيان والسلطان العربي والاسلامي يتعرضان من جراء ذلك للاخطار الشديدة والهزات العاصفة .

واشد ما كان من آثار هذه النعرة السيئة كان في بلاد العجم وخراسان وما وراءها وفي الاندلس التي لم يكن اهلها قد اندمجوا اندماجاً قوياً في العروبة والاسلام والتي كان رجالها ينقمون على العروبة وسلطانها ويتحينون كل فرصة لهدمها .

ونرجح ان كثيراً مما روي من انساب الجاهلية وشعرها ومفاخراتها واحداثها ومحالفاتها ومنافراتها قد وضع او شيب بشوائب التحريف والغلو في ظروف ثوران هذه النعرة التي امتدت الى عهد الدولة العباسية لتغذيتها وتركيزها في آن واحد .

ويتهم بعض الباحثين خلفاء الدولة الاموية بتشجيع هذه العصبية وبخاصة المروانيين منهم الذين قامت دولتهم بها . وقد يبدو هذا وجيهاً لأول وهلة ، غير ان هناك روايات تنقض ذلك منها رواية رواها الاغاني[1] عن معاوية انه سمع رجلا يمانياً يقول يوماً هممت ان لا ادع بالشام احداً من مضر بل هممت ان اخرج كل نزاري منها فخاف بأس اليمنية ففرض من وقته لاربعة آلاف من قيس وغيرها ليكون في ذلك حفظ للتوازن الذي يمنع فوران العصبية وآثارها الدموية . والخبر في حد ذاته يدل على ما كان يعتمل في صدور العرب من هذه العصبية امتداداً لما كان عليه الامر قبل الدولة الاموية .

ومن ذلك مما روي من مسارعة عبد الملك الى اطفاء نار الفتنة التي نشبت بين زعيمين عربيين هما بكر بن وشاح السعدي والي خراسان وبجير الصريمي التميمي وايدت كل منهما قبيلته حيث عزل عبد الملك الوالي وعين خالداً بن عبد الله اجابة لطلب اهل خراسان الذين قالوا له ان خراسان لا تصلح بعد تلك الفتنة إلا على رجل من قريش لا يحسدونه ولا

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٦٧ عزواً الى الاغاني .
(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٩ .

هشام والي خراسان اسد بن عبد الله واخاه خالداً عن العراق بسبب تشجيع اسد على ثوره العصبية بين اليمانيين والمضريين في خراسان [1] .

والمقصد من هذه النبذة هو تسجيل آثار هذه العصبية الشديدة الاثر والضرر في البنيان والنشاط العربي الاسلامي . وهذا يجعلنا لا نرى ضرورة الى استقصاء كل مظاهرها وصورها وبخاصة تلك التي بقيت بين الاشخاص محدودة والاثر والنطاق .

ومع ما كان من تزمت الخوارج وتجردهم فانهم لم يستطيعوا ان يتفلتوا من قوة العصبية القبلية ونعرتها حيث كان كثير منهم يتحشدون مع بعضهم ويقاتلون بقوة العصبية بالاضافة الى قوة العقيدة .

ومن مظاهر ذلك فيهم هذه الابيات المأثورة عن احد زعمائهم مصقلة بن عتبة الشيباني :

بلغ امير المؤمنين رسالة	وذو النصحان لم يرع منك قريب
فانك ان لم ترض بكر بن وائل	يكن لك يوم بالعراق عصيب
ولا صلح ما دامت منابر ارضنا	يقوم عليها من ثقيف خطيب [2]

ومن ذلك هذه الابيات المأثورة عن الطرماح احد شعرائهم :

فوارس من شيبان الف بينهم	تقى الله نزالون عند التزاحف
هم منعوا النعمان يوم رؤيــة	من الماء في نجم من القيظ حانف[3]

و :

لولا فوارس مذحج ابنة مذحج	والازد زعزع واستبيح العسكر
واستضلعت عقد الجماعة وازدرى	أمر الخليفة واستحل المنكر
فبعزنا نصر النبي محمد	وبنا تثبت في دمشق المنبر [4]

---

(١) نفس الجزء ص ٣٩٢-٣٩٤ .

(٢) رسالة ادب الخوارج لسهير القلماوي ص ٤٩

(٣-٤) نفس الرسالة ٨٧-١١٩

وكان هذا على ما يبدو ما جعل شاعراً من شعرائهم اسمه عمران بن حطان ينعى على العصبية القبلية ويسفهها في هذه المقطوعة :

واصبحت فيهم آمناً لا كمعشر بدوني فقالوا من ربيعة او مضر
او الحى قحطان فتلكم سفاهة كما قال لي روح وصاحبه زفر
فنحن بنو الاسلام والله واحد واولى عباد الله بالله من شكر [1]

على ان الحركات التي كان يعج بها العراق في هذه المدة كانت اكبر من آثار هذه النعرة فغطت عليها .

ومن البوادر الاولى من هذه الظاهرة التي كادت تؤدي الى صدام شديد ما كان من تلاح وتشاد واراقة بعض الدماء بين جماعة من بني بكر بن وائل وجماعة من القرشيين في العراق ، فقد اتفق اهل البصرة بعد موت يزيد بن معاوية وتنازل ابنه معاوية وانسحاب عبيد الله بن زياد من العراق على ما ذكرناه في نبذة عبد الله بن الزبير على مبايعة عبد الله بن الحارث القرشي . وكان هذا على كره من بني بكر بن وائل على ما يفيده بيتان من الشعر قالهما قرشي فيهما هجو شامت لبني بكر وهما :

نزعنا وولينا وبكر بن وائل تجر خصاها تبتغي من تحالف
وما بات بكري من الدهر ليلة فيصبح الا وهو للذل عارف

وقد تلاحى زعيم بكري مع قرشي في البصرة فلطم بكري من اتباع الزعيم قرشياً فتهايجت البطون التي تنتسب الى ربيعة ومضر . وكانت ربيعة متعصبة للبكريين ومضر متعصبة للقرشيين ونادى رجل من ربيعة يا آل تميم وشد جماعة من بني ضبة وهم مضريون على جماعة من الربيعيين وضربوهم وهزموهم وانبرى بعد ذلك زعيم بكر شقيق بن ثور هاتفاً في جماعته (لا تجدن مضرياً الا قتلتموه) ، وكانت بعض المناوشات بين الطرفين ، ثم تدخل بعضهم فهدأوا الناس نحو شهر . وتلاحى يشكري بكري وضبي وافتخر الضبي بما كان من يتعصبون عليه وبذلك لا ينشغلون بأنفسهم فيهلك ثغرهم ومن فيه [2] . ومن ذلك عزل

---

(١) نفس الرسالة ٨٧-١١٩

انتصار المضريين السابق واغلظ اليشكري القول له فهاج هذا ووجأ عنق اليشكري فقتله فثار البكريون لأخذ ثأرهم . وجدد كل من الفريقين محالفاته الجاهلية حيث كان بين ربيعة ومضر في الجاهلية حروب وأحقاد وكان لكل منهم محالفات من آخرين للانتصار والدفاع . واقبل البكريون يحرقون دور الضبيين . وشد الضبيون بدورهم على زعيم بكري اسمه مسعود فقتلوه وهو في المسجد . وترامى الفريقان بالنشاب وانذر الموقف بانفجار شديد لولا تدخل الاحنف بن قيس احد الزعماء وتهدئته الامر من جديد [1] .

ولا يعني تسجيلنا لهذه البادرة انه لم يكن قبلها بوادر ثارت فيها العصبية القبلية في زمن الدولة الاموية . ولكن ما كان قبل ذلك كان محدود الاثر والضرر فلم نر ضرورة الى ذكره كما نبهنا الى ذلك قبل .

وكانت البادرة التالية بادرة عصبية القيسيين انصار ابن الزبير واليمانيين انصار بني امية في الشام بعد تنازل معاوية الثاني حيث تزعم الضحاك بن قيس زعيم القيسيين في الشام الدعوة الى ابن الزبير وتزعم حسان الكلبي زعيم اليمانيين الدعوة الى بني امية بسبب كون ام يزيد بن أبي سفيان بحدل هي قبيلته . وقد أدى ذلك الى الاقتتال في مرج راهط خارج الشام ذهب فيه آلاف من الارواح وانتصر الامويون واليمانيون على القيسيين واستتب حكم الشام ثم غيرها بعد نتيجة لذلك لمروان بن الحكم على ما فصلناه في سيرته تفصيلا يغني عن التكرار [2] .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٩٤-٤٠١

(٢) توصف النعرة القبلية التي كانت تثور في زمن الدولة الاموية والتي امتدت بعدها احيانا بالقيسية اليمنية واحيانا بالمضرية اليمنية واحيانا بالنزارية المضرية . وتاريخ بلاد الشام في القرون الاخيرة يفيد أن نعرتي القيسية واليمنية كانتا تقسمان اهلها وبخاصة لبنان وفلسطين حيث كان اناس منهم قيسيي النعرة واناس يمنيي النعرة . وكان القيسيون يميزون انفسهم باللون الاحمر لعباءاتهم وعمائمهم وثيابهم نساء ورجالا واليمنيون يميزون انفسهم باللون الابيض . وكان التنافس والتناحر بينهم يجري على اساس ذلك غير ان هذا لم يكن يعني في هذه القرون اكثر من تسمية حزبية محلية . وليس لان المنتسبين الى القيسية من القبائل المنتسبة الى قيس والمنتسبين الى اليمنية من قبائل اليمن . فقد يكون هذا او لا يكون . بل قد يكون

وفي سياق حوادث العراق الكثيرة بعد موت يزيد الى استتباب الحكم لعبد الملك بن مروان من حركة الحسين وثاراته وحركات الشيعة وابن الزبير يلمح كثير من آثار هـــذه العصبية وكيف كانت تجمع بين الفئات المتماثلة ضد الفئات الاخرى بل وتكون ناظـــمة هذه التجمعات . فهاني بن عروة الذي نزل مسلم بن عقيل رسول الحسين في بيته يماني مــن مراد فتعصب معه اليمانيون ولو انهم لم يثبتوا الى النهاية .

من قبائل قيس من هو مندمج في اليمنية والعكس. بل وقد يكون من هو مندمج في هذه او تلك غير عربي الجنس اصلا . وكان النصارى والمسلمون والدروز والشيعة يجتمعون تحت لواء هذه العصبية فيحارب ويتعصب ويتحزب النصراني والمسلم والدرزي والشيعي تحت لواء القيسية ضد النصراني والمسلم والدرزي والشيعي تحت لواء اليمنيين!

واول خصام سمي بخصام القيسية واليمنية في هذا العهد كان الخصام الذي جرى في صدد العرش بين انصار ابن الزبير وانصار بني امية ، الذي نحن في صدده . و لم تكن تسمية القيسية في هذا الخصام نسبة الى اسم الضحاك بن قيس كما قد يتبادر الى الذهن لاول مرة . ففي سياق الطبري الذي يروي اخبار معركة راهط ذكر انه لما قتل الضحاك بن قيس اجتمعت قيس على زفر بن الحارث فر أسوه عليهم حيث تفيد هذه العبارة ان المقصود هو القبائل المنتسبة الى قيس .

وقد اورد الطبري شعراً لزفر يبدي فيه المه وحزنه من نتيجة معركة راهط وجواباً شعرياً عليه من كلبي يصف فيه زفر بالقيسي ويفخر بما كان من انتصار بني كلب على قيس وهو :

بكى زفر القيسي من هلك قومه	بعبرة عين ما يجف سجومها
ابحنا حمى للحي قيس براهط	وولت ثلاثا واستبيح حريمها

وجواباً شعرياً آخر لعبد الرحمن بن الحكم اخي مروان على شعر آخر لزفر يؤيد فيه حق ابن الزبير وقد جاء في شعر عبد الرحمن :

لحا الله قيساً قيس بن عيلان انها	اضاعت ثغور المسلمين وولت
فباهي بقيس في الرخاء ولا تكن	اخاها اذا ما المشرفية سلت

حيث يبدو من هذا ان نسبة القيسية هي الى القبائل المتفرعة من قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

انظر تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٤٠٨—٤٢٠ .

وقد اثر عن الفرزدق في قتل هاني وفيه حض لقومه على اخذ ثأره :

ان كنت لا تدرين ما الموت فانظري — الى هانيء في السوق وابن عقيل
الى بطل قد هشم السيف وجهه — وآخر يهوى من طمار قتيل
تطيف حواليه مراد وكلهم — على رقبة من سائل ومسول
فان انتم لم تثأروا بأخيكم — فكونوا بغايا ارضيت بقليل [1]

وفي سياق معركة الحسين يروي شعر لبعض انصاره وهو يقاتل:

قد علمت حقاً بنو غفار — وخندف بعد بني نزار
لنضربن معشر الفجار — بكل عضب صار مبتار [2]

حيث تبدو النعرة القبلية بارزة .

ولقد ظل اليمانيون يندمجون في حركة ثارات الحسين، وكان القيسيون والمضريون يتصدون لهم ويقع بين الفريقين حروب دامية ، وكان من ذلك زحف الشيعة تحت لواء زعماء يمانيين نحو الشام ، وقد كسب الجند الشامي عليهم الجولة الثانية وقتلوا عبيد الله بن زياد وكثيراً من جيشه على ماشرحناه في سياق نبذة ثارات الحسين .

ولقد روى ابن الاثير [3] بعض احداث دموية هامة بين القيسيين واليمانيين في هذا الظرف ، منها ان القيسيين انضموا بزعامة زعيم اسمه عمير الى الشيعة حينما اتجه هؤلاء بقيادة سليمان بن صرد الى قتال جيش ابن زياد ، فكان كل همهم ان يتعقبوا بني كلب واليمانيين ليأخذوا بثأر من قتل منهم في معركة مرج راهط .

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٨٥ . (٢) ٣٣٧ .

(٣) ج ٤ ص١٢٠–١٢٥ انظر ايضاً الاغاني المجلد الحادي عشر نبذة خبر الجحاف وفي ألاغاني شعر كثير واخبار اخرى عن سلسلة الاحداث العصبية التي كانت بين القيسيين واليمانيين ثم بين اليمانيين والتغلبيين .

ثم اصطدموا مع بني تغلب لأنهم في سياق تعقبهم لليمانيين استاقوا ابلا لبني تغلب . وقد تعددت الوقائع بينهم وسماها ابن الاثير بالايام على جري العادة الجاهلية - ولعل ذلك هو المروي . وقد تحشد الفريقان في مكان اسمه الماكسين على الخابور فكانت الغلبة في هذا اليوم للقيسيين حيث بلغ عدد قتلى بني تغلب فيه ٥٠٠ وقتل فيمن قتـــل زعيمهم شعيث الذي انقطعت رجله وظل يقاتل مع ذلك وهو يرتجز :

قد علمت قيس ونحن نعلم ان الفتى يقتل وهو

ثم تحشدوا عند نهر الثرثار وناصر التغلبين قبيلة النمر بن قاسط فكسبوا النصر على القيسيين في هذا اليوم وقتلوا من خصومهم مقتلة عظيمة .

ثم كان بينهم يوم ثان عند الثرثار دارت فيـــه الدائرة على التغلبيين ، واستمرت الايام تتداول بينهم فكانت وقائع او ايام الفدين والسكر والمعارك والشرعية والحشاك والبليخ والكحيل والبشر وكان القيسيون من قبائل عديدة ينتسب اكثرهم الى بني عامر وبني فزارة وبني غني وبني سليم .

وكان الفريقان لا يتعففان عن قتل النساء والتمثيل بهن ، ولم تضع هذه الحروب اوزارها الا بتدخل عبد الملك بن مروان الذي الزم الذين كان القتل فيهم اقل بدفع ديات القتلى الذين يزيدون عن قتلاهم .

وقد اثر عن الاخطل هذه الابيات في انتصار قومه بني تغلب يوم الثرثار الاول :

لمـــا رأونا والصليب طالعا ومارس جيش وسما ناقعـــا

والخيل لا تحمل الا دراعـاً والبيض في أيماننا قواطعـــا

خلوا لنا الثرثار والمزارعـــا وحنطة طيساً وكرماً يانعـاً

وقتل بنو تغلب عميراً زعيم القيسيين فرثاه شاعر لهم اسمه زفر قائلا :

ألا يا عـين بكـي بانسكاب وبكي عاصماً وابن الحبـاب

فان تك تغلب قتلت عميراً ورهطاً من غني في الحراب
فقد افنى بني جشم بن بكر ونمرهم فوارس من كلاب
قتلنا منهم مائتين صبراً وما عدلوا عمير ابن الحباب

كذلك روى ابن الاثير [1] صفحة اخرى من صفحات العصبية الناتجة عن معركة راهط . فقد حقد زعيم قيسي اسمه زفر على الامويين وتحشد معه جمع كبير من القيسيين فاستولوا على قرقيسياء ، وظلوا اصحاب السلطان فيها غير خاضعين لسلطان الامويين الى ان سار عبد الملك بن مروان الى العراق لقتال مصعب بن الزبير ، فأشار عليه اصحابه بضرورة الاستيلاء على قرقيسياء قبل الوصول الى العراق حتى لا تكون شوكة في طريقه فاستحسن الرأي وامر بضرب الحصار عليها وضربها بالمجانيق ، فخرج زفر وجماعته اليهم واخذوا يشتبكون مع جيش عبد الملك .

وكان في هذا الجيش جماعات من المضريين الذين كانت تجمعهم العصبية القبلية مع القيسيين فطلب اليمانيون في الجيش من عبد الملك ان يمنعهم من الاشتراك في قتال القيسيين تفادياً من المخامرة فنبه عليهم بأن لا يخرجوا للقتال فما كان منهم الا ان كتبوا على نبالهم عبارة (غداً لا يقاتلكم مضري) ثم رموها الى المدينة فتحمس زفر والقيسيون وشدوا على اليمانيين الذين جاؤوا لقتالهم حتى كادوا يوقعون فيهم الهزيمة ويصلون الى فسطاط عبد الملك نفسه . ولم ينه الموقف العنيف الا جنوح عبد الملك مع القيسيين حيث منح زفراً وجماعته الامان واسترضاهم واحسن اليهم .

ولقد سجل التاريخ حادثة عصبية قبلية في اليمامة بين بني تميم وبني عامر في اواخر حكم بني امية ، فقد ثار اهل اليمامة على عامل بني امية لما قتل الوليد بزعامة شخص اسمه المهر بن سلمى بن هلال من بني تميم وتمكنوا من طرد العامل واستولى الزعيم على الحكم محله .

ولما مات خلفه عبد الله بن النعمان من قبيلته ، وعين هذا عاملا من بني تميم لقرية الفلج من

---

(١) ج ٤ ص ١٣٠-١٣١ .

قرى بني عامر فثار العامريون عليه وادى ذلك الى انفجار العصبية القبلية بين القبيلتين وتعصب بعض القبائل مع واحدة وبعض القبائل مع واحدة فتفاقم الامر واخذ الفريقان يشتبكان في القتال ، وتعددت الايام بينهما فكانت ايام الفلج الاول والثاني والنشناش ولم تخمد الا بعد جهد كبير [1] .

ولقد كانت خراسان وما وراءها مسرحاً هاماً لهذه النعرة ، حيث كان فيها جماعات كثيرة تنتسب الى قبائل يمانية ومضرية فكانت العصبية تثور في مناسبات ومواقف مختلفة .

ومن اولى بوادرها ان سلماً بن زياد الذي كان والياً لخراسان في زمن يزيد بن معاوية دعا الناس الى مبايعته موقتاً حين فرغ العرش بعد تنازل معاوية بن يزيد الى ان يجتمع الناس على خليفته فبايعوه ثم نقضوا بيعته فترك خراسان واستخلف المهلب بن ابي صفرة وهو يماني أزدي ، فلقيه في طريقه عبد الله بن خازم السلمي وهو مضري بل من نابهي المضريين . وكان قد تولى خراسان سنة ٤٤ هـ من قبل عبد الله بن عامر والي البصرة [2] . فلما علم منه انه استخلف المهلب قال له اما وجدت في مضر رجلا تستعمله حتى تستخلف المهلب والح عليه حتى اخذ منه عهداً على خراسان .

وتخلى المهلب عن ولاية خراسان قبل قدوم ابن خازم ولكنه استخلف محله رجلا يمانياً

---

(١) ابن الاثير ج ٥ ص ١١٢–١١٣ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ١٦٠ ومما يرويه الطبري في سياق ذلك ان ولاية ابن خازم هذه المرة ايضاً كانت بطلب والحاح منه وباسلوب انتقادي لوالي البصرة لانه عين لولاية خراسان والياً ضعيفاً . وانه بعد ان استلم الولاية لقي العدو الذي ضعف عنه الوالي السابق وهزمه ، وان بعضهم شكاه لمعاوية فاستدعاه فأتى ومعه وفد من انصاره فلما سأله معاوية عن حاله قال (انا لست صاحب كلام وانما يتكلف الخطبة امام لا يجد منها بداً او احمق يهمر من رأسه لا يبالي ما خرج منه ولست بواحد منها . وقد علم من عرفني اني بصير بالفرص وثاب عليها ، وقاف عند المهالك ، انفذ بالسرية واقسم بالسوية) ثم نظر الى انصاره وقال انشدكم بالله من كان يعرف ذلك مني الا صدقني فقالوا صدقت ، حيث يبدو خلال ذلك قوة عقله ودهائه وشخصيته وطموحه فاحببنا ان نسجل ذلك لرجل من كبار رجال هذا العهد .

من بني جشم ، فلما جاء ابن خازم تصدى الجشمي له ومنعه فكانت مناوشة اشترك فيها المضريون انتصاراً لابن خازم واليمانيون انتصاراً للجشمي ، وقد انتصر ابن خازم وقتل الجشمي فحقد اليمانيون عليه وعلى المضريين وتصدوا له بقيادة بني مرثد اليمانيين وتضامن معهم بنو بكر بن وائل التزاريين فتغلب عليهم ايضاً .

فجاء المغلوبون الى زعيم يمني اسمه اوس فقالوا له نبايعك على ان تسير الى ابن خازم وتخرجه وتخرج مضر من خراسان كلها فاننا لا نرضى ان نكون نحن ومضر في بلد واحد . وما زالوا به حتى رضي فبايعوه ، وحاول ابن خازم ان يصلح امره معهم فأبوا وقالوا للوسطاء ليس له الان يخرج هو وجميع مضر من خراسان او يسلموا كل ما عندهم من سلاح وكراع وذهب وفضة .

ويروي ابن الاثير [1] انه كان لبني صهيب من زعماء الموالي يدفي احباط الوساطة حيث رأوا على ما يبدو في بقاء النزاع القبلي بين العرب شفاء لحقدهم على العرب . ومن ثم نشب النزاع والقتال بين الفريقين واستمر اكثر من سنة ثم جد الفريقان فدارت الدائرة على اليمانيين والتزاريين وقتل زعيمهم اوس فيمن قتل . وتوطد السلطان لابن خازم وانصاره في خراسان وما اليها نحو تسع سنين ، ولقد بايع ابن الزبير ودخل في طاعته ، والراجح ان ذلك بحافز من النعرة القيسية المضرية لان اليمانيين كانوا انصار الامويين .

وحاول عبد الملك ان يسترضي ابن خازم بعد قتل عبد الله ابن الزبير فأخفق فأغرى به صاحب شرطته او نائبه بكيراً بن وشاح وجعل له الولاية على خراسان ان هوغلبه ففعل رغم انه ثقفي مضري .

ولم تنته هذه القصة عند هذا الحد ، فقد كان له ابن اسمه موسى فر باثقال ابيه حينما شعر بالخطر ولجأ الى بخارى ومعه جماعة من قومه بني سليم فأخذ يتصاول مع الترك وتمكن من

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٢١-٤٢٦ و ٤٨٤ وبعدها وج ٥ ص ٢١-٤٠ .

توطيد سلطانه في اقليم الترمذ لمدة غير قصيرة .

وفي سنة ٨٥ هـ صارت ولاية خراسان ليزيد بن المهلب فلم تلبث النعرة اليمانية المضرية ان ثارت بين الرجلين وقومها فنشب النزاع بين موسى ومعه المضريون ويزيد ومعه اليمانيون الى ان انتصر اليمانيون فقتلوا موسى وشردوا جماعته [١] .

ولقد كانت هذه الفتنة بين الطرفين العربيين فرصة اغتنمها ملوك الترك فنقضوا عهدهم مع العرب ولم يتمكن العرب من توطيد سلطانهم ثانية عليهم الا بعد جهود ودماء كثيرة مما شرحناه في نبذة حركة الفتوح والمصاولات فيما وراء خراسان .

وارسل زعيم اسمه بحير الى عبدالملك بن مروان يخبره انه هو الذي قتل ابن خازم وليس بكيراً، ثم اخذ يشغب عليه وتعصب له جماعته وتعصب لبكير جماعته ، فنشب نزاع دام بين الجماعتين ، ثم تدخل آخرون فهدأوا الفتنة وكتبوا لعبد الملك يقولون له ان خراسان لا تصلح بعد هذه الفتنة الا لقرشي يسمعون له ولا يحسدونه ولا تتعرض البلاد للخطر فعزل عبد الملك بكيراً وعين خالداً بن امية . غير ان التناظر والتنافس لم يخف بين الزعيمين ، ولقد ولى خالد بكيراً اقليم طخارستان فجاء بحير يخوفه ويقول له انه سوف يخلع ويدعو الى نفسه فعدل فأثار ذلك بكيراً وقومه وقال بعض جماعة لبكير له إنا قتلنا انفسنا وعشائرنا حتى ضبطنا خراسان فجاء الوالي يلعب بنا وحرضوه على الخلع . وكان خالد قد خرج الى الغزو وخلف ابنه في مرو فطلب من بكير أن يعود ليكون الى جانب ابنه فقال له المحرضون بعد ان قطع خالد النهر احرق السفن وامضى الى مرو فاعتقل ابن الوالي واحكمها كلها ، فاستجاب للتحريض واحرق السفن حتى لا تسهل عـودة خالد بسرعة وعاد الى مرو فاعتقل ابن الوالي واعلن الخلع ودعا الناس الى مبايعته وكان جمهورهم من قومه فبايعوه .

وفي هذه القصة مـا هو ظاهر ممـا كانت تسوق اليـه المطامع والمآرب الشخصية

---

(١) الطبري ج ٥ ص ١٩٥ وبعدها .

من مواقف خطيرة ضارة في الكيان العربي .

وفي سياق الطبري ما يزيد هذه الصورة بشاعة وخطورة حيث يروي ان بكيرا قال للمحرضين اني اخاف ان يهلك الفرسان الذين معي فقالوا له نحن نأتيك من اهل مرو بما شئت ان هلكوا فقال لهم يهلك اذن المسلمون . فقالوا له يكفيك ان ينادي مناديك (من اسلم رفعنا عنه الخراج) حتى يأتيك خمسون الفاً اسمع لك واطوع .

وبلغ خبر ما فعله بكر وقومه الوالي خالداًفصالحاهل بخارى على فدية قليلة وعاد مسرعاً الى مرو وخرج بكير الى لقائه بمن عنده من فرسان قومه ورجالهم وسعى الناس الحيادیون في الصلح بين خالد وبكير وجعلوا خالداً يصدر اماناً لبكير . فأثار ذلك بحيراً الذي التزم مع جماعته جانب خالد وظل يسعى ضد بكير ويحرض خالداً عليه .وقال له فيما قال انه دعاه الى خلعه وقال لولا مكانك من هذا القرشي لقتلته وأورد شهوداً من قومه على ذلك فأمره بقتله فقتله في مجلس الوالي ، وناشده بكير ان لا يقتله بيده وقال له لا تفرق بين بني سعد بن تميم فقال له لا تصلح بنو سعد ونحن الاثنان حيان ! وكان ذلك سنة ٧٧ هـ .

ولم يسكت قوم بكير حتى اخذوا ثأرهم وقتلوا بحيراً وقد ساق الطبري ذلك في رواية فيها طرافة وصورة لما كان للثأر من قوة في صدور الناس . حيث تعاقد سبعة عشر رجلا من بني عوف بن سعد على اخذ ثأر بكير من بحير وخرجوا من البادية في العراق حتى قدموا الى خراسان . والتقى احدهم به واسمه الشمردل فشد عليه فطعنه فصرعه فظن انه قتلهفهرب فلحق به الناس وظنوه خارجياً وقتلوه . ولم يكن بحير قد مات : فاحتال واحد ثان منهم اسمه صعصعة حتى اتى بحيراً كأنه قصده ليساعده على ميراث له واعد خنجراً مغموساً في لبن اتان وظل يتربص به حتى وثب عليه في معسكر المهلب سنة ٨١ هـ فطعنه وقبضت عليه الشرطة فأتوا به المهلب فقال له بؤساً لك ما ادركت ثأرك وقتلت نفسك وما على بحير بأس فقال له لقد طعنته طعنة لو قسمت بين الناس لماتوا ولقد وجدت ريح بطنه في يدي. ودخل عليه قوم من الابناء – اولاد امهات فارسيات وآباء عرب او العكس – فقبلوا رأسه وقالوا ان بحيراً قد مات فقال فليصنعوا بي الآن ما شاؤوا أليس قد حلت نذور نساء بني عوف

وادركت بثأري . اما والله لقد امكنني ان اقتله لحدته غير مرة فكرهت ان اقتله سراً فقال المهلب ما رأيت رجلا اسخي نفساً بالموت صبراً من هذا ، فأمر بقتله

وهناك رواية ان بحيراً لم يكن قد مات وان المهلب ارسل صعصة اليه وانه قتله بيده ثم مات على اثر ذلك ! وفي اقدام صعصعة يقول رجل من الابناء :

لله در فتى تجـــاوز همـــه دون العراق مفاوزاً وبحورا

ما زال يدأب نفسه ويكدها حتى تناول في حرون بحيرا [1]

ومن ذلك ما كان بين المضريين وبني تميم من عصبية أدت الى قتل قتيبة بن مسلم وكثير من ذويه فقد كان زعيم تميمي اسمه وكيع عاملا لقتيبة والي خراسان فعزله عـــن عمله فحقد عليه . فلما مات الوليد بن عبد الملك وتولى الخلافة اخوه سليمان قام بحركة تمردية ضد قتيبة ذهاباً الى ان سليمان كان حاقداً عليه وانضوى اليه قومه وغيرهم مـــن اليمانيين كالازد ومذحج الذين كانوا هم الاكثر والاقوى في خراسان . وادى الامر الى الاشتباك بينهم وبين المضريين الذين تعصبوا لقتيبة والذين كانوا هم الاقل والاضعف فانتصر اليمانيون وقتلوا قتيبة وكثيراً من انصاره وذويه . وفي هذا النصر يقول الشاعر الطرماح مفتخراً :

لولا فوارس مذحج ابنة مذحج والازد زعزع واستبيح العسكر

قوم هم قتلوا قتيبة عنوة والخيل جانحة عليها العثير

بالمرج مرج العـــين حين تبينت مضر العراق من الاعز الاكبر

إذ حالفت جزعـــاً ربيعة كلها وتفرقت مضر ومـــن يتمضر [2]

ورائحة العصبية القبلية فائحة بقوة في هذه الابيات .

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٥ ص ١٤٣-١٤٥

(٢) الجزء السابق ص ٢٧٣-٢٨٤

ولقد عين سليمان وكيعاً والياً لخراسان لقاء حركته التي سر بها لأنه كان حاقداً على قتيبة على ما ذكرناه في سيرته .

غير ان بعضهم خوفه من غدر وكيع فاستبدله بيزيد بن المهلب فالتف حوله اليمانيون وتضامنوا معه . وكان موقفه من المضريين موقف الشانيء المنكمش حتى انه كان يفضل عليهم اهل خراسان . فكان هذا مما اثار حنقهم وعصبيتهم . وفيه يقول احد الشعراء المضريين نهار بن توسعة :

إذا لم يعطنا نصفاً امير	مشينا نحوه مثل الاسود
فمهلا يا يزيد انب الينا	ودعنا من معاشرة العبيد
نجيء فلا نرى إلا صدوداً	على انا نسلم من بعيد
ونرجع خائبين بلا نوال	فما بال التجهم والصدود[1]

وصار كل من اليمنيين والمضريين ينظر الى الآخر بنظرة العداء ويقف منه موقف المتربص ويفسر كل منهما اي موقف للآخر تفسيراً قبلياً فتثور عصبيتها لأدنى حادث او خلاف . وقد كان من آثار ذلك المصاولة التي وقعت بين يزيد وموسى بن عبد الله بن خازم المضري التي شرحناها قبل قليل .

ومما رواه ابن الاثير ان ديلمياً اسمه حيان تدخل وعمل على توسيع شقة الخلاف بين جماعتي وكيع وقتيبة . وقال لقومه دعوا العرب يقتل بعضهم بعضاً . حتى ان سعيداً الحرشي احد ولاة خراسان وصف هذا الديلمي بقوله ان هذا العبد أعدى الناس للعرب حيث يبدو في هذا الحادث صورة اخرى لاستغلال بعض زعماء العجم للنزاع القبلي الذي كان ينشب بين العرب !

وفي سنة ١٠٦ ثارت العصبية بين المضريين واليمانيين بالبروقان في ارض بلخ . وكان زعيم الاولين نصر بن سيار وزعيم الآخرين عمرو بن مسلم . وكان نصر حينئذ من قواد الجند

(١) نفس الجزء ص ٢٩٠ وبعدها

وكان سبب ذلك ان والي خراسان قطع النهر بسبيل حركة جهادية فتباطأ عنه اليمانيون لان الوالي كان مضرياً واسمه مسلم بن سعيد . فأرسل نصراً بن سيار وآخرين معه الى بلخ لارغام الناس على اللحوق بالجيش فتصدى له عمرو ومنعه من دخول بلخ . وعلم المضريون في في المدينة بقدوم نصر فخرجوا اليه . واحنق ذلك عمرواً وانصاره اليمانيين واعتبروا ذلك تحدياً لهم وزحفوا عليهم هاتفين بالبكر . وقابلهم نصر وجماعته واشتبكوا معهم وقتلوا جماعة منهم وهزموا الباقين . وظفر نصر بعد ذلك بعمر وآخرين من زعماء اليمانيين فضربهم مئة سوط وحلق رؤوسهم ولحاهم وعراهم من ثيابهم وألبسهم المسوح . وفي ذلك يقول نصر بن سيار فيما يقول :

ارى العين لجت في ابتدار وما الذي	يرد عليها بالدموع ابتدارها
فما انا بالوالي اذ الحرب شمرت	تحرق في شطر الخميسين نارها
ولكنني ادعو لها خندف التي	تطلع بالعبء الثقيل فقارها
وما حفظت بكر هنالك حلفها	فصار عليها عار قيس وعارها
فان تك بكر بالعراق تنزرت	ففي ارض مرو علها وازورارها
وقد جربت يوم البروقان وقعة	لخندق اذ حانت وآن بوارها
اتتني لقيس في بجيلة وقعة	وقد كان قبل اليوم طال انتظارها

ولقد تعرض الوالي بسبب تواطؤ اليمانيين عنه لهجوم تركي بقيادة خاقان حتى انتهب عسكره وحرق ما قيمته الف الف من متاعه . واستطاع الترك ان يمنعوهم من الماء . وحاولوا القيام بحملة مستميتة لكسر الطوق والوصول الى الماء فأحاط الترك بهم وكادوا ان يفنوهم . ولم ينقذهم إلا قدوم نصر بعد ان انتصر على اليمانيين وعاد ومعه نجدة من المضريين [١] .

وولي خراسان بعد مسلم اسد بن عبد الله القسري في سنة ١١٠ وهو يماني فبادر الى الثأر من نصر وجماعته فجلدهم بالسياط في مجلسهم واهانهم وقيدهم بالاغلال وحبسهم فترة من الوقت واخذ يعرض بهم في خطبه ويفخر بقومه اليمانيين وصولتهم وعددهم .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٧٩-٣٨٤

وقد بلغ من تعصبه لعصبيته ان افسد الناس . ووصلت انباؤه الى هشام فأمر خالداً اخاه والي العراق بأن يعزله ويعين شخصاً يعالج اسواء اخيه فعين الاشرس بن عبد الله السلمي فاستطاع ان يهدىء الاعصاب الثائرة فترة من الوقت وان يعيد التضامن بين الجماعات المتنافرة . وكان بعض انحاء بلاد الترك قد تمردت في اثناء الفتنة لانشغال العرب ببعضهم فتمكن الوالي الجديد من قمع التمرد وتوطيد السلطان العربي . وفي قدوم هذا الوالي وجهده يقول شاعر مضري :

لقد سمع الرحمن تكبير امة	غداة اتاها من سليم امامها
امام هدى قوى لهم امرهم به	وكانت عجافاً ما تمخ عظامها [1]

وظلت الفتنة نائمة في ولاية الجنيد الذي خلف الاشرس ولكن النعرة كانت ترفع صوتها كلما اقتضت المواقف حيث كان كل جماعة تعتز بأرومتها وتفخر بما كان يكون لها من مواقف بأساليب تنم على قوة النعرة فيها . فقد قاتل المضريون تحت قيادة نصر بن سيار في ظرف من الظروف قتالا شديدا كان سبب النصر فقال قائل منهم :

يا نصر انت فتى نزار كلها	فلك المآثر والفعال الارفع
فرجت عن كل القبائل كربة	بالشعب حين تخاصموا وتضعضعوا
يوم الجنيد اذ القنا متشاجر	والنحر دام والخوافق تلمع
ما زلت ترميهم بنفس حرة	حتى تفرج جمعهم وتصدعوا
فالناس كل بعدها عتقاؤكم	ولك المكارم والمعالي اجمع [2]

وفي سنة ١١٦ خلف الجنيد في ولاية خراسان عاصم بن يزيد الهلالي وهو مضري فأحنق ذلك اليمانيين لان الجنيد يماني . وصدف ان قام الحارث بن سريج بحركته التمردية التي شرحناها في نبذة الخوارج فسارع كثير من اليمانيين الى الانضمام الى حركته حتى بلغ عدد

---

(١) ٢٩٢ وبعدها

(٢) نفس الجزء ص ٤١٧ - ٤٢٢

المنضمين اليه ستين الفاً . وكانت حركته بسبب هذا التعضيد المنبثق من النعره القبلية من الحركات الخطيرة في تاريخ وبنيان السلطان العربي في خراسان وبلاد الترك وقد استمرت طويلا وبادر اهل البلاد الى التمرد لان الحركة شغلت العرب ببعضهم عـلى ما ذكرناه في النبذة المذكورة [١] .

وارسل هشام اسدا بن خالد القسري مرة ثانـية سنة ١١٧ لمعالجة الامر الطارىء لانـه يماني والثائرون يمانيون فاستطاع ان يخذل عن الحارث بن سريج كثيرا ممن انضوى اليه من اليمانيين . فما كان من الحارث إلا ان تحالف مع خاقـان الترك الذي كان اقوى مناوىء للسلطان العربي . وظل يناضل قوى الدولة الاموية معه ثم مع الترك من بعد قتله [٢]

ومما يرويه الطبري في سياق ذلك ان اسداً ظفر بسليمان بن كثير وغيره من دعـاة بني العباس في خراسان وكانوا يمانيين فأخذ يؤنبهم على حركتهم ضد الدولة الاموية فقـال له سليمان :

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

ثم اخذ يذكر له مواقف المضريين من اليمانيين ووصفهم بالعقارب وقال له انهم انما فعلوا هذا نكاية بهم . ولعل هذا مما يفسر ماجاءفي وصية الامام محمد بن علي لابي مسلم من تحريض شديد على المضريين وايجاب الرفق على اليمانيين في خراسان مما اوردنا نصه قبل .

ولقد تألف اسد المضريين هذه المرة فهدأت النعرة وتمكن بفضل ذلك من احراز اعظم نصر بقتله خاقان ملك الترك الاكبر الذي كان محراك المناوأة والتمرد في بلاد الترك ضد السلطان العربي وتشتيت شمل انصاره وتوطيد هذا السلطان على هذه البلاد [٣] .

ومات اسد سنة ١٢٠ فعين خالد بن عبد الله اليماني والي العراق جديعاً بن علي الكرماني

---

(١) ص ٤٢٧ – وبعدها

(٢) نفس الجزء ص ٤٣٢ وبعدها (٣) ايضاً .

وهو يماني والنسبة بسبب ولادته في كرمان مكانه واليا على خراسان . وكان الخليفة قد اضطغن على خالد فلم يوافق على ولاية جديع وعزله وعزل خالداً على ما ذكرنا اسبابه في سيرة هشام وعين نصراً بن سيار والياً على خراسان .

ومما يروى ان بعض رجال هشام قالوا له انه نصراً لا عشيرة له فقال انا عشيرته مما فيه[1] دلالة على ما كانت العصبية القبلية تلعبه من دور في حياة المجتمع العربي في هذا العهد وعلى كون المضريين وبخاصة قوم نصر الادنين كانوا الاقل بالنسبة لليمانيين .

ولقد اثار عزل الكرماني وتعيين نصر غضب اليمانيين وادى ذلك الى تجدد الفتنة بينهم وبين المضريين في سنة ١٢٦ هـ وكانت فتنة هوجاء امتدت بضع سنين وكان لها نتائج سيئة في سلطان الامويين وكيانهم لانها صادفت ظروف اشتداد الدعوة العباسية في خراسان بزعامة ابي مسلم واوجدت في صفوف الجماعات العربية من الثغرات ما سهل لهذه الدعوة الانتشار والنجاح حتى قال في ذلك الحارث بن عبد الله الجعدي هذه الابيات المعبرة عن مدى القلق من ثوران النعرة وشدتها :

ابيت ارعى النجوم مرتفقاً	اذا استقلت تجري اوائلها
من فتنة اصبحت مجللة	قد عم اهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن	بالشام كل شجاه شاغلها
فالناس منها في لون مظلمة	دهماء ملتحة غياطلها
يمسي السفيه الذي يعنف	بالجهل سواء فيها وعاقلها
والناس في كربة يكاد لها	تنبذ اولادها حواملها
يغدون منها في كل مبهمة	عمياء تمنى لهم غوائلها
لا ينظر الناس في عواقبها	الا التي لا يبين قائلها

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٤٧٧ وبعدها .

كرغوة البكر او كصيحة حبلى طرقت حولها قوابلها
فجاء فينا ازري بوجهته فيها خطوب حمر زلازلها[1]

ومع ان الروايات تذكر ان نصراً حاول تألف الناس وكان يحذرهم من الفتنة وعواقبها ويقول لهم انكم مسلحة في نحور العدو فاياكم ان يختلف فيكم سيفان . وانه كان شديد الاخلاص للدولة عظيم الحرص على توطد السلطان العربي قوي الضبط للولاية شجاعاً مقداماً وكان له ما شرحناه في نبذة المصاولة والفتوح في بلاد الترك من بلاء عظيم قبل ولايته لخراسان وفي اثنائها كما كان له جهد كبير في قمع الفتن والتمردات وعمرت خراسان في عهده عمارة لم يعهد مثلها قبله وقيل فيه :

أضحت خراسان بعد الخوف آمنة من ظلم كل غشوم الحكم جبار

بحيث يصح ان يسلك في سلك كبار رجال العرب والدولة الاموية فانه لم يخلص من شائبة النعرة القبلية فكان ذلك من اسباب هيجان الفتنة . ومما روي انه جعل جميع العمال في اقاليم خراسان وما وراءها من المضريين حتى قال يماني ما رأيت عصبية مثل هذه[2] .

وكان من اسباب هيجان الفتنة المباشرة تباطؤ نصر في توزيع الاعطيات على اهل الدواوين حيث اخذ بعض اليمانيين يثيرون النقمة عليه ويقفون في المساجد يهتفون مطالبين بأعطياتهم فوعدهم فلم يصبروا ، وحذرهم من الفتنة فلم يرعووا ووثب اهل السوق الى اسواقهم . فغضب نصر وقال مالكم عندي بعد هذا عطاء ، ومن ثم اخذوا يتجمعون على جديع الكرماني ويحرضونه على حركة تمردية ضد نصر ، وقال المضريون لنصر ان الكرماني يفسد عليك فاقتله فأبى وقال استصلحه بالمصاهرة والمال فأبوا عليه والحوا حتى حبسه مع

---

(١) الطبري ج٥ص ٥٨٥ .

(٢) الجزء السابق ص ٤٨٠ واقرأ ايضاً سيرة نصر في ولاية خراسان في هذه الصفحة وما بعدها الى آخر الجزء ثم في اوائل الجزء السادس .

التنبيه على عدم مسه بأذى . واهاج حبسه اليمانيين وبخاصة الازديين الذين كان الكرماني منهم فهاجموا السجن واخرجوه[1] ثم اخذوا يحتشدون ويستعدون للقتال ويطالبون بخروج نصر من خراسان ، واستعد نصر لقمع الحركة ، وسعى الوسطاء بين الفريقين محذرين من العواقب السيئة الداخلية والخارجية فنجحوا في الحيلولة دون الاشتباك ولكن الحالة كانت كالجمر تحت الرماد . وكان الحارث بن سريج ما زال في بلاد الترك فأرسل اليه نصر يعرض عليه الامان طمعاً في تعضيده لما صار له من اسم وشهرة ومنعاً لاتصاله بالكرماني او اتصال الكرماني به وتضامنهما ضده . واغتنم الحارث الفرصة فقبل الامان وعاد الى خراسان ثم اخذ يستغل الموقف لنفسه ، فتجهم له ونبذه ، فانحاز الى الكرماني وتواطأ معه ، وازداد الموقف بذلك حرجاً ، وحاول نصر ان يتفاهم مع الكرماني وحذره الفتنة فلم يغن شيئاً ، و تلبث النار ان التهبت وصارت الاشتباكات تقع والدماء تراق بين اليمانيين والنزاريين . وتساجل النصر بين الطرفين ، اياماً لهؤلاء واياماً لهؤلاء ، واستطاع اليمانيون مرة ان يغلبوا على مرو عاصمة الامارة ويلجئوا نصراً الى الفرار منها ويهدموا دور النزاريين فيها ، وكان ذلك سنة ١٢٨ وفي هذا يقول شاعر مضري اسمه عباد بن الحارث :

الا يا نصر قد برح الخفاء	وقد طال التمني والرجاء
واصبحت المزون بارض مرو	تقضي في الحكومة ما تشاء
يجوز قضاؤها في كل حكم	على مضر وان جار القضاء
وحمير في مجالسها قعود	ترقرق في رقابهم الدماء
فان مضر بذا رضيت وذلت	فطال لها المذلة والشقاء
وان هي اعتبت فيها والا	فحل على عساكرها العفاء[2]

---

(١) من طريف ما يروى انهم حينما ارادوا اخراجه من ثغرة في السجن خرجت حية وانطوت على بطنه فلم تضره فما كان من احد الذين جاؤوا لاخراجه ان قال انها حية ازدية ٠٠ (٥٨٨) .

(٢) ج ٦ ص ١٣ .

ولقد كانت تميمية يمانية متزوجة بمضري فلما هاجت الفتنة قالت هذه المقطوعة الشعرية التي ينطوي فيها دلالة على ما كان للعصبية القبلية من اثر وحافز :

لا بارك الله في انثى وعذبهـــا	تزوجت مضرياً آخر الدهـــر
ابلغ رجال تميم قول موجعـة	احللتموها بـدار الذل والفقر
ان انتم لم تكروا بعد جولتكم	حتى تعيدوا رجال الازد في الظهر
اني استحييت لكم من بذل طاعتكم	هذا المزوني يجبيكم على قهر [1]

ثم اصطدم الكرماني مع الحارث بن سريج لان كلا منهما كان يطمح الى السلطان فتعصب اليمانيون مع الكرماني وخذلوا الحارث لانه مضري ، وقتلوه مع بعض انصاره من المضريين الذين كانوا معه في الجبهة المتحالفة . وفي هذا يقول نصر بن سيار منددا بالحارث وموقفه من التحالف مع اليمانيين ضده وهو مضري مثله ورائحة العصبية القبلية تفوح من قوله :

يا مدخـل الذل على قومـــه	بعـداً وسحقاً لك مـن هالك
شؤمك اردى مضراً كلهـــا	وغض مـن قومك بالحارك
ما كانت الازد واشياعهـــا	تطمع في عمـرو ولا مالك
ولا بني سعد اذا الجمـــوا	كل طمر لونـــه حالك [2]

ولقد استغل ابو مسلم هيجان النعرة واشتداد العداء بين اليمانيين والمضريين وانشغالهم ببعضهم واندماج نصر وهو الحاكم في هذه الغمرة فأرسل كتيبة من كتائبه الى مدينـــة مروروز فاستولى عليها وقتل عامل نصر فيها ثم اخذ يوسع نشاطه ويقوي حركته .

وبدا خطرها بارزاً ملموساً على السلطان الاموي الذي لم يكن اليمانيون ضده من حيث

---

(١) نفس المصدر والصفحة السابق ذكرهما . (٢) ايضاً .

الاصل ، فسعى بعض رجالات العرب بين نصر والكرماني ليتهادنا ثم ليتضامنا في الوقوف في وجه حركة ابي مسلم ، وهتف احد الوسطاء من الزعماء يحيى بن هبيرة باليمانيين يخوفهم من عواقب هذه الحركة وقال لهم ان لم تتصالحوا مع مضر وتكونوا يداً واحدة فسوف تهلكون معاً قبل المضريين او بعدهم ، فاستجابوا وتفاوضوا وكتبوا كتاب هدنة ومحالفة ، ودخل في ذلك شيبان الخارجي الذي كان ينشط باسم الدعوة الى الكتاب والسنة أملا بأن يكون لدعوته مجال بينهم .

ولقد روى ابن الاثير ان اهل خراسان لما رأوا أن العرب قد تهادنوا وتحالفوا بدا عليهم خوف وتردد . فهتف بهم قحطبة بن شبيب احد كبار النقباء في الدعوة العباسية ويد ابي مسلم اليمنى محركاً لنعرتهم فقال لهم فيما قال (ان هذه البلاد بلادكم ، سخط الله عليكم فأخذها منكم اذل امة في الارض فاغتنموا الفرصة وأيدوا الدعوة واستبسلوا في سبيلها حتى تسترجعوا سلطانكم على بلادكم)[1] فأثار حماستهم وأزال ترددهم .

وبذل ابو مسلم وجماعته جهودهم في حمل الكرماني عـــلى نقض الهدنة ووعده بالمساعدة واثار حقده فنجح في مسعاه ، وهتف زعيم آخر اسمه قديد بالكرماني قائلا لله لقد لججت ياابا علي واخاف ان يتفاقم الامر فنهلك جميعاً وتشمت بنا هذه الاعاجم .

ولكن الكرماني ظل سادراً في غيه فعادت الاشتباكات ثانية بين اليمانيين والمضريين واستطاع اليمنيون ان يستولوا على مرو ويلجئوا نصراً الى الفرار منها ، وانتصر المضريون

---

(١) ابن الاثير ج ٥ ص ١١٣ وبعدها . تذكر الروايات ان قحطبة هذا من طيء (انظر الطبري ج ٦ ص ٤٥) وهذه الروايات تذكر ان اكثر من واحد من النقباء كانوا عجما مثل شبل بن طهمان وابي علي الهروي (انظر الجزء والصحيفة المذكورة من تاريخ الطبري) والكلام المروي عن قحطبة اشبه ان يكون كلام رجل غير عربي ناقم على العرب ، فان كان عربياً حقاً وليس ولاء ففي كلامه دلالة على ما وصلت اليه الرغبة في ابي مسلم وجماعته في انجاح الدعوة على انقاض العرب ، وهذا ملموح في وصايا محمد بن علي وابنه ابراهيم العباسيين التي اوردناها في نبذة الحركة العباسية .

في جولة بعدها فقتل نصر الكرماني وصلبه فأهاج هذا عصبية اليمانيين بأشد مما كانت بزعامة علي وعثمان ابني الكرماني وادامهم الى التحالف مع ابي مسلم الذي وعدهم بالنصر والمساعدةعلى ادراك ثأرهم ، وارسل نصر الى شيبان الخارجي يحذره من العواقب ويعرض عليـــه الصلح فسعى ابو مسلم حتى احبط المسعى وهتف ابو مسلم بشيعته (ان الله قد اعفاكم من اجتماع كلمة العرب وصيرهم بنا الى افتراق حيث ينطوي في هذا صورة اخرى من صور ما كانت تؤدي اليه العصبية القبلية من ضرر وخطر بكيان الدولة الاموية .

ولقد استمرت الجولات بين اليمانيين والمضريين في اطراف مرو ، ودارت هذه المرة الدائرة الحاسمة على المضريين فانهزموا مع مرو الى طوس ثم الى نيسابور . ولم يضيع ابو مسلم الفرصة حيث كان تلقى الامر باظهار دعوته فأظهرها واخذ يسير كتائبه ويستولي على انحاء خراسان ويقاتل عمال الدولة وحامياتها ويقتل المضريين بخاصة قتـــلا ذريعاً ، ثم تخلص من شيبان الخارجي ومن ابني الكرماني وانصارهم لأنه رآهم عقبة في طريق دعوته على ما شرحناه في نبذة الحركة العباسية .

وهكذا كانت هذه النعرة من الاسباب الهامة التي ادت الى نجاح هذه الحركة .

ولقد اثر عن نصر بن سيار ابيات من الشعر يوجه فيها التحذير للعرب ويندد بهذه النعرة ويذكر ما كان من استغلال ابي مسلم لها . غير ان الروايات التي اوردنا خلاصتها تجعلـه من المسؤولين عنها بدون ريب وهذه هي للعبرة والتاريخ :

أبلغ ربيعة في مرو وإخوتهـــم ... فليغضبوا قبل ان لا ينفع الغضب

ولينصبوا الحرب ان القوم قد نصبوا ... حربـاً يحرق في حافاتهـا الحطب

ما بالكم تلحقون الحرب بينكم ... كأن اهل الحجى عن رأيكم غرب

وتتركون عدواً قـــد أظلكم ... ممـــا تأشب لا دين ولا حسب

قوما يدينون ديناً ما سمعت به ... عن الرسول ولم تنزل به الكتب

فان تكن سائلي عن اصل دينهم   فان دينهم ان يقتل العرب [1]

ولقد لعبت هذه العصبية دوراً قوياً فيما قام من فتن بين الاسرة الاموية في سنة ١٢٦ وبعدها وهي فتن شغلت خلفاء بني امية بعض الشيء عن الالتفات الى مـــا كان يجري في خراسان من نشاط الدعوة العباسية .

ولقد كان هشام بن عبد الملك اذن لوالي العراق يوسف بن عمر بتعذيب الوالي السابق خالداً بن عبد الله القسري وتحصيل ما ادخله في ذمته من اموال الدولة ففعل ثم قتله باذن الوليد الثاني بن يزيد الثاني على ما شرحناه في سيرة هشام والوليد وكان خالد يمانياً فأثار قتله اليمانيين بقيادة ابنه يزيد .

وكان والي قنسرين الوليد بن القعقاع قد ضرب يزيد بن هبيرة احد رجالات العرب مئة سوط في خلافة هشام ، وكان هذا مضرياً فلما صارت الخلافة الى الوليد الثاني جاء اليه ابن هبيرة وجماعته وطلبوا نصرته على ابن القعقاع فأمر الوليد باعتقاله واعتقال اخيه عبد الملك والي حمص ونفر من ذويهما وتسليمهم لبني هبيرة حيث عذبوهم حتى ماتوا .

وكان آل القعقاع يمانيين ايضاً فازدادت بذلك نقمة اليمانيين على الوليد الثاني وتألبوا عليه مع الناقمين عليه من بني امية وعلى رأسهم يزيد الثالث بن الوليد حتى قتلوه فانفتح بذلك باب الشر الذي شرحنا صفحاته في سيرة الوليد ويزيد ومروان .

وفي قتل الوليد يقول احد اليمانيين شامتاً متفاخراً منذراً :

لقد سكنت كلب واسباق مذحج   صدى كان يزقو ليله غير راقـــد

---

(١) الشعر من مرويات العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٢ وسياق النزاع المضري اليماني بزعامة نصر بن سيار والكرماني مقتبس من تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٧٣-٣٧٩ و ٥٨٤-٥٨٩ و ج ٦ ص٢-٥٦ وجملة (فان دينهم ان يقتل عرب تتطابق مع وصية محمد بن علي وابراهيم بن محمد الامامين العباسيين لابي مسلم على ما اوردنا نصوصه في نبذة الحركة العباسية .

تركن امير المؤمنين بخـــالد ... مكباً على خيشومه غير ساجد

فان تقطعوا منا مناط قلادة ... قطعنا به منكم مناط قلائــــد

وان تشغلونا عـــن ندانا فاننا ... شغلنا الوليد عن غناء الولائد

وان سافر القسري سفرة هالك ... فان ابا العباس ليس بشاهـد

ويقول آخر منهم :

سائل وليداً وسائل اهل عسكره ... غداة صبحه شؤبوبنا البرد

هل جاء مـن مضر نفس فتمنحه ... والخيل تحت عجاج الموت تطرد

من يهجنا جاهـلا بالشعر ننقضه ... بالبيض انا بهـــا نهجو ونقتئد [1]

حيث تبدو رائحة النعرة القبلية قوية .

ولقد ثارت هذه العصبية في العراق في سنة ١٢٧ هـ بين المضريين بزعامة النضر بن سعيد الحرشي وبين اليمانيين بزعامة عبد الله بن عمر الذي كان والياً للعراق في ظروف كان الخوارج ثائرين فيها فأدى ذلك الى اشتداد امر الخوارج واستيلائهم عـــلى الحكم في منطقة واسعة من العراق .

ولم يذكر الطبري الذي يسوق الخبر اسباب ذلك . وعبد الله بن عمر الوالي هو ابن عمر ابن عبد العزيز الاموي . وفي هذه صورة طريفة من صور هذه العصبية حيث يتزعم اليمانيين فيها اموي مضري !

ولقد كانت هذه الحادثة بعد مقتل الوليد الثاني الذي كان لتألب اليمانيين الاثر الاقوى في مقتله على ما ذكرناه في سيرته . فلعل هيجان هذه العصبية يمت الى ذلك بسبب ما .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٤٣-٢٦٤ .

وقد ذكر الطبري ان الفريقين اقتتلا اياماً عديدة بين الكوفة والحيرةوان الضحاك بن قيس الخارجي الذي ذكرنا كيفية بروزه في نبذة الخوارج اغتنم الفرصة فزحف على العراق وبسط سيطرته على قسم واسع منه. وان اليمانيين والمضريين الذين ادركوا ما جرته عصبيتهم على بنيان الدولة والحكم اصطلحوا واجتمعوا على قتال الخوارج. غير ان صلحهم لم يستمر إلا برهة يسيرة لأن بعض المضريين قتلوا عاصماً بن عمر بن عبد العزيز اخا الوالي فعادت العصبية الى الثوران واستأنف الفريقان الاقتتال ثانية. واستمرت ثائرة طيلة اربعة اشهر والاشتباكات تتكرر بين الفريقين. فكان ذلك مما مكن الخوارج من بسط حكمهم على الكوفة ومعظم السواد وجعل الوالي يعترف بحكمهم هذا مقابل اعترافهم بحكمه فيما ظل خارج حوزتهم من البلاد التابعة لوالي العراق.

واقد كان هذا الارتباك مما شغل مروان بن محمد وواليه في العراق ابن هبيرة عن التفرغ لمقاومة نشاط ابي مسلم في خراسان مضافاً الى ما شغل مروان من احداث اخرى في الشام والحجاز على ما شرحناه في سيرته [1].

ولقد لعبت هذه النعرة دوراً كبيراً في الاندلس ايضاً وكان من نتائجها وهن القوة العربية وانشغالها واغتنام الافرنج الفرصة للكرة على بلاد المسلمين وكسب بعض الجولات عليهم.

ولقد كان بدء ثوران هذه النعرة الذي ادى الى الاقتتال عزل عبد الملك بن قطن الفهري المضري عن ولاية الاندلس وتعيين عقبة بن الحجاج السلولي اليماني مكانه. فقد حنق عبدالملك لعزله واستثار نعرة الجماعات المتفرعة عن القبائل المضرية حتى ثاروا بزعامته على الوالي وقتلوه سنة ١٢٣ وعاد عبد الملك للولاية نتيجة لذلك. وبدون تثبيت من الخليفة. واثار قتل عقبة اليمانيين فثاروا ضد عبد الملك وضد المضريين بقيادة بلج بن بشر القشيري وانتصروا على المضريين وقتلوا عبد الملك. وصار بلج والياً نتيجة لذلك بدوره. ولم يصبر ابنا عبد الملك

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٦١١ وبعدها.

قطن وامية على ذلك فأثارا قومهم المضريين وقاموا بحركة تمردية ضد بلج وانصاره اليمانيين وانضم اليهم جماعات من المولدين من مسلمي الاسبان وجماعات من البربر ايضاً .وقدانتصروا على اليمانيين وقتلوا بلجاً فيمن قتلوا منهم . غير ان النصر لم يكن حاسماً حيث بقي لليمانيين قوة متماسكة فنصبوا والياً جديداً منهم مكان بلج اسمه ثعلبة بن سلامة . ولقد اقر الخليفة هشام بن عبد الملك ولاية ثعلبة ودانت له الاندلس لفترة من الزمن .

ولقد عاد المضريون الى هياجهم وتحشدوا بقصد القيام بحركة تمردية ضده. ولكنه استطاع ان يضربهم ضربة شديدة عند اسوار ماردة . ورأى الخليفة ان يستبدله فعين مكانه ابا الخطار حسام الكلبي وامره بحسم النزاع والتنافس القبليين وكان ذلك سنة ١٢٥ هـ . ولقد حاول الوالي الجديد ذلك وأجرى مصالحة بين الفريقين غير انه لم يمنع نفسه من محاباة اليمنيين الذين تنتسب قبيلته اليهم حتى اثر عنه هذه الابيات التي يذكر فيها ما كان من موقف قبيلته وانتصارها على القيسيين في معركة مرج راهط ويذكر بني مروان بذلك في الوقت نفسه :

افادت بنو مروان قيساً دماؤنا ... وفي الله ان لم يعدلوا حكم عدل

كأنكم لم تشهدوا مرج راهط ... ولم تعلموا من كان ثمّ له الفضل

وقيناكم حر القنا بنحورنا ... وليس لهم خيل تعد ولا رجل [1]

ومن ثم عادت الحرب الاهلية ثانية بين اليمنيين والمضريين .

ومما رواه ابن الاثير في صدد ذلك ان زعيماً مضرياً اسمه الصميل بن حاتم اهين في مجلس ابي الخطار وتعتع فخرج وعمامته مائلة فقال له بعض الناس ما بال عمامتك مائلة فقال لهم ان كان لي قوم فسيقيمونها . وقد غضب قومه له وثاروا على أبي الخطار بقيادة ثوابة بن سلامة وكتب لهم النصر على اليمانيين وقتلوا ابا الخطار في جملة من قتلوه منهم واقاموا ثوابة والياً فأقره والي المغرب . ولما مات حاول اليمانيون ان يكون الوالي منهم فعارضهم المضريون بزعامة الصميل وتفاقم الامر حتى كاد الصدام يتجدد بينهم ثم اتفقوا على تعيين يوسف بن عبد

---

(١) ابن الاثير ج ٥ ص ١٠٠ .

الرحمن الفهري لمدة سنة فيتولاها بعده وال يمني . فلما مضت السنة اقبل اليمنيون للمطالبة بالشرط فبيتهم المضريون بزعامة الصميل وقتلوا منهم خلقاً كثيراً . وقد اقتتلوا بالرماح حتى تقطعت وبالسيوف حتى تكسرت ثم تجاذبوا بالسقور . وعرفت هذه الوقعة بوقعة شقنده لأنها كانت عندها .

ونتيجة لذلـــك استتب الحكم ليوسف الفهري وطالت ولايته حتى سنة ١٣٨ هـ دون مصادقة من خلافة الشام التي كانت في ظروف ولايته مرتبكة . وقد استطاع هذا الوالي ان يضبط امور الدولة ويقمع ما قام بها من فتن .

ولقد ظل اليمانيون حانقين على المضريين وحكومتهم فلما قدم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك المعروف بالداخل الى المغرب فاراً من المشرق بعد سقوط الدولة الاموية وذبح معظم الامويين التفوا عليه وناصروه فتغلب نتيجة لذلك على يوسف الفهري وقتله وحل محله في حكم الاندلس سنة ١٣٨ فكان ذلك بدء الدولة الاموية الاندلسية [١] .

وهكذا قدر للنعرة القبلية ان تلعب دورها في حياة بني امية ودولتهم . فقد كانت من العوامل التي حفزتهم على إقامة دولتهم . ثم كانت من العوامل التي وطدت دولتهم بعد ان كادت تزول حينما تنازل معاوية الثاني وقويت دعوة ابن الزبير . ثم كانت من العوامل التي وطدت دولتهم الثانية في المغرب حينما زالت دولتهم الاولى في المشرق . وقد كانت في الوقت نفسه من الاسباب التي سهلت نجاح دعوة ابي مسلم في تقويض هذه الدولة .

ومن عجائب الصدف ان اليمانيين كانوا أنصارهم في توطيد دولتهم بعد تنازل معاوية الثاني . وكانوا انصارهم في توطيد دولتهم الاندلسية . وكانوا ضدهم في خراسان حيث جعلهم النزاع بينهم وبين المضريين فيها من انصار ابي مسلم ! وقد انفتح باب الفتنة بين الامراء الامويين نتيجة لتألبهم على الوليد الثاني الناقمين عليه وقتلهم اياه .

---

(١) تاريخ العرب في الاندلس عبد الله عنان ص ٦٣–٦٧ والاستقصاء لدول المغرب الاقصى للسلاوي ج ١ ص ٩٤–١٠٧ واماكن متعددة من الجزء الخامس من تاريخ ابن الاثير .

١٢ - ولاية العهد

•

واتماماً لسلسلة المعكرات ننبه على ان مسألة ولاية العهد في الدولة الاموية كانت تعكر صفاء هذا العهد وتثير الاحقاد بين ابناء الاسرة الاموية . وكانت بادرتها الاولى اي ولاية عهد يزيد بن معاوية ذريعة ادت الى حركتي خروج الحسين وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما العنيفتين اللتين كانتا في حد ذاتها وبما ادتا اليه من احداث خطيرة اخرى من اشد المعكرات وأشأمها وابعدها سوء أثر ونتائج .

ولقد فصلنا هذه المسألة واوردنا شواهدها في مطلع الجزء كما ألممنا بأحداثها في سياق سيرة الخلفاء الذين كانت في عهدهم فنكتفي هنا بهذه الاشارة .

•

هذا وهناك احداث عديدة اخرى تمت الى هذه النبذة لأنها من معكرات صفو هذا العهد . ومنها ما كان له نتائج مشؤومة وسيئة على الدولة بما ثار بسببه بين الاسرة الاموية من فتن كادت تعصف بالدولة وذهب احد الخلفاء الوليد بن يزيد وولي عهده ضحية فيها . ومنها ما ظل ضيق المدى والاثر ومنهاما امكن معالجته بسرعة.

وقد رأينا ان هذه الاحداث امس بسيرة الخلفاء الذين وقعت في زمنهم فأوردناها في سياق سيرتهم ونذكرها هنا لاتمام الصورة . وهي حادث مقتل حجر بن عدي ورفاقه في سيرة معاوية . وحادث مقتل عمرو بن سعيد بن الاشدق في سيرة عبد الملك بن مروان . وحوادث عزل واضطهاد موسى بن نصير ومقتل ابنه عبد العزيز ومقتل قتيبة بن مسلم ومحمد ابن القاسم واضطهاد عمال الحجاج في سيرة سليمان بن عبد الملك وثورة المغرب على يزيد بن عبد الملك . ومقتل خالد بن عبد الله القسري وبني القعقاع واضطهاد بني هشام بن عبد الملك في سيرة الوليد بن يزيد . وعزل يوسف بن عمر والي العراق وحبسه في سيرة يزيد بن الوليد ومقتل يوسف بن عمر والي العراق وولي عهد الوليد بن يزيد في زمن ابراهيم بن الوليد .

الفصل الرابع

فذلكة عامة

عن مختلف احوال الدولة الاموية

فذلكة عامة عن مختلف احوال الدولة الاموية [1]

١ ـ رئاسة الدولة

•

اول ما توطدت رئاسة الامويين على جميع الدولة العربية الاسلامية كان بما تم من بيعة اهل الشام ومصر لمعاوية اولا ثم بما تم من تنازل الحسن بن علي له ومبايعته له ومبايعة جميع الاقطار التي لم تكن دخلت في بيعته ثانياً .

وقد تلقب معاوية بلقب امير المؤمنين وبالخلافه وكان يخاطب بهما من جمهور المسلمين . ومن جملتهم الاحياء من اصحاب رسول الله ﷺ ومن جملتهم الحسن والحسين ومحمد ابنا علي واقاربه من بني هاشم عباسيين وطالبيين جرياً على ما كان عليه الامر في عهد الخلفاء الراشدين .

وكانت رئاسة الذين خلفوا معاوية تتم بمبايعة اهل الحل والعقد والشأن في عاصمة الدولة وعواصم الامصار ، واستمروا على التلقب بلقب امير المؤمنين والخلافة وكان الناس يخاطبونهم باللقبين .

وباستثناء مروان بن الحكم ويزيد بن الوليد ومروان بن محمد تولى الخلفاء الآخرون

---

(١) جل ما جاء في هذه النبذة مستند الى الروايات الواردة في مختلف فصول الجزء المسندة الى مصادرها . وما لم يكن كذلك فقد ذكرنا مصادره .

من بعد معاوية نتيجة لتوليتهم العهد من الخليفة السابق لهم في حياتـــه حيث عين معاوية ابنه يزيد ولياً لعهده واخذ له البيعة على ذلك من اهل الحل والعقد في العاصمة والامصار ثم سار الخلفاء على هذه الطريقة مع سنة اخرى حيث كانوا يعينون وليين للعهد .

وكان الذين يتولون الحكم من اولياء العهد مع اعتبار بيعتهم لازمة في اعناق المسلمين يعمدون الى اخذ البيعة لأنفسهم مجدداً حينما يموت الجالس قبلهم تأكيداً وتوثيقاً لشرعية حكمهم وسلطانهم .

والثلاثة الذين تولوا بدون تولية للعهد من خليفة سابق حصلوا على بيعةاهل الحل والعقد والشأن في العاصمة والامصار .

وكان الخليفة يعتبر نفسه ويعتبره المسلمون ممثلا للاسلام والمسلمين ومرجعاً لهما وخليفــة للنبي ﷺ في كل ذلك ، وكان هو صاحب السلطة التنفيذية النافذة في كل شأن من شؤون الدولة الخارجيه والداخلية ، فيختار الولاة والقواد العامين ويعزلهم ، وتجبى باسمه الاموال وتصرف باسمه وبأمره .

والمأثورات الكثيرة المروية عنهم تسوغ القول بجزم انهم كانوا في الاعم الاغلب يلحظون اوامر الله ونواهيه في كتابه وسنن رسوله ويستوحون مصلحة المسلمين العامة ويلتزمون حدود الحق والعدل والاعتدال في تصرفاتهم وعزائمهم الداخلية والخارجية والسياسية وغير السياسية ، ويحرصون على اقامة الحدود والذب عن حياض الدين والتنكيل بالمنحرفين عن كتاب الله وسنة رسوله من الولاة والعمال وغيرهم والايقاع بأصحاب المقالات والبـــدع واقامة الشعائر الدينية من صلاة وحج وصوم والابتعاد عن الموبقات والكبائر وما يتنافى مع المروءة والاستماع الى المواعظ والاعتبار بها وافساح الحرية للوعاظ والناصحين ، وفتح ابوابهم للمتظلمين وانصافهم ، والرفق بالضعفاء والفقراء وذوي العاهات . واقامة المنشآت الدينية والاجتماعية ، واخذ ابنائهم وعمالهم بمثل ذلك . مع التسجيل بأن هناك مأثورات يجوز ان تكون صحيحة تفيد ان كثيرا منهم بل جلهم باستثناء عمر بن عبد العزيز كانوا يشذون احياناً عن ذلك ويسكتون عن الشذوذ عنه من عمالهم وقوادهم وابنائهم ، ويندفعون في

تصرفاتهم ومواقفهم بدوافع الانانية والحقد والعاطفة او المقاصد الشخصية والاسروية التي لا مبرر لها من دين وخلق .

والمأثورات تسوغ القول انه كان لكل خليفة وزراء ومستشارون يستعين بهم في البت في الامور المعروضة والطارئة . ويدخل في ذلك تعيين الولاة والقواد والقضاة والعمال وعزلهم وتسيير الجيوش وتقدير المخصصات والمنح ونفقات الدولة المتنوعة الاخرى . وقد يكون لهؤلاء اثر فيما كان يحدث من الخلفاء من شذوذ بطبيعة الحال .

وفي ما رويناه في سيرة معاوية بن ابي سفيان من وصف عمل اليوم الكامل لمعاوية من ان وزراءه كانوا يعرضون عليه ما عندهم من امور ويؤامرونه فيها تأييد وتوديد لذلك .

وقد روي ان روح بن زنباع كان يلقب بلقب وزير عبـــد الملك . وان زياد بن ابي سفيان كان يلقب بلقب وزير معاوية . وكلمة وزير للمستشار او المساعد للرئيس الاعلى بما وصف به كل من ابي بكر وعمر رضي الله عنهما في حديث نبوي اوردنـــاه في الجزء السابق جـــاء فيه (لكل نبي وزيران في الارض ووزيران في السماء ووزيراي في الارض ابو بكر وعمر وفي السماء جبريل وميكائيل) .

ولقد حرص اليعقوبي على تسمية اشخاص وصفهم بالغالبين على الخلفاء الامويين في عقب سيرة كل خليفة مثل عمرو بن العاص والضحاك بن قيس ويزيد بن الحر العبسي لمعاويـــة وحسان بن بحدل الكلبي وروح بن زنباع والنعمان بن بشير وعبد الله بن رباح ليزيد وروح لعبد الملك والغازي بن ربيعة للوليد والنصر بن يريم الحميري ورجاء بن حياة الكندي لسليمان وسعيد بن خالد ليزيد والابرس بن الوليد لهشام وابي حديـــدة السلمي واسماعيل القسري واسحق بن مسلم وعبد الحميد بن يحيى لمروان بن محمد . ويبدو ان هذه الاسماء اسماء بعض وزراء ومستشاري الخلفاء النافذين .

والمستفاد من المأثورات انه كان في مركز الخلافة اجهزة عامة مالية واداريـــة تسمى دواوين .

منها ديوان للجند يصح ان يسمى بلغة اليوم وزارة الحربية ، فيه سجلات المجندين ومرتباتهم ، وتهيأ بواسطته مختلف الوسائل الحربية .

ومنها ما يدخل اليوم في نطاق ما يسمى وزارة المالية من ديوان للخراج الذي يستوفى من الارضين التي ابقيت في ايدي اهلها . ومن ديوان للموارد الاخرى من عشور وصدقات وغيرها . ومن ديوان للنفقات المتنوعة .

ومنها ديوان للرسائل وآخر للخاتم حيث كانت الرسائل تختم بالشمع ثم بخاتم الخلافة .

ومنها رئاسة عامة للشرطة واخرى للحجاب مع ما يتبعها من اتباع واجناد .

ولقد كان الخلفاء الامويون يحرصون على اقامة الحج للناس او بتعبير آخر ترؤس موكب الحج جرياً على السنة النبوية والخلفاء الراشدين . حيث تفيد المأثورات ان معظمهم قام بهذه المهمة بنفسه وحينما كان يتعذر على احدهم في سنة من السنين كان يبعث احدابنائه او اخوته او بني عمه او والي الحجاز للقيام بها .

وقد حرص الطبري على ذكر اسم الذي كان يقيم الحج للناس من الخلفاء او نوابهم في اعقاب حوادث كل سنة حيث يبدو ان هذا الامر كان ذا خطورة في الاذهان وكان الرواة يحرصون على روايته .

ومن الخلفاء من اقام الحج بنفسه اكثر من مرة . وقد اثر عن هشام انه حج احدى عشرة مرة . وكانوا يحملون معهم الطيب والستور للكعبة والاموال والهدايا لاهل مكة والمدينة .

ولقد كانوا يتداولون بردة رسول الله ﷺ وقضيباً منسوباً اليه وخاتماً ينعتونه بخاتم الخلافة من المحتمل ان يكون خاتم عثمان الذي صنعه بديلا عن خاتم رسول الله الذي سقط منه حيث كانت هذه الآثار بمثابة اعلام للخلافة ترسل الى ولي العهد حينما يموت الجالس قبله على العرش اذا لم يكن موجوداً في العاصمة وتسلم اليه اذا كان موجوداً .

والمأثورات تفيد ان الخلفاء كانوا يعتبرون انفسهم القيمين على بيت المال . وهم الذين

كانوا يقدرون المخصصات لعمالهم وولاتهم وقوادهم وقضاتهم ومستشاريهم واجنادهم وزيادتهـــا وانقاصها احياناً . والمنح والهبات للوافدين عليهم من شعراء وزعماء واصحاب حاجات . مع ترجيحنا ان ذلك كله كان يجري بمشورة مستشاريهم ووزرائهم .

ولم نطلع على مأثورات تفيد ما كان يخصص الخلفاء لانفسهم من رزق باستثناء ما اثر عن عمر بن عبد العزيز الذي روي انه اكتفى بثلاثمئة درهم شهرياً . وقد يسوغ القول بناء على ذلك انهم كانوا يتناولون من بيت المال ما يرون انهم في حاجة اليه .

والمأثورات تفيد ان معظمهم كانوا يعيشون في ابهة وبحبوبة وترف في المسكن والاثاث والملبس والمطعم والمظهر والمواكب ، ومثل ذلك .

وهناك مأثورات تفيد انه كان لبعض الخلفاء والامراء مزارع وبساتين وضياع تدر عليهم إيراداً كان يضمن لهم مزيداً من الثراء ورفاه العيش . ومن المحتمل ان يكون ذلـك شاملا او لاكثرهم وان يكون اصله اقطاعاً من الدولة او شراء بمايتوفر معهم من فضل مخصصاتهم . وبعض المأثورات تفيد ان من ذلك ما كان يحصل بطريق الغصب والتغلب بحيث يمكن ان يقال ان منهم من كان يستغل سلطانه ونفوذه في سبيل الحصول على ما يضمن له المال والثراء ورفاه العيش .

في وصف عمل اليوم الكامل الذي أوردناه في سيرة معاوية ما يسوغ القول ان معاوية كان يقيم في بناء ضخم مكون من اجنحة عديدة . منها جناح للحريم ، وجناح للصلاة ، وجناح للدواوين ، وجناح للوزراء والمستشارين ، وجناح لمجالس الخليفة مع وزرائـــه ومستشاريه وخاصة اصحابه والوافدين عليه ، وجناح لاستقبال عامة الناس ، وجناح للمآدب العامـــة بالاضافة الى اجنحة الخدم والحشم والحجاب والمطابخ والمؤونة والمراكب .

وتذكر الروايات [١] ان معاوية انشأ دار الامارة من اعمـدة الشجر – على النمط الذي

---

(١) خطط الشام ج ٥ ص ٢٦٤ .

عرف في دور دمشق القديمة ـ ثم هدمها وبناها بالحجارة ، وكانت تسمى الخضراء ، وان ما انفقه عليها كان حمل ثمانية عشر بغلا من الذهب ، وانها ظلت داراً للأمارة من بعده الى زمن سليمان وان هذا أنشأ داراً جديدة للسلطنة كانت لها قبة عالية .

ولقد روينا في سيرة هشام وصف حماد الراوية لدار هشام التي ادخل عليها في دمشق وهي دار قوراء مفروشة بالرخام وكان هو جالس في مجلس مفروش بالرخام وبين كل رخامتين قضيب من ذهب وحيطانه كذلك . وليس هناك ما يمكن ان يساعد على البيان ما اذا كان هذا قصراً جديداً للخلافة امهو جزء من قصر سليمان الذي بناه واتخذه هشام بعده مقراً له .

ولقد تعددت الروايات التي تذكر اقتناء بعض الخلفاء المحظيات الجميلات المثقفات بالادب والبارعات بالغناء ودفع مبالغ كبيرة في شرائهن . والتي تذكر كذلك شربهم الخمر وعقدهم مجالس غناء ولهو يحضرها اخصاؤهم وندماؤهم ، واحضار المغنين من الحجاز .

واكثر ما تذكر الروايات في صدد ذلك يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك والوليد ابنه . وهناك روايات تذكر سليمان وهشام ايضاً . وهناك روايات تنفي ذلك عن يزيد بن معاوية وسليمان وهشام والذي نرجحه ان الروايات في صدد المحظيات وشرب الشراب ومجالس الغناء ليست جزافاً . وان من المحتمل ان يكون لها اصل وخاصة بالنسبة ليزيد بن عبد الملك وابنه الوليد فهي واردة في حقها في مختلف المصادر وان كنا نعتقد انها شيبت بمبالغة لأن ما ورد منها وبخاصة بالنسبة للوليد بن يزيد ابعد من ان تصدق ، وقد اوردنا نماذج منها في سيرته ، وروى مؤلف الاغاني كثيراً منها في المجلدين السادس والسابع ولا يمكن إلا ان يلمح فيها مبالغة كبيرة .

ولقد كان تثقيف الجواري الجميلات بالادب والغناء ممارساً في الحجاز وكان ابناء الاسر الرفيعة الموسرة يتنافسون في اقتنائهن فسرى ذلك على ما يتبادر لنا الى بني امية من خلفاء وامراء .

ولقد كان شرب النبيذ مما اختلف فقهاء ذلك العصر في حله وحرمته . والمأثورات تفيد

انه هو الذي كان شائعاً في الحجاز والعراق في ذلك الوقت . ونرجح انه هو الذي كان يتناوله من كان يتناوله من بني امية .

ولقد كان الغناء ومجالسه مما استفحل في الحجاز في ذلك الوقت وانغمس فيه ابناء المدينة ومكة على ما سوف نشرحه في نبذة اخرى فسرى ذلك ايضاً على ما يتبادر لنا الى بني امية .

٣ـ تعريب الدواوين والطراز والنقد

•

ولقد ذكرنا في سيرة عبد الملك انه تم في زمنه تعريب الدواوين والطراز والنقد، وزيادة في بيان ذلك نقول :

اولا :

ان الدواوين المروي تحويلها هي على الاغلب دواوين الضرائب اي سجلاتها حيث كانت تدون بالفارسية في العراق وما وراءها وبالرومية في الشام ومصر . مع التنبيه على ان هناك رواية تذكر ان دواوين مصر كانت تدون بالقبطية في زمن الخلفاء الراشدين والشطر الاول من الدولة الاموية لأنه لم يكن قد نشأ من العرب من يحسن ذلك فابقى هذا في عهده من يحسنونه باللغات المستعملة في زمن السلطان الفارسي والرومي السابق للسلطان العربي .

وقد ذكرت الروايات اسم سرجون الرومي ككاتب الديوان الرومي في عهد معاوية وابنه وحفيده . وزاذان فروخ ككاتب للديوان الفارسي في العراق في زمن الحجاج .

والمأثور ان التحويل بدأ بالعراق بأمر الحجاج ، وان الذي تولاه اولا مولى اسمه صالح بن عبد الرحمن الذي كان قد استعرب وصار يجيد العربية . ويروى ان رئيسه مرض فتولى صالح مكانه وحظي عند الحجاج فأخبره ان في امكانه نقل الديوان الى العربية فأمره بذلك ثم حولت دواوين الشام ومصر ، والذي تولى التعريب في الشام مولى اسمه سليمان بن سعيد

اما في مصر فقد تولاه ابن يربوع الفزاري الذي يدل على صراحة عروبته .

وهناك رواية تذكر ان التحويل تم في عهد الوليد، ومن المحتمل المعقول ان العمل استغرق مدة وتم تدريجياً في زمن الوليد [1] .

ثانياً :

ان الطراز المقتبس هو كلمات كانت تطرز على الستور والاعلام والقراطيس التي توضع فيها . ولقد كان الطراز بالرومية وكانت الكلمات المطرزة : (بسم الآب والابن وروح القدس) ، ولقد سأل عبد الملك عنها فلما ترجمت له قال ما اغلظ ان يكون هذا في امر الدين والاسلام ، ثم كتب الى اخيه عبد العزيز والي مصر بابطاله واستبداله بعبارة : (لا اله الا الله) ثم كتب الى عمال الآفاق جميعاً بابطال ما في اعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ومعاقبة من يخالف ذلك بالضرب الوجيع والحبس الطويل .

ومما يروى ان ملك الروم غضب من ذلك وكتب الى عبد الملك ليرجع عما فعل وارسل اليه هدية فرد الهدية ورفض الرجوع فهدده بنقش شتيمة ضد نبيه على النقود فكان ذلك سبباً لضرب نقد عربي اسلامي ، ثم صار هذا الطراز يطرز على ملابس الاجناد وشارات الخلافة وغيرهما [2] .

وقد يفيد الكلام ان الطراز كان يستعمل في النطاق الحكومي ، ولكننا لا نستبعد ان يكون العرب الميسورين ايضاً صاروا يستعملونه على ملابسهم وستورهم وقراطيسهم .

---

(١) العقد الفريد ج٣ ص١٥٣ ومحاضرات الامم الاسلامية للخضري ج ٢ ص٣٥٧ وتاريخ الطبري ج ٥ ص ٢٥ .

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي زيدان ج١ ص١٢٦ والمؤلف لم يذكر مصدراً ولكن المرجح انه استقى خبره من مصدر قديم .

ثالثاً :

ان النقود التي كان المسلمون يتعاملون بها في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين هي الدنانير والدراهم الذهبية والفضية الرومية والفارسية ، وكل ما كان من تبدل هو انه صار يضرب عليها كلمات اسلامية على ما ذكرناه في الجزء السابق [1] وبالاضافة الى ما رويناه من سبب اقدام عبد الملك على ضرب سكة اسلامية عربية فهناك رواية اخرى من بابها يرويها ابن خلدون جاء فيها ان عبد الملك ارسل رسالة الى ملك الروم فيها اسم الله والصلاة على رسول الله فكره ذلك و كتب اليه قائلا انه اذا لم يدع هذا فسينقش على النقود ما يسيء الى الاسلام ونبيه ، وكانت الخطوة الاولى ان عبد الملك كتب الى الحجاج بأن يضرب دراهم على خمسة عشر قيراطاً من قراريط الدنانير ثم ضرب الدنانير الدمشقية ، ومن النقوش التي كتبت عليها (بسم الله الرحمن الرحيم و (الله احد الله الصمد) مع سنة الضرب ومكانه واسم عبد الملك .

وهناك رواية يرويها البلاذري تذكر ان اول دراهم ضربت كانت في ايام عبد الله بن الزبير ومن قبل اخيه مصعب سنة ٧٠هـ وان مصعباً ضربها على ضرب الا كاسرة عليها بركة وعليها كلمة (الله) وكانت الدراهم التي ضربها قليلة فكسرت بعده .

---

(١) استدراكاً لما ذكرناه في الجزء السابق نذكر هنا اننا قرأنا في ذيل الصفحة ٢٦ من الجزء الثالث من تاريخ اليعقوبي مطبعة الغرى سنة ١٣٥٨ عزواً الى المجلد السابع عشر من دائرة المعارف البريطانية ص ٩٠٤ الطبعة الثالثة عشرة ان اول من امر بضرب السكة الاسلامية على الفضة الامام علي بالبصرة سنة ٤٠ هـ وعزواً الى الجزء الاول من المجلد ٤٩ ص ٥٨ من مجلة المقتطف ان سكة ضربت في خلافة الامام علي سنة ٣٧ وكان مكتوباً على دائرها بالخط الكوفي جملة (ولي الله) ورواية اولية ضرب النقد في عهد عبد الملك على كل حال هي المشهورة ولعل ذلك نشأ من ان النقد الاسلامي المضروب سابقاً اذا صحت الرواية لم يكن كثيراً او متداولا .

وفي الجزء الاول من تاريخ التمدن الاسلامي ص ١١٨ وبعدها بيانات عن نقود قديمة مشتركة بين العرب والفرس عثر عليها وهي محفوظة في المتاحف ، رأينا من المفيد ايرادها ، فهناك قطعة رومية عليها صليب وتاج وعليها كنية خالد بن الوليد وتاريخ ١٥ هجرية واسم طبرية، وهناك قطعة على مثال دينار فارسي برسمه وشكله عليه اسم معاوية، وهناك قطعة على دائرها بالخط الكوفي جملة (بسم الله ربي) وسنة ٢٨ وقطعة عليها اسم عبد الله بن الزبير امير المؤمنين وسنة ٦١ .

وعلى كل حال فالطبري والبلاذري يركزان روايتهما على ان عبد الملك اول من ضربت الدراهم والدنانير العربية الاسلامية الخالصة في عهده ، ويروى ان اول من تولى العمل شخص من الموالي اسمه سمير فسميت سميرية ، وكان وزنها اقل من وزن الدراهم والدنانير الفارسية والرومية وان العمل كان سنة ٧٤ في رواية و سنة٧٥ في رواية اخرى،ثم امر عبد الملك بضربها في جميع النواحي ، وكانت تسمى المكروهة ، وقيل انها سميت كذلك من قبل الاعاجم لنقص وزنها كما قيل ان الفقهاء كرهوها لانها تحمل اسم الله وتتعرض للمهانة .

ومن الذي يروى تجويده للدراهم وزناً ونقشاً ولاة العراق عمر بن هبيرة في زمن يزيد بن عبد الملك وخالد القسري ويوسف بن عمر الثقفي في زمن هشام. وقد اشتد هذا في ملاحظة الطباعين حتى كان يقطع ايدي المتلاعبين في الوزن او يضربهم ، وكانت النقود المنسوبة اليهم والتي كانت تسمى باسمائهم فيقال الهبيرية والخالدية واليوسفية اجود نقود بني امية . ومما روي ان عبد الملك اتى برجل يضرب على غير سكة السلطان فعاقبه وان مثل هذا ايضاً في زمن عمر بن عبد العزيز . وقد اخذ هذا حديد الرجل فطرحه في النار [١] .

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٧٠-٤٧٦ وتاريخ الطبري ج ٥ ص ٨٣ وتاريخ ابن خلدون ج ٤ ص٤٦ وتاريخ التمدن الاسلامي لزيدان ج ١ ص ١١٨ - ١٢٤ .

٣ - ادارة الاقطار والولاة

•

تطورت تقسيمات الاقطار وصلاحيات الولاة حسب تطور حركة الفتوح واختلاف شخصيات الولاة معاً .

ولقد كان في زمن الخلفاء الراشدين للبصرة وال وللكوفة وال . وكان لوالي البصرة الاشراف على شؤون مناطق الخليج العربية والفارسية شرقاً وغرباً وما وراء الشرق من بلاد الفرس . ولوالي الكوفة الاشراف على مناطق بلاد الفرس الشمالية . وبقي الامر على ذلك بضع سنين في زمن معاوية . ثم جمع الولايتين لزياد بن ابي سفيان فصار له الاشراف على جميع ما كان يشرف عليه واليا الكوفة والبصرة . واستمر ولاة العراق يمارسون هذا الاشراف . وكانت الاقاليم التي في نطاق هذا الاشراف هي : السواد العراقي - الاهواز - فارس - كرمان - مكران - اصبهان - سجستان - خراسان - حلوان - الكوفة - البصرة - همدان - ماسبذان - قاشان - اذربيجان - الري - قزوين - زنجان - قومس - جرجان - طبرستان - السند - كابلستان - تركستان .

وكان لوالي خراسان في اكثر الاحيان الاشراف على المناطق الواقعة وراء النهر المتضمنة بلاد الترك الى حدود الصين والهند . وكان مركز ولاة العراق العامين مدينة الكوفة على الاعم الاغلب . ثم انشأ الحجاج بن يوسف مدينة واسط بين المدينتين لتكون مركزاً متوسطاً ومن ذلك اسمها .

وكانت مصر مركز ولاية عامة لواليها العام الاشراف على مصر ثم على بلاد النوبة في

الجنوب وعلى ما كان مفتوحاً من شمال افريقية في ... ما كان يجري الحال عليه بالنسبة لولاة العراق . وكان مركز الوالي مدينة الفس... ط التي أنشأها عمرو بن العاص بعد فتحه لمصر . وآثارها ما تزال موجودة في نواحي مصر القديمة ومن ذلك الجامع الذي لا يزال يحمل اسم عمرو رضي الله عنه .

ولما فتحت الاندلس صار اشراف ولاة مصر قاصراً على مصر والنوبة وبرقة . وصار يعين للمغرب او لما يسمى افريقية الذي كان يتضمن تونس والجزائر ايضاً ولاة عامون يكون لهم الاشراف على شؤون الاندلس . وكانت جزيرة الفرات وارمينية ومعها احياناً اذربيجان ولاية عامة يتولى امرها وال عام . وكانت مكة مركزاً لوال عام آخر يكون له الاشراف على شؤون سائر الحجاز واحياناً على شؤون اليمن . وكانت اليمن احياناً تدار بواسطة وال عام لحدتها .

وكان الولاة العامون يمثلون الخليفة وينوبون عنه في كل ما يمثله من تمثيل للاسلام والمسلمين والدفاع عنهم وحفظ مصالحهم والنظر في مختلف شؤونهم وشؤون المناطق التي تحت اشرافهم . وكان لهم تعيين ولاة وعمال هذه المناطق . وكان لكل من ولاة هذه المناطق نفس المركز والصلاحيات بالنسبة للوحدات الادارية التي هم على رأس ادارتها .

وكان عمل الولاة العامين وولاة المناطق التابعة لهم يشمل الادارة والمالية والقضاء والحرب احياناً . فيعين الوالي لكل عمل مسؤولا عنه تجاهه . ويكون لكل مسؤول اتباع يباشرون الاعمال تحت اشراف المسؤول . وللوالي العام عزلهم وتبديلهم . وكان الخلفاء يعينون اشخاصاً يتولون الامور المالية والحربية والقضائية في الولايات العامة فينحصر اختصاص الوالي بالشؤون الادارية . ويكون متولي الشؤون المالية والحربية مسؤولا امام الخليفة وهو الذي يعين العمال الذين يباشرون العمل تحت اشرافه ومسؤوليته بدوره .

وكان هذا في الظروف التي لا يكون الوالي العام فيها صاحب شخصية قوية نافذة . فقد كانت الحالة في زمن ولايتي زياد والحجاج للعراق وعمرو بن العاص وعبد العزيز بن مروان لمصر ومحمد بن مروان للجزيرة وارمينية من النوع الاول يمارسون عملهم في نطاق

لا مركزية واسعة .

ومع ذلك فـــان المأثورات تفيد ان هؤلاء الولاة فضلا عمن هم دونهم شخصية ونفوذاً كانوا لا يتوانون عن رفع اخبار الاحداث والتصرفات الى الخلـــفاء واستئذانهم في مهام الامور وتلقي توجيهاتهم واوامرهم والسير عليها والحصول على رضائهم وثقتهم .

ولقد كان للولاة العامين اجهزة مماثلة لاجهزة مركز الخلافة اي ديوان للخراج وآخر للموارد الاخرى وآخر للنفقات وآخر للرسائل. ورئاسة شرطة واتباع لها . وشيء مماثل كان لولاة الاقاليم التابعة .

وكانت الموارد تجبى من قبل عمال كل اقليم فيوزع منها اعطيات الناس المجندين حالياً وغيرهم ومرتبات العمال وينفق منها ماتمس الحاجة اليه من نفقات الترميم والمنشآت والتحصين والسلاح وغير ذلك ويرسل الفضل مع اخماس الغنائم الى مركز الولاية العام . وهذا بدوره يوزع وينفق ما ينبغي توزيعه وانفاقه ويرسل الفضل مع اخماس الغنائم الى عاصمة الخلافـة . ولم نطلع على مأثورات تفيد يقيناً تفصيلا لذلك غير ان المعقول المتبادر ان ذلك لم يكن يقع جزافاً وانما كان بتدبير وتحديد مسبقين متفق عليها بين مركز الولاية ومركز العاصمة .

ويبدو من هذه الصورة ان اقاليم الدولة كانت تدار على طريقة اللامركزية الواسعة او الاستقلال الاداري . وقد كان هذا الاسلوب من مظاهر ودواعي اتساع رقعة الدولة من جهة . وكان في الوقت نفسه من اسباب ما قام في الاقاليم من اعمال عمرانية وانشائية مـن جهة . ومن مسهلات الحزم والبت في الامور الطارئـــة من جهة ، ومن مشجعات تسيير البعوث والسرايا للجهاد وتوسيـع رقـعة السلطان العربي والاسلامي ودائرة انتشار الاسلام والعروبة من جهة . كما يبدو منها شيء من التطور التقدمي بالنسبة لما كان عليه الامر في زمن دولة الخلفاء الراشدين .

اما بلاد الشام مركز الخلافة فالمأثورات تفيد : أولا – انه كان فيها مراكز اداريـة عرفت بالاجناد وهي جند دمشق وجند حمص وجند قنسرين وجند الاردن وجند فلسطين .

وثانياً – انه كان عمال في الامصار مثل عامل البلقاء وعامل الرملة وعامل حمص وعامل حلب وعامل المعرة وعامل اللاذقية الخ حيث يسوغ القول ان الاجناد الخمسة المذكورة كانت بمثابة مراكز حاميات مستعدة لتلبية الدعوة الى العمل فوراً اذا ما احتيج اليها في ظرف من الظروف . وانه كان في كل مدينة من مدن هذه المراكز وغيرها عمال اداريون للنظر في الشؤون الادارية والمالية والانضباطية المدنية وما يتبعها من القرى .

ولعل وجود الخليفة وعاصمة الخلافة في وسط هذه المراكز العسكرية والمدنية اغنى عن اقامة وال عام يشرف على هذه البلاد . ولعل عمال وقواد هذه المراكز كانوا يراجعون الخليفة رأساً في ما يطرأ عليهم من امور ويتلقون اوامره مباشرة . ولعله كان في العاصمة من يكون مرجعاً لهم من مستشاري الخليفة ورجاله .

وهناك خبران مأثوران عن مخصصات الولاة . احدهما يذكر ان مخصصات زياد بن ابي سفيان والي العراق العام في زمن معاوية كانت خمسة وعشرين الف درهم . وثانيهما يذكر ان مخصصات ابن هبيرة والي العراق العام في زمن مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية كانت (٦٠٠٠٠٠) درهم اي اربعة وعشرين ضعفاً . وهذا قد يعني انه كان للولاة مخصصات معينة وكانت تختلف باختلاف الظروف المالية والسلطانية . وكانت على كل حال وافية لمختلف حاجات المنصب وصاحبه . وقد يصح القياس على هذا بالنسبة لسائر العمال . وهناك اثر انه كان مخصصات عمال زياد الف درهم في السنة .

ومع ذلك فهناك مأثورات عديدة عجيبة في صدد ما كان دخل وثروات بعض الولاة وما كان بعضهم يتهم به من اموال طائلة كانوا يدخلونها في ذممهم تبلغ الملايين العديدة . مما ذكرنا امثلة له في سيرة معاوية ويزيد وسليمان وهشام . وبعض المأثورات قد تفيد ان من هذه الثروات ما كان نتيجة استثمار قرى ومزارع كانت في حيازة الولاة غير ان بعضها صريح الدلالة على ان ذلك كان من فضول الغنائم والجباية المحلية . وكان الخلفاء يقابلون بعض هذه الوقائع بالتسامح والاغضاء وبعضها بالامكار والمصادرة والحبس الخ .

ولقد روي ان خالد بن عبدالله القسري كان دخله ثلاثة عشر مليوناً من مزارعه ومع ذلك

حاسبه هشام وصادره حيث يسوغ القول انه قد استغل نفوذ سلطانه فيما صار له من دخل عظيم.

ولقد كان الولاة العامون بل وولاة المناطق الرئيسية الاخرى يختارون من الشخصيات القوية المتصفة بالبأس والاقدام . وكثيراً ما كانوا من ذوي العصبيات القبلية او الدالة على الامويين لسابقة خدماتهم وخدمات آبائهم او من ذوي البلاء في الجهاد وتوسيع رقعة السلطان وتوطيد هيبة الدولة او من اخوة وبني عمومة الخلفاء فكان ذلك مما يشجع بعضهم على احتجاز فضول الجبايات او التصرف بمقادير كبيرة منها على رجالهم والوافدين عليهم ويجعل الخلفاء يغضون عنهم احيانا مما مرت منه بعض الامثلة في سيرة الخلفاء .

ولقد كان لاختيار الولاة من هذه الطبقة وبخاصة من ذوي العصبيات القبلية القوية أثر سيء آخر حيث كان بعضهم يعتدون بأنفسهم ويطمحون لاستقلال اوسع او يندمجون في العصبية التي كانت تثور بين ابناء وزعماء القبائل فكان هذا يؤدي الى فتن وحروب اهلية .

ولقد كان عزل احدهم احيانا مما يؤدي الى مثل ذلك مما مرت منه امثلة عديدة ويظهر ان الاختيار من هذه الطبقة كان اضطرارياً . وقد يدل على ذلك ما روي عن هشام حينما اراد ان يعين نصراً بن سيار والياً لخراسان فقيل له ليست له بها عشيرة فقال انا عشيرته [١] .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٤٧٧

٤ — العطاء

•

كان العطاء من اهم منظمات شؤون الدولة وصلاتها بالجمهور العربي بنوع خاص . واصله هو ما كان رتبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه للناس من مخصصات سنوية وانشأ له مـا سمي بديوان العطاء الذي كان يسجل فيه اسماء اصحاب العطاء ومقادير اعطياتهم .

ولقد كان عمر ادخل في الديوان الناس حسب سابقتهم في الاسلام ومراتبهم فيه، ومنهم من كان تجاوز سن العمل والجهاد ومنهم من كان لا يزال في هذه السن او دونهـا اي الاطفال ، وكان الذين هم في سن العمل والجهاد يسمون الجند، وهذا ما جعل بعضهم يسمي ديوان العطاء بديوان الجند مع أنه اعم من ذلك . وقد ادخل فيه الاطفال والنساء. واستثنى منه الاعراب الذين ظلوا في البادية لانهم لايحضرون محاضرات المسلمين ولا يشهدون مشاهدهم[1].

واستمر الامر على هذا المنوال في زمن عثمان وعلي رضي الله عنهما مع زيادة في المقدار في زمن عثمان لازدياد الايراد ، ثم استمر على هذا في زمن الخلفاء الامويين على مـا تفيده المأثورات التي تفيد ان الناس كانوا يعتبرون العطاء حقاً وواجباً لهم على الدولة [2] يشغبون عليها اذا ابطأت فيه ، وان الدولة كانت تبادلهم نفس الاعتبار حتى لقد كانوا يعتبرون

---

(١) كتاب الاموال للامام ابي عبيد ص ٢٢٨ .

(٢) روينا في نبذة الخوارج ان جماعة منهم وقفوا جباة الدولة واخذوا مقدار عطائهم من الاموال التي معهم واعطوهم وصلا بها وقالوا لهم ليقدموا الى رؤسائهم انما اخذنا حقنا في العطاء .

العطاء مما يورث اذا كان ورثة صاحبه لم يكونوا يتناولون العطاء [1].

وان العطاء كان يعطى للمحتاج اليه وغير المحتاج بناء على ذلك الاعتبار حتى ولو كان له مرتب عن عمل آخر في الدولة [2]. وان اسماء الذين يتجاوزون سن الجهاد كانت تظل مسجلة يدفع العطاء لاصحابها كما هو الامر لمن كانوا في سن الجهاد ، وان الاطفال حينما يبلغون مبلغ الرجال ترفع رتبتهم من رتبة عطاء الاطفال الى عطاء الرجال .

وكانت الدولة تطلب من الذين هم في سن الجهاد ان يبادروا الى اجابة الدعوة التي توجه اليهم بالانضمام الى اي بعث تسيره للجبهات الحربية الداخلية والخارجية على السواء وتعتبر ذلك واجباً لازماً مقابل العطاء الذي يتقاضونه وتعاقب بالحرمان منه او بعقوبة المتمرد المرتد العاصي كل من يتباطأ في الاستجابة او لا يلبيها حسب ما تراه الدولة وممثلها موافقاً للمصلحة ومتسقاً مع الظروف القائمة والسلامة العامة .

وظروف احوال ونشاط الدولة الاموية تسوغ القول ان عدد الذين كانوا يأخذون العطاء كان كبيراً جداً ، فحركات الفتح والدفاع والصوائف والشواتي وقتال الخوارج وقمع الفتن كانت نشيطة في زمن الدولة لم تكد تتوقف خيلته في مختلف انحائها الشاسعة الواسعة في المشارق والمغارب .

ولم تكن الحركات تتجمد في ناحية ليتسنى نقل المجاهدين من بقعة الى اخرى ، فكان لا بد من وجود كتل المجاهدين في كل بقعة بحيث لا نكون مبالغين اذا قدرنا انه كان

---

(١) كتاب الاموال ص ٢٤١ انظر فتوح البلدان للبلادري ايضا ص ٢٦٤ .

(٢) روينا في سيرة هشام انه كان يتقاضى عطاءه مائتي دينار ويدفعه لمولى له ليذهب ويجاهد بالنيابة عنه . وان امراء بني امية كانوا يلزمون بالجهاد مقابل العطاء الذي كانوا يأخذونه .

وفي الجزء الثاني من محاضرات الخضري في الامم الاسلامية ص ٣٥٧ رواية تفيد ان قاضي مصر عبد الرحمن بن حجيرة كان يتقاضى مئتي دينار باسم عطاء بالاضافة الى مئتي دينار رزقه في القضاء ومئتي دينار رزقه من القصص .

في كل من مصر والمغرب والشام والعراق وبلاد فارس وخراسان وما وراء النهر وارمينية والحجاز واليمن وجزيرة الفرات والاندلس ما لا يقل عن نصف مليون مجاهد مشترك في الحركات او متهيء للاشتراك فيها . يضاف الى هذا العدد عدد الذين تجاوزوا سن الجهاد وظلوا يأخذون عطاءهم وعدد نساء جميع هؤلاء واطفالهم الذين كان فرض لهم في زمن عمر واستمر بعده وجرى الخلفاء الامويون عليه على ما تفيده المأثورات .

ولقد كان ترتيب عمر ٢٠٠٠درهم سنوياً لاهل القادسية واليرموك والشام ومصر والفرس مع زيادة ٥٠٠ لاهل البلاء منهم و ٢٠٠ لنسائهم و ١٠٠ لاطفالهم ، ومعدل ترتيب المدد الاول الذي ارسل للبعوث الجهادية الاولى ١٠٠٠ والمدد الثاني ٥٠٠ والمدد الثالث ٣٠٠ والمدد الرابع ٢٥٠ والمدد الخامس ٢٠٠ على ما رويناه في الجزء السابق . ثم زيدت هذه المقادير ووسع نطاقها في زمن عثمان ، ولقد روي ان عطاء الجند في زمن معاوية كان الف درهم .

ولقد اتسعت رقعة الدولة وكثر ايرادها بعده بقياس عظيم بحيث يفرض ان العطاء بعده زاد ضعفاً وقد يدل على هذا ما روي عن مقدار عطاء هشام وقاضي مصر عبد الرحمن بن حجيرة اوردناه قبل قليل حيث كان عطاء كل منهما مئتي دينار [1]

---

(١) مما يرويه مؤلف الاغاني ١ ان عطاء حارثة بن بدر كان الف وستمائة فأجرى الوليد بن عبد الملك سبقافجاء سابقاً فقام حارثة فهنأه ودعا له وطلب رفع عطائه الى الالفين بهذين البيتين :

الى الالفين مطلع قريب	زيادة اربع لي قد بقينا
فان اهلك فهن لكم والا	فهن من المتاع لكم سنينا

فقال له الوليد شاطرني الاربع مئة ، ثم صير عطاءه الفاً وثمانمائة . ثم اجرى سبقاً ثانياً فقا فهنأه ودعا له ثم قال :

---

(١) انظر اخبار الشاعر حارثة بن بدر في المجلد الحادي والعشرين .

ومع ذلك فلو عدلنا لجميع الرجال الفاً الفاً وللنساء ٢٠٠ وللاطفال ١٠٠ فان الحاصل قد يبلغ في السنة ستمائة مليون او اكثر .

وقد يعني هذا ان معظم رجال العرب ونساءهم واطفالهم في البلاد المفتوحة كانوا يأخذون عطاء من الدولة . وحيث يبدو من هذا خطورة هذا الترتيب في بناء الدولة وامنها وحياة الجمهور العربي الذي تقوم على اكتافه .

وما احتجب الالفان الا بهين ... هما الان ادنى منهما قبل ذلكا
فجد بهما تفديك نفسي فانني ... معلق آمالي ببعض حبالكا

فامر الوليد له بالمائتين فصار عطاؤه الفين .

حيث يبدو من هذا ان مقادير العطاء كانت متفاوتة او على درجات ، على انه يظهر من المأثورات انه كان يتراوح على الاعم الاغلب بين الالف والالفين من الدراهم سنويا .

٥ - القوة البرية

•

وواضح مما تقدم انه كان للدولة الاموية جيوش دائمة في كل اقليم من اقاليمها منها المشترك فعلا في الحركات الحربية ومنها المستعد للاشتراك في اي حركة يدعى اليها . وهذا هو الذي ساعد كما هو المتبادر على ما تم في زمن هذه الدولة من فتوحات عظيمة في المشارق والمغارب وعلى قمع كل تمرد ونقض يحاولها اهل البلاد المفتوحة وعلى توطيد السلطان العربي الاسلامي فيها ثم على التغلب على مختلف العناصر الاسلامية المتمردة عليها في داخل الدولة .

وليس هناك مأثورات يمكن الاستناد اليها بشيء من اليقين عن تطور الاسلحة عما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين والتي كان منها في عهدهم السيوف والرماح والحراب والبلطات والقسي والنبال والدروع والمغافر والمنجنيقات والدبابات الخشبية ، ولا ريب في انه ادخل على كل ذلك تحسين متناسب مع ما كثر من التجارب الحربية في مختلف البقاع ومع مختلف الامم .

وقد ذكر جرجي زيدان في تاريخ التمدن انه كان عند العرب منجنيق لرمي الحجارة وآخر لرمي السهام وثالث لرمي النفط المشتعل او النار اليونانية دون ان يذكر مصدراً . ويفيد سياقه ان الروم رموا العرب حين حاصروا القسطنطينية بالنار اليونانية وان العرب ما لبثوا ان عرفوا سر هذه النار فاستعملوها .

وتفيد المأثورات ان جيوش كل ولاية كانت تتبع قيادة واحدة عامة يكون على رأسها الوالي احياناً او قائد عام باسم متولي الحرب احياناً ، وانها وحدات من كل جيش تستقر

وتعمل في الاقاليم التابعة لها تحت قيادات محلية ويردف بعضها بعضاً .

ولقد روينا في نبذة الخوارج ان الحجاج لما انذر الذين كانوا مسجلين في بعث المهلب بالالتحاق به انذاره القاصم وقتل شخصاً تلكأ في الخروج او حاول الاعتذار تزاحم الناس على الخروج وخرج العرفاء الى المهلب ليأخذوا منه كتباً بموافاة الناس اليه حيث يبدو من هذا انه كان للمجندين سجلات وانه كان هناك عرفاء عليهم لمراقبتهم وسوقهم وتحريكهم مسؤولين عنهم امام القواد والعمال .

ولقد روي ان امرأة من اهل الشام كان لها ابن وحيد اسمه خنيس مجند بالسند فسعت في سبيل اعادته الى الشام فأعياها ذلك فاستعانت بالشاعر المشهور الفرزدق فارسل هذا ابياتاً الى عامل الناحية التي فيها الرجل يرجوه ان يهبه له فبحث العامل عنه فقيل له انه من مرابطة التاكيان فاستحضره وكساه وحمله البريد الى الفرزدق فأرسله هذا الى امه حيث تؤيد الرواية ما قلناه من انه كان هناك تجنيد عربي عام وكان المجندون يرسلون الى الجبهات المختلفة ليقوموا بواجب الجندية فيها [1] .

وتفيد المأثورات ان اسلوب الصف الواحد ثم اسلوب الكر والفر في زمن النبي ﷺ اخذ يتطور ليكون اسلوب كتائب وكراديس في زمن الخلفاء الراشدين ولا شك ان التجارب والاحتكاك بالامم المختلفة الجديدة كالترك في المشرق والافرنج في المغرب جعل العرب يطورون اسلوبهم الحربي ، وهناك وصية مأثورة موجهة من مروان بن محمد الى ولي عهده بقلم كاتبه عبد الحميد بن يحيى الكاتب فيها ما يفيد انه كان للجيش طليعة سابقة ، ثم مقدمة ومؤخرة بينهما جمهور الجيش مقسم الى ميمنة وميسرة وقلب بينهما وانه كان رجال موكلون بمراقبة سير الجيش وتعبئته على رأسهم رئيس يسمى صاحب التعبئة [2] .

---

(١) انظر ديوان الفرزدق شرح ونشر الصاوي ج ١ ص ٩٤ .
(٢) خطط الشام ج ٥ ص ١٣-١٥ .

٦ - القوة البحرية العربية

•

ولقد كان الى جانب القوة البرية قوة بحرية قوية نشيطة وفي نطاق نظام العطاء نفسه ، ولقد روينا في الجزء السابق كيفية نشوء هذه القوة وتمكنها المذهل في وقت قصير من المصاولة مع الاساطيل الرومية العريقة في النشاط البحري وتفوقها عليها وفرض وجودها وسلطانها في زمن عثمان بن عفان وعلى يد والييه في الشام مصر ومعاوية بن ابي سفيان وعبد الله بن ابي سرح .

والمأثورات تفيد ان حركة الاساطيل العربية في زمن الدولة الاموية قد نشطت اكثر من زمن عثمان بمقياس واسع حيث شملت سيطرة العرب جميع سواحل افريقية الشمالية وقسما كبيرا من سواحل البحر الابيض المتوسط الشمالي من ناحية الاندلس ، وحيث كانت الصوائف والشواتي البحرية ضد سواحل الروم تجري موازية للصوائف والشواتي البرية على ما ذكرناه في نبذة المصاولات بين الروم والعرب .

ولقد ذكرت بعض الروايات [١] ان عدد سفن الاسطول الشامي بلغ ١٧٠٠ مما هو معقول ومتسق مع هذا النشاط ، والمتبادر ان هذا غير عدد السفن التي كانت تنشط في سواحل مصر وشمال افريقية وسواحل الاندلس حيث يمكن ان يضاف الى ذلك العدد مثله او نصفه على الاقل .

ولقد ذكرت رواية ان اول دار لصناعة السفن انشئت في مصر كانت في جزيرة

---

(١) تاريخ الاسلام السياسي ج١ص٣٧٦ .

الروضة سنة ٥٤ هـ[1] وان اول دار صناعة انشئت في تونس في عهد عبد الملك ومن قبل حسان بن النعمان الذي صنع فيها مراكب غزا بها صقلية وان موسى بن نصير انشأ دار صناعة سفن اخرى في تونس او القيروان صنع فيها مراكب غزا المجاهدون عليها صقلية ثم سردانية ثم منورقة وميورقة في القسم الغربي الجنوبي من البحر الابيض المتوسط على ما رويناه في نبذة المصاولات مع الروم .

ولا يعقل ان يكون ماروي هو الواقع الوحيد ازاء النشاط البحري العربي العظيم في زمن عثمان ثم الدولة الاموية الذي شرحناه في الجزء السابق ثم في النبذة السالفة الذكر، ولا بد من ان يكون قد انشىء قبل سنة ٥٤ هـ دور صناعة عديدة في سواحل الشام ومصر ، ولا بد من ان يكون انشيء دور عديدة اخرى في هذه السواحل ثم في سواحل افريقية الشمالية .

ومن الاسماء التي كانت تسمي بها المراكب العربية اسم الشونة للمركب الكبير والحراقة للمراكب التي تقذف النار اليونانية والطرادة للمراكب السريعة الجري والمسطحة والشلندة على ما ذكره جرجي زيدان في كتابه تاريخ التمدن[2] مع احتمال ان تكون بعض هذه الاسماء معربة .

---

(١) نفس المصدر ٣٧٦ .

(٢) ج ١ ص ١٩٥ وبعدها .

٧ – موارد الدولة

•

كانت الموارد المالية في دولة الخلفاء الراشدين غنائم الحرب وخراج الاراضي في البلاد المفتوحة والزكاة من الغلات والانعام والعروض والعشور والمكوس التجارية والفيء الذي يدخل في حوزة الدولة من الاعداء بدون حرب ، وجزية الذميين غير المسلمين على ما فصلناه في الجزء السابق ، وكانت هذه الموارد بذاتها في زمن الدولة الاموية .

وليس هناك مأثورات يمكن الاستناد اليها لمعرفة مقادير الايراد العام او مقادير كل مورد الا ما رواه اليعقوبي [١] عن مقادير خراج الاقطار في ايام معاوية حيث ذكر ان خراج العراق وبما يضاف اليه مما كان في مملكة الفرس في ايام معاوية استقر على ستمائةالف الف درهم وستمائة وخمسة وخمسين الف درهم (٦٥٥) مليون ثم اورد ارقام خراج كل بلد من بلاد الفرس والعراق يتبادر انها تفصيل للرقم الاجمالي المذكور وان لم يكن مجموعها يبلغه وهي كما يلي :

٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم اذربيجان

١٢٠٠٠٠٠٠٠ سواد العراق

٧٠٠٠٠٠٠٠ فارس

٤٠٠٠٠٠٠٠ الاهواز وما يضاف اليها

---

(١) ج ٣ ص ٢٠٧–٢٠٨ مطبعة الغرى النجف .

١٥٠٠٠٠٠٠ اليمامة والبحرين

١٠٠٠٠٠٠٠ كور دجلة

٤٠٠٠٠٠٠٠ نهاوند وماه الكوفة وماه البصرة

٣٠٠٠٠٠٠٠ الري

٢٠٠٠٠٠٠٠ حلوان

٤٥٠٠٠٠٠٠ الموصل

ولقد انضاف الى الدولة من هذه الناحية بقاع شاسعة جديـــدة بعد معاوية مثـــل خراسان وطبرستان وجرجان وبلاد السندوما وراء النهر من بلاد الترك الخ بحيث يمكن ان يفرض ان خراجها لم يكن ليقل عن ربع الرقم الاجمالي المذكور ان لم يزد فيكون خراج المشرق في زمن الدولة الاموية نحو (٨٠٠) مليون درهم .

ولقد ذكر اليعقوبي في السياق نفسه المقادير التالية بالدنانير خراجاً لاقطار الدولة الاخرى في ايام معاوية :

٣٠٠٠٠٠٠ دينار خراج مصر

٤٥٠٠٠٠ « « فلسطين

١٨٠٠٠٠ « « الاردن

٤٥٠٠٠٠ « « جند دمشق

٣٥٠٠٠٠ « « « حمص

٤٥٠٠٠٠ « « « قنسرين والعواصم

٥٥٠٠٠٠ « « الجزيرة وهي ديار ربيعة ومضر

١٢٠٠٠٠٠ « « اليمن

ومجموع ذلك نحو ستة ملايين دينار او نحو سبعين مليون درهم مع التنبيه على اننا نشتبه في رقم خراج مصر في ايام معاوية .

وهناك روايات تنقض ذلك منها الرواية التي تذكر ان صلح خراج مصر كان خمسين الف

الف درهم والتي اوردناها في الجزء السابق ، وقد جبي من مصر في زمن عمر اربعة عشر مليون دينار على ما ذكرته الروايات .

وهناك رواية تذكر ان المقدار نفسه جبي في زمن عثمان ، ورواية تذكر ان خراج مصر المجبي في زمن سليمان بن عبد الملك كان اثني عشر الف الف دينار [1] فلا يعقل ابدا ان يكون الخراج المجبي في زمن معاوية دون ذلك كما هو المتبادر .

ولقد انضاف الى الدولة من هذه الناحية بعد معاوية بقاع شاسعة جديدة اخرى وهي بقية شمال افريقية ثم الاندلس بحيث يمكن ان يفرض ان خراجها لم يكن يقل عن ربع الرقم المذكور ان لم يزد فيكون خراج المغرب اكثر من مئة مليون درهم ويكون مجموع الخراج نحو (٩٠٠) مليون .

والخراج المذكور في الارقام يمثل نوعين من الموارد ، احدهما اجرة الارض في البلاد المفتوحة حيث ابقيت في ايدي اهلها مقابل اجرة يؤدونها الى بيت المال ، وهذه الاجرة لا تسقط باسلامهم ولا بانتقالها الى غيرهم من المسلمين ، وهذا هو ما كان يستوفى من اراضي العراق وما وراءها ، وثانيهما المقدار المقطوع الذي كان يصالح عليه اهل البلاد المفتوحة والذي كان يشمل جزية الرؤوس وخراج الارض معاً ، وهو ما كان بالنسبة الى مصر ، وهذا المقدار ينخفض بنسبة اعتناق اهل البلاد للاسلام ومقابل ما يقدر على الرؤوس من الجزية .

وعلى هذا فالرقم الاجمالي (٩٠٠) مليون درهم عن الخراج لا يتعرض الا لانخفاض جزئي بالنسبة لمصر حيث تروي الروايات ان المجبي من خراج مصر في زمن هشام كان (٣٠٠٠٠٠٠) دينار بسبب كثرة الداخلين للاسلام من اهلها .

ولقد كنا قدرنا عدد اهل الذمة الذين كان يجبى منهم جزية الرؤوس في زمن عمر بمليونين . وقد دخل عدد عظيم آخر من اهل البلاد المفتوحة بعده في ذمة المسلمين وصاروا تابعين للجزية

---

(١) انظر تاريخ الاسلام السياسي حسن ابراهيم ج٢ ص٣٦٥ .

بحيث يمكن ان يقال ان عددهم قد تضاعف مرتين في زمن الدولة الاموية . وتكون الجزية المجبية من الرؤوس في زمن الدولة في حدود المئة مليون على الاقل مع ملاحظة انخفاض العدد باعتناق الاسلام . حيث كان يجبى من الاغنياء ٤٨ درهماً ومن المتوسطين ٢٤ ومن العمال والكاسبين ١٢ وهو التعديل الذي جرى في زمن عمر على ما ذكرناه في الجزء السابق واستمر بعده.

فاذا قدرنا انه كان يجبى من الزكاة على اختلاف انواعها قيمة خمسون مليون درهم ومن العشور والموارد الاخرى مثل ذلك وهو تقدير معتدل فيكون ايراد الدولة في حدود مليار ومئة مليون درهم. وهذا غير الموارد غير الثابتة من غنائم الحروب التي لم تكد تنقطع خلال ثلاثين سنة بعد انتهاء حركة ابن الزبير وفراغ بال عبد الملك ثم الوليد وسليمان وهشام ابنائه من الفتن الداخلية العنيفة حيث كانت حركة الفتوح ناشطة وكانت اخماس الغنائم تتدفق على بيت المال وكانت تبلغ عشرات الملايين .

وكل هذا كان يضمن للدولة ان تدفع العطاء على سعة مداه وتنفق على تجهيز الجيوش ومرتبات العمال والترميمات والمشاريع العمرانية المتنوعة ويجعل الدولة وخلفاءها يعيشون عيشة البحبحة والرفاه ويغدقون على الوافدين عليهم ما تواترت به الروايات من منح وجوائز كبيرة . وفيه تفسير لما روي من المقادير العظيمة التي انفقها عبد الملك والوليد على مساجد القدس والمدينة والشام والتي كانت ارقامها تصل الى ملايين عديدة من الدنانير ثم لما روي من اكداس الذهب والفضة التي كدسها الوليد في المسجد ليقنع الناس انه لم يستنفد بيت المال على بناء مسجد الشام ولما روي من وجود سبعة واربعين مليون دينار في بيت المال بعد موت الوليد بن يزيد. ومهما كانت المبالغة محتملة فان الارقام المحتملة تظل عالية وتتضمن الدلالة المقصودة .

٨ - القضاء

•

ذكرنا في الجزء السابق ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو أول من خصص أشخاصاً يتولون امر القضاء بين الناس وخصص لهم مرتبات ووضع لهم خطة قضائية . واستمر هذا من بعده . ثم اتسع في زمن الدولة الاموية بنسبة اتساع الرقعة وتطور الحياة وازدياد تشابك المصالح بين الناس . فصار من الامور العادية ان يكون في كل مدينة قاض ترفع اليه القضايا والمشاكل المتنوعة على ما تفيده المأثورات الكثيرة .

وكان مستند القضاء القرآن والسنة النبوية وسنة الخلفاء الراشدين والاجتهاد والقياس فيما لا نص فيه . وكانت الاحكام تختلف من بلد الى بلد ومن قاض إلى قاض نتيجة لذلك دون حرج ولاتثريب . وكان للقضاة استقلالهم وحريتهم وحصانتهم . ولم يكونوا يميزون احداً عن أحد ولو كان الخلفاء انفسهم . وقد روينا في سيرة هشام مثلا من ذلك .

وهناك مأثورات تفيد ان القضاة كانوا يحصلون على كفايتهم من بيت المال وكان يصل ما يتقاضاه بعضهم الى الف دينار في السنة . حيث روي ان راتب قاضي مصر سنة ٨٨ كان الف دينار [١] . وان قاضي مصر عبد الرحمن بن حجيرة كان يتناول ٢٠٠ دينار رزق قضاء و ٢٠٠ دينار رزق نظره في القصص (الرقاع) و٢٠٠ دينار رزقه من العطاء و ٢٠٠ دينار رزقه من بيت المال و ٢٠٠ دينار جائزة اضافية [٢] . وحيث روي [٣] نص امر صدر من

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٤٧ عزواً الى السيوطي

(٢) محاضرات الامم الاسلامية للخضري ج ٢ ص ٣٥٦-٣٥٧

(٣) الخضري ايضا نفس الصحف

متولي المال الى الخازن في عهد مروان الثاني باعطاء قاضي مصر رزقة عن شهري ربيع الاول وربيع الآخر سنة ١٣١ هـ عشرين ديناراً . فكان هذا مما يجعلهم كما هو المتبادر يقومون بمهتهم قياماً محموداً .

وكان يرفع اليهم قضايا الجرائم الاخلاقية وغير الاخلاقية والمشاكل المالية والاسروية من ارث ووصايا وحجر ونكاح وطلاق الخ ثم المشاكل العقارية . وكان يوكل اليهم الاشراف على اموال الايتام والاحباس (الاوقاف) [١] .

وفي المجلد العاشر من الاغاني في اخبار اسماعيل بن عمار خبر عن رجل في الكوفة كان القاضي يعهد اليه بمراقبة تصرفات اهل الريبة واللهو والخمر ورفعها اليه . مما فيه صورة من صور اعمال القضاء .

ولقد روينا في سيرة عمر بن عبد العزيز خبراً مهما في صدد صلاحية القضاة حيث شكا اهل سمرقند اليه بأن قتيبة ظلمهم فأخرجهم من ارضهم واعطاها للعرب فأمر عمر الوالي ان يجلس اليهم القاضي فينظر في امرهم فان قضى لهم اخرج العرب من ارضهم الى معسكرهم فأجلس لهم القاضي جميع بن حاضر فقضى بخروج العرب من سمرقند ثم ينابذون اهلها على سواء فيكون صلحاً جديداً او ظفراً وعنوة . وقد حسب اهل سمرقند حساب عاقبة اسوأ فسحبوا شكواهم حيث يبدو من هذا ان ذهنية اولي الامر من المسلمين كانت تتسع لايكال مثل هذا الامر السياسي الحربي الخطير الى القضاء ايضاً [٢] .

---

(١) انظر محاضرات الامم الاسلامية للخضري جـ ٢ ص ٣٥٦

(٢) انظر تاريخ الطبري جـ ٥ ص ٣٢٠ .

٩ – المظالم

•

هذه الكلمة تطلق على ما كان يقع من الاقوياء على الضعفاء وعلى اموال الدولة واملاكها من غصب وتغلب. وقد صار لها ديوان في زمن الدول التي قامت بعد الامويين. وهي عملية قضائية. غير انها ذات خصوصية بسبب كون العدوان فيها يقع من اقوياء وليس من قبيل مشاكل وخلافات عادية. والنظر فيها واستخلاص الحق من غاصبيه لا يقوم إلا بقضاة اقوياء مرهوبين ومؤيدين من الخلفاء والملوك. ولم يكن هذا الامر ملموحاً في عهد الخلفاء الراشدين لانه لم يكن حاجة اليه لقرب عهد الناس من النبي وتأثرهم بروح الدين وغلبة التقوى حيث كان الزجر والوعظ يكفيان لرد اي معتد وغاصب على ما يقول الماوردي في الاحكام السلطانية.

مع التنبيه ان شيئاً منه كان يقع فيوضع الامر في نصابه ويستخلص الحق من غاصبه من قبل الخليفة مباشرة. وذلك ما كان يصادره عمر بن الخطاب من عماله من اموال او يقاسمهم عليها حينما يشتبه انها حصلت لهم نتيجة استغلال نفوذ سلطانهم مما روينا امثلة عديدة منه في الجزء السابق.

ولقد تغيرت الحالة في زمن الدولة الاموية فاحتجب الخلفاء عن الرعية نوعاً ما واشتبكت المصالح. وصار هناك متنفذون من بني امية وغيرهم ينحرفون عن الحق ويمدون ايديهم الى ما ليس لهم حق فيه من اموال الدولة والرعية.

ولقد روينا في وصف يوم العمل الذي اوردناه في سيرة معاوية انه كان يطلب من حاشيته

وخاصته ان يرفعوا اليه ظلامات وحوائج من لا يستطيع رفعها . وكان يأذن للناس فيدخلون عليه برقاعهم فيجلسهم على الطعام من جهة وينظر في رقاعهم ويقضي حوائجهم من جهة ثانية . فكان هذا نواة هذا النظام . ثم قويت وتطورت في عهد عبد الملك حيث روينا في سيرته انه افرد يوماً في الاسبوع للنظر في تظلم المتظلمين وتصفح قصصهم (رقاعهم او استدعاءاتهم) فاذا وقف منها على مشكل احتاج فيه الى حكم شرعي رده الى قاضيه ابن ادريس الازدي . ثم قويت وسميت باسمها في عهد عمر بن عبد العزيز حيث روينا في سيرته انه كان يأمر منادياً ينادي الا من كانت له مظلمة فليرفعها . وانه كان ينظر في المظالم بنفسه وان اول مظلمة رفعت اليه كانت من ذمي على العباس بن الوليد باغتصاب ارض له فسأل العباس فقال اقطعنيها امير المؤمنين (يعني اباه) فقال كتاب الله اولى وامره برد الضيعة ففعل وتتابع الناس في رفع مظالمهم اليه وكان ينظر فيما يرفع اليه ويزيل المظالم . وكان يتعقب ما في حوزة بني امية بنوع خاص من املاك الدولة فيستردها منهم ويسميها المظالم .

ولقد روينا في سيرة هشام شيئاً مماثلا لما رويناه في يوم عمل معاوية حيث يفيد ان هذه النواة ظلت مستمرة النمو الى اواخر عهد الدولة الاموية . وقد يصح ان يكون من بابها مطالبة عمر بن عبد العزيز من يزيد بن المهلب ان يرد ما اعترف لسليمان انه دخل في ذمته من اموال الدولة وحبسه على ذلك وحبس الحجاج يزيد على مثل ذلك . وملاحقة هشام يزيد بن عبد الملك وهشام من بعده ليزيد وخالد بن عبد الله القسري ويوسف بن عمر ولاة العراق ومصادرة المبالغ الطائلة منهم على ما رويناه في سيرتهم وفي نبذة تمرد يزيد بن المهلب .

١٠ — الفتيا

●

في النجوم الزاهرة رواية [١] تذكر ان عمر بن عبد العزيز جعل الفتيا في مصر الى جعفر ابن ربيعة ويزيد بن ابي حبيب وعبد الله بن جعفر . وفي الاغاني [٢] بيتان من الشعر لشاعر اسمه جامع بن مرخية فيهما عبارة (مفتي المدينة) وهما :

سألت سعيد بن المسيب مفتي　　المدينة في حب ظمياء من وزر

فقال سعيد بن المسيب انما　　تلام على ما تستطيع من الامر

فهذا وذاك قد يفيد انه كان في كل مصر في زمن الدولة الاموية او بعض عهودها منصب فقهي رسمي للاستفتاء يرجع اليه الناس وربما الحكام في الشؤون المختلفة من الناحية الشرعية . وواضح ان هذا هو غير القضاء . وهو ما صاروما زال أمراً مألوفاً في العهود التالية للعهد الاموي .

---

(١) ج ١ ص ٢٣٨

(٢) المجلد الثاني اخبار عبيد الله بن عبد الله . وتتمة الخبر تذكر ان الاغاني يروي ان البيتين بلغا سعيداً بن المسيب فقال كذب والله ما سألني ولا افتيته بما قال .

١١ – الحسبة

ذكرنا في الجزء السابق ان عمر بن الخطاب عهد الى بعض رجاله بمراقبة الاسواق والاسعار والاوزان والنظافة وانه بذلك وضع نواة ما يسمى مهمة الحسبة او البلدية . والمعقول المتسق مع تطور الاحوال ان تكون العناية قد وجهت الى هذه المهمة بأوسع مما كان في زمن الخلفاء الراشدين .

وفي الاغاني رواية بسبيل ذلك [١] حيث ورد فيها ان شخصاً اسمه البردان كان متولياً للسوق بالمدينة وانه قدم اليه رجل خصما يدعي عليه حقاً فوجب الحكم عليه فأمر به الى الحبس حيث ينطوي في هذا ان متولي الحسبة كان له صفة قضائية ما .

١٢ – البريد

ولقد ذكرنا في سيرة عمر في الجزء السابق ايضاً انه انشأ ما يمكن ان يسمى نواة البريد. وكان هذا يتمثل في شخص يرسل الخليفة معه اوامره ورسائله الى الولاة ويرسل الولاة معه رسائلهم واخبارهم الى الخليفة . كما كان يتمثل في تكليف الشخص باستطلاع احوال العمال والرعية ونقلها الى الخليفة .

والمأثورات تفيد ان هذا استمر في زمن الدولة الاموية . وان كنا لم نطلع على بيانات وافية . والمتبادر انه تطور بدوره تطوراً متناسباً مع تطور احوال الدولة واتساع رقعتها .

---

(١) المجلد السابع اخبار البردان .

١٣ — المجتمع

•

كان المجتمع في زمن الدولة الامويه يتألف من :

١ — العرب المسلمين .

٢ — المسلمين غير العرب .

٣ — الذميين اي الخاضعين للسلطان الاسلامي من غير المسلمين . وهو ما كان عليه الامر في زمن دولة الخلفاء الراشدين .

١ — العرب المسلمون

لقد كان العرب بدواً وحضراً قبل الدولة الاموية وظلوا كذلك حيث ظل فريق كبير منهم على حياتهم القبلية وعاداتهم القبلية التي وصفناها في الجزء الخامس منتشرين في انحاء جزيرة العرب وبوادي الشام والعراق والجزيرة الفراتية . ومنهم من كان يشتغل في زراعة الارض ومنهم من كان يكتفي بتربية الانعام، يأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويتنقلون وراء الماء والكلأ ويتحركون نحو الحضر ليندمجوا في الحياة الحضرية تدريجياً كعادتهم الدائبة فيحل محلهم موجات اخرى تضطرها ظروف الحياة الى الخروج من قلب الجزيرة .

ولقد كان كثير من الذين خرجوا في موجات الفتح من جزيرة العرب في زمن الخلفاء الراشدين يستصحبون نساءهم واولادهم . وكان كثير من الذين يبعثون في بعوث جهادية الى شمال افريقية وبلاد الفرس وما وراء النهر يذهبون ومعهم نساؤهم واولادهم . فكان من

هؤلاء واولئك من يبقى يعيش مدة ما حياة القبيلة في المناطق التي يذهبون اليها بعد ان ينتهوا من حركة الجهاد التي اشتركوا فيها على ما تفيد المأثورات .

اما العرب الحضر فمنهم من كان وظل يعيش في مدن وقرى جزيرة العرب استمراراً لما كانوا عليه قبل . يشتغلون بالزراعة والتجارة والصناعات الخفيفة على النحو الذي وصفناه في الجزء الخامس . ومنهم من كان يعيش في مدن الشام والعراق وجزيرة الفرات وقراها على نفس الوتيرة . ومن هؤلاء من جاء الى هذه الانحاء قبل الاسلام بدواً ثم تحضروا ومنهم من جاء اليها في موجة الفتح . ومن هؤلاء واولئك كان يرسل الجماعات تلو الجماعـــات الى مختلف الجبهات التي كانت تجيش بحركة الفتح والمصاولات مع الامم المختلفة بسبيلها في البلاد ويستقرون فيها ويعيشون حياة حضرية حتى صاروا ينسبون اليها حينما كانوا يذكرون في معرض الاحداث السياسية والحربية والتيارات الفكرية والحزبية والحركات التمرديةحيث كان تعبير (اهل الشام) و (اهل العراق) و (اهل مصر) و (اهل خراسان) و (اهل الاندلس) و (اهل الكوفـــة) و (اهل البصرة) و (اهل حمص) و (اهل فلسطين) الخ يعنيهم .

ولقد كان معظم الذين هم خارج جزيرة العرب منهم يتناولون في زمن الدولة الاموية العطاء . ويشتركون في الحركات الجهادية او يكونون على اهبة الاستعداد للاشتراك فيها فكانهذايحول دون انصرافهم الى الاعمال الحضرية من زراعة وتجارة وصناعة في زمن هذه الدولة . فظلت هذه الاعمال في الدرجة الاولى من مشاغل اهل البـــلاد الاولين او العرب الصرحاء الذين جاؤوا قبل الاسلام واستقروا في الشام والعراق والجزيرة وتحضروا معالتنبيه على ان هناك مأثورات تفيد ان من القادمين بعد الاسلام من اخذ ينصرف بدوره الى هذه الاعمال وان كان ذلك في نطاق غير واسع .

ومع ان مما لا شك فيه ان حياة العرب قبل الدولة الاموية قد تأثرت تأثراً غير يسير من مختلف نواحيها بالاسلام ثم بحركة الفتح وانتقال كثير منهم الى البلاد المفتوحة واحتكاكهم بأهلها غير ان هذا قد ازداد كثيراً في زمن هذه الدولة .

ولقد كانت دمشق عاصمة معاوية ابان خلافه مع علي بن ابي طالب امتداداً لولايته على

الشام نحو عشرين سنة من زمن عمر وعثمان رضي الله عنهم جميعاً فاستمر ذلك بعد استتباب الحكم الشامل له .

وانتقل مركز الدولة العربية الاسلامية بذلك من بيئة منعزلة وشبه بدوية الى بيئة ضاربة بسهم وافر من الحضارة واسبابها ومتصلة اتصالا وثيقاً ببلاد كانت بدورها في مثل ذلك . فكان لهذا تأثير عظيم في حياة العرب الذين اتجهت انظارهم الى العاصمة الجديدة واشتدت رابطتهم بها وادي ذلك الى ان تغدو دمشق من كبريات عواصم الارض بكثرة سكانها وضخامة عمرانها ونشاط حركتها التجارية والصناعية والزراعية واناقة الحياة فيها . ثم الى ان تظهر الدولة بمظهر من الفخامة والابهة وعظمة السلطان لم يكن له عهد في دولة المدينة والى ان تسير في سياسة واعمال ومشاريع وتنظيمات متسقة مع ذلك كله بحيث ابتعدت بها ابتعاداً كبيراً في المظاهر والوسائل عن سيرها في العهد السابق ، وبذلك اثبت الجنس العربي في دوره الجديد ما اثبته في اطواره وادواره السابقة من قابلية التكيف والتطور والتفاعل والمرونة والنمو والتقدم والبروز في مختلف المجالات .

على ان من الحق ان نذكر ان العرب لم يكونوا قد تخلصوا من عصبية القبيلة وحمية الجاهلية ، وكانت احداث الدولة الاموية الداخلية وما انفتح امام العرب من آفاق المطامح والمطامع والمناصب والمكاسب عاملا من عوامل ثورانها من جديد فكانت نتيجة لذلك تلك الاحداث الدموية والاحقاد الثائرة بين المنتسبين للقبائل المختلفة التي فصلنا صفحاتها وبواعثها في نبذة العصبية القبلية تفصيلا يغني عن التكرار .

ولقد كان اتساع رقعة السلطان العربي وما كان بسبيل ذلك من جهد وسيلة من وسائل تعاظم موارد الدولة فساعد ذلك على اقامة المشاريع العمرانية والمنشآت الدينية والاجتماعية وتنشيط حركة الزارعة والتجارة والصناعة بمقياس واسع كان للعرب في دورهم الجديد حظ فيها ، وكون كثير منهم نتيجة لذلك ثروات طائلة كما ضمن ذلك لكثير منهم موارد عيش واسعة اتاحت لهم ان يستمتعوا بالحياة الناعمة مسكناً ومطعماً وملبساً على ما تؤيده المأثورات الكثيرة .

ولقد كان رجالات العرب في عهد الخلفاء الراشدين هم المضطلعون بحركة الفتح والسلطان واجهزة الحكم فاستمر ذلك في زمن الدولة الاموية فكانت جميع مناصب الدولة الهامة في ايديهم بالرغم من اندماج غير العرب بالاسلام اندماجاً تاماً وبدء اندماجهم بل واندماج كثير منهم بالعروبة . فلم يكد يكون قائد او وال او قاض او عامل في مركز رئيسي غير عربي معروف الارومة . وكل ما كان من امر غير العرب ان يعهد اليهم بأعمال ثانوية تحت اشراف عربي كالجباية والكتابة لانهم اقدر فنياً واقل جرأة على اموال الدولة [1] .

وقد يكون هذا من باب الاحتياط وعدم التورط في اشراك غير العرب الذين لم يكونوا رسخوا بعد في الاسلام والعروبة . غير انه على كل حال كان تعبيراً وضمانا لبقـــاء العرب الصرحاء متفوقين بارزين في دولتهم . واصحاب اليد النافذة العالية فيها . وكان في الوقت نفسه مظهراً من مظاهر عمق الشعور بالتفوق الجنسي وقوة الروح القومية الذي نشأ عـــن كونهم هم الذين حملوا رسالة الاسلام ومشعل الهداية للناس وهم القيمون على ذلك . ثم هم الذين انجزوا المعجزة الكبرى بما تم على ايديهم من فتح عظيم . وتسنى لهم مـــن انتصارات باهرة غلبوا فيها وتفوقوا على مختلف اجناس الارض في المشارق والمغرب من سند وهنـــد وترك مختلفي الطوائف وخزر وديلم وفرس وكرد وارمن وروم وبربر وافرنج — وهذه الكلمة كانت تطلق على اهل اوروبا الغربية وبخاصة اهل شبه جزيرة ايبريا التي كان منها الاندلس — بالاضافة الى اهل البلاد المصرية والشامية والعراقية الذين كان كثير منهم غير صريح العروبة والذين كانوا بالنسبة للعرب الفاتحين غرباء كالاقباط في مصر والآراميين — ومنهم السريان — والكنعانيين — ومنهم الفينيقيون — والعـــبرانيين والبابليين والاشوريين والكلدانيين الخ

---

(١) من الامثلة على ذلك ما رواه ابن الاثير حيث روى ان واحداً من رجال العرب عاتب عبيد الله بن زياد والي العراق على تكليفه الموالي والدهاقين بالجباية دون العرب فأجاب قائـــلا (كنت اذا استعملت العربي كسر الخراج فاذا اغرمته او اغرمت عشيرته اوغرت صدورهم وان تركته تركت مال الله وانا اعرف مكانه فوجدت الدهاقين ابصر بالجباية واوفى بالامانة واوهن بالمطالبة منكم وجعلتكم امناء عليهم لئلا يظلموا احداً .

واقاموا في بقاعهم الشاسعة الواسعة ملكهم الضخم الباذخ .

ولقد روينا في نبذة الخوارج هتاف قائد عربي خرج لقمع حركة من حركات الخوارج قام بها جماعة من الاعاجم حيث قال لهم (يا معشر العجم هـذه العرب تقاتلنا على الدين فما بالكم انتم) [1] حيث يفيد هذا ان هذا الشعور بلغ فيهم الى درجة اعتبار حركة الخوارج انما كانت تمثل التشاد والتجاذب على السلطان والدين العربيين وان ذلك يجب ان يبقى محصوراً بين العرب فلا يدخل فيه غيرهم !

ولقد بلغ فيهم التعصب لذلك الى حد انهم صرفوا الملك عمن لم يكن عربي الام . فقد عاش خمسة ابناء لعبد الملك بعده ولي اربعة منهم الملك وهم الوليد وسليمان ويزيد وعبدالملك. ولم يله خامسهم مسلمة مع ما ظهر من قوته وهمته وبلائه الحسن في الحكم والقيادة في مواقف شتى لأن امه غير عربية . فأبوه لم يعهد اليه مع انه عهد الى الوليد وسليمان وكان هو اسن منهما وسليمان لم يعهد اليه بل عهد الى عمر بن عبد العزيز ثم الى اخيه يزيد بعده . ويزيد لم يعهد اليه بل عهد الى اخيه هشام وكان يتولى الحكم والقيادة في عهودهم جميعهم . ولم يرو عنه انه كان يشعر بضيق وحرج من ذلك .

وقصارى ما كان من ابيه انه قدر مواهبه وعقله فقال لاخوته حينما حضرته الوفـاة (انظروا الى اخيكم مسلمة فاستوصوا به خيراً فانه شيخكم ومجنكم الذي تستجنون وسيفكم الذي تضربون) على ما رويناه في سيرة عبد الملك [2] . وشذوذ الخلفاء الثلاثة الاخرين اي

---

(١) تاريخ اليعقوبي مطبعة العري ج ٢ ص ١٩٧

(٢) ما يروى عن عبد الملك انه امر ولديه سليمان ومسلمة بالسباق بين يديه فسبق سليمان مسلمة فقال:

ألم انهكم ان تحملوا هجناءكم	على خيلكم يوم الرهان فتدرك
وما يستوي المرآن هذا ابن حرة	وهذا ابن اخرى ظهرها مشترك
وتضعف عضداه ويقصر سوطه	وتقصر رجلاه فلا يتحرك
وادركته خالاتـه فنزعنه	ألا ان عرق السوء لا بد يدرك

انظر تاريخ التمدن الاسلامي ج ٥ ص ١٤٤

يزيد بن الوليد وابراهيم بن الوليد ومروان بن محمد عن ذلك – حيث كانت امهاتهم غير عربيات – انما كان في اواخر ايام الدولة . وكانت قوة الموالي وحركاتهم في بلاد الاعاجم قد استشرت بتحرك العباسيين . ولعل الشعور قد ضعف مع الزمن ايضاً .

ومن الممكن ان يذكر تعريب النقد والطراز والدواوين في هذا المقام . فمهما كانت البواعث المباشرة الى تعريب النقد والطراز والدواوين فانه يعد مظهراً من مظاهر ذلك الشعور من حيث انه كان استكمالاً لمظاهر السيادة والكرامة القومية العربية الاسلامية فضلا عن كونه وسيلة ناجعة الى نشر اللغة العربية بين سكان الدولة وجعل الاعتبار الرسمي لها وحدها وجعلها مرنة متسعة لمختلف انواع الاعمال والاصطلاحات التي لم يكن للعرب عهد بها .

ولقد روى جرجي زيدان عن المقريزي خبراً مهما في بابه وهو ان الخلفاء الامويين اشتد بهم الحرص على منزلة العرب وحفظ انسابهم فجعلوا في كل ديوان من دواوينهم سجلا يقيدون فيه من يولد من العرب في البلاد المفتوحة [١] .

ولم يكن شعور العرب بالتفوق وتعصبهم تجاه العناصر الاخرى قاصرين على الحكم ومظاهره . بل كانا منتشرين في العرب على اختلاف طبقاتهم ايضاً حيث كانوا يرون انفسهم انهم اشرف ارومة وكفاءة وابعد همة واجدر بكل عظيمة . وان لهم الحق بالتفوق على غيرهم والتميز عن سواهم .

ولقد كانوا يسمونهم غيرهم بالموالي والحمراء ولا يرونهم اكفاء لهم في الصهارة فاذا اراد احدهم ان يتزوج عربية عد ذلك جرأة ووقاحة ورد اسوأ رد واذا عقد قرانه على عربية تدخل الولاة وفسخوا العقد [٢] . بل انهم كانوا يأنفون من تزويج بناتهم لعربي امه ليست

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٥٨

(٢) من الروايات المروية في ذلك ان احد الموالي خطب بنتاً من بني سليم في الروحاء فزوجه اهلها إياها فوشى بعضهم ذلك الى الوالي ففرق بينهما وضرب المولى مئتي سوط وحلق رأسه ولحيته . فمدح شاعر الوالي قائلا .

عربية مهما علا مقامه .

حيث روي ان عبد الملك بن مروان خطب بعض بنات عقيل بن علفة احد زعماء القبائل المعروفين بالأنساب الشريفة المحفوظة فقال له جنبني هجناء بنيك . والهجين كانت كلمة تطلق على غير عربي الام في مقام اللمز والتصغير .

وهناك روايات كثيرة تروي مظاهر هذا الشعور في صور مختلفة . من ذلك ان بعض العرب لم يكن يرى الصلاة وراء المولى واذا فعلوا ذلك كان تواضعاً لله . ومن ذلك ان بعضهم كان اذا مرت جنازة عربي صاح (وا قوماه) واذا مرت به جنازة غير عربي قال مال الله يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء) .

ومن ذلك ما روي عن عبد الله بن عامر احد رجالات العرب . فقد دعا عليه احد الموالي قائلا (لا اكثر الله من امثالك فينا) فأجابه (بل اكثر الله من امثالك فينا) فسئل كيف يدعو عليه ويدعو له فقال (يمهدون طرقنا ويخصفون نعالنا ويخيطون ثيابنا) تصغيراً لشأن غير العربي حيث كان العربي يرى نفسه انما وجد للرئاسة والقيادة والحكم والسلطان فليس

حمى حدباً لحوم بنات قوم ... وهم تحت التراب ابو الوليد

وفي المتنـين للمولى نكلل ... وفي سلب الحواجب والخدود

اذا كافأتهم ببنات كسرى ... فهل يجد المولى من مزيد

فأي الحق انصف للموالي ... من اصهار العبيد الى العبيد

ومن ذلك ان عبد الله بن عون من كرام التابعين تزوج عربية فضربه والي العراق بلال بن ابي بردة في زمن هشام . وزوج رجل من بني القيس في البحرين بنتاً له لاحد الموالي فقال شاعر اسمه ابو بحر مؤنباً اياه على ذلك :

امن قلة صرتم الى ان قبلتم ... دعارة زراع وآخر تاجر

واصهب رومي واسود فاحم ... وابيض جلد من سراة الاحامر

شكولهم شتى وكل نسيبكم ... لقد جئتم في الناس احدى المناكر

انظر هذه الروايات في تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٨٤-٨٥

يليق به ان يشغل نفسه بالمهن المعاشية الاخرى وان الموالي هم الذين يجب ان يخدموهم بها

واستقصاء هذه الامثال امر طويل وقد استفاضت بها كتب الادب والسير والتاريخ القديمة . وقد يكون بعضها موضوعاً ولكنها على الارجح كانت تسجيلا صادقاً لواقع انتشار هذا الشعور في العرب في تلك الحقبة من التاريخ .

ومع ان في ذلك افراطاً لا مسوغ له ومناقضة للمبادىء الاسلامية السامية التي وطدت الاخوة المتكافئة بين المسلمين على اختلاف اجناسهم وألوانهم وبلادهم والتي كان العرب منتدبين للتبشير بها وكانوا بالتبعية اولى الناس بالتزامها . وقد جلبت على العرب الحقد والنقمة من سائر المسلمين غير العرب الذين كانوا يؤلفون كثرة اهل الدولة وادت الى ردود فعل متنوعة ضدهم . فتميزت منهم طائفة اصطلح كتاب العرب على تسميتها بالشعوبيين انبرت لغمز العرب والتشنيع عليهم والحط من اقدارهم وهجوهم نظما ونثراً [1] . ثم لدس الدسائس واثارة الفتن بينهم وتدبير المكائد لهم والتآمر على سلطانهم مع كل متآمر من العرب وغير العرب مما مرت امثلة عديدة منه في فصول هذا الجزء ومما كان له اسوأ الاثار في تاريخ

---

(١) كثر هذا في زمن الدولة العباسية ولكنه بدأ في الدولة الاموية ومن الامثلة على ذلك الشاعر اسماعيل ابن يسار الفارسي الاصل من شعراء هذه الدولة الذي رويت له هذه الابيات في الفخر بالعجم على العرب وبذم العرب :

رب خال لي متوج لي وعم	ماجد مجتدى كريم النصاب
انما سمي الفوارس بالفرس	مضاهاة رقعة الانساب
فاتركي الفخر يا امام علينا	واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسألي ان جهلت عنا وعنكم	كيف كنا في سالف الاحقاب
اذ نربي بناتنا وتدسون	سفاهاً بناتكم في التراب

وقد ورد في سياق هذه القصة ان عربياً رد على اسماعيل قائلا له « ان حاجتنا الى بناتنا غير حاجتكم فأفحمه حيث اراد بقوله ان العجم يربون بناتهم لينكحوهن . « انظر اخبار الشاعر المذكور في المجلد الرابع من الاغاني » والجواب يفيد ان المناظرة بين القوميين العرب والشعوبيين كانت قائمة ومتوازية . وهو ما تفيده بعض الروايات السابقة ايضاً .

العرب السياسي والثقافي والاجتماعي بل والديني ومما كان من العوامل القوية في القضاء على الدولة الاموية في النهاية فانه يدل دلالة واضحة علـــى ما وصل اليه الشعور بالعزة القومية في ظل الدولة الاموية اولاً . وكان وسيلة من وسائل اندماج كثير من غير العرب بالعروبـــة الصريحة سواء في ذلك الغرباء عن الجنس العربي ام الذين هم من هذا الجنس ولم يكونوا قد انصهروا بعد في بوتقة العروبة الصريحة من انسال الموجات العربية السابقة ثانياً .

ولقد دخل كثير من اهل بلاد ما وراء النهر في الاسلام لأن ذلك يجعلهم عرباً – اي مساوين للعرب – حيث كانوا لا يرون فرقاً بين وصفي الاسلام والعرب على ما رويناه في نبذة فتوح ما وراء النهر في عهد الوالي الاشرس . ومن المحتمل كثيراً ان ذلك كان حال غيرهم ايضاً .

ولقد اقبل هؤلاء واولئك على اللغة العربية فلم يمض إلا اجيال قليلة حتى صار بعضهم من الفطاحل والائمة فيها . وصار منهم فيها كبار الشعراء والادباء والمؤلفين والمفسرين والمحدثين والمترجمين ، وتسموا بأسماء عربية . وانتسبوا بالولاء وغير الولاء الى القبائل العربية ومنهم من صنع لنفسه انساباً عربية او تاريخاً يصل اصله بالعروبة وبجزيرة العرب وممـن فعل ذلك ملوك صنهاجة وزناتة القبيلتين البربريتين الكبيرتين على ما تدل عليه مأثورات شعرية جاء في احداها :

قوم لهم درك العلا في حمـير	واذا انتموا صنهاجة فهم هم
لما حووا اطراف كل فضيلة	غلب الحيـــاء عليهم فتلثموا

وجاء في إحداها :

ايهـــا السائـل عـــنا اصلنا	قيس بن عيلان بنو العز الاول
ولنا الفـــخر بقيس انه	جدنا الاكبر فكاك الكبل [1]

---

(١) القطعة الاولى بسبيل وصل نسب قبائل صنهاجة بحمير . والقطعة الثانية بسبيل وصل نسب قبائل زناتة بقيس بن عيلان . وقد نشأ في شمال افريقية وفي الاندلس دول وامارات عديدة متفرعة عن صنهاجة وزناتة ومن جملتها دولة المرابطين او الملثمين من صنهاجة التي اشير اليها في القطعة الاولى . اقرأ الجزء السادس والسابع من تاريخ ابن خلدون .

حتى يكونوا على قدم المساواة وفي وحدة المستوى مع الجنس العربي الحاكم الهادي .

وهناك روايات كثيرة جداً مبثوثة في كتاب الاغاني وكتب التاريخ والادب عن اناس من مسلمي البلاد المفتوحة صنعوا لأنفسهم أنساباً عربية او ادعوا انهم من اصل عربي .

ومن طرائف ما يرويه الاغاني من ذلك ان شخصاً من دهاقين الفرس اصاب مالاً ورفعة وقويت احواله فادعى انه من بني تميم فهجاه شاعر اسمه علي بن الخليل بأبيات جاء فيها :

يروح بنسبة المــــولى	ويصبح يدعي العربا
يشم الشيح والقيصوم	كي يستوجب النسبا
أتيـــناه بشبوط	ترى في ظهره حدبـاً
فقال اما لبخلك من	طعــام يذهب السغبا
فصد لأخيك يربوعاً	وضباً واترك اللعبا
وصار تشبهاً بالقوم	جلفاً جافياً جشبا [1]

ونستطرد الى القول ان بعض المستشرقين والباحثين اذ رأوا العرب انما برزوا ونبغوا في مجال الحكم والسلطان والقيادة ورأوا قلة الذين برزوا ونبغوا منهم في ميادين العلوم والفنون والمهن ورأوا ان كثرة العلماء والمؤلفين والمفسرين والمترجمين والمهنيين من اطباء ومهندسين وفلكيين وكيمائيين الخ المسلمين ليسوا من العرب الصرحاء عزواً الى الجنس العربي ضعف القابلية في هذه الميادين .

وفي هذا ما فيه من الخطأ . فالجنس العربي اثبت قابليته العظمى في منبته وبخـاصة في جنوب هذا المنبت ـ بلاد اليمن ـ ثم في المهاجر التي انساحت اليها موجاته اي وادي النيل والشام والعراق اثباتاً قوياً رائعاً في هذه الميادين وميادين الحكم والقيادة على ما مر شرحه في الاجزاء الاربعة الاولى من الكتاب . اما امرهم في سياق موجتهم الاسلامية الكبرى وما بعدها فانه يتحمل بعض الشرح .

---

(١) انظر اخبار الشاعر علي بن الخليل في المجلد الثالث عشر من الاغاني .

فهذه الموجة في مرحلتها الاولى التي يمكن ان يحدد مداها الى اواخر زمن الدولةالاموية لم تكن قد خلصت بعد من ما كان من طبع وحياة غالبية العرب الصرحـــاء في الجزيرة وخارجها وهما حياة البداوة والقبيلة التي قدلا تساعد على الاشتغال بالعلوم والفنون والمهن وتكتفي باعمال الفروسية خلاصاً تاماً ثم لم تلبث ان استغرقت في حركة الدعوة الاسلامـــية وحركات الفتح التي استتبعتها فاستقطبت نشاطها ومواهبها في ذلك ثم في مجال الحكم والسلطان والادارة والقيادة فشغلها ذلك عما سواه من المجالات .

ولقد نجحت في هذا نجاحاً عظيما وبرز منها فيه شخصيات وابطال يعدون من شخصيات وابطال التاريخ الانساني . ومن الظلم والتجني ان يقال عن قوم نبغ رجالهم في مجال الحكم السلطان والادارة والقيادة هذا النجاح انه ضعيف القابلية في المجالات الاخرى . لان القابلية انما تتمثل فيما استغرقه صاحبها فيه من مجال . والذي ينبغ في مجال ما لاستغراقـه فيه يصح ان ينبغ في مجال آخر لو استغرق فيه ايضاً .

وحين حرص العرب في دورهم الجديد على ان يكونوا المالئين لمجـال الحكم والسلطان والادارة والقيادة دون غيرهم من المسلمين انصرف هؤلاء الى المجالات الاخرى فكان ما كان من مكاثرتهم للعرب في هذه المجالات في بعض المراحل، ولا سيما هم الاكثر عدداً بالنسبة للعرب في تعداد المسلمين .

على ان العرب لم يلبثوا ان اثبتوا قابليتهم العظيمة في تلك المجالات حينما تفرغ لهـا من تفرغ منهم وحينما انكمشوا عن مراكز القيـادة والحكم والسلطان في ادوار تغلب العناصر الاعجمية على الدولة العباسية وما بعدها مما يتمثل في مئات الشعراء والادباء والاطـــباء والفلكيين والرياضيين والمفسرين والمؤرخين والفقهاء والعلماء والفلاسفة من العرب الاقحاح الذين استفاضت كتب التراجم بأسمائهم ونبوغهم وآثارهم .

٢ - المسلمون من غير العرب

هؤلاء هم الذين اسلموا من اهل البلاد المفتوحة في مشارق الارض ومغاربها والذين نعتوا في التاريخ العربي والاسلامي باسم الموالي . والتسمية في اصلها مستمدة من اصطلاح عربي جاهلي . وقد كانت كلمة (مولى) مفرد الموالي تطلق على المملوك كما كانت تطلق على الذين ينتمون الى غيرهم بقصد الاحتماء والتحالف .

والمتبادر ان تسمية المسلمين غير العرب بالموالي هي بالمعنى الثاني على اعتبار انهم التحقوا بالعرب وتحالفوا معهم فصاروا مواليهم . وننبه على ان كلمة الموالي كانت تطلق على جميع المسلمين غير العرب وليس على مسلمي العجم فقط كما قد يكون استقر في بعض الاذهان .

والتسمية على كل حال تتضمن معنى من معاني الضعف والهوان لأن الضعفاء هم الذين كانوا ينتسبون الى غيرهم بالولاء . وفيما أوردناه قبل قليل من نظرة العرب اليهم دلالة على ذلك .

وليس هناك مأثورات يمكن الاستناد اليها في تقدير عددهم في زمن الامويين او نسبتهم بالنسبة لغير المسلمين من اهل بلادهم او بالنسبة للعرب غير ان هناك روايات يمكن الاستئناس بها على انهم كانوا عدداً كبيراً ، قد يفوق عدد العرب الصرحاء في البلاد المفتوحة بل وفي بعضها صاروا هم اغلبية المسلمين والاغلبية الكبرى بالنسبة لمن احتفظوا بدينهم منهم .

من ذلك ما رويناه في سيرة الوليد بن عبد الملك وفي نبذة فتوحات شمال افريقية من ان قسما عظيما من البربر اسلموا . وما رويناه في سيرة عمر بن عبد العزيز من اعتناق الاسلام من قبل البربر الذين لم يكونوا قد اسلموا قبل وغدو الاسلام دين جميع البربر .

ومن ذلك ما روي من تناقص خراج مصر في زمن هشام حتى نزل الى ربع ما كان

عليه في زمن سليمان [1] . معللا ذلك بكثرة دخول المصريين في الاسلام وعدم العناية بالري معاً . ولا يعقل ان تكون عدم العناية بالري ذات تأثير عظيم لأن المدة كانت قصيرة بين عهد سليمان وعهد هشام من جهة وهشام معروف بحسن الادارة والحرص من جهة اخرى .

ولقد روينا في سيرة عمر بن عبد العزيز الذي تولى بعد سليمان ان عامله في مصر كتب اليه ان دخول الناس في الاسلام قد اضر بالجزية واستأذنه في الاستمرار على اخذها منهم بعد اسلامهم فكتب اليه منددا موبخاً قائلا له ان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً حيث يفيد هذا ان المصريين اقبلوا على الاسلام في زمن عمر بن عبد العزيز بنطاق واسع كما كان شأن البربر . بل ان رقم الجباية ليسوغ القول ان اكثريتهم الكبرى اعتنقت الاسلام في زمن الدولة الاموية. والمأثورات تسوغ القول ان الاغلبية العظمى من اهل بلاد العجم قد دانوا بالاسلام في زمن هذه الدولة ولعل انتصار حركة ابي مسلم في هذه البلاد من اقوى الادلة على ذلك . والمأثورات تسوغ القول كذلك ان جمهوراً عظيما من اهل ما وراء النهر قد اعتنقوا الاسلام.

وقد روينا في سيرة عمر بن عبد العزيز ان عامل خراسان كان يأخذ الجزية ممن اسلموا فكتب اليه يوبخه ويأمره بوضع الجزية عمن اسلم فاستشاره بامتحانهم بالختان لأن تناقص الجزية قد اضر ببيت المال وان الناس قد اسلموا هرباً من الجزية فكتب له ان الله لم يبعث محمداً خاتناً ولا جابياً ثم امر ولاته ان يعلنوا سقوط الجزية عن كل من يسلم فكان ذلك سبباً لنشر الاسلام في ما وراء النهر . وان عمر كتب الى ملوك السند يدعوهم الى الاسلام فاستجابوا وتابعهم قومهم على ذلك .

وروينا في سيرة هشام ثم في سياق فتوح ما وراء النهر ما كان من استجابة الناس الى الداعي الذي ارسله والي خراسان الاشرس واقبالهم على الاسلام وفزع الدهاقين الموكلين بجباية الجزية الى والي سمرقند يقولون له ممن نأخذ الجزية وقد صار الناس عرباً وبنوا المساجد .

---

(١) كان خراج مصر في زمن سليمان « ١٢٠٠٠٠٠٠ » دينار فهبط الى « ٣٠٠٠٠٠٠ » في زمن هشام . انظر تاريخ الاسلام السياسي حسن ابراهيم ج ٢ ص ٣٦٥ .

وفي كل ما تقدم دلائل على فشو الاسلام في اهل مصر وشمال افريقية وبلاد العجم وما وراء النهر والسند وغدو معظم اهل هذه البلاد مسلمين في زمن الدولة الاموية . وهذا القول يصدق في اعتقادنا على اهل العراق والشام وجزيرة الفرات من عرب صرحاء وغير صرحاء الذين كانوا يدينون بالنصرانية . فليس هناك ما يمكن ان يدل على ان كتلا كبيرة ظلت تحتفظ بدينها في هذه البلاد في زمن الدولة الاموية .

ولقد ذكرنا قبل قليل نظرة العرب الى اخوانهم المسلمين من غير العرب فلا نرى ضرورة للاعادة . ونزيد هنا على ما قلناه ان الدولة مع الاسف كانت تشاطر العرب هذه النظرة .

فقد روى الامام ابو عبيد في كتاب الاموال [1] ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فرض لاهل بدر العرب وغير العرب على السواء خمسة آلاف وللانصار ومواليهم اربعة آلاف وكتب لامراء الاجناد بالحاق من يسلم من الحمراء بواليهم وجعلهم اسوة لهم في العطاء والفيء . وان قوماً قدموا على عامل لعمر فأعطى العرب وترك الموالي فكتب اليه بالتسوية بينهم مما فيه مظهر من مظاهر الاخوة الاسلامية وتكافؤ المسلمين التي كانت من مبادىء الاسلام السامية. غير ان المأثورات تفيد ان هذا قد اهمل حيث روي خبر جاء فيه أن معاوية فرض للموالي (١٥) درهماً وان هذا المقدار رفع في عهد سليمان الى (٢٥) وفي عهد هشام الى (٣٠) [2] . وقد وصف معاوية في الخبر الاول انه اول من فرض للموالي . والمبلغ المفروض مع ذلك لا يكاد يمثل جزءاً من ستين من عطاء العربي المسلم البالغ .

وقد روينا في سيرة عمر بن عبد العزيز شكوى الوفد الخراساني التي جاء فيها ان عشرين الفاً من الموالي المسلمين يغزون مع العرب بلا عطاء ولا رزق حيث يؤيد ذلك ما قلناه ويبلغ الاهمال والاجحاف والانحراف عن المبادىء الاسلامية ذروته حيث يفسر ذلك من ناحية ما كان من الموالي العجم حانقة من المسارعة الى الاندماج في كل حركة ضد العرب ودولتهم

---

(١) ص ٢٣٥-٢٣٦

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٨٣-٨٤

الاموية واستغلال الفتن العصبيه التي كانت تثور بـــين العرب انفسهم مما ذكرناه في نبذ العصبية القبلية والخوارج وحركات ابن الاشعث والمختار والهاشميين والتشيع . وقد استغل محمد بن علي العباسي منظم الدعوة العباسية ذلك فوصى دعاته بالاعتماد عليهم دون العرب . وقد استجابوا الى هؤلاء الدعاة بقياس واسع فكان ذلك من اقوى عوامل نجاح هذه الدعوة التي قضت على الدولة الاموية .

•

٣ — الذميون

هذا التعبير يطلق على كل من خضع للسلطان العربي الاسلامي واحتفظ بدينه على شرط اداء الجزية لهذا السلطان ، ويعني انه صار في عهد المسلمين وذمتهم . وصار له حق الحماية عليهم وبممارسة طقوس دينه والتحاكم في مشاكله المتنوعة الاسروية عند قضاته اذا جاء على ما تضمنته المبادىء القرآنية والنبوية وسار عليه الخلفاء الراشدون وشرحناه في الجزءين السادس والسابع .

وخلافاً لما في الاذهان العامة فـــان التعبير كان يشمل بالاضافة الى اليهود والنصارى عبدة النار والاوثان ايضاً . وهناك احاديث نبوية تتضمن صراحــة ار النبي صالح المجوس على الجزية على ان يحتفظوا بدينهم على ما اوردناه في الجزء السادس .

وقد صالح المسلمون في زمن الخلفاء الراشدين عبدة اوثان في المشرق والمغرب على الجزية على ما اوردناه في الجزء السابع فصار ذلك سنة . ولا سيا وليس هناك نص من قرآن وحديث يمنع ذلك .

وقد جاء في كتاب الخراج للامام ابي يوسف (وجميع اهل الشرك من المجوس وعــبدة

الاوثان وعبدة النيران والصابئين والسامرة تؤخذ منهم الجزية) [١] . ولقد استثنى نصارى بني تغلب من الجزية مقابل مضاعفة الزكاة على اموالهم حيث انفوا مـــن دفعها . وكان لهم شوكة . وكانت ارضهم متاخمة للروم فصالحهم عمر بن الخطاب على ذلك بشرط ان لا ينصروا اولادهم . ومضى الامر على ذلك الى ان انقرض الجيل النصراني وعم بني تغلب الاسلام في اواخر ايام الدولة الاموية [١] .

ولقد كان اكثر اهل البلاد المفتوحة في زمن الخلفاء الراشدين ذميين يؤيدون الجزيـة . وهي بلاد العراق والشام وقسم كبير من بلاد العجم ومصر والنوبة وبرقة وبعض انحـــاء تونس والجزائر . ثم دخل في ذمة المسلمين في زمن الدولة الاموية اهل البـلاد التي فتحت في هذا الزمن وخضعت للسلطان العربي الاسلامي . ولقد اخذ هؤلاء واولئك يقبلون عـــلى اعتناق الاسلام حتى شمل اكثريتهم العظمى في زمن الدولة الاموية على ما شرحناه في النبذة السابقة . واستمر الذين لم يسلموا ذميين يؤدون الجزية .

ولقد كان مقدار الجزية قد استقر في زمن عمر بن الخطاب على ثلاث درجات ٨، ٠ هماً ـ او اربعة دنانير ـ على الموسرين ونصفها على المتوسطين وربعها عـلى العمال والكاسبين .

---

(١) ص ٧٣ وننبه على ان الامام ابا يوسف استثنى اهل الردة من المسلمين واهل الاوثان من العرب وقال ان الحكم فيهم ان يعرض عليهم الاسلام فان اسلموا فيها والا قتل الرجال منهم وسبي النساء والصبيان . وتعليقا على ذلك تقول ان كلام الامام بشأن اهل الردة مؤيد بالاحاديث النبوية . فالمرتد يستوتب فان لم يتب يقتل . واما اهل الاوثان من العرب فقد ثبت بنص القرآن ان النبي كان يعقد معهم معاهدات . ويقبل منهم المسالمة والموادعة . ومن هذه الاحداث ما كان قبل فتح مكة ومنها ما كان بعده . ولم يقاتل النبي من اهل الاوثان من العرب إلا الاعداء الذين كانوا يقاتلون المسلمين ويعتدون عليهم مما ورد تأييد له وتوجيه فيه آيات قرآنية عديدة . وهناك آية جاء فيها « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يظاهروا على اخراجكم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين «سورة الممتحنة ٨» تتضمن حكما محكما . وقد شرحنا كل ذلك في الجزء السادس شرحاً يغني عن التكرار . على ان الوثنية عند العرب قد انتهت بعد حروب الردة فلم يعد هذا الامر ذا موضوع .

(١) انظر كتاب الخراج ص ٦٨-٦٩

واستمر الامر على ذلك في زمن الدولة الاموية [1] . وكان من جملة التوجيهات العمرية ان لا تؤخذ الجزية من المساكين والفقراء الذين يعيشون على السؤال والصدقات ولا من العميان والمقعدين والشيوخ الطاعنين واهل الصوامع ورهبان الاديار الذين لا مال لهم وان يصدق صاحب الدير ورئيسه في قوله عن ذلك . وان لا تؤخذ كذلك من تركة الذمي اذا مات قبل ادائها ولا من المغلوب على عقله . وان لا يضرب احد من اهل الذمة في استيدائها ولا يناموا في الشمس ولا يجعل عليهم في ابدانهم شيء من المكاره بسبيل ذلك . وكل ما جوز هو حبسهم مع الرفق الى ان يؤدوها ما دام الامكان المادي لذلك متوفراً .

ولقد كان من التوجيهات النبوية والراشدية عدم ظلم الذميين واذيتهم وعدم تكليفهم بما لا يطيقون ، وعدم اخذ شيء من اموالهم بغير حق ، والدفاع عنهم وحمايتهم . ومما روي من ذلك عن النبي ﷺ قوله (من ظلم معاهداً او كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه) وعن عمر قوله (اوصي الخليفة بعدي بذمة رسول الله ان يوفي لهم بعدهم وان يقاتل من ورائهم وان لا يكلفوا فوق طاقتهم) وقد مر عمر وهو راجع من الشام بقوم اقيموا في الشمس ويصب على رؤوسهم الزيت فسأل ما بالهم فقيل له عليهم جزية لم يؤدوها فسأل وما يقولون فقيل له يقولون انا لا نجد فقال (دعوهم ، لا تكلفوهم ما لا يطيقون ، فاني سمعت رسول الله يقول لا تعذبوا الناس ، فان الذين يعذبون الناس في الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة) ثم امر باخلاء سبيلهم [2] .

ولقد استند جرجي زيدان في كتابه تاريخ التمدن الاسلامي في تجريح الامويين وعهدهم وتعقب الروايات المروية عنهم في صدد جزية الذميين ومعاملتهم لهم في جملة ما تعقبه من

---

(١) ننبه على ان هناك فقهاء وائمة ذهبوا الى ان مقدار الجزية المذكور على درجاتها الثلاث ليس شيئا واجبا وان تقدير الجزية يكون هنا بقدرة المستحقة عليه وحالته المالية يقدرها اولو الامر . ويستندون في ذلك الى مقدار الجزية التي فرضها النبي على اهل الكتاب في اليمن وهي دينار على كل حالم « انظر كتاب الاموال ص ٤١ »

(٢) انظر كتاب الخراج للامام ابي يوسف ٧٠-٧٢

الروايات المروية عن مظالمهم وانحرافاتهم ومما رواه عن البلاذري [1] ان معاوية امر عمراً بن العاص بزيادة قيراط على ما يجبى من اهل مصر فأبى عمرو تنفيذ ذلك لمخالفته لمعاهدة الصلح [2] وعن المقريزي ان عبيد الله بن الحبحاب متولي خراج مصر في زمن هشام زاد قيراطاً في كل دينار فثار الاقباط فحاربهم المسلمون وقتلوا كثيراً منهم وفعل مثله اسامة بن زيد التنوخي وكثر في ايام هذا الالتجاء الى الرهبنة هرباً من الجزية فأحصى الاديار والرهبان وجعل على يد كل راهب حلقة عليها اسمه واسم ديره وصار يقطع يد كل راهب لا يحمل الحلقة . وألزم كل نصراني بحمل سند دفع ما عليه من الجزية وكان يأخذ عشرة دنانير ممن لم يوجد معه سند بالدفع . وكبس الاديار وقبض على عدد من الرهبان ليس في ايديهم حلقات فضرب رقاب بعضهم وضرب بافيهم حتى ماتوا تحت الضرب . ولما بلغ هشاماً هذه الاخبار لم يرض بها وكتب الى عماله باجراء النصارى على عوائدهم وعهودهم التي في ايديهم . ومن ذلك ان جزية اهل الجزيرة كانت ديناراً ومدين قمحاً وقسطين زيتاً وقسطين خلا فاستقل عبد الملك ذلك وحسب كسب عامل في السنة وطرح نفقته من الكسب فكان الباقي اربعة دنانير فألزم بها جميع الناس وجعلهم طبقة واحدة [3] .

وواضح من هذا ان منه ما لم يقع . ومنه ما انكره الخليفة ومنعه . اماتعديل عبدالملك لجزية الجزيرة فلم نقع عليه . والبيان الذي وقعنا عليه في البلاذري واثبتناه في الذيل يجعل هذا التعديل ان صح خبره سائغاً . وعلى كل حال فالمرويات ضيقة المدى وليست عامة ودائمة بحيث يسوغ القول ان الامر في زمن الامويين جرى في الاعم الاغلب على ما كان عليه في دولة الخلفاء الراشدين .

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٢٠ والرواية في البلاذري في الصفحة ٢٢٥ من طبعة مطبعة الموسوعات لسنة ١٣١٩ هـ

(٢) تاريخ التمدن ج ٢ ص ٢١ ولم يتسن لنا ان نرى الرواية في المقريزي

(٣) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٢٢ وقد عزا المؤلف خبره الى البلاذري ص ٧٣ ولم نجد هذا الخبر في النسخة التي في يدنا الطبعة الاولى بمطبعة الموسوعات سنة ١٣١٩ هـ وفي هذه النسخة ص ١٨٥ خبر استقرار الجزية على ذميي الجزيرة في زمن عمر على ٤٨ درهماً و ٢٤ درهماً و ١٣ درهماً حسب درجات قدرتهم مع مدي قمح وقسطي زيت وقسطي خل .

وهناك مسألة اخرى ذكرتها كتب العرب القديمة ، وكانت موضوع استهجان واستنكار من بعض اعداء العرب والاسلام وهي القيود المروية في صدد ازياء الذميين وتصرفاتهم .

ولقد ذكر ذلك الامام ابو يوسف في كتابه الخراج وعدد هذه القيود والتصرفات مثل وجوب جعلهم الزنانير الغليظة في اوساطهم وان تكون قلانسهم مضربة . وشراك نعالهم مثنية وان لا يركبوا على سرج بل على اكاف وان لا يلبسوا اقبية ولا ثياب خز ولا يضعوا على رؤوسهم عمائم . وان لا يسمح لهم ببيع الخمر والخنزير في اسواق المسلمين ولا باظهار الصليب امامهم ولا بانشاء بيع وكنائس وبيوت نار جديدة مع هدم ما كان لهم من ذلك عند الصلح وقال ان بعض هذه القيود من توجيهات عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز لاجل ان يتميز زيهم وهيئتهم عن زي المسلمين وهيئتهم .

وكتب الصلح التي كتبها عمر بن الخطاب وقواد المسلمين للذميين اثناء حركة الفتح واوردنا نصوص كثير منها في الجزء السابق ليس فيها شيء من ذلك باستثناء نص كتاب واحد الى اهل الرها فيه شرط عدم اظهار النواقيس والصلبان [1] .

ولقد اوردنا في الجزء السابق نص كتاب قيل ان اهل دمشق كتبوه الى ابي عبيدة نقلا عن خطط الشام للكرد علي فيه اعتراف بأنهم قبلوا شروطاً كثيرة فرضت عليهم حين الفتح وتعهد بالتزامها وبراءة المسلمين من ذمتهم إذا خالفوها . وفيها ما ذكره الامام يوسف وما لم يذكره .

وقد استبعدنا صحة صدور هذا الكتاب في الزمن المروي صدوره لان فيه من العبارات ما يجعل صحته ممتنعة ولأنه لم يرو في الكتب القديمة التي روت نصوص كتب صلح ليس فيها شيء منه والامام ابو يوسف لا يصف هذه الشروط بأنها من العهود التي

---

(١) البلاذري ص ١٨١ .

قطعت في كتب الصلح على الذميين [1] .

وعلى كل حال فاننا على اعتقادنا الاول بأن هـذا النص لا يمت بصلة الى زمن عمر وابي عبيدة وانه موضوع في عصر متأخر عنهما. وهذا لا يمنعنا من قبول احتمال الزام نصارى الشام في زمن الامويين بالقيود والشروط التي ذكرها ابو يوسف لأسباب خاصة تتصل بما كان من احداث سياسية بين العرب والروم .

وليس فيها مع ذلك شيء عظيم اذا ما نظر اليهـا بنظر الزمن كما انها ليس فيها نقض للتوجيهات النبوية والراشدية الناهية عن اذيتهم وظلمهم وحمـل المكاره عليهم في ابدانهم وتحميلهم ما لا يطيقون . وقد كان لهم حرية التدين في بيعهم ومعابدهم وحق الاحتفاظ بها . وكان يسمح لهم بالسكنى في احياء المسلمين واسواقهم . ومعاطاة مختلف الاعمال الزراعية والصناعية والتجارية . وكان لهم على الدولة حق الحماية والامن .

ث – الرجل والمرأة العربيان

خاطب القرآن المرأة بكل ما خاطب به الرجل وكلفها بكل ما كلفه به ورتب عليها كل ما رتبه عليه من تكاليف الدين والدنيا والثواب والعقاب . وقرر لها حقاً واهلية كاملين في مختلف الشؤون الدنيوية وجعل لها من الحقوق على الرجل مثل ما يمكن ان يكون له عليها

---

(١) اورد جرجي زيدان نص الكتاب الذي اورده مؤلف خطط الشام ونقلناه عنه في الجز السابع في كتابه تاريخ التمدن الاسلامي (ج ٤ ص ٩٠ – ٩١) نقلا عن كتاب سراج الملوك تأليف ابي بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي الذي عزاه بدوره الى عبد الرحمن بن غنم الاشعري المتوفى سنة ٧٨ هـ وعلق عليه – اي جرجي زيدان – قائلا ان في هذا ضغطاً على النصارى وتصغيراً لهم خلافاً لما في عهود وكتب الامان الصادرة في صدر الاسلام من القواد لاهل البلاد مما يسوغ القول انه موضوع بعد عصر عمر : لاحظ ان الكتاب في صدد نصارى الشام فقط دون سائر اهل الذمة ودون نصارى الامصار وان عبارته تخالف عبارة صدر الاسلام وان من المحتمل ان يكون النصارى الزموا بهذه القيود بعد عصر عمر لاسباب خاصة حيث كان الروم يتخذون نصارى الشام عيوناً لهم .

مما يدخل فيه التعفف والمحبة والرعاية والحفظ والحماية والتكريم مع درجة له عليها وقوامته في نطاق الحياة الزوجية لتفوقه ببعض الخصائص . وجعله مسؤولا عن الانفاق على الاسرة . مع وصف المرأة بوصف (اهل البيت) ليكون عنواناً على واجباتها الخطيرة في تدبير منزل الزوجية وانجاب الاولاد وتربيتهم . ونتيجة لذلك ظلت المبادرة في زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين في مختلف الشؤون الخارجة عن البيت بيد الرجل مع استثناءات هامة وهي عدم ممانعة الشرع الاسلامي القرآني والنبوي لنشاط المرأة في مختلف الشؤون وبروز الكثيرات من النساء في ذلك .

وكل هذا ما ظلت حالة الرجل والمرأة العربيين عليه في زمن الدولة الاموية ايضاً . وقد حفلت كتب التاريخ والادب باسماء وقصص عدد كبير مـــن النساء اللائي نشطن وبرزن وشاركن الرجال في مختلف شؤون الحياة من جهادية وعلمية وادبية في هذا الزمن . وهومن الكثرة والتنوع ما يجعل ايراد بعض الامثلة عليه مقللا من كثرته وتنوعه واتساع نطاقه . ويستطيـع المتتبـع ان يجد نماذج لا تحصى منه في كل مجلد من مجلدات الاغاني فضلا عـــن الكتب الدينية والتاريخية والادبية الكثيرة الاخرى .

١٤ – التيارات الفكرية والسياسية

•

كان زمن الدولة الاموية مسرحاً لتيارات فكرية وسياسية عديدة . منها ما لعب على هذا المسرح ومسارح الدول الاسلامية بعد الدولة الاموية ادواراً خطيرة كان لها آثار بعيدة المدى في حياة وتاريخ العروبة والاسلام . ومنها ما كان نواة نمت وتفرعت بعد الدولة الاموية مع التنبيه الى ان نوى كل هذه التيارات او جلها قد بدت في زمن الخلفاء الراشدين ومنها ما بدا في زمن النبي ﷺ . وفيما يلي سلسلة هذه التيارات :

١ – الخوارج

من اهم هذه التيارات تيار الخوارج الذي بدا شيء منه في زمن النبي ثم في زمن عثمان وعلي ، والذي تطور تطوراً خطيراً في مداه واحداثه وتنوع مذاهبه في زمن الدولة الاموية واستمر طيلة ايامها يقوى حيناً حتى يشغل الدولة ويكاد يعصف بها ويخفت حيناً نتيجة للضربات التي توجه اليه ، ثم استمر بعدها يقوى حيناً ويخفت حيناً في الشطر الاول من زمن الدولة العباسية . ثم تجمد ووقف عند حد جماعة من الجماعات التي تفرعت عنه والتي كانت تجنح الى جانب الاعتدال وعرفت بالاباضية وهي لا تزال قائمة متمثلة بامامة عمان في الساحل الشرقي من جزيرة العرب .

ولقد شرحنا اولية وكيفية نشوء هذا التيار والمذاهب التي تفرعت عنه والاحداث الحربية التي كانت بسببه في نبذة الخوارج شرحاً كافياً فلا نرى ضرورة للاعادة او محلا للزيادة .

٢ – الشيعة

وتيار الشيعة كذلك من اهم هذه التيارات. وهو في المدى الذي تركز فيه يعني التحزب والتشيع لآل النبي عامة وعلي بن ابي طالب وابنائه خاصة والتعلق بهم اليهم والدعوة. بل ان التشيع لعلي وابنائه وبخاصة الحسن والحسين وذريتها بل للحسين وذريته هو الطابع الاكثر تميزاً لهذا التيار .

وقد يصح ان يعتبر بدء ظهور هذا التيار في زمن الخلفاء الراشدين متمثلا بمن كان وظل يتشيع لعلي بن ابي طالب ويعتبره صاحب الحق الاول في خلافة النبي في رئاسة المسلمين ، ثم بمن انحاز إليه بعد ان بايعه جمهور المسلمين في المدينة بعد مقتل عثمان وحارب معه مخالفيه مثل طلحة والزبير وعائشة ثم معاوية بن ابي سفيان وحارب معه مخالفيه .

ولقد رويت احاديث كثيرة معزوة الى النبي في حق علي وحبه وبغضه ومذاهب الناس فيه والتشيع له وافضليته لخلافة النبي وكونه وصيه وخليفته الخ قد يقال انها تنطوي على فكرة التشيع وكونها مستلهمة منها او مرتكزة عليها .

ولقد اوردنا كثيراً من هذه الاحاديث المروية في الجزء السابق ، ونبهنا الى ان اكثرها غير وثيق السند والصلة برسول الله بحيث يسوغ نفي القول بأن فكرة التشيع متصلة بالتوجيه النبوي وتقرير كونها متصلة بالأحداث التي جرت في زمن الخلفاء الراشدين وبخاصة بعد بيعة علي وخلافه مع عائشة وطلحة والزبير ومعاوية وما كان بسبيل ذلك من حروب ومجادلات جعلت الفكرة عقيدة او عقدة .

ولقد استمر هذا التيار بعد مقتل علي وصار ابناؤه محوره متمثلا بما كان من بيعة اصحاب علي لابنه الحسن ، ولم يخففه تنازل الحسن لمعاوية لأن ما كان من حروب اثناء ذلك الخلاف ظلت تغذي الاحقاد من جهة وتغذي الفكرة من جهة اخرى .

ومن مظاهر ذلك ما رويناه في الجزء السابق من استياء الشيعة من تنازل الحسن

ومراجعتهم للحسين ومن تصريح الحسين بأنه هو الآخر ممتعض من ذلك ولكن الامر وقد تم فلا مناص من قبوله ما دام معاوية حياً [1] .

وكان مقتضى الفكرة ان علياً وابناءه هم الافضل والاولى من معاوية واسرته . وكان من مظاهر ذلك ان اولياء علي وابنائه كانوا يتناولون معاوية وحكمه بالتجريح وان معاوية واولياءه وعماله كانوا يتناولون علياً وابناءه بالتجريح . وتجاوز الامر التجريح الكلامي الى العنف فكانت حادثة حجر بن عدي ورفاقه التي رويناها في سيرة معاوية فأثارت لهيب الفكرة .

ولقد كان تنازل الحسن لمعاوية ، واتسام خلافة معاوية نتيجة لذلك ونتيجة للبيعة العامة التي حصل عليها بعد ذلك من جهة وسلوكه الحسن السمح الذي سلكه مع الحسن والحسين وبني هاشم من جهة مانعاً بعض الشيء من انجراف هؤلاء في التيار انجرافاً شديداً . فلما جنح معاوية الى تثبيت الملك في اسرته بأخذه البيعة بولاية العهد لابنه يزيد وكان الحسن قد مات وآلت زعامة الفكرة الى اخيه الحسين انجرف في تيارها .

ولم يكن التكايد المتناظر ان صح التعبير يخف في العراق بين اولياء علي وابنائه من جهة واولياء معاوية وولاته وعماله من جهة اخرى . فلم يكد معاوية يموت حتى انفجر لهيب التيار بما كان من تبييت الحسين امراً بنفسه وامتناعه عن مبايعة يزيد بولاية العهد ثم بالخلافة ومن الحاح اولياء علي وابنائه في العراق على الحسين بالقدوم اليهم وبعثهم ببيعتهم اليه .

وما توالى من الاحداث التي بلغت ذروتها بقتل الحسين ثم في ثارات الحسين وما اريق من دماء وثار من احقاد وعواطف وشجون ، مما شرحناه في نبذتي حركة الحسين وثاراته بحيث يمكن ان يقال ان تيار الشيعة قد تبلور بقوته ومداه بهذه الحادثة المشؤومة وثاراتها . واستمر يعمل عمله طيلة بقية زمن الدولة الاموية ، وكان من مظاهره الدعوة الى محمد بن علي المعروف

---

(١) روى هذا ابن قتيبة في الامامة والسياسة ج ١ ص ١٥١ .

بابن الحنفية وحركة المختار ابن ابي عبيد الذي تبناها او تستر بها وحركات زيد بن علي بن الحسين ويحيى بن زيد وعبد الله بن معاوية بن جعفر ثم الدعوة العباسية التي كان من حظها النجاح والحلول محل الدولة الاموية، على ما شرحناه في نبذ سابقة وعلقنا عليه بما فيه الكفاية.

وننبه على امر هام في صدد صلة الدعوة العباسية بالتيار، فان هذا التيار انما كان ودار حول علي وابنائه بل وابنائه من فاطمة رضي الله عنهم اجمعين بنوع خاص، ولم يدر حول بني العباس ولم تتسم دولتهم بسمة، وكان الشيعة ضدهم، وقامت حركات عديدة في زمنهم تحت زعامة ابناء فاطمة بسبيل انتزاع السلطان منهم.

وكان العباسيون يحاجون في حقهم بالامر اكثر من بني علي لأنهم ابناء عم النبي الاحق بالارث من ابناء بنته في سياق التشاد والتجاذب اللذين قاما واشتدا بينهم وبين الشيعة وابناء علي على ما سوف نشرحه في الجزء الذي سنعقده على تاريخ الدولة العباسية ان شاء الله.

ولعل ما رويناه عن ابن قتيبة في نبذة الحركة العباسية من ان الشيعة قد بايعوا محمداً ابن الحنفية وان هذا استخلف ابنه ابا هشام وان هذا استخلف محمداً بن علي بن عبد الله بن عباس بعده كان يساق في سياق هذا التشاد والتجاذب لاحباط دعوى الشيعة ودعوتهم الى ابناء فاطمة وانكارهم شرعية السلطان العباسي.

ولقد تفرع عن التيار فروع عديدة ومقالات متنوعة متصلة بالمذاهب الكلامية. واتسم اكثرها بسمة الغلو الذي ليس له سند من دين ومنطق وحق ونقل والذي يصل الى حد انكار نبوة محمد. ودعوى غلط جبريل في نزوله بالقرآن على محمد بدلا من علي، والوهية علي وحلول الله سبحانه في الأئمة من ابنائه، ونبوتهم وعصمتهم والوهيتهم. وتكفير ابي بكر وعمر وعثمان وسائر اصحاب رسول الله لتواطئهم على غصب حق علي بالخلافة الذي قرره النبي بأمر الله باستثناء بضعة عشر منهم كانوا شيعة علي، وعدم شرعية سلطان وامامة اي كان غير امامة علي وابنائه. وعدم جواز تلقي الاحاديث والدين والتفسير من غير الأئمة من ابنائه، وتكفير كل من لا يعترف بذلك واختفاء الامام الثاني عشر او السابع او محمداً بن علي بن الحنفية في غار حياً مرزوقاً الى ان يحين الوقت لخروجه.

ومعظم هذه التفرعات والمقالات تبلورت في زمن الدولة العباسية. اما ما كان من مقالات قالها الشيعة في زمن الدولة الاموية فأبرزه **القول بالارادة الانسانية ومسؤولية الانسان عن عمله نتيجة لذلك**. ويعزو الشيعة هذا القول الى علي بن ابي طالب رضي الله عنه ،يروون مساجلة جرت بينه وبين احد رجاله بعد انصرافه من صفين في صدد ما وقع بين المسلمين فقال: (ان الله قد امر تخييراً ونهى تحذيراً ، ولم يكلف جبراً ولا بعث الانبياء عبثاً) [1].

وقد تكون رواية هذه المساجلة صحيحة ، وقد لا تكون . وللكلام ما يؤيده في القرآن والاحاديث . الا انه يلمح في هذا المذهب انه معاكس لمذهب كلامي آخر يقول : ان كل اعمال الانسان مقدرة من الله . وان هذا وذاك كانا متصلين بالموقف الحزبي بين الشيعة واولياء بني امية الذين كانوا يقررون وجوب الرضوخ للامر الواقع من سلطان بني امية لان ذلك تقدير رباني بينما كان الشيعة يقررون مسؤولية الامويين عما وقع ووجوب الجهاد ضدهم لتغييره بحيث يمكن ان يقال ان هذا المذهب الكلامي كان اوصار تكأة النشاط السياسي الشيعي ضد الدولة الاموية .

وننبه على ان الشيعيين يلتقون في هذا القول او المذهب وفي عامله او نظريته مع الخوارج حيث كان هؤلاء يقولون به وكان من مستندات نظرياتهم وحوافز نشاطهم ضد السلطات الاموية على ما ذكرناه في نبذتهم .

ومن فروع الشيعة التي ظهرت في زمن الدولة الاموية . **(فرع الكيسانية)** نسبة الى كيسان الذي قيل انه اسم مولى للامام علي كما قيل انه اسم ثان للمختار ابن ابي عبيد . ودعوة هذا الفرع هي الى امامة محمد بن علي المعروف بابن الحنفية . وقد حمل هذه الدعوة المختار بن ابي عبيد زاعماً انه مكلف بذلك منه ، مع ان هذا الزعم بقي مائعاً بدون

---

(١) تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٣٣٢ – ٣٣٣ عزواً الى كتاب طبقات المعتزلة .

ثبت ولا تأييد على ما شرحناه في نبذة المختار .

غير ان الامر تعدى المختار حيث يروى انه كان جماعة من الناس يعتقدون بامامة محمد مع اختلافهم فيما بينهم في سببها حيث زعم بعضهم انه الامام بعد ابيه مستدلا على ذلك بأن اباه دفع اليه الراية يوم الجمل وقال له :

اطعن بهـــا طعن ابيك تحمد لا خير في الحرب اذا لم تزبد [1]

وحيث زعم بعضهم ان الامامة صارت اليه بوصية من الحسين [2] اخيه .

وهناك الروايات التي يرويها اليعقوبي وابن قتيبة والتي اوردناها في نبذة الحركة العباسية والتي تذكر أن شيعة مكة والمدينة واليمن والكوفة وخراسان اجتمعوا عليه بعد تنازل الحسن لمعاوية وبايعوه وقبل منهم البيعة ثم وصى بالامامة بعده الى ابنه ابي هاشم وان هـذا استخلف محمداً بن علي بن عبد الله بن عباس .

ولقد اختلف الكيسانيون ايضاً في مصير محمد ، فمنهم من ذهب الى انه لم يمت وانه حي مرزوق في جبل رضوى وانه المهدي المنتظر وسيخرج لممارسة امامتـــه في الوقت المعين في علم الله . ومنهم من قال بما ذكره اليعقوبي وابن قتيبة من استخلافه لابنه واستخلاف هذا لمحمد بن علي العباسي . وهناك من ذهب الى انه انما استخلف ابن اخيه زين العابدين علياً .

ومن الذين نسبوا الى الكيسانية من عصر الدولة الاموية الشاعر المشهور كثير حيث يروى له هذه الابيات التي تتمثل فيها عقيدة حياة محمد بن علي ووجوده في جبل رضوى :

ألا إن الأئمة مـــن قريش ولاة الحق اربعـــة سواء
عـــلي والثلاثة مـــن بنيه هم الاسباط ليس بهم خفـاء
فسبط سبط ايمـــان وبر وسبط غيبته كربـــلاء

(١-٢) الفرق بين الفرق للبغدادي ٣٥ - ٣٦ .

وسبط لا تراه العـــين حتى ... يقود الخيل يتبعها اللـواء
تغيب لا يرى فيهم زمانـاً ... برضوى عنده عسل وماء

وتذكر الروايات كذلك اسم عامر واثلة الكناني كصاحب له سار بين يديه حينما فر من ابن الزبير قاصداً عبد الملك بن مروان وقال هذه الابيات :

يا اخوتي يا شيعتي لا تبعـــدوا ... ووازروا المهدي كيما تهتـــدوا
محمـــد الخيرات يا محمـــد ... انت الامـــام الطاهر المسدد
"سددلاابن الزبير السامري الملحد ... ولا الذي نحن اليـــه نقصد

وتنعت الروايات الشاعر المعروف بالسيد الحميري بالكيسانية على المذهب القائل بأن محمداً حي في جبل رضوى وتروى له هذه الابيات :

ألا قل للوصي فدتك نفسي ... اطلت بذلك الجبل المقامـا
أضر بمعشر والوك منـــا ... وسموك الخليفة والاماما
وعادوا فيك اهل الارض طراً ... مقامك عندهم ستين عامـــا
وماذاق ابن خولة طعم موت ... ولا وارت له ارض عظامـا
لقد امسى بمجرى شعب رضوى ... تراجعه الملائكة الكلامـــا
وان له لرزقاً مـــن طعـام ... واشربة تغذيه الطعامـــا

والشاعر الحميري توفي سنة ١٧٣ ه اي بعد انقراض الدولة الاموية باربعين عامـــاً [١] ولكنه كان شاعراً معروفاً في زمن هذه الدولة على ما يستفاد من رواية رواهـــا الاغاني وجاء فيها قول للفرزدق عنه وهو : (ان ههنا لرجلين لو اخذا في معنى الناس لما كنـــا معهما في شيء وهما السيد الحميري وعمران بن حطان . ولكن الله عز وجل قد شغل كل واحد منهما بالقول في مذهبه) .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٦١ .

وواضح اذا صحت الرواية ان السيد الحميري كان يعتنق مذهبه الكيساني في زمـــن الدولة الاموية . وفي الاغاني قصيدة له فيها اشارة الى مذهبه . ويروي المؤلف انهـــا آخر قصيدة قالها حيث يفيد انه ظل على مذهبه الى مماته[1].

والمستفاد من سياق البغدادي ان للنحلة الكيسانية مذهباً من المذاهب الكلامية . وهو جواز البداء على الله عز وجل أي رجوع الله عن امر كان امر به ثم بدا له ان يرجع عنه [2] .

ومن فروع او تفرعات التيار الشيعي التي يرجع أصلها الى عهد الدولة الاموية **(الزيدية)** نسبة الى زيد بن علي بن ابي طالب الذي خرج في عهد هشام وقبض عليه وشنقه . وقـــد شرحنا قصته في نبذة خاصة فلا نرى ضرورة للاعادة . واصحاب هذا المذهب يشترطون في الامام الذي يدينون بامامته ان يكون من نسل عـــلي وان يكون الى هذا عالماً مجتهداً وقادراً على الجهاد ومجاهداً . ومن مذهبهم الذي يتسم بسمة المذاهب الكلامية خلود اهل الكبائر في النار [3] .

وهناك تعبير يرادف عند السنيين كلمة شيعة وهو كلمة (رافضة) حيث ينعت السنيون الشيعة بها وجمعها روافض ونسبتها رافضي . واصل ذلك نعت نعت به زيد بن علي الجماعـــة الذين نقضوا بيعته ، ورفضوه لانه لم يتبرأ من ابي بكر وعمر وقال انه لم يسمع عنها من

---

(١) مما جاء في هذه القصيدة :

يغيب عنهم حتى يقولوا	تضمنه بطيبة بطن لحد
سنين واشهراً ويرى برضوى	بشعب بين انمـــار واسد
مقيم بـــين آرام وعين	وحقان تروح خلال ربد

انظر المجلد السابع من الاغاني والسيد الحميري الى هذا شيعي هاشمي علوي له قصائد في مدح علي والحسين وبني العباس وذم خصومهم والتبرؤ من ابي بكر وغيرهم من اصحاب رسول الله .

(٢) انظر ما اوردناه عن الكيسانية وشعر الشعراء في الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٣٥-٥١ .

(٣) الفرق بين الفرق ص ٣٠-٣٢ .

آله إلا خيرا وانهما وليا فعدلا. وان قصارى امرهما انهما استأثرا بالسلطان بعد النبي دون آله وهم احق به منهم على ما رويناه في نبذة خروجه . فصارت الكلمة تطلق على الشيعيين الذين يتبرأون من ابي بكر وعمر وهم معظم الشيعيين. ومقتضى المذهب الزيدي والحالة هذه جواز امامة المفضول وعدم التقيد بالتسلسل التولدي . وجواز اختيار اي شخص من نسل علي للامامة اذا كان مجتهداً مجاهداً . وهذا خلاف ما عليه الشيعة الامامية والشيعة الاسماعيلية من التقيد بالبكر والتسلسل العمودي فيه على ما سوف نشرحه في الجزء الخاص بالدولة العباسية لان معظم فروع ومقالات الشيعة تبلورت في عهد هذه الدولة .

ومن الفكر الشيعية فكرة (المهدوية) وهي الاعتقاد بظهور شخص من آل بيت النبي يحكم فيملأ الارض عدلاً كما ملئت جوراً ، ومستند هذه الفكرة بعض احاديث مروية عن النبي ﷺ منها حديث رواه الترمذي عن ابي سعيد الخدري قال : (خشينا ان يكون بعد نبينا حدث فسألنا نبي الله فقال إن في امتي المهدي يخرج يعيش خمساً او سبعاً او تسعاً قلنا وما ذاك قال سنين ، قال فيجيء اليه الرجل فيقول يا مهدي اعطني فيحثي له في ثوبه ما استطاع ان يحمله)[١].

وحديث رواه الترمذي وابو داود عن عبد الله عن النبي قال : (لو لم يبق من الدنيا الا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلا مني او من اهل بيتي يواطىء اسمه اسمي واسم ابيه اسم ابي يملأ الارض قسطاً وعدلا كما ملئت ظلماً وجوراً)[٢] .

وحديث رواه الحاكم وابو داود عن ابي سعيد قال : (قال النبي ﷺ المهدي مني اجلى الجبهة اقنى الأنف . يملأ الارض قسطاً وعدلا كما ملئت ظلماً وجوراً ويملك سبع سنين)[٣] .

وحديث رواه الحاكم وابو داود ايضاً عن ام سلمة عن النبي ﷺ قال : (المهدي من عترتي من ولد فاطمة)[٤] .

(١ – ٤) كتاب التاج الجامع للاصول في احاديث الرسول ج٥ ص ٣١١–٣١٢ .

ولقد تعدد الاشخاص الذين خرجوا في زمن الدولة العباسية باسم المهدي من نسل علي وفاطمة رضي الله عنهما مما سوف يأتي بيان عنه في الجزء المعقود على تاريخ هذه الدولة ومما يدل على ان بعض ابناء علي وفاطمة وشيعتهم كانوا يستوحون هذه الاحاديث بسبيل الدعوة المهدوية والخروج بسبيلها وعلى ان الفكرة ظلت تعمل عملها من آن لآخر. وتجد لها من من يندمج فيها دعوة واستجابة . ولعل هذا كان وسيظل حافزاً لتنفيس عن كبت او للانطلاق وراء الطموح والمغامرة ايضاً .

وقد يدل نعت محمد بن علي بالمهدي في شعر عامر بن واثلة الذي اوردناه قبل قليل ثم من قبل المختار بن عبيد الله وفي الكتاب الذي ابرزه هذا لابراهيم بن الاشتر من محمد والذي يصف نفسه فيه بالمهدي على ما ذكرناه في نبذة المختار على ان الفكرة اخذت تظهر في زمن الدولة الاموية .

ولقد أثر بيت من الشعر عن كثير ينعت فيه محمداً بالمهدي عزواً الى كعب الأحبار وهو :

هـو المهدي خبرناه كعب ... أخو الاحبار في الحقب الخوالي

مما يدعم ما قلناه .

٣ ـ المعتزلة

ومن [illegible]ـارات التي بدأ ظهورها في زمن الدولة الاموية مذهب الاعتزال المعتزلة. والتسميتان من اصحاب المذ[illegible]ب المعاكسة لاصحاب هذا المذهب. اما اصحاب هذا المذهب فيسمون انفسهم بأهل العدل والتوحيد اقتباساً من مضمون مقالاتهم . وينسب هذا المذهب الى عالم اسمه واصل ابن ع[illegible]اء الذي كان تلميذاً لعالم آخر مشهور هو الحسن البصري. وقد خالف استاذه في مسألة القدر وفي المنزلة بين المنزلتين واعتزل حلقته . وتابعه صاحب له اسمه عمرو بن عبيد فقيل لهما ولاتباعهما معتزلة على ما ذكره البغدادي .

وكان هذا في اواسط عهد الدولة الاموية . ومن مذهبهم ان الفاسق لا هو كافر ولا هو مؤمن — وهذا معنى منزلة بين منزلتين — وان مرتكبي الكبائر الذين يموتون بدون توبة مخلدون في النار . وان الانسان قادر بعقله على معرفة الحسن والقبيح والاختيار بينهما وانه خالق افعاله . وان ثوابه وعقابه عليها حق وعدل . وان الله غير خالق لافعال مخلوقاته وانها تفعل افعالها بارادتها وكسبها وليس ذلك صنع الله وتقديره عليها . وقد وصف اصحاب هذا المذهب بالقدرية بسبب مقالاتهم هذه .

ومن مقالاتهم انه ليس لله صفات خارجة عن ذاته لان ذلك يعني التعدد في حق الله . ومن نتائج ذلك استحالة رؤية الله وعدم ازلية القرآن . ومنها خلافهم للحسن البصري الذي كان يقول في صدد ما وقع من خلاف وحروب بين اصحاب رسول الله (علي وطلحة والزبير وعائشة ومعاوية واصحابهم) تلك دماء طهر الله منها اسيافنا فلا نلطخ بها السنتنا في حين كانوا يقولون ان من الصحابة من اخطأ ومنهم من اصاب وان المخطىء مسؤول عن خطاه ومعذب في النار بسببه [1] .

ويلمح تطابق بين مقالات المعتزلة ومقالات الخوارج والشيعة معاً . ولقد كان واصل وعمرو بن عبيد من الموالي ، وكان الموالي يوالون المتمردين على الدولة الاموية ويندمجون معهم كلما رأوا الى ذلك سبيلا على ما رويناه في نبذ سابقة حيث يلمح ان تبرير التمرد وتقرير مسؤولية بني امية والرغبة في تغيير واقع سلطانهم من مستندات او حوافز مقالات المعتزلة اسوة بمقالات الخوارج والشيعة المتسمة بسمة المذاهب الكلامية مقابل المقالات التي كانت تساق لتبرير واقع الامويين على اعتبار انه قدر لا مندوحة عنه .

وتروي الروايات الى جانب اسمي واصل وعمرو اسماء اخرى في صدد اولوية القول بالقدر بصيغة مماثلة لقولهما حيث روت ان اول من تكلم بالقدر في زمن الدولة الاموية رجل من اهل العراق كان نصرانياً فاسلم ثم تنصر . وعنه اخذ معبد الجهني الذي كان من

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٩٥ — ١٠٠ وفجر الاسلام ص ٣٣٨–٣٤٨ .

المنضوين الى حركة ابن الاشعث وقد قتله الحجاج فيمن قتله من هؤلاء . وممن اشتهر بالقدرية في زمن الامويين غيلان الدمشقي . وقـــد قبض عليه هشام بن عبد الملك وامر بقطع يديه ورجليه وصلبه بعد ذلك ، وكان له اتباع آخرون ومنهم عمر بن شراحيل فنفاهم الى دهلك على ما رويناه في سيرتي هشام والوليد بن يزيد . حيث يبدو ان نطاق هـــذا المذهب الذي كان مناقضاً لمصلحة وواقع الامويين قد اتسع وان اتساعه قد يكون نتيجة لاتساع نطاق الدعوة العباسية في زمن هشام لانه متطابق كما قلنا مع ما اعتنقه شيعة الهاشميين من عـــدم جواز الرضاء بالواقع الاموي ووجوب تغييره [1] .

ولقد روينا في سيرة يزيدبن الوليد انه كان ممن يعتنقون هذا المذهب وانـــه اتخذ بعض زعمائه مستشارين له وهم الذين الحوا عليه بتسمية وليي عهده . ويزيد هو الذي ثار على الوليد ابن يزيد وقتله حيث يلمح احتمال الصلة بين اعتناقه المذهب وثورته على الوليد . ويكون شذوذه عن سائر بني امية انسجاماً مع واقعه .

وننبه على ان مقالات المعتزلة قد تركزت حتى صارت مذهباً خطيراً مـــن المذاهب الاسلامية في زمن الدولة العباسية . وكان من نتائجها قضية خلق القرآن وازاليته لصلة ذلك بصفات الله واضطهاد الذين لم يقولوا بخلق القرآن مما سوف نبسطه في الجزء المعقود على تاريخ هذه الدولة .

٤ – الجبرية والمرجئة

ومن التيارات التي بدأ ظهورها على مسرح الدولة الاموية كذلك الجبر والارجـــاء . ومع انها ذوا معنيين مختلفين بعض الشيء فان الروايات تمزج بينهما . وهذا ما جعلنا نوردهما ممتزجين كذلك .

---

(١) فجر الاسلام ص ٣٤٠ عزواً الى سرح العيون لابن نباتة وانظر الفرق بـــين الفرق ص ٩٧ وتاريخ الاسلام السياسي حسن ابراهيم ج ٢ ص ٣٢٧–٣٣٠ .

والجبر مذهب القائلين بأن الانسان مجبور على افعاله لا خيار له ولا قدرة . وأنه لا يستطيع ان يعمل غير ما عمل وان الله قدر عليه اعمالا لا بد من ان تصدر منه . وان الله يخلق فيه افعاله كما يخلق حركات الجماد .

اما الارجاء فهو مذهب القائلين بعدم التلازم بين الايمان والعمل وايكال امر المؤمن الذي لا عمل له الى الله ان شاء عذبه وان شاء تاب عليه استناداً الى هذه الآية من سورة التوبة : (وآخرون مرجون لامر الله اما يعذبهم واما يتوب عليهم والله عليم حكيم ١٠٦) .

وينبع انسجام ما بين الجبر والارجاء ولعل هذا هو الذي جعل مؤلفي اخبار الفرق يمزجون بينهما . فما دام الانسان مجبوراً على عمله فينبغي ان يكون امر عذابه وعدم عذابه على ما يصدر منه من ذنوب موكولاً الى الله تعالى .

ولقد ذكر اسم جهم بن صفوان الذي عاش ومات في زمن الدولة الاموية كأول من قال بالجبر والارجاء معاً ونسب المذهبان اليه فسميا المذهب الجهمي . وقد كان جهم كاتباً او وزيراً للحارث بن سريج الذي روينا خبر حركة تمردية له في نبذة الخوارج . وقد اسر وقتل سنة ١٢٨ ﻫ وممن ذكرتهم الروايات من القائلين بالمذهب الجهمي في زمن الدولة الاموية الجعد بن درهم الذي كان مؤدب مروان الثاني وعداه بمذهبه حتى لقد لقب به فقيل مروان الجعدي على ما ذكرناه في سيرة مروان المذكور .

ويلحظ ان المذهب الجهمي مناقض لمذهب المعتزلة والخوارج والشيعة . وموافق لمصلحة الامويين الذين من المعقول ان يكونوا من المشجعين على بثه لاحباط ذلك المذهب المنافي لمصلحتهم . ولذلك نشك في ان يكون جهم هو اول من قال بهذه الاقوال كما اننا نرجح ان القائلين بها كثيرون . وانهم كانوا في مختلف ادوار بني امية .

ولقد رأينا الدكتور حسن ابراهيم في كتابه تاريخ الاسلام السياسي يلمح ذلك ويقول ان اصحاب هذه الاقوال هم في الحقيقة كتلة المسلمين التي رضيت حكم بني امية مخالفين

في ذلك الشيعة والخوارج وان آراءهم كانت متفقة مع آراء البلاط الاموي ومن يلوذ به [١].

ولقد روى الاصفهاني في كتابه الاغاني [٢] مقطوعة شعرية لشاعر اسمه ثابت بن قطنه كان في صحبة يزيد بن المهلب في خراسان وصفها الدكتور حسن ابراهيم بأنها وثيقة تاريخية قيمة في توضيح مذهب الارجاء والجبر وهو وصف صائب وهذه هي :.

يا هند فاستمعي لي ان سيرتنا	ان نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجي الامور اذا كانت مشبهة	ونصدق القول فيمن جار او عندا
المسلمون على الاسلام كلهم	والمشركون استووا في دينهم قددا
ولا ارى ان ذنباً بالغ احداً	م الناس شركا اذا ما وحدوا الصمدا
ولا نسفك الدم الا ان يراد بنا	سفك الدماء طريقاً واحداً جددا
من يتق الله في الدنيا فان له	اجر التقى إذا وفى الحساب غدا
وما قضى الله من امر فليس له	رد وما يقض من شيء يكن رشدا
كل الخوارج مخط في مقالته	ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما علي وعثمان فانهما	عبداه لم يشركا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شغب وقد شهدا	شق العصا وبعين الله ما شهدا
يجزي علياً وعثماناً بسعيهما	ولست ادري بحق آية وردا
الله يعلم ماذا يحضران به	وكل عبد سيلقى الله منفردا

وقد يؤيد هذا صحة ما قلناه وما لحه الدكتور حسن ابراهيم من ان المقتضى ظهور

---

(١) ج ٢ ص ٣٢٧ .

(٢) المجلد الثالث عشر اخبار ثابت بن قطنه ومما يرويه مؤلف الاغاني في سياق القصيدة انه شهد مجلساً يتجادل فيه قوم من الشراة «الخوارج» مع قوم من المرجئة فال الى المرجئة ونظم هذه القصيدة .

مقالات هذا المذهب البكر من وقت بروز جهم بن صفوان وكون القائلين به جماعة كبيرة.

ولقد اوردنا قبل قولا للحسن البصري عالم البصرة في صدد ما كان بين اصحاب رسول الله، وهو منسجم مع هذا المذهب وفي هذا تأييد آخر .

وننبه على انه ينسب الى جهم مقالات اخرى متطابقة مع مقالات المعتزلة ايضاً مثل نفيه ان يكون لله صفات غير ذاته وقوله ان ما ورد من هذه الصفات في القرآن يجب تأويله لأن في اخذه على ظاهره تشبيهاً لله بالمخلوق . وانكاره نتيجة لذلك رؤية الله . وقدم القرآن وكونه كلام الله في حقيقته لأن صفة الكلام على حقيقتها صفة المخلوق التي لا يجوز وصف الله بها .

والمذهب الجهمي تطور وتشعب وصار له فروع متباينة في بعض الاقوال بعد الدولة الاموية مما سوف يكون الكلام فيه في الجزء المعقود لتاريخ الدولة العباسية [1] .

ويلمح من سياق احمد امين في فجر الاسلام حول هذه الفرق والمقالات انه يرى انها لا تخلو من اثر المذاهب المسيحية والفلسفة اليونانية . ويلوح لنا ان ذلك قد يكون صحيحاً في المرحلة الثانية التي تركزت وتبلورت وتشعبت فيها وبعبارة اخرى في زمن الدولة العباسية الذي تدوولت فيه وترجمت كتب المقالات المسيحية واليونانية الى العربية .

ونرجح ان الافكار والمقاصد السياسية كانت باعث هذه المقالات الاول في زمن الدولة الاموية ، مع التنبيه مع ذلك الى ان نواة بعض هذه المقالات ظهرت في زمن النبي والخلفاء الراشدين على ما تدل عليه بعض الاحاديث والاحداث التي اوردناها في الجزء السابق ، ثم الى ان كل قائل لقول حاول ان يجد في القرآن ما يؤيد قوله بقطع النظر عما يمكن ان

---

(١) انظر لمذهب الجبر والارجاء الفرق بين الفرق ص١٢٢–١٣٢ وفجر الاسلام ٣٤٢ – ٣٤٣ وتاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٣٢٧ .

يكون في المحاولة من تجوز وتمحل وبعد عن مقاصد القرآن مما نبهنا عليه في اماكن كثيرة من كتابنا التفسير الحديث .

٥ – غلاة العقائد

بالاضافة الى ما تقدم فهناك جماعات غلت في عقائدها حتى خرجت عن نطاق الاسلام ، ومعظمها بل كلها متطورة عن العقائد الشيعية . ومعظم مقالاتها تبلورت في زمن الدولة العباسية . غير ان من ذلك ما بدأ وظهر في زمن الدولة الاموية .

فمنها **السبئية** اتباع عبد الله بن سبأ اليهودي الذي ذكرنا خبره في الجزء السابق . وكان يقول بوصاية الامام علي ثم صار يقول بالوهيته وبرغم ما كان من شدة الامام ضد اصحاب هذه العقيدة فقد ظل جماعته يقولون بها بعده ايضاً . وكان من مزاعمهم انه لم يقتل وانما شبه به ثم صعد الى السماء كما كان شأن عيسى . وانه في السحاب ، وان الرعد صوته ، والبرق سوطه [1] . وقد التفوا حول المختار بن ابي عبيد الثقفي وأيدوه في دعوى النبوة والوحي وصاروا سدنة كرسيه على ما ذكرنا في نبذته .

ومنهم **البيانية** وهم اتباع بيان بن سمعان التميمي ، وكان بيان يقول بامامة محمد بن علي ابن الحنفية ثم بامامة ابنه ابي هاشم بعده بوصية من ابيه ثم بامامته نفسه بوصية من ابي هاشم ، ووصل الامر بأتباعه الى الاعتقاد بنبوته ونسخه لشريعة محمد ﷺ ، ومنهم من اعتقد بالوهيته . وقد رفع خبر بيان الى خالد بن عبد الله القسري والي العراق فأخذه وصلبه [2] .

ومنهم **المغيرية** اتباع المغيرة بن سعيد العجلي ، وكان يظهر في اول امره الولاء لاهل

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٤٢–١٤٤ .

(٢) المصدر السابق ذكره ص ١٤٥–١٤٦ .

البيت ويبشر بظهور المهدي في شخص محمد بن عبد الله بن الحسن الذي ادعى المهدوية وخرج فعلا في اوائل الدولة العباسية ، ثم غلا – أي المغيرة – فادعى النبوة والعلم باسم الله الاعظم وصار يفسر القرآن بهواه فاستهوى جماعة آمنت به ، وسمع به خالد القسري فأخذه وصلبه ايضاً [1] .

ومنهم **المنصورية** اتباع ابي منصور العجلي ، وكان موالياً لعلي وابنائه . ثم غلا فأنكر اليوم الآخر واول الجنة بنعيم الدنيا والنار بمحنها ، فاستهوى جماعة فآمنت به . وسمع بـه والي العراق يوسف بن عمر فأخذه وصلبه[2] .

ومنهم **الجناحية الحلولية** وكانوا اتباع عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الذي خرج في زمن مروان بن محمد سنة ١٢٧ على مـا ذكرناه في نبذة خاصة ، وقـد غلوا فقالوا ان روح الاله حلت في آدم ثم في شيث ثم في الانبياء ثم في علي وابنائه الثلاثـة ثم في صاحبهم معاوية ، ولمـا قتل في خراسان انكروا موته وزعموا انـه حي ، وممـا ينسب اليهم تأويلهم القرآن وانكارهم اليوم الآخر واستحلالهم الخمر والميتة والزنا والمحرمات واسقاطهم العبادات ، وتأويلهم العبادات بموالاة اهل البيت والمحرمات ببغض ابي بكر وعمر وطلحة والزبيروعائشة رضي الله عنهم .

ومنهم **التناسخية** وهم القائلون بتحول الاحياء او الارواح مـن صورة الى صورة . ويروى ان كثيراً الشاعر كان يقول بالاضافة الى عقيدته بامامة ومهدوية محمد بن الحنفية ووجوده حياً بالتناسخ ايضاً ويستدل على ذلك بالفقرة القرآنية (في اي صورة مـا شاء ركبك) ويقول الا ترون انه حوله من صورة الى صورة ! [3] .

---

(١) ١٤٧–١٤٨ . (٢) ١٥٢ .

(٣) الفرق بين الفرق ص ١٦٤–١٦٥ والاغاني اخبار كثير الشاعر .

٦ – مذهب السنة والجماعة

ان التيارات التي ذكرناها في هذة النبذة مضافاً اليها تيـــار الخوارج الذي سلكناه في سلكها وفصلناه في نبذة الخوارج هي تيارات جماعات من المسلمين ، ولا تمثـــل جمهورهم الاكبر ، وهذا ظاهر من سير الاحداث التي رويناها في نبذ الخوارج والحركات التمردية والهاشمية .

ومؤلفو كتب الفرق الاسلامية والملل والنحل يذكرون الفرق الاسلامية التي ذكرناها وما تفرع عنها بما يفيد انها فرق شاذة بحيث يمكن القول بنـــاء على ذلك ان جمهور المسلمين الاكبر في زمن الدولة الاموية كان ينضوي تحت لواء الجماعة الاسلامية الكبرى دونمـــا شذوذ ولا تمرد ولا شغب امتداداً لموقف الجمهور الاكبر في زمن الخلفاء الراشدين . وهذا الموقف هو الذي اشتهر بعنوان (اهل السنة والجماعة) وكل ما في الامر ان هـــذا الاسم صار يذكر بعد الدولة الاموية عنواناً ووصفاً للجمهور الاعظم من المسلمين وصار مذهب معظم علماء المسلمين وفقهائهم ومحدثيهم في مختلف العصور الاسلامية .

ويتلخص هذا المذهب بالتزام الاعتدال في التأويل والاخذ بالصريح المحكم من كلام الله ورسوله وايكال المتشابه من نصوص القرآن لعلم الله والقول : (آمنا به كل من عند ربنا) والوقوف عند ما جاء في القرآن من صفات الله تعالى وما اخبر به عن نفسه وعدم الخوض في الكيفيات والتزام السنة النبوية الصحيحة . ثم التزام جماعة المسلمين وعدم الافتراق عنهـــا بمقالات وحركات ومواقف شاذة ، واحترام جميع اصحاب رسول الله وعدم تجريح احـــد منهم بسبب ما كان من خلاف بينهم لأن امره مضى وانقضى والحكم فيه لله. وهم خيرقرون الاسلام بنص حديث نبوي صحيح .

والحسن البصري الذي روينا عنه قوله عن ما كان بين اصحاب رسول الله هو من اعلام هذا المذهب في زمن الدولة الاموية ، وهناك عدد عظيم من اعلام علماء المسلمين عاشوا فيزمن الدولة الاموية من اصحاب وتابعين كانوا على هذا المذهب ويصح ان يسموا بأهـــل السنة والجماعة منهم سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب ومجاهد وقتادة ومقاتل وعكرمة وعطاء بن

يسار وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر والمسور بن مخرمة الزهري والسائب بن يزيد وعروة بن الزبير وعامر الشعبي ومحمد بن سيرين وعبد الرحمن بن حاطب وابراهيم النخعي وابو سلمة بن عبد الرحمن ومحمد بن كعب ونافع مولى عبد الله بن عمر وسعيد بن يسار ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري ومكحول الدمشقي وسالم بن عبد الله بن عمر وعاصم بن عمر بن قتادة ومحمد بن ابي بكر بن حزم وعبد الملك بن عمر الليثي وصالح بن كيسان وابو الزناد عبد الرحمن بن زكوان وابراهم بن ميسرة وعبد الله بن ابي نجيح وحماد بن سليمان ويزيد بن الأصم وعبد الله بن مسعود وابو هريرة وغيرهم وغيرهم رضي الله عنهم ورحمهم [١] .

---

(١) حرص اليعقوبي على ايراد اسماء الفقهاء والعلماء في زمن كل خليفة من الخلفاء الامويين ، وهذه الاسماء منقولة عنه ، وليس احد من اصحاب هذه الاسماء مذكور في سياق اخبار اصحاب المقالات والتيارات بحيث يبدو صواب ذهابنا من انهم من علماء اهل السنة والجماعة .

١٥ – الحركة العلمية

٢ – القراءة والكتابة والخط العربي

لقد محصنا في الجزء الخامس ماروي في صدد القراءة والكتابة والخط العربي قبل الاسلام وانتهينا على ضوء مـا تلهم نصوص القرآن والآثار النقشية المكتشفة في اليمن ومداين صالح والعلا والصفا الى تقرير كون القراءة والكتابة بالخط العربي كانتا منتشرتين بمقياس غيريسير بين العرب قبل الاسلام وبخاصة بين اهل المدن والقرى في مختلف انحاء الجزيرة واطرافها .

وروايات وأحداث السيرة النبوية وعهد الخلفاء الراشدين تساعد على القول ان نطاق ذلك قد اتسع كثيراً سواء أكان بين العرب في الجزيرة العربية أم بين الذين أموا منهم البـــلاد المجاورة في سياق حركة الفتح واستقروا فيها .

ولقد روى ابن هشام [١] ان والد الحجاج كان صاحب كتاب لتعليم الاطفال في الطائف. والحجاج ولد بعد وفاة النبي ﷺ بسنين . وهذه الرواية والحـالة هذه تعني ان العرب كانوا بدأوا في زمن النبي على الاقل يعلمون اولادهم القراءة والكتابة في مدارس . والمتبادر ان نطاق ذلك قد اتسع في زمن الخلفاء الراشدين ثم اتسع اكثر في زمن الدولة الاموية لان اتساع نطاق القراءة والكتابة في الزمنين على ما تؤيده المأثورات الكثيرة لا يمكن ان يكون

(١) ج ٢ ص ٢٧–٢٨

إلا نتيجة لمثل هذه الوسيلة .

وهناك مأثورات تفيد ان خلفاء بني امية كانوا يعينون مؤدبين لاولادهم بما مر منه أمثلة في سيرة بعضهم [1] . غير ان هذا ليس من شأنه نفي وجود هذه الوسيلة بمقياس واسع كما هو واضح .

وهناك مأثورات تفيد ان بعض النساء في زمن النبي كن يقرأن ويكتبن . والمتبادر ان نطاق ذلك اتسع في زمن الخلفاء الراشدين ثم في زمن الدولة الاموية .

٢ – العلوم الشرعية

كان المسلمون يتلقون هذه العلوم في زمن النبي ﷺ منه ويرجعون اليه فيها . غير ان بعضهم اخذ يتميز عن بعض بحيث يسوغ ان يقال انهم صاروا اصلا او نواة للفقهاء او لعلماء الشريعة . وهناك حديث يرويه البخاري عن النبي فيه تأييد لذلك جاء فيه (ارحم امتي بأمتي ابو بكر واشدهم في دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم علي وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ وأفرضهم – أي أعلم بالفرائض والمواريث – زيد بن ثابت وأقرأهم لكتاب الله ابي بن كعب ولكل أمة أمين وأمين هذه الامة ابو عبيدة بن الجراح) .

والمتبادر ان نطاق هذا التميز قد اتسع في زمن الخلفاء الراشدين ثم في زمن الدولة الاموية حيث صارت الحاجة ماسة لرواية كيفية تلاوة القرآن واحاديث رسول الله ما روي عن النبي وكبار اصحابه من تفسيرات لآيات القرآن . واستنباط الاحكام من القرآن والحديث فنشأ ما يسمى بعلوم القراءات والتفسير والحديث والفقه . وصار يتميز في كل منها بعض اصحاب رسول الله وتابعيهم الذين عاشوا في عهد الدولة الاموية .

ففي القراءات

كان بعض اصحاب رسول الله مثل أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود يتغايرون في كيفية

---

١ انظر تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٩٢ وما بعدها

تلاوة القرآن وقراءة بعض الالفاظ والحروف . وصار لكل منهم اتباع مقلدون فأدى ذلك الى نشوء ما عرف بعلم القراءات . وقد اشتهر في هذا العلم سبعة من التابعين عاشوا في العهد الاموي وصار كل منهم إماماً في قراءة . وعرف مجموع قراءاتهم بالقراءات السبع [1] . وهم عبد الله بن كثير في مكة وعاصم بن ابي النجود في الكوفة وعبد الله بن عامر في دمشق ويزيد بن القعقاع في المدينة وحمزة بن حبيب في حلوان العراق وابو عمر بن العلاء في البصرة او الكوفة على اختلاف في الروايات ونافع بن عبد الرحمن في المدينة والثلاثة الاخرون ادركوا الدولة العباسية [1] .

وفي التفسير

اشتهر عبد الله بن عباس الذي حفلت كتب التفسير التي وصلت الينا بأقواله ورواياته حتى انها تعد بالآلاف . وقد رتب بها تفسير كامل شامل لجميع سور القرآن . ومع ذلك فهناك روايات كثيرة معزوة الى ابن عباس لم ترد في هذا التفسير . وابن عباس ادرك النبي ﷺ وسمع منه وروى عنه ثم عاش طيلة زمن الخلفاء الراشدين وشطراً من زمن الامويين حيث مات سنة ٦٨ هـ وممن اشتهر في التفسير من عصر الامويين مجاهد المتوفي سنة ١٠٤ هـ وقد ألف كتاباً في التفسير على ما رواه ابن النديم في الفهرست وان لم يصل الينا . وكتب التفسير التي وصلت الينا تروي عدداً كبيراً من أقواله ورواياته .

واشتهر بالتفسير بالاضافة الى ابن عباس ومجاهد عدد من علماء العصر الاموي مثل سعيد ابن جبير ومقاتل بن سليمان وعكرمة مولى ابن عباس وابن جريج السدي ونافع مولى بن عبد الله بن عمر وعطاء بن ابي رباح وطاووس وابراهيم التحفي والحسن البصري . وفي تفسير الطبري وهو من اقدم ما وصل الينا من كتب التفسير وأجمعها روايات كثيرة بأقوال وروايات كل من هؤلاء العلماء .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢١٨ وبعضهم يجعل القراءات عشراً باضافة ثلاثة ائمة اشتهروا في عهد الدولة العباسية .

(٢) روايات هذا التفسير يرويها محمد بن مروان عن الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس . وهو مطبوع . وعندنا نسخة منه مطبوعة على مطبعة حجرية .

وفي علم الحديث

اشتهر كذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنه . وقدحفلت بأحاديثه ورواياته في الحديث كتب الحديث . ويروى عنه انه كان يتتبع احاديث رسول الله عند كبار الصحابة ويذهب اليهم ليسمعها منهم ثم ليرويها عنهم [1] . ومن زملائه في هـــذا المضار عبد الله بن عمرو حيث وصف بأنه كان جماعاً للحديث يتلمسه حيث كان ويتحرى ألفاظه . ويروى انـه دون بعض احاديث رسول الله في مدونة عرفت بالصادقة فيكون إذا صحت أول عالم حديث دون علمه في زمن هذه الدولة .

وممن ذكرت الروايات شهرتهم في علم الحديث في زمن هذه الدولة وجمعه القاسم بن محمد ابن ابي بكر ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري وعمرة بنت عبد الرحمن الانصاري والربيع ابن صبيح وسعيد بن ابي عروبة [2] .

ولقد خطا عمر بن عبد العزيز خطوة هامة في هـذا المضار فأمر اولا واليه في المدينة ابا بكر بن حزم بجمع احاديث رسول الله وكتابتها ثم امر محمد بن مسلم بن شهاب الزهري بمثل ذلك . فكان ما جمعاه ودوناه من اول ما جمع ودون من احاديث رسول الله بالاضافة الى ما روي من مدونة عبد الله بن عمر . وكان عدد الاحاديث التي دونوها مع ذلك قليلا . وظل معظم الاحاديث تروى بدون تدوين الى زمن الدولة الاموية .

وواضح من هذا ان المقصود به هو ما يمكن ان يتسم بعلم الحديث . وهو غير رواية الحديث حيث اشتهر في ذلك عدد من اصحاب رسول الله عاشوا شطراً كبيراً مـن حياتهم في زمن الدولة الاموية وحفلت كتب الاحاديث التي دونت في زمن الدولة العباسية برواياتهم التي ظلت بدون تدوين الى زمن هذه الدولة والتي كان يبلغ بعضها الآلاف مثل ابي هريرة

---

(١) فجر الاسلام ص ١٧٧

(٢) قواعد التحديث للقاسمي ص ٤٥

رضي الله عنه الذي بلغ عدد الاحاديث المروية عنه ٥٣٤٧ والذي وصفه الشافعي بأنه أحفظ من روى الحديث في دهره . وعبد الله بن عمر الذي بلغ عدد الاحاديث المروية عنه ٢٦٣٠ وأنس بن مالك الذي بلغ عدد الاحاديث المروية عنه ٢٢٨٦ وابن عباس الذي بلغ عـــدد الاحاديث المروية عنه ١٦٦٠ وجابر بن عبـــد الله الذي روي عنه ١٥٤٠ حديثاً وأبو سعيد الخدري الذي روي عنه ١١٧٠ حديثاً وعائشة أم المؤمنين التي روي عنهـا ٢٢١٠ احاديث رضي الله عنهم [١] .

يضاف الى هذه الاسماء المئات من اصحاب رسول الله الذين عاشوا شطراً من هذه الدولة ورويت عنهم المئات والعشرات والآحـاد من احاديث رسول الله ممن ذكرت اسماؤهم في اسانيد الحديث حين تدوينها .

ويبدو من هذا ان الاهتمام لرواية احاديث رسول الله من منابعها اي من اصحابه الذين سمعوها منه قد كان شديداً في زمن هذه الدولة وان عدد الذين نشطوا في هذا المضمار كان كبيراً . وكل ما هنالك انه لم يدون مما سمعوه من اصحاب رسول الله إلا القليل وانأكثره روي عنهم ودون في زمن الدولة العباسية .

ومن صدور التابعين الذين اشتهروا في رواية الاحاديث عن اصحاب رسول الله سعيد بن المسيب والقاسم بن محمد بن ابي بكر وعروة بن الزبير واسماعيل وخارجة ابنا زيد بن ثابت وابو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وعبيد الله بن عتبة بن مسعود وسليمان بن يسار الهلاليوسالم وحمزة وزيد وعبيد الله وبلال ابـــناء عبد الله بن عمر وأبان بن عثمان . وقبيصة بن ذؤيب وعلقمة ومسروق وابو عثمان الهندي وقيس بن ابي حازم [٢] .

والفقه

يرتكز بالدرجة الاولى على القرآن والحديث . وكان نبهاء الصحابة والتابعين في زمـن

---

(١) قواعد التحديث ص ٤٧-٤٨

(٢) قواعد التحديث ص ٥٠

الخلفاء الراشدين والدولة الاموية يستفتون في ما يعرض من المشاكل فيفتون استنباطاً من آيات القرآن والحديث او قياساً على ما كان يقع من مثل ذلك في زمن النبي والخلفاء الراشدين . فكان ذلك اوليات نشوء الفقه الاسلامي والفقهاء .

وقد روي عن ابن حزم قوله (اكثر اصحاب رسول الله فتوى مطلقاً عمر وعلي وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت وعائشة رضي الله عنهم حتى يمكن ان يجمع من فتيا كل منهم مجلد ضخم . ويليهم ابو بكر وعثمان وابو موسى ومعاذ وسعد وابو هريرة وانس وعبد الله بن عمرو وسلمان وجابر وابو سعيد وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وعبادة بن الصامت ومعاوية وعبد الله بن الزبير وام سلمة رضي الله عنهم حتى يمكن ان يجمع من فتيا كل منهم جزء صغير [1] .

وبعض هؤلاء ممن عاش في زمن الدولة الاموية بالاضافة الى زمن الخلفاء الراشدين.

والمتبادر ان هذه الاسماء هي اسماء الصدور والمشاهير وان هناك عدداً كبيراً آخر كانوا يتصدون للفتيا ويتسمون بسمة علماء الفقه . ولقد حرص اليعقوبي على ذكر مشاهير الفقهاء في عهد كل خليفة من الخلفاء الامويين . حيث يتكون من ذلك قائمة طويلة ذكرنا قبل عدداً مما احتوته وحيث يفيد ذلك ان تعبير فقهاء وعلماء فقه كان مألوفاً ومفهوم المدى .

ولقد ذكرنا قبل ان عمر بن الخطاب بدأ بسنة تعيين اشخاص للقضاء بين الناس واستمرت هذه السنة واتسع نطاقها في زمن الدولة الاموية . ولقد كان مستند القضاة في احكامهم هو القرآن والسنة النبوية القولية والفعلية والاجتهاد والقياس فيما ليس فيه نصوص محددة ومحكمة وهذا هو مفهوم الفقه . ولهذا فان القضاة في هذا العهد يدخلون في عداد علماء الفقه .

ولقد كان كما قلنا قبل في كل مدينة من مدن الدولة قاض . وهذا يعني انه وجد في عهد الدولة الاموية مئات القضاة الذين يصح تسميتهم بعلماء الفقه .

---

(١) قواعد التحديث ص ٤٨

وكل هذا يسوغ القول ان حركة الفقه او علم الفقه كانت حركة نشيطة في هـذا العهد الذي تنوعت فيه المصالح والمشاكل والعلاقات بين الناس بما لا يقاس عليه الامر قبله .

ومع ذلك فليس هناك مرويات عن مدونات فقهية في هـذا العهد كما هو الامر بالنسبة للحديث والتفسير . غير ان هذا لا يعني في ما يتبادر لنا ان الفتاوى والاحكام القضائية لم تكن تدون بل المتبادر المعقول ان القضاة كانو يسجلون الاحكام التي يصدرونها وان الفقهاء كانوا يكتبون فتاواهم . وكل ما هنالك انه لم يصل الينا شيء مدون او خبر عـن تدوين من ذلك العهد .

وننبه على ان كتب التفسير والحديث والفقه التي كتبت في عهد الدولة العباسية احتوت اقوالاً كثيرة لعلماء وفقهاء هذا العهد . واذا كان من المحتمل ان ذلك قـد تداول بواسطة الرواة مثل معظم الاحاديث فالاحتمال وارد بأن منه ما كان منقولاً من مدونات ضاع اصلها وخبرها .

ت ـ العلوم اللسانية

١ ـ النحو

المستفاد من المأثورات ان النحو اول ما نشأ في البصرة والكوفة اللتين صارتا مـن اهم مركز الثقافة العربية في القرن الهجري الاول . ولقد اخذ العرب يختلطون بغيرهم حياة ومعاشاً ونسباً فصار يتطرق الى الفصحى شيء من الفساد فدعت الضرورة الى وضع بعض القواعد حتى لا يتعرض القرآن بنوع خاص للتحريف .

والروايات تذكر اسم ابي الاسودالدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ كأول واضع للنحو فيزمن الدولة الاموية . وانه تلقى اصول هذا العـلم عن علي بن ابي طالب حيث قالت له ابنته

---

(١) انظر المجلد ١١ من الاغاني اخبار ابي الاسود الدؤلي

(ما اشد الحر) فظنها تسأله ثم عرف انها تتعجب من شدة الحر فأخبر الامام بالامر وقال له قد فسدت لغة العرب بمخالطة العجم فأملى عليه بعض قواعد في النحو منها (ان الكلام كله لا يخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى) ، ثم راجع ابو الأسود زياد بن ابي سفيان في ما فشا على الالسنة من اللحن فاهمله حتى اذا جاء شخص الى زياد يعرض عليه قضيته فقال له (مات ابانا وخلف بنون) فاستدعى الاسود وامره ان يضع للناس قواعد النحو ففعل .

ويروي زيدان عن ابن النديم صاحب الفهرست انه شاهد خزانة كتب كان فيها قمطر كبير فيه نحو ثلاثمائة رطل جلود بينها اربع رقاع من ورق الصين احتوت ترجمتها او عنوانها جملة (كلام في الفاعل والمفعول) من ابي الاسود رحمه الله بخط يحيى بن يعمر وتحته خط عتيق لعلان النحوي وتحته خط آخر للنصر بن شميل [1] .

واذا كان هذا هو كل ما ورد في الاخبار فالمتبادرانه ليس كل ما وضع في زمن الدولة الاموية ودون من طرف ابي الاسود وغيره من بعده من قواعد النحو والصرف استنباطاً من اللغة الفصحى ، وانه لا بد من أن يكون قد وضع قواعد كثيرة اخرى . وان ما دون من ذلك في عهد الدولة العباسية لم يوضع كله في هذا العهد .

٢ – الحركات والاعجام

لقد كان القرآن يقرأ من المصاحف بلا حركات ولا اعجام ، والكلمة الاولى تعني ضبط حركة الحرف والثانية تعني تمييز الحروف المتشابهة بالنقاط . ثم مست الحاجة الى ذلك بانضمام غير العرب الى الاسلام وفساد اللهجة الفصحى وذهاب الاجيال التي كانت تتكلم بها سليقة . ويروى ان اباالاسودالدولي هو كذلك اول من حاول ضبط حركات الحروف بأمر من زياد ايضاً . ويروى انه لما طلب منه ذلك وجاؤوه بكاتب قال له إذا رأيتني فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على اعلاه . وان ضممته فانقط نقطة بين يديه ، وان كسرته

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ج ١ ص ٢٢٤–٢٢٦ .

فاجعل النقطة تحته . وان النقط كانت تكتب بلون غير لون الحرف . وهذه الرواية تفيد ان الحركات بدأت نقطاً ثم تطورت الى خطوط في الفتحة والكسرة وواو في الضمة فيما بعد.

اما الاعجام فالروايات تذكر ان الذي انتبه الى فساد الكلام وبخاصة تحريف القرآن من جراء عدم اعجام الحروف وعمل على تلافي ذلك هو الحجاج وان اول من نفذ امر الحجاج هو نصر بن عاصم حيث وضع النقط افراداً وازواجاً .

والمستفاد من المأثورات ان الاعجام لم يوضع كاملا في المرة الاولى وانه اقتصر على الحروف التي يكثر فيها اللحن والغلط لشدة التشابه مثل السين والشين والصاد والضاد والباء والياء ثم عمت سائر الحروف المتشابهة مثل الباء والتاء والثاء والجيم والحاء والخاء والدال والذال والراء والفاء والقاف .

وقد ذكر جرجي زيدان انه شاهد بعض مصاحف قديمة مكتوبة على رقوق على بعض حروفها حركات ونقط دون بعض [١] .

ث – علم التاريخ

روينا في سيرة معاوية انه كان يأمر غلماناً له كل ليلة فيأتون بدفاتر يقرأون له منها سير الملوك واخبار الحروب ومكائدها وانواع السياسات . ويظن جرجي زيدان ان هذه الدفاتر يونانية او لاتينية [٢] اللغة كان يقرؤها غلمانه بلغاتهم ويفسرونها له بالعربية .

ومع ترجيحنا احتمال ان تكون الدفاتر في تواريخ الدول الاجنبية فلا نستبعد ان تكون ترجمة عربية من لغات اجنبية ، ولقد روي ان عبيداً بن شرية الف لمعاوية كتاب الملوك واخبار الماضين [٣] .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٢٩–٢٣٠ .

(٢–٣) نفس المصدر ص ٢٣١ والجزء الثاني معزو الى ابن النديم صاحب الفهرست .

وهذا الخبر يفيد من جهة ان تدوين التاريخ باللغة العربية قد بدأ في وقت مبكر من زمن الامويين ويؤيد من جهة اخرى ترجيحنا الآنف الذكر .

وابن النديم يذكر في فهرسته كتباً اخرى الفت في زمن مبكر منها كتب فيها تراجم المشاهير ونحوهم الفها ابو مخنف الازدي الذي يعزو الطبري في تاريخه اليه كثيراً من الاخبار والروايات ، ويذكر اسم علاقة بن كريم الكلابي كعارف بأيام العرب واحاديثها ومدون لها في ايام يزيد بن معاوية .

ويذكر ان عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ الف كتاباً في السيرة النبوية ، وان ابان ابن عثمان المتوفى سنة ٩٥ فعل مثله. وان تلميذاً لهذا اسمه عبد الرحمن بن المغيرة جمع ما كتبه استاذه ، وان ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ كتب كتاباً في المغازي وان عوانة بن الحكم الكلبي من رجال عهد بني امية الف بعض الكتب التاريخية ومنها كتاب في سيرة معاوية [١] ، وهذا ايضاً مما يعزو الطبري اليه كثيراً من الاخبار . و ن كان لوهب بن منبه كتاب في السير والاخبار .

وفي كتب التاريخ والتفسير القديمة روايات مسهبة يرويها رواة من عصر بني امية في تاريخ واحداث وقصص عربية وغير عربية عائدة الى ما قبل الاسلام لا نستبعد انها كانت مدونة في قراطيس ، ولو لم يصح هذا ايضاً فان فيها دلالة على اهتمام كثير من النبهاء في تتبع اخبار الامم السابقة ورواياتها مما هو من باب علم التاريخ كما لا يخفى . ومن الاسماء المذكورة ابن عباس ووهب بن منبه وكعب الاحبار ومحمد بن كعب القرظي وغيرهم وغيرهم.

ج – العلوم الدخيلة

ذكرنا في سياق سيرة معاوية الثاني خبر اهتمام ابنه خالد لصناعة الكيمياء . والروايات تذكر انه استقدم جماعة يونانيين من الاسكندرية ليتعلمها منهم وانه لما تعلمها امر بنقلها الى العربية فنقلها له رجل اسمه اسطفان وهو اول نقل في الاسلام من لغة الى اللغة العربية

---

(١) المصدر السابق ٢٣١ .

وكان في زمن الدولة الاموية

ومما يروى أن خالداً كان مولعاً بعلم النجوم وبالطب وانـــه انفق الاموال في طلبها واستحضار آلاتها . وقد روى ابن القفطي عن ابن السنبدي انه شاهد في خزائن الكتب بالقاهرة كرة نحاس مكتوب عليها هذه الجملة : (حملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية) [٢] .

ومما يرويه الكرد علي انه ترجم لخالد كتب في الطب والنجوم وانه اخذ الطب عن يحيى النحوي ، وانه اول من جمعت له الكتب وجعلها في خزانة في دمشق ، وانـــه انشأ داراً للترجمة . وانه كان جواداً يجمع حوله العلماء ويغدق عليهم ، وان ابن النديم يروي ان لخالد عدة كتب ورسائل وانه رأى خمسمائة ورقة من كتبه ومنها كتاب عنوانه : (كتاب الحرارات) [٣] .

ومـــا يرويه ابن النديم ان طبيباً في البصرة في زمن مروان بن الحكم اسمه ماسرجويه السرياني نقل الى العربية كتاباً في الطب الفه القس أهرون بن اعين باللغة السريانية من افضل الكنانيش ، وان سالماً كاتب هشام بن عبد الملك نقل رسائل ارسطو الى الاسكندر الى اللغة

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣٢ عزواً الى ابن النديم ، وتعليقة على وصف كون هذا اول نقـــل في الاسلام من لغة اجنبية الى لغة عربية نقول ان هذا لا ينبغي ان يشمل ما قبل الاسلام من ذلك حيث هناك ما يفيد ان نصارى العرب كانوا يتداولون ترجمات عربية من اسفار العهد القديم والعهد الجديد قبل الاسلام.

وهو ما نرجح صحته ، فقد كان جمهور عظيم من العرب يدينون بالنصرانية قبل الإسلام في بلاد الشام والعراق وجزيرة الفرات ومشارف الشام واليمن، ولا يعقل ان لا يكون في ايديهم نصوص عربية لهذه الاسفار .

« انظر ايضاً تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ج ٦ ص ٢٧٨ » .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٣ .

(٣) خطط الشام ج ٣ ص ٢٢ .

العربية وان لهذا رسائل في مئة ورقة [1] .

ح – العلوم الادبية

١ – الشعر

كانت بلاغة القرآن وذمه للشعراء من اسباب انكماش الشعر وضعف جيشانه وعدم الاهتمام له في زمن النبي والخلفاء الراشدين ومما يروى ان ابا الفرزدق جاء بابنه الى الإمام علي وقال له ان بُني هذا من شعراء مضر فاسمع له فقال له علمه القرآن [2] . وان عمر بن الخطاب امر المغيرة بن شعبه والي الكوفة بأن يستنشد شعراء عصره ما قالوا في الاسلام فأرسل الى لبيد – احد فحول شعراء الجاهلية ومن اصحاب المعلقات وقد ادرك الاسلام فأسلم – فكتب سورة البقرة في صحيفة ثم أتى بها وقال ان الله ابدلني هذا في الاسلام بالشعر فلما كتب المغيرة الى عمر بجوابه أمر بزيادة عطاء لبيد خمسمائة درهم [3] . ويقال انه لم يقل في الاسلام الا بيتاً واحداً وهو :

الحمد لله لما ينتهي أجلي   حتى كساني من الاسلام سربالا

ويروى حديث نبوي جاء فيه : (لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير من ان يمتلىء شعراً) [4] ويروى ان الطفيل بن عمرو السدوسي لما عرض النبي عليه الاسلام قال له اني رجل شاعر فاسمع ما اقول فقال هات فأنشده شيئاً من شعره فقال النبي وانا اقول فاسمع : (بسم الله الرحمن الرحيم ، قل هو الله احد الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ج ١ ص ٢٣٣ و ٣١٤ .

(٢) تاريخ الآداب العربية ج ١ ص ١٩٧ .

(٣) ص ١١١ عزواً الى الاغاني .

(٤) ١٩٦ عزواً الى العمدة .

كفوأً احد) فأسلم الرجل .

فكان كل هذا من اسباب الانكماش والانصراف عن الشعر حتى لم يكد يروى نبوغ شاعر جديد في زمن النبي والخلفاء الراشدين ، وجل ما يروى من شعر هو لشعراء مخضرمين وفي مدح النبي والدفاع عن المسلمين أو في هجوم من شعراء الكفار قبل اسلامهم .

ولقد تغيرت هذه الحال في زمن الدولة الاموية ، فمن جهة جاشت العصبية القبلية جيشاناً عظيماً نتيجة لما كان من تنافس ومطامح ومكاسب ومناصب ومفاخر . ومن جهة ثارت الخصومات بين الامويين والهاشميين ثوراناً شديداً . ومن جهة اشتدت الحروب بين الامويين والخوارج والزبيريين والشيعيين والمتمردين . ومن جهة انعزل شباب قريش والحجاز عن الحياة السياسية بسبب ما كان من المواقف غير الولائية التي كان يقفها اهل الحجاز من الدولة الاموية فانصرفوا الى اللهو والحياة الناعمة ، وكان خلفاء بني امية يرتاحون لذلك ويستمرون في اجراء الاعطية عليهم ليسعدوهم ويبعدوهم إذا صح التعبير فساعدهم هذا على ما انصرفوا اليه .

وكان معظم امراء بني امية بما فيهم الذين جلسوا على عرش الخلافة متأدبين مثقفين يتذوقون الشعر وينظمونه ويحفظون الجيد منه ويتمثلون به ويستقبلون الشعراء بترحيب وحفاوة ويحلونهم المنازل الرفيعة ويغدقون عليهم العطايا والمنح حتى ليصل احياناً ما يعطونه للواحد منهم على مدحة واحدة مئة الف درهم وخمسون الف واربعون الف . واربعة آلاف دينار ، ومزرعة بكامل عدتها والف دينار فوقها ، ومئات من الابل مع آلاف الدراهم وعشرات من الحلل والكساوى . هذا خلاف الجوائز السنوية التي كانوا يرتبونها لمن يختص بمدحهم ، ويستخدمونهم في أغراضهم ومآربهم ، وكان ابناء الخلفاء والولاة ورجالات العرب البارزون يحذون هذا الحذو كله تجاه الشعراء .

ولقد كان الشعراء وبخاصة فحولهم يتحدون بعضهم في الشاعرية ويتحرشون ببعضهم بسبيل ذلك ، وكان الخلفاء وابناؤهم ونبهاء رجال العهد يحرشون بينهم ايضاً فيؤدي ذلك الى

التهاجي والتلاحي ونظم القصائد التي عرفت بالنقائض – اي المتماثلة في البحور والقوافي الشعرية للرد على بعضهم – بل وكان بعضهم يطلب من زميله ذلك ويقترحه عليه [١]، وتنعقد بسببه المجالس والندوات، وتسير بما يتناشدونه الركبان.

ولقد كان للغناء العربي في الحجاز في هذا العهد نهضة عجيبة في ظرافتها وطرافتها وفنونها ومجالسها واقبال خلفاء بني امية وابنائهم ونبهاء العرب وموسريهم عليها، وكان قوامها الشعر، فكان في ذلك مضمار آخر للشعراء، فكان كل هذا مما اهاج شياطين الشعر في عهد الدولة الاموية واتاح ظهور حركة قوية جياشة للشعر غنية جداً في الصور والاغراض الشعرية المتنوعة فضلا عن ما كانت عليه من بلاغة وفصاحة وإصابة وقوة إثارة بحيث يمكن ان يقال انه كان للشعر في هذا العهد دولة باذخة سامقة الاعلام منحت الادب العربي واللغة العربية والتاريخ العربي ثروة تجل عن الوصف حتى لقد كان يمكن ان يضيع شيء كثير جداً من كل ذلك لولاها من حيث ان الناس يحفظون الشعر ويتناقلونه اكثر من النثر ومن حيث ان التدوين لم يكن قد اتسع نطاقه او لأن مدونات ذلك العصر ضاع اغلبها ولم يكد يبقى منها الا النتف او ما تداولته ألسنة الرواة مع ما دخل عليه من تحريف ومبالغة بقصد وبغير قصد.

ولقد أثر عن بعض علماء الفقه في العصر العباسي قوله: (لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب) [٢]، وليس الفرزدق الا واحداً من فحول شعراء العصر الاموي، وليست اللغة الا ناحية من نواحي حياة العصر المذكور التي حفظ شعر هذا العصر الكثير منها.

ويبلغ عدد الفحول والنابغين من شعراء هذا العصر نحو مئة، بالاضافة الى عدد اكبر آخر دونهم مرتبة، وقد روي لهم ما لا يكاد يقع تحت حصر من قصائد طويلة وقصيرة في مختلف الاغراض من مدح وهجو وفخر وتشبيب وغزل واستمناح واستعطاف واعتذار

---

(١) انظر اخبار الشاعر كثير في المجلد الثامن من الاغاني واخبار الشاعر ابن هرمة في المجلد الرابع.

(٢) انظر شرح ديوان الفرزدق للصاوي ورسالة «الفرزدق» للدكتور ممدوح حقي.

وتحد واستفزاز وهجوم ودفاع وسخرية ومجون وسباب وفحش الـــخ وبمختلف الاساليب والفنون والبحور والقوافي .

ويصنف الباحثون شعراء هـذا العصر صنوفاً ، منهم صنف سموه شعراء السياسة الذين منهم انصار بني امية ومنهم انصار بني هاشم ومنهم انصار بني الزبير ومنهم انصار بني المهلب ومنهم خوارج او انصارهم . وصنف سموه شعراء الغزل وصنف سموه شعراء ادب عام . وصنف سموه شعراء المجون والخلاعة .

والمتبادر من شعر شعراء كل صنف ان التصنيف انما قام على الصفة الغالبة لشعر الشاعر . فقد أثر لكثير من شعراء السياسة مقطوعات غزلية وغنائية بليغة في بابها . وكثير ممن كانوا ينصرون بني هاشم او بني الزبير او بني المهلب من كان يفد على خلفاء بني امية وامرائهم وولاتهم ويمدحونهم وينالون جوائزهم ايضاً .

ولقد فكرنا في ايراد اسماء ونماذج ومجالس وصور وقصص لشعراء هذا العصر وشعرهم واقوال النبهاء والعلماء القدماء فيهم ، غير اننا رأينا ان المقـــام لن يتسع الا لنزر يسير لا يمكن ان يعبر عن روعة الصورة ، وان الاولى لمن يريد ان يعرف مدى ثروة دولة الشعر في العصر الاموي وقوتها وافانينها وروعتها وطرافتها ومـــا اسدته لتاريخ العرب ولغتهم وفنونها من خدمة ومنحته من ثروة – وهذا واجب على كل عربي وبخاصة على ناشئة العرب لأن له دلالة قوية على مظهر من مظاهر الحياة والنبوغ العربية – ان يقرأ ما وصل الينا عنها – وهو قليل من كثير فيما نعتقد – من دواوين و كتب وبخاصة الكنز الادبي العربي الذي لا يكاد يكون له مثل ونعني به كتاب الاغاني حيث يجد فيه المعجب المطرب من كل ذلك .

واذا كان من شيء يحسن زيادته في هذا المقام فهو التنويه بأنه كان للمرأة العربية حظ غير يسير في هذه الدولة . سواء أ كان في نظم الشعر ام في حفظه وتذوقه وشهود مجالسه . أم فيما كان من تعرض الحسناوات لشعراء الغزل مما كان يهيج شياطين هؤلاء الشعراء من

ناحيـــة ويثير في الحسناوات شعور الزهو والاعتداد من ناحية اخرى مما احتوى كتاب الاغاني بخاصة منه الكثير المعجب المطرب ايضاً .

وقد يكون قد دخل على الشعر المنسوب الى شعراء هذا العصر والقصص المروية في سياقه من تاريخية وحربية وقبلية ونسائية وشخصية وادبية كثير من التحريف والكذب والخيال والمبالغة حينما اخذ المدونون يدونونه في زمـــن الدولة العباسية لاغراض متنوعة سياسية وحزبية وادبية او نتيجة لاختلاف الرواة وذهولهم لأن في المدونات من ذلك اشياء عجيبة غريبة بعيدة عن الاحتمال والمنطق والظرف فضلا عن ما هناك من تضارب وتداخل وتقارير في الروايات والنصوص والاسماء والتواريخ . غير ان هذا ليس من شأنه ان يدخل تعديلا كبيراً على الصورة القوية الرائعة لدولة الشعر والشعراء في العصر الاموي وآثارها الخطيرة المدى في لغة العرب وادبهم وتاريخهم .

٢ – الخطابة

كان حظ الخطابة كبيراً في زمن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين خلافاً لحظ الشعر . لان ذلك من مستلزمات المواقف الوعظية والجهادية التي كانت من الطوابـع المميزة لهذا العهد .

ولقد اثرت خطب كثيرة للنبي ﷺ وخلفائه الراشدين وقواد الفتح رضي الله عنهم في مختلف المناسبات بليغة في الفاظها ومعانيها مما اوردنا منه نماذج كثيرة في الجزئين السابقين .

ولقد استمر هذا الحظ قوياً في زمن الدولة الاموية لأن مستلزماته كانت متوافرة بقياس اوسع ، ولقد اثرت خطب كثيرة جداً للخلفاء الامويين في مختلف المواقف كما أثر مثل ذلك لكثير من قوادهم وولاتهم ولقواد الحركات المناوئة لهم معاً مما اوردنا منه نماذج كثيرة فيها مصداق ذلك .

٣ – النثر او انشاء الرسائل

وكان حظ انشاء الرسائل كبيراً كذلك في زمن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين لتوافر مستلزماته ، وقد اوردنا نماذج كثيرة من ذلك في الجزئين السابقين .

ولقد كان هذا الحظ في زمن الدولة الاموية اقوى واوسع نطاقاً لازدياد تلك المستلزمات باتساع نطاق الدولة وطول مدتها وتنوع صور الحياة والاحداث فيها ، ولقد روى المؤرخون القدماء كثيراً من رسائل الخلفاء لولاتهم وقوادهم وكثيراً من رسائل الولاة والقواد للخلفاء مما اوردنا منه نماذج عديدة ومما تميز بعضه بطول النفس وبلاغة الاسلوب .

ولقد ذكرنا قبل انه كان للخلفاء والولاة دواوين للرسائل ، وهذا يستتبع القول انه كان موظفون متخصصون في انشاء الرسائل وتدبيجها يتولون الدواوين . ومن المحتمل القوي ان تكون تلك الرسائل او كثير منها من انشائهم بالاضافة الى احتمال ان يكون بعضها من املاء الخلفاء والولاة .

ولقد روينا في نبذة تمرد عبد الرحمن بن الاشعث ان هذا كلف كاتباً في ديوان الحجاج اسمه ابن القرية بكتابة كتاب الخلع والتمرد الذي ارسله الى الحجاج فكتبه وارسل نسخته الى ابن الاشعث مما فيه تأييد لذلك .

ولقد روى الطبري رواية مؤيدة اخرى فيها ما يفيد ان الكتاب كانوا يختارون من ذوي الفصاحة والبلاغة ، حيث روي انه ورد للحجاج رسالة من يزيد بن المهلب فيها بشرى فتح قلعة نيزك وكانت قلعة هامة .

وقد جاء في الرسالة فيما جاء : (إنا لقينا العدو فمنحنا الله اكتافهم ، فقتلنا طائفة ، واسرنا طائفة ، ولحقت طائفة برؤوس الجبال وعراعر الاودية واهضام الغيطان واثناء الانهار) فسأل الحجاج عمن يكتب ليزيد فقيل له يحيى بن يعمر فأحضره فوجده افصح الناس ، وسأله عن سبب فصاحته فقال له كان ابي فصيحاً فحفظت منه ، وسأله عن اناس معروفين بالفصاحة فقال له انهم يلحنون كثيراً ، وسأله عن نفسه فقال له انه يلحن قليلا ويضع (أن) محل (إن) و (إن) محل (أن) فعظم في نفسه ولكنه امره ان يعود الى خراسان دون تريث [1] .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ١٨٧ .

وممن يروي الرواة نبوغهم في فن الانشاء عبد الحميد بن يحيى الذي كان كاتباً لمروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين ، حيث يذكر في صدده انه جعل للانشاء صفة معينة وطريقة مخصوصة نسبت اليه وانه كان مضرب المثل ببلاغة رسائله فيقال فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد ، وهذا الاخير من بلغاء كتاب القرن الخامس. وانه كان يمتاز بالاطالة واستعمال التحميدات .

وقد ذكر ابن النديم في كتابه الفهرست ان له مجموعة تبلغ الف ورقة لم يصل الى عهدنا منها الا رسالة خطية واحدة منسوبة اليه موجودة في دار الكتب المصرية . وقد اشرنا في مناسبة الكلام عن القوة البرية الى رسالة كتبها عبد الحميد الى ابن مروان بن الحكم في صدد تعبئة الجيش وحركته . وهي آية في البلاغة والجزالة بالاضافة الى حسن الادراك ودراية الامور .

وهناك نوعان آخران من فنون النثر جديران بالتنويه في هذا المقام وهما التوقيعات والمساجلات ، ونعني بالاولى ما كان يوقعه الخلفاء والولاة على ما يرد عليهم من كتب من جمل وجيزة اللفظ بليغة المعنى محكمة السبك ، وقد اثر ذلك عن الخلفاء الراشدين ثم عن الدولة الاموية .

فمن التوقيعات [1] المأثورة لعمر بن الخطاب على اسفل كتاب ورد عليه من سعد بن ابي وقاص في بنيان يبنيه : (ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر) ، وعلى اسفل كتاب ورد عليه من عمرو بن العاص : (كن لرعيتك كما تحب ان يكون لك اميرك) .

ولعثمان بن عفان على قصة [2] رجل شكا عيلة :(قد امرنا لك بما يقيمك وليس في مال الله فضل للمسرف) .

---

(١) انظر العقد الفريد ج ٣ ص ٣٣ — ٣٦ .

(٢) هذه الكلمة تعني ما تعنيه اليوم بكلمة استدعاء او عرض حال .

ولعلي بن ابي طالب على كتاب جاءه من ابنه الحسن في رأي يقترحه : (رأي الشيخ خير من جلد الغلام) . وعلى كتاب جاءه من طلحة : (في بيته يؤتى الحكم).وعلى كتاب جاءه من الحصين بن المنذر : (بقية السيف أنمى عدداً) .

ومن التوقيعات المأثورة عن عهد بني امية توقيع لمعاوية على اسفل كتاب جاءه من زياد يخبره فيه ان ابن عباس يطعن في خلافته : (إن ابا سفيان وابا الفضل كانا في الجاهلية في سلاخ واحد وذلك حلف لا يحله سوء رأيك) ، وله على كتاب جاءه من ربيعة اليربوعي يطلب منه اعانته باثني عشر الف جذع لبناء دار له في البصرة : (أدارك في البصرة ام البصرة في دارك) .

وليزيد بن معاوية الى عبيد الله بن زياد : (انت احد اعضاء ابن عمك فاحرص ان تكون كلها) . ولعبد الملك على كتاب جاءه من الحجاج : (جنبني دماء بني عبد المطلب فليس فيها شفاء من الطلب) . وللوليد على كتاب لعمر بن عبد العزيز : (قد رأب الله بك الداء وأوذم بك الشفاء).ولعمر بن عبد العزيز على كتاب عامل العراق يخبره عن سوء طاعة اهله: (ارض لهم ما ترضى لنفسك وخذ بجرائمهم بعد ذلك)، وعلى كتاب عامله بالمدينة في بيت يريد ان يبنيه : (كن من الموت على حذر) . وليزيد بن عبد الملك لعامله في خراسان : (لا تترك حسن رأي فانما تفسده عثرة) ، والى عامله في المدينة : (عثرت فاستقل) . ولهشام بن عبد الملك على قصة متظلم : (أتاك الغوث إن كنت صادقاً وحل بك النكال ان كنت كاذباً فتقدم او تأخر) ، وعلى كتاب من عامله في صدد حروبه مع الترك : (احذر ليالي البيات) . وليزيد بن الوليد لمروان بن محمد : (اراك تقدم رجلا وتؤخر اخرى فاعتمد على ايها شئت) ، ولعامله في خراسان : (نجم امر انت عنه نائم وما اراك منه او مني بسالم) . ولمروان بن محمد على كتاب من عامله في خراسان : (الحاضر يرى ما لا يراه الغائب فاحسم الثؤلول) ، فكتب له : (الثؤلول قد اشتدت اعضاؤه). فوقع على الكتاب: (يداك او كتا وفوك نفخ) .

اما المساجلات فهي ما كان يجري في مجالس الخلفاء والولاة والادباء من محاورات يتميز اسلوبها على اسلوب الكلام العادي ، مما يقع المتتبع على كثير منه في مختلف كتب التاريخ والادب . من ذلك مثلا الاعتذار المروي من الشعبي للحجاج عن اندماجه في حركة ابن الاشعث وهو :(أصلح الله الامير،إني امرت بأشياء اقولها لك ارضيك واسخط الرب ، ولست افعل ، ولكني اقول واصدقك القول وكل شيء يقع بين يديك فهو الصدق ان شاء الله ، لقد نبا بنا المنزل ، وأجدب الجناب ، واكتحلنا السهر ، واستحلسنا الخوف ، وضاق بنا البلد العريض فوقعنا في حرب لم نكن فيها بررة اتقياء ولا فجرة اقوياء ، ولقد نصرك الله علينا واظفرك بنا ، فان سطوت فبذنوبنا وما جرت اليه ايدينا ، وان عفوت فبحلمك وبعد الحجة لك علينا) .

وفي سيرة الخلفاء وفي سياق سير الاحداث المتنوعة الاخرى مرت امثلة كثيرة من ذلك فنكتفي هنا بهذا المثل للدلالة على ما قصدنا اليه .

٥ – الغناء العربي

للغناء العربي في العهد الاموي صلة وثيقة جداً بالادب والشعر العربي ، وهذا ما جعلنا نسلكه في سلك العلوم الادبية .

ولقد ذكرنا في الجزء الخامس ما كان من امر الغناء العربي قبل الاسلام ، واستدللنا بعدم ذكره في القرآن كصورة من صور النعيم الاخروي كالخمر ومجالسه على انه لم يكن له حركة قوية مثيرة .

ولقد ظل الامر كذلك في زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين بل ازداد فتوراً وضعفاً ، ثم اخذت الحياة تدب فيه في زمن الدولة الاموية حتى بلغ شأواً بعيداً بالنسبة الى ما كان عليه ، وكان مسرح هذه الحياة الرئيسي المدينة ومكة ، وكان الممثلون عليه خليطين من رجال ونساء كلهم من الموالي المولدين ، وكان غذاؤها شعر الشعراء الغزليين الذين كان

معظمهم ينتسبون الى المدينتين في الدرجة الاولى .

والروايات مختلفة متعددة في تاريخ وكيفية بدء هذه الحياة . فهناك ما يفيد ان اول من غنى بالحان عربية حديثة طويس وابن سريج في مكة ، والاول مولى لبني مخزوم والثاني مولى لبني الليث . وكانا ذوي صوتين جميلين جداً فكانا ينوحان في المآتم ثم اخذا يغنيان بالحان جديدة .

وقد كان بدء ظهورهما في ذلك في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ووصف اولهما بأنه اول من غنى الغناء المتقن من المخنثين واول من اصطنع الهزج والرمل في الغناء ، ووصف ثانيها بأنه احسن من غنى بالهزج حتى صار يضرب به المثل ، وبأنه اول من ضرب على العود الذي اخذ صنعته عن الفرس [1]

وهناك روايات متماثلة في صدد مغنيين متقدمين هما ابن مسجح وابن محرز . وكلاهما من مكة ايضاً واولها مولى لبني جمح وكان اسود اللون وقد وصف بأنه مغن متقدم من فحول المغنين واكابرهم وانه سمع جماعة من الفرس يغنون في مكة فاعجبه لحنهم وقلده بالعربي ثم رحل الى الشام فأخذ الحان الروم والبربطية والاسطوخوسية وانقلب الى فارس فأخذ غناء كثيراً وتعلم الضرب على الآلات ثم الغى ما استقبحه واخذ المحاسن وغنى بها فكان اول من ثبت ذلك واخذ الناس عنه .

وهذا ما يروى عن ابن محرز الذي كان فارسي الاصل ومولى لبني عبد الدار والذي وصف بأنه من فحول المغنين القدماء وانه كان يشخص الى فارس فيتعلم ألحان الفرس وإلى الشام فيتعلم الحان الروم ويسقط ما لا يستحسن من نغم الفريقين ويمزج بين محاسنها فصنع غناء لم يسمع مثله حتى كان يقال له صناج العرب [2] .

---

(١) انظر نبذتي اخبار طويس وابن سريج في كتاب الاغاني .

(٢) انظر نبذتي اخبار ابن مسجح وابن محرز في الكتاب نفسه .

وهناك شخص خامس ينسب إليه أولية في الغناء وهـــو سائب خاثر الذي كان فارسي الاصل وملك يمين عبد الله بن جعفر حيث تذكر الروايات انه اول من أخذ الألحان الفارسية وغنى بها ، وكان مختصاً بسيده الذي تروي الروايات شدة ولعه بالغناء [1] .

وعلى كل حال فيمكن ان يقال إن احتكاك العرب بالفرس والروم نبه فيما نبه اليه الى الالحان الغنائية والآلات الموسيقية الرومية والفارسية فأقبل الموالي في مكة والمدينة الذين يمتون الى اصول فارسية وربما رومية على اقتباسها وتعريبها واستعمالها .

وظهور هذه الحياة في المدينة ومكة مترافقة مع ظهور شعراء الغزل فيهما يمكن بـل يرجح ان يكون بسبب ما نوهنا به قبل من انعزال اهل الحجاز عن الحياة السياسية في زمن الدولة الاموية الذي جعل شبابهم ينصرفون الى حياة اللهو والترف . وقد يمكن ان يكون هناك سبب آخر ايضاً ، وهو كون معظم العرب الذين كانوا في البلاد المفتوحة مجندين في

---

(١) مما يروى عن ذلك ان عبد الله بن جعفر قدم على معاوية وافداً فقال قائل لمعاوية ان ابن جعفر يشرب النبيذ ويسمع الغناء ويحرك رأسه عليه فدخل معاوية عليه مفاجأة والمغنيـــة عزة الميلاء بين يديه كالشمس الطالعة في كواء البيت تغنيه على عودها :

تبلت فؤادك في الظلام خريدة — تشفي الضجيع ببـارد بسام

وبين يديه عس(قدح كبير) فقال ما هذا يا ابا جعفر قال اقسمت عليك يا امير المؤمنين لتشربن منه فاذا عسل مجدوح بمسك وكافور فقال هذا طيب فما هذا الغناء قال هذا شعر حسان بن ثابت في الحرث بن هشام قال فهل تغني بغير هذا ، قال نعم بالشعر الذي يأتيك به الاعرابي الجافي الادفر القبيـح المنظر فيشافهك به فتعطيه عليه ، وآخذه انا فاختار محاسنه ورقيق كلامه فاعطيه هذه الحسنة الوجه اللينة اللمس الطيبة الريح فترتله بهذا الصوت الحسن ، قال فما تحريكك رأسك قال اريحية اجدها اذا سمعت الغناء لو سئلت عندها لاعطيت ، ولو لقيت لابليت ، فقال معاوية قبح الله قوماً عرضوني لك .

(انظر خبر غزوة بدر في كتاب الاغاني) وهذه رواية من روايات عديدة اخرى عن جعفر وولعه بالغناء .

خدمة الدولة مباشرة في الجهاد في الجبهات الخارجية وفي الحركات الداخلية وفي مختلف اعمال الدولة او مرابطين في المعسكرات والعواصم مهيئين للاستجابة الى الدعوة الى الخدمة المباشرة فلم يكن لهم وقت للانصراف الى ما انصرف اليه الشباب الحجازي .

ومما قد يخطر بالبال في تعليل كون كثرة شعراء الغزل الذين كان يغني المغنون بشعرهم ان الشعراء كانوا يضعون شعرهم خصيصاً للمغنين على النحو الذي نعرفه اليوم .

وواضح ان الكلام منصرف الى الغناء العربي وليس متصلا بالغناء في البلاد المفتوحة التي لا بد من انه كان له فيها حظ غير يسير بالالحان واللغات غير العربية لان هذه البلاد كانت تتمتع بقسط اوفر من الحضارة وحياة الترف التي يكون الغناء الراقي مـــن مستلزماتها او مظاهرها . وهذا مما جعل موالي اهل المدينة ومكة يقبلون عليه ويطعمون او يطورون به الغناء العربي .

والآلات الموسيقية التي اقتبسها الموالي وذكرت في الروايات هي الآلات الوترية التي عرفت بالعود والطنبور والبربط .

وقد حرص مؤلف كتاب الاغاني عـــلى وصف حركة الاصابع على الاوتار والآلات عند ذكر كل اغنية بسبيل وصف لحنها فيقول مثلا : (خفيف ثقيل مطلق في مجرى الوسطى) و (ثاني ثقيل بالوسطى) و(ثاني ثقيل بالخنصر والبنصر) و (رمل بالسبابة في مجرى الوسطى) و (خفيف رمل بالوسطى في الثاني والثالث والرابع) و(ثقيل اول في الاول والثاني)الخ.

والمستفاد من الروايات ان العادة العربية القديمـــة اي الايقاع بالقضيب والنقر بالدف والمشي به ظلت مستمرة الى جانب الآلات والالحان الحديثة المقتبسة .

ولقد ذكرت الروايات اسماء عدد كبير من النساء والرجال الذين اتخذوا الغناء مهنة لهم في المدينة ومكة في زمن الدولة الاموية ، ومن الذين ذكروا بالاضافة الى الخمسة المتقدمين السابق ذكرهم الغريض والدلال والهذلي والابجر واحمد النصيبي الذي وصف بأنه أول من

غنى على الطنبور وعبادل وابن عيـــاد وحكم الوادي وعمر الوادي والغزيل وابي سعيد وابن مشعث وابن جامع ونافع ويونس وبديح وابن مالك ومالك ابن السمح وابن عائشة . وجميلة وحبّابة وسّلامة وعقيلة وخليدة وربيحة وعزة الميلاء وقند ورحمة الله وهبة الله وعز وبلبلة وفرعة ولذة العيش والشماسية ، وبعض هؤلاء عاشوا الى زمن الدولة العباسية وغنوا فيهـا مثل مالك بن السمح وحكم الوادي وابن جامع ويونس . والاخير عرف بالـكاتب لأنـــه ألف كتاباً في الاغاني على ما جاء في اخباره في كتاب الاغاني .

ولقد كان بعض مالكي الاماء الجميلات الحسان الصوت يهتمون لتثقيف امائهن بالادب والشعر والغناء زيادة في المتعة والترف والاثارة او طلباً للكسب اذا كانوا تجاراً . وكان هذا مما يغلي اثمانهن ويحفز المترفين والميسورين على التنافس فيهن مما فيه صورة طريفة من صور الحياة والعهد والغناء .

وقبل قليل اوردنا خبر الجارية المغنية عند عبد الله بن جعفر التي استمع معاوية لغنائها ، واوردنا في سيرتي يزيد بن عبد الملك واخيه هشام خبر المحظيات الجميلات اللواتي كن عندهما والثمن الباهظ الذي اشترى به يزيد حبّابة وسّلامة الجميلتين الاديبتين المغنيتين .

وفي الاغاني قصص كثيرة عن الجواري الجميلات المثقفات المغنيات في قصور الخلفـــاء الامويين وابنائهم وقصور الموسرين والاسر الرفيعة من العرب في دمشق والحجاز والعراق.

ومما ذكره مؤلف الاغاني في اخبار ابن محرز انه رحل الى العراق بقصد الغناء فيه فلما نزل القادسية لقيه حنين المغني فسأله كم منتك نفسك من العراق فقال الف دينار . فقال له هذه خمسمائة دينار فخذها وانصرف واحلف ان لا تعود فأخذها وانصرف حيث تفيد الرواية ان الحركة الغنائية الحديثة اخذت تظهر خارج الحجاز ايضاً ، وقد وصف حنين هذا[1] بأنه كان شاعراً ومغنياً وكان نصرانياً

---

(١) انظر نبذة اخبار حنين في الاغاني ايضاً .

من اهل الحيرة وفحلا من فحول المغنين وله في الغناء صنعة فاضلة متقدمة ، وان هشام بن عبد الملك مر بالكوفة فوقف امامه ومعه عوده وزامر له يرافقه وعليه قلنسوة طويلة فغنى له هذا الصوت :

أمن سلمى بظهر الكوفة   الآيات والطلل
يلوح كما تلوح على   جفون الصيقل الخلل

او هذا الصوت في رواية اخرى :

صاح هل ابصرت بالخبتين   من اسماء نارا
موهناً شبت لعينيك   ولم توقد نهارا
كتلال البرق في المزن   اذا البرق استطارا
اذكرتني الوصل من سعدى   واياماً قصارا

وفي كتاب الاغاني روايات عديدة عن سماع خلفاء آخرين للمغنين في الحجاز اثناء رحلاتهم الى الحج وبنوع خاص يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، وعن احضارهم المغنين من الحجاز الى دمشق مما يدل على ان الحجاز ظلت صاحبة السبق والتفوق في مضمار الغناء .

ولقد روينا في سيرة هشام ما كان من تشدده على اهل اللهو ومصادرته لهم وروينا في سيرة سليمان ما كان من شدته على المغنين ، وروينا في سيرة يزيد بن الوليد ما كان من شدة تحذيره من الغناء ، فلعل ذلك اسباب او مظاهر لبقاء الغناء في الحجاز صاحب السبق والتفوق .

ولقد احتوى كتاب الاغاني مئات القصص عن المغنين ومجالس الغناء التي كانت تعقد في المدينة ومكة ومتنزهاتها ويشهدها الادباء والشعراء وابناء الاسر الرفيعة واحياناً الخلفاء وابناؤهم ، وبعض نساء الاسر الرفيعة المتأدبات المثقفات مما لا يتسع المقام لسرد الكثير منه ومما لا يمكن التعبير عن روعة صورته بالنزر اليسير ، وفيها المعجب المطرب من

الحيوية والظرف والطرافة والادب والذوق والترف مما يدل على ما بلغ اليه الغناء العربي والادب العربي في الحجاز بنوع خاص من شأو وما كانت عليه حياة شبابهم الموسرين نساء ورجالاً من ترف وهناء .

خ – البصرة والكوفة ودورهما في الحركة العلمية

إن كتب الادب القديمة تنوه بمدينتي البصرة والكوفة كمركزين من مراكز النشاط العلمي في القرنين الاول والثاني من الهجرة بحيث صار من المناسب كتابة هذه النبذة ملحقة بفصل الحركة العلمية .

وهاتان المدينتان انشئتا في سياق موجة الفتح الاولى في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ما ذكرناه في الجزء السابق فهما بلدتان عربيتان اسلاميتان خالصتان دون سائر المدن التي كانت في البلاد المفتوحة حيث كان سكانها خليطاً من عرب صرحاء وعرب غير صرحاء اي بقايا الموجات العربية القديمة من مسلمين وغير مسلمين من الامم الاخرى . وقد توطنهما طوائف من قبائل العرب المختلفة قحطانية وعدنانية ، ومع ذلك فقد توطن مع الزمن معهما طوائف اخرى من مسلمي اهل العراق وغير اهل العراق من غير العرب ايضاً ، ولقد لعبتا ادواراً هامة في الاحداث والتيارات السياسية التي جرت في عهد الدولة الاموية على ما ذكرناه في مناسبات عديدة سابقة ، بل لقد بدأتا تلعبان مثل هذه الادوار منذ خلافة عثمان ثم في خلافة علي رضي الله عنهما على ما ذكرناه في الجزء السابق .

ولقد توطن فيهما فيمن توطن بعض اصحاب رسول الله ﷺ ونشأ فيهما تدريجياً جماعات من القراء والفقهاء والمحدثين واللغويين فصارتا كما قلنا الى جانب كونهما مركزين هامين بل رئيسيين من مراكز النشاط العلمي العربي الاسلامي ، وصارت كل منهما تتميز بمذاهب واجتهادات خاصة من مذاهب اللغة والنحو والقراءات والفقه والحديث ، وينتسب الى كل منهما مدارس او مذاهب في كل من ذلك مع التنبيه على ان هذا قد تبلور وتركز

في عهد الدولة العباسية ، وممن توطن في البصرة وكان له اثر في حركتها العلمية الاسلامية من اصحاب رسول الله انس بن مالك وابو موسى الاشعري ، وممن توطن في الكوفة منهم وكان له نفس الاثر عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم ، ومن مشاهير علماء البصرة في عهد الدولة الاموية من التابعين الحسن البصري وعمرو بن عبيد وابن سيرين وواصل بن عطاء وكلهم من الموالي ، ومن مشاهير علماء الكوفة من التابعين سعيد بن جبير وعمرو بن شرحبيل وعلقمة ومسروق وعبيدة والحارث الخ .

ولقد كان يقام في كل منهما اسواق ادبية كسوق عكاظ في الجاهلية فيفد اليها الشعراء والخطباء والادباء ويخطبون ويتناشدون بل ويتلاحون ويتهاجون على مشهد من الملأ . وصار كل من الكوفيين والبصريين يتعصبون لمدينتهم ويغمزون بالاخرى ، وكانت السمة المميزة للبصرة انها اعرف باللغة والأدب والسمة المميزة للكوفة هي الفنون الشعرية وروايتها . وساهم في كل من ذلك افراد من المسلمين غير العرب الذين توطنوا في المدينتين واندمجوا في مختلف أحداثها وسماتها السياسية والعلمية . ويكثر في كتب الادب ذكر المربد في البصرة الذي كان على ما يبدو ساحة في الضاحية يقام فيها الندوات الادبية والشعرية حتى ليمكن ان يقال انه كان المكان المفضل لها [1] .

---

(١) في الاغاني قصص كثيرة عن الندوات الشعرية في المربد نختار منها واحدة طريفة رويت في اخبار الراعي في المجلد العشرين حيث روي ان هذا الشاعر الذي كان من فحول الشعراء يفضل الفرزدق على جرير فكلمه جرير في ذلك فقوبل منه ومن ابنه مقابلة مهينة اهاجته . فسهر ليلة في حالة هياج واضطراب حتى كان متعرياً من ثيابه يهمهم كالمجنون فنظم قصيدة هجاء مقذعة في الراعي في ثمانين بيتاً كان منها البيت المشهور :

فغض الطرف انك من نمير   فلا كعباً بلغت ولا كلابا

الذي يروى أنه حينما عن له اخذ يحبو ويقفز ويقول عضضته والله ، اخزيته والله ، فضحته والله . ثم اصبح فدعا بدهن فادهن واصلح وجهه ورجل شعره ، وامر غلامه فأسرج له حصاناً ثم قصد المربد حين عرف ان الناس جلسوا في مجالسهم فيه ، وكان يعرف مجلس الفرزدق والراعي فقصد مجلسهم فوقف عليهم دون ان يسلم وقال يا غلام قل لعبيد الراعي ابعثك نسوتك لتسكبهن المال بالعراق والذي نفس جرير بيده لتؤوبن اليهن بمير يسوءهن ولا يسرهن ثم اندفع فانشد القصيدة فنكس الفرزدق رأسه واطرق الراعي حتى ان لو انشقت الارض لساخ فيها ثم وثب الى بغلته فركبها بشر وعر وتفرق اهل المجلس ذاهلين .

د – الحفظ والرواية

ونرى قبل ان نختتم هذا الفصل ان ننوه بأمر على جانب عظيم من الاهمية في الحركة العلمية على اختلاف مجالاتها في الصدر الاسلامي الاول وهو الحفظ والرواية . فلقد كان نطاق التدوين في هذا الصدر ضيقاً على كل حال . ولقد احتوت كتب الحديث والتفسير والتاريخ والفقه والادب ثروة هائلة من كل موضوع من هذه المواضيع معزوة الى الحفظة والرواة ، ويلمح في هذه الكتب اسماء الرواة ، تتكرر بأعيانها كثيراً ، وقد دأب مؤلفوها على عنعنة مروياتهم عن راو عن راو الى مصدر الرواية او سامعها في عصرها بقصد التوثيق ودفع التهمة حيث يدل هذا وذاك على انه كان في كل جيل من الاجيال التي سبقت عهد التدوين الواسع أي في القرنين الهجريين الاول والثاني جماعة دأبها أو هوايتها الحفظ والرواية . وهناك شخصية ادبية مشهورة يحمل لقب (الراوية) هو حماد الراوية الذي عاش في الدولتين الاموية والعباسية بما فيه دلالة على ما نقول وإن كان هذا قد اختص برواية الشعر . وقد روي انه كان يحفظ آلاف القصائد منه حتى لقد اتهم من قبل بعض أدباء وعلماء العهد العباسي بالكذب والاختراع لأن ما كان يدعيه كان عجيباً لا يكاد ان يصدق [1] . وإلى هذه الجماعة يعزى الفضل في ما وصل الى عهد التدوين

---

(١) يروي مؤلف الاغاني ان حمادا وفد على الوليد بن يزيد فسأله بم استحققت لقب الرواية فقال له بأني اروي لكل شاعر تعرفه يا امير المؤمنين او سمعت به ثم اروي لاكثر منهم ممن تعرف انك لم تعرفه ولم تسمع به ثم لا انشد شعراً لقديم ولا محدث الا ميزت القديم منه من المحدث فقال ان هذا لعلم وابيك كبير ، ثم سأله عن مقدار ما يحفظ من الشعر قال كثير ، ولكني انشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الاسلام فقال له سأمتحنك في هذا وامره بالانشاد فأنشده حتى ضجر الوليد فوكل به من استحلفه إن يصدقه ويستوفي عليه فأنشده الفين وتسعمائة قصيدة فأمر له الوليد بمئة الف درهم . (انظر اخبار حماد في المجلد الخامس من كتاب الاغاني) ويذهب الذين يقولون بكذب حماد واختراعه الى ان الرواية كانت في زمنه اروج سوقاً فكان ينظم الشعر ويعزوه الى شعراء جاهليين فأفسد بذلك الشعر الجاهلي ، ومع ما في هذا القول من احتمال الصواب والوجاهة فانه ليس من شأنه ان ينفي لقب الرواية عن الرجل ، وفيه دلالة على ما كان للرواية والحفظ من اهمية حافزة .

الواسع من تلك الثروة الهائلة المتنوعة .

ومهما يكن من حقيقة لاشك فيها وهي تسرب كثير من الاختراع والتحريف والمبالغة والخيال والتلفيق بقصد وبغير قصد الى المرويات المتداولة على الالسن الى عهد التدوين فانه لا يجوز في اعتقادنا ان يشك في ان كثيراً منها يتسم بسمة الصحة والصدق .

١٦ـ الزراعة والتجارة والصناعة

•

١ - الزراعة

كانت الصورة العامة في زمن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين من الزراعة في جزيرة العرب هي ما كانت عليه قبل الاسلام اجمالا مما شرحناه في الجزء الخامس شرحاً يغني عن التكرار مع شيء من التغيير نتيجة لانتقال مزارع اليهود وبساتينهم في ضواحي المدينة والقرى القريبة لها الى حوزة المسلمين واشتغال العرب في استغلالها بعد اجلاء من بقي من اليهود عنها في زمن عمر بن الخطاب ، على ما رويناه في الجزئين السادس والسابع . وهناك مأثورات تفيد ان بعض اصحاب رسول الله وابنائهم وبعض خلفاء بني امية وابنائهم اقتنوا في المدينة ومكة والطائف مزارع وبساتين كانت تدر عليهم ايرادات كبيرة .

اما خارج الجزيرة فان الذين خرجوا منها من العرب كانوا مجندين ولم يشتغلوا في استثمار الارض بل لقد منعوا من ذلك في زمن عمر . وابقيت الاراضي الزراعية في البلاد المفتوحة في ايدي اهلها يستثمرونها ويدفعون خراجها الى بيت المال ، مع التنبيه على ان هناك مأثورات تفيد وقوع بعض التطورات حيث روي ان عثمان بن عفان اقطع بعض العرب بعض اراض في ما وراء النهر نزح عنها اهلها فصاروا يستثمرونها وان بعض الخلفاء وابنائهم والولاة وابنائهم وغيرهم من رجالات العرب اقتنوا في الشام والعراق مزارع وبساتين كانت تدر عليهم ايرادات ضخمة . غير ان الذي نرجحه ان العاملين في هذه

المزارع والبساتين كانوا من اهل البلاد المفتوحة الذين اسلموا او الذين بقوا في الذمة .

والى جانب هذه الصورة من الحالة الزراعية العربية فهناك صورة تدل على ان الدولة كانت تعنى عناية كبيرة بتحسين وسائل ونمو الزراعة ، حيث قال الاصطخري ان بعض الرواة ذكروا انه كان في زمن ولاية ابن ابي برده للبصرة سنة ١١٨ (في زمن هشام) في منطقة البصرة (١٢٠٠٠٠) نهراً يجري فيها الزوارق وانه انكر ذلك حتى زار البصرة فرأى في رمية سهم عدداً كبيراً من الانهار الصغيرة التي تجري فيها زوارق صغيرة فصدقماقراه[1] . والمتبادر ان هذه الانهار هي اقنية وترع لتنظيم الري ، وان هذه الصورة ليست فريدة . وانها كانت متكررة بالنسبة لمصر والجزيرة الفراتية وغيرها بما يتلاءم مع ذلك من البلاد . وينسب الى يزيد بن معاوية نهر من الانهر الدمشقية التي نظمت لري بساتين الغوطة . والمتبادر ان النهر قد شق في زمن يزيد للغرض نفسه فنسب اليه .

ب – الصناعة والتجارة

وما قلناه عن الزراعة بالنسبة للعرب يصح قوله بالنسبة للصناعة والتجارة ، فقد كان للعرب في جزيرتهم قبل الاسلام بعض الصناعات التي تسد حاجاتهم المحلية كما انهم كان لهم نشاط تجاري غير يسير في الجزيرة وخارجها على ما شرحناه في الجزء الخامس . والمتبادر انهم احتفظوا بهذه الصورة في زمن النبي والخلفاء الراشدين والدولة الاموية دون ان يطرأ عليها تغيير كبير، اما خارج الجزيرة فقد ظل العرب الذين خرجوا من الجزيرة في موجات الفتح واستقروا في البلاد المفتوحة مجندين لهم اعطياتهم المضمونة فلم يشتغلوا في تجارة ولا صناعة وظل هذا المجال لاهل البلاد من مسلمين وموال ومن ذميين فكانت الدولة والعرب يسدون حاجاتهم من ذلك بواسطة هؤلاء ، وقد كان لليهود في

---

(١) انظر تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ١٠٠ .

مصر وبلاد الشام جاليات نشيطة في الاعمال الصناعية والتجارية على ما تفيده المأثورات .
ولقد كان التجار من الموالي والذميين يسيرون القوافل التجارية بين مختلف اقطار الدولة الواسعة دونما قيود وشروط ويتلقون فيها السلع المتنوعة مـــن غلات الارض والمصنوعات حسب حاجة الاقطار . ولقد ذكرنا في سيرة عمر بن الخطّاب ان بعض اهل البلاد المفتوحة كانوا يتاجرون مـــع البلاد المجاورة التي كانت توصف بدار الحرب فيؤخـــذ منهم رسوم وان اهل هذه البلاد طلبوا من عمر ان يأذن لهم بالمتاجرة مع البلاد الاسلامية مقابل رسوم مماثلة فأذن لهم واستقر الامر على ان يؤخذ منهم عشر قيمة السلع التي يدخلونها الى بـــلاد الاسلام وأن يؤخذ نصف العشر اذا كان التاجر الذي يأتي بالسلع من دار الحرب ذميـــاً وربـــع العشر - وهذا معادل لقيمة الزكاة -- اذا كان التاجر مسلماً والمأثورات تفيد ان هذه الحالة استمرت في زمن الدولة الاموية .

١٧ — البناء

•

ظل العرب في جزيرتهم على الطريقة التي كانوا عليها قبل الاسلام في البنــــاء والتي كانت اساليب متنوعة . منها ما كان طبقات ومنها ما كان مساحات مسورة مكشوفة على اطرافها غرف .

وحينما استقروا في البلاد المفتوحة بعد الاسلام اخذوا يطعمون اساليبهم باسلوب البـلاد التي اقاموا فيها . ثم صار لأسلوبهم طابع خاص يصح ان يسمى الطابع العربي حيث صار يمتاز بالاعمدة والقباب والمنحنيات والأقواس ، وتزين الأبواب والجدران والشرفات بنقش آيات قرآنية زخرفية وان كان من الحق ان يقال ان ذلك قد تم تدريجياً وامتد في التدرج الى ما بعد الدولة الاموية ، ومما وصف به قصر الخلافة في دمشق [١] انه كان فيه النافورات والمياه الجارية والحدائق الغناء باشجارها الوارفة .

وقد روي عن علوية المغني [٢] انه دخل مع المأمون حينما زار دمشق وفي سياق طوافـه معه على قصور بني امية شاهدصحناً من صحونهم فاذا هو مفروش بالرخام الأخضر كله وفيه بركة ماء يدخلها ويخرج منها من عين تصب اليها وفي البركة سمك ، وبين يديها بستان على

---

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي لسيد امير علي ترجمة رياض رأفة ص ١٦٨ .

(٢) انظر اخبار علوية المغني في كتاب الاغاني .

اربعة زواياه اربع سروات كأنها قصت بقراض من التفافها فكانت أحسن ما رأى من السروات قط قداً وقدراً . وهذه الصوره مألوفة الى اليوم في قصور دمشق الكبيرة بل وفي بيوتها العادية حيث يمكن القول ان هذا الطراز كان امتداداً لطراز البيوت في زمن الامويين .
وكان اصحاب اليسار يزينون بيوتهم بالزخارف والفسيفساء على ماتفيده رواية تذكر ان الحر بن يوسف والي الموصل في عهد هشام شيد داراً من الرخام عرفت بالمنقوشة بسبب ما كان فيها من النقوش البديعة والفصوص الملونة [١] ، وكانوا يجصصون حيطان البيوت وسقوفها بالكلس الابيض ويدهنونها احياناً بطلاء اخضر على ما تفيده رواية معزوة الى يزيد بن المهلب جاء فيها انه دخل دار ولي عهد سليمان بن عبد الملك فرأى جدرانها وسقفها مجصصة وانه دخل داراً اخرى فرأى جدرانها وسقفها خضراء اللون [٢] .

ولقد كان الخلفاء الامويون وابناؤهم ينتبذون في الاماكن الخلوية في شمال سورية وجنوبها طلباً للانتجاع والاستجمام فابتنوا قصوراً كثيرة [٣] منها قصور ام قر والمشتى والزيزاء والقدين والازرق والاغدف والقسطل والابيض وعمرة في الانحاء الجنوبية والزيتونة والرصافة ودابق والجابية وحوارين وبطنان حبيب في الانحاء الشمالية ، وبعض هذه القصور قائم ، وبعضها اطلال او خرائب ، وبعضها انطمر ثم كشف عنه ، واكثرها على الطراز الرومي او الفارسي المطعم ان صح التعبير بالطابع العربي الجديد ، ومن القصور التي كانت مطمورة وكشف عنها قصر عمرة على الشاطيء الشمالي من البحر الميت ، ويتفق الاثريون على انه من عمل الوليد بن عبد الملك ، ويجمع القصر بين مزايا الصروح والحصون ، وقد شوهد على جدرانه نقوش بجمالها لم يحفظ مثلها في صقيع آخر من اصقاع الشام ، تمثل

---

(١) انظر ابن الاثير ج ٥ ص ٤٩ —

(٢) تاريخ الاسلام السياسي لحسن ابراهيم ج ٢ ص ٤١٥ .

(٣) خطط الشام للكرد علي ج ٥ ص ٢٨٢ .

مشاهد متنوعة ، مثل مشاهد العاب الجريد ، ومشاهد صيد انواع الطيور ، ومشاهد صيد في البحر،ولوحات تمثل صناعات مختلفة، وصوراً رمزية تمثل ادوارالحياة في البادية وبعض قصص تاريخيــة وشعرية وفلسفية ورسوم منطقة الفروج ، ورجالا ونساء وثماراً وطيوراً من اطيار البادية وامرأة عريانة محلاة باللؤلؤ . وخليفة جالساً على عرشه ومن حوله اعداء الاسلام [1] .

هذا ويحسن أن يشار في هذا المقام الى المساجد العظيمة التي انشأها الامويون وبخاصة مساجد القدس ودمشق والمدينة على ما ذكرناه ووصفناه في سيرتي عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك حيث كان يتمثل فيها عظمة العهد والطابع البنائي العربي المتطور عن الطراز الرومي والفارسي .

---

(١) خطط الشام للكرد علي ج٥ ص ٢٨١ ولعل اسم عمرة مختزل من عمورة وهي احدى المدينتين المدمرتين بالعذاب الرباني في عهد لوط عليه السلام على ما جاء في سفر التكوين الاصحاح (١٩) .

فهرست مفصل لمواد الجزء

•

---

(١) ذكرنا في سياق سيرة كل خليفة ما هو مأثور عن سنه وصفته ونشأته وطراز حياته واخلاقه مميزاته وشعره واقواله وخطبه وكتبه ووصاياه وتنظيماته ومنشاته ومعالجاته لمختلف شؤون الحكم . والاحداث الشخصية والعامة التي جرت في عهده بينه وبين عماله وقواده وغيرهم والتي لم نوردها في نبذ اخرى ، واستطرادات الى ذكر احداث واشخاص آخرين متصلين بها ، وتمحيصات وتعليقات متنوعة في صدد ما روي عنه او قيل فيه .

(١–٢) في هاتين النبذتين تفصيلات وجيزة ولكن شافية في مختلف المراحل والصور والاحداث والاسماء الاعلام .

(١) في نبذ هذا الفصل وتمهيده دراسات وتفصيلات وجيزة ولكن شافية في مختلف الاحداث والمراحل والصور والاسماء والاعلام وتمحيصات للروايات المتناقضة ووضع الامور في نصابها الحق حسب مــا ادى اليه اجتهادنا وفي نبذة الخوارج خاصة عرض لنظرية الخوارج ومقالاتهم وفروعهم وتنويه بما في هذه الحركة من غرابة وخطورة بالغتين .

(١) في هذه النبذة صور عما كان عليه العرب من عصبية عنصرية واعتزاز قومي .

(٢) في هذه النبذة تمحيصات وتعليقات في صدد ما روي من سلوك واعمال الدولة ازاء الذميين مسألة الجزية .